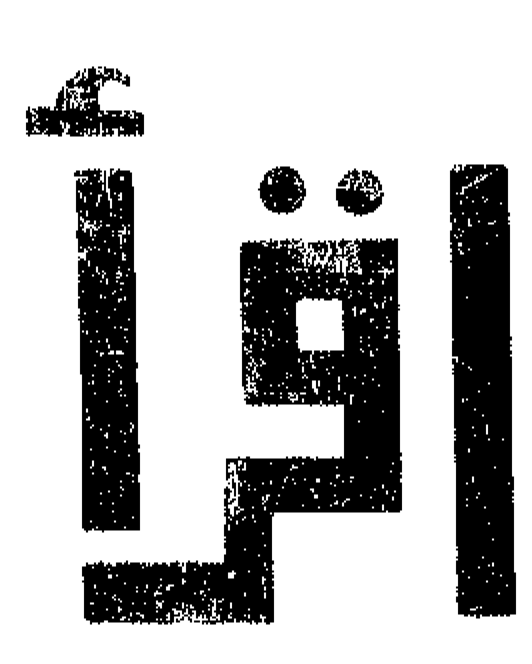
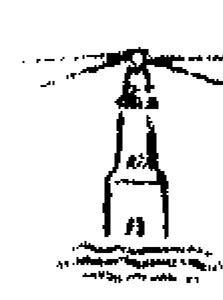

Bibliotheca Alexandrina
0137926

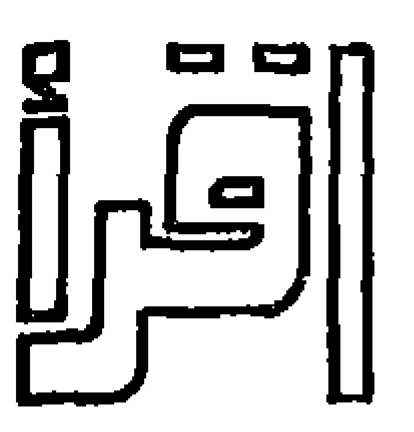


أحمد حسن شنن
المحامي

عظمة المحاماة



دار المعارف



[٥٦٦]

عظمة المحاماة



المؤلف فى سطور

- أحمد حسن شنن المحامى بالنقض.
- ولد فى حلوان الحمامات فى ١٨ يوليو ١٩٣١.
- حصل على ليسانس الحقوق فى جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) فى مايو ١٩٥٢.
- عمل بالمحاماة منذ تخرجه وحتى الآن، لم يغادرها يومًا واحدًا مهما كانت الإغراءات.
- انتخب عضوًا بمجلس نقابة المحامين الفرعية بالقاهرة فى يونيو ١٩٦١، ثم أصبح أمينًا للصندوق ثم سكرتيرًا عاما لها.
- انتخب نقيبًا للمحامين، بالقاهرة فى يونيو ١٩٧٦ وظل نقيبًا للمحامين بالقاهرة خمسة عشر عاما. حتى ديسمبر ١٩٩٠.
- من المؤسسين للحزب الوطنى الديمقراطى، وهو الأمين المساعد لأمانة العاصمة. وعضو اللجنة التشريعية وعضو أمانة المهنيين.
- رئيس الجمعية القانونية المصرية. تحت التأسيس
- عضو نادى روتارى القاهرة.
- متزوج وله بنت وولد.

أحمد حسن شنن
المحامى

عظمة المحاماة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

إهـــداء

○ لكل كتاب إهداء، ويرى كل كاتب أن يهدى مُؤلفه إلى من يرى أنه جدير بهذا الإهداء، وارتبط فى ذهن القراء، أن الإهداء يكون لمن عاون لإتمام العمل الفنى «المصنف» وهو ما جرى عليه معظم الكتاب..

○ والرأى عندى أن الإهداء يكون لمن يرى الكاتب أنه أحق الناس فى أن يطلع على ما ورد به.

○ ولو أهديت كتابى هذا إلى من ساعدنى على إخراجه، فإننى أهديه للأستاذ إبراهيم سلطان المحامى، الذى نبتت فى ذهنه فكرة إخراج الكتاب، عندما كنا نتسامر على شاطئ العريش منذ سنوات، فكان يطلب منى أن أحكى له قصصًا من تجارب مرت علىّ، وأنا أباشر مهنة المحاماة، وسرعان ما تساءل: لم لا تُخْرِجُ هذه القصص، ليطلع عليها أبناء الشعب الذين لا يعلمون حكم القانون الصحيح فى كثير من

الأمور؟، بالرغم من أن القاعدة،هى ألا يعذر أحد بجهله بالقانون، وأثنى على أسلوبى فى الكتابة مشجعًا لى:.

- وسرعان ما وَجَدَتْ زوجتى أن ما أشار به الأستاذ إبراهيم سلطان لا يحتاج إلا إلى زيادة تشجيع، لكى تدفعنى إلى إخراج ما كنت دائمًا أتمناه وأسر به إليها، بأن أجعل انطباع العامة نحو عمل المحامى، مخالفًا لما يرونه فى الأفلام، ويتصورونه فى خيالهم، من أن المحامى هو الرجل الذى يجيد استعمال اللغة، ويسخر القانون للباطل والحق معًا، وحسب صالحه، بجوار هذا-أن أترك لأبنائى فى مهنة المحاماة، وهم الأساتذة الذين سيتحملون مسئولية استمرار عزتها وعظمتها - ما يهديهم إلى أداء الواجب، الذى ألقى على أكتافهم، إن كنت فيما كتبت، هاديًا لهم فى ذلك..

- أقول،بعد أن أهديت الكتاب كما جرت العادة، أننى.. أرى أن الإهداء يجب أن يكون لشعب مصر، محاولاً أن أضع مفهومًا صحيحًا للمحاماة، ولمسئولية المحامى، وأبرز عظمة المحاماة..

- أهدى كتابى هذا، إلى شباب المحامين الذين سيتولون حماية المهنة والعمل فيها وباسمها، عسى أن تكون نبراسًا لهم فى حياتهم الجديدة ليضيفوا دائمًا الجديد، وينقلوا القديم - ما حسن منه دون السيئ فيه - إلى جيل بعدهم..

- شكرًا لمن قبل الإهداء والحمد لله رب العالمين.

القاهرة فى أول يونيو ١٩٩١م.

المؤلف

تقديم

○ بخيرها - وفى خيرها - عشنا، ونعيش - مصر التى هى أمى، وأمك، أعطتنا، نحن أبناءها، وبذلت لنا العطاء، فإذا ما بلغنا عمرًا، يقرّبنا من اليوم المحتوم، نحس بديْن فى رقابنا نحو أمنا، مصر، وبالتالى فقد أصبح واجبًا علينا أن نرد الديْن، وكيف لنا أن نرده ؟ وليس فى إمكاننا أن نبذل مثل ما بذلت؟ وعلى ذلك، فإن أقل القليل، أن ننقل إلى جيل بعدنا ما اكتسبناه من خبرة، وما تعلمناه فى خيرها، لكى يستفيد، إن كانت هناك فائدة، ولكى يتعلم إن كان هناك علم، ولكى يكون جيلاً أحسن منا لها، فبهم سيصير الرغد، وبهم ستزداد قوة - وتظل كما كانت مصر الفراعنة، ومصر العصر الحديث..

○ لذلك فقد وجدت واجبًا علىّ أن أكتب سدادًا لجزء يسير من الديْن الذى فى عنقى نحو مصر والمحاماة، ولكى أحثّ زملائى الذين بلغوا سنى أن يقتدوا بى ولكل منهم تجربة، وخبرة - هى يقينا ليست لى -

وبالتالى فلا يضنوا بها على أبناء مصر، أولادهم..

- وكانت خبرتى النقابية هى صاحبة، أكبر قوة دافعة لكى أحقق هذا الحلم: «كتابة كتاب». فقد ظننت أنه أمر يسير، خاصة وأنى أكتب فى المحاماة وأكتب فى الأدب، ولكنى وجدت أنه عبء ثقيل، عندما بدأت «أكتب كتاب». والذى بين اليدين الآن، هو جزء مما كتبت، لأننى حذفت، وحذفت الكثير حتى لا أقع فى خطأ يحاسبنى عليه التاريخ، فكانت «عظمة المحاماة».. هى نتاج «حلاوة المحاماة» وهى حصيلة «تقاليد المحاماة» وهى فى النهاية بيان «لفن المحاماة».

- وحتى لا تكون القراءة مملة - خاصة والقانون فرع من الفروع الجادة الجامدة، فإننى حرصت أن أضع بجوار التقليد، تجربة وقصة، وجدت فيها من الطرافة ما قد يجذب القارئ، ليقرأ تقليدًا، نرسخه لأبنائنا شباب المحامين يحملونه على أكتافهم لينقلوه إلى جيل بعدهم..

- إن لم أوفق، فهى إرادة الله..

وإن وفقت فهو توفيقه بسبحانه والحمد لله من قبل ومن بعد.

القاهرة فى أول يونيو ١٩٩١م.

أحمد حسن شنن

المحامى بالنقض

والنقيب السابق لمحامى القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاماة.. وقار

«سمة المحاماة الأولى هى الوقار، فإن فقد المحامى وقاره، فقد موكله، وفقد قضيته، وفقد قاضيه، وفقد نفسه».

لدى الفرنسيين قاعدة هامة تتداولها الأجيال، تلك هى القاعدة التى تقول: إن الخالق سبحانه وتعالى يأمر من السماء وعلى عباده أن يطيعوه - أما المحامى - ودون مقارنة - فهو الذى يأمر موكلَه فى الأرض، الذى عليه أن يستجيب لما رآه محاميه..

ومن أجل هذا كان للمحامى وقار فى كل بلدان العالم - وقد وصل هذا الوقار فى بلد كإنجلترا إلى أن يلبس المحامى عند مرافعته أمام المحكمة زيًّا يعود بنا إلى القرون الوسطى، وقت أن كان الشعر المستعار عنوان الوقار - فنجد المحامى وهو يترافع، لا يجوز لإنسان أن يقاطعه - ونجد المنصة التى يعتليها القضاة، منصتة لما يقوله المحامى، أيًّا كان قدر كلامه من غزارة العلم أو ضآلته..

لذلك فقد كانت النصيحة الدائمة التى يعطيها المحامى لأبنائه من المحامين، سواء الذين يتمرنون بمكتبه، أو الذين يقابلهم فى قاعات المحاكم، أو فى غرف المحامين - أن يتسلح المحامى أولاً وأخيرًا بالوقار.

والمحامى الذى يفقد وقاره يفقد موكله ويفقد قضيته ويفقد نفسه..

لذلك فقد أرسى النقيب العظيم المرحوم الأستاذ مصطفى البرادعى قاعدة هامة فى مجال الوقار - وهو الذى قال إن المحامى عندما يطرب - والطرب هو قمة السعادة والسرور - لا يستطيع إلا أن يفعل هكذا - وكان يرفع يديه مرتعشتين وقارًا.. لكى يصفق تصفيقًا هادئًا لا يصدر منه إلا صوت هادئ وقور..

هكذا كانت المحاماة.. سمتها الأولى الوقار - فالمحامى يحافظ على وقاره بين أهله وأهل منطقته التى يقيم بها، أو بين المترددين على مكتبه، أو بين العاملين فيه كما يحافظ على وقاره فى دور المحاكم وأمام المحكمة عند المرافعة، وبعد المرافعة، وداخل قاعة الجلسة وخارجها - هذا الوقار يكسبه سموًّا ورفعة، فالذى يكون سببًا فى ضياع احترام المحامى وانفضاض موكليه عنه - فقده لوقاره -..

وقد ورد فى مختار الصحاح عن الوقار (بالفتح) أنه الحلم والرزانة وقد وقر الرجل وقارًا فهو وقور، ومنه قوله تعالى: ﴿وقرن فى بيوتكن﴾ (بالكسر).

وهو ما أراده السلف أن يكون عليه المحامى دائمًا، وفى أى مكان يرتاده حتى فى بيته، وبين أهل حيه..



النقيب العظيم محمد مصطفى البرادعى

●● على المحامى أن يتسلح أولا.. وأخيرا.. بالوقار..

.. زغرودة.. للأشغال الشاقة المؤبدة

«وفور النطق بالحكم هزت القاعة زغرودة
خيل لى مع سماعها أن الأمر أسيء فهمه...»

تداولت الصحف هذه الجريمة البشعة، التى راح ضحيتها شاب كان يقف فى متجره (صائغ) فى أول الصباح ينتظر رزقه، وإذ بالشيطان يزوره فى وقت غير لائق، لا يتردد فيه الزبائن عادة إلا أقل القليل..

وكان الشيطان متمثلاً فى مجندين يعمل والد أحدهما (صائغ) فى نفس المنطقة التى وقع بها الحادث المروع، ودخل المجندان متجر الصائغ الشاب وقاما بقتله ثم انصرفا وهربا بالسيارة التى كانت تنتظرهما والتى قادها أحدهما..

وكانت الشبهة فيمن يكون له خصومة مع القتيل، وفعلاً تم القبض على أحد الخصوم، الذى أنكر الواقعة، ولكى تأتى العناية الإلهية ليضبط أحد القاتلين فى معسكره أثناء عبوره فناء المعسكر حاملاً حقيبته، ليشتبه فيه الضابط قائد المعسكر، فيأمره بالوقوف ثم يسأله عن الموجود داخل الحقيبة، فيضطرب مما يجعل الضابط يصر على أن يتم تفتيش الحقيبة، فإذ به يجد بها أداة الجريمة (خنجر ومطواة قرن غزال) ويجد فيها أيضًا المصوغات المسروقة، كما يجد بها ملابس القتيل والبيجامة التى كان يلبسها القاتل لحظة اقترافه لجريمته، ويعترف القاتل بالجريمة ويرشد عن شريكه الذى يعترف هو أيضًا بالجريمة فور القبض عليه..

ونظرًا لأن المتهمين مجندان، فإن المحاكم العسكرية هى المختصة بنظر الجريمة، فقدم الاثنان إلى المحاكمة أمام المحكمة العسكرية العليا، ووكِّلْت من جانب والد أحد المتهمين، وباطلاعى وجدت أن الملف يحوى اعترافًا كاملًا وتمثيلًا للجريمة وكيف تمت؟ وكان ذلك أمام النيابة، مما خيل للبعض أنها مستحيلة، وهنا يأتى السؤال الذى يتردد على كثير من الألسنة، ويسأله عادة أبناؤنا الذين يتم تخرجهم حديثًا ويُقيَّدون فى الجدول كمحامين جدد..

كيف للمحامى - وهو يؤدى رسالة الحق - أن يقبل الوكالة فى قضية اعترف فيها القاتل بإثمه، والقتل أبشع الجرائم على الإطلاق - حرّمته الشرائع السماوية كلها - ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾..

والإجابة ليست عسيرة كما يظنْ البعض، فالقوانين كلها وفى كل أنحاء العالم توجب أن يكون لكل متهم بجناية مدافع يدافع عنه، وهو عندما يدافع عن متهم اعترف بجريمته، إنما يؤدى دورًا هامًا - لا ليقلب الحق باطلًا، أو يجعل الباطل حقًا وإنما يدرس الظروف التى تم فيها القتل، ويبسط هذه الظروف على المحكمة، حتى تصل إلى اتخاذ منهاج يتفق مع هذه الظروف التى قد تجعل العقوبة مخففة..

وفعلًا لقد كان الدفاع فى هذه التهمة مؤديًا واجبه على أكمل وجه، فأوضح أن المتهم عندما ارتكب جريمته، إنما ارتكبها لا بقصد السرقة - لأنه ترك الكثير من المصوغات، ولم يخطر فى ذهنه أن يحصل على كل المصوغات التى كانت معروضة بالمحل أو الموجودة بالخزينة التى كانت مفتوحة عند ارتكاب الفعل، وإنما أخذ بعضها وكان فى ذلك طائعًا وليس

مختارًا- لشريكه فى الجريمة الذى شاركه الإثم الشنيع وهو القتل..

وتبين لى من دراسة أحوال المتهم، أنه مصاب بمرض عقلى لا يصل به إلى درجة الجنون، وإنما هو نوع من الأمراض العصبية التى يفقد فيها الإنسان وعيه ولو للحظات أو دقائق يقوم فيها بإتيان الفعل المؤثم دون أن يكون قاصدًا إياه..

ولا شك لقد كان واجبا علىّ أن أعدّ العدة لأداء واجبى فى مثل هذه القضية الصعبة، فقرأت الكثير من الكتب التى صدرت حديثًا وتلك التى تخلد ذكرى مؤلفيها وهى المؤلفات القانونية القديمة، ووجدت أن المتهم مصاب بمرض عصبى، فطلبت انتداب الطب الشرعى للكشف عليه، وأجابتنى المحكمة إلى طلبى، فأحالته إلى مستشفى الأمراض العقلية التى استمر بها لمدة ٤٥ يومًا تحت المراقبة لبيان ما إذا كان المتهم مصابًا بمرض عقلى أم لا، وأتى تقرير الطبيب الشرعى مؤكِّدًا أنه غير مختل القوى العقلية وإنما هو يتصنع فى بعض الأوقات مرضًا عصبيًّا هو مرض الصرع..

وبعد مناقشة الخبير فى التقرير الذى قدمه، قمت بالدفاع عن المتهم بعد أن تبين لى أن حالته العصبية كانت هى السبب والدافع لارتكاب الإثم بل وفى اعتقادى أنها كانت السبب فى ضبطه، ومعه أدوات الجريمة، فقد لاذ المتهم بالصمت، منذ أن اعترف، ولم تصدر منه كلمة طوال جلسات المحكمة، وكان دائمًا فى صمته يؤكد ما انتهيت إليه من أنه عندما قتل لم يقتل لمجرد القتل، وإنما قتل فى لحظة ضعف، مساعدة لشريكه فى

ارتكاب الفعل المؤثم دون أن يدرى ودون أن يكون فى كامل ملكاته العقلية..

واستمرت المرافعة ثلاثة أيام متوالية، لُذْتُ فيها بالمراجع القانونية، وناقشت فيها تقرير الطبيب الشرعى، ثم حاولت إقناع المحكمة أن المتهم وقد ارتكب هذا الفعل الشنيع إنما يستحق القصاص، ولكن لا يمكن أن يتماثل مع ذلك الذى قتل بقصد السرقة أو بقصد تحقيق غرض كان ينتويه..

وعقب المرافعة – وبعد ثلاثة أيام – أعلنت المحكمة قرارها بحجز الدعوى للحكم وحجزت الدعوى فعلاً للحكم لمدة ثلاثة أسابيع، وكنت حريصًا أن أحضر جلسة النطق بالحكم لأطمئن على نتيجة الجهد الذى بذلته فى سبيل بيان وجه الحق أمام المحكمة..

وإذا بالمحكمة تنعقد، وينطق رئيسها بالحكم وهو معاقبة المتهم بالأشغال الشاقة المؤبدة وليس الإعدام، وفور النطق بالحكم، هزّت القاعة زغرودة خيِّل لى مع سماعها أن الأمر قد أسىء فهمه. وعند البحث تبين أن التى أطلقت الزغرودة هى أم المتهم، فلما أفهمتها أن الحكم ليس فى صالح ابنها، وإنما صدر عليه حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة، فإذا بها تصرخ أنها علمت فعلاً بأن الحكم هو السجن المؤبد، وهو ما كانت لا تتوقعه بعد اعتراف ابنها بجريمة القتل، التى تعلم جيدًا أن عقوبتها هى الإعدام، فإذا ما كان الحكم هو الأشغال الشاقة المؤبدة، فقد اطمأنت بأنها سوف ترى ابنها طوال فترة تنفيذ العقوبة، وهذا أمر جعلها تطلق زغرودتها لأن

الإعدام كان سيحرمها من رؤيته إلى الأبد..

وكانت هذه الزغرودة هى «الأتعاب» التى تقاضيتها عن الجهد الذى بذلته..

أنا بعيد عن الشللية

«.. أنا نقيب لكل المحامين ولست لهؤلاء
الذين انتخبونى فقط..»

كانت أول انتخابات تجرى بعد الثورة فى نقابة المحامين فى عام ١٩٥٨ وكنت مؤيدا لنقيب النقباء المرحوم محمد مصطفى البرادعى..

وكان رحمه الله يكره الشللية - فقد عرفناه منذ أول مرة انتخب فيها أبًا وأخًا لكل المحامين هؤلاء الذين انتخبوه والآخرين الذين لم ينتخبوه - وكان صاحب علم فضلاً عن التقاليد التى كان يؤمن ويعمل بها - رحمه الله -.

وبعد حوالى سنتين، مرضت، فذهبت إلى الطبيب وتقاضى منى مبلغ خمسة جنيهات، وكان هذا فى عام ١٩٦٠ ومبلغ خمسة جنيهات ليس بزهيد بالنسبة لشاب مثلى، وكان نظام العلاج فى النقابة يجعل المحامى صاحب حق فى أن يطالب بقيمة الكشف دون الأدوية - وتقدمت بطلب لصرف مبلغ الخمسة جنيهات التى هى حق لى..

وعرض الطلب على لجنة الصندوق، وكان المرحوم راغب حنا وكيل النقابة يجلس بجواره رحمه الله، فأخبره بأننى أطالب بقيمة الكشف الذى قمت بدفعه للطبيب فإذا به يأخذ الطلب وينظر فيه ثم يمزقه - فعاتبه المرحوم راغب حنا قائلاً: إنه كان عليه أن يرفضه ولا يمزقه، فأخبره رحمه الله بأنه لو سأل أحد عن الطلب فليخبره بأننى مزقته..



النقيب العظيم.. فى نهاية نضاله..

●● أنا نقيب لكل المحامين ولست لهؤلاء الذين انتخبونى فقط

وعندما ذهبت لاستلام الشيك بمبلغ الخمسة جنيهات حقى المقرر لى ولغيرى من المحامين، إذ بى أجد المفاجأة، ويخبرنى يوسف أفندى - السكرتير الإدارى للنقابة حينئذاك بأن أذهب إلى الأستاذ راغب حنا لكى يخبرنى بما تم لى بشأن طلبى، فلما ذهبت إليه أخبرنى بما حدث، ثم أردف وقال على كل فالنقيب موجود، اذهب لمقابلته..

ولما ذهبت لمقابلته رحمه الله عاتبًا لما حدث، قال لى إنك كنت معى أثناء الانتخابات الأخيرة التى تم انتخابى فيها نقيبًا للمحامين، وقد يرى البعض أن فى تقاضيك مبلغ الخمسة جنيهات التى هى حق لك، معنى آخر بأننى جاملتك من أموال النقابة، وهو أمر لا يسىء إلى أنا فقط وإنما يسىء إليك أنت أيضًا..

وعلى ذلك، فاعلم أننى مادمت نقيبًا، فلن يجاب لك مطلب من النقابة إلا تلك المطالب التى تتعلق بمباشرتك لمهنتك..

وقرر أن القاعدة التى نود أن نسير عليها ليس الآن فقط، بل لآخر الزمان إذا ما انتخبت نقيبًا، فأنا نقيب لكل المحامين ولست لهؤلاء الذين انتخبونى فقط..

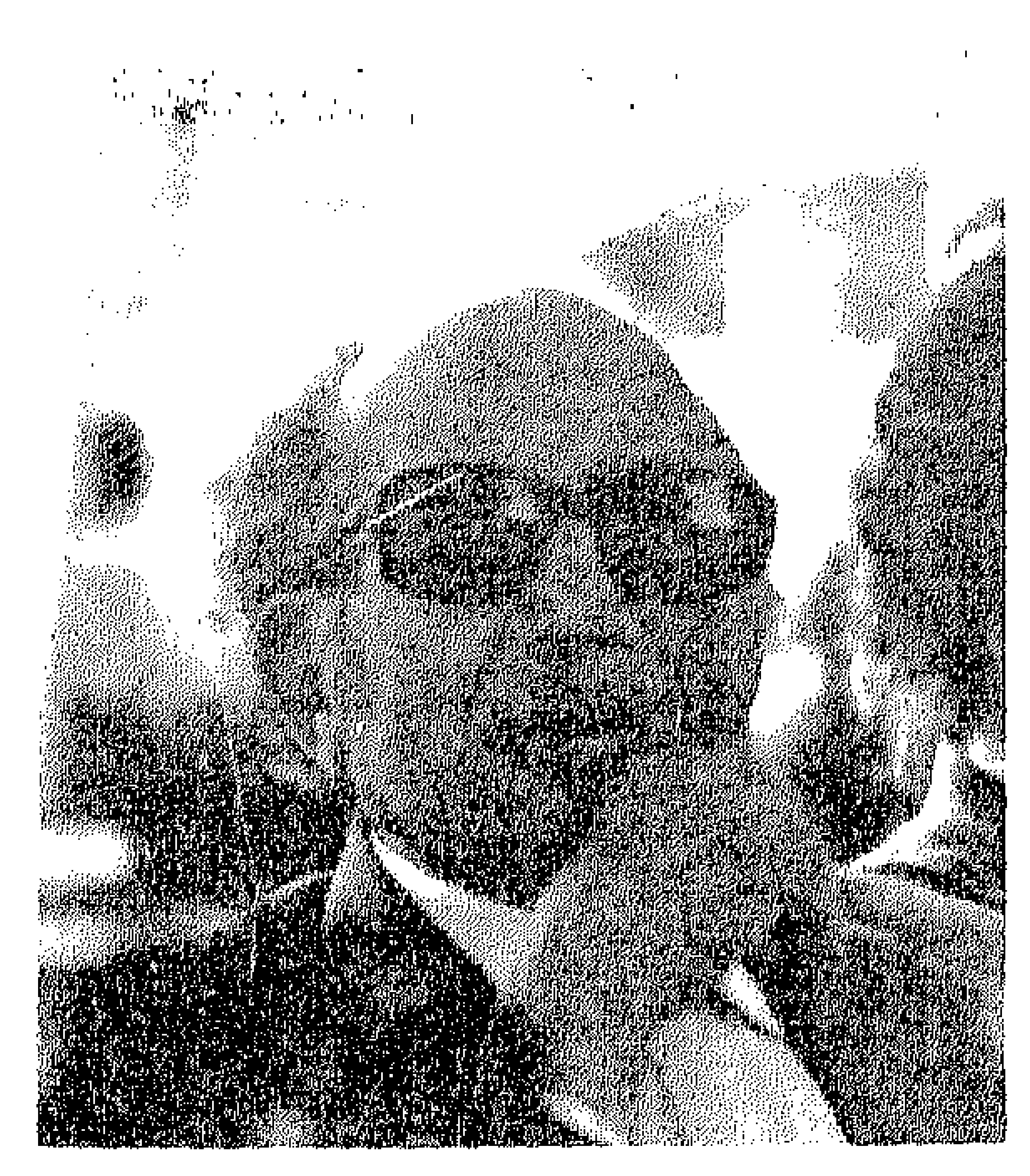
رحم الله البرادعى - فقد علمنا الكثير.

.. زقزقة العصافير..

«على المحامى مراجعة قضيته صباح يوم جلسة المرافعة فسيتذكر عند المرافعة كل الوقائع حتى الأرقام والتواريخ..»

كان النقيب البرادعى -رحمه الله- من النقباء الذين يؤدون العمل فيحسنون أداءه، وكنت ملازمًا له إثر انتخابه فى أول انتخابات جرت بعد الثورة عام ١٩٥٨ - وكنت ألاحظ أنه منذ الصباح الباكر وحتى المساء منشغلاً بأعماله وواجباته النقابية، فكان يتوجه بعد الانتهاء من حضور الجلسات إلى مبنى النقابة ليبقى فيه متحملاً مسئولياته، يعاونه فى أدائها علم من أعلام المحاماة لا يذكره بل لا يتذكره أحد، ذلك هو المرحوم الأستاذ راغب حنا المحامى، وفى الظهر - أو بعده بقليل - يتوجه إلى مكتبه القريب من مبنى النقابة بشارع عدلى ليقابل الموكلين والزملاء وكل أصحاب المصلحة - وكنت ألازمه فى سيارته «التونس» الصغيرة إلى ميدان الجلاء بالدقى، حيث كنت أغادر سيارته ويكمل هو مشواره حتى منزله الكائن فى ميدان الدقى - وكنت ألحظ أنه على هذا الحال كل يوم، فكنت أتعجب، متى إذن تأتى له الفرصة للكتابة؟ - وقد كان معروفًا عنه - رحمه الله - أنه ممن يكتبون فيحسنون الكتابة سواء ذلك فى المواقف القومية أو فى القضايا الإدارية أو المدنية..

ووجدت فى أحد الأيام أن لدى الجرأة أن أفاتحه فى هذا الموضوع، وقد ذكرت أننى قد وجدت لدى الجرأة، لأننا - أبناء جيلنا - كان الحديث



الأستاذ الكبير حسن الجداوى المحامى

●● كان - رحمه الله - من المحامين الذين لايأبهون بالرسميات ولكننى رغم ذلك وجدت نفسى ممتنعًا عن التدخين أمامه وفى حضوره..

إلى أحد أساتذتنا هو من الصعاب التى لا يقدم عليها الا كل جرىء - فقد كانت لهم المكانة الخاصة عندنا نحن شباب المحامين حينذاك، حتى أن الأمر قد وصل إلى أن الكثيرين منا كانوا لا يجرءون على التدخين أمام أساتذتهم - وكنت أنا أحدهم - فقد كان المرحوم الأستاذ/حسن الجداوى المحامى - وهو أحد اثنين من العمالقة الذين أمضيت لديهما فترة التمرين - كان رحمه الله من المحامين الذين لا يأبهون بالرسميات ولكننى رغم ذلك فقد وجدت نفسى ممتنعًا عن التدخين أمامه وفى حضوره، سواء فى ذلك أثناء تواجدى بالمكتب أو أثناء تواجدى فى المحكمة وهو معى..

أقول قد تجرأت فسألته - رحمه الله - عن الوقت الذى ينفرد فيه إلى نفسه ليكتب هذه الروائع التى عرفت عنه - فقال رحمه الله - إنه يستيقظ فى كل صباح ليصلى الفجر، ثم يجلس إلى مكتبه فى منزله، يقرأ ويكتب ما هو مطلوب منه، وكان رحمه الله - يصف هذا الوقت المبكر بأنه وقت لا تسمع فيه موتورًا أو أتوبيسًا أو صياحَ مشاة، أو مناداة بائع - فكل ما تسمعه فى الصباح الباكر، «زقزقة العصافير» وهى تتنقل بين أغصان الأشجار فرحة بأول ضوء فى النهار، وكان - رحمه الله - يؤكد لى أن الذهن يكون متقدًا، حتى يصف أن ما يمكن إنهاؤه فى ساعة أثناء النهار، لا يستغرق إلا نصف الوقت فى الصباح الباكر..

لهذا، فقد كان - رحمه الله - ينصح أبناءه من المحامين، أن يعيدوا قراءة ملف القضية التى سيترافعون فيها فى ذات صباح يوم جلسة المرافعة، وكان يقول إنه إذا فعل المحامى ذلك، فسيجد نفسه بعد ساعة أو

ساعتين يترافع فى قضية قرأها منذ ساعة أو ساعتين، فتكون الوقائع واضحة فى ذهنه، والأساس القانونى مازال طازجًا، حتى أن المحامى يستطيع أن يتذكر الأرقام والتواريخ فيذكرها صحيحة مطابقة لما هو ثابت فى الأوراق..

وعلى هذا سرت طوال عملى فى المحاماة - وعلى هذا أنصح أبنائى من الأجيال التى أتت بعدى لتعمل فى المهنة الشامخة..

الحق لا يؤثر فيه باطل

«إن المحامى مهما بلغت براعته.. فإنه لا يستطيع أن يقلب الحق باطلاً.. أو أن يجعل الباطل حقاً»

أتى إلى مكتبى ومعه سند إذنى (كمبيالة) بمبلغ سبعة آلاف جنيه يداين بها أحد عملائه التجار، وطلب منى اتخاذ الإجراءات القانونية لمطالبة مدينه بالمبلغ المذكور - وإذ كان الأمر بهذا ميسورًا فقد سارعت بإنذار على يد محضر نبهت فيه على المدين أن يقوم بسداد ماهو فى ذمته إلى موكلى فى خلال ثمانية أيام ثم أتبعت ذلك باتخاذ إجراءات استصدار أمر بالأداء، فتقدمت بطلب إلى رئيس المحكمة الابتدائية أرفقت به حافظة مستندات احتوت السند الإذنى موضوع المطالبة وقدم الأمر إلى رئيس المحكمة الذى أشر عليه بالرفض، وحدد جلسة لنظر الموضوع، وأمام المحكمة بعد أن قمنا بإعلان المدين - حضرت عن موكلى ولم يحضر المدين وإذ بى أفاجأ بأن رئيس المحكمة يخطرنى بأن السند الإذنى غير موجود ضمن أوراق الملف، فلما أكدت له أننى تقدمت به عندما قدمت الطلب باستصدار أمر الأداء - وجدت سكرتير الجلسة يفاجئنى ويفاجئ رئيس المحكمة بأن السند الإذنى موضوع المطالبة قد فقد ضمن أوراق سقطت من أحد السعاة أثناء نقلها من حجرة إلى حجرة أخرى بالمحكمة.

واقتضى الأمر أن تؤجل الدعوى حتى يعثر على السند المفقود -

فتقدمت بشكوى إلى رئيس المحكمة ضد سكرتير الجلسة والمسئول عن حفظ الأوراق (الأرشيف)، أخذت مجراها وحقق مع الكثيرين ولكن الشكوى لم تنته إلى تحديد المسئول وبالتالى لم تنته إلى العثور على السند موضوع المطالبة.

وازداد الأمر تعقيدًا بعدم حضور المدعى عليه وهو المدين بالسند ليقر بالدين ويغنى عن التمسك بالسند الإذنى أساس المطالبة مما جعل الدعوى يصدر فيها قرارات بالتأجيل إلى مدد طويلة زادت على السنة.

وفى إحدى الليالى بمكتبى دخل علىّ موكلى وأخبرنى بأنه تمكن من أن يعقد صلحًا مع مدينه، فقلت: إن الحل جاء من عند الله ووجدت حلاً للسند الإذنى الضائع - فلما سألته عن محضر الصلح الذى حرر بينه وبين مدينه أبرز لى عقدًا ثبت منه أنه قد تقاضى مبلغ خمسة آلاف جنيه وليس سبعة آلاف جنيه - فلما سألته عن السبب الذى جعله يقبل ذلك - أبدى بداءة أن السبب ضياع السند الإذنى فلما أصررت على أن أطالبه بالرجوع فى الصلح والمطالبة بالمبلغ كاملاً اعترف لى اعترافًا خطيرًا لم يكن يرد على بالى - كما أنه لن يرد فى بال القارئ..

لقد استدان المدين من موكلى مبلغ خمسة آلاف جنيه، ولكن موكلى اشترط على مدينه أن يدفع الخمسة آلاف سبعة آلاف جنيه - وقد قبل على مضض كتابة السند الإذنى لينقذ نفسه من ورطته - فلما حل ميعاد السند الإذنى وطالب موكلى بقيمته امتنع عن السداد مصرًا على ألا يرد إليه إلا ما قبضه منه وهو مبلغ الخمسة آلاف جنيه، الأمر الذى حدا بموكلى اللجوء إلى «لأطالب بقيمة الدين مخفيا عنى واقعة الفوائد

الربوية، فيحدث ما حدث ويضيع السند الإذنى - بتقصير أو بفعل غير مقصود - ليسلم موكلى بالحق ويقنع بما دفعه إلى التاجر، وهو مبلغ الخمسة آلاف جنيه وليأخذ درسًا.

«إذ الباطل لا يمكن أن ينقلب حقًّا.. وأن الحق لا يمكن أن يكون باطلًا. فالحق دائما هو الحق فلا يكون على يمينه إلا باطلا ولا يكون على يساره أيضًا إلا باطلًا.»

وكانت المفاجأة

«تشاءون ويشاء ربك»

كانت أحلى بنات عصرها - وعرف عنها بجوار جمالها، أنها صاحبة شخصية مؤثرة على كل من يتحدث إليها أو من يحظى برؤيتها، وتقدم إليها من يطلب الزواج، فوافق أهلها، فالعريس يشغل مركزًا مرموقًا، كما أنه من أكبر عائلات المنوفية، وبالتالى، فقد تم قبوله على الفور عريسًا لهذه العروس، وسرعان ما أنجبت منه بنتًا شاء الرحمن أن يختطفها ولم يمض على ولادتها عام واحد.

ووجدت السيدة الجليلة أن عليها أن تغير من حياتها، إلا أنه سرعان ما اختطف الموت زوجها لكى تصبح أرملة بعد زفافها بسنوات قليلة.

وكان أحد أبناء عمومتها مترقبًا ما يحدث، وسرعان ما تقدم ليتزوجها وليعوضها الخالق سبحانه وتعالى عما صادفته فى بدء حياتها، برجل أحبها، وأحبته، وأغدق عليها من كل ما حباه الله من مال وجاه ومركز، إلا أن العاطى غالبًا ما يضع علامة استفهام، يقع معها البشر فى حيرة وينسون أنه سبحانه وتعالى هو الذى يعلم وحده الحكمة فيما قد يهب أو قد يحرم - فقد كان ابن العم لا ينجب، وبالرغم من ذلك، فقد قبلت الأرملة الجميلة أن ترتبط به بعد أن مال له قلبها وتزوجته بالرغم من علمها أنه عقيم وأنها لن تنجب منه.

ومرت السنون ليصبح الزوج بعد الخمسين، وتصبح هى قبلها بسنوات

قليلة، ثم تقدم بهما العمر ويعبر الزوج سن الستين وهو فى كامل صحته إلا أنه عند مشارف سن الرابعة والستين يصاب بمرض السرطان فى كبده، فيقضى عليه بعد ثلاثة أشهر لتصبح الأرملة، أرملة مرة أخرى.

وحضر إلى مكتبى شقيق الزوج المتوفى، الذى أعطاه ربه ميراثًا يوازى ثلاثة أرباع التركة، وليترك للزوجة الربع الباقى - ولكن الشقيق عندما أتى إلى مكتبى ليوكلنى فى هذا النزاع، أخبرنى بأن الزوجة الأرملة أخبرته بأن التركة مدينة، وأن القاعدة ألا تركة إلا بعد سداد الديون، وأن عليه أن ينتظر حتى تسدد الديون التى على التركة - وأعلمته أنها دائنة للتركة بمبلغ مائة ألف جنيه بمقتضى سند إذنى، تبين أنه موثق أمام مأمورية الشهر العقارى بحلوان، وقد أثبت الزوج الراحل فى هذا السند الإذنى، أن لزوجته فى ذمته مائة ألف جنيه يتعهد بردها إليها فور طلبها - وكانت المائة ألف جنيه فى ذاك الحين تساوى ما يقرب المليون جنيه فى وقتنا الحالى، وكانت التركة تسدد الدين أو تكاد، بما مؤداه أن الشقيق سوف لا يرث من تركة شقيقه الغنى، إلا أن يترحم عليه أو يلعنه فى قبره.

وعند اطلاعى على السند الذى حرص الزوج أن يسجله أمام مأمورية الشهر العقارى بحلوان (وكانت حينذاك عبارة عن قسم فى قلم كتاب المحكمة) تبين لى أن الورقة موثق توقيع الزوج عليها منذ اثنى عشر عامًا قبل الوفاة، وبالتالى فلا يمكن أن ينال منها مطعن يرى صاحب المصلحة أن يطعن به، حتى يهدم قيمة السند، ولكن الشقيق يعلم جيدا أن شقيقه لم يكن معسرًا، كما أنه لم يكن تاجرًا، وإنما كان من أصحاب الأملاك. أو كما كان يطلق على أقرانه أنهم من الأعيان فى عهد ما قبل الثورة وبالتالى

فقد أخبرنى بأنه على يقين من أن هذا السند هو سند صورى، قصد به عمدًا حرمانه من ميراث أخيه، الميراث الذى شرعه الخالق سبحانه وتعالى ولم يأت هو به، وعند اطلاعى على السند بقلم كتاب المحكمة، لاحظت أن السند قد وقع عليه شاهدان تفحصت اسم كل منهما، فتبين لى أن التوقيعين مبهمان، وجرى فى خاطرى أن أستدعى هذين الشاهدين إلى المحكمة، لأناقشهما فى السند الذى وقعا عليه باعتبارهما شاهدين على صحة توقيع الزوج، ورأيت من واجبى كمحام، أن أنتقل بنفسى إلى قلم كتاب محكمة حلوان الجزئية لأطلع على دفتر التصديق على التوقيعات، المبين فيه عنوان كل شاهد من الشاهدين حتى أستطيع أن أعلنهما قانونًا بالحضور أمام المحكمة.

وبقلب يائس - وبالأمل الضعيف - ذهبت إلى قلم كتاب محكمة حلوان وطلبت الاطلاع على دفتر التصديقات فى العام الذى تم التصديق فيه على توقيع الزوج، فأكرمنى رئيس القلم وأحضر لى دفتر التصديقات لكى أطلع عليه، وأخرج عنوان الشاهدين فإذا بى أجد المفاجأة التى لم أكن أتوقعها، كما أنه لا يمكن أن يتوقعها أحد غيرى.. لقد كان السند موثقًا برقم ٦٥ وذكر أمامه اسم الدائن - وهى الزوجة - ثم اسم المدين - وهو الزوج - ثم قيمة المبلغ - وهو مائة ألف جنيه - ثم اسم الشاهدين وعنوان كل منهما - وخيل إلى فى بادئ الأمر أنه خلط وقعت فيه، ذلك أننى وجدت الورقة التى تم التصديق على التوقيع فيها قد تلتها ورقة أخرى،تم التصديق فيها على توقيع الزوجة - وعندما أمعنت النظر تبين لى أن الزوجين، وقد علما بأن الموت آت لا ريب فيه، فقد حرر كل

منهما للآخر سندًا إذنيا، أقر فيه كل منهما بأنه مدين للآخر بمبلغ مائة ألف جنيه، فإذا مات الزوج قبل الزوجة أظهرت الزوجة سندها، وإذا ماتت الزوجة قبل الزوج أظهر الزوج سنده..!! بمعنى أن الدين هو دين صورى لا يمثل الحقيقة، فاستحصلت على شهادة من دفتر التصديق على التوقيعات، تفيد أن الزوج قد وثق لزوجته سندًا بمبلغ مائة ألف جنيه، وأن الزوجة وثقت لزوجها سندًا بمبلغ مائة ألف جنيه - فى ذات التاريخ - أى أن كُلًّا منهما مدين للآخر بذات المبلغ، فلا يكون لكل من السندين أى قيمة - وقد فات على الزوج والزوجة - أن ورثة أحدهما سوف يكشف عن الورقة الموثقة بدفتر التصديق على التوقيعات بالمحكمة ليكتشف هذا.

وأصبح عنوان الشاهدين ولا قيمة له، فقد وضح أن السند الذى وقع عليه الزوج أمام الموثق والذى قدمته الزوجة الأرملة إلى المحكمة لإلزام الورثة به - قد أصبح هذا السند ولا قيمة له، بعد أن تبين أن هناك دينا آخر على الزوجة للزوج بذات المبلغ قيمة واستحقاقًا، وهكذا فقد علمتنى هذه التجربة، أن المحاماة فن، يتطلب من فنانيها، أن يبذلوا الجهد كل الجهد وأن يسلكوا كل الطرق المشروعة للتوصل إلى إظهار الحقيقة التى نعرف - نحن رجال القانون - أنها دائمًا هى التى تكون فى النهاية، وهو ما من أجله عرف بيننا بأن الحكم هو «عنوان الحقيقة» حتى يلغى أو يعدل.

لا يقف بجوار المتهم
إلا محاميه..!!

«كيف للمحامى أن يقبل الدفاع عن قاتل أو
سارق، بما يتنافى مع القيم؟»

من عظمة المحاماة.وشموخها أنك تجد متهمًا يتخلى عنه أهله وتتبرأ منه أسرته حتى أمه الذى هو فلذة كبدها - ولا يقف بجواره إلا محاميه..!!

فقد حدث أن تشاجر الأخ مع شقيقه بسبب اعتقاده بأنه على علاقة بمن أحبها، وعند الشجار احتد كل أخ على أخيه، وتطور الأمر بتهور أحدهما وطعن الآخر بسكين فى مقتل، فأودى بحياته - وصرخ الأخ، وبكى متعجبًا لما حدث ونادمًا على تهوره ولكن روح أخيه صعدت إلى ربها وأصبح هو قاتلاً كما قتل هابيل أخاه قابيل عند بدء الخليقة.

وقدم الشاب إلى محكمة الجنايات وطالبت النيابة بإعدامه، وتداولت الصحف الحدث وكتبت المقالات تهاجم هذا الشاب الذى أهدر القيم، وقطع روابط الأسرة وتغاضى عن صلة الدم ليرتكب أبشع الجرائم فى حق أخيه، الذى هو ابن أمه وأبيه - ووجدت محكمة الجنايات أن المتهم يقف أمامها بلا مدافع، فأجلت الدعوى حتى تنتدب نقابة المحامين مدافعًا عنه حسبما يوجب القانون - وتبين للمحامى المنتدب أن الأمر يوجب الاتصال بذويه حتى يستفسر منهم عن بعض النقاط التى تخص تاريخ المتهم وحياته، ليصل إلى دفاع يخفض مدة العقوبة، بعد أن وجد أن تبرئته

أمر مستحيل لا يرضاه المحامى ذاته، لأن الفعل الذى أقدم عليه المتهم هو أبشع الأفعال جميعها.

وكان وجه العجب أن أهل المتهم كلهم، قد صدوا الأبواب فى وجه المحامى معلنين أنهم قد تبرءوا منه لعظم الفعل الذى أقدم عليه، فتبادر إلى ذهن المحامى المدافع أن أمه التى ولدته ستكون بجواره فى محنة يجتازها، فتقول الحقيقة وتذكر له بعض الأمور لتخفف من الإثم العظيم الذى ارتكبه ابنها - ولكنه وجد الأم مصرة على أنها تتبرأ منه إلى يوم القيامة - كما ذكرت على لسانها هذا القول الذى يتبادله العامة - ووجد المحامى نفسه وحيدًا بجوار المتهم يؤدى واجبه معلنًا للناس جميعًا أن هذه هى عظمة المحاماة - عندما يقف المحامى بجوار المتهم مدافعًا عنه أمام القضاء بالرغم من أن كل من حوله - حتى أقاربه - حتى أمه التى ولدته - قد ابتعدوا عنه معلنين تبرأهم منه لارتكابه الفعل الذى أجمعوا - ونجمع معهم - على أنه إثم لا يغتفر.

وإن كانت المحكمة لم تأخذ بكل أوجه الدفاع التى أبداها المحامى المنتدب من النقابة إلا أنها أخذت بالبعض الآخر، فكان حكمها على الشاب بالأشغال الشاقة المؤبدة بعد أن تبين لها من ظروف الحادث، أنه لم يكن هناك سبق إصرار أو ترصد، وأن الجريمة تمت بانفعال، وبعد أن تعدى المجنى عليه على أخيه بالسب والقذف والضرب، مما أوصل المتهم إلى حالة عصبية دفعته إلى التقاط سكين عل المنضدة التى كانت بالحجرة التى كان فيها الخلف والشجار، فطعن شقيقه غير قاصد قتله، ولكن الطعنة جاءت فى مقتل مما أدى إلى وفاته.

وإن كنت قد حرصت على ذكر هذه الواقعة - فالذى يجب أن يكون فى الأذهان أننى ذكرتها لأبين سمو المهنة وشموخها - ولا أقولها دفاعًا عن الإثم الذى ارتكبه المتهم - فالذى لاشك فيه أن هذا الذى أقدم عليه المتهم لا يمكن تبريره بأى مبرر أيًّا كان السبب الذى دفعه إلى الإقدام عليه - ولكنها أيضًا قصة تبين أن للقتل فى بعض الأحيان إنما يكون بدافع ودون روية ونتيجة تهور، وتلك كلها أمور يبينها المحامى أمام المحكمة، لتخفف الحكم على المتهم إن كان لهذا التخفيف وجه ترى المحكمة أنها يجب عليها أن تراعيه عند تقدير العقوبة.

وفى هذا رد على سؤال يحير الكثير من أبناء المهنة الجدد، عندما يتساءلون، كيف للمحامى أن يقبل الدفاع عن قاتل أو سارق، لأن هذا يتنافى مع القيم، ولكن الإجابة هنا واضحة - فإن المحامى المدافع هنا، يكون دوره العمل على تخفيف العقوبة، إن كان لهذا التخفيف وجه.. أو أوجه ترى المحكمة الأخذ بها.. أو لا ترى..

المحامي.. مهندسا..

«قد يجد المحامى نفسه مضطرا أن يدرس دقائق وتفاصيل باقى المهن.. لكى يدافع عن الحق..».

كان وجه العجب مرتسما على أوجه ثلاثة من المهندسين الأجانب - جاءوا خصيصًا من «روما» لكى يكشفوا عما أبلغوا به من أن ثلاثتهم، قد قدموا إلى المحاكمة الجنائية لأنهم قاموا بتوريد معدات مطابخ - ثبت من العمل أنها على غير المواصفات المطروحة فى المناقصة التى أعلنت عنها جامعة.. اا، وتقدمت الشركة التى يعمل بها هؤلاء الثلاثة - فرسا عليها العطاء، وكان أن سئلت عما إذا كان هذا فعلاً يكون جريمة يعاقب عليها بمقتضى أحكام القانون المصرى أم أنها ترتب مجرد مسئولية مدنية يكون التعويض هو المتكفل بها فلا تمس حرية هؤلاء الأجانب، الثلاثة..

وأوضحت للقادمين من «روما» أن القانون المصرى يعاقب على الاتفاق الجنائى للاضرار بأموال الدولة، كما أنه يعاقب على الإهمال فى تنفيذ أعمال الدولة وشئونها، وأنهم مقدمون للمحاكمة أمام محكمة الجنايات مع المسئولين المصريين فى الجامعة الذين تعاقدوا معهم والذين تسلموا منهم معدات المطابخ التى تم توريدها من إيطاليا..

وخوفا من أن يحكم عليهم بالسجن والأشغال الشاقة المؤبدة، فقد غادروا أرض مصر سريعًا بعد أن اهتموا بمن قدم معهم للمحاكمة من

المصريين لأنه إذا ما حكم ببراءة المصريين فإن البراءة ستكون حتمًا بالنسبة لهم أيضًا..

وترك لى الأجانب الثلاثة أوراقًا وكتالوجات ونشرات وصورا ليقنعانى بأن غشًا لم يقع، وأن معدات المطابخ التى قاموا بتوريدها. ليس كما ادعت الرقابة الإدارية معدات مستعملة وإنما هى معدات جديدة، وأن السبب فى عدم استمرارها فى العمل بنفس الطاقة إنما يرجع إلى اهمال العمّال المصريين الذين يقومون باستخدام هذه الأدوات دون أن يعلموا أصول استخدامها، بالرغم من أنهم قد أوفدوا مهندسًا فى خصوص هذه العملية بالذات حتى يعطى المصريين الأصول الفنية فى تشغيل مثل هذه الأدوات..

ووجدت نفسى شغوفًا بأن أدرس كل تفاصيل إنتاج هذه الأدوات وكيفية استخدامها، وكيفية صيانتها، والمحافظة عليها، فعكفت على الكتب والنشرات أدرس ما فيها بعد أن قمت بترجمتها من الإيطالية إلى العربية، ثم رأيت من الواجب أن أدرس أيضًا الظروف والأعمال التى تؤثر على استخدام هذه الأدوات، لكى أصل إلى إقناع المحكمة أن إهمالاً لم يقع وبالتالى فليس هناك تواطؤ بقصد الإضرار بأموال الدولة، أو أن هناك اتفاقا مشبوها قام فى ذهن المبلغين، بأن تواطؤا قد حدث من بين الآتين من «روما» وهؤلاء الكبار الذى تسلموا منهم الأدوات فى مصر..

ووجدت نفسى فعلاً يوم أن توجهت إلى طنطا لحضور جلسة المرافعة وحدث فعلاً أننى قد أصبحت دارسًا لهذا النوع من الأدوات، عارفًا بأصول الصناعة فيها مدققًا فى كل صغيرة أو كبيرة حتى خيل لى بأننى قد أصبحت ملمًا بها إلمام الذى صنعها..

وأمام المحكمة - ناقشت شهود الإثبات، ثم ناقشت الخبير الفنى الذى كانت النيابة قد انتدبته لمعاينة الأدوات، وانتهى إلى أنها غير مطابقة للأصول الفنية - ووجدت نفسى مناقشًا كل هؤلاء على سند صحيح، مما تعلمته وما قرأته مظهرًا - أنهم - جميعًا لم يكونوا على صواب فيما كتبوه، ولم يكونوا على حق فيما نسبوه إلى المتهمين، ووجدتنى مستمرًّا فى الاستجواب وفى توجيه الأسئلة، حتى لاحظت أن المستشار رئيس المحكمة قد لاحظ أننى «أناقش مسائل فنية مع فنيين وأننى قد تفوقت عليهم بفنهم».

وإذ به - يسألنى - جادًّا - سؤالاً أنبأ عما فى نفسه.. فقد سألنى قائلاً «أستاذ أحمد - هل درست الهندسة قبل أن تدرس الحقوق..؟؟ وكان هذا السؤال لا يحتاج إجابة منى، ولكن من جانب المحكمة التى حكمت ببراءة الجميع بعد أن ثبت لها أن عمال المطبخ بالجامعة كانوا يسيئون استخدام هذه الأدوات إساءة بالغة، وصفتها فى مرافعتى أنها تخريب لهذه الأدوات، وليس استعمالاً لها، وهو ما صدر حكم البراءة على أساسه بجوار ذلك، أن اللجنة الفنية قد قامت باستلام هذه الأدوات عند استيرادها، وبالتالى عند تسليمها للجامعة وأن الشركة التى استوردت هذه الأدوات تنعدم مسئوليتها فور تسليمها لما استوردته إلى من طلب استيراده..

ومن هنا كان القول - بأن المحامى قد يجد نفسه مضطرًّا أن يدرس دقائق وتفاصيل باقى المهن لكى يظل دائمًا أمام المنصة مدافعًا عن الحق - وبحق - وحتى لو اقتضى بيان ذلك الحق أن يكون المحامى.. مهندسًا.. !!

.. السلم الشاهق .. !!

«كان فاروق مصطفى - رحمه الله - يقف مقلدًا مصطفى مرعى العملاق مؤيدا ومؤكدا إجلالنا له وجلال فكره وعظمة أسلوبه وقوة دفاعه ورسوخ إيمانه بالمهنة ورسالتها».

تعلمنا ونحن فى صدر شبابنا عندما كنا نتلقى أول درس فى المحاماة، أن المحامى الشاب لا يمكن له أن يصعد أول درجة من درجات النجاح الموصلة إلى أن تعشقه المحاماة فتغدق عليه من مالها وشهرتها وشموخها وعظمتها، يجب عليه حتى يصعد أول درج فى هذا السلم الشاهق العلو، أن يدخل المدرسة الحقيقية للمحاماة، وهى قاعة الجلسة، أينما كانت وأيا كان الموضوع الذى يصير التداول فيه أو فى رحابها - وكنا نتلاقى بعد أن نؤدى ما كلفنا به من المكاتب التى كنا نتمرن فيها - شباب - حقيقة - متعطش للمعرفة عامة ولمعرفة سر نجاح المحامى خاصة توصلاً إلى أن يصل كل منا إلى آخر السلم الشاهق، ويجلس متربعًا على أحد المقاعد القليلة، التى خصصتها المحاماة لكبار أبنائها وأكثرهم عشقًا لها، وكل صباح بعد أن يؤدى كل منا واجبه - حسبما ذكرت - كنا نتجمع فى إحدى قاعات الجنايات ولعل أكثر القاعات التى شهدت هذه اللقاءات، هى القاعة التى أطلق عليها فيما بعد «قاعة أنور السادات» باعتبار أنها القاعة التى حوكم فيها الزعيم الشهيد، إبّان نضاله قبل الثورة ضد الفساد والاستعمار - وكانت الرهبة تتملكنا من هذا الذى نراه، فالقاعة



شيخ المحامين.. مصطفى مرعى

●● كان هذا الأسد الجسور يزمجر مهددًا بكل ما أوتى من قوة فى القانون لكى يوقف ظلمًا أو يفيق ظالمًا ولكى يوصل الحق إلى صاحبه غنيًا كان أم فقيرًا..

مهما بلغ تواضعها فيها منصة يجلس عليها قضاة، يثيرون الرهبة والاحترام ولا أقول الإرهاب والبطش، وحتى لا يختلط الأمر على القضاة أو على المترددين على القاعة فقد كنا جميعًا نحرص على أن نرتدى روب المحاماة لكى يكون جوازًا لنا فى أن نجلس فى الصفوف الأولى المخصصة للمحامين، وأذن لنا بأن نتحرك تحركًا واعيًا فى حدود ما يمليه علينا الواجب، نحن الصغار، فى حضور الكبار - أساتذتنا فى المحاماة والقانون، فكنا ننتظر حتى تفتح الجلسة فنستمع وبإمعان إلى مرافعة الدفاع وإلى المناقشات التى تدور بينه وبين المحكمة، أو بينه وبين النيابة، لنتعلم كيف يتصرف أساتذتنا ولنعرف الصحيح من الخطأ فى الإجراء والحكم القانونى ورأى الفقه وأحكام القضاء، وقد كان أحدنا يقارن حضورنا بما نسمعه فى الإذاعة، فأحيانًا نستمع إلى فاتنة الغناء العربى وقائدته وزعيمته السيدة أم كلثوم وأحيانًا أخرى نستمع إلى من ينتمون إلى مهنة الغناء ودون أن يكونوا منها هم أو أجدادهم أو يكون من بين أبنائهم من يحترفون الغناء، كنا نستمع إلى الموسيقار عبد الوهاب وفى ذات اليوم نستمع إلى آخر لا يمكن أن يرقى إلى مرتبة المقارنة بين هذا العملاق وبين الذى أدى أداءً عفويًّا بعيدًا كل البعد عن واجبات المحامى، التى فرضتها هذه المهنة الشامخة على أبنائها الذين يعملون فيها، ولعلنى فى هذا المقام أذكر أننا نحن شباب المحامين فى ذاك الوقت كنا نطلق على مرافعات مصطفى مرعى المحامى البارع الشجاع، نطلق عليها أنها «تغاريد» مصطفى مرعى، بينما كنا نطلق على مرافعات المرحوم الأستاذ الفذ عبده أبو شقه أنه كان يغنى غناءً حلوًا يجبرك أن تشعر

بالطرب - وأى طرب هذا الذى يكون بالقانون وحده دون أى مؤثرات أو آلات أخرى تصاحبه أو تؤازره - وكان حضورنا بهذه الجلسات، لا يبعث مللاً فى نفوسنا مهما كان المترافع، بل كنا نبحث من وراء ما سمعناه لنصل إلى الحقيقة، وقد كان هذا منا تطوعًا، فنجد أن أحد أفراد مجموعتنا الشهيرة هو الذى يتطوع بقراءة وبحث ما أثير فى جلسة المرافعة ليصير النقاش فيه فى المساء..

فقد تعودنا أن نتجمع فى المساء فى أحد المقاهى التى كانت مخصصة لكبار الموظفين حينذاك - قهوة «البوديجا» - وهى مكان محل كشرى جحا حاليًّا - وكان لهذا المقهى سمعة طيبة جعلته مقصدًا للرجال المحترمين الذين كانوا فى آخر هذا الزمان - ويدور الحديث حول المائدة الصغيرة التى نلتقى حولها لنردد عبارات وفقرات وإشارات وحركات هؤلاء العظام الذين استمعنا إلى مرافعاتهم فى صباح ذات اليوم، بل إن البعض منا كان فى سعادة غامرة ليقف مقلدًا شيخ المحامين مصطفى مرعى عندما يزمجر، معلنًا أن ثورة ستخْرج من فمه دفاعًا عن حق ودفعًا لظلم، فقد كان المحامى العظيم ينفعل بكل أحاسيسه عندما يتحمس ليلقى مرافعته، بل كان هذا الأسد الجسور يزمجر مهددًا بكل ما أوتى من قوة فى القانون لكى يوقف ظلمًا ولكى يفيق ظالمًا ولكى يوصل الحق إلى صاحبه غنيًّا كان أم فقيرًا - كان «فاروق مصطفى» رحمه الله يقف مقلدًا مصطفى مرعى العملاق مؤيدًا ومؤكدًا إجلالنا له وجلال فكره وعظمة أسلوبه وقوة دفاعه ورسوخ إيمانه بالمهنة ورسالتها - ثم يأتى الحديث عما دار فى الصباح - حسبما ذكرنا، وليلقى علينا المتطوع فى كل ليلة أنه عاد

إلى الكتب والمراجع فوجد أن ما قاله المحامى فى مرافعته فى قضية الصباح كان صحيحًا، أو أنه ليس كذلك ثم يذكر ما هو صحيح ويصير النقاش الذى قد يحتد فى بعض الأحيان حتى يصل إلى التحدى والرهان فيما قد نصل إليه من معلومات ما زالت راسخة فى أذهاننا حتى الآن رغم فوات السنين الطوال..

هكذا تعلمنا - وهكذا يجب على أبنائنا أن يفعلوا رغم الفارق الكبير بيننا وبين زعماء الأمس - ولكن - حسبما ذكرت - عندما يستمعون إلى الجيد فإنهم يجب أن يستمعوا إلى غيره، فهم يعجزون عن تقدير الجيد إن لم يستمعوا إلى غير الجيد وليؤمنوا أن المهنة كمصدر لن ينضب أبدًا وهى معطاءة لأنها غنية بأبنائها وسيكون دائمًا من بينهم من يهبّ للدفاع عنها ومن يساند مبادئها ومن يثبت على مر الأجيال أن فى المحاماة دائمًا رجالاً، هم رجال الأمس ورجال اليوم ورجال الغد وحتى آخر الأيام سيكونون هم رجال المحاماة..

من أجل هذا كان نضالنا - ومن أجل هذا كان صبرنا، وأعتقد أن من أجل هذا كان نجاحنا فى هذه المهنة التى لاقينا فيها العذاب، ولكنه ألذ عذاب يلقاه إنسان فهو عذاب الحب.. حبّ المهنة..

مصابيح العدالة

«والمحامى إذا ما كان شمعة تضىء مصباح العدالة، فإنه لذلك يحترق عندما يؤدى عمله...».

كانت القضية ذات أهمية كبرى تتناولها الصحف يوميًّا بذكر مجريات الأمور فيها والقرارات الصادرة فى شأنها - فقد أجريت الانتخابات فى نقابة الصحفيين، وأعلن اسم النقيب الفائز ليعتلى منصبًا يشرف كل صحفى ويتمناه ولو لساعات قبل أن يتوفاه الله - وكان إعلان النتيجة بعد فرز أصوات الناخبين التى أسفرت عن وجود فرق بسيط بين الفائز والآخر الذى لم يوفق، وهذه علامة طيبة تدل على الرقى والسمو وعلى الحرص على تطبيق أحكام الديمقراطية الصحيحة فى نقابة من أعرق النقابات المهنية فى مصر.. فكلما قل الفارق فى الأصوات بين الفائز وغير الفائز كان هذا دليلاً على الوعى وعلى جدية المنافسة، وبالتالى على جدية التطبيق الديمقراطى الذى ننشده جميعًا..

لم يرتض غير الفائز بالنتيجة التى أعلنتها لجنة الفرز، فطعن على قرار الجمعية العمومية الذى أيد قرار لجنة الفرز وذلك بالطريق القانونى، وقد رسم القانون لهذا الطعن طريقًا خاصًّا هو أن يطعن فى قرار الجمعية العمومية أمام محكمة النقض (الدائرة الجنائية) ونظرًا لأن الطاعن من الصحفيين الذين يتمتعون بحسن السمعة، فقد اهتم زملاؤه والذين كانوا يؤيدونه بالطعن الذى رفع، الأمر الذى جعلهم يحرصون على الحضور فى

كل جلسة من الجلسات التى ينظر فيها الطعن - وكان منافسه - الذى فاز - من الصحفيين اللامعين الذين لهم مكانة خاصة فى قلوب الصحفيين وغير الصحفيين - وكان مستندًا إلى قاعدة عريضة أيضًا من الصحفيين خاصة هؤلاء الذين يعملون فى المؤسسات الصحفية الكبيرة، وكان قد شغل هذا المنصب فى مدة سابقة فاعتنى بشئون الصحفيين وتمكن بالفعل من حل الكثير من مشاكلهم. ووكلنى النقيب الفائز - ودرست الأوراق، فوجدت أن الشكل يغنينا عن التحدث فى الموضوع، فدفعت الطعن بدفع شكلى اقتضى دراسته أن تبحث المحكمة فى دفاتر الجمعية العمومية لتحصر عدد الحاضرين فيها، ولتنتهى إلى صحة الدفع من عدمه - وفى إحدى الجلسات احتد النقاش بينى وبين زميلى الذى كان يحضر مع الطاعن الذى سبق وأن ذكرت أنه كان يحرص على أن يحضر كل الجلسات الخاصة بالطعن بنفسه مؤيدًا ببعض الصحفيين الذين كانوا يؤيدونه فى معركته التى خسرها، وعندما اشتد النقاش بينى وبين زميلى الحاضر مع الطاعن، إذ برئيس المحكمة رحمه الله المستشار عبد الحميد صادق (نائب رئيس محكمة النقض حينذاك وأقدم مستشاريها بعد رئيسها) - إذ به يفاجئنا بالقول بأننا يجب علينا أن نهدأ حتى إذا ما احتد النقاش واختلفت وجهات النظر لأن فى الهدوء توصلاً إلى الحقيقة، ثم وصفنا نحن المحامين بأننا «مصابيح العدالة»..

رحم الله المستشار العظيم الذى وصف المحامين وصفًا عجز قادتهم العظام من الأسلاف الذين تولوا العمل النقابى، والذين حملوا رسالة المحاماة، أن يصفوا هذه المهنة الشامخة بهذا الوصف العظيم.. الدقيق..

نعم فالمحامى شمعة تضىء مصباح العدالة لكى ينير الطريق للقاضى الجالس للوصول إلى الحقيقة التى هى ولا شك سيصل إليها بمشاركة القضاء الواقف - والمحامى إذا ما كان شمعة تضىء مصباح العدالة، فإنه لذلك يحترق عندما يؤدى عمله فيظل يحترق ويحترق دون أن يؤثر على نور شمعته ريح أو إعصار، فشمعته مصونة بمصباح ويظل يحترق ويحترق مضيئاً للتوصل إلى العدالة إلى أن ينتهى بعجزه عن مباشرة المهنة فلا تنطفئ شمعته أيضًا لأن كثيرًا من الشموع تكون قد أضيئت وهذه الشموع التى أصبحت تضىء وتواصل الإضاءة تتمثل فى شباب المحامين الذين هم عماد مهنة المحاماة فى المستقبل ونورها المضىء للتوصل إلى العدالة التى هى رسالتهم.

غضبة عملاق

«.. على القاضى ألا ينهر الشاهد أو يخيفه..
وعلى المحامى أن يتمسك بحرية الشاهد تمسكه
بدفاعه..»

كان ذلك فى نهاية سنة قضائية لا تبتعد كثيرًا عن سنة كتابة هذه الواقعة، فحسبنا نعلم أن القضاء فى العالم كله قد جرى على أن تكون هناك عطلة قضائية فى كل عام يخلد فيها القضاة والمحامون إلى الراحة، لكى يستقبلوا عامًا قضائيًّا جديدًا، بهمة ونشاط، وإن كنت أرى - ويرى معى الكثيرون - أن العطلة القضائية قد أصبحت تحتاج إلى إعادة نظر، فالقضاء يجب ألَّا يتوقف، لأنه متعلق بمصالح الناس. كما وأن القضاء المستعجل الذى نص القانون على أن يستثنى من شهور العطلة القضائية، قد جرى العمل وعرف لدى كل المشتغلين بالقانون. أنه ينظر قضايا وصفت بأنها مستعجلة، ودرج العمل على ألا يفصل فيها إلا بعد انقضاء العطلة القضائية، إذ أن تحمل مسئولية القضاء فى شهر من الأشهر الثلاثة المخصصة للعطلة القضائية، عادة ما لا يتم الفصل فى هذه القضايا التى وصفها القانون بأنها قضايا مستعجلة - مما دعانا إلى أن نقترح بأن تكون هذه العطلة لمدة لا تتجاوز شهرًا واحدًا حتى لا تتعطل مصالح الناس ولا تتأخر كلمة العدالة التى هى دائمًا فى حكم يكون هو عنوان الحقيقة.

وكان ذلك فى محكمة الجيزة الابتدائية، فقد كنت متواجدًا فى غرفة

المستشار رئيس المحكمة أحييه لأنه زميل دفعة تخرج، وأثناء حديثنا الودى، إذ بأحد موظفى المحكمة - تبين بعد ذلك أنه سكرتير جلسة - يستأذن فى الدخول وهو منزعج ومعه مدير مكتب المستشار رئيس المحكمة، ليعلن للسيد المستشار أن أحد المحامين فى ثورة عارمة وأنه بسبب ثورته اضطرت المحكمة إلى رفع الجلسة، إلا أن المحامى رفض أن يخرج من قاعة الجلسة التى كانت هى أيضًا حجرة للمداولة معلنا استياءه مما حدث من رئيس الدائرة نحوه..

وعلى الفور وقف المستشار رئيس المحكمة ودعانى لأن أكون معه، فالأمر يخص محاميًا - وكنت نقيبًا للمحامين بالقاهرة - إلا أن المحاماة لا تتجزأ، فالمحامى بالجيزة والمحامى بالقاهرة والمحامى بأسيوط كلهم يستظلون بظلة واحدة هى مظلة المحاماة..

وذهبت مع المستشار رئيس المحكمة إلى حيث الواقعة التى رواها لنا سكرتير الجلسة وفور دخولنا قاعة الجلسة، وهى فى ذات الوقت حجرة المداولة، إذ بى أجد عملاقًا من عمالقة المحاماة التى لا تتكرر، فقد وجدت شيخ المحامين المرحوم الأستاذ مصطفى مرعى[1] جالسًا على

(١) ولد مصطفى مرعى فى ١٩٠٣/٦/١٨ وتخرج من كلية الحقوق عام ١٩٢٣، وعمل بمكتب المرحوم الأستاذ مرسى محمود المحامى، وأشهر محامى الإسكندرية فى ذاك الوقت، وقد تزوج من كريمته التى ناضلت معه حتى آخر عمره، ومازالت تعيش على ذكراه، وقد عمل بالمحاماة حتى عين قاضيًا عام ١٩٣٢، وتولى دائرة الأمور المستعجلة بالإسكندرية، وظل قاضيًا حتى عاد إلى المحاماة عام ١٩٣٦، أى بعد أربع سنوات من تركه لها، وفى عام ١٩٣٩ عين أفوكاتو عمومى ثم مستشارًا بمحكمة الاستئناف عام ١٩٤١ ومستشارًا بمحكمة النقض عام ١٩٤٦، ثم عين رئيسًا لقضايا=

مقعد فى الغرفة، مرتديًا الطربوش الذى ظل متمسكًا به فى حضوره بالمحكمة حتى بعد أن زال هذا التقليد بعد الثورة بسنوات ليست قليلة - فقد كنا نحن المحامين منذ أن تخرجنا نتمسك بالطربوش عنوانًا للوقار والالتزام وممثلاً للهيبة يجب أن يحسها كل من يتولى مهمة الدفاع عن الحق..

وعلى الفور قام السيد المستشار رئيس المحكمة بتحية العملاق الكبير، مما أثار دهشة المحكمة رئيسًا وأعضاء - فقد تبين لنا بعد ذلك أن القضاة

=الحكومة (هيئة قضايا الدولة حاليًا) حتى آخر عام ١٩٤٧، حيث اختير وزير دولة فى حكومة إبراهيم عبد الهادى، ثم اختير وزيرًا فى وزارة حسين سرى عام ١٩٤٩ وقدم استقالته المشهورة فى ١٩٤٩/١١/٣ سجل فيها عدم استقامة عمل الوزارة ورئيس الوزراء، وفى ١٩٥٠/٥/٢٩ - قدم استجوابه الشهير فى مجلس الشيوخ عن الأسلحة الفاسدة، وعن موضوع مستشفى المواساة بالإسكندرية - مما ترتب عليه إسقاط عضويته فى مجلس الشيوخ ضمن ١٩ شيخًا وكان ذلك فى ١٩٥٠/٧/١٩ - وفى ١٩٥٠/١٠/١٨ أرسل الخطاب الشهير هو ونفر من أبرز رجالات مصر إلى الملك فاروق ينذرونه فيه بما ستؤدى إليه السياسة الجارية من ضياع البلاد، وكان قد عاد إلى المهنة التى أحبها وعشقها -المحاماة - عام ١٩٤٩ إثر استقالته من وزارة حسين سرى، وظل مشرفًا للمحاماة حتى اعتزل فى آخر عام ١٩٥٩ بسبب مرضه، وقد كان مصطفى مرعى بجوار ذلك عضوًا بمجمع اللغة العربية منذ عام ١٩٧٣ وقد توفاه الله فى ١٩٨٧/١١/٧، ومن أبرز مؤلفاته كتابه عن «المسئولية المدنية» وهو من أهم المراجع فى القانون المدنى، كما أن مؤلفه «الصحافة بين السلطة والسلطان» من أهم كتاباته حين عرض فيه الرأى فى اعتبار الصحافة سلطة رابعة، رحمة واسعة لرجل من أبرز رجالات مصر، كانت المحاماة حبه وعشقه وكانت رسالته الحق والعدل ومقاومة الظلم وكشف الظالم.

الثلاثة لم يكن أحد منهم يعرف مصطفى مرعى العملاق الكبير - فوقفوا احترامًا لحضور السيد المستشار رئيس المحكمة وهى وقفة كانت أيضًا إجلالا لهذا العملاق الذى أراد أن يعطينا درسًا نتعلمه ونعلمه لأبنائنا من بعدنا ليعلموه لأحفادنا وهكذا..

وعلى الفور ذكرت لرئيس الدائرة وللعضوين أن الذى يجلس أمامهم هو الهرم الرابع فى مصر - ذاكرًا أنه إن كنا نعلم أن فى الجيزة أهرامات ثلاثة يعرفها العالم كله، فإن مصطفى مرعى هو الهرم الرابع الذى تعرفه الأمة العربية، ولا تعرفه مصر فقط، بل هو على مستوى العالم هرم راسخ لا يتزحزح عن ذكر كلمة الحق فى قوة وشجاعة..

وتبين لنا - أنا والمستشار رئيس المحكمة - أن العملاق الكبير بعد أن نقل اسمه إلى جدول غير المشتغلين لمقتضيات الحفاظ على صحته بناءً على توصية من الأطباء الذين كانوا يعالجونه رحمه الله - فقد وجد نفسه أمام واجب يجب عليه أن يؤديه ولا يمنعه من أدائه أنه قد نقل اسمه لجدول غير المشتغلين، لقد استشهد به جار له فى نزاع بينه وبين مالك العقار الذى يقطنان فيه - فوجد واجبًا عليه أن يؤدى الشهادة وهى التى أمرنا الخالق سبحانه وتعالى أن نؤديها عندما تطلب منا إحقاقا للحق، فذهب إلى المحكمة ليؤدى واجب الإدلاء بشهادته فى هذا النزاع الذى كان معروضًا على المحكمة، وانتظر حتى نظرت قضايا المرافعة ثم استأذن ليدخل لأعضاء المحكمة فأذن له، فطلب من رئيسها أن تسمع شهادته نظرًا لحالته الصحية، فإذ برئيس الدائرة - وقد قلنا بأنه لم يكن يعرف مصطفى مرعى - ينهره ويوجه إليه حديثًا فيه قسوة جعلت العملاق الكبير

يثور – وحسبما ذكر لى وللسيد المستشار رئيس المحكمة بعد ذلك – كيف لقاضٍ جلس على منصة لكى يحق الحق ويحقق العدالة أن ينهر شاهدًا أتى إليه مختارًا لكى يساعده فى أن يؤدى رسالته ويحق الحق ويقر العدل – قال لنا مصطفى مرعى – رحمه الله – إن الشاهد يجب أن يأمن على نفسه خاصة أمام قاضيه – حتى يدلى بالحقيقة التى تساعد على تحقيق العدل، فإذا ما نهره القاضى أو وجه إليه حديثًا بقسوة – فإن الشهادة قد تهتز على لسان الشاهد مما قد يؤدى إلى ضياع الحقوق أو إثارة اللبس..

نعم إنه درس يجب أن يعيه القضاء الواقف والقضاء الجالس، فإن الدروس التى ألقاها علينا السلف فى كل قضاء، إنما هى دروس يجب أن نعيها جميعًا حتى يعيها أبناؤنا ليتخذوها فى مستقبل حياتهم عندما يؤدون الواجب، وعندما يستمرون فى المسيرة حاملين الشعلة التى حملها سلفنا فسلّمنا إياها لنسلمها لهم لتظل شعلة نور تحقق العدل وتحق الحق..

نعم يجب على القاضى ألاّ ينهر الشاهد أو يخيفه ويجب على المحامى أن يدافع عن حرية الشاهد فى أداء شهادته تمسكه بدفاعه عن موكله..

.. التأثير على القضاة.. جريمة..

«ليحاكم المتهم كغيره من المتهمين بغير أثر عليه من شقيقه الذى كرهته المعارضة، فهو بهذا ليس بضلع أو شريك...»

لعل أكثر الجرائم خطورة، هى جريمة التأثير على القضاة، فالكثيرون لا يعلمون أن نص المادة ١٨٧ من قانون العقوبات يُعاقب كل من استعمل وسيلة من وسائل النشر للتأثير على القضاة فى منازعة مطروحة على القضاء، وبالرغم من أن هذه الجريمة ترتكب فى كل يوم مرات ومرات، إلا أن أحدًا لا يهتم بتوجيه الاتهام فيها إلى من ارتكبوها وبالتالى استحال توقيع العقوبة على مرتكبها، مما أكثر من ارتكابها دون أن يأبه مرتكبوها بجزاء يوقع عليهم..

ولقد كانت من أشهر وأهم القضايا التى نظرها القضاء المصرى - الذى أثبت فعلاً أنه القضاء العادل فى كل العهود وفى كل القضايا - لا يستثنى من ذلك إلا أحكامًا تعد على أصابع اليد الواحدة - قضية اتهم فيها شقيق لرجل سياسى، احتل المركز الثانى من مناسب السلطة التنفيذية والمركز الأول من مناصب السلطة التشريعية - وبالرغم من أن هذا السياسى أستاذ ضليع فى القانون وذو ماض ناصع البياض - فقد اكتسب كره المعارضة التى انطلقت فى أول عهد تطبيق الديمقراطية فأساءت استخدام حقها فى النقد والتعبير وأطلقت العنان لألسنة كانت قد اختفت بظهور الثورة، ولكنها عادت فى عهد الديمقراطية الجديد

لتصفية الحسابات مع هؤلاء الذين ضيقوا الخناق على الإقطاع والرأسمالية المستغلة لتكون للشعب كلمته ولتحقق الثورة أهدافها التى قامت من أجلها والتى استمرت من أجلها أيضًا، وانتهزت المعارضة أن شقيق هذا الرجل قدم فى تهمة تمس الذمة فخصصت الأعداد اليومية والأسبوعية لكى تهاجم الرجل من خلال شقيقه، فى وقت ألزمها القانون ألا تتعرض فيه للقضية من بعيد أو قريب، حتى لا ترتكب جريمة التأثير على القضاة - ولعلى أتذكر أننى عندما حضرت مدافعًا عن شقيق السياسى الكبير، فقد حرصت على أن أقدم عددًا من أعداد جريدة للمعارضة ذاع خبرها وانتشر توزيعها وكان هذا العدد منذ الافتتاحية حتى آخر عمود فى الصفحة الأخيرة منصبًّا على الشقيق المتهم والقضية وما دار فيها، وهو أمر عجب، والعجب فيه أن تلتفت النيابة عن وقوع هذه الجريمة الواضحة الظاهرة، ولا ندعى أن التفاتها كان لجهل بحكم القانون وإنما نقول إنها آثرت أن، تبعد عن المعركة التى دارت بين السياسى الكبير وبين أحزاب المعارضة.. فلا تكون طرفًا فيها..

وقد كان لارتكاب جريمة التأثير على القضاة فعلًا مؤثرًا، فقد أصدرت محكمة جنايات الجيزة حكمًا قضى بسجن المتهم - شقيق السياسى الكبير - عشر سنوات..

وتم القبض على المتهم، وأودع السجن منفذًا لعقوبة الجناية المحكوم فيها.

وهى عقوبة تقضى على المتهم وعلى عائلته وتثبت عليه جريمة لم يرتكبها فكان أن أوكلنى فى إلتقرير بالنقض فى هذا الحكم فكان واجبًا

علىّ أن أتولى القضية من كل جوانبها - فعكفت على قراءة أوراقها الكبيرة والكثيرة التى جاوزت الثلاثة آلاف صفحة، وبعين القاضى المحايد حاولت أن أعثر على دليل يؤدى إلى إدانة المتهم فلم أجده فخيل إلى أن هناك أوراقًا قد اختفت، فرجعت إلى ملف الجناية بالمحكمة لأجدها خالية من أى جديد سوى ما قرأت - فحررت مذكرة بأسباب النقض وأوردت فيها أن الحكم قد نحا منحى بعيدا عما هو ثابت فى الأوراق وعن أحكام القانون الصحيحة متأثرًا بما كان ينشر فى جرائد المعارضة فى تلك الأيام، وبما كان يدور من أحاديث فى كل مجتمع من المجتمعات حتى مجتمع القضاة وكان - قضاء مصر كما ذكرنا هو القضاء العادل فإذ بمحكمة النقض تنقض الحكم وتعيد المحاكمة أمام دائرة أخرى من دوائر محكمة الجنايات - وتستند فى إلغائها للحكم الذى قضى السجن لمدة عشر سنوات إلى ذات الأسباب التى ذكرتها فى مذكرة الأسباب، وأمرت محكمة النقض بشطب ما يقرب من ثلاث صفحات ونصف صفحة من مذكرة الأسباب التى قدمتها قالت فى شأنها إنها استعملت حقها الوارد فى المادة ١٠٥ من قانون المرافعات التى أعطت للمحكمة الحق فى شطب عبارات ترى أنها ماسة بالخصوم أو أنها تخرج عن النظام العام أو الآداب - وبمطالعة هذه الصفحات الثلاث نجد أنها لا تحتوى إلا على قول جرىء من محررها أشار فيه إلى أن قضاة الحكم كانوا يجلسون فى نادى القضاة الذى كان يتناول الحاضرون فيه أمر الدعوى والاتهام على مسمع من قضاة الحكم كما ورد فى هذه الصفحات الثلاث والنصف صفحة قول الفقه والقضاء فى مصر وفرنسا إن القاضى

يجب ألا يعمل بالسياسة خاصة إذا ما كان معروضًا عليه من قضايا سياسية أو قضية تؤثر فيها أمور السياسة.

وإذ بالقضاء الذى أعيد إليه نظر الجناية من جديد يجد نفسه فى حرج، فهل هو منصاع لحكم القانون أم هو منصاع للإشاعات التى انتشرت على أن الدائرة الجديدة التى شكلت لمحاكمة المتهم من جديد هى دائرة اختيرت خصيصًا لكى تصدر حكمًا ببراءته - وهنا مكمن الخطورة من أن يقضى القاضى بالظلم حتى يشتهر بالعدل ولكن معدن قضاتنا هو معدن أصيل ومن أجل هذا فهو غال، وحرصت أن أذكر هذا فى مرافعتى الشفوية فإذ بالقضاة يتحدثون بعيونهم وكأنهم قد استنبطوا ما ذكرته على لسانى شفاهة، وإذ بهم يخضعون لما ذكرته فى بداية مرافعتى عندما قلت «انفضوا من هذه الأوراق لقب (....) ليحاكم المتهم كغيره من المتهمين بغير أثر عليه من شقيقه الذى كرهته المعارضة وهو بهذا ليس بضلع أو شريك ، فلتكرهه المعارضة أو تحبه ولكن عليها أن تبعد عن المتهم الذى قدم للمحاكمة فى شأن جريمة تمس الذمة والشرف»..

وكان حكم البراءة مدويًا مثبتا أن الاتهام الذى قضى فيه بالإدانة قد بات بلا سند وبعد أن كان هو عنوان الحقيقة أصبحت الحقيقة عنوانها عكس ما قضى به فى حكم المحكمة الأول..

إلا أن جريمة التأثير فى القضاة تركت أثرها واستحال على الجميع أن يمحو هذا الأثر فقد ظل الناس يتحدثون كل حسب هواه وكأن القضاء لم يصدر حكمه وكأن الحكم لم يصبح عنوانًا للحقيقة كما تعلمنا - ومن هنا قلنا إن أخطر الجرائم هى جريمة التأثير على القضاة، ففيها يصدر الرأى

العام حكمه دون روية ودون أن يعتد بالأوراق، فالمحكمة هى التى تقرأ وتتعمق فى الدراسة لكى تصل إلى القرار الحكيم الذى هو دائمًا القرار السليم..

هل هى.. عدالة السماء..؟

«وقد كان قول الشاب عقب سماع الحكم ببراءته - إنها توبة نصوح - وسوف لا أقرب النساء إلا بزواج عندما يحين الحين..».

من العبارات اللطيفة التى حفظها هواة متابعة مباريات كرة القدم - هذه العبارة التى وردت على لسان المعلق الرياضى عندما احتسب الحكم فى مباراة مصر وهولندا ضربة جزاء لصالح الفريق المصرى، فإذ به يهتف «عدالة السماء ترفرف على ستاد باليرمو» - قالها المعلق الرياضى بعد أن أحس بأن فريق مصر أدى مباراة قوية وأن العدل من وجهة نظره هو أن يتعادل مع فريق هولندا أقوى الفرق الأوروبية والحاصل على كأس العالم فى الدورة السابقة..

عبارة علقت فى ذهنى لأن من قالها آمن فعلاً بأن السماء التى أمرت الإنسان بالعدل إنما تحقق العدل فيما لو سعى إليه إنسان أو فيما لو رأت السماء أن العدل يوجب أن يكون الأمر على نحو معين وليس على سواه..

حصل الشاب على شهادة الثانوية العامة بنسبة عالية أهلته لأن يقبل فى كلية الطب بجامعة القاهرة، ولم يفرح والده وأسرته فقط، بل فرحت بلدته «رشيد» بأكملها بعد أن لاح لها أن أحد أبنائها سيكون طبيبًا بعد سنوات معدودة وأنه فوق كونه الطبيب سيكون محتلا لمركز اجتماعى أو

سياسى، تجعل لرشيد اسمًا بعد أن نسيها المصريون ولم يذكروا عنها إلا «الملح الرشيدى» بالرغم من أن التاريخ قد خصها «بحجر رشيد»..

وتوجه الأب فرحًا إلى القاهرة يبحث فيها عن مكان لإقامة ابنه، فلما لم يجد فيها مكانا لقدم، ودله معارفه وأصحابه على منطقة جديدة بالجيزة عرفت باسم «شارع الملك فيصل» وهى محافظة مستقلة إذا ما حسب عدد القاطنين فيها وإذا ما روعى الامتداد العمرانى على جانبى الطريق الذى عرف باسم الملك فيصل الذى أحب مصر، وسرعان ما وفق الأب فى أن يجد لابنه شبقة فى شارع متفرع من شارع الملك فيصل وأثثها بالأثاث البسيط، وجاء الشاب يتلقى العلم بالقاهرة ويمده أبوه بما يستطيع من مال ومعلومات، لأن الأب طبيب وغاية مراده أن يكون ابنه امتدادًا له..

وعندما وصل الشاب إلى السنة الثالثة فى كلية الطب، فوجىء بأحد أصدقائه يتصل به تليفونيًّا ليسر إليه بأنه وزميل له تمكنا من أن يتفقا مع فتاة على أن يباشرا معها الجنس، وأنهما تعهدا بدفع بعض المال لها، ولا يطلبان منه إلا أن يسمح لهما بأن يأتيا إلى شقته حتى يتمكنا من تنفيذ ما اتفقا عليه مع الفتاة وأنه سيكون له نصيب المشاركة..

تردد الشاب ولكن صديقه بادره ليقول: إن الليلة هى ليلة رأس السنة والشباب كله يمرح وأن مثل هذه الأشياء مباحة فى هذا الظرف وفى تلك المناسبة، ذلك أن الشباب قد علق فى ذهنه أن ليلة رأس السنة الميلادية هى ليلة ينطلق فيها الصغار والكبار لكى يباشروا كل أنواع اللهو والمرح، وأن ليلة رأس السنة المحمدية يأكلون فيها الحلوى..!!

تردد الشاب وأبدى مخاوف لصديقه الذى كان يلح عليه بالتليفون لاحتمال أن يزوره والده أو أحدًا من أسرته، ولكنه إزاء إصرار الصديق ولكونه شابا يجرى فى عروقه دم وله شهوة، فقد ارتضى أن يستضيفه هو ومن معه مشترطًا أن يرى الفتاة قبل أن تصعد إلى شقته - وما هى إلا دقائق حتى كان الصديق أمام شقة الشاب ومعه الصديق الآخر والفتاة، وخرج الشاب ليرى الفتاة، فوجدها شابة يافعة طاغية الأنوثة، فما كان منه إلا أن اصطحبهم إلى داخل شقته وباشر الشاب والصديقان افعالاً صبيانية مع الفتاة التى سرعان ما طلبت أجر المتعة التى أعطتها للشبان الثلاثة، وكالعادة حصل الخلاف ولكن الشاب سارع ذاكرًا ومذكرًا لصديقيه أن الاتفاق قد تم بينهم على ألا يدفع شيئًا للفتاة فى مقابل أنه يسر لهم شقته - وتبين بعد ذلك أن الفتاة بعد أن يئست من تقاضى الأجر الذى أرادته توجهت إلى قسم الشرطة مدعية أن الشبان الثلاثة أكرهوها على مباشرة الجنس معهم وهو أمر لم يستمر طويلاً، فقد ثبت كذبها، ولأجل هذا رأت النيابة تقديم الشبان الثلاثة للمحاكمة الجنائية بتهمة هتك العرض لفتاة لم تبلغ سن الثامنة عشرة وهى جنحة قرر لها قانون العقوبات الحبس، وقدم الشاب إلى المحاكمة الجنائية فحكمت عليه محكمة الجنح بالحبس إزاء اعترافه هو وزملاؤه بارتكاب الفعل الذى كانوا يعتقدون أنه غير معاقب عليه قانونًا.. ولكن هذا الاعتقاد لا يمكن أن يؤخذ سببًا للإعفاء أو للتخفيف من المسئولية، فهرع الرجل والد الشاب الذى يدرس الطب - مستأنسًا برأى قانونى له تجربة ودرس القانونى الأوراق فتبين له أن الاعتراف ثابت وأن الفتاة

قدمت شهادة ميلادها التى تثبت أنها تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا وخمسة أشهر وعدة أيام..

وأوجب فن المحاماة أن يعود المحامى الكبير إلى أجندات مكتبه القديمة ليتبين له أن تاريخ ميلاد الفتاة يوافق ٣ جمادى الآخرة ووجد أن تاريخ وقوع الواقعة المقدم بشأنها المتهم إلى المحاكمة يوافق ٢ جمادى الآخرة.. ولكن بعد ثمانية عشر عامًا.

ويصاب المحامى الكبير بدهشة.. هل هى الصدفة التى جعلته يتذكر قضاء محكمة النقض الذى قرر بأنه فى شأن جريمة هتك العرض لمن لم تبلغ سن الثامنة عشرة فإن السن هنا تحسب حسب التقويم الهجرى لا حسب التقويم الميلادى - بحسب أن التقويم الهجرى أقل فى عدد أيامه من التقويم الميلادى، فيؤخذ بالتالى به باعتبار أنه هو الأصلح للمتهم وعلى أساس أن النص لم يرد فيه عند تحليله لسن الثامنة عشرة بأن وصفها ميلادية أم هجرية..

وهل هى المصادفة التى جعلته يعود إلى أجندته القديمة ليجد أن تاريخ ميلاد الفتاة هو ٣ جمادى الآخرة وليجد أن تاريخ الواقعة هو ٢ جمادى الآخرة ويفصل بين التاريخين ثمانى عشرة سنة كاملة - لا تنقص يومًا ولا تزيد يومًا - فالسنة الثامنة عشرة الهجرية بدأت فى ٣ جمادى الآخرة وانتهت فى ٢ جمادى للآخرة - بمعنى أن الفتاة وقت وقوع الحادثة كانت قد أكملت سن الثامنة عشرة، وبالتالى فلا عقوبة للفعل الذى أتاه المتهم معها هو وشركاؤه. إذ أن القانون يعاقب على ذات الأفعال التى يعاقب عليها فيما إذا كانت الفتاة أقل من الثامنة عشرة - والقانون يجعل ذات،

الأفعال مباحة وغير معاقب عليها إذا ما كان سن الفتاة ثمانية عشر عاما أو يزيد وتم الفعل برضائها..

وعاد المحامى ليقول.. لا.. إنها ليست مصادفة وإنما هى إرادة العلى القدير أو حسبما عبر المعلق الرياضى - إنها عناية السماء وعدالتها التى طوفت بظروف الحادث ورأت أن الشاب الذى أخطأ دون أن يتعمد وقوعه فى الخطأ والذى خضع لشهوته مرة - رأت عدالة السماء أن فعله يجب ألا يجرم حتى تظل صفحته بيضاء عندما ينهى دراسته ليكون من أطباء مصر، فلا ينسب إليه أنه فى يوم من الأيام أتى فعلاً مشيناً قد يكون سبباً لإضراره فى أى موقف أو موقع.. وأمرت عدالة السماء قضاة الشاب أن يحكموا ببراءته مما هو مسند إليه استناداً إلى قضاء محكمة النقض الذى قرر بأن تحسب سن المجنى عليها فى جريمة هتك العرض بالتقويم الهجرى وليس بالتقويم الميلادى..

وقد كان قول الشاب عقب سماع الحكم ببراءته - إنها توبة نصوح - وسوف لا أقرب النساء إلا بزواج عندما يحين الحين..

حماية المحامى..

«المحامى لا يحتمى بأحد.. المحامى يحمى الجميع..».

فى إحدى الجلسات تقابلت مع أحد كبار المحامين الذى قص علينا قصة هى إرساء لتقليد من تقاليد المحاماة وقول مأثور صدر من زعيم من زعمائها..

ذكر الأستاذ الكبير أنه عقب انتهاء مرافعته فى إحدى القضايا الهامة وخروجه من قاعة الجلسة، إذ به يفاجأ بخصم موكله يوجه إليه عبارات قذف لاذعة، الأمر الذى جعل المحامى الكبير يصر على تقديم شكوى إلى النيابة المختصة التى يتبعها مبنى المحكمة، وقد اهتم السيد المحامى العام بالشكوى فأمر بضبط المتهم لإجراء التحقيق معه على الفور، إلا أن الأستاذ الكبير دهش فى اليوم التالى عندما علم أنه قد أفرج عن المتهم بكفالة ضئيلة قدرها عشرة جنيهات..

فذهب بشكواه إلى السيد الأستاذ نقيب المحامين وكان حينذاك المرحوم الأستاذ محمد مصطفى البرادعى، وقص عليه قصته فى وجود قطب من أقطاب المحاماة كان فى زيارة للنقيب واقترح القطب الكبير أن يقوم باتصال مع المسئولين فى السلطة التنفيذية ليصعِّد هذا الأمر لأهميته، معززا ذلك بأن الاعتداء على المحامى الكبير قد يؤدى إلى الاعتداء يوميا فى قاعات المحاكم على المحامين عمومًا إن لم يتخذ موقف يتفق مع جسامة الأمر..

وإذ بالنقيب العظيم محمد مصطفى البرادعى يأبى الفكرة المعروضة وينظر للمحامى الكبير المعتدى عليه ليقرر له عبارة مأثورة يجب أن تتداولها الأجيال من المحامين وتكون أمام أعينهم فى كل لحظة يعملون فيها بمهنتهم الشامخة العريقة..

قال النقيب: «المحامى لا يحتمى بأحد - المحامى يحمى الجميع»..

قول مأثور يجب أن يكون فى البال فى كل خطوة يخطوها المحامى بالمحكمة أو فى مكتبه أو فى أى مكان آخر - فعلى أكتافه ألقيت مسئولية حماية الجماهير وحماية الناس، وهو الذى يحميهم من أى عدوان يقع عليهم وهو الذى يدافع عن الحق ويسعى لإظهاره بما يسلكه من طرق مشروعة فى هذا السبيل..

تقليد من تقاليد المحاماة أرساه زعيم من زعمائها يجب أن يتمسك به الجيل الجديد من المحامين ليعيش فيه ويطبقه..

درس تلقيته من أحد أبنائى

«إن الكبير منا يحترم الصغير.. وعلى الصغير أن يوقر الكبير».

كنت حاضرًا عن المدعى عليه فى قضية مدنية وكانت المنصة التى جلس عليها القضاة الثلاثة أمامها منضدة صغيرة لا تسع إلا محاميًا واحدًا ليترافع أمامها ويضع عليها ملف قضيته..

وحضر عن المدعى فى القضية ذاتها أحد أبنائى من المحامين الجدد حاضرًا عن زميل لى يقضى فترة التمرين فى مكتبى..

وحسب النظام المتبع فى التقاضى، فإن المدعى هو الذى يبدأ أولاً فى المرافعة ويبدى طلباته، ثم يليه المدعى عليه ليبدى دفاعه وطلباته، عملاً بالقاعدة القانونية المعروفة أن المدعى عليه هو آخر من يتكلم..

وترافع ابنى الحاضر عن زميلى مبديًا وجهة نظر المدعى وطلباته، وانتهى من مرافعته، وبدأ دورى فى المرافعة، وبرفق قلت لزميلى الجديد فى المهنة عبارة وردت على لسانى أنا المحامى الذى مضى على مباشرتى للمهنة ثمانية وثلاثين عامًا..

قلت له «لو سمحت يا ابنى أقف مكانك لأضع ملف القضية على المنضدة»..

وإذ بزميلى الجديد ينظر لى باستياء قائلاً:

«أنا لست ابنك - أنا محامى مثلك تمامًا لا تقل لى «يا ابنى»..

واستأت وتعجبت كيف لابن من أبنائى أن يبادرنى بهذا القول أمام المحكمة وأنا فى مقام أستاذ أستاذه، فعاودت القول:

.. «يا ابنى عيب تقول الكلام ده..».

فعاود زميلى الجديد استياءه قائلاً لى:

«أنا لست ابنك، لقد قلت لك أنا لست ابنك، أنا محامى زى زيك لا تقل لى «ابنى من فضلك»..

وانتقل الاستياء والتعجب إلى القضاة الثلاثة الذين يعتلون المنصة، فوجه رئيسهم إلى زميلى الجديد عتابًا قائلاً:

«يا أستاذ زميلك ده فى مقام أستاذك وأكثر منك تجربة وأكثر منك علمًا «كيف تقول ذلك؟؟ اعتذر لأستاذك..».

وفى تلك الفترة الوجيزة التى وجه فيها رئيس المحكمة العتاب إلى المحامى الجديد كنت قد تمالكت نفسى، ووعيت الكلمات التى صدرت من زميلى الصغير فتبينت أنه على حق، فسارعت لأقول للمحكمة ولرئيسها بالذات:

«إن زميلى لم يخطئ وإنما أنا الذى أخطأت - لقد صدق زميلى العزيز عندما نبهنى إلى أمر فات علىّ أنا الكبير - أننا نقف أمام المنصة سواء، وإن كان لمهنتنا الشامخة سمة تختلف عن باقى المهن الشريفة - فإن مهنتنا هى المهنة الوحيدة التى يتسابق فيها الصغير والكبير أمام هذه المنصة التى يجلس عليها القضاة، إن الميزان الذى هو رمز للعدالة، إنما يرمز فى كفتيه المتساويتين إلى المدعى والمدعى عليه، إحدى كفتيه

المدعى - والكفة الأخرى المدعى عليه - وعندما كان رمز العدالة يعنى أن تتساوى الكفتان - فإن العدالة توجب ألا يفرق بين المحامى الصغير والمحامى الكبير..

وعندما ذكرت لزميلى الذى يحضر عن خصم موكلى فى القضية عبارة «يا ابنى» فإن هذه العبارة تجعله أمام المنصة فى درجة أقل منى تجربة وأقل منى علمًا وهذا ما تأباه العدالة، فكلانا عندما يقف أمام المنصة يجب أن يكون متساويًا مع الآخر، لا فرق بين محام صغير ومحام كبير - لا فرق بين محام تحت التمرين ومحام مقبول للمرافعة أمام محكمة النقض - هذه هى المحاماة - وفى هذا عظمتها - وقلت لرئيس المحكمة «إن ما حدث أمامكم الآن درسا تلقاه أستاذ من أحد تلاميذه»..

ارتاحت المحكمة، ولكن الزميل لم يهدأ لما قلته، بل عاود ليقول:

«لقد قلت إنك أستاذى وإننى تلميذك، وهذا الذى ذكرته قد ألغى كل ما قلته من قبل، وعلى ذلك فإننى أصر على أن تعاود لتقر بأننا أمام هذه المنصة سواء».

وكان الدرس الثانى الذى أعطاه لى ابن من أبنائى - لقد صدق فيما ذكر ومن هنا بدأت مرافعتى عن المدعى عليه قائلًا:

أقدم اعتذارى إلى زميلى الحاضر عن المدعى، وأقر له بخطئى، وأقول فى موضوع الدعوى.... إلخ.

وأكملت مرافعتى مبديا طلباتى..

هكذا تعلمت من أحد أبنائى ما كان غائبا عن بالى - وهكذا كانت القاعدة بين المحامين «أن يحترم الكبير الصغير.. وأن يوقر الصغير الكبير..»،

القمر بدرا.. وهو فى المحاق!!

«.. تلك القاعدة التى قالوا لنا عنها فى الجامعة، إن صاحبها فقيه قد فرنسي، بينما قائلها سيد البشر محمد بن عبدالله -ﷺ- منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان..»

يتساءل الكثير من الزملاء المقيدين حديثًا فى جدول المحامين - عن المبادى التى ينادى بها كل من يعمل فى هذه المهنة الشامخة - والمثل العليا التى يجب أن يحتذيها أى إنسان فى حياته العامة والخاصة - يتساءلون كيف للمحامى الذى يعتنق هذه المبادئ والمثل العليا يقبل أن يكون مدافعًا عن سارق أو قاتل أو تاجر مخدرات أو متعاطٍ لها..؟؟ بل إن بعض الزملاء من القدامى يروجون بأنهم لا يقبلون قضايا الدعارة وقضايا المخدرات، وأنواع أخرى من القضايا لأنهم يرون أن مثل هذا النوع من القضايا لا يجب على المحامى الذى يؤمن بمبادئ مهنته السامية - أن يقبل الدفاع فيها عن مرتكبى الإثم الذى يستهجنه المجتمع وينبذ فاعله..

وكنت ممن يباهون بهذا فقد رفضت الكثير من القضايا التى كنت أرى أنها لاتتفق ومبادئ المجتمع الحميدة الذى أعيش فيه، وأومن بمبادئه، حتى كان لقائى مع شيخ من شيوخ المحاماة وعميد لنا جميعًا الدكتور/محمد عبد الله المحامى - فاستهجن مسلكى هذا معلنًا أن المحاماة نجدة، وأن على المحامى أن يقبل الدفاع عمن يستنجد به ويطلب

الوقوف بجواره أيًّا كان نوع الإثم الذى ارتكبه المستنجد - وقد برر ذلك بقوله إننا ما دمنا نؤمن أن المحاماة رسالة حق - فإن المحامى لا يمكن بجهده أو بعلمه أن يقلب الحق باطلاً، أو أن يقلب الباطل حقًّا، وبالتالى فهو يقضى واجبا ألقاه على عاتقه الدين والقانون وشرف المهنة التى ينتسب إليها..

ومن هنا فقد عدلت عن ما كنت أتبعه فى القضايا التى أوكل فيها - ووجدت فى إحدى الأمسيات جمعا ليس بالقليل، ينتظرنى فى مكتبى ليعهدوا لى الحضور عن متهم فى قضية مخدرات، وعلى الفور فقد قبلت القضية التى كانت ستنظرها محكمة الجنايات بسوهاج وتبين لى مِن مطالعة الأوراق أن الضابط الذى تم الضبط بمعرفته - سبق له وأن ضبط ذات المتهم وبعض أقاربه فى قضايا أخرى من ذات النوع، وقضى فيها بالبراءة، وقد اقتنعت بعد القراءة والدراسة بأن المتهم فعلاً برىء، وتذكرت قول أستاذى من أن قبول النجدة لأى متهم يلجأ إلينا هو أمر يجب أن نعتنقه جميعًا، فإن كان البعض منا لا يقبل مثل هذا النوع من القضايا بافتراض أن المتهمين فيها هم مذنبون دائمًا فإنهم قد غاب عن بالهم، أن يكون هؤلاء المتهمون بُرَآء مِن التهم المسندة إليهم فهنا تكون مهمة المحامى أعظم أن يصل إلى براءة برىء اتهم فى قضية تمس الشرف والأمانة والسمعة الطيبة..

ولبعد المسافة بين القاهرة وسوهاج - فقد قمت بحجز مقعد لى فى قطار الصعيد وغادر القطار القاهرة متجهًا إلى الصعيد - رحلة يعرف قيمتها وقدرها كل محب لوطننا العزيز «مصر» وكانت نصيحة الزعيم

النقيب مصطفى البرادعى أن يراجع المحامى ملفه قبل الجلسة بيوم أو فى صباح ذات اليوم، فهو إذا ما فعل ذلك سيتذكر كل دقائق الدعوى وتفصيلاتها حتى التواريخ سيتذكرها دون عناء - وقتلت وقت القطار فى إعادة قراءة الجناية وتحديد ظروف المتهم خاصة ضبطه، وسرعان ما وصل القطار إلى مدينة أسيوط ومن مدينة أسيوط إلى مدينة سوهاج كان العذاب.. فقد كان هناك إصلاح للقضبان ترتب عليه أن تعطل القطار إلى أن وصل مدينة سوهاج فى الحادية عشرة مساء وعلى المحطة وجدت جمعًا غفيرا من أبناء الصعيد الرجال الأشداء الذين يرتدون لباسًا مميزًا وهو الجلباب السميك والعمامة التى يلفها منديل سميك ومع ذلك كله عباءة سوداء أو من اللون البنى الغامق.. واندهشت، فالساعة متأخرة خاصة فى بلاد الصعيد تلك البلاد التى تعود أهلها أن يذهبوا إلى الفراش مبكرًا، وظننت أن هناك شخصية هامة ينتظرونها آتية بالقطار، فأخذت الحقيبة وارتديت المعطف وما أن ظهرت على باب القطار حتى وجدت هذا الجمع الغفير متجهًا نحوى، وتبين لى أن الشخصية الكبيرة التى ينتظرها هؤلاء الرجال، هى شخصية المحامى الذى سيترافع فى الغد عن رجل من رجال عائلتهم له شأن بينهم، فأتوا مهتمين بمن سيؤدى الواجب، وأضحى يتملك المحامى سعادة غامرة لا يحسها إلا من غمرته سعادة من نوع آخر فيجد أن السعادة التى غمرته فى مناسبة أخرى لا يمكن أن تقارن بتلك السعادة التى يحس بها عندما يرى الرجال يقدرون قدر أداء الواجب الذى سيؤديه المحامى عندما يدافع عن ظلم ليظهر الحق ويثبت أن مواطنًا اتهم خطأ فيثبت براءته..

وكان الترحاب إلى أن أتى الصباح فوجدت أن قاعة الجلسة مليئة بالمتفرجين والمحامين أتوا لكى يسمعوا مرافعة زميل لهم أتى من القاهرة، والقاهرة معروف على مستوى الجمهورية أن بها من المحامين من هم أقدر من غيرهم فى باقى البلاد وليس فى هذا مساس بالزملاء فى مدينة سوهاج فقد كان منهم مترافعًا معى زميلان كريمان أديا الواجب كما أديته..

وعقدت الجلسة ونودى على الشهود، وكان الشاهد الذى يهمنى هو الشاهد الذى ضبط الواقعة، والذى لخصها فى أنه كان على علم بأن المتهم يتاجر بالمخدرات وأنه استصدر إذنا من النيابة لضبطه فى طريق زراعى يبعد عن المدينة بخمسة كيلومترات وأنه فور أن رآه قام بضبطه فوجد معه لفافة تبين أن بها كمية كبيرة من المخدرات - وكانت القضية فى مناقشة هذا الشاهد وإثبات كذبه حتى أدخل الشك فى وجدان المحكمة فلا تجد سبيلًا له إلا أن تحكم بالبراءة عملًا بالقاعدة القانونية المعروفة أن الشك يفسر لصلح المتهم، تلك القاعدة التى قالوا لنا عند دراستها فى كلية الحقوق أن صاحبها هو فقيه فرنسى بينما الواقع أن صاحب هذه القاعدة هو سيد البشر محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام والتى قررها منذ أكثر من ألف وأربعمائة وعشر سنوات عند ما قال «ادرءوا الحدود بالشبهات» ومن هذه القاعدة التى أرساها عليه الصلاة والسلام جاء القول المأثور أن «تبرئة مائة مذنب خير من إدانة برىء واحد»..

وبعد أن ناقشت المحكمة الشاهد طلبت مناقشته فسألته عما إذا كان الطريق به أعمدة نور فأجاب بالنفى - فعدت لأسأله وهل كانت الليلة مقمرة؟ فأجاب نعم.. كان القمر بدرًا فسألته عما إذا كان قد تيقن من أن

المتهم هو الذى يسير فى الطريق أم أن غيره ؟؟ فأكد أنه رآه وأنه يعرفه. فسألته السؤال الأخير عن المسافة التى كانت بينه وبين رؤيته للمتهم لأول وقت ؟؟ فأجاب أنها حوالى ثلاثين مترًا، واكتفيت بهذه الأسئلة لتبدأ مرافعتى مشككا فى قول الضابط الذى ضبط المتهم ومشيرًا إلى الأحداث التى لفقها له ولأفراد آخرين من عائلته والتى أشرت إلى أنها جميعًا قد انتهت بصدور أحكام بالبراءة - وأبرزت للمحكمة أجندة من أجندات القضايا بمكتبى عن العام الذى وقعت فيه الجناية وتبين للمحكمة من مطالعة الأجندة أن اليوم الذى تم فيه الضبط كان القمر فيه محاقًا... !! أى أن الظلمة كانت دامسة - وبالتالى فقد كذب الضابط عندما قرر أن القمر كان بدرًا، كما أنه كذب أيضًا عندما قال إنه قد رأى المتهم على بعد ثلاثين مترًا، لأنه يتعذر على الإنسان العادى مهما بلغت قوة إبصاره أن يتبين شخصية ما آتية فى الظلمة على بعد ثلاثين مترًا..

وكانت الهتافات أعلى من الزغاريد، هتافات الرجال الذين سمعوا حكم البراءة الذى أظهر براءة رجل من رجال عائلتهم كانت ستلصق به تهمة تظل معه إلى أن يموت وتخلد من بعده لأولاده..

هكذا أديت الواجب فى جريمة من الجرائم التى يمتنع بعض الزملاء عن تأدية الواجب فيها فهذا المتهم البرىء قد ثبت أنه ليس من تجار المخدرات، وأن التهمة التى ألصقت به كيدًا وكذبًا، وبالتالى فإن مهمة المحامى هنا أن يثبت الكيد والزيف لكى يظهر الحق الذى هو كما قال الزعيم السادات لا يمكن أن يكون إلا حقا فلا يجاوره من يمينه إلا باطلًا ولا يجاوره من يساره إلا باطلًا..

.. المحاماة مهنة كل المهن..

«.. قد يجد المحامى نفسه مضطرًا إلى أن يدرس دقائق أى مهنة ليصل إلى تبرئة برىء..»

ذهب الطبيب الشاب إلى محاميه مرتعشًا مع جمع من أقربائه.. وكان الأمر الذى ذهبوا من أجله، هو أن الطبيب الشاب اتهم فى جناية إجهاض، عقوبتها قد تصل إلى السجن ١٠ عشر سنوات مع ما يترتب على ذلك من منعه من مباشرة مهنته أيضًا، وبالتالى تدمر مستقبله، الذى عانى - هو وأهله من أجل أن يكون مشرقًا - كما تصوروا - وكما يتصور كل أب وأم إذا ما اجتاز ابنهم الثانوية العامة بتفوق ثم يقبل طالبًا فى كلية الطب - فما البال وقد انتهى الطالب من دراسته وتخرج من كليته وأصبح طبيبا، له الحق فى مزاولة مهنة الطب..!!

.. وحسبما اتضح دائمًا - فإن الأمر فى الدعاوى المدنية يحتمل قبول الدعوى أو رفضها - أما الدعوى الجنائية، فإنها لا تحتاج إلى تفصيل أو تفكير، فالمحاماة حقًا - وكما ذكرنا - رسالة، وهى فى ذات الوقت نجدة، فإذا ما استغاث بك طالب نجدة، فعليك أن، تستجيب أيا كان الموقف، وأيا كان الاتهام..

وباطلاعى على ملف الجناية، تبين أن الطبيب قد تخرج منذ سنوات قليلة، لا تزيد على الست وهو من عائلة بسيطة، قامت على تربيته، حتى أصبح طبيبًا تفخر به وتتيه، وتمكن من فتح عيادة فى إحدى ضواحى مدينة

حلوان، وتوافد على عيادته أهل الحى والبلدة، فاشتهر بينهم بأنه طبيب معالج لكل الأمراض، وهو ما يطلق عليه ممارس عام، وتشاء الظروف، أن تذهب إليه - فى عيادته - شابة ومعها شاب يعمل فى شركة الحديد والصلب، ويطلعانه على سر مكنون بينهما، مقتضاه أنها قد. خطبت لهذا الشاب وعقد قرانها ولم يتم الزفاف إلا أنهما فى إحدى المرات وهما متحابان انزلقا فى الخطيئة وحملت منه، وكان أن جاءا سويا ليعمل الطبيب على إجهاضها سترًا للفضيحة، التى لاحت فى الأفق، وبدأت آثارها تظهر على بطن الشابة..!

وقالت الأوراق إن الطبيب رفض أن يقوم بالإجهاض متمسكًا بمبادئ المهنة وأن الإجهاض فى هذه الحالة جريمة يعاقب عليها القانون، وإثم يرتفع إلى درجة الجناية، ففضلاً من أنه غير محبوب، فإنه أيضًا معاقب عليه بالقانون، فوجه العجب هنا أن القانون يعاقب على الإجهاض فى دولة تسعى إلى تحديد النسل وعدم كثرة الإنجاب...!!

وكان وجه العجب - أن اللذين يسعيان إلى إتمام الإجهاض، قد أعلنت خطبتهما، بل قد عقد قرانهما، وبالتالى فإن ما ارتكباه لا يعد جرما فى حكم القانون، ولا يعد إثما فى حكم الشريعة..!!

فالشابة أصبحت زوجة للشاب الذى أصبح زوجًا لها، له كافة الحقوق الزوجية، ولكنه يخضع فى ذات الوقت للتقاليد التى جرى عليها المجتمع الذى يعيش فيه، فقبل أن تزف إليه زوجته، يجب ألا يباشر حقوق الزوجية علنًا أو سرًا..

وانصرف الشاب مع زوجته لعلهما يجدان حلاً عند طبيب آخر، إلا أن الطبيب المتهم فوجى بهما يدخلان عليه فى عيادته، والزوجة فى حالة تشبه الإغماء، طالبين النجدة فوجد الطبيب الشاب أن واجبه يفرض عليه أن يبحث الحالة. فأدخلها غرفة الكشف وتبين له أنها حاولت أن تجهض نفسها فأصيبت بهبوط فى القلب، أصبح يهدد حياتها وعلى الفور وفى حضور زميل له جاء لزيارته وتهنئته على فتح عيادته الجديدة - أرسل الطبيب الزوج لشراء حقنة لرفع ضغط الدم الذى تبين للطبيب أنه وصل إلى حد يوجب مواجهته بعلاج طبى سريع، وعلى الفور ذهب الزوج إلى أقرب صيدلية وأتى بالحقنة وقام الطبيب الشاب بحقن الشابة فى الوريد ليسعفها من الحالة التى أصبحت تهدد حياتها - وإذ بالمفاجأة تقع، لقد ساءت حالة المريضة أكثر، وظل الضغط منخفضًا بل زاد انخفاضه مما جعل الطبيب يستغيث بزميله الذى قام بحقنها مرة أخرى فى العضل بحقنة ترفع ضغط الدم وتمنع وقوع الكارثة، إلا أن الأمر ازداد سوءًا - ووجد الطبيبان أنه يجب نقلها إلى أقرب مستشفى، فقاما سويا ومعهما الشاب الزوج بحملها إلى سيارة الطبيب الذى ذهب بها فورًا إلى أقرب مستشفى وكانت فى ضاحية المعادى، إلا أن الشابة كانت قد فارقت الحياة فور وصولها إلى المستشفى، فقاموا بنقلها إلى داخل المستشفى وقام الطبيب المنوب بالكشف عليها - وحرر تقريرًا طبيًّا يثبت أن الزوجة قد توفيت نتيجة هبوط حاد فى القلب، ولم يأت بذكر عن الإجهاض، إلا أنه كتب فى تقريره الطبى أنه لاحظ وجود آثار دماء بين فخذيها دون أن يتعرض لواقعة الإجهاض.

قامت النيابة بالتحقيق وانتدبت الطبيب الشرعى للكشف على الجثة الخاصة بالمتوفاة وقدم الطبيب الشرعى تقريره، بعد أن ذكر فيه أنه قد وجد المتوفاة حاملاً فى الشهر الثالث وأن الجنين طوله ٩ سم، وأن إجهاضا لم يتم بل ذكر فى تقريره أن المتوفاة كانت بكرًا..

وأمام المحكمة، وجد المحامى نفسه مضطرا أن يقرأ فى الطب، ويستزيد فى قراءته وبحثه ويقدم بحثًا دقيقا متعمقًا عن آثار الحقن، وتبين له أن الحقن قد يؤدى إلى الوفاة، وحتى يصل من تلك الدراسة إلى أن المتهم لم يرتكب إثما عندما أقدم على حقن الفتاة التى ثبت أنها كانت تحمل جنينًا فى الشهر الثالث، وثبت فى ذات الوقت أنها مازالت بكرًا وبالتالى فإن الإجهاض لم يكن قد تم، ولم يبق إلا الاتهام الذى وصفته النيابة فى تقريرها وقدمت بمقتضاه الطبيب إلى المحكمة بأنه «حقن عمدًا الفتاة لإجراء عملية جراحية دون أن يكون هناك مقتضى لإجرائها، فحدثت بها الأعراض المبينة بتقرير الصفة التشريحية - ولم يقصد من ذلك قتلاً، ولكن الحقن أفضى إلى موتها وكان ذلك مع سبق الإصرار..

بمعنى أن النيابة العامة لم تقدم الطبيب بتهمة القتل الخطأ، وهو ما يكون عليه الاتهام فى مثل هذه الأخطاء، وإنما اختارت للاتهام وصفًا أدخله فى وصف الجنايات، بينما كان وصفه بالقتل الخطأ يدخله فى نطاق الجنح..

وبالبحث تبين أن الطب الشرعى قد أقدم على تقدير واقعة كانت جديدة على المحامى الذى يترافع فى الدعوى - وكانت أيضًا جديدة على المحكمة عندما سمعت المرافعة - بدليل أنها طالبت تأكيد إثبات هذا

الدفاع بمراجع فقهية وأحكام قضائية – لقد تبين أن الطب قد أجمع على أن الحقن الوريدى (أى الحقن فى الوريد) قد يؤدى إلى صدمة عصبية قد تعجل بالوفاة – دون أى مقدمات، وليس الحقن الوريدى بمقدوره أن يؤدى إلى هذه النتيجة وحده – بل إن الحقن بأى حقنة قد يؤدى إلى ذات النتيجة، ويؤهل المريض إلى حالة الصدمة العصبية، حالة الخوف والارتباك التى قد تكون قد انتابته بمجرد أنه يخشى الحقن فى ذاته، وحالتنا كانت لشابة قد ذهبت خوفًا من أهلها الذين يعيشون فى مجتمع يقرر الإثم والخطأ للزوجة التى عقد قرانها ولم تزف إلى زوجها – إذا ما ظهرت أعراض الحمل عليها دون عذر ودون أن يكون لعقد قرانها مبرر لتخفيف عقوبة المجتمع عليها ونظرته الغبية فى الفعل المشروع الذى أقدمت عليه خطأ أو تحت ضغط هو فى أسوأ الظروف ضغط العاطفة..!!

هكذا على المحامى واجبًا أن يكون طبيبًا بارعًا فى بعض الأحيان، حتى يناقش الطبيب الشرعى فى تقريره، وحتى يصل بالمحكمة إلى اليقين الذى يجبرها على أن تبرى المتهم من تهمة عقوبتها ليس السجن فحسب، بل القضاء بهدم مستقبل شاب سعى لأن يكون مواطنًا صالحًا بين مواطنيه..

وهكذا كانت المحاماة مهنة كل المهن ، فقد يجد المحامى نفسه طبيبًا، قد يجد نفسه مهندسًا أو محاسبًا، أو مقاولًا أو عاملًا أو فلاحًا، فيصل إلى دقائق هذه المهن، ويكشف السر فى دقائقها ليصل بمتهم، قد يكون الظلم قد التف حوله من كل مكان بحيث لم يترك ثغرة ينفذ منها – اللهم إلا إذا كشف المحامى سِرًا لمهنة فيمكن بذلك من أن يكشف الظلم

ويظهر الحقيقة واضحة أمام المحكمة، وليصل إلى تحقيق أمل البشر فى تبرئة البرىء بدافع كان الخالق سبحانه وتعالى هو الأمر أن يكون بجواره فى الجنايات الكبرى، وهى أفعال ترتكب وتكون عقوبتها من القسوة بما كان يوجب أن يجد المتهم بجواره مدافعًا عنه يدفع عنه الظلم ويصل به إلى الحقيقة التى تبرئه - وكان حكم المحكمة - براءة الطبيب مما نسب إليه من اتهام، مما جعل هذا الحكم بداية لمستقبل ناجح لطبيب أوقعته مهنته فى ظروف ما كان له أن يتوقعها، عندما أتت إليه الزوجة ومعها زوجها طالبين النجدة، مما أوقعا نفسيهما فيه، عندما حاولت إجهاض نفسها بعد أن رفض الطبيب عملية الإجهاض فذهبت إليه مستنجدة لكى يعانى الطبيب ماعاناه فى سبيل أداء واجب مهنته - ولكى يدرس محاميه دقائق أسرار مهنة الطب، ليصل بهذه المعرفة إلى براءة الطبيب الذى يباشر مهنته..

هزل.. انقلب جدًّا

«.. فالهزل ليس دائما تكون نتيجته هزلا.. وإنما
قد ينقلب الهزل جدا..».

كان الشاب – وهو شاب ولو أنه قد تجاوز الثلاثين من عمره – فرحًا بالسيارة التى اشتراها له والده، فهى من ماركة (B.M.W) اختارها بلون أحمر يتسق مع تطلعاته وطباعه فى أن يلفت النظر إليه وإلى أفعاله التى يأتيها وخاصة لفت نظر الجنس الآخر – واعتاد الشاب أن يصاحب من هم فى مستواه الاجتماعى، فكان يتردد على أعرق النوادى الرياضية فى مصر مصاحبًا أقرانه ممن لهم ذات ظروفه – إلا أنه بجوار هؤلاء كانت السيارة الـ B.M.W مطمعًا لآخرين ليسوا فى مستواه الاجتماعى، فكانوا يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على ملعقة من عسل النحل – ولكنه كان يرفضهم جميعًا إلا أحدهم استطاع أن يجذبه بما كان يقصه عليه من قصص خيالية، كان يدعى أنه قام بها أو أن أحد أصدقائه قد أخبره أنه كان بطلها..

وتوطدت العلاقة بينهما حتى أصبحا شبه أخوين – ولكن الصديق الذى بهره المستوى الذى يعيش عليه هذا الشاب، وما يتمتع به من راحة مادية ومعنوية، جعلت الشاب ينظر إلى صديقه نظرة عطف وشفقة، فكان يتركه يتمتع بما يتمتع هو به من مزايا، ووصل الأمر إلى أنه كان يترك له سيارته يقودها بمعرفته إلى أن كان يوم..

فى ذاك اليوم ركب الصديق على مقعد القيادة وجلس الشاب بجوار صديقه فى المقعد الأمامى الذى يجاور السائق، وإذ بهزل يدور بين الصديقين انقلب حسبما سنذكر فيما بعد - إلى جد، ويا ليته ما انقلب..

فقد طرأت على بال الصديق فكرة جنونية. قوامها بطولة زائفة نسبها إلى نفسه دون أن يدرى ما ستجره عليه من مصائب له وللشاب صديقه - لقد ذكر الصديق للشاب أن بإمكانه أن يملأ خزان السيارة بالبنزين دون أن يدفع مقابلاً له، فلما أفهمه الشاب مالك السيارة بأن هذا أمر مستحيل، إذ بالصديق يتحداه، وإذ بالشاب يقبل التحدى، وإذ بالصديق على الفور يمر على محطة بنزين فيدخلها بسيارة الـ B.M.W وكعادة هؤلاء الذين يقودون مثل هذه السيارات الفارهة أوقف سيارته بجوار طلمبة البنزين ٩٠ آمرًا عامل المحطة بأن «يفول السيارة» أى يملأ الخزان بالبنزين» ونزل من السيارة سائلاً عما إذا كان هناك إمكان للاتصال التليفونى، فأشار إليه العامل بأن المكتب به آلة تليفون ليتوجه لكى يستعمل التليفون، ثم يعود سائلاً عامل المحطة عن صاحب المحطة الذى تبين أنه كان يعرف اسمه، فإذ بالعامل ينخدع ويسأله عن صلته بصاحب المحطة فيقرر له الصديق على الفور بأنه أخوه - وتنطلى على عامل المحطة الحيلة وينتهى من ملء خزان الوقود بسيارة الشاب ويتوجه إليه لكى يحاسبه، فإذ بالصديق يخبر عامل المحطة بأنه سوف يترك لأخيه أن يتحمل ثمن الوقود مكتفيًا بأن يذكر لعامل المحطة بأن يخبر أخاه بأنه جاء وملأ خزان الوقود - ولكن العامل يفيق ويصر على أن يتقاضى ثمن البنزين، فيراوغه الصديق ولكن المراوغة لم تأت بنتيجة، مما جعل الشاب

مالك السيارة يحس بأنه قد كسب التحدى، وأن أمر صديقه قد خاب، فإذ به يذكر لعامل المحطة بأنه سيقوم بسداد قيمة البنزين فيرفع عامل المحطة يده من على السيارة ليتلقى ثمن البنزين من الشاب مالك السيارة - ولكن الصديق وقد أحس بأنه قد خسر التحدى إذ به ينطلق بالسيارة بسرعة فائقة محاولاً الفرار دون دفع ثمن البنزين الذى ملأ به خزان السيارة..

وقد ورد فى أوراق الدعوى أن عامل المحطة قد وجد أمامه «سوزوكى» متأهبة لمغادرة المحطة فصاحب قائدها مطاردًا السيارة الـ B.M.W ولكنها سرعان ما اختفت، فبحثوا فى الشوارع الجانبية إلى أن عثروا عليها، وثبت بالأوراق أنهم وجدوا الصديقين يضحكان بملء فمهما معتقدين أنهما قد نجحا فى إدخال الغفلة على عامل المحطة باحثين عن الطريق الذى يؤدى بهما إلى أن يعيدا إليه ثمن البنزين حتى لا يتحمل العامل بقيمته..

وإذ بالهزل ينقلب فجأة إلى جد، فقد أمسك عامل المحطة بقائد السيارة وتعلق بعجلة القيادة، وطلب النجدة من المارين كما ساعده قائد السيارة «السوزوكى» لينقلب الأمر إلى مأساة - ذلك أن الشاب صاحب السيارة نزل من سيارته وطلب من العامل النقاش محاولاً إفهامه بأنها لعبة كانت بينه وبين صديقه، ولكن هيهات فقد استفحل الأمر واستدعى رجل الشرطة وكان أمينا، فجادل فى الأمر وأخرج الشاب من جيبه ثمن الوقود وأضاف إليه جنيهات خمسة كتعويض للعامل عما ناله من ضرر، ولكن

العامل وقد أخذ حقه لم تهن عليه نفسه، فإذ به يتمسك بأن يقود الاثنين إلى قسم الشرطة..

وكانت المفاجأة للشاب وصديقه ولعائلتيهما، حينما تبين لهما أن القانون يعتبر هذا الفعل مكونا لعناصر جريمة كاملة كجريمة السرقة بالإكراه، ويعاقب عليها بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة أو بالسجن، وكانت دهشة الشابين أنهما عندما أقدما على هذا الفعل إنما كانا مقدمين عليه كهزل بين صديقين وأنهما ما كانا يعتقدان أن هذا الهزل يدخلهما فى مساءلة جنائية فى جريمة اعتبرها القانون جناية، وجعل عقوبتها مشددة فضلاً عن أنها من الجرائم التى تمس الشرف والأمانة، وبالتالى تكون عائقًا لهما طوال حياتهما من أن يتوليا عملاً شريفًا أو على الأقل، يشترط لمباشرته أن يكون من يقوم به لم تصدر ضده أحكام تمس الشرف، أو الأمانة..

وبعد معاناة عاناها الدفاع عنهما – استشعرت المحكمة أن الموقف قد تطور بما لم يكن يتوقعه الاثنان، فاستعملت حقها فى تخفيض العقوبة واكتفت بأن وقعت على كل منهما جزاءً بأن حكمت على كل منهما بالحبس ستة أشهر مع الإيقاف، وقد سجلت فى حيثيات حكمها أنها راعت أن يكون ذلك درسًا لهما عسى ألا يرتكبا مثل هذا الفعل مرة أخرى – فالهزل ليس دائمًا تكون نتيجته هزلاً، وإنما قد ينقلب الهزل جدًّا، وتكون العواقب غير متوقعة على الأقل باستعمال المنطق السليم..

المحاماة لمن تعشقه

«.. هى إن أعطت، فهى لا تعطى إلا لمن
عشقها، وسار فى دروبها وتمكن من الوصول
إلى فنها وأسرارها..».

تخرجنا من كلية الحقوق بجامعة القاهرة - وكانت حينذاك تسمى جامعة فؤاد الأول - فى عام ١٩٥٢ قبل انبلاج نور الثورة بأيام - ولذلك فقد أطلق على دفعتنا أنها دفعة الثورة - وعقب تخرجنا صدر قرار من أعجب القرارات التى صدرت طوال سنوات الحكم فى مصر - صدر القرار بمنع التوظف فى الحكومة - ولم يكن القطاع العام قد أنشىء بعد..

ووجدنا أنفسنا نحن خريجى دفعة ١٩٥٢ - ولا مجال لنا للعمل إلا فى المحاماة وقد ظل هذا القرار مطبقًا أكثر من عام حتى إن أوائل دفعتنا لم يعينوا فى مجلس الدولة أو النيابة أو فى كليات الحقوق طوال هذه الفترة، وظلوا معنا يمارسون مهنة المحاماة حتى يأتى الفرج بالنسبة لهم - وكنت واحدًا ممن التحقوا بمدرسة المرحوم عبد الكريم رؤوف المحامى، وكان أشهر المحامين فى القانون المدنى وفى الأحوال الشخصية حينذاك، ونظرًا لأننى حصلت على درجة «مقبول» فقد كان الطريق الوحيد أمامى هو أن أعمل بالمحاماة وظللت فى مدرسة المحاماة التى التحقت بها، أتعلم وأتلقى الدروس من العلامة الكبير الذى كان لا يرأف بتلاميذه معتقدًا أن هذا هو الطريق السوى لكى يجعل منهم أساتذة كبارًا..

وبعد أعوام خيل إلىّ أننى أحببتها - أحببت المحاماة - وظل تعلقى بها يزداد حتى خيل إلىّ أننى أحببتها كما لم يحبها غيرى، وسرت فى طريقها الوعر الذى يتطلب لكل سائر فيه أن يناضل من أجل أن يتخطى العقبات، وأن يسهل الطريق لكى يصل إلى ما يريد..

ظللت كذلك حتى قابلته - النقيب الخالد المرحوم مصطفى البرادعى - وباقترابى منه تبين لى كيف لهذا النقيب العظيم أن يحبها - فلما رأيت حبه لها - تبين لى أمرا عجيبا - أننى لم أحبها..

نعم بجوار حبه الذى بلا حدود للمهنة التى عاش بها، ومن أجلها تضاءل حبى لها حتى كان يختفى، بجوار حبه لهذه المهنة الشامخة..

وظللت بجواره أتعلم منه كيف أحبها وكيف يحبها - فظللت أتعلم منه، وازداد حبى لها وظللت أحبها وأحبها وأحبها حتى خيل إلىّ أننى قد أحببتها أكثر مما أحبها هو..

كانت هذه هى قصة الحقيقة التى أرويها فى كل عام فى أول لقاء للمحامين الجدد فى معهد المحاماة بنقابة القاهرة - لأجعل لشباب المحامين قاعدة لحب المهنة التى هى إن أعطت فهى لا تعطى إلا لمن عشقها، وسار فى دروبها وتمكن من الوصول إلى فنها وأسرارها - نعم إن هذه المهنة الشامخة تبخل على شبابها وتلقنهم دروسًا وتختبرهم مرارًا، حتى تتأكد من أن الشباب قد عشقها وهى عندئذ عندما تتأكد أن الشباب عشقها، فإنها تعطيه بلا حساب، فترفعه فى مجتمع يضع للمحامى الكبير قدره، وتنهال عليه بأموال من كسب شريف حلال ليصبح المحامى علمًا

من أعلام المجتمع، ولا يكون هذا عادة إلا بعد جهاد طويل، يصبر فيه المحامى، ويتعلم ويتعلم - ويتعلم - ثم يتعلم - ثم ينتقل ليدرس - ثم يدرس ويدرس، وتكون التجربة والسير فى الطريق الشريف والبعد عن الشبهات والاعتماد على العلم، هو السبب فى أن يكون الشباب أحد هؤلاء الأفذاذ الذين شرفوا المحاماة، وشرفوا مصر على مر العصور والأزمان..

ترى، هل بدأت يا ولدى فى أن تتعلم كيف تحبها - عليك أن تلجأ إلى عاشق لها - فسيذكر لك طريق الوصول إلى عشقها..

ولكم فى القصاص حياة..

«ولا يعلم إلا الخالق كيف يقتص من القاتل»

ذهب أهل القاتل إلى أحد مشاهير المحامين يوكلونه فى قضية، اتهم فيها أحد أبنائهم بالقتل - وعندما عرف المحامى الشهير بأن القاتل قد ارتكب فعل القتل وعن عمد، اعتذر عن قبول القضية بالرغم من الرجاوات التى جاءت من الأهل - فذهبوا إلى محام كبير معروف بكفاءته فى قضايا الجنايات، ولم يفعلوا معه كما فعلوا مع سابقه بل ذهبوا إليه مؤكدين أن المتهم بالقتل لم يقتل وأنه ظلم فى هذا الاتهام وقدموا له الدليل تلو الدليل، فطلب مهلة للقراءة، ووجد أن ملف القضية يحوى إنكارًا مستمرا للمتهم عن ارتكاب الفعل المؤثم وهو القتل، وأن ظروف الدعوى تؤدى فعلًا إلى صدور حكم بالبراءة..

وحمل المحامى الشهير ملفه ومعه ثقته فى نفسه وثقته فى براءة موكله، فأبلى فى المرافعة ونظرت الجناية أمام محكمة جنايات الإسماعيلية التى استمرت فى سماع مرافعة المحامى الشهير نحو ثلاث ساعات، ثم خلت المحكمة بنفسها للمداولة وأصدرت حكمها ببراءة المتهم من تهمة القتل..

وأطلقت الزغاريد والهتافات بحياة العدل، وأخذ المتهم الذى قضى ببراءته مكبلا يداه بالحديد دافعًا له أحد العسكر الذين يتولون حراسة المتهمين، أو المحكوم عليهم واقتاده حارسه لكى ينهى إجراءات الإفراج عنه - وأمام باب المحكمة رأى المتهم طفليه وزوجته على الرصيف الآخر ينتظرونه حتى يتم الإفراج عنه - فيندفع أحد طفليه يعبر الشارع دون

أن يأخذ حيطة من أن هناك سيارة مندفعة إلى مكان العبور - فيندفع المتهم المحكوم ببراءته ليمنع عن ابنه خطر السيارة - ويتحقق هدفه، فينقذ الابن ولكن يموت هو تحت عجلات السيارة التى حاولت أن تقف لتتفادى الحادث، دون فائدة..

متهم بالقتل حكمت المحكمة ببراءته - يقتل بعد لحظات من صدور الحكم بالبراءة ويتبادل الناس الذين تواجدوا عند وقوع الحادث عن الحكمة الإلـهية التى دعت إلى أن يكون القصاص على هذا الوجه، ولا يكون على لسان القضاة الذين نقول دائمًا إنهم يحكمون باسم الله فى الأرض..

وتتجلى حكمة الله عندما نعلم أن المحامى الشهير كان له ابن مريض بمرض خطير فتقاضى أتعابه فى الدعوى لينفقها على مرض صغيره، وأن القاتل كان متزوجًا من سيدة فاضلة وله طفلان - فرأى الخالق ألا تضار الزوجة والطفلان بقتل أتاه والدهما فاختار هذا الطريق حتى يكون للزوجة وللطفلين مال يعيشون منه حتى يشب الطفلان وذلك مما يدفع كتعويض من شركة التأمين عن قتل والدهما خطأً..

وقد علم المحامى الكبير بواقعة اعتراف المتهم بالقتل من زميله الذى عرضت عليه القضية والذى أقر إليه بالسر بعد وقوع الحادث الذى اهتزت له مدينة الإسماعيلية حينذاك..

فقد قال زميل المتهم، بأنه قد كذب على المحامى الشهير ليقنعه ببراءته، ولكنه كان فعلاً هو القاتل فى الجريمة التى حكم فيها بالبراءة..

.. سبحان الله.. عنده الحكمة فى كل ما يجرى..

.. المحامى.. مؤرخًا..

«إذ بالمحامى العملاق يتجرد من حزبيته،
ليذكر لأبنائه الجدد، تاريخ مصر حسبما عاشه
ورآه دون أن ينحاز مع أحد أو ضد أحد..».

فى هذا الجو الشاعرى وأنا أجلس على شاطىء العريش الممتد يسارًا والممتد يمينًا بلا حدود وأمامى البحر الأبيض المتوسط بلا حدود وبلا نهاية لأن نهايته التى تستقر فى أبعد نقطة على الماء هناك فى مكان بعيد.. بعيد.. بعيد، هذه النهاية فى النظر والرؤيا نعلم جميعًا أن بعدها مياه ومياه ويابس وأرض وأراضى وشعب وشعوب هذه هى أراضى قارة أوربا، وشعوبها، فى هذا الجو أسجل هذه القصة لتلحق بكتابى..

كان فخارى فى نقابة القاهرة أننى التزمت بأن أغير المفهوم، لدى العامة فيكون المحامى عالمًا بدلاً من أن يكون حاذقًا يلعب بالبيضة والحجر، وعلى هذا فقد كان اهتمامى جله موجّهًا إلى هذا المعهد لكى أجعله لبنة تستمر على مر الأجيال يتعلم فيه الشباب من المحامين تقاليد المهنة وفنها وعلمها..

وفى أكتوبر ١٩٨٢ أمعنت التفكير فيمن يلقى المحاضرة الأولى فى الموسم القضائى ١٩٨٣/٨٢، وكان هذا بعد استشهاد الزعيم محمد أنور السادات - وكان الجو مازال مكفهرًّا والإرهاب مفروضًا لا من جانب الدولة وإنما من جانب هذه الجماعات التى استقلت بالإسلام،

وجعلته لنفسها، وحرمتنا منه نحن المسلمين الذين نفوق فى عددنا أضعافًا مضاعفة ونرتقى بعلمنا درجات ودرجات عما يدعون من علم ينسبونه إلى الإسلام وإلى سيد البشر محمد عليه الصلاة والسلام..

ولم يطل بى التفكير، فسرعان ما هدانى تفكيرى إلى أن القنبلة التى سيفجرها معهد المحاماة فى هذا العام - هى أن يبدأ محاضراته، فقيه علامة لا يختلف فى الحكم عليه اثنان - المرحوم الدكتور وحيد رأفت رحمه الله - فقد كان يؤثرنى بفضل من الله ورضوانه - بمحبة كنت أعتز بها بين زملائى، ولم يكن الاختلاف فى الرأى الحزبى أثرًا لهذه المحبة بل إنها كانت سببًا فى أن نجادل - وحسبى أن أدعى أننى أجادل هذا العملاق - الذى كان - دائمًا عنوانًا للأدب بجوار علمه متمسكًا بتقاليد عسى ولعل أن نتمكن نحن من أن نظل حتى يأتى جيل بعدنا، يتمسك بها وينقلها إلى الأجيال التى تفد بعد ذلك - وكان لى الشرف فى أن أتذكر دائمًا يوم مولده، فأهدى إليه التهانى وأتضرع إلى العلى القدير أن يطيل فى عمره حتى يكون لمصر نصيب أكبر فى أن تفخر وتباهى بابنها البار المتيم فى حبها..

وفور أن فاتحته برغبتى، إذ به يرحب - وإذ بى أفجر القنبلة التى أحدثت دويًّا فافتتح موسم ١٩٨٣/٨٢ فى معهد المحاماة بنقابة القاهرة افتتاحًا لائقًا بما للمحاماة من مكانة دون أن أعلم أن يكون هذا الافتتاح علامة على الطريق..

ذلك أن العملاق الكبير عندما بدأ حديثه إلى أبنائه من المحامين الجدد - وكنت أشرف بالجلوس على يمينه باعتبارى نقيبًا للقاهرة - إذ به

يلقى المفاجأة الأولى، فيخبر أبناءه أنه سيلقى فى المعهد محاضرات أربع - وقد كنت أطمع لى محاضرة واحدة فكان كرم الفقيه الكبير أنه جعل المحاضرة، أربع محاضرات - وتأتى المفاجأة الثانية عندما يعلن ابن مصر البار أنه سيتناول فى هذه المحاضرات الأربع تاريخ مصر منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى ٥ سبتمبر ١٩٨١.

وهنا تملكنى حرج شديد - ذلك أننى عاهدت أن يكون معهد المحاماة بنقابة القاهرة معهد علم - ومعهد علم فقط فلا يصير فيه جدل سياسى، ولا تظهر فيه نوازع حزبية - حتى أننى تحرجت عندما كان الزميل الكبير المرحوم محمد شوكت التونى يلقى محاضرة بالمعهد فإذ به يتطرق إلى النواحى السياسية، فلم يمنعنى ما كان يسيطر به رحمه الله على وجدانى وأحاسيسى - ولم يحل احترامى الكبير له ولأستاذيته لى - أن أنحنى على أذنه لأرجو منه ألا يتناول أمورًا سياسية فى المحاضرة التى كان يلقيها على الأبناء من المحامين الجدد - فلما ناقشنى رحمه الله فى أن المحامى لابد أن يعمل بالسياسة - وافقته على الفور معلنًا أن هذا هو رأيى أيضًا، ولكنى أردفت لأقول: إن المحامى عليه أن يعمل بالسياسة وأن يتناول شئون بلده بالرأى والرأى الراسخ العاقل الرزين، ولكن لندع هذا خارج جدران المعهد الذى وجب علينا أن نخصصه لكى تلقى فيه المحاضرات للمحامين الجدد، يتعلمون منها مهنة المحاماة وليعرفوا تقاليدها التى رسخت على مر الزمان، ولم يحن الوقت بعد لكى يعرفوها لحداثة عملهم بها وانتمائهم إليها..

ولكنى وجدت نفسى عاجزا أن أكرر ما فعلته مع المرحوم الأستاذ

محمد شوكت التونى، أن أكره مع أستاذى الدكتور وحيد رأفت، ولكن سرعان ما ارتاح قلبى وهدأت نفسى عندما بدأ العملاق فى محاضرته الأولى يؤرخ تاريخ مصر منذ أن تفجرت الثورة التى ستظل إشعاعا للكرامة ومنارًا لصحوة الشعب الذى لا يمكن له أن يموت - ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - إذ بالمحامى العملاق يتجرد من حزبيته ليذكر لأبنائه الجدد تاريخ مصر حسبما عاشه ورآه دون أن ينحاز مع أحد، أو ينحاز ضد آخر، فكان أن تناول فى المحاضرة الثانية فترة حكم الزعيم جمال عبد الناصر - فإذ به يعطى له حقه كاملًا، وإذ به يتناول ما نسب إليه من أخطاء، وتناول ذلك تناولًا موضوعيا مؤكدًا أنه كان وطنيا من الطراز الأول ولو أن جمال عبد الناصر لا يحتاج إلى تأكيد لهذا حتى لوجاء التأكيد من هذا العملاق الكبير علم المحاماة المرفرف، والذى سيظل يرفرف ما دام فى مصر محامون - حتى أننى وجدت نفسى فى نهاية المحاضرة أعقب على ما ذكره فيها، فأقول لأبنائى من المحامين الجدد «هاكم ترون هذا العملاق الكبير يتناول هذا الذى اعتقله سبعة عشر يومًا فى سجن القلعة إذ به يتناوله برفق وحنان يفوق حنان الأم على وليدها الوحيد» - أتذكر ذلك جيدًا إلا أنه كان فى مجال السياسة والحزبية مهاجمًا لعبد الناصر ولعهده معلنًا أن الثورة لم تكن ثورة فى الواقع وإنما هى انقلاب عسكرى - ولكنه عندما أصبح المحامى مؤرخًا، نجده لا يخشى من أن يذكر الكلمة التى سجلها التاريخ ولا يستطيع إنسان مهما بلغ أن يمس كيانها فقد رسخت وأصبح من المستحيل - لا من العسير فقط لأحد أيًا كان أن يمحوها..

ثم تناول العملاق الكبير بعد ذلك عهد الزعيم الشهيد السادات، فإذ به يعلن لأبنائه الطلبة قوله، فيذكر أن هذا الحاكم عندما تولى زمام السلطة نجده قد آمن بالديمقراطية ولم يكتف بأن يعلنها شعارًا له فقط، بل طبقها تطبيقًا عمليًا لأول مرة بعد عهد عمر بن عبد العزيز - هكذا أراد رحمه الله أن يذكر - وذكر بجوار ذلك أنه هدم السجون وفتح المعتقلات وتحدى خصومه أن يذكروا له اسم واحد من المعتقلين، فلم يجرؤ على ذكر اسم واحد، وكسب هو التحدى وأضاف العملاق الكبير أن محمد أنور السادات هو الذى أصدر دستور ١٩٧١، وقال رحمه الله: إن هذا الدستور يفضل دستور ١٩٢٣، وأن نصوصه ترقى إلى مراتب أعلى الدساتير فى العالم - ونجده يشيد بموقف الزعيم الشهيد عندما طرد الخبراء السوفييت، ووصف هذا القرار الشجاع بأنه سيكون علامة فى تاريخ مصر، فلولا هذا القرار لأصبحت مصر شيوعية-وقد كان رحمه الله على اقتناع بأن الشيوعية لا مكان لها فى مصر الإسلام - مصر الحضارة - مصر الكنانة، ويقول رحمه الله إن هذا القرار يفوق قرار العبور عظمة ويفوق قرار السلام ارتفاعًا على خلاف بين هؤلاء الذين أيدوه فى اتفاقية كامب ديفيد ومعاهدة السلام، أم هؤلاء الذين عارضوه فيها، ونجده يقدم على ما لم يقدم عليه حاكم منذ عهد الفراعنة حتى الآن، فإذ به يعتقل - تحت اسم شعار التحفظ فى مكان أمين - على بعض معارضيه وعلى قمم، وزعامات الجماعات الإسلامية - فإذ به ينشر فى الجريدة الرسمية أسماء هؤلاء الذين يتم التحفظ عليهم، وإذ به يدخلهم معتقلات على مستوى راق فيسمح لهم بما لا يسمح به فى

السجون العادية، ويعلن فى أكثر من مرة أنه سيفرج عنهم عقب أبريل ١٩٨٢، وهو التاريخ الذى حدد لجلاء القوات الإسرائيلية عن أرض سيناء وتسليم بلدة العريش..

ونجده رحمه الله يختتم محاضراته الأربع بقول مأثور لا يمكن أن ينسى - لا لعظمة القول فحسب - وإنما لعظمة المؤرخ - المؤرخ المحامى الذى أراد أن يبرئ ذمته فيلقى على أبنائه من الشباب الذى ضل، أو كاد، أن يقعوا فى حيرة من الصادق؟ هل هؤلاء الذين يدعون أن ما قبل الثورة جنة ونعيم؟؟ أم هؤلاء الذين يقررون أن بعد الثورة مهما ورد من أخطاء، فهى الحياة الجديدة لأبناء مصر الذين عبر عنهم مفجر الثورة وقائدها عندما قال «ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد.. !!».

قال العملاق قولته المأثورة: ترى يا أبنائى.. هل كفر هذا الذى آمن بالديمقراطية عند بدء توليه السلطة، هل كفر بالديمقراطية مبدأ وتطبيقًا - أم أنه عندما فعل ما فعل فى ٥ سبتمبر ١٩٨١ سيعطى له التاريخ عذرًا فيما اتخذ؟!.

وكانت هذه هى نهاية كلماته رحمه الله ليعطى كل ذى حق حقه.. وليثبت أن المحامى عندما يكون مؤرخا، فلا يرتفع إلى صفة أى مؤرخ آخر..

رحم الله الدكتور محمد وحيد رأفت، وجعل من أبنائه من يؤدى الأمانة مثله..

المحاماة لا تنفصل عن المحامى أبدًا..

«ليس الشديد بالصرعة.. وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» (صدق رسول الله ﷺ)

كان يقطن فى دور من فيلا مقامة فى قلب منطقة الدقى وبالقرب من الميدان، وكانت الشقة كبيرة المساحة متعددة الغرف، فيها كل الميزات التى لا توجد فى هذه الأيام فى أى شقة حتى لو دفع مئات الآلاف..

وحدث أن جاره الذى يسكن بالشقة التى تعلو شقته - وهو دكتور فى الاقتصاد يشغل مركزًا مرموقًا بالجامعة، أراد أن يرفع دعوى لتخفيض إيجار شقته بعد أن علم أن أجرتها الحقيقية الثابتة فى مأمورية الضرائب والعوائد العقارية تقل عن الإيجار الذى يدفعه - وقد لجأ الأستاذ الجامعى الشهير إلى النقيب الذى يشرف برئاسة أكبر وأعرق نقابة مهنية، لكى يكون بجواره فى دعوى تخفيض الأجرة وليشاركه بمسئولياتها. ولكن النقيب رفض أن يرفع الدعوى بتخفيض الأجرة معلنًا مبدأ ياليت كل المستأجرين يعملون به - فقد أعلن أنه عندما تعاقد على إيجار هذه الشقة إنما ارتضى الإيجار الذى التزم بدفعه بمقتضى عقد الإيجار وعلى ذلك فإنه لا يقبل أن يكون هناك تخفيض على هذا الإيجار حتى لو كان هذا التخفيض مؤيدًا بنص فى القانون..

فالعقد شريعة المتعاقدين وهو قد ارتضى هذا الإيجار، وبالتالى فإنه تم

برضاء كامل، ونصح الأستاذ الجامعى أن يفعل مثله ولكنه لم يعمل بالنصيحة فرفع الدعوى بالتخفيض..

تلك الدعوى التى انتدبت فيها المحكمة خبيرًا نص فى مأموريته أن يكون من ضمنها معاينة الشقة التى يقطنها النقيب وهى أسفل الشقة موضوع النزاع..

وذهب الخبير ليؤدى مأموريته، وقام بمعاينة شقة النقيب وسأله فى محضر من محاضر أعماله فذكر النقيب الحقيقة لأن عدوه الأول كان الكذب، فأجاب على أسئلة الخبير إجابات كلها صريحة غير مزيفة..

فكانت غضبة المالك الذى يقطن بالدور الأرضى من ذات العقار وحتى يعبر المالك عن غضبه على مسلك النقيب الذى لم يفعل سوى أنه ذكر الحقيقة عند معاينة الخبير لشقته التى يقطنها، إذ بالمالك يدبر أمرًا فى نفسه أحس به النقيب لأن المقصود منه المساس به، وهنا اتخذ النقيب العظيم قراره فترك مسكنه الذى به المزايا التى لا توجد فى أى مسكن آخر ليشارك مسكنه مكتبه معلنًا أن المالك عندما اعتدى عليه بالقول كان فى مكنته أن يلقنه درسًا، ولكن هذا الدرس سينال من هيبة ووقار رئيس أكبر وأعرق نقابة مهنية، فهو لا يقبل أن يذهب بنفسه أو أن يذهب وكيلًا عنه إلى قسم الشرطة يشكو جاره وهو مالك العقار من أمر لو صح لاستوجب عقاب مرتكب ذلك الفعل، فأبى أن يدخل مع المالك فى خلاف مقدرًا أنه وقد نال هذا الشرف، فإنه يجب عليه أن يتذرع بقول الرسول الكريم «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب».

وقد كان هذا المسلك من جانب النقيب مثار جدل ونقاش - فالبعض قال إنه موقف ينم عن الضعف، فكيف لرجل تبوأ هذا المركز الرفيع لمهنة رسالتها الأولى المطالبة بالحق، كيف له أن يلقن هذا المالك درسًا لكى يكون عبرة لأمثاله، وحتى يعطى المثل بأن نقيب أعرق نقابة مهنية قد لقن هذا الجار المفترى درسًا فى كيفية اقتضاء الحقوق.. بينما رأى البعض الآخر أن مسلك النقيب كان هو المسلك اللائق لمن يشغل هذا المنصب الرفيع - وجاء الجواب عندما مضت الأيام، لكى يقوم خلاف بين الجار الذى بقى والمالك الذى تربص له بعد أن تمكن باعتدائه الماكر من أن يخلى شقة النقيب..

فإذ بمالك العقار يمتنع عن إنارة نور السلم، وإذ بالأستاذ الجامعى وزوجته ومعهما صديق وزوجته ينصرفان لقضاء سهرة، وكان السلم بلا نور، وإذ به يفاجأ بأن مالك العقار قد أعد له رجلاً عرف عنه بالبله (أى البلاهة) وأيده بكلبين كبيرين من نوع الوولف ليهجموا على الأستاذ الجامعى وزوجته وضيفه وزوجته ويحدث الاعتداء الذى كان من أثره أن يتلقى الأستاذ الجامعى العناية العلاجية فى مستشفى كبير لمدة ستة شهور..

وكانت هذه هى الإجابة على الخلاف الذى وقع بين محبى النقيب على تصرفه الذى لم يعلنه للغير وإنما - ولأن له عينا فاحصة - لكى يضع لنا تقليدًا نعتز به أن القادر عندما يعفو يكون فى مكانة أكثر من القادر الذى يفترى..

.. احترام المحامى لنفسه..

«يجب ألا يترافع المحامى لمن هم خلفه وعليه
أن يترافع لمن هم أمامه..»

أعتقد اعتقادًا راسخًا أن المحامى الشاب إذا ما عشق المهنة - فسوف يكافح لكى يستمر فيها ويصل إلى بغيته ومبتغاه - أما إذا ما كان المحامى الشاب قد دخل المهنة منتظرًا أن يأتى الفرج فى وظيفة يشغلها، أو مهنة يمتهنها غير المحاماة فإن العادة ألا نرى هذا الشاب يبرع فى المهنة أو يستمر فيها - وقد كان المرحوم عبد الكريم رؤوف رحمه الله يضرب المثل فى ذلك بمن ينتظر فى المحطة قطارًا. حتى يأتى القطار، فيركبه متوجهًا إلى أى جهة كان يقصدها، من الوقوف فى المحطة. فكان رحمه الله يقول لنا: إن البعض ينتظر التوظف فى الحكومة - وقد كان القطاع العام لم يولد بعد إبّان شبابنا فى المحاماة - والبعض ينتظر القطار لكى يلتحق بالسلك القضائى، والبعض الثالث لكى يعمل فى الزراعة فى أطيان زراعية يملكها والده... إلى آخر ذلك من الأمثلة، أما من أحبَّ المحاماة، فهو لا يقف على المحطة، ولا ينتظر، بل يسعى فى حقول المحاماة الرحبة ففيها الفن وفيها الكفاح وفيها العرق وفيها جنى الثمار..

وفى أول عام تخرجت فيه التحقت بمكتب المرحوم عبد الكريم رؤوف - أشهر المحامين فى القضايا المدنية حينذاك - وتصادف أننى كنت فى إحدى الجلسات، فسمعت مرافعة لمحام كبير عرفت أنه المرحوم الأستاذ حسن الجداوى المحامى - كان رحمه الله يترافع فى قضية مشهورة

تتابعها الصحف، هى قضية الوثائق المزورة وكان معه رهط من المحامين، إلا أننى أعجبت به رحمة الله عليه، وبأسلوبه فى المرافعة فقد كان هادئ الطبعِ دارسًا لقضيته، لا يدلى إلا بما هو لازم للإدلاء به وكان صوته معتدلاً ولكنه كان يرتفع فى مواطن وينخفض فى مواطن أخرى..

وتوجهت إليه - وحيدًا - فى مساء ذات اليوم، وكان الحظ بجوارى، فقابلته وجلست أمامه فى مكتبه، وكان إعجابه الأول أننى حضرت إليه دون وساطة، فلما ذكرت له أننى كنت حاضرًا جلسة الصباح، وأننى أعجبت بأسلوبه فى المرافعة وطلبت منه أن أكون أحد تلاميذه - إذ به يرحب ويلحقنى بمكتبه فى ذات اليوم وبذلك فقد كنت أعمل تحت التمرين فى مكتبين فى آن واحد..

كان المرحوم حسن الجداوى يلقى علينا نحن تلاميذه النصيحة فى أن المحاماة - وسمتها الأولى الوقار - حسبما ذكرنا - إنما توجب على المحامى أن يراعى احترام نفسه - فإذا ما احترم نفسه احترمه موكله واحترمه زميله واحترمه قاضيه - ومن كلماته المأثورة لنا «لا تترافع لمن هم خلفك ولكن ترافع لمن هم أمامك» - وكان يعنى بذلك أن المحامى يجب ألا يرفع صوته إرضاء لموكله أو سعيًا لإرضاء جمهور القاعة، بل يجب على المحامى أن يتحدث إلى من هو أمامه، وهو القاضى أو المحكمة، فالذى يحكم هو القاضى والذى يجب أن يوجه إليه الحديث هو القاضى - والقاضى لا يملك إلا احترام زميله المترافع، ولكنه ينال إعجابه إذا ما كان هذا الزميل قد أدى الواجب، لا بحركات تمثيلية أو عبارات إنشائية أو افتعال مواقف بطولية - بل كل همه واهتمامه تبسيط

وقائع الدعوى وشرح النواحى الغامضة فيها وسرد أحكام القانون الصحيحة دون إطالة فيما لا يجب فيه الإطالة ودون إضفاء نوع من الحماس فى مواقف لا تحتمل الحماس.. هذه هى مدرسة المحاماة الحقة - وإن كان البعض منا لا يؤمن بها وآمن بمدرسة أخرى تعتنق السباب والتجريح أسلوبا لمباشرة المهنة، فإن دعائى - ودعاؤكم - يجب أن يكون أن نتمكن بفضل الله أن تغلق هذه المدرسة بحيث لا يكون لها وجود بيننا ولا عودة لها فى مستقبل أيامنا. ولتظل المدرسة الأولى هى عنوان المحاماة الحقة.

رِجْل.. على رِجْل

«.. للمحاماة آداب... بجوار أنها مهنة
تقاليد..».

لعلنا جميعًا نذكر مقابلة وزير خارجية أمريكا للسيد رئيس جمهوريتنا لمناقشة مأساة العصر الحديث - مأساة الكويت ودول الخليج - فالسيد وزير الخارجية طويل القامة رفيع القوام - وإذ بنا نراه واضعًا رجله على الرجل الأخرى وذلك فى حضرة السيد رئيس جمهوريتنا وهو قمة القمم ورئيس الدولة - ولاحظنا أيضا أن السيد رئيس الجمهورية لم يعن بهذا التصرف، لأنه كان واضعًا رجلا على الرجل الأخرى هو الآخر - ولكن الناس تحدثوا عن هذا الموقف، فالبعض وصفه بالجليطة وقلة الذوق من وزير خارجية أمريكا والبعض فهمه أنه تصرف عادى لم يقصد به السيد وزير الخارجية شيئًا مما دار فى أذهان هؤلاء.. بل، إنه يقينًا لم يقصد ذلك.. لأنه لا يجرؤ على ذلك..

وذكرنى هذا الموقف بموقف شيخ من شيوخ المحامين لا يعرفه الجيل الحاضر، ولكننا نعرفه نحن جيل الخمسينات والستينات هو المرحوم الأستاذ الكبير على الخشخانى فقد اشتهر - رحمه الله - بحسن مرافعته ودقة ملاحظاته فى القضايا الجنائية - وكان، حاضرًا فى جناية رأت محكمة جنايات القاهرة أن تنظرها فى غرفة المداولة وكانت هى غرفة المداولة للقاعة التى عرفت فيما بعد بقاعة السادات رحمه الله وجلس الأستاذ على الخشخانى منتظرًا قضيته، فاتخذ موقعًا بعيدًا عن المنضدة، التى جلس

عليها المستشارون ووضع رجلًا على رجل ثم فتح ملف قضيته وأخذ يقرأ فيه ويراجع - فلاحظ المستشار رئيس المحكمة أن الأستاذ الكبير يضع رجلًا على رجل ورأى أن فى ذلك مساسًا به وبالمحكمة، فإذ به يستدعى حاجب الجلسة ويسرّ إليه فى أذنه بكلمات لم نسمعها - ذلك أننى كنت حاضرًا هذا الموقف - وتبع هذا أن انتقل حاجب الجلسة إلى المرحوم الأستاذ على الخشخانى ليقول له فى أدب جم واحترام بالغ..

- «السيدِ المستشار رئيس المحكمة يرجو ألا تضع رجلا على رجل أثناء انعقاد الجلسة» -

وفور أن استمع على الخشخانى هذا إذ به يقفل ضفتى ملفه ليقف احترامًا موجهًا حديثه إلى المستشار رئيس الجلسة قائلًا: أسفًا سيدى الرئيس لم أكن أدرى أن جلوسى وأنا مرتاح فيه مساس بهيئة المحكمة أو باحترامها - وقد تعودت أن أضع الملف على رجلى بعد أن أضع رجلًا على الأخرى متصورًا مكتبًا صغيرًا أدرس فيه قضيتى - أما وقد رأيت أن هذا فيه مساس باحترام المحكمة، فإننى أعتذر - وراحتى لا يمكن أن تكون مفضلة عن احترام المحكمة»..

وشعرنا جميعًا بأن السيد المستشار رئيس المحكمة قد أحس بالخجل، وأخذ يردد عبارات الأسف للأستاذ على الخشخانى مرددًا كلمة «اتفضل ارتاح.. اتفضل ارتاح.. كما تريد».

جلال واحترام لدى الجميع وبين الجميع - فهاكم السيد المستشار لايجاهر برأيه فى الجلسة، بل يسرّ به إلى حاجب الجلسة حتى لا يسمعه إلا المحامى، وهذا هو الحاجب - الذى يحرص على أن يحافظ على كرامة

القاضى وكرامة المحامى فيتوجه بأسلوب كله أدب غير ناس قدره وقدر من محادثة ليسرّ إليه بما أسر إليه به المستشار رئيس المحكمة - وهذا هو المحامى الكبير الذى يعرف أن للمحاماة آدابًا بجوار أنها مهنة تقاليد - فإذ به يهم مسرعًا ليدلل للسيد رئيس المحكمة أنه على علم بحكم القانون الصحيح - والقانون الذى أعطى لرئيس المحكمة الحق له وحده فى أن يدير نظام الجلسة ويتولى توضيبها - ولكنه فى ذات الوقت، أراد أن يشعر القاضى بأن جلوسه وقد وضع رجله على الرجل الأخرى ليس فيه مساس باحترام المحكمة أو هيبتها وإن قصده لم ينصرف إلى هذا، وبالتالى ففى ذلك إجلال للمحاماة وإجلال للقضاة..

تذكرت هذا عندما كنت حاضرًا فى إحدى جلسات الجنح المستأنفة، وكان الصف المخصص لجلوس الأساتذة المحامين ضيقًا - فلما رآنى بعض أبنائى من شباب المحامين أصرّوا على أن أجلس مكان أحدهم، ولكنى وحتى أرضيهم جميعًا جلست بينهم متكئًا على المكان الذى نضع عليه ملفاتنا - وكانت الضرورة حتى ذاك تلزمنى بأن أجلس واضعًا قدمًا على الأخرى - فإذ برئيس الجلسة وأمام جميع الحضور - وقد كنت نقيبًا للمحامين بالقاهرة - يطلب منى ألا أضع رجلاً على الأخرى - فقارنت بين تصرفه وتصرف المستشار رئيس محكمة الجنايات مع أستاذنا المرحوم الأستاذ على الخشخانى والذى أراد بتصرفه ألا يمس قدر المحامى فى غرفة مغلقة، بينما كان رئيس المحكمة فى الجنح المستأنفة غير حريص على أن يسر بهذا الأمر إلى كبير المحامين بالقاهرة، فيذكر له ذلك على الملأ وفى جمع من شباب المحامين والموكلين، من أجل هذا كان نقاشى مع السيد

رئيس المحكمة فى أن ما قرره ليس على حق، فقد كنت متكئًا على قدمى ولم أضع قدمًا على أخرى لكى أنال من قدر المحكمة أو أمس احترامها، وهو أمر جعله يأمر برفع الجلسة فرفعت واستمرت مرفوعة حتى أعادها هو من تلقاء نفسه، وأبدى اعتذارًا رقيقا تلاه موقف كريم من جميع الزملاء الحاضرين الذين عرفوا أن للمنصة احترامًا وللمحامى احترامًا، وللجالس حقًا - وللواقف حقًا مثله..

ولعلنى أتناول هنا ما يحدث كثيرًا فى العمل - فنظام الجلسة هذا - وقد أناط القانون برئيس الجلسة أن يتولى هذه المهمة - وبالتالى فليس لعضو اليمين كما أنه ليس لعضو اليسار - لا ليس لأى منهما أن يصدر قرارًا أو حكمًا متعلقًا بالنظام فى الجلسة - ذلك أن هذا متروك للسيد رئيس المحكمة وهذا لا يسلب حق السيد عضو اليمين أو السيد عضو اليسار فى أن يطلب من السيد رئيس المحكمة ما يراه متفقًا مع وجهة نظره فيما إذا كان تصرفًا قد خرج عن الحدود التى رتبها القانون أم لا - وبالتالى فإن السيد وكيل النيابة الذى يجلس بجوار القاضى فى جلسة الجنح أو بجوار الهيئة فى جلسة الجنح المستأنفه أو فى محكمة الجنايات - ليس للعضو أى حق فى أن ينظم أو يأمر من تواجد بالجلسة بألا يفعل شيئًا أو أن ينتظم بطريق أو آخر، فهذا الحق للسيد رئيس المحكمة وحده دون غيره..

نقول: إن السادة الأساتذة المحامين الذين يجلسون منتظرين حلول دور القضية التى يحضرون فيها، هم ملزمون طبقًا لتقاليد مهنتنا الشامخة ألا نخرج عن نظام الجلسة وألا يصدر من أفعال تمس احترام الهيئة التى جلست على المنصة - وفى الوقت ذاته هم غير مقيدى الحرية بل إنهم

بشر يتصرفون التصرفات العادية، التى تنم عن الاحترام والوقار - وهو أمر سبق أن تحدثنا فيه وجعلنا ما ذكره الزعيم النقيب مصطفى البرادعى تقليدًا عندما قال: إن المحاماة أولًا وقار. بل إن هذا لا يعنى أن المحامى لا يجلس وكأنه فى مدرسة - لا إن للمحامى حريته فى أن يتصرف التصرف اللائق بوقاره وبمكانته دون أن، يصدر منه تصرف يعتبره القانون ماسًّا بكرامة الهيئة أو مخلًّا بنظام الجلسة..

والأمر من أوله إلى آخره إنما يعتمد على حسن تفهم وحسن تعامل بين الجالس والواقف دون أن يعتبر أى منهما أن القانون قد وضعه فى موقع أكبر من الآخر - فالكل متساوون - كلهم أبناء مصر كلهم خريجو كليات الحقوق.

.. الإنسان المصرى..

«.. ليتنا نقتدى بهذا الذى أخذ به الغرب، لنسعى للتعويض عن فقد الإنسان المصرى..»

عندما جاءنى المدرس الألمانى بالمدرسة الألمانية بالدقى ليسند إلى رفع دعوى بالتعويض عن فقد زوجته التى توفيت فى حادث اصطدام سيارة بالغردقة - وكان القضاء الجنائى قد أنهى بإدانة المتهم بحكم بالحبس ولكنه كاف لقضايا التعويض لكى يحكم على أساسه بتعويض المضرور عما لحقه من ضرر نتيجة الحادث..

وعندما جلست إلى الرجل وجدته مهموما لفقد زوجته بالرغم من أن الحادث كان قد مضى عليه ما يقرب من الثلاث سنوات، لم تنتابنى دهشة فكثير منا نحن الرجال يحملون للزوجة وفاء فوق وفاء النساء خاصة إذا ما كان العلى القدير قد ربط بينهما بعلاقة زوجية وحب وتفاهم ووئام - إلا أن الأمر الهام بالنسبة لفقد الزوجة عندما عرض على حالته العائلية بعد فقد زوجته، فهو أب لثلاث بنات وولد وكل واحد من هؤلاء فى مرحلة دراسية مختلفة يحتاج من العناية ما يوجب على هذا الأب أن يتفرغ كلية إلى تربية أولاده دون أى شىء آخر، وهو أمر إن لم تكن تتحمله الأم كله، فإنها على الأقل كانت ستشارك فيه إذا ما كتب لها الحياة ولم تتعرض لهذا الحادث.. وعند دراسة ظروف القضية انتابنى قلق،

فالرجل يحس بأن الضرر الذى أصابه هو ضرر فادح، وعندما أتى إلىّ طالبًا تعويضًا عن الضرر لم يخطر ببالى ما نعرفه فى قضايا القتل والإصابة الخطأ - فحسبما ذكرت فى البداية كأن قيمة الإنسان المصرى لا ترقى إلى قيمة الإنسان فى أوربا وأمريكا - وتذكرت هنا دعوى قمت برفعها مطالبًا بتعويض عن وفاة سيدة وزوجها فى حادث تصادم سيارتين من سيارات البيجو فى طريق القاهرة الإسكندرية الزراعى، وكانت السيدة المتوفاة هى أول أم مثالية تحصل على جائزة الدولة وكان زوجها وكيلًا لوزارة التربية والتعليم أيام أن كان وكلاء الوزارة فيها ثلاثة وكلاء فقط - وإزاء خطأ السائق الفاحش، فقد حكم عليه بالإدانة وتم حبسه تنفيذًا لهذا الحكم، إلا أن ورثة المتوفين عندما قاموا برفع دعوى مطالبين بتعويض عن فقد والديهما فى وقت واحد وفى ساعة واحدة - إذ بمحكمة أول درجة تقضى لهم بتعويض قدره ثلاثة آلاف جنيه بواقع ألف جنيه لكل ابن من أبناء المتوفين ذكورًا كانوا أم إناثًا، فلما رفعت استئنافًا لهذا الحكم رفعت المحكمة الاستئنافية التعويض إلى مبلغ خمسة آلاف جنيه بعد أن قدرت ألفى جنيه تعويضًا موروثا عن الأب والأم فيما نالهما من أذى وضرر قبل وفاتهما ولو بلحظة كما عبرت محكمة النقض فى حكم شهير لها..

تذكرت كل ذلك والرجل جالس أمامي، وأردت أن أحيطه علمًا بالحقيقة فلما سألته عن المبلغ الذى يقدره تعويضًا لما لحقه من ضرر، فإذ به يخرج ورقة من ملف أعده بعناية، وبالاطلاع على الورقة تبين لى أنه قد حدد الأضرار التى لحقت به وبأولاده وقدر لكل ضرر مبلغًا من المال كان

من وجهة نظره هو الحد الأدنى للتعويض عن هذا الضرر، وإذ به ينتهى إلى أن التعويض المطالب به قد وصل إلى ستة أرقام!! - فأردت أن أقلل من هذه المبالغ ولكنى عجزت عن إلغاء ولو مبلغ واحد منها، إذ أنها فعلاً كانت تمثل الحقيقة فى تقدير قيمة الضرر الذى عاد على الرجل وأولاده من جراء فقد الزوجة والأم..

ليتنا نقتدى بهذا الذى أخذ به الغرب لنسعى للتعويض عن فقد الإنسان المصرى ساعين للعمل على إسعاده وتوفير الرخاء له كما يقول الإطار الفكرى للحزب الوطنى الديمقراطى.

الحى الهادئ

«.. قد يرى البعض أن الالتجاء إلى المحكمة فيه نوع من المغالاة، ولكن هذا دليل على أن المواطن المصرى قد أصبح له وعى..».

لعلى أكون مع الكثيرين الذين يرون أن سياسة كل وزارة يجب أن توضع فى خطة خمسية أو عشرية يلتزم بها الوزير الذى يتولى الوزارة طوال سريان هذه الخطة سواء كانت خمس سنوات أو عشر سنوات - ومع أن هذا الرأى لا يؤخذ به عادة - إذ أن الذى نراه - وعشناه لعشرات السنين - ألا يلتزم وزير بما التزم به سلفه - بل إن الوزير الذى يعين جديدًا فى أى وزارة، إنما يعمل جاهدًا على هدم ما بناه الوزير السابق عليه ليثبت للرأى العام وللكافة أن القديم قد أخطأ وأنه هو الذى أصاب.

ويذكر أهل القاهرة وسكانها أنه منذ سنوات ليست بعيدة طرأت فى ذهن أحد وزراء التموين أن يلبى طلبات المواطنين من المواد الغذائية وأن يمنع استغلال فئة من التجار للمستهلكين عند بيعهم لبعض المواد الغذائية - فكان أن أصدر هذا الوزير قرارًا بوضع أكشاك على أرصفة مدينة القاهرة وفى أحيائها المختلفة يقوم المواطنون بشراء المواد الغذائية منها بما فى ذلك اللحوم والدواجن والخضراوات، والفاكهة..

وفى حى الزمالك - ووسط مبانى السفارات الأجنبية - فوجئ المقيمون فى هذا الحى بأكشاك تضعها وزارة التموين على أرصفة هذا

الحى الهادئ - وتنتقى بالذات رصيفًا أمام مدرسة من المدارس الراقية التى وجدت فى هذا الحى الهادئ وكان أن انقلب الأمر فى عدة ساعات - فأصبح هذا الحى الهادئ مثالاً للصخب فالأصوات عالية والمتعاملون إنما يأتون من بعيد منتهزين فرصة أن هذه الأكشاك وقد وضعت فى وسط هذا الحى الهادئ، فإن أهله لا يتوجهون إليها - لأنهم ليسوا فى حاجة إلى حماية وزارة التموين، فانقلب الحى الهادئ إلى سوق عكاظ..

وكان أن تحرك أحد الرجال الأفذاذ الذين يحبون مصر - والمصريون جميعًا يحبونها - فأتى إلى مكتبى طالبًا السعى لإزالة هذه الأكشاك حماية لسمعة مصر لدى الدول الأجنبية التى يفخر الحى بسفاراتها والتى عدّدها بثمانية سفارات ملتصقة بالأكشاك التى وضعتها وزارة التموين فى ذاك الحى، وكالعادة - فقد بذلت كل جهد لإقناع وزير التموين حينذاك بنقل هذا الكشك دون أن أناقشه فى مبدأ شرعية هذه الأكشاك أو فائدتها أو تحقيق الغرض من وضعها، ولكن الأمر قد انتهى دون تحقيق ذلك بما جعلنى ألتجىء إلى محكمة القضاء الإدارى طالبًا إلغاء القرار بوضع هذه الأكشاك والصادر من وزارة التموين..

وقد كان يقال لنا أثناء دراستنا الابتدائية أن البلاغة هى أن تعبر عما يدور فى ذهن الآخرين تعبيرًا صادقًا، وقد وجدت البلاغة - كل البلاغة - فى حيثيات الحكم الذى أصدرته محكمة القضاء الإدارى فى ١٢/٢/١٩٨٧ لتقرر بمقتضاه مبدأ هامًا يخص المواطنين جميعًا - وعندما ذكرت البلاغة فإن السبب فى ذلك أن حيثيات هذا الحكم قد احتوت على ما يدور فى ذهنى وذهنك حماية لهذه الأمور..

والبسيط الذى قررته محكمة القضاء الإدارى، هو أن الرصيف قد أنشىء أساسًا لاستعمال الأشخاص، وخاصة المارة حيث قالت: إن إشغال الطرق العامة بغير ترخيص من الجهة المختصة هو أمر غير جائز قانونًا، وهو ما يعرف بمخالفات إشغال الطريق الذى خول القانون فيها للجهة الإدارية أن ترفع المخالفة بالطريق الإدارى أى بالقوة المعطاة للسلطة العامة مع تحميل المخالف مصاريف هذا الرفع وقال الحكم المذكور إن الفكرة الأساسية التى قامت عليها أحكام قانون الإشغالات هى حماية الطرق والميادين العامة ومنع إشغالها مما يخل بمقتضيات التنظيم أو تنسيق المدينة أو بالأمن أو بالصحة العامة أو الآداب العامة أو حركة المرور - إذ أنه لا يتسنى تحقيق هذه الغايات التى استهدفها القانون إلا بقيام الجهة الإدارية المختصة بواجبها نحو إزالة الإشغالات المخالفة وتقديم المخالف إلى المحاكمة الجنائية التى يحكم فيها بالحبس والغرامة وضبط الأشياء المخالفة والإعلان عن رفعها ومصادرتها..

والجميل الذى جعلنى أذكر هذه الواقعة - أن قضاء مجلس الدولة عاش مع المواطن فى شكواه حتى يخيل إليك وأنت تطالع حيثيات الحكم المذكور أن المحكمة وكأنها أقامت فى الحى الذى به الأكشاك وتصورت الضجيج والصخب المصاحبين لحركة البيع، ووقوف طوابير المواطنين أمام الأكشاك وفى نهر الشارع وفوق الرصيف مع وجود مدرسة أطفال ملاصقة للأكشاك، وإعاقة مرور السيارات بالشارع بسبب ازدحام المواطنين من طالبى شراء الخضر والفاكهة والبقالة التى تبيعها تلك الأكشاك، مما يترتب عليه من النتائج والآثار ما يتعذر تداركه - فهذا الحكم هو

فخار لقضاء مجلس الدولة فى مصر، إذ أنه لم يرتفع عن شكوى مواطن مهما بلغت دقتها أو عدم أهميتها بالنسبة لرافعها، كما وأنه عاش مع المواطن لكى يصد عنه ضررًا قد يراه البعض غير مستأهل للمقاضاة أو لاتخاذ موقف حاسم فيه، فالبيع والشراء قائم فى كل مكان ولا ضرر من أن يستمر فى حى من الأحياء الهادئة، بحيث قد يرى البعض أن اتجاه المواطن إلى المحكمة فيه نوع من المغالاة - ولكنه دليل أيضا على أن مواطنى مصر قد أصبح لهم من الوعى ما يدفعهم إلى أن يتمسكوا بأحكام القانون وبتطبيقها مهما صغرت مادام الأمر فى النهاية فيه حماية للمواطن ورفعة لسمعة مصر».

علم ينتفع به

«.. تجمع فى شخصه كل صفات رجال
القانون، والأمر الذى جعله ملكًا لهم جميعًا.
لا يستأثر به أحدهم دون الباقين..».

نعتقد أنه قد أصبح واجبًا علينا نحن رجال القانون أن نضع تمثالاً فى ساحة كل محكمة لعميد القانون المدنى فى مصر المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا - نعم فقد أنجبت مصر كثيرًا من رجال القانون الذين هم فخار للقانون ورجاله، فمصر دائمًا ولودة بالعظماء فى كل فرع من فروع العلم والأدب - فمعينها لا ينضب، فهى دائمًا تنجب من تفاخر به من الرجال الأفذاذ فى مثل عظمة العلامة الكبير العميد السنهورى.

لقد كان مؤلفه الوسيط فى القانون المدنى مرجعًا وسيظل مرجعًا على مدى الدهر والعجيب أن يهب الخالق سبحانه وتعالى أحد عباده مثل هذه المقدرة العلمية التى لا يمكن أن يعرف قدرها إلا رجال القانون - لقد جمع - رحمه الله - بين صفحات الأجزاء العشرة من مؤلفه العظيم «الوسيط فى القانون المدنى» كل ما يمكن أن يخطر على بال باحث اليوم وكل يوم، فقد وهب حياته للعلم ولم تشغله المناصب التى شغلها عن أن يكون طابعه الأول والبارز والمميز له، هو أنه فقيه مصر العظيم وابنها البار الذى ظل طوال حياته مخصصًا وقته واضعًا كل اهتماماته أن يترك للأجيال القادمة أثرًا عظيمًا هو الذى يصدق فيه قول الرسول عز وجل

«يموت ابن آدم ولا يخلف من بعده إلا ثلاث - صدقة جارية - علم ينتفع به - ولد صالح يدعو له - هذا دليل على أن قول الرسول عليه الصلاة والسلام - ونحن لا نحتاج إلى دليل على إثبات صحة قوله - بل إننا نقول إنه المثل العملى لما قاله الرسول الكريم - فقد ترك السنهورى علمًا ينتفع به وهو من أجل ذلك سيظل خالدًا مدى الدهر لا يستطيع إنسان مهما مرت السنوات أن ينكر فضله أو ينسى علمه..

لعل الذين عملوا بالمحاماة فترة طويلة وكان اختصاصهم القانون المدنى وقضاياه يدلون بشهادة صدق بأنهم لم يروا إعجازًا مثل ما خلفه العميد السنهورى من علم فى مؤلفه وبين طيات أجزائه العشرة، إذ أنك تجد غالبًا - النزاع المطروح على بساط البحث وكأنه قد خطر على بال ذلك الفقيه الكبير فكتبه كمثل من الأمثلة التى يؤيدها رأيه القانونى، وهو غالبًا رأى لا يمكن أن يقاومه فهم صحيح أو يعارضه فقيه مهما كانت مقدرته..

انظروا إلى العبارات الراسخة التى أحاط بها مواد القانون المدنى فاستعمل عبارة «طيش بين» و «هوى جامح» عبارة شيقة عميقة المعنى تؤدى إلى قول لا يمكن الخلف فيه أو الخلاف، أنه قد وضعه حتى لا توضع القوانين الاستثنائية التى تأخذ من حرية الأفراد ومن حقوقهم ادعاءات ظاهرها الصالح العام وخافيها وباطنها غير ذلك، فهذه العبارة تغنى عن محاكم أمن الدولة التى تحاكم الملاك عن جريمة خلو الرجل وهى ذات العبارة التى تغنى عن كثير من المحاكمات الجنائية التى توقع فيها العقوبات السالبة للحرية. عبارة يجب أن نتعمق فى التفكير فيها لنصل

إلى سؤال هام - كيف وصل هذا الفقيه العظيم إلى التوصل إلى هذه العبارة العميقة المعنى حلوة التعبير مؤدية الغرض، فنضربها مثلاً ولا نقول إنها وحيدة، بل بجوارها العديد من العبارات الذكية اللامعة فى القانون المدنى المصرى وفى قوانين كل البلدان العربية التى ساهم فيها العميد السنهورى إن لم يكن قد وضعها إزاء اعتراف كل العرب بعبقريته التى لم يصل إليها أحد..

إنه العميد السنهورى الذى لم يتلق حتى الآن من رجال القانون ما يستحقه من تبجيل واعتراف بالفضل فى مجال العلم، فهو فى هذا يجمع رجال القانون كلهم فى منطقة واحدة، فهو الأستاذ فى الجامعة، وهو القاضى، وهو الواقف مدافعًا عن الحق والقانون، فتجمّع فى شخصه كل صفات رجال القانون، الأمر الذى جعله ملكًا لهم جميعًا، لا يستأثر به أحدهم دون الباقين..

رحم الله عميدنا، وهيا نقيم له ما يستحق من تقدير واحترام وولاء.

جلال المنصة من جلال المحاماة

«.. إن احترام المنصة ليس عيبا ينسب إلى المحامى..».

يجب أن يعرف الجيل الجديد أعلام المحاماة عندما كنا نحن شبابًا فى المحاماة ومن أعلام المحاماة فى جيلنا المرحوم الأستاذ أحمد رشدى المحامى - وكان أن وكل فى الحضور مع «بوللى» - «وبوللى» هذا كان من حاشية الملك المخلوع، وعُرف عنه سوء السمعة، فقدّم للمحاكمة فى ستين جنحة، ونظرها قاضى محكمة الوايلى حينذاك أحمد سميح طلعت - والذى تولى شئون وزارة العدل بعد ذلك - وحضر مع المتهم المحامى الكبير أحمد رشدى، وترافع فى الستين قضية، وكانت مرافعته قمة فى العلم وروعة فى الفن - أحمد رشدى كان يترافع أمام تلميذ من تلاميذه، ولكنه أعطى للمنصة رهبة واحترامًا أثناء مرافعته، ثم بعد الانتهاء من مرافعته، وقد كان رحمه الله - بجوار علمه - اشتهر عنه حسن هندامه ووجاهته، فإذ به ينصرف من الجلسة بعد انتهاء مرافعته، معطيًا وجهه إلى المنصة، وتراجع بظهره عدة خطوات إجلالاً للمنصة، التى تعلمنا أن لها رهبة، ولها حق على كل من يقف أمامها، فى أن يراعى كل سبل الاحترام، لا لشخص القاضى، وإنما للمعنى الكبير الذى تمثله العدالة - وقد تعلمنا نحن الشباب حينذاك أن احترام المنصة ليس عيبًا ينسب إلى المحامى، وإنما هو شرف للقاضى وشرف للمحامى، فجلال المنصة لا يكون إلا بجلال المحامى، وقد كانت - وستظل - المحاماة فى جلالها سندًا وعنوانًا لجلال المنصة.

اللهم لا حسد.. !!

«.. لا يكون المحامى موقع حسد من زملائه المهنيين، وإنما هو مثلهم يعانى..».

يظن البعض أن المحامى لا يبذل جهدًا عندما يترافع فى دعوى، بل إننى سمعت - بأذنى - أحد المثقفين يحسدنا - نحن المحامين - لأننا نتقاضى مبالغ كبيرة فى مقابل كلمات يرى أنه هو أو غيره فى مقدوره أن يقوم بها بلا جهد.. !! ولعلى أذكر رواية طريفة حدثت مع المرحوم الدكتور يوسف رزق الله - وقد كان من أطباء مصر الأكفاء، فلا يخلو «كنصلتو» منه لإبداء الرأى فيما يستعصى على طبيب واحد أن يجد له حلًا - فقد زارنى فى مكتبى فى أحد الليالى ليأخذ الرأى فى مشكلة رأى أن يجد لها حلًا قبل أن يذهب إلى عيادته بشارع شبرا، وكان قد تعود أن يذهب إليها متأخرًا، وعرف مرضاه أنه يظل فى عيادته حتى الثانية أو الثالثة صباحًا، وتصادف أنه عندما دخل على حجرة مكتبى، أن كان بها أحد الموكلين ليدفع لى أتعابًا فى قضية، وإذ به عند انصرافنا - يذكر لى أن المبلغ الذى تقاضيته عندما دخل علىّ حجرة مكتبى لا يستطيع هو - وهو الطبيب المعروف بكفاءته - لا يستطيع أن يحصل عليه إلا بعد أيام قد تصل إلى شهر أو شهور - وقال رحمة الله عليه - إن المحامى له هذه الميزة التى لا توجد لدى الطبيب مهما بلغت براعته وكثرت خبرته وتضخم علمه.. !!

والذى سأسرده الآن ليس جديدًا على الكثيرين من القراء، إلا أنه

أمر معروف.،. فالمحامى عندما يعرض عليه نزاع، إنما يدرسه دراسة عميقة ويحاول أن يصل إلى حل يحقق رغبة موكله، أو رغبة ذلك الذى جاء طالبًا رأيه فى مشكلة قانونية، يستغنى عن الرجوع إلى مراجع قانونية سبق له أن رجع إليها كثيرًا - ولكنه فى كثير من الأحيان، يرجع إلى مراجعه القانونية يستقصى رأى الفقهاء ويتابع أحكام المحاكم لكى يصل إلى رأى يسانده القانون فيما عرض عليه من مشكلات - وقد يلتجئ المحامى إلى زميل له يعتقد أنه أكثر منه خبرة أو أنه قد تخصص فى نوع من القضايا وسمح له تخصصه بأن تكون له خبرة قد لا تكون لدى غير المتخصصين - ولا أبالغ إذا قلت: إن مسئوليات المحامى وعمله، تأوى معه إلى فراشه، فإن قرأ قبل النوم، فهو يقرأ فى ميدان هذه المشاكل، حتى يستزيد علمًا، أو يرسِّخ رأيًا - وقد يعدّ المحامى مرافعته وهو مستلق فى سريره، ويغير من ترتيب نقاط الدفاع أو إلغاء بعضها وإحلال غيرها محلها.. وهو جالس فى شرفة منزله يتطلع إلى الأفق..

وأحيانًا ما يستيقظ المحامى عندما تطرأ له فكرة يجد فيها حلًّا بحث عنه ولم يجده ويهيأ إليه أن يصيح قائلًا.. «وجدتها.. وجدتها».. - كما صاح العلامة الكبير «انشتين» عندما اكتشف اختراعه، فيهب من نومه لكى يسجل الحل الذى وجده، الأمر الذى قد يقضى على متعة نومه، مما جعلنى أضع بجوار سريرى ورقة كبيرة، وقلمًا رصاصًا، أسجل عليها فى الظلام ما يخطر على بالى من أفكار وما أريد أن أتذكره من أعمال فى الصباح، دون أن أضىء المصباح - وعادة ما أجد فى الصباح أن الأسطر قد كتبت متشابكة، ولكنى عادة ما أستطيع أن أفك تشابكها لأصل إلى ما أردت أن

أسجله أثناء نومى أو عزمى على النوم، أو أثناء القلق الذى انتابنى وأنا نائم..

من أجل هذا فقد فرحت فرحة كبرى عندما عثرت على التسجيل الصغير الذى فى حجم الكف، فوضعته بجوار سريرى، حتى يحل محل الورقة والقلم الرصاص، أسجل فيه ما كنت أكتبه على الورقة، وإن كانت الفاضلة زوجتى هى التى نالها الضرر من هذا الاختراع - ذلك أنها عادة ما تصحو من نومها عندما أسجل خواطرى، أو أعمالى فى هذا الجهاز الصغير..!!

والأمر لا ينتهى عند ذلك، وإنما يتجدد فى الصباح، فيحاول المحامى أن يراجع أوراقه وأن يعيد على نفسه قراءة ما قرأ ليجد نفسه فى النهاية، وقد أعد دفاعًا متماسكًا يخيل له أنه هو الذى سيلقى به فى مرافعته، ولكن هذا عادة لا يحدث ذلك - فبعد سماع الشهود، وسماع دفاع الخصم يكون المحامى الذى يسعى لصالح موكله - وهو دائمًا ساع - ما يجد ضرورة لكى يختصر الدفاع الذى وجد أنه هو الدفاع المثالى - وذلك حتى لا تهتز صورته أمام المنصة التى يجلس عليها القضاة يعرفون تمامًا قدر الكلام الذى يلقى وقيمته فى القانون والموضوع..

وهكذا نرى أن الأقوال قد تقلصت، لكى تنتهى إلى كلمات، هى - يقينا - المؤدية إلى غرض الموكل، وهى كلمات لم يذكرها المحامى هكذا بعفوية، وإنما درس وقرأ وأعد وحذف، وعدّل، لكى ينتهى إلى ما ورد على لسانه فى مرافعته الشفوية أو مذكرته المكتوبة.

أما الطبيب، فهو يجرى الكشف فى وقت يختلف من طبيب إلى آخر،

ولكن أمر مريضه ينتهى بكتابة روشتة علاج، فإن امتد أمر المريض، فلا يمكن أن يمتد إلا لأسبوع أو أسبوعين، يأتى فيهما إلى طبيبه يستشيره فى علاجه الذى نصح به فى أول زيارة له..

وينتهى الأمر بسهولة تتناسب مع الأجر الذى يحدده الطبيب للكشف، خاصة إذا ما راعينا الارتفاع فى قيمة الكشف هذه الأيام.. !!

وهكذا، فإن المحامى لا يكون موضع حسد من أقرانه المهنيين، وإنما هو مثلهم يعانى - بل إن معاناته أكثر، ذلك أن النتيجة دائمًا - وليس غالبًا - ما تكون سببًا فى شهرته أو عدم شهرته - فعمله لم ينته بالمرافعة، وإنما يبدأ القلق كل القلق، حتى يصدر الحكم الذى يعرف بمقتضاه ما إذا كان قد وفق أم لا، فإذا لم يكن، فالهم كل الهم فى أن يتحمل مسئوليته - باستئناف - أو.. بنقض.. !!

الفهرس

صفحة

صفحة

رقم الإيداع		٧٧٤٠ / ١٩٩١
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3450 – 8	ISBN

١٥٥ / ٩١ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



عظمة المحاماه

بخيرها وفى خيرها عشنا ونعيش.. مصر.. أعطتنا وبذلت لنا العطاء.. فإذا ما بلغنا عمرًا يقُربنا من اليوم المحتوم.. نحس بدين فى رقابنا نحو أمِّنا مصر. يجب علينا أن نرد الدين.. وكيف لنا أن نرده؟! أن ننقل إلى جيل بعدنا ما اكتسبناه من خبرة.. لكى يكون جيلاً أحسن منَّا لها.

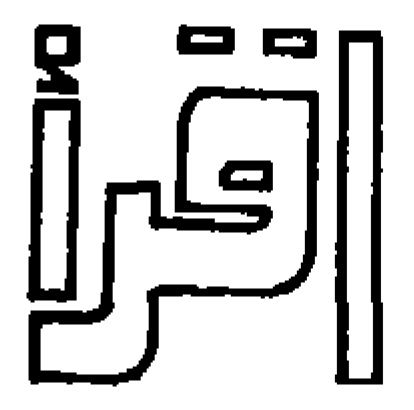
ص
١٠٠

اقرأ

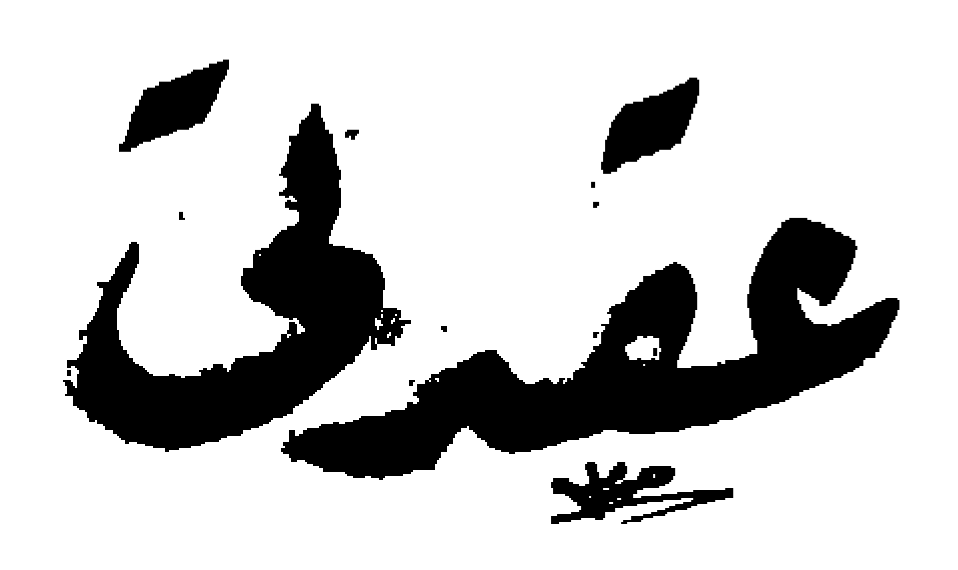
آمال العمدة

عقدي

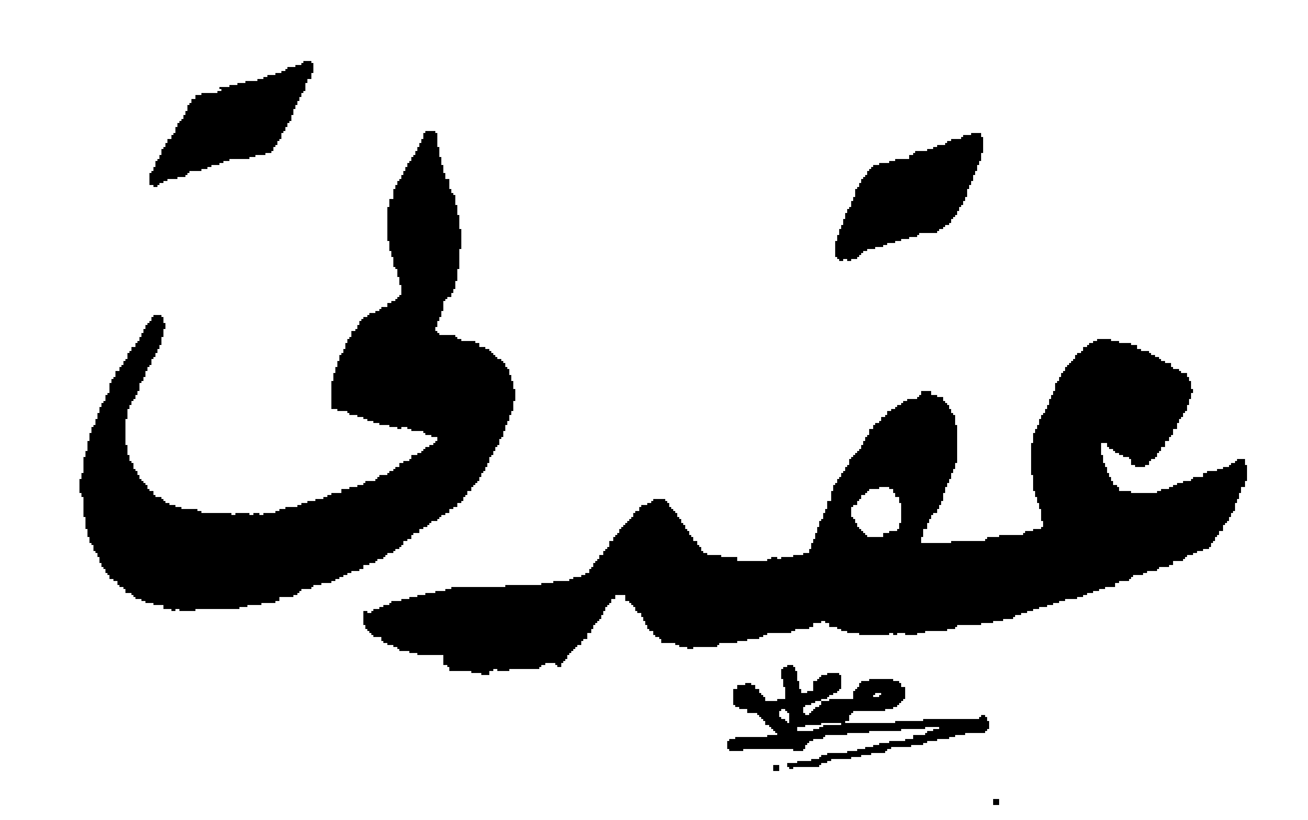
دار المعارف



[٥٦٧]



آمال العمدة





دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هـذه السلسلة ونشرهـا، لم يفكـروا إلا فى شىء واحد، هـو نشر الثقافـة من حيث هى ثقـافة، لا يـريـدون إلا أن يقـرأ أبنـاء الشعـوب العـربيـة. وأن ينتفعـوا، وأن تـدعـوهم هـذه القـراءة إلى الاستـزادة من الثقـافـة، والـطمـوح إلى حيـاة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

كبار الشخصيات الأدبية والفنية تعترف بعقدها!

الإنسان بلا ألم، بلا معاناة، بلا عقد، بلا إبداع..

بهذه العبارة قدمت آمال العمدة لبرنامجها «عقدتى» الذى قدمته طوال شهر رمضان فى البرنامج العام، وكشف استفتاء أخير أنه كان أنجح برامج الشهر.

كان البرنامج بالفعل جديدًا فى فكرته وفى مضمونه.. فمن السهل كما تقول آمال العمدة أن تتوجه المذيعة إلى أى شخص بالسؤال عن إنجازاته وأعماله وعطائه وإضافاته.. ولكن عندما يكون الحوار حول «العقد» أى حول ما يمكن أن نسميه «نقائص» فإن الأمر يختلف.. إن الحوار يتحول إلى شبه استجواب يغوص فيه السائل إلى داخل نفس الجالس أمامه لاستخراج الحقائق المترسبة داخله.. من زمان من أيام الطفولة، وسنوات الدراسة، وأيام العمل الأولى.

وكثير من الذين سألتهم آمال العمدة أبدوا دهشتهم بعد انتهاء الاستجواب من «العقد» التى تحدثوا عنها، البعض لم يتحمل وبكى، والبعض توقفت الكلمات على لسانه وأخذ وقتا حتى يمكنه أن يتمالك مشاعره ويكمل الحديث، ومن ثم كانت ملامح الصدق واضحة فى كل ما قال.

كيف بدأت فكرة البرنامج؟

تقول آمال العمدة: من داخلى.. أشياء كثيرة كنت أواجهها سواء فى تصرفاتى، أو تصرفات الآخرين، تجعلنى أسأل نفسى: لماذا؟ هل هى ثمار طبقات قديمة ترسبت فى الطفولة، لكن الغريبة أن بعض هذه التصرفات كانت تجىء من أفراد فى سن ابنتى حنان (٢٠ سنة) وهو ما جعلنى أسأل: هل العقدة النفسية لها سر معين؟ ذهبت إلى أطباء علم النفس أسألهم: د. أحمد عكاشة ود. محمد شعلان ود. يحيى الرخاوى ود. جمال ماضى أبو العزايم وكلهم أكدوا لى أنه ليس هناك بالفعل إنسان سوى.. كلنا معقدون ولكن من الممكن أن يخفى واحد عقدته.. ربما تم هذا الإخفاء عمدًا، وربما يتم عفوًا وفى الحالتين لا تظهر العقدة إلا عندما يجلس الفرد ويعطى نفسه فرصة تأمل هادئ فى بعض تاريخ شخصيته..

وهى ليست مهمة سهلة.. أن يجلس مقدم البرنامج ويفتح جهاز التسجيل وتنساب الاعترافات سهلة ميسورة. فكل فرد مختلف عن

الآخر.. ودرجة التنبه فى بعض الأشخاص قد تكون زائدة جدًّا.. مثلا الفنان محمود عبد العزيز جلست إليه آمال العمدة فى خلال فترة راحة قصيرة أثناء تمثيله مسلسل رأفت الهجان.. وكان محمود كما تقول آمال أتعب من سألته.. ربما لأن شخصية رأفت الهجان بحرصها البالغ كانت لاتزال مسيطرة عليه.. أو ربما لأن عقده هى بالفعل أقل كثيرًا.. أو ربما لأى سبب آخر..

ومن الغريب أن محمود عبد العزيز كان آخر من أدلى باعترافاته فى أثناء إعداد البرنامج، أما أول المعترفين فكانت الفنانة نجلاء فتحى.

وبين نجلاء فتحى ومحمود عبد العزيز كانت هناك العديد من كبار الأدباء والفنانين: مثل نجيب محفوظ ومصطفى أمين وأنيس منصور ود. يوسف إدريس ومحمود السعدنى ونور الشريف وحسين فهمى وشويكار - وفؤاد المهندس وسعد الدين وهبه وسميحة أيوب ود. أحمد شفيق ود. محمد شعلان وغيرهم.

ولأنه أول برنامج من نوعه يغوص فى داخل النفس البشرية بسرعة وصراحة، ولأنه دراسة هامة لهذه الشخصيات كان اختيار مجلة «أكتوبر» له لتقدمه على حلقات بعد أن تطوعت مقدمته السيدة آمال العمدة بتفريغ الأشرطة التى سجلتها كاملة وفيها الكثير مما لم تتمكن من إذاعته لأن مدة البرنامج المذاع لم تكن تتجاوز سوى خمس دقائق.



نجيب محفوظ

١ - نجيب محفوظ
تحررت من عقدة الموت بالكتابة عنه

■ الكاتب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ: هناك مقولة أن الإنسان بلا ألم بلا معاناة بلا عقد بلا إبداع.. كيف يرى الروائى العالمى نجيب محفوظ هذه المعادلة.

□ هى لدرجة كبيرة لا تخلو من الصحة، لأن الإبداع يعنى إيجاد شيء لم يكن موجودًا. وبالتالى إذا كان الإنسان راضيًا رضا تامًّا وليس لديه أى إحساس بألم أو بعقد أو معاناة إذن حيبدع ليه.. أو يشتغل ليه؟

■ ماذا كانت آلام نجيب محفوظ فى صباه.. أو فلنقل عقده؟

□ أنا عشت فترة مليئة بالصراعات سواء فى محيط الأسرة أو المجتمع، فتحت عينى على ثورة (يقصد ثورة ١٩) وناس بتتضارب ورصاص بينطلق.. البيوت التى كنا نعيش فيها كانت فى الحقيقة أشبه بممالك رهيبة كلها أوامر.. الأطفال فى الشوارع كل طفل تقريبا عاوز يثبت أنه ولد فتوة ويفتخر بالعدوان ورغم

أننى كنت عايش فى حى جميل.. فكانوا يحجزوننا فى البيت وفضلت فترة طويلة قبل خروجى للكتاب أو المدرسة الأولية لا أستطيع الخروج أمام الباب خوفا من الأذى.. مفيش شك أن هذا كله يترك فى النفس شيئًا من التمرد والعقد وفقد النظام العائلى والاجتماعى.

■ لكن الذى أعرفه أن الأستاذ نجيب محفوظ كان يلعب ملاكمة.. هل كان ذلك دفاعًا عن النفس من عقدة اعتداء الآخرين عليك؟

□ أول حاجة يحبها الإنسان خصوصًا بعد ما دخلنا السينما وشاهدنا «الشجيع» هو حب القوة.. ولكن الملاكمة لم استمر فيها طويلًا لأنى أخذت خبطة.

■ هل تحرر الأستاذ نجيب محفوظ من ربطة العنق التى لم تلبسها أبدا عن عقدة الإحساس بالقيود؟

□ ربما يكون ذلك ما تقولينه كتفسير نفسى، ولكن الواقع أن هذه الحكاية لها أصل هو إصابتى بحساسية فى الجلد، ورغم ذلك فتفسيرك قد يكون له أيضًا ما يبرره لأن المرحوم توفيق الحكيم، أشار لى على كرافتات لا تربط وإنما تلبس جاهزة ولكننى لم أستطع أيضًا استخدامها رغم سهولتها..

■ هل يتحرر نجيب محفوظ من عذاب عقده بالكتابة؟

□ عذابات كثيرة.. يعنى مثلاً سوف أعترف لك بأننى أخاف من الموت، ومن يراجع عشرات القصص القصيرة التى كتبتها، يجدها مليئة بفكرة الموت، وهذا ينتهى بتحرير الإنسان من الخوف من عقدة الموت.

■ لماذا عقدة الارتباط بالأرض وعدم السفر؟

□ تقدرى تسميها عادة.. وهى فى الحقيقة جاءت عرضًا وليست أصلا ولكننى أصبحت ملتزمًا بنظام يقتضى ثباته.

■ هل تقاوم عقدة الترهل بالمشى؟ وهل تحول النظام الدقيق فى حياتك إلى عقدة؟

□ أنا فعلاً أحب المشى إذا توقفت عنه اعتبر أننى خسرت شيئًا لا يعوض.. شيئًا وجدت فيه سلوى وجمالا، وبعد مرض السكر أصبحت أجد فيه العلاج فأصبح ضروريًّا فى جميع الأحوال، وهو الآن بالفعل عقدتى.

■ ومرض السكر هل أصابك بعقدة؟

□ أنا عاشرت مرض السكر ٣٠ سنة وبالتالى فهو ليس عقدة وإنما صديق.

■ أستاذ نجيب محفوظ: هل إبداعك الذى حقق لك نوبل جعلك تعانى من عقدة الخوف بعد نوبل؟

□ لا أبدا.. لأن الجائزة عندما تأتى للإنسان فى شبابه غير أن تأتى فى وسط العمر غير أن تأتى فى آخر العمر.. عندما تأتى للإنسان فى الختام ليس هناك خوف.. العطار من عادته أنه «يلم» كناسة الدكان ويسميها «كناسة العطار».. وأنا الآن أعيش فى هذه الفترة فلا نوبل تؤثر فينا ولا غير نوبل.

■ هل هناك عقدة يخفيها الأستاذ نجيب محفوظ عن عيون الناس ولم ينجح فى تجاوزها حتى اليوم؟

□ نعم.

■ ما هى؟

□ لأ.

■ يعنى لا تريد أن تبوح بها؟

□ لأ.



نجـلاء فتحى

٢ - نجلاء فتحى
كنت أريد أن أكون ولدًا

■ نجلاء فتحى بعد هذا النجاح الذى وصلت إليه تفتكرى عقدة؟

□ أفتكر عقد وأولها عقدتى من صوتى وأنا صغيرة.. كان صوتى معقدنى خصوصًا لما كنت أدخل أسلم على حد فكان يقول شكلها حلو البنت دى بس صوتها وحش قوى.. ولكن مع الوقت راحت العقدة واتحلت.

■ تفتكرى هناك عقدة لم تستطيعى حلها؟

□ هو من الصعب الحقيقة أننى أخلى رجلى «تخينة أمى الله يرحمها كانت سيقانها جميلة وأخواتى كانوا يضحكون على ويقولون لى إن رجلى رفيعة عاملة زى العصفورة. وكنت أتغاظ جدًّا وكانوا يقولون لى كلى وأنت واقفة علشان الأكل ينزل فى رجليكى ويملاها، وبالفعل كنت أعمل كده ولكن اللى حصل أن رجلى فضلت زى ما هى، ومعدتى تعبت من الأكل وأنا واقفة.

■ هل جمال نجلاء فتحى كان سببًا لك فى أى عقدة؟

□ حرام عليك.. ده نعمة من عند ربنا.. هو حد يكره إنه يبقى حلو.. لكن العقدة اللى افتكرتها ومش عارفة أتخلص منها هى أننى أنطق الحروف كلها متكاملة صح.. محمود ياسين زميلى العزيز عندما سمعنى أنطق حروف غلط، وهوه طبعًا لغة عربية ممتاز قال لى القاف من الحلق والكاف من الفك، وخلصنى من حكاية الكاف ولكن ما زالت هناك حروف ثانية.

■ هل بعض سلوكياتك أو تصرفاتك نتيجة عقدة ما؟

□ عقدة أننى كنت أتمنى أكون ولدًا مثل أخواتى الصبيان.. كانوا ينزلون يلعبون وأمى تحجزنى فى البيت وهذا جعلنى ألبس بنطلونات، وأتكلم بصوت عال، وأتحرك كثيرًا كما لو أننى أريد أن أثبت أننى لست أقل من الأولاد.

■ ما هى العقدة التى تحاول فاطمة الزهراء فتحى إخفاءها حتى بعد أن أصبحت نجلاء فتحى؟

□ أحب أخفى ضعفى فى الحب.. هذه عقدة أقولها بصراحة لأننى لا أحب الحب الذى فيه ضعف.. هذه مسألة داخلى ولذلك أخفيها.



نور الشريف

٣ - نور الشريف
لم افهم سبب زواج أمى إلا متأخرا

■ عقدة لازمتك مشوار العمر؟

□ عقدتان.. عقدة اكتشاف أن والذى لم يكن والدى، والثانية عندما تزوجت أمى الله يرحمها.. الموقف كان غريبًا جدًّا بالنسبة لى لأننا كنا فى أول يوم دراسة لى فى مدرسة أحمد بن طولون الابتدائية والمدرس بيتمم على الفصل ووقف ينادى: محمد جابر محمد.. لم أرد.. عاد يقول: محمد جابر محمد.. لم أرد.. نظر لى وقال لى: أنت ما بتردش ليه؟.. قلت له أنا أسمى نور.. قال لى: وأنا بالفعل كان فى البيت اسمى نور.. قال لى: أنت من النهاردة اسمك محمد جابر.. فى هذا اليوم - وكان عندى ٦ سنوات - عرفت أن الرجل الله يرحمه والذى تعودت منذ عرفت أنطق وأقول له يا بابا لم يكن أبى وإنما كان عمى.. وهذا شىء زلزلنى فترة طويلة وجعلنى أعشق أشياء كثيرة أهمها هاملت لأن علاقة هاملت بأبيه نفس الشىء.. فهذه العقدة أثرت على بالسلب وأنا

صغير ولكن بعد الدراسة والتخرج أو أثناء الدراسة بالمعهد أثرت بالايجاب جدا فى الإحساس بأعمال أدبية تتشابه مع حالتى.

■ متى تغلبت على عقدة فقدان الأب؟

□ تقريبا فى المرحلة الإعدادية عندما بدأت التمثيل فى فريق المدرسة يعنى التمثيل كان بالنسبة لى علاجا ولم يكن مجرد لعب..

■ عقدة فقدان الأب فى الطفولة المبكرة هل أثرت عليك كأب بالنسبة لأولادك؟

□ نعم - جعلتنى ينتابنى خوف كبير على مستقبلهم وأوقات كثيرة أسرح.

■ الفنان نور الشريف: عقدة نفسية داخلك تود علاجها سينمائيًا؟

□ العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة: فى المجتمع العربى لأن هذه العلاقة كثير منها فيه كم مخيف من الزيف.

■ بالنسبة لك.. زواج نور الشريف وبوسى واستمراره عن عقدة؟

□ جزء منه عقدة خاصة بى أنا لأنى صعيدى شرقى، عندما أحببت بوسى وهى طفلة فى برامج الأطفال قلت إننى سأتزوجها وأربيها

على مزاجى، وبالتالى العلاقة بينى وبين بوسى ليست علاقة زواج تقليدية.

■ أستاذ نور الشريف: عقدة معينة لم تستطع حلها فى حياتك واضطرتك للذهاب إلى طبيب نفسانى؟

□ غدر الأصدقاء.

■ هل قابلت الغدر كثيرًا؟

□ مش كثير ولكن قليل وقاسى يعنى مركز.. وسبب لى عقدة لفترة ولكن عندما يدرك الإنسان السلوك البشرى يصفح عن الناس والعقدة تنتهى.

■ هل انهيت كل عقدك؟

□ بدرجة معقولة.. أكيد هناك عقدة مازالت مخيفة لا أعرفها إلى الآن.

■ عقدة لم يبح بها محمد جابر الشهير بنور الشريف لأحد من قبل؟

□ زواج أمى.. ليست هناك كلمة أستطيع أن أعبر بها عن مدى الألم الذى أحسست به وأنا أتصور أن أمى ستنام فى حضن رجل آخر غير والدى.. وهذه العقدة ظلت مسيطرة على إلى أن تخرجت فى المعهد بعد أن أصبح عندى ٢١ سنة، وقتها فقط، بعد

السفر والقراءة والاحتكاك بتجارب الحياة اكتشفت أن والدى مات وهو عنده ٢٦ سنة وأن والدتى كان سنها١٩ سنة وبالطبع كان من حقها الزواج ولكننى لم أدرك ذلك إلا بعد أن أصبح سنى ٢١ سنة.

■ المال يسبب لك عقدة؟

□ الاحتياج له يضايقنى جدًّا، ولكن الفلوس الزيادة عن اللازم أخاف منها.

■ الفنان نور الشريف.. أديت أدوارًا معقدة ومركبة فى السينما هل أصابتك بعقدة؟

□ عقدة مؤقتة وليست دائمة.. يعنى عقدة تظل أسبوعين أو ثلاثة بعد انتهاء العمل، بالذات شخصية كمال عبد الجواد فى السكرية.. الإنسان المتردد الذى لا يقدم على الفعل. هذه عقدة مخيفة لأنه يصاب بالحسرة على حياته.

■ هل أنت متردد؟

□ أحيانا.



آثار الحكيم

٤ - آثار الحكيم
أخاف الوحدة والبحر وأتحدى الرجل

■ عقدة فى طفولتك تذكرينها؟

□ الحقيقة عقدة حياتى الأساسية كانت من طفولتى مع والدى الله يرحمه وأمى. لأن بابا كان ديكتاتورًا صعبًا جدًّا فى حين أمى كانت سلبية تمامًا.. بالضبط مثل سى السيد وأمى وأى حاجة يقولها لازم تتعمل.. يعنى بدون مبالغة أبويا كان يعتبر أن الست عبارة عن جهاز للإنجاب.. معمل لتفريخ الأطفال والذرية وهذا عمل لى عقدة شديدة جدًّا وأن الولد طبعا أحسن من البنت.

■ هل أثرت عليك هذه العقدة؟

□ لفترة طويلة.. يعنى كنت بالعب ما تشات كورة مع أطفال المنطقة، وإلى وقت قريب لم أكن أرتدى سوى الجينز أو يعنى الملابس الرجالى.

■ الفنانة آثار الحكيم.. هل أثرت عقدة والدك وشخصية سى السيد فيه على اختيارك لزوجك؟

□ بالتأكيد.. لأن زوجي شخصية مختلفة تمامًا.. ديمقراطي جدًّا.. أي مشكلة لازم نناقشها وتعجب لو قلت لك إن بابا كان بيحب زوجي جدًّا وكان نفسه أن يفضل معاه خاصة فى فترة مرضه الأخيرة بسبب شعور الحنان الذى كان زوجي يغمر به والدى.

■ آثار الحكيم أفتقدت الحنان فى والدها وهى صغيرة وعوضته عندما كبرت هل استطعت استثمار عقدة الحنان هذه فى السينما؟

□ طبعا خصوصًا فى المواقف التى تتطلب دموعًا.. لأنه أنا صعب جدًّا إننى أعرف أبكى.. فعندما أتذكر فترة حرمانى يسهل على البكاء.. وغير كده هناك عقدة أخرى عنيت منها وهى عقدة الوحدة وإحساسى بأننى وحيدة وربما هذه نتيجة سلبية أمى وعدم قدرتها على حل أى مشكلة.

■ هذه السلبية فى والدتك كرهتيها لدرجة أنها أصبحت لديك ندية مع زوجك؟

□ لأ.. كرهتها لدرجة أنه كان هناك ندية بينى وبين أى رجل أقابله. مش عاوزه يعاملنى على أساس أننى أنثى ولكن على مستوى العقل والمنطق والحكمة والثقافة، عملية كانت صعبة جدًّا جدًّا ويمكن سبب نجاح مجدى زوجي شعوره بهذه النقطة ومعرفته إزاى يدخل لى منها وإزاى يحتضنى ويطوعنى ويخلصنى من عقد كثيرة.

■ ومع ذلك – هل هناك عقدة لم تتمكنى من الخلاص منها؟

□ أحيانا الاحساس بالوحدة أيضًا عقدة البحر.. أنا أخاف منه جدًّا.. لا أحب عمقه ولا أحب اللا حدود فيه.. أنا أعرف السباحة ولكن مع ذلك أخاف جدًّا من البحر.. يعنى لا أحب أن أدخل جواه.

■ الأمومة الزائدة عند آثار الحكيم عن عقدة.

□ يمكن إحساس بالذنب ولكن ليس نتيجة فقدان فى طفولتى.. يعنى أنا من الحاجات اللى اتذكرها جدًّا وكنت ألوم أمى عليها لما كبرت أننى قلت لها أنا ما فتكرش أنك كنت بتاخدينى فى حضنك مثلاً.

■ أنتى بتعيطى؟

□ ....

■ هل ارتباطك بابنك الزائد عن اللزوم تعويض عن فقدان الحنان من والدتك؟

□ بالتأكيد ده جزء.. وجزء ثان أيضًا أننى قرأت كمًّا كبيرًا من الموسوعات والكتب عن الاطفال والحالة النفسية للأطفال وهذه بينت لى أشياء كثيرة جدًّا وهامة جدًا.. أهم من أنك تأكلى إبنك أو تغيرى له.. لأن هذه الحاجات مهمتها إزاى يكون إنسان..

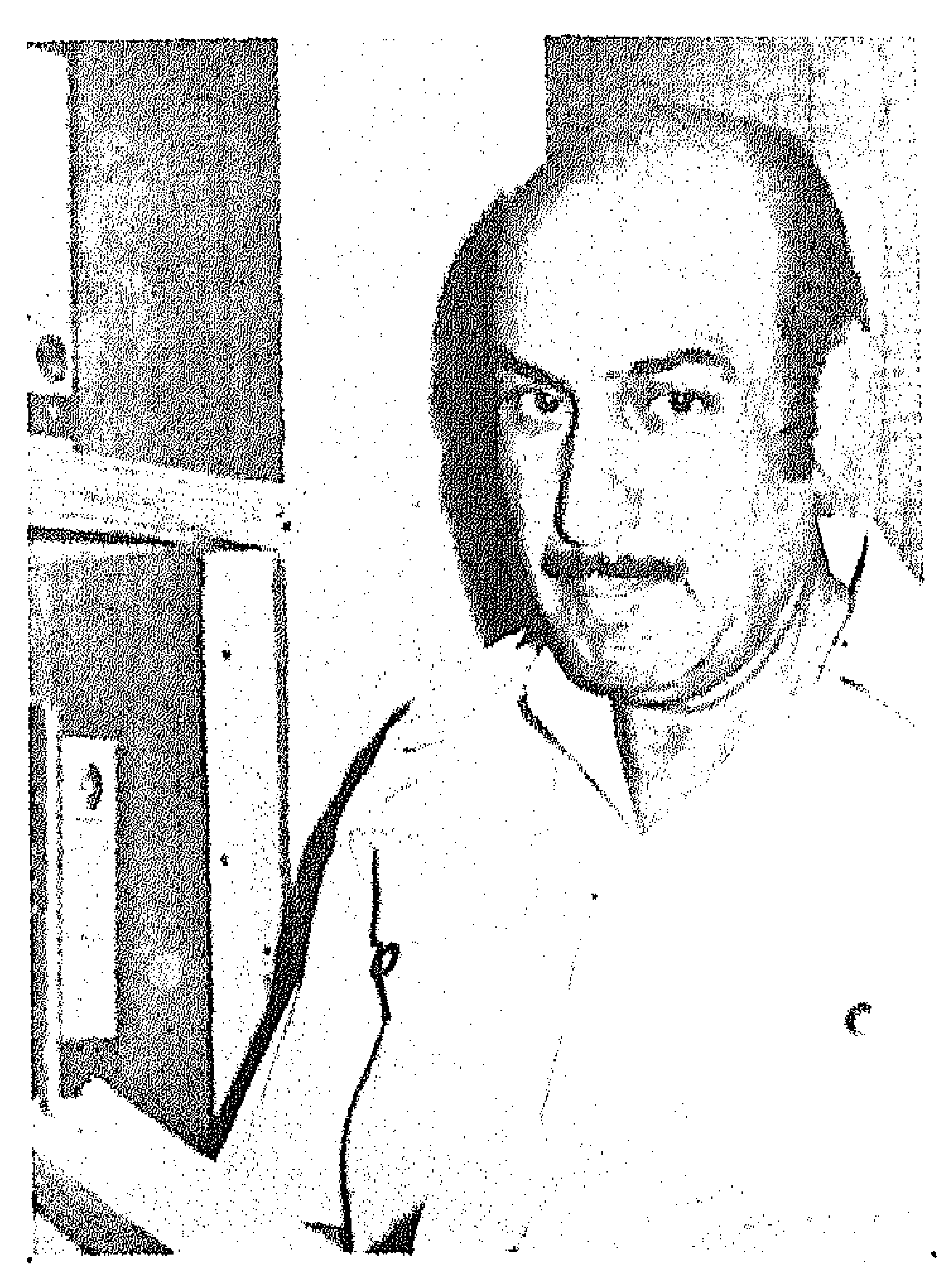
إزاى تخلقى شخصيته وتعطيه القيم والمبادئ والأمان.

■ تأخذيه فى حضنك؟

□ بالضبط هو ده.. وبالتأكيد إحساسى بفقدان الحنان أو إحساسى إننى وحيدة وإننى طول حياتى أواجه الدنيا وحدى جعل عندى رغبة شديدة فى أننى لا أترك عمر ابنى دقيقة واحدة حتى لا يشعر بإحساس الوحدة وأنه فاقد للحنان. لو مثلاً ذهبت. سينما مع زوجى وتركته عند حماتى أشعر بذنب شديد جدًا ولا أستمتع بأى شىء.. المشوار الوحيد الذى لا أشعر فيه بهذا الذنب هو مشوار الشغل فقط.

■ مجدى زوجك هل هو عكس والدك تمامًا؟

□ مفيش مقارنة.. ليست فيه ديكتاتورية.. شىء جميل تعلمته منه وهو كيف نقعد ونتكلم.. زعلانين مع بعض ومتخانقين لكن الحكاية لن تحل إلا بالكلام.. والكلام الودود.. أتعلمت منه إزاى نطلع اللى جوانا.. يعنى «ننخور» داخل نفسية بعض زى ما يكون هو طبيبى النفسى أو أنا طبيبته النفسية حتى تصل للأفضل لحياة مريحة.. مش عاوز أقول سعيدة ولكن مريحة بحيث أن تشعرى من داخلك بسكينة وهدوء ومش عاوزه حاجة ثانية من الدنيا.



كمال الطويل

٥ - كمال الطويل
لم أرض عن لحن واحد قدمته حتى الآن

■ الموسيقار الكبير كمال الطويل.. عقدة فى الطفولة والصبا تخلصت منها.

□ يعنى أنا فاكر أننى عندما كنت فى المدرسة الداخلية، كنت أصغر طالب تقريبًا فى المدرسة وكنت طويلاً ونحيفًا جدًّا بينما زملائى فى الداخلية سنهم كبيرة لدرجة أن أحدهم اتعين عمدة فى بلدهم وهو فى سنة ثانية ابتدائى! فلك أن تتخيلى.. المشكلة أنه كان هناك أحزاب فى المدرسة، وفريق ضد فريق، وأنا رفيع كما قلت ولست قويًّا وأصغر واحد فى السن فكان لابد أن أتخلص من نقطة الضعف هذه.

■ وحصل فعلاً أنك تخلصت منها؟

□ أنا كنت ضمن فريق الموسيقى فى المدرسة، وقيل وقتها أن صوتى مش بطال، فالجماعة الكبار أخذونى فى جانبهم واعتبرونى

مطربهم، وأصبحت أتمتع بحمايتهم.. عندما نجلس للأكل يعطونى النصيب الأوفى علشان أتخن شوية.

■ إذن فالموسيقى والغناء كانا سبب الخلاص من عقدة نحافة جسمك؟

□ هذا صحيح

■ طيب عقدة لم تستطع أن تتخلص منها حتى الآن؟

□ هى عقدة موسيقية.. كلما ينجح لى لحن يزداد خوفى، ويزداد شعورى أننى لا أريد أن ألحن خوفا من الفشل فى الوصول إلى مستوى أحسن من الذى وصلت إليه.

■ هل ممكن نقول إنها عقدة الخوف من النجاح؟

□ والله مش عارف بالضبط.. لكن النجاح ليس هو الدافع للعمل، وإنما أيضًا النجاح ممكن يكون معوقًا للعمل.

■ يعنى النجاح عقدة؟

□ عقدة طبعا.. يعنى حا أقولك حاجة.. أكثر حاجة ممكن تصيب الإنسان بالإهمال هو عدم رضاه عما يقدمه.. يعنى صدقينى إذا قلت إننى خلال السنين الطويلة التى مارست فيها التلحين لم أرض عن لحن واحد قدمته.

■ معنى ذلك أنك معقد من إبداعك؟.

□ يعنى.. تقدرى تسميه كذلك.

■ العبقرية.. هل هى عدم استواء فى الشخصية؟.

□ أسألى عبقريا لأنه أنا لا أداعى لنفسى العبقرية ولا أعرف هذه الحكاية.. ولكن لا شك أن هناك أسبابا يمكن أن تجعل الإنسان يبدع فى ناحية من النواحى.. على سبيل المثال لو واحد حاسس بنقص فى ناحية من النواحى فهو يريد أن يعوضها بشىء يلفت النظر أو السمع.

■ كمال الطويل هل هو من هذا النوع؟

□ لا شك أن هناك حاجة جعلتنى أتطلع إلى الظهور وكانت وسيلتى إلى هذا هى الموسيقى.. إنما إيه هيه بالضبط دى اللى مش عارفها.

■ طيب نحاول نبتدى من الأول.. من طفولتك.

□ فى طفولتى كانت والدتى متوفاة ووالدى بدأ حياة جديدة، وكان عنده أولاد وبالتالى كنت أشعر أن هناك نوعًا من التفرقة فى المعاملة، وطبعًا هذه مشاعر ممكن كنت متخيلها وممكن تكون حقيقة، لكن المهم أن الذى كان فى ذهنى دايما أن أقول لنفسى إنه ليس هناك أحد أحسن منى، أو على الأقل مفيش حد أحسن من حد.

■ هل أثبت ذلك من خلال الموسيقى وبعدها حققت النجاح وتخلصت من هذه العقدة؟.

□ يعنى بعد أن انتهت هذه المسألة فوجئت بشيء آخر وهو أن ما تسمينه عقدة النجاح جعلتنى أتكاسل عن الاستمرارية فى هذا النجاح.

■ هل هذه فعلا العقدة التى لم تتخلص منها حتى الآن؟.

□ هناك عقدة لم أحلها حتى اليوم.. وهى مشكلتى مع قواعد اللغة العربية يعنى حكاية الرفع والنصب والجر الحقيقة عقدة فى حياتى.. وممكن أقول عبارة صحيحة تماما، ولكن فى داخلى حاسس أنها ممكن تكون غير صحيحة وهذه المسألة أرقتنى كثيرًا.

■ تفتكر أنا نجحت أخلصك من عقدك؟.

□ يعنى مش عارف.. لأنه إذا كان كما تقولين الألم المترتب على عقدة. يولد إبداعًا فإذا خلصتينى من عقدى إذن خلصتينى من الألم.. إذن ليس هناك إبداع.. حرام عليك!.



شويكار

٦ - شويكـار
أكبر عقدة عملى دويتو مع فؤاد المهندس

■ مدام شويكار ما هى عقدتك.

□ ده أنا كلى عقد..

■ تفتكرى عقد الطفولة لها تأثير فى صنع النجاح والإرادة.

□ بالتأكيد.. أيام الطفولة فى المدرسة الداخلية والحبسة وكتمة النفس مع الراهبات، جعلتنى عاوزه أحتج وأعمل أى شىء أعبر به عن هذا الاحتجاج.. أنط من على السور لأنه كان عندى الطاقة ولم أكن أخرج لزيارة أهلى إلا كل ١٥ يومًا فهذه بالتأكيد جعلت عندى عقدة.

■ هل تكونت لديك عقدة من الزواج والارتباط ؟.

□ العقدة أن الفنانة يجب ألا تتزوج من فنان، لأنها بتشتغل وهو أيضًا بيشتغل ولا يصنعان رصيدًا لبعض، والذى يحدث أنه بعد أن يكبرا ويجلسا إلى بعض يجدان أنهما لم يكونا يحبان بعضهما وإنما كانا يشتغلان مع بعض!.

■ الأمومة الزائدة عندك ناحية منة الله هل هى عن عقدة؟

□ الأمومة مولودة فى كل البنات.. واحنا كلنا أول ما نبدأ نجيب عروسة ونلبسها، يهيأ لى أن الأمومة خلقة ربنا.. لكن بالنسبة لى ربما كان حبى لا بنتى زيادة شوية أكثر لأنها يتيمة. الأب مات وعندها حوالى ١٨ سنة فكنت أمًّا وأبًا فى نفس الوقت فأصبحت أحبها حب الأم والأب مع بعض.

■ هل هناك عقدة استثمرتها فى فنك؟.

□ إثبات حقوق الست.. لأنهم كانوا يتهمون الست إنها لازم تكون مساعدة والكاتب لا يؤلف مسرحية إلا للرجال الكوميدى فأنا أثبت لهم فى سيدتى الجميلة أن الست تقدر تقف زى الراجل.

■ هل هناك عقدة فى حياتك لم تستطيعى التغلب عليها حتى اليوم؟.

□ أيوه.. الاندفاع.. عندى حتة اندفاع فظيعة فى العاطفة والعطاء وفى الحب وفى الشغل.. مندفعة ومش عارفة أبطل الحكاية دى.

■ بالنسبة للمال عندك.. حب المال أو الزهد.. وعن عقدة؟.

□ لأ.. أنا لا أحب الفلوس.. أحب أصرف الفلوس وعمرى ما كان عندى فى البنك فلوس.

■ الصداقة هل تكونت لك منها عقدة؟.

□ أبدا بالعكس.. أنا عندى أصدقاء من ٢٥ أو ٢٧ سنة وليس لدى عقد من أصحابى.

■ النجومية.. هل ممكن تسبب عقدة؟.

□ النجومية ممكن تسبب غرورًا ربنا يكفينا شره... وبالنسبة لى أنا طول عمرى نجمة والصحف تكتب عنى، لأنى عملت حاجات كتير فى حياتى.. وكنت فى الهلال الأحمر وكنت من أشيك بنات البلاج فكانوا دايما يأخذوننى فى الصور، فأنا كنت معروفة ومشهورة قبل التمثيل.. وكنت طول الوقت نجمة، فالنجمة بالنسبة لى هى النجمة التى فى السماء وليست نجمة تمثل.

■ هل الجمال المبكر يسبب عقدة؟.

□ بالتأكيد.. ولكن الجمال عندما تكون واحدة حلوة غير لما تكون روحها حلوة.. الجمال بيروح لكن اللى جوه بيفضل.

■ ما هى العقدة التى لم تبوحى بها لأحد؟

□ يعنى الحاجة التى لم أقلها أبدًا قبل ذلك أننى عملت دويتو مع فؤاد.. كنت لازم من الأول اشتغل لوحدى.

■ الاثنان إذا وصلا القمة وانفصلا فنيًّا واجتماعيًّا هل يمكن أن يصابا بعقد؟

□ أنا خسرت كثيرًا بعد الانفصال ولو رتبت حياتى على أساس أكون وحدى مكنتش خسرت كثيرا.

■ هل تحبين الحزن؟

□ بالعكس أنا لا أحب الحزن، ولا أن يكون هناك أحد حزين.. وعندما أجلس مع أصحابى، ويحكون حاجات مضايقاهم أفضل أقول على نفسى حاجات أضحكهم.

■ يعنى تسخرى من ظروفك أو عقدك؟

□ طبعًا.. طبعًا.

■ لولا هذه العقدة ما أصبحت الفنانة شويكار.. متى تقولين هذه العبارة؟

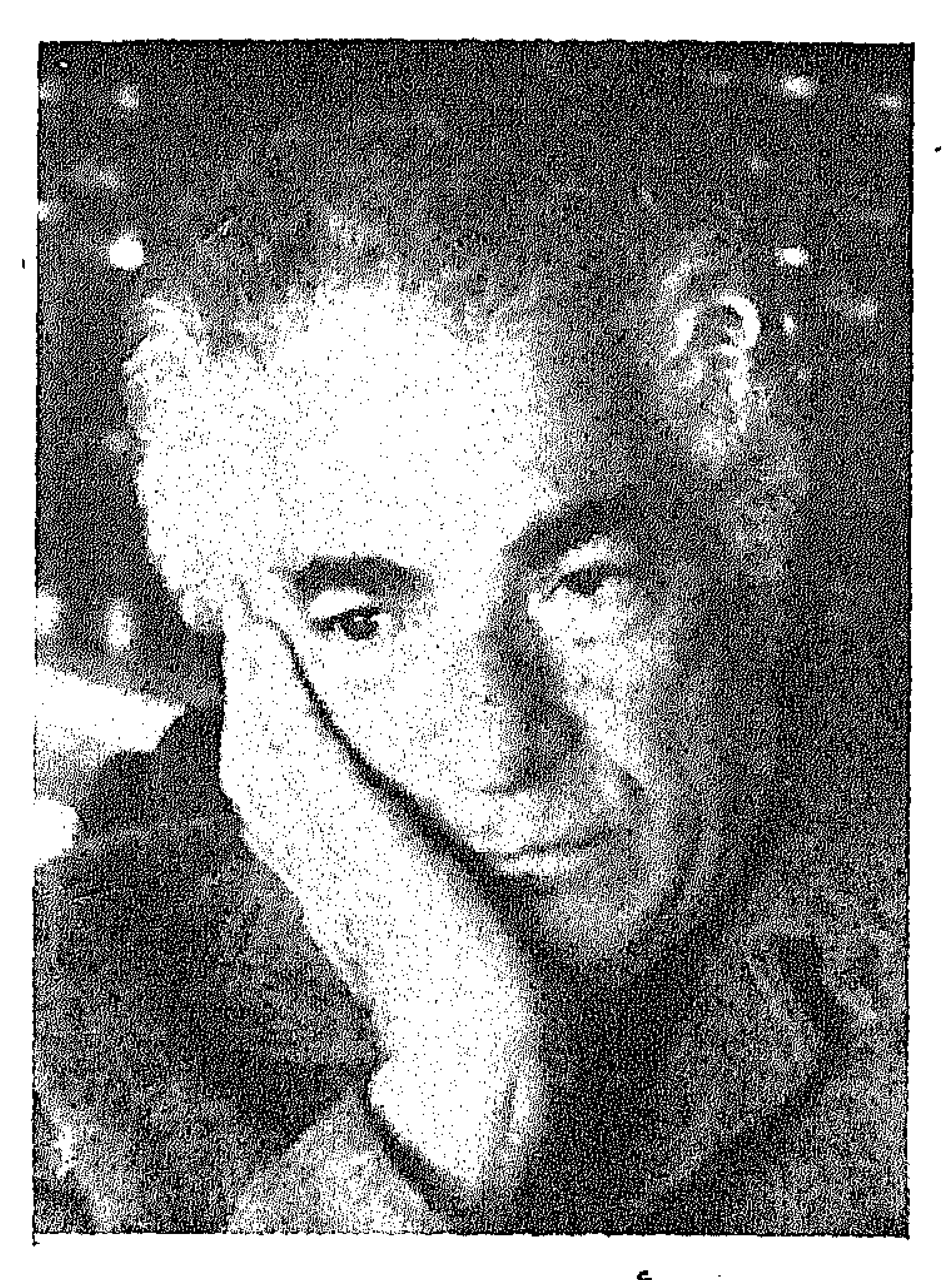
□ لولا عقدة الدويتو ما أصبحت الفنانة شويكار.

■ عقدة الفشل فى الحب تعانى منها شويكار؟.

□ أنا لم أفشل فى حبى عمرى، ولذلك ليست لدى عقدة منه.. ويمكن السبب أننى باتحب ولكن مش با أحب.

■ عقدك التى فشلت فى تجاوزها أكثر أو التى نجحت فى تجاوزها أكثر؟.

□ عقدى التى فشلت فى تجاوزها وحلها أكثر لأننا كلنا عقد.. وأنا عندى كثير لكننى أقول وغيرى لا يقول.



أنيس منصور

٧ - أنيس منصور
أنا خجول جدًّا ومتخلف اجتماعيًّا

■ الكاتب الكبير الأستاذ أنيس منصور.. هل هناك إنسان سوى أى بلا عقد؟.

□ لا مفيش.. فكرة الإنسان العادى فرض لا وجود له.. كل شخص مثل الحروف الهجائية والألف هو الحرف السوى الوحيد، وبعد ذلك كل الحروف ملتوية.

■ لو تأملنا فى عقد طفولة صنعت أنيس منصور تقول إيه؟.

□ هى ليست عقدًا ولكن مشاكل أهمها مطالب كبيرة لا يستطيع أن يحقق منها الإنسان سوى القليل.. وإذا كانت عندى مشكلة فى حياتى فهى مشكلة تنقلنا إلى أماكن كثيرة جدًّا فى الدنيا، وهذا التنقل ينطبق عليه المثل اليونانى الذى يقول إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب.. وأنا أقصد بالعشب هنا الصداقة.. الزمالة الجيرة.. العشرة.. باستمرار كثير التنقل كثير القلق.. وربما كان شعور القلق هو الذى بقى لى من كل هذا.

■ أستاذ أنيس: عقدة لم تستطع أن تتغلب عليها؟.

□ إحساسى بأننى يمكن أن أصاب بالبرد فى أى لحظة لدرجة أننى لو وضعت يدى على زجاج المكتب ممكن أعطس رغم أن الجو ليس باردًا.. ولكن عندى خوف فظيع من البرد.

■ عقدة فى شبابك لم تتغلب عليها؟.

□ الخجل.. البعض ربما يهيأ له أنه بسبب جرأة أفكارى وأقوالى فأنا إنسان جرىء ولكن الواقع أننى خجول جدًّا لدرجة أنه لم يحدث أبدًا أن دخلت مطعمًا أو مكانًا عامًّا وحدى أبدًا.. وإذا حدث ودعانى أحد للغداء فى مكان أنتظره فى خارج هذا المكان ولا أدخل أبدًا وحدى، ولم أنجح أبدًا فى التغلب على هذا الشعور بالحرج.

■ تأخرك فى الزواج هل كان بسبب عقدة من الارتباط بالزواج؟.

□ لأ.. أنا متخلف اجتماعيًّا.. بمعنى أن نضجى الاجتماعى جاء متأخرًا جدًّا لأنى إنسان منطو وغير اجتماعى بتكوينى. فأنا مثلاً لم أدخل السينما إلا بعد تخرجى فى الجامعة... وفى فترة الدراسة كان يخيل لى أن كل عملى هو أن أذاكر وأنجح وأطلع الأول.. فلم يقل لى أحد أن هناك شيئًا فى الدنيا غير الكتاب والمكتبة والنجاح.. فنموى الاجتماعى تأخر.. وأنا أعتقد أن تأخرى فى الزواج مظهر من مظاهر التخلف الاجتماعى.

■ التفوق والرغبة فى النجاح والتثقيف وحب الفلسفة من واقع عقدة ؟.

□ لأ.. وإنما أيضًا نتيجة الانطواء والعزلة، وعدم المشاركة فى النشاط الاجتماعى، والاكتفاء بالفرجة من بعيد على المجتمع دون المشاركة فيه، هذا أورثنى حب القراءة والتأمل، وبعد ذلك أصبحت على مدى خطوة واحدة من الفكر الفلسفى والفلسفة.

■ ما هى أشهر عقدة تحدث عنها الأدب وكانت من أسباب شهرة صاحبها ؟.

□ لا أعتقد أنه كانت هناك عقدة سبب شهرة أديب كبير، وإنما أصبح شهيرًا لأن له موهبة، ولكن يمكن أن تؤثر بعض العيوب الجسمية أو الخلقية، أو الاجتماعية فى أسلوب تفكيره.. مثلاً الأديب الدانمركى هانز كريستيان أندرسون كان مخيفًا جدًّا جدًّا لدرجة أنه عندما ينام يخاف أن يتصور أحد أنه مات، فكان يكتب عبارة يضعها بجوار السرير، يقول فيها: لست ميتا ولكننى أبدو كذلك.

■ باعتبارك كنت شاهدًا على عباس محمود العقاد ما هى أكبر عقده ؟.

□ العقاد كانت عنده عدة مشاكل منها أنه لم يكمل تعليمه، فأصبح من غير أن يكمل تعليمه أكثر علمًا من المتعلمين.. كان عنده

عقده أنه طويل وأنه موهبة كبيرة، وأنه رجل جاد وأنه رجل مبدع، فإحساسه بهذه المزايا الكثيرة وأنه لا يأخذ ما يقابلها، بينما الذين دونه أخذوا أشياء كثيرة يمكن كان ذلك أهم عقدة..

■ وطه حسين ؟.

□ أعتقد عقدته أنه ضرير.. ولذلك نجده يسرف كثيرًا جدًّا فى استخدام رأيت وشاهدت ونظرت، وكان من بين الأشياء الهزلية أنه كان يفتتح معارض للفن، فلابد أن تكون عقدة، ولكنه طبعًا موهبة عظيمة جدًّا.

■ عقدة توفيق الحكيم؟.

□ ليس ضروريا أن أقول عقدة، ولكن مشكلة توفيق الحكيم أنه لم يكن لديه فلوس كثيرة، ونجح فى أن يجعل من قلة الفلوس أو من ظاهرة البخل نكتة.. يجوز هو ليس بخيلاً، ولكنه وجدها مادة للفكاهة.

■ عقدة الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب؟

□ ربما الوسوسة وإن كنت لا أعتقد أنها عقدة - لأن الفنان يجب أن يكون موسوسا لأنه يبحث عن الشىء الجميل والكامل واحنا كلنا موسوسين. ربما خوفه من البرد أيضا عقدة.

■ عقدة لم يبح بها أنيس منصور؟.

□ أنا ليس عندى سر فكل ما يدور فى داخلى كتبته، لكن أستطيع أن أقول عن نفسى أننى واخد حياتى الأدبية والفكرية بجدية جدًّا.. يعنى مثل أى كاتب أو صحفى مبتدئ.. حياتى تبدأ فى ساعات محدودة صيفًا وشتاء ولا أغيرها ولا أحاول.

■ الهموم التى تصيب إنسانا من واقع عقدة؟

□ أنه يظل ناجحًا.

■ هل هذه عقدتك؟

□ ليست عقدة، ولكن حرصى على أن أظل ناجحًا قدر استطاعتى.

■ ارتباطك بوالدتك، كما قرأنا عنه كان عن عقدة؟

□ فقدانها هو الذى عمل لى عقدة.. ورغم أنها ماتت منذ أكثر من عشرين سنة لكنى لا أحس أنها ماتت حتى من عشرين يومًا. تعرفى.. هناك نوعان من النسيج.. نسيج عقدة كبيرة وظاهرة.. لكن النسيج المصنوع من الحرير عندما تحسينه بأصابعك يخيل إليك أنه ليست فيه عقد بينما هو كثير العقد.. ولكن لأنها متجاورة وصغيرة وناعمة فهى ليست محسوسة وكل إنسان كذلك..

■ الأستاذ أنيس منصور هو هذا الحرير؟.

□ لا.. أرجوك.



يسرا

٨ - يسرا
الحرمان كان ولا يزال عقدتى المخيفة

■ الفنانة يسرا.. عقدة من طفولتك تحكمت فى تاريخك كله كفنانة؟.

□ أنا عقدى فى طفولتى كثيرة جدًّا نتيجة انفصال والدى عن أمى قبل أن أولد.. فعشت طول عمرى فى حضن أمى التى كانت بالنسبة لى الأب والأم.. وفى هذا الوقت كان أبى يهددنى بحرمانى من أمى، وبالفعل أخذنى منها وانحرمت من أغلى حاجة فى الدنيا.

■ هل الحرمان سبب لك عقدة مثل عدم الارتباط بالزواج؟

□ يمكن.. مع أننى جربت الزواج، ولكن أهم شىء فى حياتى كان أننى أتجوز وأستقر ولا أطلق، أو أنى لا أنجب، وأطلق لأنى مش عايزة ابنى أو بنتى يشوفوا الذى شفته.. مع أنى أعتبر نفسى صحية جدًّا. يعنى عقلى صحى جدًّا رغم كل ما مريت به. أسلوبى فى الحياة وفى المعاملة مع الناس. لم أعرف الكره أو الضغينة. طبعًا هناك من لا أحبهم ولكنى لا اكرههم.. لأ أحب

الظلم لأننى انظلمت.. وبالتالى أحاول قدر الإمكان أن أكون سوية.

■ عقدة فى مشوار حياتك استثمرتها فى فنك؟

□ كل فنان فى ظهره جراب مليان تجارب ومشاكل وعقد وأفراح وأحزان وحرمان وكل حاجة، والظاهر أننى استثمرت كل شىء فى فنى لأن الفنان بالتأكيد فى المواقف التى يقفها فى المشاهد التى يؤديها، بيستمد إحساسه من داخله ويمكن يمد إيده ورا ظهره ويخرج ما فى جرابه.

■ هل الجمال ممكن يسبب عقدة.. يعنى هل أنت أصبت بعقدة فى جمالك؟.

□ بالعكس.. أنا حبيت جمالى. هناك من قال لى إننى تعقدت من رفعى ولهذا تخنت.. ولكن بالعكس جمالى لا أعتبره عقدة وإنما يمكن ذكائى أو كثرة تشغيل مخى هو العقدة.

■ حب المال أو الزهد فى المال.. من أنت فيهم؟.

□ أنا المال عندى وسيلة أنى أعيش مرتاحة.. والمال والبنون زينة الحياة الدنيا.

■ المال بدون بنين أتعسك وسبب لك عقدة؟

□ يعنى مازلت صغيرة شوية على هذه العقدة.. مازال أمامى مشوار.. يعنى حتى المال لم أحققه لأنى كنت دائما أقول إن الذى

لا أعمله اليوم أقدر أعمله غدًا..

■ الفنانة يسرا.. أنت بيتك مليان عرايس.. هل هذا من الحرمان من الأمومة؟.

□ آه.. دى عقدة بقى.. يعنى أنا با أحب أن أكون أم وخايفة ألا أكون أم غير كفء فى حين من يعرفنى يقول إننى سأكون أمًّا عظيمة جدًّا، ولكنى خايفة.. خايفة أدلعه زيادة.. أحبه زيادة. أخاف عليه زيادة. أعطيه زيادة.. أمسك أبقى قاسية زيادة، يعنى خايفة على مشاعرى من اللخبطة لأن من كتر ما أحب أعطى.

■ هل تعقدت من تجربة حب؟

□ أعتقد أن كلًّا منا عنده تجربة حب تترك عنده علامة صغيرة.. لا أعتبرها عقدة وإنما تجربة ونضج فى أسلوب المعاملة وأسلوب الحب.. يعنى عندما كنت أحب فى المدرسة غير بعد المدرسة، أو فى الجامعة أو وأنا ممثلة فى بداية حياتى، أو وأنا فنانة الآن... كل يوم نظرتى للحب بتتغير. ولكن كل مرحلة تركت علامة فى حياتى ولمعلوماتك كل الذين أحببتهم أصحابى جدًّا الآن إلى الآن هم وزوجاتهم.

■ هل أصابتك عقدة الخوف من عدم استمرار النجاح؟

□ دى عايشة معايا على طول.. يعنى دايما قلقة.. أيضًا أنا أخاف جدًّا بل جبانة جدًّا.. لو شفت صرصار أسيب البيت وأمشى..

لكن فيه مواقف ممكن أواجهها ولكن لأن أبويا علمني. أن أخاف من الحرمان من أمي والحرمان من المدرسة وحاجات ثانية فأعتقد أن ذلك سبب لى عقدة مخيفة جدًّا.

■ بتخافي من بكرة؟

□ جدًّا.. أنا رعبى الأساسى من بكرة وهذه عقدة لم أستطع التغلب عليها لأنها أصبحت جزءًا منى ومن حياتى اليومية.

■ هل لجأت إلى طبيب نفسى للتخلص من عقدة؟

□ آه طبعًا.. أحبه وأحترمه وأعتبره صديقى الصدوق اللدود الذى يناكفنى ليل نهار، لكنه لم يعالجنى أبدًا بحبة مهدىء واحدة أو منوم والميزة التى فيه أنه مستمع جيد جدًّا، يعرف يقول لك متى تغير قرار أو تبدئى من تانى.

■ عندما لجأت إلى طبيب نفسى هل معنى ذلك أنك لم تجدى صديقًا بدلاً من هذا الطبيب؟.

□ بالعكس - أنا لدى أصدقاء كثير جدا أعتز بهم وكل صديق، أو صديقة له حالة معينة فى حياتى أو معنى كبير، ولكن هناك حاجات لا أستطيع أن أقولها لأصدقائى.. حاجات تخصنى وحدى ومنها قلت وكنت واضحة، لا أحد يعرفها سواى. فيمكن الذى اطلع على هذه الأشياء هو دكتورى بحكم مهنته وأمانته على مهنته.



أحمد زكي

٩ - أحمد زكى
عقدتى البحر والعجلة والموتوسيكل والأدوار العليا

■ عقدة صنعت أحمد زكى؟.

□ ليست عقدة، ولكن حاجة كده «اتكعبلت» فيها فى بداية حياتى بعد تخرجى فى المعهد.. كان فى ذلك الوقت بيجرى الإعداد لإنتاج فيلم الكرنك وتم إبلاغى من المخرج الأستاذ على بدرخان ومن المنتج الأستاذ ممدوح الليثى على أن أقوم بعمل الفيلم على أساس أن شكلى يطابق الشخصية الموجودة فى كتاب قصة الكاتب الكبير نجيب محفوظ، وتم اختياري ووقعت العقد، ولكن فجأة الموزع رفض بعد أن رأى صورتى.. سأل من ده قالوا له الوجه الجديد.. قال لكن ده شكله وحش.. أسود. وشعره أكرت، معقول ده يكون بطل الفيلم؟.. قالوا ده خريج معهد.. قال لهم: ولو.. قالوا له: ده الدور لايق جدًّا عليه، قال: مش ممكن ده شكل تحبه البطلة.. الموزع طبعًا هو الذى يصرف على الفيلم لأنه هو الذى يقوم بتوزيعه فى العالم، فهو الذى

يتحكم فعلاً فى السينما.. وطبعًا هو لم يسأل إذا كان تمثيلى كويس أو وحش، ولكن كل الذى قاله هو شكلى.. وتمر الأيام والنهارده هذا الموزع نفسه بيعتذر لى، وكل شوية يبعت لى رواية أرد عليه وأقول له أنها مش مكتوبة كويس وحاجات كده.. فهى كانت يمكن عقدة، وصحيح هو ربما كان محقًا على أساس أن السينما فى جزء كبير قائمة على الشكل، وهو موزع كبير يهمه بالطبع أن الفيلم يحقق إيرادات، ولكن إصرارى على حب الفن ومواصلتى جعلتنى لا أتعقد، ولكن فى الحقيقة كان من الممكن تكون عقدة وتقضى على.

■ هل استثمرت الشكل بعد ذلك فى فنك وإبداعك ؟.

□ مفيش استثمار.. لأن الأدوار التى عرضت على أدوار تليق على شكلى، ولكن بالمعايشة استطعت أن أعملها وتمشى.

■ هل هناك عقدة فى طفولتك ؟.

□ آه.. عقدة العجلة.. من المعروف أن العَجَل فيه الصغير وفيه الكبير بحسب سن الراكب.. واحنا صغيرين الطبيعة البشرية هى التطلع إلى أن نكبر بسرعة.. كان المفروض أركب عجلة ١٨ ولكنى وكانت سنى ١١ سنة رحت جايب عجلة ٢٨.. فنازل من مزلقان دخلت فى محل وبهدلت الدنيا، وأخذت علقة جامدة

وبالفعل أصبحت عندى عقدة من ركوب أى عجلة أو موتوسيكل.

■ هل هذه هى العقدة الوحيدة؟

□ لا.. عندك البحر.. أنا أحب شكله جدًّا ولكن أموت منه.

■ والسبب؟

□ وأنا فى الإعدادية خدونا رحلة إلى الإسكندرية كل المدرسة. رحنا البحر ونزلنا الميه نلعب، وقالوا لنا متعدوش البراميل.. فضلنا نعمل الهنود الحمر والأمريكان زى السينما وأولاد تطلع فوق البراميل، وانتهت اللعبة باختفاء ولد زميل لنا فى المدرسة جاى معانا فى القطار رجعنا من غيره.. وأصبح جسمى غصب عنى بعد الحادثة لا يتحمل الماء من دون وجود أرض تحتى.

■ تعقدت من البحر؟

□ أنا أحب البحر ولكن تعقدت من العوم فيه.

■ إذن فعندك ٣ عقد لم تتحرر منها العجلة والموتوسيكل والعوم فى البحر؟

□ أيضا الأدوار العليا.. طول عمرى أسكن فى الدور الأول، ولكن من فترة سكنت فى الدور الثانى عشر، وأصاب بدوار لو أنا بصيت من العالى – ولا أعرف هل هذا نتيجة عقدة أو تكوين بيولوجى أو حاجة فى الدم أو المخ.

■ الفنان أحمد زكى هل لجأت يوما إلى طبيب نفسانى للتخلص من عقدة ؟.

□ بالفعل طرقت باب دكتور نفسانى.. قرأت له كتابًا وذهبت تقول إننى لا أعرف كيف أتعامل مع الناس.. الحقيقة أقنعنى وفهمنى أنه لا يمكن أن تكون الناس كما أريد لأن هناك اختلافًا فى الطباع وفى التربية وأشياء كثيرة جدًّا. فالطبيب النفسى شيء رائع فى هذا العصر.. أنا أعتبره صديقًا بالأجر ومرحبًا به بهذا الأجر وليكن صديقًا فى زمن قل فيه الأصدقاء أو تباعدوا.. يمكن الناس قديمًا لم تكن تعرف عن الطبيب النفسانى لأنهم كانوا بيكلموا بعض.. كانوا يقعدوا على المصطبة ويتناقشوا فى مشاكلهم ويحلوها.. فهذا كان العلاج الجماعى، وأظن أن هذا ما يفعلونه فى الطب النفسى وفى المستشفيات النفسية.

■ الفنان أحمد زكى: حصلت لك عقدة من الحب أو من تجربة حب ؟.

□ لا أبدًا.. هوه ممكن أزعل، ولكن مش ممكن أتعقد من الحب لأن الحب جميل.

■ الأبوة الشديدة تجاه هيثم أحمد زكى نتيجة عقدة ؟.

□ الأبوة الشديدة آه.. هذه عقدة شديدة عندى.. طبعا الطلاق أبغض الحلال، ولكن ظروف الحياة تجعل بعض الناس

لا تستطيع أن تعيش مع بعضها - ظروف.. ولكن أنا والدى توفى وأنا عندى سنة، وانفصلت عن أم هيثم وهو عنده سنة فلحظتها شعرت بشىء رهيب جدًّا.. حصل لى حاجة غريبة جدًّا.. إنما ربنا يخليه لى ويخلينى له وأقدر أعوضه عما حرمت منه فى طفولتى ولا أترك له عقدة.



نادية لطفى

١٠ - نادية لطفى
من كثرة خوفى لم أعد أخاف!

■ الفنانة الكبيرة نادية لطفى.. نرجع للطفولة ونتذكر عقدة صنعت هذه الطاقة الفنية.

□ فى الحقيقة ليست هناك عقدة بالمعنى اللفظى.. لكن ربما كانت هناك أشياء أو أحداث لم أدركها كطفلة.. منها التربية الحاسمة الدقيقة المنظمة.. والاهتمام الشديد والخوف علىّ.

■ هل رفضك لما يحدث فى السينما الآن بسبب عقدة.

□ بسبب رفضى للنظام الزائد عن الحد.. فقد كان هذا النظام - الزائد عن الحد - سبب الأوامر الكثيرة فى طفولتى.. لا تخرجى - لا تلعبى.. لا تكسرى الأشياء.. كانت «لأ» كثيرة جدًّا.. وكان هذا سببًا جعلنى أبحث عن مبررات لهذه «الـ لأ».

■ إذن «لأ» أصبحت عقدة؟.

□ عقدة أعتز بها لأنها جعلتنى أفهم معنى «لأ» ومعنى «أيوه» وجعلتنى أيضا قادرة على أن أقول «لأ» فى الوقت المناسب و «أيوه» فى الوقت المناسب.. ويمكن فى تربيتنا عمومًا يكون من الطبيعى أن تقبل الأشياء حتى لو كنا نرفضها فى أعماقنا.. لكن لكى نتعلم كيف نرفض فهى مسألة تحتاج مجهود ووعى وتفكير وفهم واقتناع... ويمكن أنا أمضيت وقتًا طويلاً قبل أن أكسر عقدة الخوف من أن أقول لا وأقولها بحيث أننى لم أكن أستطيع أن أقولها.. على سبيل المثال أدخل أحد المحلات لشراء حذاء أدفع ثمنه رغم أنه ضيق ولن ألبسه.

■ وما هى العقدة التى فى حياة نادية لطفى واستطاعت أن تحلها وتتجاوزها ؟.

□ أى عقدة يفهمها الإنسان يستطيع أن يتغلب عليها.. عقدة الخجل مثلاً التى كانت تجبرنى على الموافقة على أشياء فى داخلى لم أكن أنا راضية عنها.. هذه العقدة آلمتنى كثيرًا.. لكن بعد أن تفهمتها وتفهمت أسبابها.. تخلصت منها..

■ معنى هذا أن الخجل كان عقدة فى حياة نادية لطفى؟

□ ربما لن يصدقنى أحد إذا قلت إنه من كثرة خوفى لم أعد أخاف !.. كنت أخاف أن أخطئ.. كنت أخجل.. لكن بعد أن تفهمت هذه الأمور وعرفت أنها مجرد أفكار فى مخيلتى الشخصية أنا فقط..

تجاوزتها ولم يعد هناك مكان للخوف أو الخجل إلا فيما يشين الإنسان ويخيفه بالفعل..

■ إذن بولا محمد شفيق الشهيرة بنادية لطفى كانت الطبيبة النفسية لنفسها ولعلاج عقدها؟

□ هذا صحيح.. والصحيح أيضا أننى كنت دائمًا أحرص على تقديم ذاتى.

■ وهل سببت الصداقة لنادية لطفى عقدة..

□ لا لم يحدث.. وإلا فما هو معنى الصداقة.. الصداقة مجهود وتفهم وعطاء وقدرة على مشاركة الصديق وتحمله.

■ معنى هذا أنك لم تصدمى فى أية صداقة؟

□ إذا تصرف أى صديق معى تصرفًا لا يليق بالصداقة فأعتبر أنه أساسًا غير صديق وبالتالى لا محل للصدمة.

■ وبصفة عامة هل صدمت كثيرًا فى حياتك؟

□ لا أعتبرها صدمات وإنما كل صدمة بالنسبة لى تعنى رحلة انتهت لتبدأ رحلة جديدة.

■ وماذا تعلمت من صدماتك وصداقاتك وعقدك؟

□ الحب.. تعلمت كيف يكون الحب.. وأنا أعتبر أن أى انسان يدخل بنك صداقتى.. له رصيد مفتوح يتوقف عليه سحب هذا

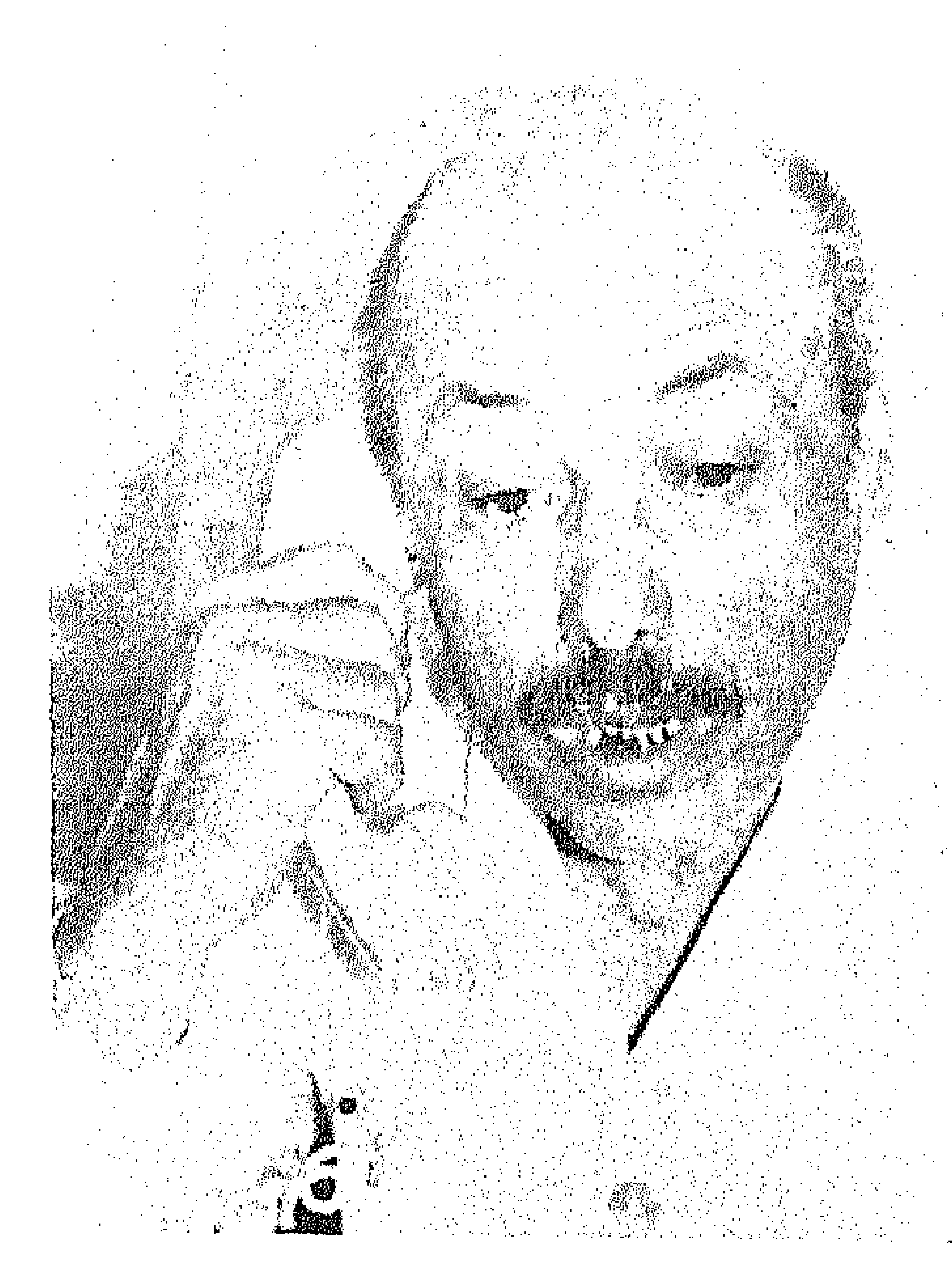
الرصيد أو زيادته.. لكن البنك مفتوح دائمًا.

■ وهل يمكن أن تقفل نادية لطفى رصيد أى إنسان فى حياتها؟

□ لا يمكن.. العميل هو الذى يغلق حسابه فى البنك.. لكن فى نفس الوقت. ليس مطلوبًا من البنك أن يجرى وراء العميل ويرجوه أن يفتح عنده حسابًا.. فى هذه الحالة لا يكون بنكًا وإنما معونة الشتاء!.

■ وما هى العقدة التى لم تبح بها نادية لطفى لأحد من قبل؟

□ فى ميدان الطب النفسى يقولون إن أى انسان عنده عقدة لا يستطيع الإفصاح عنها.. سواء كان صادقًا أو كذابًا.. فكيف أفصح عن عقدى؟!..



محمود السعدنى

١١ - محمود السعدنى
لم أركب مركبا وأخاف دائما من الغد

■ محمود السعدنى.. هل صنعته عقدة فى الطفولة؟

□ صنعته قفة عقد لأنه بداية ليس هناك فنان غير معقد، العقدة هى السنارة التى تصطاد الفن..

■ ما هى أول عقدة تذكرها؟

□ عقدتى من الميه.. لا يمكن أن أقترب من الماء.. أروح البحر مثلاً وأقعد شهر جنب الميه ولكن لا يمكن أضع رجلى فى الماء.. أنا عمرى ما ركبت مركب أو فلوكة فى النيل لأنى أولا لا أعرف العوم.. وثانيًا شفت واحد صاحبى بيغرق واحنا عيال صغيرين هنا فى النيل.. صحيح أن هذا كان من زمان يعنى فى التلاتينات ولكن من ساعتها أشوف الميه شعرى يشيب.. حاجة تانية لو ذهبت إلى أى عزاء.. أقول يارب استر.. امشى فى جنازة أبص للأرض حتى لا أرى الذين يدخلون لأنه وأنا صغير أيضًا ذهبت مع بعض الأصدقاء لتعزية صديق لنا.. لبسنا طرابيش،

كما كانت القواعد المعمول بها، وفجأة دخل واحد لابس «كسكته» حمراء وجاكتة صفراء وحاجة غريبة جدًّا. فأنا مت على روحي من الضحك. وكان جنبي واحد زميلي قعد يضحك.. فالرجل اللي جنبنا ضربنا بالقلم وقمنا جرينا من الصوان، ولك أن تتصوري منظر صوان محترم واحنا بنجري فيه وكل واحد تخبط فيه مش عارف إيه الحكاية يروح ضاربنا هو كمان.. ييجي تلاتين أربعين واحدا ضربونا.. ولكن احنا ميتين على روحنا من الضحك.. وهذه حكاية أذكرها في كل عزاء أو جنازة.

■ التنقل من مكان لمكان والغربة والتشرد أصابتك بعقدة؟

□ بالتأكيد.. لو عادت الأيام ووضعت في نفس الظروف تاني أعتقد كنت غيرت قراري ولم أخرج من مصر.

■ فيه عقدة نجحت في إنك تتجاوزها؟

□ أنا تجاوزت جميع العقد.. تخلصت منها.. لأن العقدة إما أن تكسرك أو تتجاوزها.. والعقدة بطبيعتها مش عاهة.. دي مسألة في النفس تظهر بالممارسة.. يعني مثلا أنا معروف ومشهور إذا قعدت في شلة أصدقائي أكون متكلم جدًّا ومرح على الآخر.. ولكن لو كان هناك أحد غريب اتحول إلى جاموسة.. لا أتكلم.. لا أقول أي حاجة.

■ هل هو إحساس بالانطواء؟

□ الانطواء حاجة تانية ولكن الذى أشعر به فى وجود أى غريب أن هناك عازلاً بينى وبينهم إلى أن أعرفهم..

■ هل أصابتك عقدة من الصداقة؟

□ أصابتني خبطات وصدمات وضربات.. يعنى كدت فى يوم من الأيام أقاطع كل الناس.، ولكن هناك صداقات حقيقية والدنيا بخير.. يعني مثلاً فيه واحد مش عاوز أقول إنه السبب فى دخولى السجن وكان قمة النذالة، ولكن فى المقابل صديق، أنا بقى الذى كنت السبب فى سجنه وخرج من السجن قبلى وافتكرت إنه حيزعل مني، ولكنه ظل يزورنى فى السجن مرة كل أسبوع، وبعد أن خرجت تركت مصر عشر سنوات ظل هو الحفيظ على شقتى فى مصر ويدفع إيجارها.. ففى الوقت الذى توجد فيه نماذج سيئة هناك نماذج عظيمة، لكن السيئة لم تصبنى بعقدة لأن النماذج الحلوة تغلبت على السيئة.

■ هل محمود السعدنى يسخر من عقدة ما فى حياته لكى يتجاوزها؟

□ أنا أسخر من كل حاجة. يعنى حتى فى السجن كنت أسخر من السجن ومن السجان.

■ لماذا تغضب عندما تقول كلمة «فلان معقد»

□ هو كما قلت إذا كان هذا المعقد فنانًا فتكون العقد من «عدة» الفن.. آلة من الآلات لأنه ليس هناك فنان غير معقد.

■ وأنت تقر وتعترف إنك معقد؟

□ طبعًا.. ولازم أكون معقد

■ عندك عقد من الحرمان فى الطفولة؟

□ عندى عقد كثيرة. عندى عقدة مثل حب اللبس لأننا فى حياتنا قعدنا فترة نلبس حاجات ملبوسة.. بدلة خالى أو غيره.. فعندى الآن عقدة شراء بدل لا ألبسها وأحذية لا ألبسها.. وهذه عقدة عندى أنفس عنها الآن بشرائى حاجات دون استعمالها.

■ هل هناك عقدة لم تتخلص منها حتى الآن؟

□ كل العقد لم أتخلص منها.. لا أحد يتخلص من عقده وإنما يروضها.. يعنى تبقى أليفة.. زى ما تجيبى أسد وتربيه فى البيت وتأكليه حاجات وتمسحى شعره.. هوه أسد ولكن بيفقد صفات الأسد ويصبح أسد غلبان..

■ هل عندك عقدة من الخوف من بكرة؟

□ هذه ليست عقدة.. هذه مصيبة لأنى رغم المرح والضحك والسخرية.. أتوقع دايما حاجة وحشه مش عارف ليه..



مديحة يسرى

١٢ - مديحة يسرى
محمد عبد الوهاب سبب عقدتى!

■ الفنانة مديحة يسرى، ما هى عقدتك الحقيقية؟

□ الخيانة الزوجية.. لأن كل نهاية زواج كان سببها الخيانة.

■ ومتى تسبب العقدة لصاحبها التعاسة؟

□ إذا فكر فيها كثيرًا.. لكن إذا استطاع أن يتفهمها فإنه فى هذه الحالة يستطيع أن ينساها.. يتخلص منها..

■ تتكلمين عن عقدتك أيام الزواج لكن ماذا عن أيام الطفولة والصبا.. ما هى عقدتك؟

□ الضرب.. لم أكن أحب أن يضربنى أحد أبدا.. وعندما كان أحد يحاول عقابى بالضرب كنت أبكى بشدة جدًّا.. ولذلك لم أضرب المرحوم عمرو ابنى فى حياتى أبدًا.

■ وما سبب هذه العقدة؟

□ القسوة الشديدة التى كان يتعرض لها بعض الأطفال الذين كنت أعرفهم.. القسوة التى كانت تصل أحيانا لحد إصابتهم بجروح.. فأصبح عندى رعب من «حاجة» اسمها الضرب.

■ وما هى العقدة التى لم تتخلصى منها خلال رحلة عمرك؟

□ الالتزام بالمواعيد والوفاء بالوعد..

■ وهل يسبب لك هذا المعاناة؟

□ أعانى من هذا كثيرًا.. خاصة فى الوقت الحالى الذى لم يعد فيه الناس يعرفون معنى الوفاء والالتزام.. مثلًا إذا ذهبت للاستوديو أجدنى أحيانا مضطرة للانتظار ساعة وساعتين.. حتى يحضر الممثل أو الممثلة.. طبعًا ليسوا من جيلى.. وإنما من الجيل الحالى.

■ «المال».. هل سبب للفنانة مديحة يسرى عقدة؟

□ طوال عمرى لم أعتبر المال سببًا لأى عقدة.. ودائمًا أقول لنفسى أنت التى تأتين بالمال وأنت التى تستطيعين تعويضه.

■ والصداقة؟

□ الصداقة هى أجمل ما فى حياتى.. وصداقاتى عمرها ٣٠ سنة.

■ معنى هذا أنك لم تصدمى أبدًا فى أى صداقة؟

□ صدمت كثيرًا جدًّا.. لكننى أعود فأقول لنفسى انها ليست صداقة.. الصديق الذى لا يوفى صديقه حقه لا يكون صديقًا ولا يستحق اللوم.

■ ما هى العقدة التى لا تخجلين منها؟

□ لا أريد أن يقول الناس عنى أننى مغرورة.. لكن الحقيقة أنه

ليست هناك عقدة فى حياتى.. فطوال عمرى لا أشعر بالغيرة.. ولا حتى الغيرة الفنية.. وقد يندهش الكثيرون إذا عرفوا أن معظم اصدقائى المقربين يقولون لى أنت إنسانة بلا عقد تأخذين كل الأمور بسهولة وبساطة لدرجة سببت لنا نحن «عقدة»!

■ وما هى العقدة التى لولاها ما أصبحت الفنانة الكبيرة مديحة يسرى؟

□ عقدتى أننى بدأت حياتى الفنية مع الفنان الكبير محمد عبدالوهاب.. الناس عرفتنى من خلال أغنية «بالاش تبوسنى فى عينيه».. عيناى كانت جميلة جدًّا، وهكذا أصبحت الفنانة مديحة يسرى مدينة لعيون مديحة يسرى!.. لكن بدايتى مع الفنان عبد الوهاب فرضت على الالتزام وعدم قبول أى دور.. فى الوقت نفسه نسيت جمال عينى ونسيت جمال وجهى وقلت لنفسى لابد أن تتفوق موهبتى على جمالى وعيونى الحلوة.

■ الفنانة مديحة يسرى، قبلت دور الأم قبل كثيرين رغم أنك كنت صاحبة لقب سمراء الشاشة.. هل هذا لأنك تجاوزت عقدة العمر؟

□ لأننى إنسانة واقعية.. وقد قبلت وأنا شابة صغيرة دور الأم فى فيلم المصرى أفندى مع حسين صدقى فى الوقت الذى كانت فيه فنانات أعمارهن خمسين سنة يرفضن هذا الدور.. الحقيقة أننى

تجاوزت هذه العقدة من زمان.

■ وكيف تفكر الفنانة مديحة يسرى.. بالعقل أم بالعاطفة؟

□ دائمًا أفكر بعقلى لكن لا أستطيع أن أنحى العاطفة.

■ وهل هذا سبب تغلب عقل مديحة يسرى على عاطفتها فى مسألة الخيانات الزوجية؟

□ هذا صحيح.. لدرجة أنها أصبحت عقدة عندى.. لم أعد معها أثق فى أى إنسان يهتم بأن يجعلنى أشعر بحبه أو رغبته فى الزواج منى.. أصبح عندى شك فى إخلاص أى إنسان منذ اللحظة التى أسمعه فيها يتكلم عن الإخلاص والحب!

■ ولكن لم تندمى أبدا لأنك استعملت عقلك أكثر من عاطفتك؟

□ أحيانا قليلة.

■ وهل إذا عرف الآخرون عقدة فى حياتك تتحدثين معهم عنها بصراحة أم تحاولين إخفاءها؟

□ لا أحاول إخفاءها لكن ليس بالنسبة لكل الناس وإنما للذين يعرفون جيدًا ويحسون بعقدتى.

■ هل زرت يومًا عيادة طبيب نفسى لحل عقدة لم يستطع عقلك التغلب عليها؟

□ لم يحدث.. لأننى أعتبر نفسى طبيبة نفسية بالفطرة.



يحيى الفخرانى

١٣ - يحيى الفخرانى
بسبب «فأر» كدت أرسب فى الثانوية

■ الفنان الدكتور يحيى الفخرانى ما هى عقدة طفولتك؟

□ كثيرة جدا.. لكننى أحسست بها على مراحل.. وهناك عقد تخلصت منها، فأنا من النوع الذى يمكنه التوقف عند العقدة وتفهمها والخلاص منها خاصة أنه فى الطب وعلم النفس هناك ظاهرة معروفة تقول إن بعض المرضى يكونون على علم بمرضهم بالضبط.

■ وهل يعرف يحيى الفخرانى عقده بالضبط؟

□ ليس كلها طبعًا.. هناك عقد لا أستطيع أن أواجه بها نفسى.. وهناك عقد أتناساها.. النفس البشرية معقدة.

■ والتى تناسيتها.. هل يمكنك تذكرها؟

□ الشكل كان بالنسبة لى عقدة وأنا فى سن صغيرة.. سمنتى. أنفى الكبير. شعرى الأكرت. كلها مسائل كنت أهتم بها كثيرًا وأنا طفل، وفى سن المراهقة كان من الطبيعى أن يمثل الشكل بالنسبة

لى اهتمامًا خاصًا.. وكان ممكن يكون عقدة.

■ وهل وصولك للنجومية خلصك من هذه العقدة.. عقدة الشكل؟

□ أعتقد أن مجرد كونى ممثلاً خلصت من هذه العقدة.. بل أصبحت أسخر بنفسى من شكلى.. وعمومًا أعتقد أن كل إنسان بدين يسخر عادة من نفسه.. لكن فى النهاية تخلصت من عقدة الشكل، وأكثر من ذلك تعلمت العوم وهذا من وقت قريب.

■ كيف؟

□ سمنتى كانت تمنعنى دائمًا من ارتداء المايوه.. فلم أتعلم العوم.. وعندما لعبت دور ضابط فى المخابرات الإسرائيلية فى فيلم «إعدام ميت» فرض على السيناريو أن أؤدى مشهدًا أعوم فيه.. وطلبت من أحد العمال الموجودين أثناء التصوير أن يعوم بدلاً منى.. لكن المخرج رفض.. ولم يكن أمامى إلا أن أتعلم العوم فى هذه السن، وفى النادى كنت أختار الأوقات المبكرة جدًا التى لا يوجد فيها إنسان لتعلم العوم، لكننى ظللت داخل حمام السباحة فى المساحة المخصصة للأطفال.. المساحة التى إذا مددت قدمى وجدت تحتى أرضًا وعندما جاء المدرب ورآنى.. قال لى إن الوقت حان للانتقال إلى منطقة «الغريق» العميقة.. وشجعنى، ولكن أول ما أحسست أن الأرض بعيدة عن قدمى صرخت وأمسكت به وتصرفت تصرفات خجلت منها بعد ذلك.. وهكذا

قررت أن أذهب بمفردى فى اليوم التالى إلى حمام السباحة دون أن يكون المدرب موجودًا ونزلت إلى حمام السباحة فى المنطقة العميقة.. وعبرت عرض الحمام بمفردى.. وأحسست أننى عبرت عقدتى.

■ وما هى العقدة التى لم تنجح فى التحرر منها؟

□ كنت أخاف جدًا من الفأر وأحس بقرف شديد منه لدرجة أن امتحان الثانوية العامة كان سيضيع منى بسبب هذه العقدة.. فبعد خروجى من المنزل متوجهًا للامتحان وجدت فأرًا ميتًا يعترض طريقى فاضطررت لاختيار طريق آخر طويل جدًا يبعدنى عن المرور من أمام هذا الفأر فتأخرت عن الامتحان ١٥ دقيقة كاملة كانت كفيلة بحرمانى من دخول الامتحان.. لكن فى كلية الطب تخلصت من هذه العقدة بعد أن اضطررت للتعامل مع الفيران البيضاء التى كان لابد أن أجرى عليها التجارب.. وقد تخلصت من هذه العقدة بعد أن بحثت مع نفسى عن سببها.. واكتشفت أن سبب العقدة طفل صغير كان يحلو له أن يلعب لعبة الطبيب فيأتى بفأر ويفتح بطنه أمامى فمرضت من القرف.. لكن مجرد معرفتى السبب جعلنى أتخلص من هذه العقدة.

■ وهل تخاف أن يعرف أولادك عقدك.

□ لا.. لأن ابنى طارق يعرف حكاية الفأر ويأتى لى أحيانًا بفأر

« لعبة » ويجعله ينام معى فى السرير !..

■ وهل هناك عقدة من النجومية ؟

□ بصفة عامة أنا لا أحب المظهرية.. بل إننى أعتقد أننى بالفعل معقد من حكاية النجومية والمظهرية.. النجومية هى القشرة.. وهناك فنانون كثيرون يهتمون بهذه القشرة ويتناسون لب الموضوع.

■ وماذا عن عقدة «الأنا» ؟

□ معظم الفنانين يعانون من عقدة الأنا.. وأنا أيضًا أعانى منها إلى حد كبير.. لكن لابد أن يكون الإنسان واعيًا لها لكى يتغلب عليها.



د . يوسف إدريس

١٤ - د. يوسف إدريس
عقدتى كبريائى وإن أتصرف كما أحس

■ الكاتب الكبير الدكتور يوسف ادريس. المعروف ان الإنسان بلا ألم.. بلا معاناة.. بلا عقد.. يصبح غير قادر على الإبداع. فما هى عقدتك؟!!

□ عقدتى كبريائى الحقيقة. فلا أحب أن يجرحنى أحد أو يمس كبريائى أو كبرياء الناس من حولى.

■ هل هناك عقدة صنعتك؟

□ مليون عقدة. ولا أستطيع عدها أو حصرها لأنها فى الحقيقة مكونات نفسية.

■ هل تذكر عقدة فى طفولتك تغلبت عليها؟

□ عقدة المشى.. مشيت كثيرًا جدًّا فى طفولتى حتى أصبحت أكره المشى، مع أن كل الناس يقولون لى أمش والأطباء ينصحونى بالمشى وقد مشيت ما يكفى ٣ أعمار فى طفولتى.

■ من البيت للمدرسة ومن المدرسة للبيت.

□ بالظبط كانت المسافة ٤ كيلو مترات، ولابد أن أبدا فى الخامسة صباحًا مشوارى للمدرسة وكنت أتأخر دائمًا، ويكون نصيبى علقة قبل أن أعود إلى البيت. ولكن تغلبت على هذا المشوار الطويل المتكرر بأحلام اليقظة، وقد ساعد هذا فى تكوينى.

■ هل فى حياتك عقدة لم تتخلص منها حتى الآن؟

□ ليست عقدة، ولكنها عادة سخيفة وهى التدخين، وقد فشلت كل محاولتى للابتعاد عن السيجارة حتى أصبحت مثل النكتة القديمة التى يقول صاحبها إن الابتعاد عن التدخين سهل جدًا. فقد جربت الإقلاع عن التدخين ألف مرة!

■ هل العقد فى الطفولة تصنع الابداع؟

□ أبدا هذه فكرة خاطئة، فالعقد تعطل الإبداع وتحد من الموهبة ولا تطلقها. وهناك بعض الآراء تقول إن الشقاء والألم لازم للإبداع الفنى والأدبى. بعض الشعراء يقولون:

جوعوا تصحوا واذكروها حكمة　　　فالمجد لم يكتب لغير الجائع

وأنا أقول إن هذا كلام فارغ، فالإنسان المستريح فى طفولته غير المحروم فيها من الحنان والحب تبرز موهبته والذى يعيش طفولة صحية « يطلع فن أحسن» لقد سمعت هذه العبارة على لسان الأستاذ محمد عبدالوهاب فى حوار مع الأستاذ مفيد فوزى وقد

أعجبتنى هذه الكلمة فهى تدل على ذكاء وفراسة وإدراك حقيقى لأن المعاناة فى الطفولة لا تصنع فنًا. فالفنان يخلق الله موهبته، وكلما أحطناه بالرعاية والعناية والاهتمام وبالود والحب، أجاد أكثر.

■ هل مرت طفولتك بعقد أو بغير عقد؟

□ لا.. هى ليست عقد، ولكنها تجارب. أحيانا ننسى أن الأطفال تحتاج إلى معاملة خاصة فنعاملهم كالكبار ونحملهم مسئولية الكبار، ثم نعاقبهم كما لو كانوا كبارًا. فى حين أن الطفل مثله كمثل من يتعلم قيادة السيارات، لابد أن تكون أمامه الأرض واسعة وبلا عوائق ولا حواجز أو سدود حتى يمكنه أن «يخرم» و «يخرف» ويخطئ حتى يتعلم فهى ليست عقدا ولكنها دروس تفيدنا فى الحياة.

■ هل كانت قيادتك لسيارة عمرك غلطًا؟ بمعنى هل دخلت فى مطبات كثيرة؟!

□ ليست المطبات فقط، ولكن سيارة حياتى انقلبت ٤ مرات.. أما قطار حياتى فقد توقف عند ٨ محطات وصلت فيها إلى هامش الموت.. ولكن المعجزة حدثت واستأنف القطار السير.

■ فى علاقتك مع أولادك هل هناك عقدة ما. يعنى علاقتك مع ابنتك نسمة هل تحكمها عقدة ما؟

□ ابدا على العكس فقد حاولت أن أتلافى فى تربيتى لأولادى كل ما عانيته فى طفولتى.

■ وما الذى عانيته فى طفولتك؟

□ المعاملة الشديدة القاسية التى تدخلنى دائمًا دائرة الحساب الرهيب عن كل كبيرة وصغيرة، وعقوبة الضرب. نسمة مثلا لم أضربها فى حياتى أو فى حياتها هى إلا ربع قلم وأكتبها بالأرقام حتى تكون واضحة ¼ قلم وهى طفلة عمرها ٣ سنوات. عندما وجدتها تلعب فى علبة دواء من الأدوية الخطرة، فحاولت أن ألفت نظرها بشدة لخطورة الموقف فكان ربع القلم.

■ إذا كانت نسمة قد ضربت ربع قلم فى طفولتها. فكم قلمًا كاملًا سقط على خد د. يوسف إدريس فى طفولته؟

□ ليس قلمًا واحدا ولكنها عُلق كثيرة وهى لا تعد ولا تحصى، وهى أنواع متعددة. علق نفسية وجسدية وعلق خصامية إذا صح التعبير. ومواجهات وتحديات رهيبة أكبر من العلق وأصعب منها.

■ هل استثمرت أية عقدة ظهرت فى طفولتك فى إبداعك بعد ذلك؟

□ أقوم الآن بكتابة طفولتى كلها بشكل فنى روائى، وأعتقد أنها ستكون حاجة ثانية غير «الأيام» للدكتور طه حسين وغير «عودة الروح» لأستاذنا توفيق الحكيم. وغير ما كتبه أساتذتنا الكبار عن حياتهم لأنها صريحة جدا.

■ هناك مقولة من الأطباء المتخصصين فى علم النفس تقول إننا جميعا معقدون بدرجات متفاوتة، فهل توافق على ذلك؟

□ موافق جدا.. وأضيف أنه ثبت الآن طبيا أن جميع الأمراض بما فيها الأمراض الخطيرة مثل السرطان والإيدز أن سببها نفسى ثم ينقلب إلى بدنى. فالعقد هى إحدى مكونات النفس، وإذا زادت على حدها أكثر مما يجب تنقلب لمرض نفسى، والإنسان يصل لدرجة الموت، يعنى يموت «فطيس»!

■ لو لخصنا الدكتور يوسف إدريس فى عبارة من واقع عقد الطفولة وهى كثيرة عند كل الناس فماذا تقول عن نفسك؟

□ أقول إن عملى غير نمطى، فالكتابة عمل غير نمطى، فإذا كان بعض الناس يتصورون أن تصرفات البشر واحدة وردود أفعالهم واحدة، فأنا أتصرف بما أحسه، وقد أبدو فى عيون البيض معقدا أو فنانًا أو مجنونًا ولكن هذا ليس صحيحًا. ونحن فى مجتمعات لم تتقبل بعد فكرة ألا يتصرف الناس مثلهم، وهذا خطأ فلكل واحد شخصيته ولكل طبعه – أما أن تكون هناك قاعدة موحدة للتصرفات جميعًا لا يشذ عنها الناس مللى واحد فى التصرفات وفى التفكير وحتى فى الملابس فهذا هو غير المعقول. هذا هو الجحيم بعينه.

■ هل العبقرية فى عدم استواء الشخصية؟

□ هذه فكرة خاطئة ١٠٠٪ أن تكون العبقرية هى الشذوذ وهى الجنون، أو هى مخالفة الناس « لله فى لله » العبقرية موهبة وتكوين عقلى مخلوق من عند الله سبحانه وتعالى، ولابد للإنسان فيها ولكن لأن العبقرى يرى الأمور أوضح أو بطريقة يختلف فيها عن الناس، فإنه يبدو مختلفا عنهم، ولهذا يقولون إنه مجنون وأنه شاذ الخ.

■ أو معقد؟!

□ أو معقد.. وللكاتب الإنجليزى الشهير برناردشو كلمة مشهورة أيضا يقول: إن جنونى أنى أرى الأشياء على حقيقتها، بينما يراها الناس على غير حقيقتها، فمن منا العاقل؟

■ هل لديك اعتراف أخير عن مشوار حياتك، والعقد التى تحكمت فيها؟

□ عقدتى الآن هى الكسل.. لقد تعبت تماما فى حياتى وفى صباى وشبابى إلى درجة أنى أصبحت الآن كسولاً. وأرجو أن أتغلب عليها.

■ نريد اعترافًا واضحًا وصريحًا على طريقة دفاتر الشرطة والنيابة، أقر واعترف أنا الموقع على هذا د. يوسف إدريس أن عقدى كذا وكذا وأنى حاولت التغلب عليها، ونجحت، وفشلت فى الامتناع عن التدخين.

□ اكتشفت أن حياتى منقسمة إلى قسمين، قسم أصاب فيه بالاكتئاب وقسم آخر أعطى فيه من الاكتئاب. وغالبًا أصاب بالاكتئاب فى الشتاء فأرى الطبيعة كلها مكتئبة. أما الربيع فهو الصحة، والصيف هو الحياة، وفى الشتاء تنتابنى أمراض حقيقية نتيجة هذا الاكتئاب حتى رزقنى الله بطبيب عظيم أعطانى كتابًا مهمًّا، وقال لى اقرأ فإن هذا الكتاب يفسر لك الاكتئاب. وقال لى: موهبتك تقتضى أن تكون مكتئبًا بعض الوقت فلا تحزن ولا تنزعج وهو نوع من الاكتئاب الخلاق، وضرب لى مثلًا جميلًا بحالتى هذه، قال إن المحارة فى البحر تغلق على نفسها لتكون لؤلؤة. جوهرة، وبعض الناس لا يرون الجانب الآخر للاكتئاب جانب الموهبة وجانب العبقرية، وقد خلص إلى نتيجة أضعها فى كلمات قليلة، أن كل عبقرى لابد أن يكون مكتئبًا بعض الوقت، ولكن ليس كل مكتئب عبقريًّا.



تحية كاريوكا

١٥ - تحية كاريوكا
«الماكياج» عقدتى الوحيدة

■ الفنانة تحية كاريوكا. العقدة التى لم تنسيها من أيام الطفولة؟

□ الحمد لله ليس عندى أى عقدة.. حتى عندما كنت طفلة صغيرة لا أذكر أن هناك عقدة واحدة أثرت على.. بالعكس فقد نشأت فى بيئة علمتنى أن آخذ حقى بنفسى.. ذات يوم جاء ابن المحافظ راكبًا عجلته، وجذبنى بشدة من شعرى وأنا ألعب.. جلست على الرصيف أنتظر عودته وفى يدى حجر وبدون تردد ضربته فأصيب رأسه ونزف منها الدم.. وبهدوء عدت لمنزلى ورويت لجدتى ما حدث سألتنى: « جتلتيه» قلت لها ونزف الدم من رأسه.. قالت خذى هذا القرش واشترى لنفسك « حاجة حلوة».. وهكذا تعلمت دائمًا كيف انتقم لنفسى!

■ وهل استثمرت هذه المسألة بعد ذلك؟

□ إلى حد كبير.. فأنا قوية مع القوى.. ضعيفة مع الضعيف لا أتحمل أبدًا أن يظلمنى أحد.. لو فعلها لا أنام قبل أن آخذ

ثأرى.. حدث مرة وأنا أعمل مع مدام بديعة أن سمعت بالصدفة أثناء وجودى فى المسرح إحدى الفتيات تقول لزميلاتها.. «البنت أم شعر طويل لازم نضربها»!.. فانتظرت حتى خرجت زميلاتها من حجرتها ودخلت وضربتها أنا «علقة»! وحققت مدام بديعة بنفسها وكانت النتيجة غرامة خمسون قرشا!.. بصفة عامة إذا غضبت فإن يدى تكون أسرع من لسانى.

■ حب المال هل هو عقدة بالنسبة لتحية كاريوكا؟

□ إطلاقا فأنا أكره جمع المال لأن النقود ليست هدفا فى حد ذاتها وإنما وسيلة لكى نعيش بها حياة أفضل. وطول عمرى لا أفكر فى التخطيط لصرف النقود.

■ وماذا عن الصداقة؟

□ الصداقة نوعان: صداقة حقيقية وصداقة زائفة.. هناك من تصادقنى لكى تسرق زوجى لكى تستفيد منى، لكن الصداقة الحقيقية شيء آخر. وأنا عندى أصدقاء ربما تمر شهور دون أن أراهم أو حتى أسمع صوتهم فى التليفون، لكن فى وقت الجد أجدهم بجانبى يقدمون لى كل العون.

■ وماهى عقدتك الآن؟

□ عقدتى الوحيدة «الماكياج».. حتى الآن لا أستطيع أن أقوم لنفسى بعمله. لو عملته يمكن أصيب عينى بضرر. رغم أننى

أعمل منذ سنوات طويلة فى السينما فدائمًا استعين بالماكيير إذا كان عندى تصوير أو حفلة.. لا ماكياج إلا بالماكيير!

■ معروف عنك أنك تميلين للبساطة وأنك كريمة عطوفة. هل هذا يسبب عقدة؟

□ إطلاقًا.. أنا بالفعل أحب البساطة وأحب الناس البسيطة وأتأثر جدًّا من ثلاث حاجات: طفل يتعرض للضرب، وعجوز تضطره الظروف للعمل. والجائع.. هذه الصور لا أستطيع مقاومتها رغم أننى قوية إلى حد الشراسة، لكننى أصبح فى منتهى الضعف أمام هذه النماذج لا أتحمل أن أرى طفلا مريضًا. ومن كلام أمى الله يرحمها أن ربنا رحمنى بعدم إنجاب أطفال.
وكانت تقول لى إن وجود طفل فى حياتك يعنى طبيب مقيم فى منزلك حتى يكبر هذا الطفل!

■ والنجاح الذى حققتيه على مدار حياتك هل هو بسبب عقدة؟

□ لا أظن.. بل اعتقد أن النجاح نتيجة طبيعية لأننى أحب الناس وهم أيضًا يحبوننى.. طوال عمرى لم أكن مغرورة ولا متعالية أنزل لكل المستويات.. أحترم الناس فيحترمونى.

■ وهل تعتبرين تقدمك فى العمر عقدة؟

□ عقدة للذين لا يريدون أن يكبروا.. لسيدات تظل الواحدة

فيهم ذات ٤٤ عامًا لسنوات طويلة.. أنا حضرت مؤخرًا عيد ميلاد صديقة للسنة الرابعة تقول إن عمرها ٤٢ سنة.. وعماد حمدى - رحمه الله - أصيب بحالة اكتئاب لأنه كان مصرًا على أن يظل فتى الشاشة.. لكنى أقول أن لكل سن جماله. وأتذكر أننى فى فيلم أم العروسة حاولت كثيرًا إقناع عماد حمدى بدور الأب لكنه كان يقول لى أنا أب لسميرة أحمد!! وأخيرًا اقتنع.

■ إذن فقد تحررت تحية كاريوكا من عقدة السن؟

□ منذ وقت طويل. فمنذ كنت طفلة صغيرة كنت أحلم دائما أن أكبر فلما كبرت لم أعد أخجل من أن أقول سنى.. وسنى الآن ٦٤ سنة فأنا من مواليد ٢٦.. والحمد لله لأن صحتى بخير وأستطيع أن أعمل، لكن لو سألت بعض الفنانات عن أعمارهن تقول.. عمرى الفنى.. أما سنها الحقيقى فسر الأسرار؟

■ وما هى العقدة التى لم تبوحى بها لأحد حتى الآن؟

□ ليس عندى عقد من هذا النوع.. أنا مثلا لم أحس طوال عمرى بأنى اتقدم فى السن.. وأحيانا كثيرة أحس بأننى طفلة لدرجة أننى أقوم بشراء اللعب لألعب بها مع الاطفال.. بصراحة الإنسان المعقد إنسان حقود.. وتحية كاريوكا آخر انسانة ممكن أن تكون حقودة.



حسين كمال

١٦ - حسين كمال
أخاف من الفشل الفنى أكثر من الفشل الكلوى!

■ لو رجعنا لفترة الصبا ما هى العقدة التى صنعتك؟

□ هناك عقد صنعتنى.. وعقد لا أفهم لها سببًا.. أنا مثلاً أكره اللون الأخضر.. الزيتى بالتحديد.. أكره الأماكن الضيقة.. أكره الزحام.. «الأسانسير» الأدوار العليا.. ومع ذلك هناك عقد أفهم سببها.

■ على سبيل المثال؟؟

□ عقدة فى طفولتى سببت لى الخجل الشديد الذى مازلت أعانى منه حتى الآن.. فقد كنت فى طفولتى انطوائيًا جدًّا وأحب العزلة والوحدة.. وكان منتهى آمالى أن العب تحت السرير بمفردى.. لدرجة أننى يوما بنيت بيوتا من ورق وذهبت بها تحت السرير، وأردت إضاءتها فاحترق الورق وكان نصيبى «علقة» لم أنسها حتى الآن.. المهم أننى أصبحت بسبب انطوائى خجولاً جدًّا.. ربما لا يتصور كثيرون أن أصعب لحظات حياتى حاليًا عندما أواجه

ناسًا كثيرة.. عندما أدخل مجتمعا مليئًا بالناس.. من لحظة دخول الباب تشير الناس إلى وتقول حسين كمال.. تقول «يا أرض انهدى ما عليكى أدى» أما أنا فأقول «يا أرض انشقى وابلعينى»! الناس لا تعترف أن أصعب مشوار فى حياتى هو المشوار من أول الباب حتى الكرسى الذى أجلس عليه عندما يكون هناك مجتمع وناس وزحمة!

■ وهل نـجحت عقدة الخجل فى أن تجعل منـك المخرج حسين كمال؟

□ لا،العقدة التى صنعت منى المخرج حسين كمال، هى أن والدتى كانت أجنبية. فكان أهل والدى يطلقون على «ابن الخواجاية».. أهل والدى من بنى سويف.. من قرية بنى عدى.. وقد ظللت «ابن الخواجاية» حتى كبرت.. وكان لابد أن أثبت أولا لنفسى ولأهلى أننى لست «ابن الخواجاية» مع أننى كنت أعشق والدتى رحمها الله وأقدسها.

■ معنى هذا أن ابن الخواجاية أصبح ابن بلد بسبب عقدة؟

□ ابن الخواجاية أخرج فيلم البوسطجى، وشىء من الخوف، وكنت مصرا وقتها أن أعمل أفلامًا تدخل تاريخ السينما.

■ وما هى العقدة التى لم تبح بها لأحد ولم تستطع أن تتخلص منها؟

□ عقدة أسمها «أبى فوق الشجرة»!.. عقدة حياتى هذا الفيلم

ايرادته كانت بالملايين لكن للأسف الشديد تقييم الناس له كان من وجهة نظر إيراداته وتناسوا قيمته الفنية.. فى نفس الوقت أصبح الناس يتعاملون معى كأنى مليونير.. البائع يبيع لى الشيء الذى ثمنه ١٠ قروش بخمسة أضعافه.. كلهم تصوروا أننى اغترفت من الملايين التى حققها الفيلم مع أننى لم آخذ من هذا الفيلم أكثر من ألفى جنيه.. فقط.. الحقيقة أننى أكره هذا الفيلم!

■ وما هى العقدة التى تخاف منها؟

□ أخاف من الفشل وأخاف أيضًا من النجاح.. لأن النجاح يلزمنى بالاستمرار فيه.. وهى مسألة صعبة.. وهكذا فأنا أدور فى الواقع فى حلقة مفرغة.

■ وما هى عقدتك من الزواج؟

□ عدم زواجى حتى الآن ليس بسبب عقدة.. إطلاقا، المشكلة أننى أبحث عن زوجة تتحمل حسين كمال ثم إن زوجتى لابد أن تختار حسين فهمى كمال.. وليس حسين كمال.

■ والعقدة التى استثمرتها لصالح فنك؟

□ بصفة عامة شكلى عقدتى.. ليس شكلى بالضبط لكننى لا أحب أن يتعرف على أحد من شكلى.. فقط من اسمى.. ولذلك أحاول دائما أن يكون اسمى كبيرًا وذات يوم كدت أتشاجر مع ضابط شرطة. هو معجب بفيلم لحسين كمال وأنا أهاجم الفيلم أسعدنى

كثيرًا جدًّا جدًا أنه لم يعرفنى من شكلى.

■ الراحل رمسيس نجيب طلب منك الوقوف أمام الكاميرا، لكنك رفضت وفضلت الوقوف خلف الكاميرا. هل بسبب عقدة الشكل؟

□ شكلى ليس عقدتى.. عقدتى أننى لا أحب أن يعرفنى الناس من شكلى.. أحب أن أركب المترو وأدخل محل فول دون أن يقول لى الناس حسين كمال فى محل فول. أحب أن أكون حرًّا.

■ وحب النجاح والنرجسية التى يتميز بها حسين كمال هل بسبب عقدة؟

□ ومن الذى لا يحب النجاح؟! بالطبع أنا أحب النجاح جدًّا وأصر عليه.. وأسخر كل طاقتى له. كل كيانى مرتبط بالنجاح.

■ لكن لدرجة أن الناس لاحظت أنك عندما تشاهد أفلامك فى صالة العرض تشجع نفسك؟!

□ وما هو المطلوب؟ أن أسب نفسى؟ من المؤكذ أن أى عمل جيد يجعلنى سعيدًا.

■ معنى هذا أنه إذا لم تكن راضيًا عن عمل من أعمالك تعاقب حسين كمال؟

□ أعاقبه بشدة!

■ وهل تواجه نفسك بعقدك؟

□ طبعًا.. حسين كمال بالنسبة لى كتاب مفتوح.. ربما لهذا السبب أحب الوحدة.. محمد عبد الوهاب قال مرة فى التلفزيون.. أن أمنية حياته فى أى حفلة يحضرها أن يترك الناس ويذهب للجلوس مع محمد عبد الوهاب!.. أنا أحس بنفس الأحاسيس بالضبط.. أحيانًا كثيرة عندما أكون جالسًا مع الناس أتمنى أن أشاركهم وأذهب للقاء حسين كمال.. ليس عن إعجاب به لكن عن حب فى الجلوس معه.

■ عقدة الحرمان هل عانيت منها فى طفولتك؟

□ إطلاقًا.. فقد عشت طفولة جميلة وطبيعية جدًّا.. وحتى اليوم مازلت أحتفظ بالطفل الذى داخلى.

■ الفنان حسين كمال.. هل يخاف من الغد؟

□ أخاف منه جدًّا.. أخاف من الذبحة الصدرية غدًا.. من السرطان (الله أكبر) غدًا.. من المرض غدًا لأننا نعيش فى حالة توتر مستمر.. افتح أى جريدة تجد من يقول، إن الفول يسبب السرطان.. المياه تسبب السرطان.. التلوث.. العيش.. كأننا نعيش فى رعب مستمر.

■ والفشل الفنى؟

□ أخاف من الفشل الفنى أكثر من الفشل الكلوى!.. خاصة بعد

النجاح الذى حققته.. الفشل بالنسبة لى يكون كارثة.

■ وما هى العقدة التى لولاها لما أصبحت حسين كمال؟

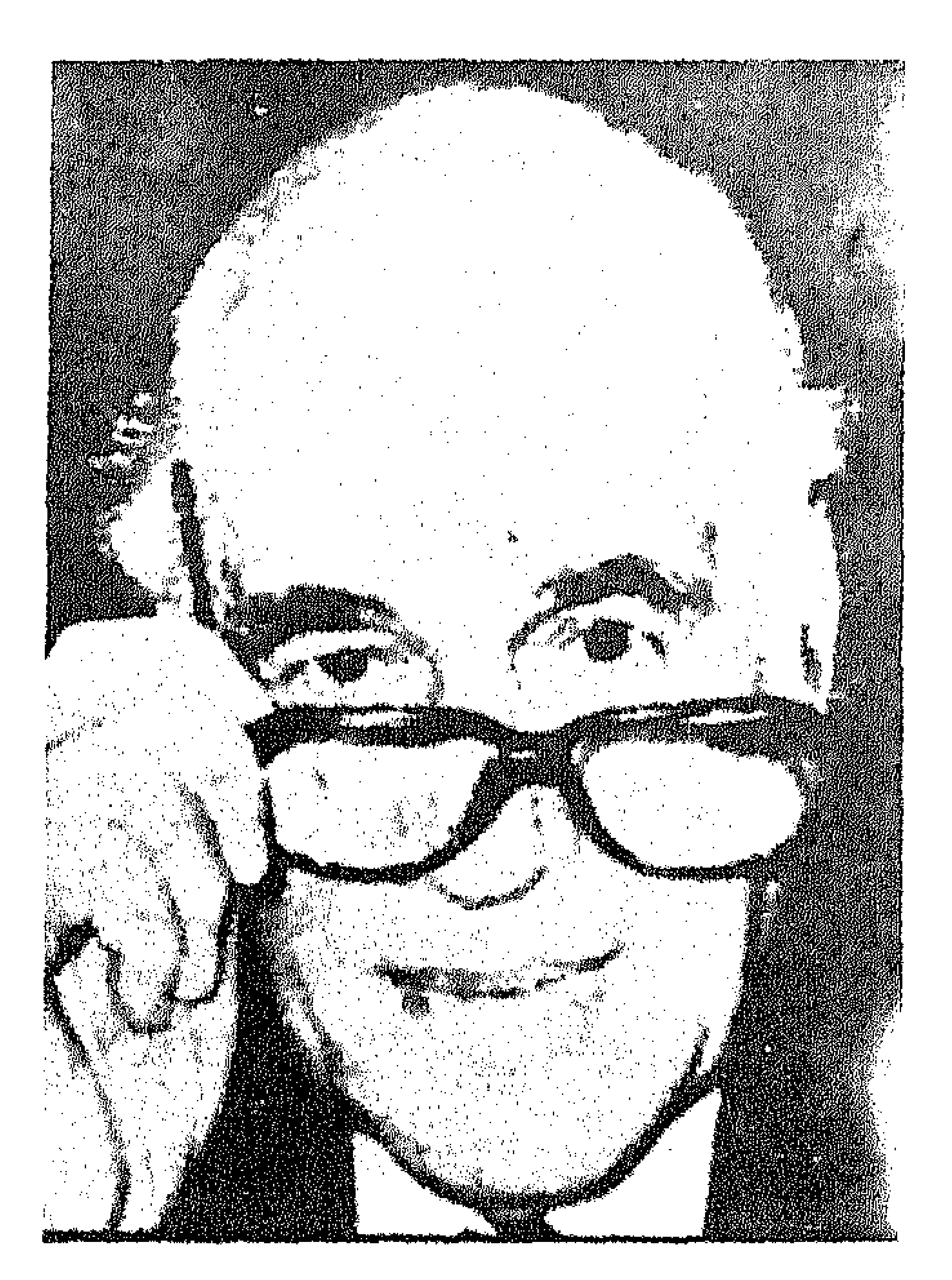
□ فى بداية حياتى لم أجد أحدًا بجانبى.. فقررت أن أصنع نفسى بنفسى.. بأيدى.. لذلك فأى شاب يتقدم لى اليوم لأساعده.. أحاول مساعدته بكل طاقتى حتى لا يواجه ما واجهته.

■ وهل ما واجهته سبب لك معاناة؟

□ فوق الخيال؟

■ وحاليًا؟

□ سعيد جدًّا وفرحان جدًا ولا تسعنى الدنيا من الفرحة.. لأننى استثمرت عقدى فى صنع حسين كمال!



مصطفى أمين

١٧ - مصطفى أمين

قابلت فى قاع المدينة فى السجن أخلاق أفضل من الذين فى القمة

■ الكاتب الكبير الأستاذ مصطفى أمين هل عقد الإنسان تحكم سلوكه ونظرته للحياة؟

□ بلا شك إن العقد تلعب دورًا كبيرًا جدًّا فى تكوين الإنسان وكثيرًا ما تقضى عليه

■ لكن عقد مصطفى أمين لم تقض عليه وظل مقاتلا.

□ والله ربنا هو الذى أعطانى إيمانى وجعلنى أقاوم ولهذا أنا أعتقد أن الإيمان سلاح قوى جدًّا وأعتقد أن كل واحد قادر عليه ولا يحتاج إلى قوة جسمانية ولا إلى مال ولا إلى نفوذ.. إنما يحتاج إلى إيمان فقط.

■ ماذا تركت تجربة السجن فى نفسك من عقد؟

□ الحقيقة أننى وجدت فى قاع المدينة أخلاق ومثل أكثر مما وجدته فى قمة المدينة.

■ وترك لك عقدة ما؟

□ لأ جعلني أعرف أن هؤلاء الغلابة المسحوقين الذين يداسوا بالأقدام من حقهم أن نهتم بهم.

■ يعنى تحررت أو حاولت تحرر عقدهم

□ أنا لم أحاول.. أنا مثلاً جالى كثير من المسجونين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة يطلبون منى أن أقرأ لهم خطابات وصلتهم من أهاليهم، أو أرد على هذه الخطابات فكانت هذه فرصة أن أرى حالتهم ومشاعرهم الحقيقة. يعنى أنا فوجئت بنماذج رأيتهم من القتلة.. قاتل لمدة خمس دقائق فقط وغير كده راجل طيب جدًّا.. قاتل آخر يقول إنه لا يقتل قبل أن يؤدى الصلاة ويأخذ فى قتل الواحد ألف جنيه.

■ هذا قاتل محترف.

□ آه قتل سبعة.. إنما فيه اثنين قتلهم لله.. قلت له؟
قال لى إن جماعة فقرا قصدوه وطلبوا أنه يقتل لهم واحد ولكن ليس معهم فلوس فصعبوا عليه وقتلت لهم الراجل لله.. يعنى عقليات غريبة جدًّا.

■ الكاتب الكبير الأستاذ مصطفى أمين نداءك الدائم بالديمقراطية والحرية هل هو عن عقدة تحولت لإيمان.

□ أبدا.. لأن أنا من وأنا طفل أول صوت سمعته كان هتاف

الجماهير وهى تطالب بالحرية.. طبعًا غرست فى.

■ عقدة؟

□ لأ مش عقدة لأنه الحقيقة أنا لم أتعقد أبدًا ولكن عندما أتعقد سأرد على باقى الأسئلة لكن دلوقتى حالا مش متعقد.

■ هل هناك عقد ينجح الإنسان أن يتجاوزها ويذللها فيصبح قوى وطويل القامة مثل الأستاذ مصطفى أمين.

□ أنا كنت شخصيًّا أحب أن أكون أقصر مما أنا فيه وكان طولى وعرضى ده بيتعبنى لأنى كنت أحب أدخل أندس بين الوزراء أسمع حديثهم وهمّة بيكلموا بعض من غير ما يخدوا بالهم منى، بينما لو كنت أدخل عليهم وهمة بيتكلموا يسكتوا لأنهم عارفين أن أنا قد أنشر ما يقولون.

■ يعنى طولك وعرضك عملك عقدة؟

□ معمليش عقدة إنما عمل لى أمنية أن أبقى قصير.

■ إصرارك على عيد الأم وعيد الحب هل عن خلفية نفسية؟

□ أبدًا.. أولا أنا حبيت أمى ومن أجلها أحببت كل نساء العالم، وشعرت أن أمى سيدة حكيمة ولهذا رأيت أنه من حق نساء الدنيا أن يحكموا ورأيت فى عدد من السيدات المصريات من القدرة والكفاءة والإخلاص والوطنية ما يجعلنى أطالب بمنح المرأة المصرية حتى الانتخاب.

■ هل من المهم أن يعرف الكاتب الصحفى عقد مصادره ليتعامل جيدًا معها.

□ أعتقد إذا كان هناك عقد فى مصادره فطبعًا هذه ثقوب يستطيع أن ينفذ منها الصحفى.

■ حصلت للأستاذ مصطفى أمين معرفة عقد مصادره وينفذ من خلال هذه العقد والثقوب.

□ يعنى أنا مثلا اكتشفت بالعمل المتواصل أن أجمل صوت يحب الإنسان يسمعه هو صوت نفسه فأنا لما أقابل شخصية أتركه يتحدث عن نفسه ومن خلال هذا أحصل على الأخبار التى أريدها.

■ يعنى بتعامله من خلال عقده.

□ آه.. فعلا آه.

■ ما هى العقد التى عرفتها فى سياسيين قدامى تعاملت معهم بنجاح من خلال عقدهم.. بالاسم؟

□ لأ مش عاوز أقول بالاسم لكن أقدر فأقول إنه كان فيه سياسى تعاملت معه وكان عقدته الكذب.. فكان دايما يقول أخبار غير صحيحة ووجدت أنه أحسن حاجة أنه لما يقول حاجة أعرف أن عكسها هو الصحيح.. وبهذا استطعت أن أحصل على كثير من الأخبار الهامة منه.

■ ماذا كانت عقدة فاروق؟.

□ والله لا تقال يعنى أنا باعتقد أن عقدته أنه ضعيف جدًّا وكان يعوض هذا باستعراض يقوم به.. يعنى عندما يأخذ بنت فبدل ما يذهب بها إلى سرايه من خمس سرايات عنده يروح بيها الأوبرج، ويروح بيها نادى السيارات عشان الناس تشوفه وكان يفرح جدا لما الناس تقول أن ده راجل ماشى مع كل النساء وبيعرف كل النساء كان سعيدًا جدًّا.. لكن هو فى الواقع مكانش يعرف حد، كانت كلها استعراضية.

■ ماذا كانت عقدة أم كلثوم؟

□ عقدة أم كلثوم أنها كانت خائفة جدًّا من عملها يعنى عندما كانت تغنى كانت كتلميذ فى الثانوية العامة قبل الامتحان.

■ وعقدة عبد الحليم حافظ؟.

□ عقدة عبد الحليم حافظ أنه كان يعتقد أنه لو نام فى السرير حيموت ولهذا كان يسهر إلى أوقات غير معقولة حتى لا يدخل السرير.

■ مثل عقدة الراحل كامل الشناوى؟

□ كامل الشناوى فعلا كان عنده هذه العقدة.. يعنى كامل كان أمنيته أنه ينام حول الكرة الأرضية يعنى هو كان يركب عربية

ويقول للسواق اطلع الهرم، ينام وبعدين يقولله أرجع مصر الجديدة وينام.

يقعد طول الليل رايح جاى فى العربية نايم ميشوفش حاجة.. فكان هو غاوى ينام حول الكرة الأرضية.

■ وما هى عقدة أسمهان؟

□ عقدة أسمهان أنها كانت معتقدة أنها لن تعيش طويلا - ولهذا يجب أن تفعل فى ٢٤ ساعة ما يفعله الآخرون فى عدة سنين.

■ وما هى عقدة الكاتب الكبير الأستاذ مصطفى أمين.

□ عقدتى أنى لا أقرأ ما أكتب بعد أن أكتبه لأنى لو قريت ما كتبته أقطعه.. لا يعجبنى..

■ هل سبب لك موقعك كتوءم مع الراحل على أمين أية عقدة؟

□ لا بالعكس أنا استفدت منها جدًّا ولأن احنا فى وقت من الأوقات واحنا صغيرين بدأ يطلع شعر دقننا اتفقنا نحلق دقننا عند واحد حلاق على أننا واحد وحصل كثير أوى أنهم منعوا الصحفيين من السفر فى رحلات معينة وكنت باستعمل جواز سفره لأنه مهندس وأنا صحفى.

■ يعنى كانت عقدة إيجابية.

□ إيجابية جدا.

■ الكاتب الكبير الأستاذ مصطفى أمين متى يتحول الذكاء إلى عقده سلبية ومتى يتحول الكبرياء إلى عقدة سلبية؟

□ أولا ما اعرفش الأذكياء لأنى لا أعتقد أننى ذكى أنا مجتهد إنما لا أعتقد أننى ذكى.

■ والكبرياء؟.

□ أنا أعتقد أن الكبرياء دى العيال الصغيرين همّه اللى يفكروا فى الكبرياء لأنه طول ما هو ماشى يعمل عضلاته كده يعنى يخبط فى الناس يمين وشمال إنما الرجل اللى ذو كبرياء حقيقى ما يحبش يظهر هذا الكبرياء.

■ لمصطفى أمين عقدة من الصداقة هل فقدت لحظة ما إيمانك بالصداقة من واقع هذه العقدة؟

□ لا أنا عندما أرى عمل شيء من واحد باعتقد أنه مرض وباتمنى له الشفاء.



د. أحمد شفيق

١٨ - د. أحمد شفيق
كل أمراض الدنيا
أخافها إذا أصبت بأى مرض!

■ د. أحمد شفيق.. عقدة فى طفولتك تحكمت فى مستقبلك؟.

□ عقدة طفولتى هى الانضباط.. فأنا لم أدخل المدرسة وإنما «الكتاب».. هناك تعلمت الانضباط تمامًا.. كنا خمسة فى سن السادسة وكنا نذهب للكتاب حوالى الساعة السابعة صباحًا.. كل واحد منا له دور قبل أن نبدأ حصصنا الساعة العاشرة صباحًا.. واحد ينظف البيت وواحد يملأ «القلل».. وواحد يجهز الخضار.. وهكذا.. أنا مثلاً كانت مهمتى تنظيف «القلل» وملئها وتنظيف الصوانى. وقد تعلمت من هذا الكثير.. تعلمت التواضع والاعتماد على النفس والانضباط أيضًا.. وحتى الآن أحيانًا كثيرة أقوم بنفسى فى المعمل بتجهيز حيوانات التجارب قبل أن أبدأ تجاربى العلمية عليها.

■ عقدة ثانية أثرت على حياتك؟.

□ العقدة الكبيرة جدًّا إذا كنت تسميها عقدة هى التفوق، والتفوق بيكون عند صاحبه عقدة شديدة جدًّا لأنه باستمرار يحاول أن يحافظ على نجاحه والوصول إلى القمة والقمة الحمد لله قمة على مستوى العالم بتحتاج إلى جهد شديد جدًّا.. دى بتكون باستمرار عند الواحد منا عقدة خوف من أنه يفقد الوقوف على هذه القمة.

■ أنت أكثر من تعرض للهجوم.. هل تعقدت بسبب هذا الهجوم؟.

□ أبدا بالعكس.. معاول الهدم كانت بتدفعنى دفعًا إلى مزيد من العمل ومزيد من الخلق والإبداع ومزيد من الأبحاث وأنا بأقر وأعترف أنه أحسن أبحاث عمرى قمت بعملها فى الأيام التى كنت أتعرض فيها بضراوة لهجوم.

■ التحدى فى حياتك عن عقدة؟.

□ ممكن وخصوصًا أن التحدى يأتى نتيجة فشل وعندنا فى عمليات البحث العلمى أى بحث غالبًا يبدأ بفشل متكرر.. لكن من هنا يظهر العالم من غير العالم - العالم باستمرار بيتحدى هذا الفشل ويبدأ نقطة النجاح من هذا الفشل.

■ هل من خلال أبحاثك تكونت لك عقدة؟.

□ بالنسبة لى فيه حاجة بتعمل لى عقدة وهى أنه فى الأبحاث التجريبية على الحيوانات على الفيران وعلى الكلاب والقطط

وخصوصًا القرود. بنحتاج فى كثير من الأبحاث أننا فى آخر البحث نضحى بهذه الحيوانات ونقتلها ونأخذ بعضًا من أجزاء جسمها مثل الطحال والكبد والقلب والأمعاء ونقوم بتحليلها أو الكشف عن نتيجة البحث، فاليوم الذى أقوم فيه بالتضحية بهذه الحيوانات بيكون من الأيام الرهيبة جدًّا والصعبة جدًّا فى حياتى خصوصًا أنه فى كثير من الأحيان تقوم صداقة بينى وبين حيوان من هذه الحيوانات مثل الكلاب، ولهذا لا تعجبى إذا قلت لك إنه فى يوم قتل أحد هذه الحيوانات تنهار دموعى أثناء عملية القتل خصوصًا أن عملية التضحية بهذه الحيوانات ممكن فى ظروف عادية أن نقوم بها بطريقة فيها نوع من الرأفة عن طريق مخدر، أو عن طريق سم من السموم. ولكن هذه الطريقة تؤدى إلى نتيجة عكسية فى عمليات البحث العلمى، فلابد أن نقوم بعملية التضحية بطريقة بشعة وشديدة الوطء على الحيوان.

■ لكنك بالتأكيد تعودت على هذه العملية ولم تعد تسبب لك عقدة ؟.

□ حاقول لحضرتك فى آخر مرة كنت باشتغل على سبعة قرود، وفى نهاية البحث بعد حوالى ستة أشهر وهذه القرود كنت باشوفها تقريبًا يومًا بعد يوم كان بعد ستة أشهر البحث يحتم بعدما أخذت منها عينات دم وقمت بتحليليها أن أقوم بقتل هذه

القرود، وآخذ عينات من الأعضاء. ولكن الحقيقة لم أستطع القيام بهذه العملية وحتى لم أقبل تكليف واحد ثان بالقيام بها وكانت النتيجة أننى قررت بيع هذه القرود لحديقة الحيوانات!

■ الدكتور أحمد شفيق. أثناء إجراء عملية جراحية لإنسان.. عملية خطيرة فى حجرة العمليات هل تصاب بعقدة؟.

□ إطلاقا..

■ طيب تسمح لى أفشى سرًّا.. أنا شفت حضرتك مريض مرة فى مستشفى. وكان الغريب أنك مش قادر تنظر فى عيون زوارك.

□ فعلاً.. هذ حصل.. لكن أنا طبعًا كنت معقدًا من الناس الذين أعالجهم وأراهم ينامون فى مثل هذه الغرفة وعلى نفس السرير فطبعًا عند مرض الطبيب بيشعر أنه أصبح مثل المرضى الأخرين وتصيبه عقدة أنه لا يريد رؤية أحد ويريد مغادرة المستشفى بسرعة.

■ افتكرت أحدًا من مرضاك فى هذه اللحظات؟.

□ أنا بافتكر ليس فقط المرضى، وإنما أن جميع أنواع الأمراض المستعصية والخبيثة ستصيبنى، وبالتالى أتذكر كل المرضى الذين مروا علىّ فى حياتى.

■ هل عقدة الخوف من الإقامة فى المستشفى؟.

□ لا عقدة الإصابة بالأمزاض الخطيرة التى أتعامل معها مع المرضى، لأن فى عملى أرى إصابات عديدة من سرطانات، وأمراض فى الأمعاء وفى القولون والشرج. وأنا نايم بأتصور أن كل هذه الأمراض ممكن تكون موجودة عندى.. ولهذا أصاب بعقدة وأصبح مبتئسا ولا أريد رؤية أحد.



سكينة فؤاد

١٩ - سكينة فـؤاد
الكتابة عملية تحرير رائعة للكاتب من عقده

■ أستاذة سكينة فؤاد رئيسة تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون. لو بدأنا بالحديث عن عقد طفولة ما زالت موجودة داخلك؟.

□ يعنى صعب أن الإنسان يفتكر كل شيء لأن الطفولة بالتأكيد مخزن لا ينتهى الأخذ منه خصوصًا فى الكتابة القصصية والأدبية يعنى الواحد بيكتشف أن الطفولة عايشة بالكامل دون أن يقصد ولكن هى التى تظهر وحدها.

■ هل الكتابة تحررك من عقدك؟.

□ هذا صحيح.. الكتابة عملية تحرير رائعة.. تحرير لذات الذى يكتب وتحرير للوجود من كل الهموم ومن كل الآلام. كلمة تحرير كلمة جميلة جدًّا.. ويمكن لحظة الانتهاء من عمل فنى هى لحظة التوازن والعودة إلى ملامسة الأرض.

■ أستاذة سكينة فؤاد.. بورسعيد والصبا وهل من عقد؟.

□ شوقى هى عقد من الجمال. يعنى شىء مدهش هذا التناقض. فأولا البحر والبيئة التى لا حدود لها جعلتنى كل مكان له حدود يرهقنى.. الأسقف الواطية تجعلنى أختنق.

■ الهجرة من بورسعيد فى وقت الحرب سببت لك عقدة.

□ لازم، لأنه معنى الهجرة أن البيت حيتقفل - إن المدينة حتتقفل ان فيه خطرًا حياخد منك البيت بمعناه الكبير، بمعنى الأهل والمدينة، فيكون هناك شعور متناقض بين القوة والمقاومة والرغبة فى التمسك بالمدينة وعدم الطلوع منها، فى نفس الوقت أنك يمكن تنامى. وتصحى ولا تكونى فيها، هذا الشعور ما زال داخلى حتى الآن.. إلى الآن عدم الأمن.. عدم الآمان.

■ وهل تسببت طريقة التربية وأنت صغيرة فى عقدة؟.

□ أباء وأمهات جيلنا لم يلحقوا بنظريات التربية الحديثة ولذلك لا أريد أن أوجه لهم أى لوم.. خاصة بعد أن تبدلت المواقع وأصبحت أما.. فهمت الكثير من منطلقاتهم.. وأحيانا كثيرة جدًا يكون الحب قاتلاً. وجيل آبائنا وأمهاتنا لم يكن يدرك من التربية خاصة بالنسبة للبنت إلا ضرورة التربية بالعنف والصرامة.. ولا شك فقد ترسبت هذه المفاهيم داخل جيلنا نحن، ومؤكد أنها ستستغرق وقتًا طويلاً حتى تتغير بالنظريات التربوية والواقع الجديد.. ولذلك فقد ربيت بناتى تقريبًا بنفس الأسلوب الذى

تربيت به.. ربما اختلفت المسألة قليلاً بالنسبة لطفلى الثالث لأننى أصبحت أكثر فهما لنظريات التربية الحديثة.. أصبحت أكثر نضجًا.

■ عملك الوظيفى والمكتبى الذى يأخذك من وقت إبداعك.. هل سبب لك عقدة ؟.

□ هذا صحيح.. فهذا العمل يمنعنى أحيانًا من كتابة قصة أحلم بها.. والكاتب كائن مسكون.. ليس بالعفاريت وإنما بالنماذج التى يعيشها ويكتب عنها. ولهذا ينشأ صراع بين الرغبة فى أن تعيش هذه النماذج وألا تظل محبوسة كفكرة وبين الكتابة الصحفية وبين المسئوليات أيضًا.. لكن بصفة عامة متعة الكتابة الأدبية لا حدود لها والصحافة أيضا حب لا يقاوم.. رغم أنها تجمع بين العذاب والمتعة.. وأعتقد أن كل هذا يسبب عقدة.. ليست عقدة فرويدية.. ولكنها عقدة تنحل بمجرد أن يحقق الكاتب ما يريد سواء فى الأدب أو الصحافة أو حتى فى مسئولياته.

■ وما هى العقدة التى لم تبوحى بها لأحد من قبل ولم تتحررى منها حتى الآن !.

□ الغربة أثناء طفولتى.. الإحساس بفقد الأمان مبكرًا.. رغم كل كلمة كتبتها وأصبحت بالنسبة لى بيتًا أبحث فيه.. رغم منزلى الحقيقى الذى أسكنه.. رغم أولادى الذين أصبحوا مثل لحن

جميل.. رغم الانتماء للناس بالحب والمحبة.. رغم كل هذا مازلت أعانى من هذه الغربة وأحس بشجن يعيد للطفلة التى بداخلى والتى أراها وأرى ألمها ومعاناتها.. أبكى لها بدموع.. ليست عن ألم حاليًّا وإنما عن حب.

■ وهل تحرر الدموع صاحبها من عقده!.

□ الدموع تضع صاحبها فى مواجهة معها.. تضعه فى لحظة اعتراف.. ولحظة الاعتراف جميلة.

■ وهل خلصتك الكلمة التى تخرج من قلبك من كل العقد.

□ لا يمكن.. فأى حياة لا تخلو من عقد.. وكم من العقد مالا يمكن أن نبوح به!



سهير البابلى

٢٠ - سهير البابلى
قلت لابنتى أن تلغى كلمة الطلاق من حياتها

■ الفنانة سهير البابلى ما هى عقدة الطفولة التى ظلت معها إلى اليوم.

□ عقدتى أنى تزوجت فى سن مبكرة.. ولو أنى صبرت ١٥ سنة بعد ذلك لكنت فكرت أفضل واخترت طريقى بشكل أحسن.

■ يقول المختصون فى علم النفس: إن الإنسان بلا ألم وبلا عقد هو إنسان بلا إبداع فهل توافقين على هذا الكلام؟

□ ليس شرطًا أن تنطبق هذه المقولة على كل الناس ولا فى كل الأحوال ولا مع كل شخصية، ممكن الألم يولد الانفجار بشكل مختلف أو انفعالات ما على المسرح أو السينما أو فى التليفزيون ولكن فى أحوال معينة.

■ لو سألناك عن عقدة تخلصت منها.

□ كنت متسرعة فى قراراتى وصاحبتنى هذه الصفة من سن ١٨ إلى ٢٥ سنة ويمكن لغاية ٣٠ أو ٣٥ سنة، وبعد هذه السن بدأت فى

التخلص من هذه العادة السيئة خطوة خطوة، ولكنها ليست عقدتى.

■ هل هناك عقدة لم تتخلصين منها؟

□ حب مصر. طبعا حبى لبلدى وللناس وللجمهور هذه عقدة فعلاً، وبسببها رفضت عروضًا للسفر للخارج والإقامة فترات طويلة، ولكنى رفضت أقصر مدة للابتعاد عن بلدى شهرًا أو ٢٠ يومًا، إنما بعد هذه الفترة تظهر العقدة، وتلح على ولابد أن أعود فورًا، أرجع جرى.

■ يقال إننا جميعا معقدون بدرجات متفاوته!

□ طبعًا.. طبعًا هل مطلوب منى أن أحدد درجتى! أنا طبعًا لا أعرفها ولا أى مريض نفسى، أو عقلى يستطيع أن يحدد درجة مشاكله النفسية، هذه مهمة المتخصص.

■ هل لديك عقد إيجابية توظيفها فى إبداعك!.

□ لا ليس هناك عقد من هذا النوع. ولا يمكن القول بأن الإنسان يمكنه التحكم فى عقده، هذه مسألة بعيدة عن تناول النفس البشرية، ولكن الفنان أحيانًا يتعرض لتمثيل شخصية معقدة. لقد قمت بدور سكينـة، وهى شخصية معقـدة، «قتالـة قتلة» وعقدتها أنها عقيم ووحشة، لابد أن تكون العقدة لسبب محدد، وبسبب هذه العقدة يأتى الإبداع. يخيل لى أن العقدة تسبب خللاً

فقد يفشل الإنسان فى مواقف ما فشلاً كاملاً، وفى نفس الوقت ينجح نجاحًا كاملاً فى أنواع أخرى، بعض الناس تظهر عندهم العقد بشكل حاد فيحاولون إبراز القبح مثلاً.

■ هل النجاح الساحق يولد عقدة ما بعد النجاح؟.

□ إنه الخوف، بدليل أن جميع النجوم الكبار مطربين أو ممثلين عندما يصل الواحد منهم إلى قمة الهرم يخاف من عمله وعلى عمله.

■ هل أصابتك عقدة ما بعد النجاح؟

□ منذ ١٢ سنة وأنا أوفق فى عملى وأحيانًا تفلت منى بعض الأعمال ولا أرضى عنها، ولكن كما يقول الشاعر على أن أسعى وليس على إدراك النجاح.

■ هل العبقرية أساسها عقدة!

□ شىء لا أعرفه، ولكنه ممكن.. ممكن يكون أساسها عقدة والقاعدة أن البشر كلهم سواء عندما يشقى واحد مخترع أو مؤلف أو فنان لابد أن يكون فى حياته شىء ناقص فى ناحية أو نواحى أخرى يعنى ممكن تكون العبقرية تعويضًا عن نقص ما فى ناحية أخرى.

■ إذًا ما هو النقص الذى كان فى حياة سهير البابلى لتصبح هذه العبقرية المسرحية؟

□ هذه مجاملة أعتز بها. لكنى لست عبقرية إلى هذا الحد. أنا أعتبر نفسى الدمية التى بلا عقد، يمكن أن تكون هذه هى عبقريتى فأنا بدون عقد، سهلة جدًا وصعبة فى نفس الوقت، دقيقة جدًا فى عملى، أحب أن أظهر من حولى ليصبحوا نجومًا وأبطالاً هل هذه هى العقد، يمكن هى الموضة فى سنة ١٩٩٠. أنا أعتبر نفسى مربية ومدرسة يمكن تكون هذه عقدتى، لأن أبى كان مدرسًا، وأحببت التدريس بسببه، وأحببت أن أمسك بالعصا.

■ هل أنت أبلة عفت فى مدرسة المشاغبين؟.

□ بالضبط، وهى شخصية تظهر على فى البيت أحيانًا أما فى المسرح فتكون أكثر صعوبة وأكثر التزامًا.

■ هل التنظيم والتدقيق عقدة؟

فى هذا العصر وفى هذا الزمن لابد أن تصبح عقدة، لأنى لو أصبت بحالة الوسوسة فسوف ألزم بيتى لن أخرج ولن أدخل، لو ركبتنى حالة النجومية لن أقوم بأى عمل.

■ كنت سوف أسأل عن النجومية هل تصيب الإنسان بعقدة؟.

□ النجومية قد تحد من حركة النجم فلا يخرج كثيرًا، ولا يظهر فى كل الحفلات بصورة مستمرة، ولا يقبل كل الأعمال التى تعرض عليه. مفروض أن يدقق أكثر، النجومية موهبة وهى هدية من الله، وقد تكون بسبب الأعمال الكثيرة البراقة التى يقوم بها

النجم ولكن ليس لها سن معينة.

يمكن أن يكون نجماً فى الستين أو فى العشرين أو تحت سن العاشرة كله جائز. ولكن القاعدة أن النجومية تأتى بعد رحلة عمل وإبداع طويلة.

■ ولكننا رأينا نماذج لنجمات فى سن مبكرة!.

□ هنا لابد أن يظهر سؤال محدد، متى كونت هذه النجمة نفسها؟ متى أكتمل إدراكها؟ متى نضج عقلها! متى اتقنت تمثيلها؟ أسئلة كثيرة تبدأ بمتى وهى مازالت طفلة.

ولكن كل شيء جائز فى هذا الزمن. ربنا يعطيهم الصحة! ولكن الفنان الذى يمر عليه عشرون سنة من عمره لابد أن يصل إلى مفترق الطرق، إما أن يكون أو لا يكون. إما أن تظهر العبقرية أو لا تظهر.

■ وما الذى يخيف سهير البابلى؟.

□ فى حياتى الفنية كثير من الخوف فأنا أخاف أن يقول عنى الناس مالا أحب، حتى عندما أظهر فى صورة فى مجلة أخاف أن تكون صورتى لا تعجب وأخاف أن يكون مظهرى فى حفلة غير مناسب.

■ هل لديك عقدة من الزواج ومن الطلاق؟.

□ أيوه.. أنا لا أحب الطلاق مع أنى طلقت كثيراً ولكنى لا أحب

الطلاق وسأقولها مليون مرة.. لا أحب الطلاق ومصرة على رأيى هذا. وقد قلت لا بنتى من أول يوم فى زواجها.. قلت لها ممنوع استعمال حرف الطاء أى كلمة أول حرف منها طاء ممنوع إطلاقا أن تخرج من فمك. هذه عقدتى. وهذا هو الوتر الحساس فى حياتى.. عقدتى الطلاق.

■ كم مرة عشت هذه العقدة؟

□ هذا كثير على.. إنها عقدتى وخلاص. ولا أعرف عدد المرات. ولا أذكرها، ولا أريد أن أذكرها يمكن ٣ مرات يمكن أربع مرات «مش عارفة».

■ هل الأمومة الزائدة لابنتك وأحفادك لعقدة ما؟.

□ لقد تربيت على الدلع، كانت أمى تقبلنى وتحتضنى وتشربنى اللبن. دلع على الآخر، وكان عندنا فيلا فى الهرم بجنينة. ظاهرة الاهتمام بالأولاد هى رد الجميل لأمى. ما فعلته معى أمى أرده لأولادى، لا بنتى.

وكانت أمى سيدة ريفية، وقد أكون أكثر تعليمًا منها، ولكنها كانت توجهنى بفطرتها، وكانت فطرتها صحيحة. وأنا أحاول أن أصبغ توجيهات أمى لابنتى بما يناسب الزمن، وما يناسب التعليم الذى حصلت عليه، كانت أمى ترفض أن أكون ممثلة وحاولت

معى كثيرًا أن تبعدنى عن هذا الوسط، ولكن أبى أقنعها فقمت بالتمثيل.

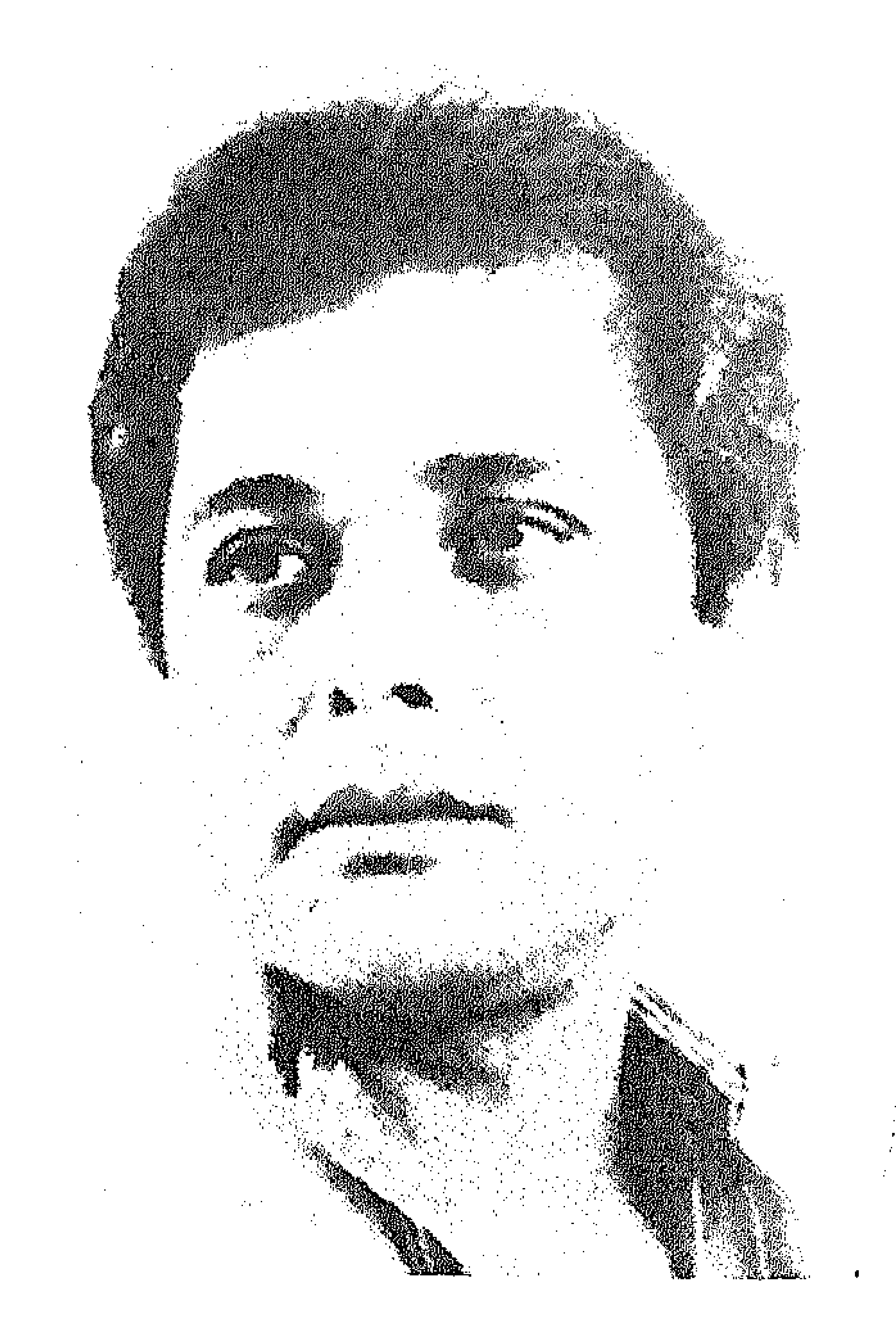
وأنا أحاول أن أوفق بين رغبات ابنتى وبين الخطوات الصح، ولكن عطفى على ابنتى وخوفى عليها يسيطر على، وأحاول أن أجنبها الصخب الذى نعيشه فى هذا الزمان، على أيامنا لم تكن الإنارة بهذه الحد، ولا كان التعليم بهذا الأسلوب، ولا كان الخطف فى عز الظهر بهذه البشاعة، ولا كان الإدمان بهذه المساحة الواسعة فى الشباب، وهذا يسبب قلقى وخوفى على ابنتى، وعندى حق، ولابد لكل أم أن تكون على هذه الدرجة من القلق. لمصلحة الأولاد أو لخير المجتمع كله. ليس عيبًا أن أراقب ابنتى من طرف خفى يعنى من تحت لتحت بأسلوب ناعم وأنا أوصلها للأسانير وهى فى طريقها للمدرسة، أزورها فى المدرسة مرة فى الأسبوع على الأقل أتابع أحوالها مهمة جدًّا الصلة بين البيت والمدرسة، لو أنها ستقوم برحلة مدرسية أحب أعرف إلى أين؟ وكم من الوقت؟

كان هذا سلوكى مع ابنتى وهو نفس تصرفاتى مع حفيدتى سارة، عينى عليها وهى تنزل من أتوبيس المدرسة فى أول الشارع حتى تصل إلى البيت.. أتمنى أن تكون عيوننا على أبنائنا. هذه نصيحتى لكل أم وهو أيضا واجب كل أم وكل جدة حتى

تجنب أبناءها بلاوى هذا العصر. هذا هو القلق الذى ينتابنى على ابنتى وعلى أولادها.

■ هل عندك عقدة لا تستطيعين التخلص منها؟.

□ الصراحة، هذه عقدة كبيرة أيضًا فى حياتى، فأنا صريحة لدرجة أنى أقول للأعور فى عينه أنه أعور.



محمود عبد العزيز

٢١ - محمود عبد العزيز
لست معقدًا من رأفت الهجان

■ رأفت الهجان الشهير بمحمود عبد العزيز. ما هى العقدة النفسية التى صادفتك فى طفولتك وصنعت منك الفنان محمود عبد العزيز؟.

□ عقدة؟ الحمد لله لم تكن فى حياتى من أولها لآخرها عقدة. ولا فى طفولتى ولا فى شبابى ولا أنا راجل كبير.. عقدة؟.

■ فى شبابك أو فى طفولتك هل واجهت مواقف معينة تعرضت فيها للألم أو المعاناة أدت إلى تكوين العقدة النفسية.. ثم تخلصت منها بعد ذلك؟.

□ فى الحقيقة لم يكن فى حياتى كلها أى عقد، ولو عندى عقد كنت قلت عليها.

■ ألم تسبب لك شخصية رأفت الهجان عقدة؟.

□ لا أعتقد.. يمكن أن نسميها عقدة فنية. وفى حياتى أدوار لها نفس

القوة، معظم أدوارى مركبة. وليس دور رأفت الهجان هو الوحيد الذى صادفنى فى حياتى بهذه القوة.

■ بعد رأفت الهجان هل من الممكن أن تصاب بعقدة فنية؟.

□ كيف؟!.

■ صعوبة الاختيار، أن تختار دورًا يوازى زأفت الهجان.

□ هذا هو المعنى الذى قصدته من الأول وهو الخوف، وهى حالة تصيب الفنان الذى يسعى دائمًا لأن يقدم لجمهوره الأحسن.

■ خوفك على أولادك الاثنين وعلى بنتك. هل هو نتاج عقدة؟!

□ طبيعة الإنسان. وكل إنسان يخاف على بيته وعلى ذريته وأولاده، يخاف على مستقبله، يخاف من الكهرباء، يخاف من المجارى، يخاف من الطائرات.. أشياء كثيرة يخاف منها.

■ هل خوفك من الكهرباء نتيجة عقدة!

□ والله كل حاجة فى الشارع المصرى الآن بصراحة تسبب عقدة، الخوف من الضوضاء التى تفسد الأذن والأعصاب. الخوف من المطبات التى تحطم السيارات. الخوف من أسلاك الكهرباء العريانة التى يمكن أن تضيع الإنسان فى لحظة، السرعة المجنونة بدون مناسبة، عقد الخوف كثيرة، فى حياتنا كلنا. أكثر من هذا الأكل عقدة لأن كل الأمراض تأتى من الإكثار من الطعام،

وأيضًا عدم الأكل بسبب المرض كلها عقد.

■ استطعت أن تظهر بنجاح عقدة رأفت الهجان فى المسلسل.

□ رأفت الهجان شخصية مركبة جدًّا، كان فاقدًا للانتماء. وهذه عقدته، إنسان غير منتم حتى صادف الإنسان الذى وضع قدمه على أول طريق الانتماء، فأصبح انتماؤه الأول والأخير لمصر. رأفت الهجان أيضًا كانت عقدته أهله وإخوته وأخته..

■ هل لمست فى شخصية رأفت الهجان قسمات تتفق مع أحداث حياتك!

□ لم أجد أى شىء فى حياة رأفت الهجان، يتشابه مع حياتى بالمرة. وليس هناك أى ارتباط بين حياته وحياتى، ولكنها المعايشة لفنان يؤدى شخصية عرضت عليه وتعايش معها، واندمج فيها تمامًا ولابد للفنان أن يبرز العقد التى تسيطر على هذه الشخصية.. ولكنى بعد هذا الحديث الطويل عن العقد لابد أن أصاب بعقدة ما، وهناك احتمال كبير ألا أعرض نفسى لهذا الموقف مرة ثانية نتيجة للعقدة التى سوف أصاب بها.

■ بعض الفنانين يتصرفون بشكل بوهيمى ولا يهمهم الشكل الأسرى، بعضهم لا يرتبط بالأسرة بنفس القدر الذى ترتبط أنت به مع أسرتك.. هل هذا الموقف نتيجة عقدة؟.

□ برضه عقدة.. وعلى العموم قد لا يهمنى أن ألبس بطريقة شديدة

الأناقة، أو أن أترك نفسى على سجيتها على طبيعتها. ولكن ليس معنى البوهيمية أن أخرب بيتى وأطلق زوجتى وأهجر أولادى وأقوم بأشياء كثيرة غلط فى غلط، أبدًا على العكس تمامًا الفنان - وهذا رأيى وهذا سلوكى فى الحياة - لابد أن يحتاج إلى بيت مستقر.. ولكن عدم استقرار الفنان يأتى من الانفعالات التى تثور داخله، واضطرابه يأتى من معايشته لشخصيات كثيرة مختلفة ومتباينة.. وكل هذا يحتاج إلى الراحة والحنان بعد ذلك، أن يجد الفنان الوسادة التى يضع عليها رأسه بعد طول المعاناة فى عمله فإذا فقد الحنان تبقى كارثة.

■ هل الالتزام الشديد عند محمود عبد العزيز تجاه أسرته من واقع عقدة ؟.

□ والله العظيم.. ثلاثة بالله العظيم.. إذا كان هذا الالتزام الشديد بالعائلة نتيجة عقدة فأنا أقر وأعترف أنى معقد جدًّا.. لابد أن تكون فى حياتى عقدة جعلتنى ملتزم بهذه الصورة. ولكنى لا أعرف ما هى هذه العقدة إننى أتركها لكم لكى تكتشفوها ثم تحكون لى عنها.

■ هل كان ارتباطك بوالدتك قويًّا ؟.

□ وما زال والحمد لله، وربنا يخليها ويعطيها الصحة والعافية، وأحتاج لها دائما، وأحتاج إلى أحضانها، وأحتاج إلى أن أقبل

يديها، وعايش برضاها فعلاً وليس هزلا هل هذا كلام يغضب أحد؟

■ الارتباط الشديد بالأم يعني في علم النفس وجود عقدة أوديب.

□ ماله أوديب ده كمان.. وإيه دخله في موضوعنا؟.

هل علاقتي بأمي علاقة غرامية.. فعلاً علاقتي بأمي علاقة غرامية، فأنا مغرم بها إلى حد بعيد أنا أحب أمي جدًّا، ويمكنك أن تكرر جدا عشر مرات عشرين مرة.. مائة مرة وأكثر.. فهي كل شيء في حياتي.. وهي التي جعلت مني شيئًا.

■ وبالتالي فأنت تقر بعقدة أوديب أي الارتباط الشديد بالأم.

□ أقر بها وأعترف بها وأبصم بأصابعي العشرة.. وإذا كانت هذه العلاقة غلط، فأنا مصر على هذا الغلط.

■ أنت إنسان مبدع لا شك، وفنان حتى النخاع فهل أنت إنسان سوي تمامًا. بمعنى أنك الاستثناء من القاعدة التي تقول إن الإنسان بلا ألم ولا معاناة ولا عقد هو إنسان بلا إبداع؟.

□ صح.. هذا صحيح.. الفنان لابد أن يكون معقدًا إلى حد ما لأن في داخله أشياء كثيرة، أين يكون عجوزًا في داخله أو مراهقا في أعماقه، جزء من الاكتئاب أو أجزاء من الحزن.

■ هل يمر الفنان محمود عبد العزيز بحالات من الاكتئاب أو الحزن أو الألم من داخله، من واقع عقد؟.

□ للمرة العاشرة، للمرة الألف.. حكاية العقد.. كل هذا يمكن أن يحدث، وقد لا أشعر بالحزن ولكن المحيطين بى يحسون أننى أعانى قليلاً من الحزن، ولابد أن يصيبهم الضيق ولا أحب أن أسبب ضيقًا لأحد من حولى، والذى يحدث لى حالة من السرحان أو التوهان، ولكنها لا تصل إلى حالة الاكتئاب.. ربنا يكفينا شر الاكتئاب.. الاكتئاب شىء بشع، ثم أن حالات الحزن تمر بسرعة وأخرج منها بسرعة عندما ألتقى بالناس وأجلس إليهم وأكلم أصدقائى خصوصًا زملاء الجامعة.

■ هل تلجأ إلى أصحابك القدامى من واقع عقدة معينة دون أن تلجأ إلى الأصحاب الجدد.

□ لا القدامى هم الأصل، أيام كباية الشاى فى القهوة والقروش العشرة التى تملأ الجيب وساندويتش الطعمية وترام الرمل أبو دورين فى الإسكندرية، أيام سينما الهامبرا هناك فرق بين الصاحب والصديق. الأصحاب كثير والمعارف أكثر ولكن الأصدقاء فهم قلة، ندرة. سألنى والدى الله يرحمه فى إحدى المرات قال لى، كم صديق لديك؟ وقلت له بسرعة: كثير جدًّا، وقبل أن أبدأ فى سرد الأسماء أو العد على أصابع اليد، قال لى، لو أنك حددت الأمور بدقة فقد تصل إلى أقل من صديق واحد. وبعدها وجدت أن كلامه صحيح وأن الصداقة ليست سهلة فهى

أكثر من الإخوة. وأكبر من القرابة وأعمق من صلة الدم. وأحمد الله أنه من على بأصدقاء حقيقيين.

■ هل تلجأ إلى أصدقائك عندما تتعب أو تحس بعقدة؟.

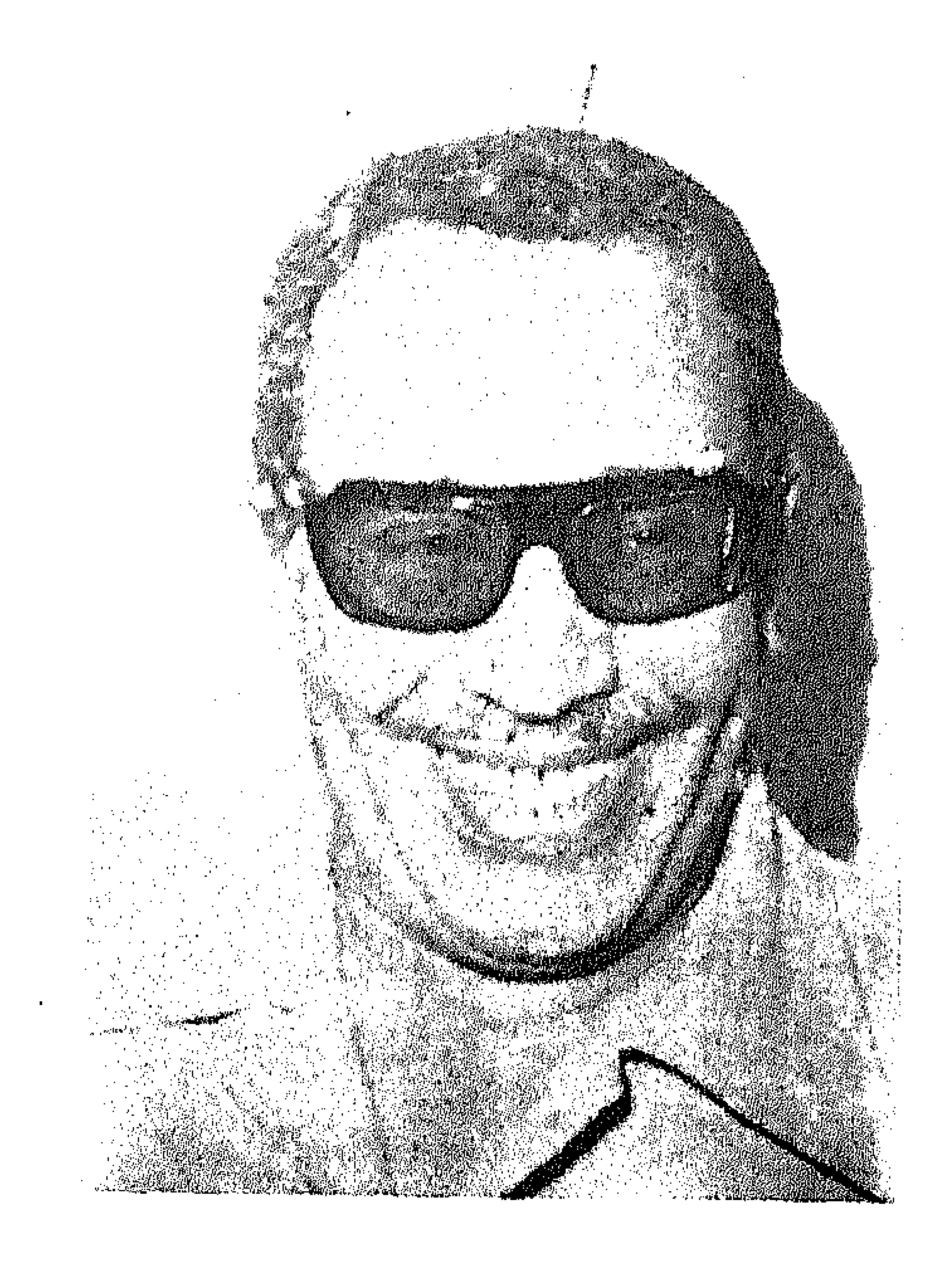
□ ألجأ إليهم فى كل وقت، عندما أكون فى أحسن حالاتى وفى أسوأ حالاتى.

■ ومع هذا فأنت تصر على أنك إنسان سوى جدًّا وأنك بلا عقد.

□ لا أستطيع أن أقول إنى إنسان خالٍ من الهموم، والهموم هذه نوع من العقد.

■ لكن رأفت الهجان أصابك بعقدة.

□ رأفت الهجان دور يتمنى كل ممثل أن يقوم به. وأنا أشكر الظروف التى أتاحت لى هذه الفرصة، ولكن ليس معنى هذا أن هذه الشخصية بالنسبة لى نهاية المطاف، بل يمكن أقدم أدوار أقوى بدون عقدة الهجان، يعنى يمكن أعمل مثلاً فيلم اسمه رأفت العجان.. ليست مشكلة يعنى أبدًا.



—— فؤاد المهندس ——

٢٢٠ - فؤاد المهندس
أخاف من أى شىء يجرى

■ الأستاذ فؤاد المهندس: هل يوجد إنسان شـديد الاستـواء فى الشخصية أى بلا عقد؟.

□ لا أظن، أن يكون الإنسان بلا عقد أو شديد الاستواء. فهذه مسألة صعبة. قد يكون الأنبياء بلا عقد أو الملائكة ضرورى. ولكن الإنسـان البنى آدم وفى هذا الـوقت الـذى نعيش فيـه «ما أظنش» ولكن العقد تختلف من شخص إلى آخر.

■ هل تذكر عقدة فى حياتك صنعتك؟.

□ عقدة الخوف. أخاف من كل حاجة وأى حاجة تمشى أو تجرى. أخاف من الأراجوز، ولا أعرف لماذا أخاف من الأراجوز. أشياء كثيرة صنعت لدى عقدة الخوف أعظم المشاهد التى أؤديها على المسرح هو مشهد الخوف. والناس تحب أن ترانى على المسرح وأنا أمثل الخوف، تحب تتفرج على.

■ هل أصابتك عقدة من اللغة العربية من خلال والدك الرجل

العظيم الأستاذ زكى المهندس حامى حمى اللغة العربية وراعيها فى المجمع اللغوى؟.

□ أبدًا ولا عقدة ولا حاجة إننى أحب اللغة العربية حبًّا جمًّا.

■ هل تخطىء فى اللغة العربية؟.

□ أحيانًا أغلط.

■ ماذا يحدث عندما كان يسمعك والدك وأنت تخطئ فى اللغة العربية.

□ كان يشخط فى بسرعة قائلاً: ولد إيه ده، هذه مرفوعة، وكان يقول لى عن الحرف حتى.. خذ بالك أن حتى تنصب وترفع وتجر ما بعدها. وكان يقول لى فأنت تستطيع أن تقرأ هذه الجملة أكلت السمكة حتى رأسها، وترفع الرأس وتنصبه وتجره.

■ هذه العقدة من اللغة العربية هل جعلتك تجيد اللغة العربية؟.

□ طبعا مش عايزه كلام. النطق فى اللغة العربية والحفاظ على مخارج الألفاظ كل هذا من صنع الوالد.

■ من العقدة؟

□ نعم من العقدة.

■ هل تذكر عقدة غيرها فى حياتك؟

□ بصراحة أنا فى الحقيقة خال من العقد.

■ نقول مثلا عقدة من الأسانسير من البحر من الرمال من الوحدة..

□ أخاف من البحر خصوصًا فى الليل. وأحس أن البحر ينادينى. وأحس بأنه شىء غامض فهذه عقدة.

■ كل الناس تخاف من الأسد، ولكنك تحب الأسد هل هى عقدة؟.

□ إذا كان لابد أن يرجع هذا الحب إلى عقد ما فأنا أحب الأسد لأنى كنت أخاف منه، وعندما زاد هذا الخوف عن حده انقلب إلى ضده.

■ هل استطَعت أن تستثمر عقد طفولتك فى إبداعاتك؟.

□ طبعا عقدة الخوف أصبحت «الماسترسين» عندى يعنى المشهد العظيم.

■ هل عندك عقدة لم تتخلص منها!

□ الحمد لله أنا خالى من العقد، خالى من العيوب يا قصب.

■ هل أصابتك عقدة النجاح أو عقدة الفشل!

□ كان والدى يرحمه الله يقول دائمًا رب نجاح يستفاد من الفشل. ولكن حصان كبوة، ولكل حمار شىء آخر لا أذكره الآن. وقد نجحت كثيرًا وفشلت قليلاً.

■ ولم تتعقد من الفشل؟.

□ إطلاقا ليست لدى عقد من الفشل.

■ هل تجاوزت عقد الفشل؟

□ تجاوزتها إلى النجاح.

■ هل تتعامل مع الآخرين بتفهم لعقدهم؟.

□ طبعًا.. أنا أعامل الناس على قدر عقولهم. ومن خلال العقد يمكن أن أنفذ إليه.

■ هل أنت مسلح ضد العقد؟.

□ طبعا وأنا أستعمل العقد لمعاملة الآخرين.

■ هل تسخر من عقدة ما علنا حتى تتجاوزها؟

□ ممكن.. عقدة الخوف هى عقدة من الصغر، ولكنى أسخر منها علنا، فأنا أسافر كل عام إلى كينيا، وأخرج إلى حدائق الحيوان المفتوحة وأشاهد الأسد وهو يمشى حرًّا طليقًا، وأقول فى نفسى هل يخاف أحد من الأسد وأبسط عقدى على مسمع ومرأى من الناس. فأتجاوز العقدة. ولا أخاف.

■ ولكن أين الحقيقة؟

□ الحقيقة أنا ميت من الخوف وعقدتى من الخوف لا حدود لها.

■ لماذا تغضب من كلمة معقد؟

□ لأنا نعتقد أن كلمة معقد هذه كلمة عيب أى أنه به عيوب كثيرة

والإنسان لا يحب أن يكون عنده عيب ما أو عيوب ولهذا نغضب.

■ ولكنك تجاوزت عقدك وعيوبك.

□ الحمد لله تجاوزتها واستثمرتها فى فنى.

■ هل توافق على أن الإنسان بلا عقد وبلا ألم وبلا معاناة هو إنسان بلا إبداع؟.

□ لا مؤاخذة يبقى حمار!

■ العلم يقول إننا معقدون بدرجات متفاوتة هل هذا صحيح؟ ولو تجاوز الآن عقده فإنه يصبح مبدعا؟

□ بلا شك.

■ فما هى العقد التى تجاوزتها غير الخوف؟.

□ اللغة العربية وقد كنت ضعيفًا فى العربية دائمًا صِفْر ولكنى حاولت أن أجيدها. ونجحت وأثرت على عملى الفنى كله.

■ هل عندك عقدة من الحرمان فى طفولتك؟.

□ أبدًا فى طفولتى كنت «مدلع» جدًّا «ومايص» أيضا وكل شىء أطلبه يحضر حالاً.

■ هل تخاف من الغد؟.

□ بكره هو عند الله سبحانه وتعالى وأنا أعيش يوم بيوم أما الغد فهو على الله.

■ هل عندك عقدة الفشل فى الحب؟.

□ لم أفشل فى حب فى حياتى أبدًا. كل حب فى حياتى لابد أن يكون تمامًا، والذى يواجهنى فى الحب أعقده.

■ هل التحدى وتجاوز نقاط الضعف فى حياتك عن عقدة؟.

□ لا هو عن حذر من الفشل، التحدى هو الذى يجعلنى أواجه الناس والأمور كلها وهو الذى يوفقنى للنجاح، وليس عن عقدة ولا حاجة إنما على فى بعض الأحيان أن أعدل مسار شىء معين غلط أو برنامج لا يعجبنى.

■ هل رسبت أيام دراستك وهذا ما جعلك تنجح فى حياتك بعد ذلك؟.

□ رسبت ١٠٠ مرة ومع هذا لم يتسبب لى هذا الرسوب فى عقدة، بالعكس أحببت الرسوب، وكنت أرسب فى الفصل الواحد سنة واثنتين بمزاجى، يمكن عمل لى راحة نفسية..

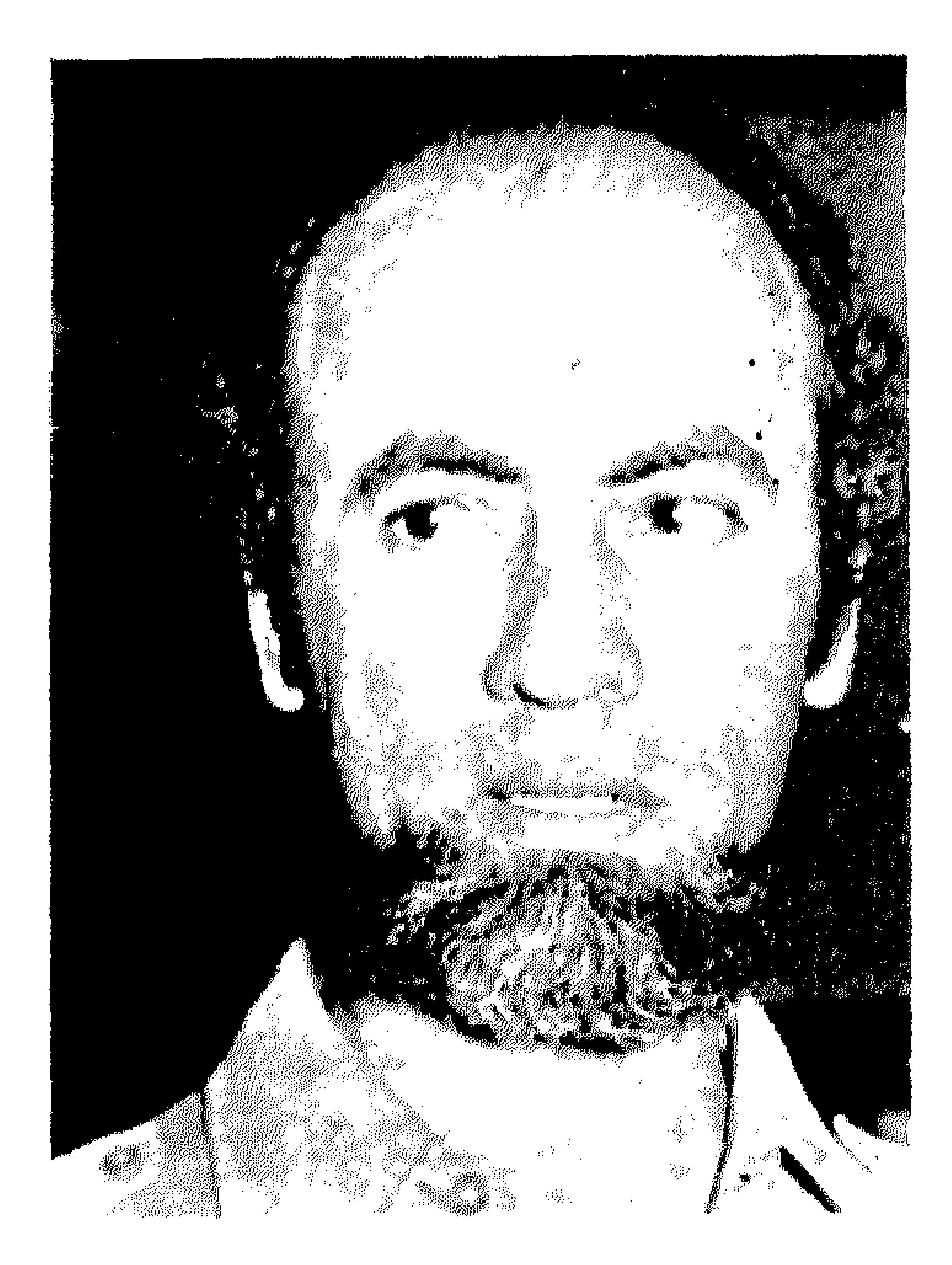
■ وكنت مستكينًا للرسوب؟.

□ يا عينى على الرسوب. شىء جميل الرسوب. ثم أنى لم أكن أتعجل أى شىء بالمرة إذا لم أنجح فى الملحق سوف أنجح فى السنة القادمة.

■ ولكن فى مشوار حياتك الفنية رفضت الرسوب؟.

■ إذا فقد كون لك الرسوب عقدة، جعلتك تنجح بعد ذلك؟

□ فعلاً الرسوب الذى أصابنى فى حياتى الدراسية عوضته بعد ذلك لقد كون عندى عقدة النجاح الكبير والدائم هايل.. براٍفو، لقد أخرجتنى من العقدة التى سيطرت على زمناً طويلاً وكنت ناسيها.



د . محمد شعلان

٢٣ - د. محمد شعلان
استمد من داخلى حل عقد الآخرين

■ الأستاذ الدكتور محمد شعلان أخصائى الأمراض النفسية: على كثرة ما قابلت فى حياتك المهنية من عقد قمت بحلها، هل هناك عقدا عند د. شعلان لم تتوصل فيها إلى الحل؟

□ المعنى أن عندى شخصيًّا عقدة.. كنت أتمنى أن تكون فى حياتى عقدة. أى عقدة فهى وسيلتى إلى أكل عيش.. أن كل عقدة أقوم بمساعدة الآخرين على حلها. أحاول أن أجد فى داخلى فى نفسى عقدة مشابهة لها. هذا يساعدنى كثيرًا على حل عقد الآخرين، إننى أعيش كل عقدة أكتشفها فى الناس. مرة معهم، ومرة ثانية مع نفسى. ومن المفيد أن يكون عندى مثل هذه العقدة أتمنى ألا أنتهى من العقد.

■ هل تتذكر عقدة فى طفولتك؟.

□ أهم شىء فى الطفل شعوره بأنه ند لأقرانه على المستوى البدنى فيلعب معهم ويجرى معهم ويتعارك، فالقوة العضلية، والقدرة على

أن يمارس حاجاته الرياضية تعطيه ميزة، والذى لا يمارس هذه القدرات يشعر بأنه أقل من غيره، فإذا كان متفوقًا فى هوايات أو علوم أخرى يمكنه أن يتغلب على هذه العقدة، ولكن لابد له أن يقتنع بأن هذا التفوق ميزة حقيقية يفتخر بها.

■ هل هناك عقدة فى الطفولة عانيت منها، وتغلبت عليها؟.

□ وأنا طفل كنت صغير الحجم، وطبيعة الأطفال تفرض عليهم الجرى والضرب والصراع والسباق والطفل الذى لا يمارس كل هذا بسبب حجم جسمه أو عدم لياقته البدنية يشعر بعقدة النقص، وهذه كانت عندى بالثلث، ولكن الله يلهم الإنسان ويعوضه عن النقص، فيكمله فى أشياء أخرى. فيكون موهوبًا على المستوى الفنى، أو شديد الذكاء، أو متقدم فى التحصيل الدراسى. أو على المستوى الخلقى. هذا يشعره بالثقة..

■ هل تغلبت على عقدة ضآلة الحجم وأنت طفل؟

□ الطريف فى الموضوع أن هذه العقدة استمرت كامنة فى أعماقى رغم تغلبى عليها على مستوى التعويض، إلا أنى بعد أن كبرت وأصبح للصحة فى حياتى حدودًا وقيودًا ومحاذير. وبدأت أعطى أذنى للأطباء. بدأت أمارس الرياضة كما لم أمارسها فى حياتى. ولو عندى وقت أعوم ٥,٤ كيلومتر. بعكس أيام الشباب لو أنى قطعت ٢٠٠ مترًا كنت أعتبر نفسى بطلًا.

■ برغم العلم والدراسة التى تمكن الإنسان من تجاوز عقده، هل هناك عقدة لم تتجاوزها؟.

□ بسبب العلم هناك عقدة لم ولن أتجاوزها وهى أنه بسبب العلم وكلما ازداد الإنسان معرفة، ازدادت مساحة الجهل أو ازداد الإحساس بالجهل. قبل أن يتعلم الإنسان يحس أنه يعرف أكثر. فتظل مساحة الجهل عند نقطة معينة وعندما يبدأ فى الاطلاع والعلم والمعرفة يشعر أنه لم يكن يعرف كل هذه المعلومات هنا تزيد مساحة الجهل، ويمكن أن نسميها هنا نقطة التحول.

■ هل عانيت من هذه العقدة؟

□ ومازلت.. وسأظل..

■ هل صحيح أن من يلمس بنفسه ظروف من يعانى من عقد نفسية هو إنسان قوى؟.

□ لا شك أن المعرفة هى إحدى وسائل السيطرة. وأن البصيرة هى أى وسائل الصحة، والمعنى أنه ليس من المهم أن أكون خال من العقد. الأهم من ذلك أن أكون على علم بهذه العقدة حتى أتحكم فيها، فإذا كانت لدى البصيرة أى مدرك بكل وجدانى ما هى النواقص التى أعانى منها، سوف أدرك تمامًا عندما أتخذ قرارًا فى موقف ما. لماذا هو ذاتى. ولماذا هو موضوعى؟ أستطيع أن أميز بين مواقفى المختلفة.

■ ما الذى يجعلك تتخذ موقفًا ذاتيًا وليس موضوعيًا هل هى نتيجة عقدة ؟

□ جائز أن يكون هذا ما تبقى من صراع القوة فإذا أحسست على مستوى العلمى، أو فى المجتمع بنوع من الصراع تظهر بقايا هذه العقدة، وبرغم اشباعى على المستوى العلمى وعلى المستوى الوجدانى. إلا أن هناك «حتة جوع» على مستوى السلطة.

■ لماذا تغضب أى إنسان كلمة إنه معقد؟

□ لأنه يترجم كلمة معقد على أنه شاذ أى خارج على الإجماع، خارج دائرة القاعدة، يعنى ليس طبيعيًا. بصراحة هو يتصور أن كلمة معقد هى اللفظ المعدل أو المحسن لكلمة مجنون. وللأسف فإن هذه المسميات مازالت حتى الآن تؤخذ على أنها تهمة وليست وضعًا لحالة نفسية.

■ هل انعكست عليك بعض عقد من يطرقون بابك لتحريرهم من عقدهم ؟

□ كل العقد لابد أن تنعكس على كل طبيب نفسانى فإذا لم تنعكس هذه العقد على، فمعنى هذا أنى لم أعايش الزائر الذى يقصدنى لتحريره من عقده، والمحك هنا كيف يمكن للطبيب أن يتعاطف مع العقدة وأن يعيش معها، وأن تكون هذه العقدة جزءًا منه، ولكن فى نفس الوقت كيف يمكنه أن يتجاوزها ويشاهد نفسه

ويشاهد المريض بوضوح يتفرج على الاثنين الطبيب والمريض وهما يتفاعلان معا.

■ ولكن هل أصبت بعقدة ما من بعض زوارك؟.

□ من حسن الحظ أنى أصاب فى كل مرة. وهذا مفيد لأن كل عقدة تحل بالأخرى. الإصابة هنا أشبه بالمصل الذى يحقن به السليم لتقوية مناعته ضد الجراثيم الأخرى.

■ هل فى حياتك عقدة لم تبح بها لإنسان من قبل؟

□ لابد أن أبوح بعقدى باستمرار. الإعلان عن العقدة هو المرحلة الكبيرة فى الشفاء، أما إذا لم أبح بهذه العقدة فسأظل مريضًا، فإذا بحت بها كان الشفاء العاجل.

■ هل عندك عقدة الخوف من الغد؟.

□ الغد بالنسبة لى هو اللانهاية والمجهول والموت، ولهذا كل شىء فيه يهون والحمد لله.

■ هل تعانى عقدة فى العواطف.. فى الحب؟.

□ الحب بالمفهوم السائد، أى الحب الغرامى لم يعد يشكل أى وزن فى حياتى الآن. إلا بقدر ما أرى نفسى وأرى الآخرين فى حالة طيبة. أما الغرام الملتهب والحب بهذا المعنى فهو لا يشكل محورًا فى حياتى.

■ هل عندك عقدة من الزواج أو من الطلاق؟.

□ أبدا، فقد استطعت أن أتزوج وأن أطلق، وأن أتزوج للمرة الثانية، وإذا كانت هناك عقدة فقد انحلت.

■ كيف يمكن أن يتجاوز الإنسان عقده هل بصراحة النفس أو بالتحدى؟.

□ هناك نوع من العقد يحتاج إلى التحدى مثل الإحساس بالدونية. الإحسان بالعجز فالتحدى هنا يعتبر عقدة، ولكن ما دام التحدى قائما وطالما شعرت أن هناك شيئًا ناقصًا أحاول التغلب عليه فهذه فى حد ذاتها هى العقدة. والتحدى هنا والتغلب عليه من الظواهر الصحية، ولكن متى أشفى تمامًا؟ عندما أنجز أو أتم ما بدأته لا أن يكون التحدى لمجرد أن أثبت أنى لست عاجزًا ولست ضعيفًا.

■ هل العقد تورث من الآباء للأبناء؟

□ إذا كانت الثقافة تورث، فالعقد أيضا تنتقل من جيل إلى جيل، وعلى كل حال فإن المناخ الأسرى يشكل الطريقة التى تنتقل بها العقدة من الآباء للأبناء.

■ على الرغم من أنك ساعدت الكثيرين على أن يتحرروا من عقدهم فقد تحررت أنت نفسك من بعض العقد، وليس من كل العقد؟.

□ أرجو ألا أتحرر من كل العقد وإلا سوف تنتهى رغبتى فى أن أتغلب عليها، ستنتهى مرحلة التحدى لها، ولن تكون لدى القدرة على أن أتعاطف معها أو أشعر بعقد الناس، ولو أنى أحسست لفترة أنى سليم وصحيح ١٠٠٪ فإن هذا الشعور سوف يمنعنى من التعاطف مع الآخرين، وهذا يمنعنى بالتالى من أن أساعدهم على حل عقدهم.

■ عقد سيادتك أو عقد مرضاك؟

□ الاثنان طبعًا، فإذا لم يؤثر فى المريض، لابد أن أعتقد أنى لم أؤثر فيه.

■ أنت تعترف إذًا أنك تتحرر من العقد فى نفس الوقت الذى تحرر فيه مرضاك منها؟

□ وهذه هى قمة النجاح فى العمل النفسى، إنها الثورة التحررية فالإنسان الذى يحرر العبيد لابد أن يكون سيدًا أى أن يكون هو حر أولا. وبنفس المنطق فإن الطبيب النفسانى الذى يصحح للناس مسارهم ويصلح أحوالهم النفسية، لابد أن يعرف أولا أنه هو نفسه مريض وأنه معقد، وأن عليه أن يحرر ويتحرر وهذه المشاركة هى قمة الحرية، أما أن يتعالى الطبيب على مرضاه. أو يكلمهم من طرف أنفه هذا السلوك يعقد المريض والطبيب معا، يجعل الطبيب يصاب بالعمى الحيسى فلا يرى المريض ولا يعرف المرض.

■ إذا كانت الناس تفزع من كلمة إنسان معقد فما هو رد فعلك تجاه هذه الكلمة ؟.

□ إن لم أكن معقدا فلن أستطيع أن أتفهم كيف يشعر الإنسان المعقد بعقدته، ولا كيف يحل الإنسان المعقد عقدته. وللعلم فالطبيب النفسانى ليس حلالاً للعقد ولكنه يساعد المريض على أن يفهم عقده ويواجهها من هنا يستطيع أن يحلها بنفسه، وأنا سعيد بعقدى وأرجو للجميع أن يسعدوا بعقدهم وألا نخاف من المصارحة والمشاركة. لأنه من خلال التغلب على العقد يتم الإبداع والتقدم.



مديحة كامل

٢٤ - مديحة كامل
كثيرا ما أندم على طبيعتى

■ عقدة مديحة كامل وهى صغيرة؟

□ بمنتهى الصراحة صوتى... صوتى كان مشكلة رهيبة جدًّا بالنسبة لى، فقد كان صوتًا أجش وغليظًا... فإذا انفعلت زادت غلظته.. لدرجة أن صوتى كان يلفت أنظار كل زميلاتى فى المدرسة.. وعلى مسرح المدرسة حاولت أن أتغلب على هذه العقدة فكنت اصطنع صوتًا آخر غير صوتى.. صوتًا رقيقًا.. لكن إذا حدث وانفعلت ارتد صوتى لطبيعته.. فكانت زميلاتى تلعب معى هذه اللعبة.. يستفززننى فيخرج صوتى من شدة انفعالى على طبيعته.. غليظ وأجش.

■ وهذا الانفعال الذى يؤدى إلى عنف.. بسبب عقدة؟

□ بدون أى مبالغة أنا إنسانة طيبة جدًّا إلى أقصى حد.. ودائما حسنة النية.. لكننى كثيرًا ما أندم على هذه الطيبة.. فقد صادفتنى متاعب لا حصر لها نتيجة طيبعتى وحسن نيتى.. وتعلمت ألا

أكون – بسبب هذه المتاعب – بهذه الطيبة.. وقد ساهمت السيدة نادية لطفى فى أن أتعلم هذا الدرس جيدًا.. يوم كنا فى استوديو الأهرام ووجدتنى أتصرف بطيبة زائدة على الحد فى موقف لا يحتاج لأى حسن نية.. فأخذتنى جانبًا وصرخت فى وجهى وقالت لى: لابد أن تكونى إنسانة قوية.. إنسانة تعرف كيف تدافعين عن نفسها وحقوقها.. إما هذا وإما تتركين الحياة العامة وتذهبين لبيتك... ومن يومها أصبحت أحرص على أن أدافع عن حقوقى.. لم أعد هذه الإنسانة الطيبة زيادة على اللزوم ولا حسنة النية بسبب وبغير سبب.

■ عقدة ثانية؟

□ الخوف والوسوسة.. فأنا من النوع «الخواف».. أخاف من البقاء فى المنزل بمفردى.. أخاف جدًّا من الأماكن المرتفعة... وأذكر عندما كنت فى باريس صور مشاهد من فيلم الصعود للهاوية إن صعدت للطابق الأول من برج إيفل فلما طلب منى المخرج الصعود لأعلى رفضت وصرخت وبكيت واضطر هو لاستكمال المشهد فى الطابق الأول.. ربما كان خوفا من الأماكن المرتفعة نتيجة أننى نشأت فى منزل من طابق واحد.. ربما.. لا أدرى.. لكننى أعرف تمامًا أننى أخاف بشدة من الأماكن المرتفعة.. أما الوسوسة فأعانى منها الكثير.. الوسوسة من النظافة

والترتيب والنظام.. أحيانا كثيرة أعتذر عن مواعيدى وأفضل أن أبقى فى المنزل لتنظيفه.. وأحيانًا كثيرة أعود للمنزل بعد يوم عمل كامل فى منتهى الإرهاق فأجد نفسى مستغرقه فى إعادة تنظيف وترتيب وتنظيم المنزل.. الوسوسة عندى لدرجة المرض.

■ ولكن عقدة الأماكن المرتفعة لم تمنعك من ركوب الطائرة؟

□ ركبت الطائرة مئات المرات لكن فى كل مرة أركبها أحس بالرعب الحقيقى.. وأظل أصلى وأقرأ آيات من القرآن حتى تهبط الطائرة.. ويصل الأمر أحيانا إلى تناول بعض الأدوية المهدئة.

■ مديحة كامل أم لطفلة واحدة.. هل سبب لك هذا عقدة؟

□ لأننى أم وأنا فى سن مبكرة جدًّا.. فى السنة الثالثة ثانوى. فقد كنت أخاف على ابنتى أكثر مما يجب.. لكننى بعد هذا وبعد أن نضجت وجدت أن هذا الخوف الزائد على الحد لا مبرر له إذا كان الإنسان مؤمنًا بالله.

■ النجاح والفشل هل يمثلان عقدة لمديحة كامل؟

□ النجاح جميل أتمناه لكل الناس.. أما الفشل فلا يسبب لى أى عقده.. فأنا دائما انظر للنصف الممتلئ من الكوب!.. وأحس أن الفشل يمكن أن يكون دافعًا للنجاح.. ربما كان هذا بسبب ما لقيته فى حياتى من معاناة نتيجة تحملى للمسئولية فى سن مكبرة.. تزوجت صغيرة وأصبحت أما فى سن صغيرة.. كل هذه

الظروف خلقت منى إنسانة صلبة قوية قادرة على مواجهة الفشل.

■ وهل تخاف مديحة كامل من عقدة السن؟

□ على الإطلاق.. فأنا دائما أؤمن أن عمر الإنسان الحقيقى هو العمر الذى يحس به.

■ الوحدة تمثل عقدة لمديحة كامل؟

□ إلى حد ما.. لكن الحمد لله حياتى الخاصة كانت لفترات طويلة مستقرة.. وهذا الاستقرار نابع من الترابط العائلى.. بمعنى أن علاقاتى كانت ممتدة بأسرتى.. بأمى وأبى وأخواتى.. لكن مما لا شك فيه أن الوحدة فظيعة جدًّا.. يكفى أن أقول إن اللحظة التى تمر على الإنسان ويشعر فيها حقيقة أنه وحيد تساوى عمرًا بأكمله.

■ دموع مديحة كامل قريبة جدًّا بسبب عقدة؟

□ الدموع تمثل بالنسبة لى عملية راحة هامة وضرورية.. الدموع كما تغسل وجهى فى تساقطها تغسل قلبى وتغسل نفسى.. ومديحة كامل التى تعيش داخلى إنسانة بسيطة جدًّا وبريئة جدًّا وطيبة جدًّا.. ورغم ما أعانيه بسبب هذه الإنسانة البسيطة والبريئة والطيبة التى تعيش بداخلى فأنا مصرة على أن تبقى كما هى حجج حاولت تغييرها لكنها قاومت التغيير.

■ وهل سبب لك هذه المديحة عقدة.

□ إلى حد كبير فقد كنت أتصور أن الناس ستتعامل مع مديحة بنفس طبيعتها ونفس براءتها.. لكن اكتشفت أن الناس تفهم الطيبة على أنها ضعف.

■ وكيف تعالجين هذه العقدة ؟

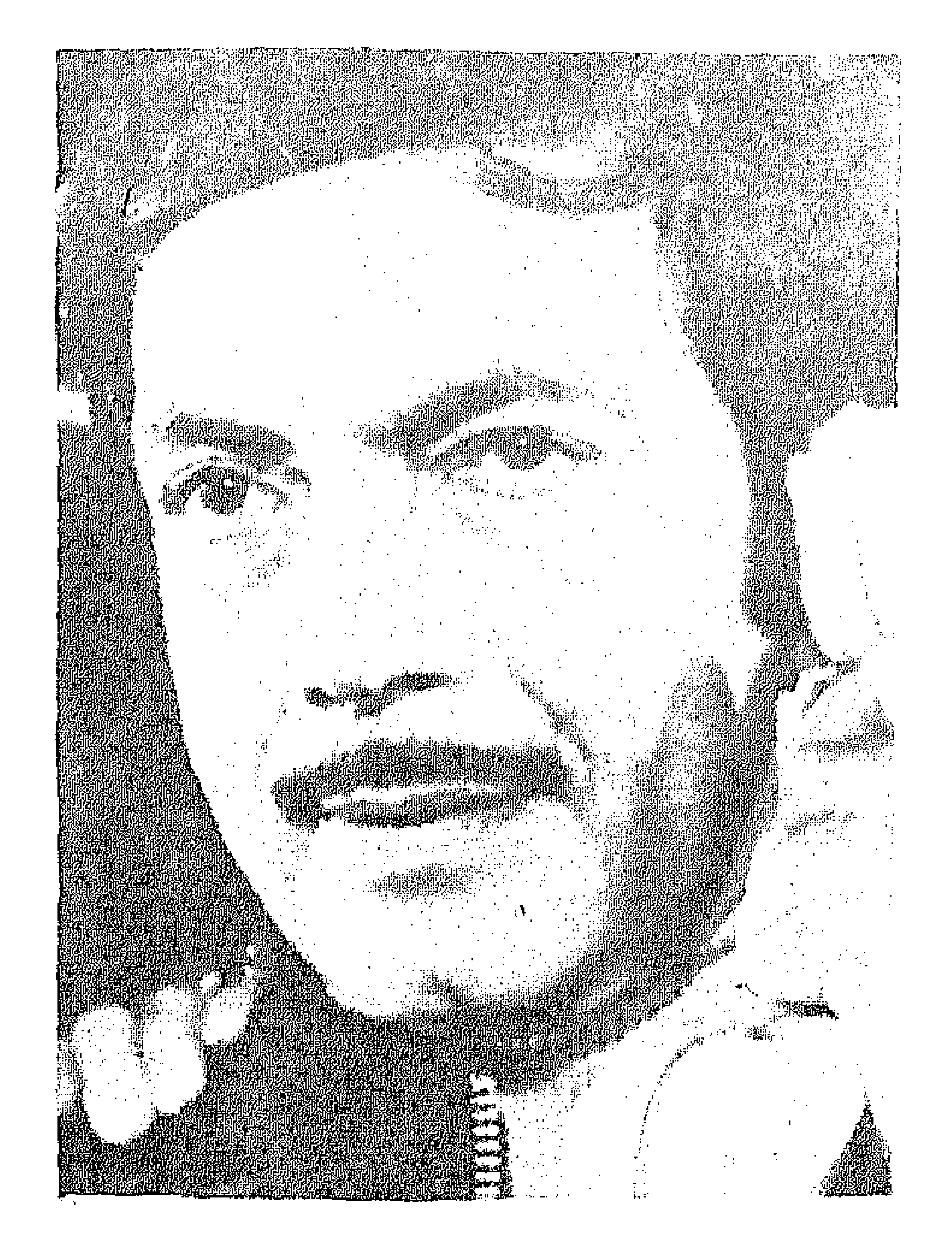
□ بقناع ظاهرى اسمه القوة.. أى محارة.. أى صدفة.. قوقعة بداخلها هش جدا.. ضعيف رخو.. ولذلك تلجأ لهذه الحماية الخارجية.. ولذلك اعتبر القناع الذى احتمى به قناعًا مشروعًا.

■ وما هى العقدة التى لم تستطيعين علاجها ؟

□ الحب.. الحب بكل أشكاله.. حب الزمالة وحب الحياة وحب الناس لبلدهم.. وحبهم لبيتهم وشارعهم.. فى الواقع أنا أفتقد هذا الحب كثيرًا.. افتقد حب الناس لبعضهم وخوفهم على بعض.

■ وهل تعانى مديحة كامل من عقدة الحب العاطفى ؟

□ أستطيع تعويض هذا النوع من الحب بالعلاقات الأسرية السليمة وبانتمائى وارتباطى الشديد بوالدتى وإخواتى وابنتى وبيتى وعملى.



كمال الشناوى

٢٥ - كمال الشناوى
أنا إنسان خجول جدًّا بعيدًا عن الكاميرا

■ هل تسبب العقدة النفسية لصاحبها التعاسة؟

□ عندما تتمكن منه، وتتحكم فيه ولا يستطيع لها خلاصًا، فهو يعيش فى تعاسة.

■ كنت تحب الرسم، وكنت رسامًا محترفًا ولكنك دخلت عالم السينما من أوسع أبوابه هل تسبب لك هذه الحالة عقدة.

□ فعلًا سببت لى عقدة، لدرجة أنى عندما أمسك بالقلم لأرسم أو حتى لأصف عنوانًا لأحد فإن أصابعى تتوقف عن الرسم وهذا ما يضايقنى، ولابد أنها عقدة لابد أن أتحرر منها، ولكنى لم أستطع حتى الآن.

■ هل فى حياتك عقدة نجحت فى أن تتحرر منها؟

□ لا يوجد الإنسان الكامل ١٠٠٪، صحيح أن اسمى كمال فى شهادة الميلاد، ولكن هناك أشياء كثيرة لم أستطع أن أتحرر منها.

■ نضرب مثلاً

□ الخجل، فأنا خجول إلى درجة كبيرة، وهى عقدة لا أعرف لها أثرًا فى نفسى، ولكنى أمام الكاميرا فقط أتحرر منها.

■ لقد نجحت أمام الكاميرا فى التحرر من عقدة الخجل لدرجة أنك غنيت بصوتك.

□ أمام الكاميرا أنا شخص آخر يستطيع أن يتقمص أى شخصية راقص ، مغنى، ضابط شرطة، قاضى، فتوة. ولابد أن تكون هذه الشخصيات تنفس عن عقدة قديمة ومكبوتة فى داخلى تخرج أمام الكاميرا. ولكنى فى واقع الأمر شخص آخر.

■ هل تتذكر عقدة ما حكمت مشوار حياتك؟

□ فى طفولتى كان لى قريب متفوق فى دراسته وكان الأهل يضربون به المثل فى النبوغ والنجاح كان هذا الطفل من سنى تقريبًا، وكان عقدة حياتى، ان دافعى إلى التفوق، وحصل واستطعت أن أسبقه فى سنوات الدراسة هنا فقط انحلت العقدة، وبقى فى أعماقى شىء منها، أى أحب أن أكون متفوقًا.

■ عالم النجومية هل يشكل عقدة فى حياة النجم؟

□ طبعًا، عالم النجومية ملىء بالعقد، كله عقد، وقدرى أنى أصبحت رجلاً تحت الأضواء وهى مشكلة فلا أستطيع أن أمشى فى

الشارع إلا وأسمع صيحات الناس: كمال الشناوى أهه! وقد يكون لها نبرة استفزازية.

■ تقدم السن هل سبب لك عقدة؟

□ بالعكس كلما تقدمت بى السن، كلما ازددت نشاطًا. وفى الحقيقة فإنى أشعر بأنى مازلت شابًا وأنا أقف أمام الناس أو أمام المرآة أو أمام نفسى.

■ هل تسخر من عقدة ما علنا حتى تتجاوزها؟

□ عودت نفسى على أن أعاتب نفسى دائمًا. مثلاً أحيانًا أقف أمام المرآة، وأنقد نفسى نقدًا مرًا.. وفى كل مرة أشعر بأنى أخطأت، أقوم بمحاسبة نفسى قبل أن يحاسبنى أحد وفى عملية الحساب هذه أشعر بأنى أنتصر على نفسى، أو أخرج من العقدة.

■ وهل يتم هذا الحساب كل ليلة، وكل يوم لتتحرر من عقدة ما؟

□ عندما أشعر باقترابى من الخطأ أو عندما أقع فيه، وحتى لا تتعدد الأخطاء، وتصبح عقدة. على الإنسان أن يواجه نفسه أولاً بأول.

■ كم مرة واجهت نفسك بعقدة، وتحررت منها؟

□ العقد لا تحصل على إجازات عرضية أو مرضية أو اعتبارية شأن الموظفين، وهى ملازمة للإنسان، ولو تحرر من عقده، تظهر فى حياته عقد أخرى. حتى العقدة نفسها لا تعرفها إلا بعد أن نتحرر منها.

■ وما هى العقدة التى لم تبح بها لأحد وتحاول أن تتحرر منها؟

□ ربما كانت عقدة منبثقة من الخجل فأنا انطوائى برغم كل المظاهر الاجتماعية والأضواء التى تحيط بى. أحيانًا أظل فى البيت أسبوعًا وأكثر، تنعدم فيها الرغبة عندى فى الخروج ومقابلة الناس، بعض الناس يصفون هذا السلوك بأنه من التعالى على الناس، ولكنى أعرف نفسى جيدًا فلا أنا متعال ولا متكبر، ولكنها الرغبة الشديدة فى أن أكون وحيدًا فترة من الوقت، أو منطو على نفسى، وربما كان مرجع هذا الانطواء كثرة الشخصيات التى أقوم بتجسيدها على الشاشة ربما كان لها التأثير الكبير فى حياتى، وربما وقعت أمام عينى علامة استفهام كبيرة، فى آخر سؤال قد لا يجد الممثل له إجابة هو: من أنا بين كل هؤلاء الناس الذين اندمجت فى شخصياتهم؟!

■ هل كثرة الشخصيات التى قمت بها فى أدوارك سببت لك عقدة الانطواء؟

□ أحيانًا كلام الناس يسبب العقدة، والعتاب من الأصدقاء والمعارف بسبب بعض أدوار الشر التى أقوم بها، فهم يقولون لى إنها تتنافى مع شخصيتى ولا تنسجم مع سلوكى، مع أن أى دور أقوم به أحس معه بمتعة، لقد بدأت بالأدوار الخفيفة والكوميدى وأدوار الشقاوة والحب، ولم تكن تسبب لى أى عقد، وبعدها جاءت الأدوار المركبة وتعددت الشخصيات.

■ هل فى حياتك حادث نتج عنه عقدة؟

□ حصل فى يوم كنت أقوم بالتصوير، وراكب أسانسير وفى الأسانسير المجاور كان أحد العمال يحمل ملابس التصوير، وحاولت تنبيهه إلى أن الهدوم سوف تسقط، ولم أجد أمامى إلا فتحة فى زجاج الأسانسير أخرجت منها رأسى، وعينك لا ترى إلا النور، أحسست بأن الدنيا كلها ظلام، وشىء ما ارتطم برأسى ودماء سالت من رقبتى وكادت تحدث الكارثة، ولم تزل رقبتى تحمل علامة من هذا الحادث حتى اليوم، ومن يومها أخاف من الأسانسير، وأركبه وأنا أقرأ الفاتحة والصمدية وعدية يس.

■ هل عندك عقدة الخوف من الغد؟

□ الغد أو بكرة يخيف كل الناس فهو المجهول، ولا يعلمه إلا الله، ولابد أن نتركه لله، نتوكل على الله. ويبقى منه شىء من الخوف فى داخل كل منا.

■ هل لديك عقدة من الفشل؟

□ طبعًا وأعمل له ألف حساب..

■ الاستمرار والصمود والتحدى فى غابة الفن هل هو نتيجة عقدة؟

□ ليست العقدة، ولكنها الثقة بالنفس، وعندما يعرف الإنسان قدر

نفسه، وقدرته على العطاء يصبح واثقًا، ويمكنه على هذا الأساس أن يستمر، ولا يمكن فى هذه الحالة أن تكون عنده عقدة، لأن الاستمرار يعطى إحساسًا بالسعادة، ولا يمكن أن نقول عن السعادة إنها عقدة، ولا عن النجاح إنه عقدة.

■ لو فشل لك عمل فنى، هل يصيبك بعقدة!

□ طبعًا.. فأنا أحاسب نفسى طويلًا واجتر آلامى فى كل مناسبة، وأندهش للذين تسقط بعض أعمالهم ثم أرى على وجوههم الابتسام.

■ هل صادفك الفشل مرة، وأدى إلى عقدة فى حياتك؟

□ حصل فى فترة من حياتى، ولكنى تجاوزت هذا الفشل وأكملت الطريق بنجاح.

■ هل عندك عقدة من الحب؟

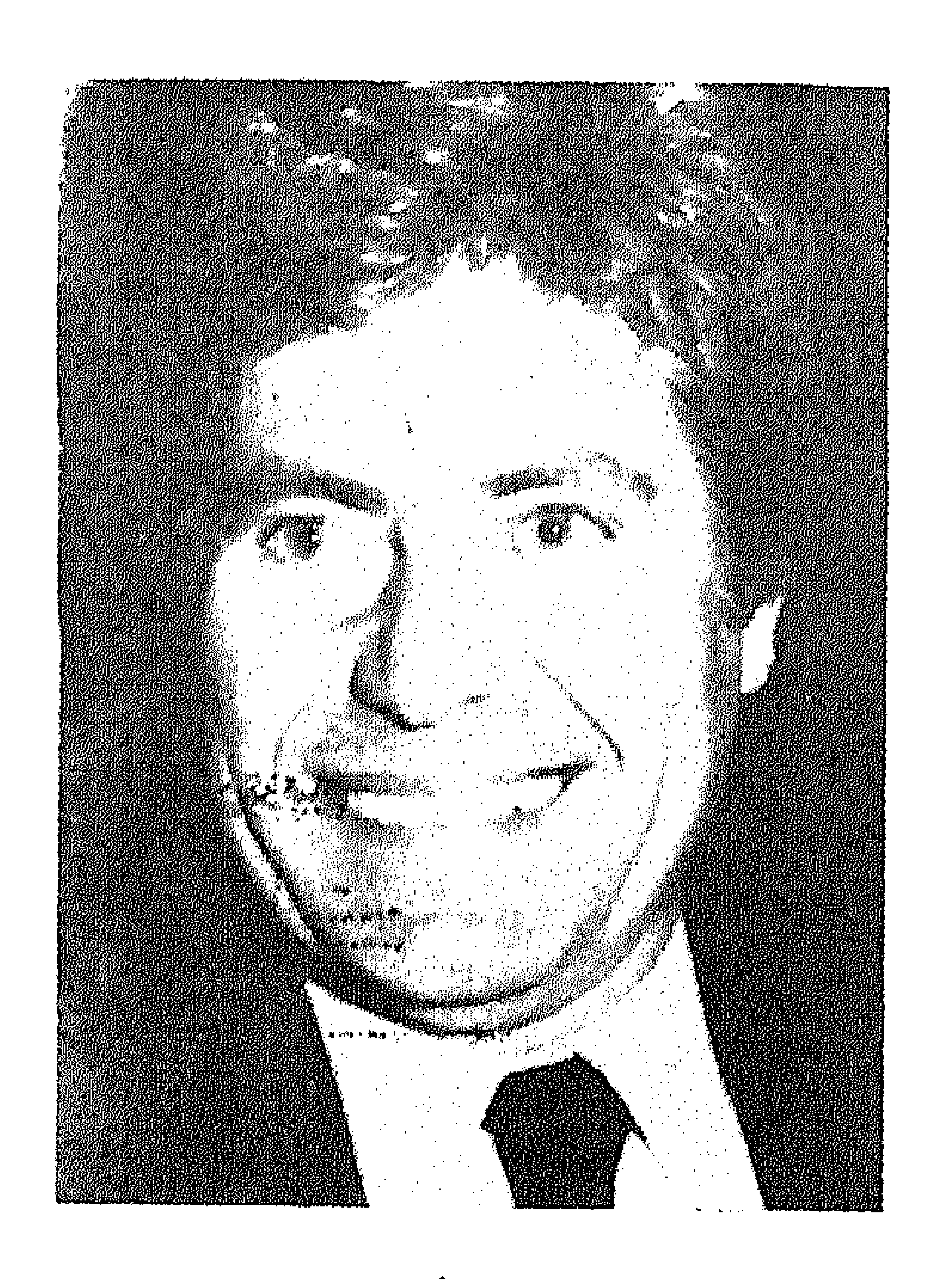
□ كثيرًا جدًا.. فالحب وحده عقدة، عقدة كبيرة ولكنها تحتاج إلى الصبر الجميل والطويل.

■ إلى أى مدى استطعت التخلص من عقدك؟ كم فى المائة؟

□ ٥٠٪

■ والباقى؟

□ سأظل أتحداها حتى انتهى منها بإذن الله.



حسين فهمي

٢٦ - حسين فهمى
الأنا والأماكن المغلقة أعانى منها منذ طفولتى

■ هل فى طفولتك عقدة صاحبتك حتى اليوم؟

□ أقر وأعترف أن عندى عقده مركبة ظلت معى إلى اليوم، إنها مركب العظمة الذى توارثته منذ الصغر، وقد يسمونه مركب تضخم وفى كلمة واحدة.. الأنا وبالاتينية ينطقونها هكذا: «ايجو».

■ الأنا أو الايجو عند حسين فهمى هل ظلت معه من الطفولة وحتى الآن؟

□ نعم من الطفولة، فأنا من أسرة ارستقراطية والذات فى مثل هذا المستوى من العائلات متضخم.. متورم خصوصًا فى مثل هذه الأيام.

■ ألم تتخلص منها؟

□ صعب جدا أن يتخلص الانسان من عقده بهذا الحجم. وفى رأيى

أن مركب العظمة أفضل من مـركب النقص. فإنـه يسعد أى إنسان أن يقال له أنت عظيم أما إذا سمع كلمة ياناقص أظنها كلمة «وحشه» جدًّا.

■ معلوماتى أن عندك عقدة من الأماكن المغلقة والأماكن العالية؟

□ عندى كلوسترفوبيا من الأماكن المغلقة، وكلمة فوبيا فى علم النفس معناها المخاوف. وكل مكان مغلق أو مقفول يزيدنى خوفًا. فأنا لا أطيق أن أعيش بين أربعة جدران، فى حجرة مغلقة أو أسانسير ضيق. هنا أشعر باختناق.

■ نحن الآن بين ٤ جدران هل تحس الآن بعقدة من هذا المكان؟

□ هذا بيتى وأنا أستريح نفسيًّا فى بيتى ولكن فى أى مكان آخر أحس بالعقدة.

■ والأماكن العالية؟

□ أخاف جدًّا من الارتفاعات ويسمونها عقدة أكروفوبيا، وعندى أيضا ارسطوفربيا، فالمخاوف فى حياتى كثيرة.

■ هل استثمرت أى عقدة منها فى حياتك الفنية؟

□ طبعا، مركب العظمة نفعنى فى حياتى الفنية عندما كنت ألعب أدوار الشاب الارستقراطى، وفى مسلسل ألف ليلة وأنا أقوم بدور شهريار. وقد اندمجت تمامًا فى الدور بحكم العقدة، حتى أنى كنت أصحب حملة المراوح معى إلى البيت.

■ هل هناك عقدة لم تتخلص منها؟

□ هذه هى العقدة التى لم أستطع أن أتخلص منها إلى الآن.. مركب العظمة، وهى عقدة متورمه جدًا فى حياتى.

■ والعقدة التى تخلصت منها أو تجاوزتها؟

□ تخلصت من الخوف من الأماكن المرتفعة. أما باقى العقد أو المخاوف فهى ما زالت عندى.

■ يقولون إن الإنسان بلا عقد وبلا ألم هو إنسان بلا إبداع – هل هذه حقيقة معترف بها؟

□ طبعا.. الشخصية البشرية، شخصية معقدة، وكلما زادت فى الانسان مركباته النفسية، تزيد عنده القدرة على الإبداع الفنى.

■ هل يوجد الإنسان السوى؟

□ أبدًا.. لا يوجد إنسان سوى على الإطلاق. كلنا غير أسوياء. كلنا معقدون. فى مكتبى كتاب فى علم النفس بعنوان « الشخصية غير السوية» الإنجليزى The Disorganized Personality والكتاب يؤكد بأدلة علمية أنه لا يوجد الإنسان السوى، ولكنه يوجد الإنسان الذى يحاول أن يكون سويًا، أو متوافقًا مع غيره حتى يكون المجتمع متجانسًا أو متوافقًا.

■ بهذا المنطق يمكننا أن نقول إن حسين فهمى ليس إنسانًا سويًا؟

□ إذا استعرنا مصطلحات علم المنطق يمكننا أن نقول إن هذه النتيجة صحيحة من مقدمتين:

كل إنسان غير سوى.

حسين فهمى إنسان..

إذاً حسين فهمى غير سوى. فعندما أمشى فى خيلاء أو فى كبرياء ويقول الناس إنى مغرور فهذه حقيقة أى إنسان عنده الخلفية الثقافية أو الاجتماعية أو الفنية بدرجة عالية. كل هذا يشكل شخصيتى. ولهذا أشعر أنى شخص مختلف.

■ هل فى حياتك عقدة تعمقت وتأصلت إلى درجة أنها حكمت كل حياتك؟

□ لم يكن فى حياتى عقده بهذا التركيز. ولا مركب العظمة ولا كونى من أسرة كانت من الطبقة الحاكمة من الحكام، وقد يظهر هذا فى بعض تصرفاتى حتى وأنا مسافر فى الخارج، هى عقدة تجعلنى أشعر بالاختلاف، ولكنها لا تتحكم فى كل تصرفاتى.

■ هل أنت إنسان عصبى؟

□ أنا هادى جدًّا حتى يستفزنى أحدهم فأصبح عصبيًّا.

■ هل هذه العصبية عن عقدة؟

□ أعتقد أنها عن عقدة هى مركب العظمة، هذا المركب هو محور

حياتى. وعندما أرى خطأ ناتجًا عن قلة أعتناء أو قلة احترام، أغضب وأنفعل، ولكن مركب العظمة يقوم مقام الحاجز بينى وبين الآخرين ولهذا تهدأ ثورتى.

■ هل الوسامة فى الرجل تسبب عقدة؟

□ إذا فهمها غلط فهى تسبب عقدة. لأنه لا يوجد رجل وسيم. هناك الرجل فقط فى شخصيته فى تصرفاته وسلوكه.

■ متى تتكون العقدة؟

□ إذا تعاظمت عند الإنسان أو تضخمت نظرته للأنا على أنه وسيم أو حليوه وظن أنه سوف يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً، فإن هذه العقدستحوله إلى إنسان أحمق، ولن تساعدهفى حياته.

■ الزواج أكثر من مرة، والطلاق مرتان هل أصابك بعقدة؟.

□ أصابنى بالخوف والقلق..

■ الوحدة هل تسببت لك عقدة؟

□ لست وحيدًا ومعى أولادى وأصدقائى والزواج ليس له علاقة بالوحدة، ولا الطلاق. فالوحدة إحساس داخلى. وأنا أشعر بأن حياتى مليئة.

■ يمكننا أن نقول إن عقدك هى الخوف من الأماكن المغلقة والمرتفعة... والطلاق؟

□ والزواج أيضًا فلا ننسى أن الزواج يتم فى أماكن مغلقة!

■ هل تعانى من عقدة التفوق؟

□ نعم. التفوق يرفع عدد الحساد فى حياة الناس عدد الذين يهاجمون المتفوقين. فإذا كان الإنسان يشعر بعظمة داخلية أيضًا. فإن عدد الحساد يتضاعف والحرب معهم تصبح قاسية، شرسة، فهى عقدة لها رد فعل عكسى.

■ هل هناك عقدة حاولت أن تخفيها عن الناس؟

□ لا يستطيع الإنسان أن يخفى عقده لأنها تتحكم فيه ولا يمكنه أن يتحكم فيها وإلا فلا تكون عقدًا.

■ أنت طبيب نفسى لنفسك؟

□ لقد درست علم النفس، وقرأت فيه كثيرًا ومن خلال دراستى فى أمريكا. ومن أهم ما قرأت ووعيت عن علم النفس كلمة تقول أعرف نفسك بنفسك. هذا هو مفتاح العلاج لكل العقد النفسية، وبهذا يمكن للإنسان أن يسيطر على عقده، أو يتخلص من عيوبه حتى ولو كانت متوارثة، أبا عن جد، وأن أحاول إظهار كل الحسنات فى شخصيتى.

■ ولكنك لم تتخلص من عقدة العظمة أو جنون العظمة؟

□ بصراحة هذه العادة أعجبتنى وأنا أعيش معها فى وفاق تام. فمثلاً

أنا أقود سيارتى وأنا أضع فى يدى جوانتى. وأربط حزام المقعد، وكل هذا سلوك صحيح وقانونى، وكثير من دول العالم تعاقب على إهمال السائق لا. ولكن الناس هنا تندهش وهم يحملقون فى السائق الذى يربط الحزام.

■ هل تفسر نظرة الناس إليك على أنها عقدة؟

□ على أنها مركب عظمة. وأنا متمسك بجنون العظمة.

■ بماذا تفسر حنانك الزائد على أولادك الثلاثة. هل هى عقدة؟

□ أنا حنون بطبعى وحنانى لابد أن ينعكس على أولادى وقد ورثت هذا الحنان عن أبى وأمى، ولكنى أضاعف جرعة الحنان لأولادى... يكون هذا نتيجة تأنيب الضمير، فقد تركت الأولاد على أمهم زمنًا طويلًا، كان على أن أعوضهم عن الوقت الضائع بعيدًا عن.

■ هل تركك لأولادك فترة مع والدتهم سبب لك عقدة ا، وسببه كان الحنان الزائد؟

□ ممكن طبعا. وقد يكون بسبب وراثى.

■ حضورك على المسرح مؤخرًا ونجاحك على الخشبة هل هو بسبب عقدة من السينما؟

□ لقد أعطتنى السينما كثيرًا، وأعطيتها كثيرًا، وبينى وبينها عشق

من أيام دراستى فى الخارج. ولكن المسرح أساسى فى حياتى، والمسرح القومى عندنا شىء مشرف جدا وكل هذه الفنون وجوه مختلفة لصورة واحدة هى الفن. فلا عقدة ولا يحزنون.

■ لقد درست الإخراج فى أمريكا، وعندما عدت إلى مصر وقفت أمام الكاميرا ممثلا وليس خلفها مخرجا، هل هى عقدة؟

□ لم أرفض الإخراج، ولكنى أخطأت مرة ووقفت أمام الكاميرا ممثلا، وهاجم النقاد بقسوة لم يعرفها ممثل فى حياته «بهدلونى» فى الصحف والمجلات فتولدت عندى العقدة، واتجهت للتمثيل، وبالعند فى النقاد الذين قسوا علىّ بأقلامهم فى بدء حياتى الفنية كان على أن أستمر فى التمثيل، وكان على أن أثبت أنى ممثل ناجح، وتصورت أنى لو عدت إلى الإخراج، أكتب بهذه العودة إقرارا بفشلى. فكنت ممثلاً وممثلاً ناجحًا.

الفهرس

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٨٣١٧
الترقيم الدولى	977-02-3474-5 ISBN

١ / ٩١ / ١٧٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



يؤكد علماء النفس أنه لا يوجد إنسان سَوِيٌّ فكلنا معقدون.. نسعى لإخفاء عقدنا. ولاتظهر العقدة إلا عندما يجلس الفرد ويعطى نفسه فرصة للتأمل الهادئ.

«الإنسان بلا ألم بلا عقد بلا إبداع... ليس إنسانًا» بهذه العبارة قدمت المذيعة اللامعة آمال العمدة أنجح برامجها الإذاعية.

إنه كتاب طريف.. يكشف لك الكثير من الأسرار المذهلة فى حياة نجومك المفضلين.

ص ١٠٠

٣٠٢١٢٨/١٠

اقرأ

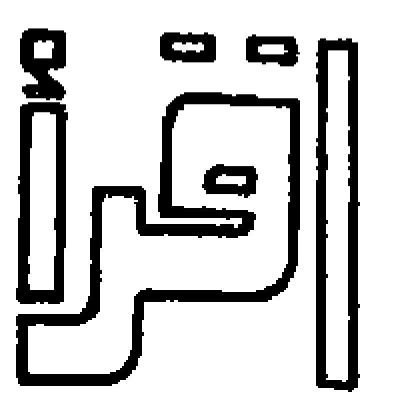
عدد ممتاز

دكتور حسين مؤنس

تقاسيم على أنغام من بلدنا

صور صادقة عن مصر وأهلها في مقالات

دار المعارف



[٥٦٨]

تقاسيم على أنغام من بلدنا

صور صادقة عن مصر وأهلها في مقالات

دكتور حسين مؤنس

تقاسيم على أنغام من بلدنا

صور صادقة عن مصر وأهلها في مقالات



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

تقديم

باسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، الرحمة المهداة.

وبعد...

فهذه حلقات مختارة من سلسلة المقالات التى كتبتها فى مجلة أكتوبر من نحو عشر سنوات، تحت عنوان جامع، هو «تقاسيم على أنغام من بلدنا»، وهو عنوان هذا الكتاب، ذلك أن حياة المصرى بسيطة ومعقدة فى نفس الوقت، لأن المصرىّ بطبعه سهل بسيط ومستقيم وشريف، وأنت لا تجد فى التعامل معه مشاكل، وخاصة النساء المصريات فهن جواهر، إنهن مطيعات شغالات وذكيات وأمهات مثاليات.

وهذه الطيبة أطمعت الرجال فيهن، فالرجل المصرى يعتقد أن أية امرأة فى الدنيا جارية له.

وصدقنى أن المرأة المصرية لا مانع لديها من أن تكون جارية، ولكنها تحب أن يكون زوجها رجلاً شهمًا كريمًا، أما أن يكون صعلوكًا ويريد جارية فمن المستحيل، وهذا سبب من أكبر أسباب متاعب الزواج فى بلدنا اليوم، فإن الرجل يرى أن امرأته تعمل وتأخذ مرتبًا، فهو يريد أن تأخذ مرتبها وتعطيه إياه، وحتى هذا لا تمانع فيه المرأة المصرية، إذا كان

زوجها شهمًا شريفًا، ويريد أن يأخذ المال لينفقه على البيت، أما أن يكون صعلوكًا فهو لا يستحق.

ومشاكل حياة المصريين تأتى من الإهمال، ومن الكلام بغير مسئولية. فأنت تطلب منه شيئًا، فيقول لك: عينيه!، وهو طبعًا لن يعطيك عينيه، ولكنها كلمة يقولها، وتتوالى حكاية «عينيه».. حتى يصبح المصرى مدينًا للدنيا كلها، وهنا تجد حياته تعقدت وتراه يشكو سوء الحال لكل الناس، وهو نفسه سبب سوء الحال.

فالمصرى بسيط وطيب، وهو فى نفس الوقت غير طيب ومعقد،مثل هذه المشاكل أعالجها فى هذا الكتاب لأننى أريد أن أسهل حياة المصرى، وأعلمه كيف يجعل حياته بسيطة وسهلة فعلًا، فليس من الضرورى أن يقول طول النهار: عينيه! عينيه يكفى أن يقول: حاضر، وكلمة حاضر تفتح البيوت.

ثم إننى فى هذه التقاسيم، أدعو المصرى للتفكير. ولا أقول له: إننى دائمًا على حق، فقد يكون الحق معه، ولكن المناقشة، والأخذ، والرد يفتح الذهن، ويعطى الإنسان مفتاحًا من مفاتيح الحياة، وأنا شخصيًا أتعلم من كل الناس، حتى تلاميذى فى الجامعة أتعلم منهم، وهذا كله يخلق تقاسيم أنغام الحياة، فاقرأ وفكر لكى تسهل حياتك. أجل، اقرأ واحترم امرأتك، بل قبل يديها ورجليها تعطيك عينيها، وتقبل يديك ورجليك.

وهذا كلام لا تجده فى الكتاب، لأننى أريد أن أضيف جديدًا لما فى الكتاب، فهى صور من حياة المصريين وتفاصيل من هذه الحياة، وهى التقاسيم على نغمات الحياة، وكل مقال فيه عشرات التقاسيم، ولهذا لن

أضايق القارئ بعرض موضوعات المقالات، فها هى ذى بين يديه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد، ولكنه يفكر، وهذا هو الذى أطلبه من المصريين: أن يفكروا..

وسلام من الله عليك وبركته تحل عليك..

أخوك

القاهرة فى فبراير ١٩٩١

د . حسين مؤنس

مسافر بدون متاع

قرأت فى الأيام الأخيرة كتابًا ممتعًا للأديب الناقد جلال العشرى عنوانه «صرخات فى وجه العصر»، عرض فيه لنفر من أعلام الفكر الغربى فى العصر الحديث، ممن تمردوا على اتجاهات الناس فى الفكر والحياة، وأرادوا تعديلها، أو اقترحوا مسارات جديدة للفكر واتجاهات مبتكرة للحياة، من أمثال فريدريخ هيجل وسورن كيركجورد وجان بول سارتر وجون أوزبون وإيمست همنجواى وزوجته (رجاء) جارودى، وقدم لكل منهم عملاً يتمثل فيه تمرده على المسار التقليدى والدرب المطروق.

وقد وجدت فى مطالعة هذا الكتاب متعة حقة، وأضيف إلى جماعة المفكرين المؤلفين الذين عرض لهم العشرى، رجلاً يهمنا نحن المؤرخين بصورة خاصة هو جان أنوىjean Anouilh.

وهو مؤلف مسرحى خصب الفكر غزير الإنتاج، ولد فى بوردو سنة ١٩١٠، وبدأ حياته الفنية تلميذًا للممثل المخرج الفرنسى المعروف لوى جوفيه، ومنه تعلم إتقان كتابة المسرحيات وإحكام أركانها، وهو أمر ينقص المؤلفين المسرحيين الجدد عندنا بشكل واضح جدًا، وحبذا لو قرأوا لجان أنوى.

وسر اهتمام المؤرخين بهذا الأديب، أن له مسرحية عظيمة المغزى بعيدة المرمى عنوانها «مسافر بدون متاع Voyageur sansbsggage» والمتاع عنده هو حصيلة الإنسان وما يخرج به إلى الحياة من خلفية اجتماعية، وتربية عائلية، وموروث مادى ومعنوى، وما يُعِدُّ به نفسه من علم وثقافة ومهارة فنية يدوية أو عقلية اكتسبها لتكون بعض سلاحه فى معركة الحياة.

وموضوع المتاع الذى يتزود به الإنسان لمعركة الحياة، يحتل المكان الأول من اهتمامات الناس فى الغرب، لأنهم بطبعهم جادون فى كل أمورهم، وهم يعرفون دون أدنى شك أن الحياة معركة يخوضها كل إنسان بما تيسر له من أدوات من علم، أو خبرة أو مهارة أو موروث عائلى واجتماعى، وهم يعرفون الحظ والقدر والتساهيل، ولكنها لا تدخل ضمن المتاع الذى يعول عليه، فقد يواتيك الحظ وقد لا يواتيك، وقد يرفق بك القدر وقد لايرفق، وقد تأتيك التساهيل وقد لا تراها فى حياتك، أما الذى تعول عليه فى رحلة الحياة فهو ما تحمله فى حقيبتك من مال ومتاع. والمتاع هنا كناية عن أدوات معركة الحياة وأسلحتها التى ذكرناها.

وقد أكثرت أجيالنا السالفة من تأليف كتب عنوانها «زاد المسافر» و «زاد المعاد»، ولكنها كلها تدور حول ما يتزود به الإنسان للحياة الأخرى، وهو مطلب محمود واتجاه من التقى لا يستغنى عنه اللبيب العاقل، ولكن أحدًا منهم لم يؤلف شيئًا عن الزاد اللازم لهذه الحياة الدنيا، التى وجدنا أنفسنا فيها، ولا مفر لنا من خوض معركتها، والانتصار فيها، لأن تراثنا الفكرى كله ينظر إلى الماضى. وهو لهذا تراث يسلى ولكنه لا ينفع، ومن كلمات همنجواى التى لا تنسى قوله فى إحدى رواياته:

«إن النجاح فى الحياة فرض على كل إنسان يحترم نفسه، ولابد أن تحتشد لمعركة الحياة بكل سلاح يتيسر لك، وكل عزيمة فى كيانك. هنا لا يمكن أبدًا أن تفشل، لأن الحياة خلقت ليفوز بها من يخوضها بالعدة الصالحة والعزيمة الثابتة، صدقنى: إن الفشل عيب وخطيئة والتعلل بالحظ اعتراف بالعجز».

وهذه الخواطر أذكرتنى بمشهد كان أثناء درس كنت ألقيه على طلبة الدراسات العليا فى إحدى جامعاتنا من سنتين. وكان الطلاب ممن حصلوا على الليسانس بدرجة جيد فما فوق، أى أنك يمكن أن تقول إنهم من الممتازين، وأحببت فى مدخل الدروس أن أعرف مستوى الطلاب لأعرف أين انتهوا لأعرف من أين أبدأ، فكان أول ما راعنى أن أولئك الطلاب الممتازين جميعًا لا يعرف واحد منهم من اللغة الأجنبية أيا كانت ما يقيم به قراءة جملة من سطر فى أبسط كتاب وفهمها، بل روعنى أن أتبين أن الطلاب الممتازين نسوا خلال سنوات الدراسة الجامعية ما كانوا يعرفونه من الإنجليزية فى الثانوية العامة، أما مستواهم فى لغتهم العربية فمخيف حقًا فلا وجود لشىء اسمه قواعد اللغة ونحوها فيما يقرءون ويكتبون.

ثم أدخل بهم فى التاريخ الإسلامى وهو ميدان تخصصهم، وفيه يريدون أن يحصلوا على الماجستير ثم الدكتوراه. فاكتشفت أنهم أبرياء منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب، فواحد منهم لا يعرف عن عبد الملك بن مروان إلا أنه كان خليفة، أما فى أية دولة فعلمه عند ربهم. وواحد منهم لم يسمع من سنوات طويلة بسعد بن أبى وقاص، وقد سمعوا بشىء اسمه البصرة، أما أين تكون هذه البصرة فمشكلة، وأسأل واحدًا منهم عن الفسطاط فيبدو لى فى عينيه أنه يعرفها، وهو يعرف أنها فى مصر ولكنه لا يدرى أين؟

ثم أدخل معهم فى شئون الحياة فيملكنى العجب، فلا علم لهم بشىء واضح فى الاقتصاد أو القانون. وأسأل ما هو القانون الإسلامى؟ ويكون الجواب الأزهر، وواحدة من الطالبات قالت: إن ثورة يوليو كانت سنة ١٩٥٦، وإن حرب اليمن كانت أيام الملك فاروق، والسوق الأوروبية المشتركة شركة إنجليزية أو أمريكية لها فروع فى مصر، وأعرض عليهم خريطة صماء خالية من الكتابة مما يستعمل فى عمل الخرائط والأطالس فلا يعرف واحد منهم كيف يرتب عليها بلاد المغرب العربى، وأطلب إلى واحد منهم أن يضع يده على اليابان فى خريطة شرق آسيا فيضع إصبعه على الفليبين.

وأسألهم ماذا تعلموا خلال سنوات الدراسة الجامعيـة الأربع؟ وفيم أنفقوها؟، ويخرج لى الجواب من الأحـاديث التى أدرتها معهم، فهؤلاء الشبان الذين يدخلون الآن معركة الحياة قد امتلأت رءوسهم بعبارات ومفهومات قبسوها من روائع عادل إمام، وبدائع محمد عوض، وجمعوها من حصيلة أمثال عامية بلدية مما كنت أسمعه وأنا غلام، وكنت أحسب أنها اندثرت وانقضت بتقدم المدنية وانتشار العلم، فإذا بها قد انتعشت وعادت إلى الحياة بفضل المسلسلات، وهم عفاريت فى النكت والردود البارعة الفاجعة، وما تعلموه فى البيت ضئيل جدًّا، فلا الأب فتح عيونهم على حقيقة، ولا الأم علمتهم شيئًا نافعًا..

وفى نهاية هذا الدرس الحزين أشعر أن أولئك الشبـان الطيبـين، لم ينتهوا عند حد من العلم أبدأ عنده، وإذا كان لابد أن يدرسوا معى فلابد أن أبدأ البداية، ولم يكن لدى مانع من أن أبدأ معهم من البداية، أى عندما انتهوا إليه فى الثانوية العامة. فسنوات الدراسة الجامعية الأربع ضاعت

عليهم فى غير طائل، إنما هى مذكرات هزيلة جافة كأنها مُصاصة قصب لاكوها فى أفواههم ثم نفثوها، ولو وجدوا زادًا نافعًـا لأخذوه. فهم فى جملتهم شباب طيب صالح. ولكننا لم نعرف كيف نعينه على الإفادة من سنوات عمره، فالذنب فى البداية والنهاية ذنبنا، وهؤلاء الأعزاء يخرجون إلى الدنيا بغير أداة أو متاع، لأننا لم نضع فى حقائب رحلتهم شيئًا نافعًا. وذنبهم فى رقابنا لأنهم مثل كل شباب الدنيا يدخلون الجامعات ليتكونوا ويتعلموا فلم يجدوا من يكونهم ولم يظفروا بعلم يفيدهم.

وقد حسبتها بالورقة والقلم مرة: جمعت بعض مذكرات الطلاب أثناء قيامى بالمراقبة فى بعض دورات الامتحانات، وأخذت المواد مادة مادة فإذا كانت المادة تشتمل مثلًا على عشرة موضوعات كان الـذى عندى فى المذكرات اثنين ونصفا، والباقى لا وجود له. فإذا فرضنا أن درجات هذه المادة عشرون فليس لدى الطالب منها أولا عن آخر إلا خمس. وهو إذا استذكر هذه الخمس استحق العشرين درجة. فما بالك وهو لم يحصل إلا على اثنتى عشرة درجة أى فوق النصف بدرجتين؟ ومعنى ذلك أن هذا الطالب الجالس أمامى لم يأخذ فى الحقيقة إلا درجة من عشرين، وهذا هو مستواه الحق، وتلك بدايته ونهايته، وهذا هو كل ما فى حقيبته وهو فى أول رحلة الحياة: مسافر بدون متاع!! وخارج إلى الدنيا بدون زاد. فإلى أين والله يستطيع أن يصل؟.

هذا هو السؤال الذى يحيرنى ويعذبنى.

ومن نعم الله على مثلى ألا يكون مدير جامعة، لأنه فى تلك الحالة لابد أن يقول: ليس فى الإمكان أحسن مما كان. والأحـوال يامولاى على أحسن ما يرجى فى أسعد بلاد الله. لأن الناس عندنا إذا تقلدوا وظيفة

أصبحوا ممثلين يقومون بأدوار، فإذا أخذ ممثل دور هاملت فلابد أن يقول كلام هاملت كما كتبه المؤلف، وإذا أخذ دور عطيل فلابد له من أن يقول كلام عطيل، حتى وجهه لابد أن يطليه باللون الأسود، وإلا لم يكن عطيلاً، ويقال: إنه فشل فى أداء الدور، ورحم الله أستاذنا العلامة الدكتور أحمد زكى، عينوه مديرًا لجامعة القاهرة. وبعد نحو شهر أبلغوه أن سيادة الوزير سيزور الجامعة، فأصدر الرجل أمره إلى رجال الإدارة بأن يهيئوا إدارة الجامعة لزيارة الوزير، وجلس هو فى مكتبه ينتظر، حتى إذا قالوا له: إن الوزير وصل خرج لاستقباله.. ووصل الوزير فعجب كيف لم يجد مدير الجامعة فى مقدمة المستقبلين على الباب أسفل سلم إدارة الجامعة، فأنكر ذلك إنكارًا شديدًا، وكان الرجل على أهبة الخروج لاستقبال الوزير إذا اقترب، ولكن الوزير كان ينتظر أن ينتظر مدير الجامعة على الباب ساعة أو ساعتين. وفى ذلك اليوم أهمل الوزير مدير الجامعة، وطاف معه فى الزيارة عميد إحدى الكليات، وكان ذكيًا ملحلحًا، وطوال الزيارة جعل يستنكر تصرف مدير الجامعة ويقول: إنه رجل لا يصلح لشىء، وكان ما أراد.. بعد قليل فصل مدير الجامعة لأنه رجل لا يصلح، وأقيم سيادة العميد مديرًا، ودخل فى دور عطيل وأجاد، حتى وجهه صبغه بالسواد.

* * *

ويدهش الناس عندنا لسقوط العمارات الجديدة ويقولون: المقاول أو المالك هو المسئول، وأنا أقول بل المهندس، لأن أحدًا فى الدنيا لا يبنى عمارة ذات أدوار كثيرة أو يضيف أدوارًا على عمارة قائمة دون مهندس، فكل هذه العمائر التى تنهار رسم خطتها أو خطة زيادتها مهندسون، فهم

أولا وآخرا المسئولون، وأنا لا أقول هنا إن أولئك المهندسين يغشون بل أقول: إن هذا منتهى علمهم، فلست أظن أن مهندسا يطاوعه ضميره أن يأتمر بأمر مقاول ويرسم رسماً هو يعرف أنه لا يحتمل، ولكن المعقول أن هذا هو كل علمه، وإذا كان خريج الآداب يحصل فى الحقيقة عند النجاح على درجة ونصف من عشرين فلماذا نستبعد أن يكون هذا هو مستوى المهندس أيضًا؟ أليس هذا أخا ذاك. فالمسألة فى البنايات ليست دائماً مسألة ضمير وإنما هى مسألة علم، وإذا كنا نطلق أولئك الشبان فى رحلة الحياة وفى أيديهم حقائب فارغة، فما ذنبهم إذا لم يصلوا إلى الغايات التى نطلب ويطلبون؟.

ومثل هذا يقال عن خريجى الطب، وإذا كنا فى حالات المبانى نرى المأساة بأعيننا لأن العمارة انهدمت، فإن أحدًا لا يرى المأساة فى حالة المرضى إلا فى النادر، والمريض الذى يزور المستشفى ويخرج بعلاج ثم يموت فى بيته لا يفكر أحد فى البحث عما جرى له وإنما هو يغسل ويكفن ويدفن. وهذه هى نهايته، وإذا هو مات فى المستشفى أخرجوه من الباب الخلفى وتسلمه الحانوتى وأسرته أو الحانوتى وحده..

وهنا أيضا لا أقول إنها مسألة ضمير بل مسألة علم، فهذا هو منتهى علمه، وذلك هو ما أعطوه فمن أين له غيره؟ إن الكثيرين من أولئك الأطباء يتعلمون مع الزمن، وقد يصبحون أطباء مهرة فى النهاية، ولكن أحدًا لا يحصى من هلكوا فى الطريق.

وهنا لا تعجب من أن بلادنا من أكثر بلاد الدنيا استهلاكاً للأدوية، فى حين أن سويسرا وإنجلترا أقلها، لأن الطبيب عندنا إذا كشف على المريض أعطاه دواء للكبد وآخر للطحال وثالثًا للمعدة، فإذا لم ينفع هذا

نفع ذاك، وفى الغالب يذهب المريض وعلته الكبد فيخرج ومعه الطحال والأمعاء، وربما الكلى هدية من المحل، والمريض يخرج من طبيب إلى طبيب، ونحن نشك فى الذمة وأنا أبرئ الذمة ولكنى أقول إنه العلم.. ومادام هذا هو ما وضعناه له فى الحقيبة فكيف نطالبه بأكثر؟، ويقول بعض أطبائنا إن المريض المصرى لا يرضى إلا إذا كتبت له وصفة من صفحتين، وإنهم يكثرون من الأدوية، ليسدوا حاجة نفسية عند المريض. وقد يكون هذا حقا، ولكن من الذى أوجد عند المرضى هذه الحالة النفسية؟ ولو تعود المرضى على أن يجدوا الشفاء من دواء واحد لما طلبوا غيره، وعندما كنت فى إنجلترا من شهور ذهبت إلى طبيب عيون وفحص الرجل عينى ثم قال: لابأس بالحالة، ولا تطلب من عينيك أكثر مما تعطيانك الآن. وكل ما أنصحك به هو ألا تغسل عينيك بالصابون إلا مرة واحدة فى الصباح، فإذا احتجت إلى غسيل بقية اليوم فبالماء البارد ولا زيادة، تجعله يسيل على عينيك من الصنبور دون أن تمسهما بيدك، وإذا شككت فى الماء فليكن الغسيل بمياه معدنية ولا قراءة ولا فرجة بعد الثامنة مساء، وحسب هاتين العينين المظلومتين أن تكفياك مطالب العمل بالنهار.

* * *

وعندما أرى مشاكلنا وعجزنا عن حلها فإننى لا أسارع إلى سوء الظن، وأتهم الذمم والضمائر، فالحق أننا لسنا شعبًا فاسدًا، وما يسمى بموجة الفساد عندنا اليوم وهم وتهويل، والناس عندنا فى الغالبية العامة ناس فضلاء أو أقرب إلى الخير، وعدد اللصوص يزيد اليوم عما كان عليه بالأمس. ولكن العلم أقل فى كل ميدان، والشباب منذ سنوات يخرجون

لرحلة الحياة بحقائب فارغة، وهم فى هذه الحالة لابد أن يحتالوا للعيش، ولكنه احتيال المضطر لا احتيال الفاسد بطبعه، وقد قيل لى من سنوات: إنهم أحالوا مشروعات بناء الجراجات من أدوار إلى لجنة من المهندسين ففحصوا الموضوع ثم قالوا: إن تربة القاهرة لم تعد تصلح، وقالوا إن جمهورنا لن يحسن استعمالها وأشاروا فى النهاية بصرف النظر عن الموضوع.

وعندما قال لى المختص بالإنشاءات فى المحافظة هذا الكلام قلت: هل سبق لنا فى بلدنا أن أنشأنا جراجات ذات أدوار؟ قال: لا! قلت: إذن فمن أين لهؤلاء المهندسين أن يعرفوا عمل حساب مواقف السيارات ذات الأدوار؟ وهل يتعلم الإنسان من الهواء؟ إننى أعرف أن بناء المواقف ذات الأدوار من أصعب المشروعات، لأن المسألة هنا ليست مسألة بناء وحساب أسمنت مسلح فحسب، بل هى منشآت فى غاية التعقيد ومشاكلها الفنية كثيرة جدا، ولابد كذلك من حساب مسألة الاستعمال على المدى الطويل. فهذه سيارات صاعدة هابطة طول النهار والليل. ومنحدرات ذات ميل محسوب وأبواب ومخارج للسيارات التى تظل أكثر من ساعتين وأخرى للتى تمكث ساعة أو أقل.

ويقول لى محدثى:

- إذن فكيف أنشئوها فى الكويت والسعودية؟.

وأقول: لأن الناس يعرفون هناك من أين يبدأون أعمالهم. وما داموا هم لا يستطيعون تصميم المواقف ذات الأدوار، فهم يلجأون إلى شركات غربية تتولى الأمر من بدايته لنهايته، بل إن هذه الشركات تأتى بمن يتولون «تشغيل» الجراج للمدة التى يتطلبها تدريب أبناء البلد، وشيئا

فشيئًا يحلون محل الأجانب، أما نحن فنتكلم كلامًا غير منطقى ونقول: مادامت عندنا كليات هندسة فنحن نستطيع أن نقوم بأى عمل هندسى. والنتيجة ما ترى، حتى المبانى التى لا تتعرض للسقوط فإنك لن تجد فيها أى ابتكار أو تجديد، وانظر إلى المبانى الحديثة فى شارع أوروبى وقارنها بما ترى فى شارع مصرى، وسترى بنفسك ما أعنى: هناك تنويع وابتكار وتصرف، وهنا مبان متشابهة لاتبهرك هندسة واحدة منها إلا ما وضع تصميمه وأشرف على إنشائه مهندسون من هناك أو مهندسون من القدامى وأصحاب الخبرة والعلم.

* * *

أتريد برهانا ترى صدقه بعينيك؟

إنهم يقولون لك إن مجارى القاهرة وشبكاتها الكهربائية وضعت من ثلاثين أو أربعين سنة وصممت لمليونى نسمة، ولهذا فهى لاتحتمل اليوم..

وتقول: سلمنا لكم بهذا، فتعالوا معنا إلى مجارى وأنابيب مياه وأنابيب كهرباء مدينة المهندسين، فهذه المدينة وضعت شبكاتها فى أواخر الخمسينات أو فى الستينات والسبعينات فما بالها تشكو من عيوب هى أسوأ بكثير من شبكات القاهرة؟ وهناك شوارع فى المهندسين. أو مدينة نصر عملت شبكاتها فى السبعينات، بل فى أوائل الثمانينات، ومع ذلك فإنها ليست أحسن بكثير من شبكات القاهرة المسكينة، وهل هنالك فى المهندسين أو مدينة نصر شارع لم تطفح مياهه؟ ألم يفكر المهندسون الذين رسموا شبكاتها فى أنهم يعملون لمدينة جديدة ستصل إلى ذروة عمارتها وعملها فى أوائل القرن الحادى والعشرين؟ إذن فلماذا تنفجر المواسير

من منتصف الستينات، أى قبل أن يمضى على عمل الشبكات خمس سنوات فحسب؟

تريدون الحقيقة الأليمة، إن شبكات مدينة المهندسين أسوأ بكثير من شبكات القاهرة. وشبكات مدينة نصر أسوأ من شبكات مدينة المهندسين، وعندنا فى مصر الجديدة أحياء بنيت فى العشرينات وشبكاتها أحسن بكثير من شبكات الأحياء التى أنشئت فى الستينات والسبعينات.

هل نقول: قلة ضمير؟

لا. قلة علم!! فإن العلم يتطور ويتقدم، ولكن قنوات العلم عندنا ضيقة وبالية مثل شبكات المياه والمجارى والكهرباء، ولكى نصلح الشبكات لابد أن نصلح قنوات العلم، وكما أنى حزين لحال طلاب الدراسات العليا الذين درست لهم كل شيء من جديد، فإننى كذلك حزين بسبب المبانى التى تتهاوى، وحزين أكثر على المهندسين المسئولين عنها، فإن طلابى لم يستطيعوا قراءة الإنجليزية والتعبير بها لأنهم لم يتعلموا ذلك. وعندما ألزمتهم بالاشتراك فى برامج تعليم اللغة الإنجليزية فى بعض المعاهد تعلموا وقرأوا وبدأوا يشعرون بالمتعة فى الدراسة، وواحد منهم اليوم يكسب مالاً لا بأس به من معرفته بالإنجليزية إلى جانب سيره سيرًا طيبًا فى دراسته بعد الجامعية، مثل هذا أقول فى المهندسين والأطباء، فإن قلة العلم ليست عيبًا مادام الإنسان لم يقصر فى طلبه، ومن الممكن لهؤلاء جميعا أن يعوضوا ما فات بالدرس والاطلاع والتجربة.

ويبقى بعد ذلك أن نقول: إن تعليمنا الجامعى كله فى حاجة إلى إصلاح شامل، وإذا كنا لا نستطيع تعديل كل نظم التعليم العام، فإننا على الأقل نستطيع إعادة النظر فى نظامنا الجامعى كله. إن الموضوع متعلق بمستقبل

مصر كلها، ومصر شابة وأمامها العمر الطويل، وإذا كنا قد تنبهنا إلى تلك الحقيقة الآن فلنحمد الله على ذلك ولنبدأ العمل من جديد، وفرنسا نفسها أعادت وضع نظم جامعاتها كلها بعد ثورة الطلاب في جامعة باريس سنة ١٩٦٨، وتقرير وزير التعليم في فرنسا إذ ذاك وهو إدجار فور ما زال بين أيدينا. وقد استطاعت فرنسا بجرأة وبسالة وإيمان وواقعية أن تصلح نظامها الجامعي كله ابتداء من سنة ١٩٧٠، وأصلحت بذلك مسارها الحضاري كله.

أنا أعرف أن ما أطالب به صعب، ولكننا لا ينبغي أن ننسى أننا في عالم اليوم لانجد شيئًا سهلاً أبدًا، فكل إصلاح أو إعادة تنظيم يمس بمصالح ملايين ولكن لا بأس، فإنا بالشجاعة والإخلاص سنستطيع تخريج جامعيين أحسن. يستطيعون مسايرة العصر وإيجاد العلاجات الناجعة لمشاكلنا.

إننا ندهش لأننا لا نستطيع حل أى مشكلة من مشاكلنا حلا صحيحا ناجعًا: الإسكان والمواصلات والمصانع والتموين وكل شيء راكد أو متدهور عدا الجيش، فقد كان رجال الجيش باسلين حقا، لأنهم استطاعوا بعد كارثة ١٩٦٧ أن يواجهوا المشاكل بشجاعة وواقعية وحب لمصر، لقد أخذوا دروسًا من كل عيوب جيش عبد الحكيم عامر، ولم يترددوا في اتخاذ الإجراءات الناجعة، بل هم بدأوا من جديد في بعض الميادين العسكرية، والنتيجة هي ما نرى والحمد لله ألف حمد، وواضح أن رجال الجيش قاموا بهذا العمل العظيم لأنهم كانوا أعلم بما يريدون وكيف يصلون إليه، وعلى العلم اعتمدوا وسافروا ودرسوا وأرسلوا بعثات وأنشئوا معامل ومراكز

تدريب. وبالعلم تغلبوا على العقبات الإدارية الجامدة، فلمـاذا لا نتعلم منهم؟

* * *

العلم هو الزاد الوحيد الذى ينفعنا فى رحلتنا الراهنة من الفقر إلى اليسر، من الفوضى إلى النظام.. من خسائر المصانع والمشروعـات إلى الكسب. من الـديون إلى الثبـات المالى، من ديمـوقراطيـة الكـلام إلى ديمقراطية العمل، من الحلم بالرخاء إلى العيش الفعلى فى الرخاء. والعلم الذى لدينا الآن قليل جدًّا.

وحقيبة سفرنا إلى الغد ليس فيها إلا ذكريات المجد الماضى: ٧٠٠٠ سنة حضارة وألف سنة أزهر، وثمانون سنة جامعة القاهرة، وخمسون سنة أحمد شوقى.. إلى آخره.. إلى آخره.. كلها شيكات على بنك التاريخ..

والـذى نحتاج إليـه الآن شيكات عـلى بنك الحـاضر وبنـك الغد، والرصيد الوحيد الذى لا ينفد أبدًا هو رصيد العلم الصحيح الذى ينفع، لا علم الشهادات والماجيستيرات والدكتوراه، بهذا الرصيد تستطيع مصر أن تسافر إلى المستقبل آمنة وفى حقيبتها دفتر شيكات على رصيد متين كالطود.

وهنا أيضا يسافر شبابنا إلى الغد بكل المتاع.

مع العقاد وأنيس منصور
فى أعاصير الحياة والفكر

حول شخصية عباس محمود العقاد أدار أنيس منصور تاريخ مصر الفكرى والاجتماعى - والسياسى إلى حد ما - خلال سبعين سنة، هى التى نسميها بعصر العمالقة، دراما عصر كامل حافل بالأفكار والتيارات والمآسى، كتبها أنيس منصور كما عاشها، كتبها ببلاغة الأستاذ وبلاغة الأديب وتبليغ الصحفى، أنشأها بأسلوبه المبتكر المتدفق بالحيوية، المندفع بالأفكار، المتميز بالصدق والحرارة والبيان الممتع، فإلى شجرة العقاد الباسقة الممتدة الفروع كأنها جميزة القرية المصرية التقليدية، كانت أجيال أهل الفكر شبابًا وشيبًا تأوى وتتجمع وتفترق، والأفكار تتلاقى والتيارات تصطرع، وعندما مات العقاد انفض السامر واللاعب، ولكن الرواية لم تتم فصولاً، لأن إعصارًا هائلا عصف بحياة مصر وفكرها، وبقى أنيس منصور ليقص علينا القصة حتى نهايتها، والعملاق العنيد راقد على فراشه يرفض الحياة ويرفض الموت، نسميهم جيل العمالقة.

وتسمية العمالقة لا تعجبنى، لأنها بعض أسماء الهيكسوس، أولئك الرعاة الآسيويون المخربون الذين أغاروا على مصر من أواخر أيام

الأسرة الثانية عشرة، فخربوا مؤسساتها العظيمة، وأوقفوا سير حضارتها مدى مائتين وثمان من السنين، من ١٧٨٨ إلى ١٥٨٠ قبل الميلاد. حتى نهض البطل العظيم أحمس الأول فأخرجهم من مصر، وأسس الأسرة الثامنة عشرة، وعادت مصر تواصل سير حضارتها الخالدة.

وما كان جيل العمالقة الذى يعنيه بجيل رعاة مخربين، إنما هم أحفاد أحمس المحرر العظيم، وهم - كما سنرى - تولوا تخليص مصر من مخربين آخرين هم رجال الاستعمار، وتمكنوا من تطهير أرض مصر، وإيقاظ عبقريتها وإعادتها سيرتها الأولى، مصرية صميمة بانية حضارات.

ولكن لفظ العمالقة مصطلح جرى عليه الناس وأعطوه معنى جديدا، ولا بأس لهذا بأن نأخذ بما يتفق عليه الناس. ما دام ذلك يعين على إيصال ما نريد أن نقوله للناس، وتلك فى النهاية غاية كل صاحب فكر وقلم.

وجيل العمالقة هذا جيل عجيب حقًّا من الموهوبين فى كل فن وباب، ظهر فى مصر على دفعات متوالية من أيام الثورة العرابية سنة ١٨٨١ واستمر خصبًا قويًّا متدفقًا حتى أوائل الخمسينات، وهذا الجيل يتقدمه سعد زغلول العظيم حقًّا، أيقظ مصر وعبقريتها من نوم القرون، وخطا بها إلى عالم الاستقلال والوعى المبارك، وأعادها إلى صفوف الأمم الصاعدة، وفتح لشعبها - ولشعوب العروبة والعالم المظلوم كله - أبواب النهوض والكرامة والعلم والفن والرخاء، وهذا التيار العفى من الموهوبين توقف أو قل تراخى من أوائل الخمسينات من هذا القرن، عندما اجتاح مصر إعصار شبيه بإعصار الهيكسوس: حطم الأشجار وأحرق النخيل وترك الأرض عراء. فأحرقت الشمس النبات، ومصر التى كانت روضًا زاهرًا غنيًّا بالأشجار العالية من كل نوع، أصبحت حتى ثورة التصحيح

فى مايو ١٩٧١ كأنها صحراء جرداء يظلها سكون الموت.. ذهبت الأشجار وحل محلها جبل ثقيل أجرد من الظلم والخوف والطغيان غطى مساحتها كلها.

ويوم بدأت مصر تواصل مسيرتها من جديد فى ظلال الحرية والقانون تبين للناس أن هذا الجبل الهائل الرهيب كان فى حقيقته تلا من تراب، وقد انهار هذا التل وتغطت أرض مصر الطيبة بتراب رمادى كالح، أشبه بالرماد الذى يتخلف عن الحريق والذى نعانيه نحن اليوم - رغم نصر أكتوبر العظيم - هو هذا الرماد القاحل الذى نسير فيه بجهد بالغ، لأن الأقدام تغوص فى رماد الحريق الذى أطفأناه، ولابد لنا من الصبر والجهد والمعاناة حتى نزيل عن أرض مصر هذا الرماد. ويومها سيخضر روض مصر من جديد وتنبت فيه الأشجار العالية وتضرب فى أرضها جذور الحرية والكرامة والعمل - ويومها ستتجلى مصر للدنيا فى كامل بهائها كما كان يتمناها العقاد وجيل العقاد.

* * *

وهذا الكلام ليس مجرد مدخل بلاغى، وإنما هو كلام فى صميم موضوع حديثنا اليوم، فأنا سأتحدث هنا عن شجرة سنديان باسقة فارعة ممتدة الظلال مما كان ينبت فى أرض العقاد الطيبة قبل الثلاثين سنة، هى شجرة عباس محمود العقاد التى بلغت ذروة نمائها عندما هب الإعصار، وكانت سنديانة العقاد تملأ مصر وقلبها بفيض من العبقرية الباهرة، وافرة الثمر من فكر عربى مصرى نفاذ، وعلم صحيح بغير حدود، مع شعور مرهف بعزة الفكر وكرامة صاحب الفكر، والإيمان بالحرية والخير للناس أجمعين. وهل كان العقاد شجرة واحدة وارفة الظلال؟. لقد كان أكثر من ذلك:

كان روضا مترامى الأرجاء، جمع من ثمار الدنيا كلها ما يحير العقل، وقد عرف الناس عنه الكثير، ولكن الذى لم يعرفوه عنه كان أكثر.

فى هذا الروض الشاسع من الموهبة الرفيعة والثقافة الواسعة والعالم الفياض بالغرائب والمتناقضات - روض العقاد - يقودنا رجل من تلاميذه أحبه ولازمه واحتمل متاعب صحبته والحياة معه، علم من أعلام جيل العمالقة الذى نما ودخل طور الإزهار قبل الإعصار، وعاش مع العقاد ما تيسر للعقاد أن يعيشه بعد الإعصار، وأحبه حبًّا ما أظن أن أحدًا أحب العقاد مثله، ودخل حياته كما لم يدخلها أحد مثله، وكاد العقاد فى وقت من الأوقات أن يطويه تحت جناحه، ولكنه ليس من الطراز الذى يرضى أن ينطوى تحت جناح أحد، فقد استقل عنه وأصبح مع الزمن أستاذًا مثله، رفض أن يكون مؤرخًا للعقاد أو شارحًا للعقاد أو داعية له، رفض أن يعيش عمره على كتب العقاد، كما أخطأ عثمان أمين عندما عاش معظم عمره على كتب محمد عبده: رفض - كما قال - أن يأخذ من عمر نفسه ويضيف إلى عمر العقاد، وحسنا فعل، لأن أنيس منصور نفسه عقل مستقل قوى ونفس جميلة جديرة وحدها بأن يعيش مها الإنسان ويستمتع بها، وموهبة قائمة بذاتها مستقلة بخصائصها، وهو شجرة عالية من أواخر ما نبت فى روض العمالقة ونجا بذكاء وقدرة - وقدر من الله - من الإعصار، وأضاف إلى تاريخ الفكر العربى المعاصر لونا جميلا ممتعا من الفن والأدب، وقد كانت تكون خسارة كبرى لو أن أنيس منصور جعل نفسه تابعًا للعقاد أو رجلًا مثل بوزويل الذى دخل تاريخ الأدب الإنجليزى من باب صغير جدا، فقد سجل بوزويل لنا أحاديث شخصية عبقرية كسول من شخوص الأدب الإنجليزى هو الدكتور صمويل جونسون، ولأنيس هنا كلمة جميلة جدًّا قال: ربما كان ذلك أحد

الأسباب التى جعلتنى لا أشارك كثيرًا فى حفلات التأبين والتكريم للأستاذ العقاد، فقد أحسست إحساسًا مبالغًا فيه أننى سوف أتحول إلى قارئ فى مأتم العقاد، وأن قلمى أو حياتى الأدبية والفلسفية سوف ترتبط بالأستاذ العقاد، كلما ذكروا اسمه ذكروا اسمى.. كما حدث قبل ذلك للأستاذ سيد قطب أوسعيد العريان، أو لعدد كبير من تلامذة العقاد.

ومن خصائص كبار الرجال من أمثال العقاد أنهم أنانيون، وأنانيتهم تصل إلى الافتراس، يريدون منك أن تعشقهم وتقف ببابهم فردًا من أفراد حاشية العبقرى، وهم يغارون ويغضبون إذا أنت انصرفت عنهم، لأن فيهم الكثير من خصائص الغانيات: يعجبهن الثناء ويزهيهن الإطراء ويطالبن الناس بأن يهبوهن حياتهم فى مقابل ابتسامات عابرة، ويغضبن على من يفلت من أيديهن دون أن يكون فى قلوبهن أى شعور بالمحبة نحوه، أو الاستعداد للتضحية فى سبيله. وسارة برنارد غضبت أشد الغضب على أناتول فرانس لأنها لقيته فى إحدى حفلات قصر الإليزيه، وأخرجت سيجارة فلم يتبرع بإشعالها لها، ثم أخرج ساعة جيبه ونظر فيها وقال: معذرة يا مدام برنارد فإن لدى موعدًا، والفنانة التى توصف بأنها أشهر ديفا فى التاريخ همست فى أذن صديق لها: يا له من خنزير! وهل هناك موعد فى الدنيا أهم من الوقوف مع سارة برنارد؟!

ومن خلال كلام أنيس منصور تشعر أن العقاد كان يعجبه أن تكون له حاشية ضخمة، بل فى بعض الأحيان تحس أن العقاد كان يعتقد أنه هو الكون كله، وأن الفضاء كله حاشية له.

* * *

وقد أدرك القارئ أنى أحدثه عن كتاب «صالون العقاد» لأنيس

منصور وهو كتاب ضخم فاتن لا أظن أن كتابًا فى الأدب أو الفكر جذب الناس كما جذبهم، لقد قرأته مع الألوف الذين قرءوه عندما نشر منجما على حلقات فى مجلة أكتوبر، وجريت وراء فصوله المتلاحقة التى كانت أمتع مسلسل عرفته فى حياتى، وأكثرها تشويقًا، ثم قرأته كتابا مجتمعا بين دفتين. قرأته مرة ومرات، وفى كل مرة أزداد محبة له وحيرة من أمره، لأنك لا تدرى إن كان هذا الكتاب تاريخا أو ترجمة حياة أو دراسة، إن أنيس منصور يسميه رحلة، وهو يقول إن كتبه كلها رحلات وأسفار: رحلات فى الزمان أو المكان أو الفكر، وأنيس منصور هو أديب الرحلات فى عصرنا. وأنا بعد أن قرأت صالون العقاد ازداد إيمانى بأن أنيس رحالة مفطور على التنقل والترحل، وأن رحلته الكبرى هى حياته نفسها، وهـذا الكتاب - فى نهاية التحليل - وصف لهذه الرحلة، ولكنها فى الحقيقة ليست رحلة إنسان مفرد فى الحياة، إنها رحلة فى عصر كامل، عصر أنيس منصور بكل ما فيه ومن فيه، فهذا شاب مصرى ولد فى المنصورة وبدأ حياته على مثال ما بدأنا كلنا حياتنا نحن الأوساط - بناة تاريخ مصر الحقيقيين - ولكن الله خلقه طلعة قلقا يبحث دائما عن المجهول. والمجهول الأول فى بداية رحلة الكشف هو أنيس منصور، وهـو طوال حيـاته - كـما يتجلى فى الكتاب - يبحث عن نفسه، وهو يجدها مرة وتفلت منه مرات. وفى نهاية الكتاب عندما يموت العقاد ويشيعه أنيس إلى قبره تشعر أنه يتأهب لرحلة أخرى بحثًا عن نفسه مرة أخـرى. والبحث عن النفس دليل صحـة وحيوية. و«جيته» كان يشكو من قلق نفسه وحيرته، فى أولى سنواته فى فايمار حتى لقى الفيلسوف هردر فقال له هذا الرجل: ولماذا تشكو من القلق يابنى ؟! إنه نعمة كبرى، إنه دليل حياة وهو لباب التقدم، والألمان يسمون هذا النوع من القلق المبارك die unruhe ويعتبرونه سر قوتهم.

وفى أثناء بحثه عن نفسه وجد لنا ناسًا كثيرين نحبهم، ونسعد بأن نسمع عنهم كما نسعد بالقراءة لهم، وأنيس فى الغالب يقدم لنا رأى العقاد فيهم أو حكمه عليهم، وقليلا ما يعلق هو على هذا الحكم إذا كانت له بالرجل صلة قوية مثل كلام أنيس عن عبد الرحمن بدوى وهو يحبه ويعجب به ويذكره بكل خير، ولكن العقاد يقول عنه إنه جاهل. ولويس عوض عنده جاهل، وكذلك منصور فهمى ومصطفى صادق الرافعى، وهنا يبدو لنا العقاد هدامًا محطمًا مستهترًا بأقدار الناس إلى حد بعيد، وأحيانا يبدو لنا من خلال رحلة أنيس معه أنه طفل شرير عربيد، وأن الناس عنده لعب ودمى، فهو يهوى عليهم فى قسوة غير معقولة. فليس من الصحيح ولا من الأدب أن يقال عن عبد الرحمن بدوى أو لويس عوض أو منصور فهمى إنهم جهلاء، ونستعمل هنا منطق العقاد نفسه فنقول: جهلاء بماذا يا مولانا؟ إن كل إنسان فى الدنيا عالم بأشياء وجاهل بأشياء، وكل منا عالم جاهل ولا ضير فى ذلك، وإنما الضير فى أن يظن الإنسان أنه عالم بكل شىء، والعقاد نفسه كان يرى أنه عالم بكل شىء بل عليم بكل شىء. وهو فى حساب نفسه لا يخطىء، وكلامه عن الآخرين أحيانًا يأخذ طعمًا مريرًا غير سائغ، وفى الكثير منه ما يؤاخذ عليه العقاد، وليكن رأيك فى جان بول سارتر ما يكون، ولكنك لا تستطيع أن تقول إنه جاهل لا ولا كير كجود أو سيمون دى بوفوار. وهل يدخل فى العقل أن كارل ماركس جاهل؟ ولكن هذا هو العقاد، ينظر إلى الدنيا والناس وكأنه صحب رسول الله فى المعراج ورأى الدنيا وأهلها من السماء السابعة، ورسول الله طلب الرحمة للناس ولكن العقاد بصق عليهم، ولكننا لا نأخذ هذا الموقف من العقاد مأخذ الجد، فما كان الرجل بالشرير ولا المحطم ولا العابث بأقدار الناس، إنما هو رجل أوتى مواهب نادرة،

وصل إلى غايات وآفاق بعيدة بجده وجهده وتعبه وزهد فى خيرات الدنيا كى يصقل عقله ويحول نفسه إلى فكر مجرد، ولهذا فقد كان يغضب إذا كان يرى بعض الناس يصلون إلى ما وصل إليه هو بجهد أقل، وهذا هو إحساسى عندما أقرأ كلامه عن توفيق الحكيم، وتوفيق الحكيم لم يصل إلى ما هو فيه دون تعب ولا جاءته الشهرة وهو نائم. كما حدث مع الشاعر الإنجليزى اللورد بايرون، ولكن تعب كثيرًا وقرأ وجرب وحاول كثيرًا. وعندما استقر فى مكانه واحدًا من أعلام الفكر العربى كان قد خلف وراءه سنوات طويلة من الجهد والتعب، ولكن العقاد لم يره إلا وهو فى مقعده فى شرفة العباقرة فاستاء من ذلك وقال: إنه يكتب وكأنه ينسج التريكو، ونحن لإعجابنا بالعقاد نتحمل منه الكثير، بالضبط كما نفعل مع المتنبى، فقد كان المتنبى مغرورًا تياها سليط اللسان، ولكنه المتنبى، هو أن تأخذه كما هو بحلوه ومره، كما تأخذ الوردة بشوكها أو تدعها، وكذلك الحال مع العقاد.

* * *

هذا الكتاب إذن رحلة طويلة ممتعة مع الفكر المصرى من أيام محمد عبده إلى اليوم، وأنيس منصور عندما قام بهذه الرحلة وجعل العقاد بدايتها ومنتهاها يشبه السندباد الذى كان يطوف الدنيا ويرى الأعاجيب ويتحدث عنها ويعود كل مرة سليمًا معافى إلى البصرة، فالبصرة عند السندباد لم تكن الموضوع ولا القصد، إنما هى الميناء الذى سجل فيه سفينته وحمل علمها ليشق به البحار. وابن بطوطة كانت ميناؤه التى لا يزال يعود إليها هى مكة، يحج ثم يطوف بالدنيا ثم يعود إليها، لأنها مناط حبه وموضع عشقه، كذلك العقاد بالنسبة لأنيس منصور: بداية كل

رحلة ونهايتها، وأنا عندما قرأت هذا الكتاب لم أكتشف العقاد بل اكتشفت أنيس منصور وجيله، وهو جيل قلق متعب بذل الكثير جدًا ليصنع نفسه، وأنا فى صفحات هذه الرحلة أتتبع ذلك الشاب الصغير الذى خرج من المنصورة ليبحث عن حقائق الكون، وفى طريق بحثه عثر على العقاد - أو تعثر فيه - ووجد فيه جامعة كاملة، فأصبح يدرس فى جامعتين: جامعة القاهرة وجامعة العقاد، ولكنه فى حديثه يكشف لنا جامعة ثالثة كان لها الأثر الحاسم فى تكوين نفسه أو صنع نفسه إذا شئت: جامعة الدنيا، وانظر إلى أنيس الطالب الجامعى ثم الأستاذ الشاب وهو حائر بين مركز جمعية الإخوان المسلمين فى إمبابة وصالون العقاد فى مصر الجديد ودير الآباء الدومينيكيين فى شارع مصنع الطرابيش فى العباسية، ودير الفرنسسكان فى الموسكى، واجتماعات الشباب وجمعية المفكرين الأحرار، انظر إلى ذلك كله وسر مع أنيس منصور فى صفحات كتابه تجد أنك قد أخذت أصدق صورة عن الدوامات الفكرية التى تعرض لها أهل الفكر فى مصر خلال الأربعينات والخمسينات والستينات، وأنيس يرينا أن العقاد كان بالفعل قطبًا عظيمًا من أقطاب هذه الحركة الفكرية الواسعة التى كانت زاهرة فى مصر قبل الإعصار وجبل التراب الهائل، وإنك لتتعجب ما الذى كان يدفع أنيس إلى هذه الحركة كلها، والمشوار من إمبابة إلى مصر الجديدة كان عنده «فركة كعب» وهو فى الواقع فركة جسم أو إضناء جسد، ولكن أنيس فى قلقه وبحثه عن المعرفة قام بهذا المشوار أكثر من مرة، بل ذهب إلى شارع محمد على ليلقى شخصًا يهوديا مشبوها يسمى جاك كوهين، وكان يحسب أنه يجد عنده شيئا من الحكمة فلم يجد إلا الضلال، والعقاد نفسه قال له إن هذا اليهودى خدعة كبيرة، ولا ندرى ما الذى رمى بهذا اليهودى على باب العقاد.

والذى تشعر به وأنت تقرأ هو أن العقاد كان مغنطيسًا هائلًا يجتذب نحو نفسه كل صاحب فكر ورأى. وصالونه فى الحقيقة كان مجمعًا فكريًا حقيقيًا تلقّى فيه مفكرين ذوى عقل وحكمة وتصاون ورزانة من أمثال زكى نجيب محمود، وعلى أدهم، وتجد فيه رجالًا وهبوا أنفسهم للعقاد وساروا أقمارا تدور حوله مثل طاهر الجبلاوى، وعبد الرحمن صدقى، وتجد فيه شبابًا حائرًا يطلب المعرفة والحقيقة مثل أنيس منصور وطبقته من المفكرين الأحرار. والرجل كان قارئًا عجيبًا وكان فهامة أعجب، فقد كان يقرأ أعسر الكتب فى وقت لا يصدق.

وكتب كبار الفلاسفة وفطاحل الفكر الغربى والعربى كانت عنده بديهيات، وأنا شخصيًا كنت أعجب بالعقاد وأحبه، ولكنى لم أكن أتحمل مجلسه طويلًا، لأننى كنت لا أستريح للعبته الحبيبة إلى نفسه وهى تحطيم الناس كأنهم قوارير، وفى يوم من الأيام سمعته يقول: إن الأمريكيين سطحيون، وعجبت جدًا من أن عقلا نابها مثل عقل العقاد يصف شعبًا كاملًا تعداده مائتا مليون (إذ ذاك) بأنه سطحى، فاستفسرته عن ذلك ولاحظ أننى أنكر ما قال، وتلك كانت عنده جريمة فقال كلامًا كثيرًا ولكن الله ألهمنى كيف أتقى شر غضبته، وهو نفسه الذى أعطانى مانعة الصواعق، فقد قال فى ختام حديثه: أما زلت معجبًا برعاة البقر يا مولانا؟ فقلت: لا أدرى يا أستاذ، ولكننى أرى فى الأمريكيين الأول شبها لك. فهؤلاء المهاجرون الأول إلى العالم الجديد وصلوا إلى الشاطئ الأمريكى لا يحملون إلا الإيمان والثقة فى النفس وإرادة النجاح والعزيمة على النصر كما وصل العقاد من أسوان إلى القاهرة، وأولئك المهاجرون لم يقنعوا باحتلال شريط من الساحل الشرقى - وكان فيه غناء وكفاية - بل استمروا يزحفون بشجاعة وقوة وعزم حتى وصلوا المحيط الهادى،

بالضبط كما أصر العقاد على أن يحصل ثقافة الدنيا كلها. هم وضعوا قدما على ساحل الأطلسي وأخرى على ساحل المحيط الهادى، كما حمل العقاد علم العرب فى ذراع وعلوم الغرب فى ذراع. فكيف يكونون بهذه الحال ثم يكونون سطحيين؟ وأنت ياسيدى قرأت إعلان الاستقلال ووثيقة الدستور التى كتبها توماس جيفرسون وجون آدامز، وقررا فيها ببساطة تروع النفس ما تنادى أنت به: حرية الإنسان وكرامة الإنسان وحق كل إنسان فى الحياة والأمن وطلب السعادة، واليكسيس دتوكثيل قال: إن أمريكا بلد الغد، لأن أساس مجتمعها هو حرية الإنسان وكرامة الإنسان وأنت يا سيدى تلتقى مع دتوكثيل فى ذلك كله.

ومثل هذا الكلام - لحسن حظّى - نزل بردًا وسلامًا على قلب العقاد، ولم أكن أعرف أنه كان مشتغلا إذ ذاك بتأليف كتابٍ عن توماس جيفرسون طلبته منه مؤسسة فرانكلين، فنظر إلى طويلًا وقال على طريقته: إن وجود عدد من المفكرين بين الأمريكيين لا يتنافى مع كونهم سطحيين، كما أن بيتا واحدًا من الشعر الجيد لم يصنع من على بن الجهم شاعرًا عظيمًا.

وانتقلت كرة الحديث منى إلى غيرى وحمدت الله، وعندما هممت بالانصراف قال لى: ولماذا لا تبقى معنا للغداء يا فلان؟.. إننا لا نأكل شيئًا يذكر ولكنه يكفينا! فشكرته أصدق الشكر وخرجت أحمد الله على السلامة، واعتبرت هذه الدعوة من العقاد أعظم تكريم لى، وقد اعتذرت عنها خوفًا من أن تبدو منى على الطعام كلمة تجعلنى قارورة يحطمها الأستاذ.

قلت لك: إننى قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة، وفى كل مرة أخرج

منه بجديد، لأنه صورة عصر أو قاموس عصر، وكل الفكر الإنسانىّ هنا، وأنيس منصور يعرف كيف يأتيك بلمحات قليلة وألفاظ سريعة كأنها ومضات برق فى ظلام الليل فتهز وجدانك كله وتبعث بك فى آفاق من التفكير بلا نهاية، واقرأ مثلا الحوار الممتع بينه وبين الدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة عن شفاء النفس والإيمان، والمقارنة بين ديكارت والغزالى، وديكارت هو قاعدة الفكر الغربى كله، والغزالى هو محور الإيمان الإسلامى كله، وعندما تقرأ المقال عن المنهج ثم المنقذ من الضلال للغزالى فأنت قد وضعت قدما على ساحل المحيط الأطلسى وأخرى على ساحل المحيط الهادى، وهذا - على صورة ما - ما فعله العقاد وهذا أيضا - على صورة أخرى - ما فعله أنيس منصور عندما جمعا بين فكر الإسلام وفكر الغرب، وفكر الإسلام إيمان مثل إيمان الغزالى. وفكر الغرب عقل مثل عقل ديكارت.

* * *

هذا ليس كتابًا واحدًا بل هو مكتبة حافلة ودنيا كاملة. دنيا شاب باحث عن النفس والحق والحرية والعلم وكل ما له قيمة فى الحياة، وأنا فى سعيى فى الحياة أشبهت أنيس منصور فى بعض متاعبه، ولكنى لم أبذل هذا الجهد البالغ، ولهذا فإننى أحببت كل لحظة من تلك الحياة التى عاشها ووصفها فى كتاب العقاد أجمل وصف وأحسنه، وأنا مثله رحالة ولكنى لم أطف بالدنيا فى مائتى يوم بل فى سبعين سنة، والمهم أننا تلاقينا فى الحياة والعمل والفكر والمحبة وفى كل ما هو جميل فى هذه الحياة، وتلاقينا فى صالون العقاد، ولم أكن من رواد الصالون، ولكن أنيس منصور أحسنٍ تعويضى عن ذلك. ولقد جعل العقاد محور بحثه عن الحق والحكمة وحسنًا

فعل، لأن العقاد رغم ما يبدو من عنفه وتعاليه كان إنسانًا رقيقًا جدًا وحساسًا جدًا، وكان زاهدًا فى كل لطائف الدنيا عدا الفكر والحرية والكرامة الإنسانية وتلك كانت معبودته أو آلهته الثلاثة، وكان العقاد يستطيع أن يصل إلى الوزارة والباشوية وكل ما حفى فى سبيله منصور فهمى وطه حسين، وطه حسين شابت صفاء نفسه الوزارة وأضرت بفكره الباشوية، لأنهما أدخلاه فى دوامة السياسة والمطامع، أما العقاد فقد خاض معركة السياسة والدفاع عن وطنه معظم سنوات شبابه وكهولته، فقد كان كاتب الوفد الأول، وأعظم المدافعين عن الحرية، وكان أعلى شجرة فى غابة العمالقة بعد سعد زغلول. وسعد زغلولهو الرجل الوحيد الذى أحبه واحترمه عباس محمود العقاد، وعباس العقاد كان فيرجيل الذى قاد أنيس منصور فى المطهر، وكان أيضًا بياتريس فى زيارته للفردوس، وكتاب صالون العقاد كوميديا إلهية من طراز فريد، ومهما أحدثك عنه فما أنا ببالغ منه ما أريد، فما رأيك فى أن تحسن إلى نفسك وتعود معى إلى قراءة هذا الكتاب الممتع المحير، المتعب المريح، الحلو المر، القديم الجديد، الطويل القصير؟.

المواطن والقالب والحذاء الضيق

من تقاليدنا التاريخية التى نرعاها بالعناية البالغة أننا نستقبل الحكام وولاة الأمور الجدد بالهتاف وأشعار المديح والخطب، ونودعهم عند الموت أو العزل بالإهمال ثم النسيان، ولا بأس بما يتيسر من اللعنات وقلة الأدب والحياء.

وهذا التقليد الكريم يصوره لنا الشيخ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكى، صاحب طبقات الشافعية الكبرى، فى كلامه عن عزل أحد القضاة وتولية خلف له، فقد صدر قرار السلطان بعزل القاضى وتولية خلفه، وهو فى الطريق إلى بيته فى موكب حافل يحف به الناس والخدم والحشم، وكلهم يدعون لمولانا القاضى ويحملون له الهدايا يوصلونها إلى بيته، وفى الطريق التقى موكب القاضى القديم بموكب القاضى الجديد ويعرف الناس الخبر، فتحول كل رفقاء القاضى القديم بدعواتهم وهداياهم إلى موكب القاضى الجديد، وتركوا القاضى القديم نفسه وحيدا على بغلته، وواصل السير حزينًا كئيبا، فإذا هو فى طريقه هتف به رجل جاء يعدو خلفه: البغلة يامولانا.

أى بغلة؟

- بغلة مولانا القاضى.

- وفهمها الشيخ فترجل عن البغلة وسلمها للرجل وسار على رجليه أشد كآبة، وعندما مر بالفرن لم يجد الفران فى انتظاره على العادة برغيف مولانا القاضى، ورغيف مولانا القاضى كان رغيفاً عظيماً قطره متر، وكانت العادة أن يسير به الفران على صينية عظيمة يحملها على رأسه خلف القاضى، حتى يوصله بنفسه إلى البيت ولسانه يلهج بالدعوات، وهذا الفران كان متعهد توريد خبز الجرايات للمشايخ الكبار وعلى رأسهم القاضى، ووقف القاضى أمام الفرن فقال له الفران:

- عاوز إيه ياسيدنا الشيخ؟

وسيدنا الشيخ نظر إلى الفران، ثم انحنى على قفص خبز وأخذ ما أراد ونقد الرجل الثمن، ووضع الخبز تحت إبطه وسار.

وهتف به الفران:

- خذ نقودك ياسيدنا الشيخ، فإننى لا آخذ المال الحرام ولا أدخله بيتى.

فنظر إليه القاضى وقال:

- الآن فقط عرفت أن مالى حرام!

وهذه التقاليد العظيمة من النفاق والرياء والأدب وقلة الأدب، هى جانب من القوالب الأخلاقية والسلوكية التى ورثناها عن عصور الظلم والنهب والفوضى السياسية والاجتماعية التى عشناها فى تاريخنا الطويل.

ولكننا - لس غير مفهوم - ننسى هذا التقليد عندما نشيع جنائز الجلادين من حكامنا، فعندما مات خمارويه بن أحمد بن طولون وكان مثل أبيه طاغية صغيراً ولصًّا كبيراً، خرجت نسوان مصر كما يقول

أبو المحاسن فى «النجوم الزاهرة» يولولن ويلطمن الخدود كأن كلًا منهن فقدت ابنًا عزيزًا، وخمارويه هذا أخذ فى إحدى سنوات حكمه غير السعيد كل أموال مصر، وأنفقها فى تزويج ابنته قطر الندى من ابن عدوه اللدود خليفة المسلمين فى بغداد، وكان جهاز العروس مائة هاون من الذهب، وبنى لها خمارويه بيتًا تنام فيه كل مرحلة من مراحل الطريق، والمرحلة بين ٣٥ و ٤٠ كيلومترا، فاحسب أنت عدد القصور، وكل هذه الأموال نهبت من المصريين وجمعت بالضرب بالسياط، وكان أبوه أحمد بن طولون إذا سمع أن رجلًا يملك ألف دينار أخذها وهدم داره بحثًا عن ألف دينار أخرى، وحبسه تحت الأرض حتى يدفع ألفًا ثالثة.

وشىء شبيه بذلك حدث عندما عزل الخديو إسماعيل بأمر السلطان العثمانى عبد الحميد فى ٣٠ يونيو ١٨٧٩، فقد خرج موكبه من قصر عابدين إلى محطة مصر. وفى ميدان المحطة وقف ألوف الناس يودعون الطاغية بالمناديل والدموع، وازدحم فناء المحطة بالعربات وفيها السيدات المحجبات من نساء الأسرة وحريم الباشوات يسكبن الدموع الرخيصة على الحاكم المنفى الرخيص.

وفى الاسكندرية ازدحم الناس فى الطريق إلى الميناء حتى سدوا الطريق، والخديو المعزول سار موكبه فى الطرق الخلفية حيث وقفت بنات بحرى فى النوافذ يولولن على إسماعيل، وليس فى ذراع واحدة منهن أو فى أذنها قطعة ذهب، لأن إسراف إسماعيل وظلمه جردهن كما جرد أزواجهن من كل شىء له قيمة، وإسماعيل الذى كن يبكينه ركب لنشاً تتبعه ٢٩ لنشا أخرى تحمله هو ومن معه ومتاعه وذخائره إلى اليخت المحروسة، ومن بين تلك الذخائر ثمانية ملايين من الجنيهات الذهبية

الإنجليزية، والرجل الذى خرج بذلك المال المسروق كله خاف أن يذهب إلى منفاه فى بروسة تجاه استامبول، لأنه لو وصل إلى هناك بهذا المال فسيقتله السلطان حتمًا ويأخذ أمواله. وهذا أيضًا قالب سلوكى سلطانى قديم، والخديو توفيق الذى خلف أباه قال فى أول مجلس وزراء عقده بعد توليته: أما خطر بباله أن يترك لنا مليونا منها نستعين بها على أزمتنا الراهنة، واليخت المحروسة ذهبت بإسماعيل إلى جنوة.

وإسماعيل هذا الذى بكيناه واحتشدنا لوداعه جعل مصر منذ ولايته سنة ١٨٦٣ ضيعة واحدة، يملك هو تسعين فى المائة من أرضها، وثمانية فى المائة من الباقى ملكته الأسرة الخديوية، والباقى وقدره اثنان فى المائة يملكه شعب مصر كله، وكان هو التاجر الوحيد: يشترى القطن والمحاصيل الزراعية بالملاليم ويبيع بالجنيهات، وكان الخديو سعيد يصدر من محاصيل مصر بما يقدر بثلاثة ملايين ونصف من الجنيهات الإنجليزية فى السنة، فجاء إسماعيل فارتفعت قيمة الصادرات فى أيامه إلى ١٤ مليون جنيه فى السنة، ثم زادت ابتداء من ١٨٧٠ إلى ثمانية عشر مليونا، وكان هو التاجر المصدر الوحيد، واشتهر أمره فى الدنيا بأنه أغنى أهل الأرض جميعا، فى الوقت الذى فيه أجمعت أقوال زوار مصر جميعًا على أن الفلاح المصرى كان من أفقر أهل الأرض، ومن غرائب ما يؤلم النفس أن تقرأ فى كتاب «أدمون أبو» عن مصر إسماعيل أن أحد ضيوف إسماعيل من الفرنسيين قال بعد أن ملأ بطنه فى إحدى ولائم إسماعيل: الآن أكلت طعام ثلاثين فلاحًا مصريًا فى شهرين.

وهذا الغنى الفاحش اقترن ببخل مهين، فقد كان ضنينًا بماله، كريما من أموال مصر، مثله فى ذلك مثل فؤاد وفاروق. وعندما أحس إسماعيل بهذا

الغنى اختل توازنه، وأصابه عمى البصيرة فلم يعد يعرف قدر نفسهوظن أنه من أكبر ملوك الدنيا، وأسرع إليه الأفاقون من نواحى الأرض جميعا يتقدمون بمشاريع لتحويل مصر من قطعة من أفريقية إلى قطعة من أوربا، والباشا ينشئ السكك الحديدية ومكاتب التلغراف ومصانع السكر من أموال مصر لا من ماله، ولكن الحصيلة كلها تذهب إلى خزائنه، وله على كل شيء عمولة، فحفلت مصر بالأفاقين واللصوص والفاسدين والفاسدات من كل صنف، لأن باشا مصر وتاجرها الوحيد، كان مستعدا للدخول فى أى مغامرة مالية تحت ستار نقل مصر إلى أوربا، ومال مصر نفد، فانصرف إلى الديون. والخديو سعيد ترك مصر مدينة بأكثر من ستة عشر مليونا من الجنيهات، فوصلت فى أواخر حكم إسماعيل إلى مائة وستين مليونا، وألوف الأوربيين من المغامرين وفدوا على مصر فى بذلات ممزقة وقبعات قش، وغادروها سادة عظامًا بالفراك والقبعة السيلندر العالية، وألوف المصريين الذين كانوا مساتير أول عصر إسماعيل أصبحوا متسولين فى آخر أيامه، وهذا من ذاك، وكل ما استورده إسماعيل للبذخ والتباهى تلاشى بعد عزله بقليل، وكل ما حمله الأوربيون من صناعات الغرب وفنونه احتفظ بها شعب مصر، لأن شعب مصر الفقير مالاً كان أغنى قلبًا وحضارة من إسماعيل الغنى، وشعب مصر كان غنيًا بعلمائه، ولكن إسماعيل الذى أراد أن يقود ركب الحضارة المصرية كان أقرب ما يكون إلى الأمية: كان لا يقرأ العربية ولا يكتبها، وكان يتكلم تركية محطمة يضحك منها سامعوه من الأتراك، وفى ذات مرة عجز السلطان عبد العزيز عن فهم كلام إسماعيل بالتركية فعينوا مترجما يترجم تركية إسماعيل إلى تركية السلطان، أما الفرنسية فكان يتكلمها بلغة الشيالين، ويكتبها بخط الأطفال، وقد حكى حوذى (عربجى)

إنجليزى كان يعمل فى خدمة إسماعيل، أنه كان يقرأ الصفحة الواحدة من القصص الفرنسى فى نصف ساعة، ونادرًا ما صبر على قراءة صفحتين، والغنى الفاحش عند الحكام مع الفقر المدقع عند المحكومين، قالب سلوكى سياسى توارثه حكامنا فى كل بلادنا.

ومن بين ما جلبه الخواجات المغامرون إلى مصر خلال عصر إسماعيل، عروسة المولد للبنات والحصان الحلاوة بفارسه للأولاد. ذلك أن عروسة المولد التى نحسبها من صميم الفن الشعبى عندنا إيطالية جلبها إلى مصر الإيطاليين والصقليين، الذين وفدوا علينا يطلبون الكسب بأى طريق. وفى البلاد التى أتوا منها كان الناس يصنعون هذه الدمى السكرية فى مناسبات الأعياد وموالد القديسين، وكان المصريون - شأنهم فى ذلك شأن بقية العرب والمسلمين - لا يعرفون لعب الأطفال، لأن الطفل لم يكن له فى حياتهم وجود، والطفل كما نعرفه نحن اليوم إنسان قائم بذاته يجتاز مرحلة لها خصائصها الجسمية والخلقية والنفسية، لا وجود له فى حضارتنا، إنما هو عندنا رجل صغير أو امرأة صغيرة، وواجبنا أن ندفعه دفعًا لكى يصبح رجلًا أو امرأة بأسرع ما نستطيع، ولهذا فقد كنا نعامل الطفل معاملة رجل، فنحرم عليه اللعب والجرى والضحك، ونطالبه بأن يكون وقورًا عاقلًا ساكنًا مؤدبًا، وتاريخنا الحضارى لم يعرف شيئا اسمه ملابس الأطفال، وإنما هى ملابس الرجال والنساء فى مقاس صغير، والفلاح المصرى الطفل يلبس نفس الجلباب ويدخل رأسه فى نفس اللبدة الشائكة التى تكتم أنفاس مخه وتجعله يبدو مخلوقًا مضحكًا، فلا هو طفل ولا هو رجل، والبنت تلبس نفس جلباب أمها وتعصب رأسها بنفس المنديل، ومن سن الثانية عشرة يزوجونها وتصبح امرأة، وكل كيانها وعقلها كيان صبية أو طفلة وعقلها. والزوج - وهو فى الغالب صبى

صغير - يريد أن يتعامل معها على أنها امرأة، فتكون النتيجة أننا نصنع كوارث لازيجات، والمسكينة قد تحمل وتلد وهى بعد طفلة، وقد تطلق وتعرف ذل الطلاق وهى بعد «عيلة»، وهذا كله كان يجرى ولايزال، وهو جزء من الأمية المطلقة التى نعيشها، لأن أميتنا ليست أمية قراءة وكتابة فحسب، ولكنها أمية حياة وتربية وسلوك، إن شكل الحياة كلها أمى، لهذا لا عجب أن تجد عندنا مواطنين يحملون شهادات وهم أميون. والأطباء المصريون هم الوحيدون فى العالم المتحضر الذين يعينون محصلا للأتعاب ويسمونه ممرضا، ويأخذون الأجر قبل الكشف فضلا عن العلاج، لأن الأجر أو الأتعاب مقدمة عندهم على العلاج، وهذا ناشىء من أنهم أميون فى الإحساس والموقف من الحياة، لأن الطبيب الحقيقى يقدم العلاج على الأجر، لأنه طبيب أولا وطبيب آخرًا، ولا خوف على الأتعاب أبدًا، وفى أوربا كلها وأمريكا أيضًا تدخل وتكشف أولا، وفى خروجك تقدم لك الممرضة مطالبة مطبوعة تدفع بمقتضاها، وإذا كان الذى يعالجك هو طبيبك فإن المطالبة المالية تأتيك بعد ذلك بشهور. أقول إننا لم نكن نعرف فى الأعياد والموالد إلا بعض أصناف الحلوى مثل الحمصية والسمسمية فجاء هؤلاء الإيطاليون وسألوا إن كان لدينا هنا شىء يشبه عيد الميلاد أو ما يسمونه بلغتهم ناتاليا، فقيل لهم عندنا مولد النبى، فأتوا بالقوالب وصنعوا عرايس المولد وأحصنته، فأما العرايس فهى فى صور النساء الأوربيات فى القرن الماضى بما فى ذلك الكورسيت والجوبون الواسع المحمول على قفص من الخيزران، ثم من الحديد بعد ذلك، مثبت فى الوسط والصدر، وتزين العروسة بعد ذلك بالمروحة الأسبانية والتاج أو التيارا على الرأس، وهى دائما تضع يديها فى خصرها، فلا يمكن أبدًا أن تجد عروسة تضع يديها بصورة أخرى، لأننا هنا محكومون بالقالب الذى

أتى به الإيطاليون إلينا.

أما الحصان وفارسه فهو الفارس الأوربى بحصانه وسيفه، وقبل خمسين سنة كانت عرائس المولد وأحصنته تصنع بصورة أجمل وأحسن، ولكننا نستعمل نفس القوالب بلا أدنى تغيير جيلاً بعد جيل.

ثم تجد بعض من يتكلمون فى الفن الشعبى يقولون لك: إن عروسة المولد ترجع إلى العصر الفاطمى وهذا خطأ فادح، فما عرف المسلمون فن النحت إلا فى نطاق ضيق جدًّا فى زخارف الحوائط والصناديق الصغيرة وزينة الحدائق، وأرقى ما وصل إليه فن النحت عندنا هو تمثال العنقاء البرونزى الذى يرجع إلى العصر الفاطمى فعلاً، وهو تمثال بغيض شائه، كل قيمته تاريخية لا فنية ولا جمالية، ومثله فى ذلك مثل أسود بهو السباع فى غرناطة، فهى أسود قبيحة بدائية، وهى الشىء الوحيد القبيح فى قصور الحمراء، ويليها فى القبح صور سلاطين غرناطة، أقصد صورهم الأخلاقية والإنسانية، فباستثناء محمد بن نصر بن الأحمر منشئ دولة غرناطة وسلطان ثان يسمى أبا الحجاج يوسف الغنى بالله لا نجد أمامنا إلا سفاحين ولصوصًا.

أقول إننا أخذنا قوالب السنيوريتا لأولادنا، وظللنا نقلدها حتى اليوم، لأننا نحب القوالب، وقد بقى لنا من الأصل الإيطالى -إلى جانب الشكل المشوه- لفظ السنيورة، وهو لفظ Signoha الإيطالى فنحن نقول إن فلانة جميلة كأنها سنيورة، واستعارة هذا اللفظ للمرأة الجميلة يدل على أننا فى القرن الماضى، رأينا النساء الأوربيات أجمل من نسائنا بمراحل، ولهذا وصفنا الجميلة بأنها سنيورة..

ومن أمثلة ما أتانا به الخواجات فى ذلك العصر صندوق الدنيا، واسمه

الحقيقى السفيرة عزيزة، وفقراء الإيطاليين أتوا بلادنا بالسفيرة عزيزة، ذلك الصندوق ذو المنـظارين المكبرين، وأهم مـاكنا نـرى فيه صـورة السفيرة عزيزة نفسها وهى امرأة بيضاء سمينـة وجميلة بمفهوم العصـر مضطجعة على أريكة والصورة نفسها إيطالية، وكذلك اسمها، فالسفيرة هى La Seuera ومعناها القاسية، وكل امرأة جميلة يتغزل فيها النـاس ويصفونها بأنها قاسية أو عزيزة المنال أو عزيزة فحسب. والإيطاليـون سموها «لاسفيرا أزيزا» وأخذناها منهم، وقد اغتنى الفقراء الإيطاليون الذين أتوا إلى مصر يتسولون بالسفيرة عزيزة وأصبحوا أصحاب مقاه أو فنادق أو حانات. وورثنا عنهم صناديق الفقر هذه جعلناها شغلانة ومادة حياة، وألوف المصريين عاشوا حتى بلغوا أرذل العمر وهم يحملون على ظهورهم صندوق السفيرة عزيزة واتفرج ياسلام، عـزيزة خـارجة من الحمام.

وتمثال السنيورة الذى تحول إلى عروسة المولد، وصندوق الدنيا أو السفيرة عزيزة مثالان من حبنا للقوالب وتمسكنـا بها، لأننـا نحب أن نصـوغ كل شيء فى قـوالب، فالعلم عنـدنا قـوالب، والفن قـوالب، والوظائف قوالب، وحياتنا كلها قوالب.

وأكبر ما يصور لك القالبية فى تاريخنا وحياتنا أن الدول الإسلامية كلها مقاسات مختلفة لقالب سياسى واحد يتكون من أربعـة عناصـر: الخليفة أو السلطان، ثم الوزير وهو فى نفس الوقت جابى الضرائب، ثم السياف الذى يقطع الرقاب وهو رمز القانون وتطبيق القانون فى تاريخنا، وأخيرا الجندى المرتزق الذى يضرب أهـل البلد أو يجلدهم ليخضعهم للسلطان، وينتهى أمره دائما ووفقًا للقالب بأن يضرب الخليفة أو السلطان نفسه أو يحل محله ويصبح هو السلطان، كما حدث فى العصر المملوكى.

والمملوكية هي الصورة الأخيرة لقوالب الحكم والسياسة فى كل دولنا، فالخليفة أو السلطان يشترى المماليك ليضرب بهم الناس، وفى وقت من الأوقات يتبين المملوك أنه أداة قوة الخليفة أو السلطان، وما دام هو أداة القوة فهو القوة، وما دام هو القوة فليحكم بنفسه، لأن الخليفة يصبح بالضرورة طفيليا أو زائدة دودية، وتاريخ الدول الإسلامية كلها لا يخرج عن هذا القالب الجامد، فالدولة الأموية هى العباسية وهى الفاطمية والعثمانية، وفى تاريخ مصر بالذات تصل القالبية التاريخية إلى ذروتها، فالدول الطولونية، والإخشيدية، والفاطمية، والأيوبية والمملوكية، والعثمانية، كلها نفس الشيء، كلها مقاسات مختلفة لنفس الحذاء، وأحمد بن طولون هو محمد بن طغج الإخشيد، وهو المعز لدين الله، وهو صلاح الدين، والمعز عزالدين أيبك أول سلاطين المماليك البحرية، وهو الظاهر سيف الدين برقوق، أول سلاطين المماليك البرجية، كلهم نفس الرجل كل واحد منهم أقام نفس الدولة وصبها فى نفس القالب، كلهم حذاء واحد بمقاس مختلف، وكلها أحذية ضيقة تؤلم لابسها ثم تعوقه عن المسير وتجمده فى مكانه، ولابسها هو الإنسان المصرى الذى أرغموه طوال تاريخه على لبس الأحذية الضيقة حتى اعتادها ولبسها ووقف فى مكانه ساكنا جامدا، لأن المسير بالحذاء الضيق مؤلم وفى مكانه هذا تجمد أو تخشب أربعة عشر قرنا، وجاء الغزو السياسى والحضارى الغربى فحطم القوالب القديمة، وبدأنا نتخلص من القالبية، ولكن الكثيرين جدا منا يبكون عصور القوالب وينادون بالعودة إليها والدخول فيها، ويقولون إن هذه تقاليدنا الأصيلة، وهذه هى عصور السلف الصالح.

ومن أغرب مظاهر القالبية السياسية أننا قبل الثورة كنا نقول إن الحياة الدستورية معناها القالب الوفدى، فالحكومة الدستورية لابد أن

تكون وفدية وإلا فهى ليست دستورية، وقد كان هذا صحيحا فى الماضى ولكن أعجب ما ترى من التمسك بالقالبية السياسية، هو أن بعضنا يرى أن حياتنا اليوم أصبحت دستورية ديمقراطية فقالوا دستورية؟ إذن فلابد أن ندخل القالب الوفدى، ونقول لهم يا أصحابنا إن هذا القالب عتيق وضيق ولم يعد يصلح، إن الزمان تغير. ما كان يصلح فى الأربعينات لا يصلح للثمانينات، ومصطفى النحاس يمكن أن يحكم مصر من قبره، فيكون الجواب: ولكن القالب مازال عندنا ومادام عندنا فلابد أن نصب عليه، والدستورية معناها الوفدية، وما دامت هناك انتخابات حرة فمعناها دستور ٢٣ ومعناها الوفد..

ومهما تناقش فلا فائدة، لأن الحكم هنا للقالب، وما دام هذا القالب موجودًا فلابد أن تدخل فيه مهما كان ضيقًا أو باليًا فلابد أن ننحشر فيه، وإلا فنكون قد خالفنا الأصول وحكمنا بشرع خارج المعقول والمنقول..

والمتخصصون فى علم الإنسان أو الانثرولوبوجية أولئك الذين يدرسون الإنسان وتطوره، وتاريخه، يقولون إن الطفل من ساعة أن يولد يبدأ فى الدخول فى القالب الاجتماعى والحضارى لقومه ومجتمعه، ولكنه بسبب طفولته وقصور إدراكه لا يخضع لقوالب الجماعة حتى يبدأ فى الإدراك، والفهم الواعى لما حوله فى سن الخامسة، ولهذا يكون الإنسان فى الطفولة حرًا طليقًا غير مقيد بتقاليد الجماعة حتى هذه السن، وبعد ذلك، وحتى سن العاشرة تقريبا يدخل شيئًا فشيئًا فى قالب جماعته ويحصل كل ثقافة قومه، فيفكر كما يفكرون ويلبس كما يلبسون ويتصرف كما يتصرفون، ويستوعب شيئا فشيئا كل المعلومات والمعارف العامة التى يعيش عليها أهله، ولكنه حتى هذه السن يظل حرًا طليقًا لطيفًا يتصرف

على سجيته ولأنه يتصرف على سجيته فإن ذكاءه ينمو نموًّا سريعًا حرًّا، ويلاحظ أن الإنسان المصرى يكون على طبيعته فى أحسن صوره حتى دون العاشرة، وهذا هو السر فى أن الأولاد المصريين يكونون فى أعلى درجات ذكائهم وقدرتهم على الابتكار واللعب وحب المغامرة حتى العاشرة..

وفى المجتمعات المتقدمة التى تفهم ما هى التربية وتعرف قدر الإنسان، وتجتهد فى المحافظة على شخصية الإنسان وشعوره بالحرية وقدرته على الابتكار وإقدامه على المغامرة يقولون لك: حذار أن تحاول فى سنوات التربية والتعليم أن تضغط على الصبى أو الصبية وتقسرهما على الدخول فى القالب، وقد قمت بالتدريس فى مدرسة ابتدائية سويسرية لمدة سنتين بعد حصولى على الدكتوراه، وكانت القاعدة الأساسية فى التعليم فى تلك المرحلة هناك: حذار أن تتدخل فى شخصية الصبى أو الصبية، التربية تكون بالقدوة، وعليك أن تتصرف أمام الولد التصرف السليم، ودعه يتبعك دون أن تدفعه، مثال ذلك: لاتحتد على الصبى ولا ترفع صوتك فى مخاطبة الأولاد وتكلم دائمًا فى هدوء وضبط نفس وصوت هادىء، إذا كنت غاضبًا فلا تنهر الولد أبدًا، وإذا وجدت أنه يميل إلى التمرد والعصيان والخروج عن الخط فقل لناظر المدرسة، فقد يكون ذلك لأسباب خارجة عن طبيعته ولا يد له فيها، قد تكون ظروفه العائلية غير ملائمة، قد يكون المثال الذى يراه أمامه فى البيت هو المسئول، وفى هذه الحالة لابد أن تتدخل المدرسة كلها، لأن المدرسة ومجلس المدرسين يمثل المجتمع بصورة هى أصدق مما تمثله أنت.

والأولاد هناك مثل الأولاد هنا: نشاطهم واسع وحيويتهم دافقة،

وخيالهم فسيح، وسلطانهم على أنفسهم قليل، ولكنهم يرون البيت هادئًا ساكنًا نظيفًا مرتبًا، والطريق إلى المدرسة آمنًا مريحًا، والمدرسة جميلة فسيحة نظيفة حافلة بالخضرة، والمدرسون دائمًا فى صورة محترمة يتحدثون بصوت خفيض، وهم لا يعرفون الشجار أو الصخب أو الضجيج، والتلميذ الصغير يدخل فى القالب فى رفق ودون أن يشعر بثقل وطأة المجتمع عليه، فتظل شخصيته سليمة لا تتحطم، وتنمو معارفه وينمو معها طموحه، لأن المجتمع حافظ له على طموحه، وطوال السنتين لم أشعر بأن هناك امتحانات، إنما نحن نراقب الأولاد والبنات وندرس لهم وندرسهم فى نفس الوقت، ولكل ولد أو بنت صفحة فى دفترنا الخاص، وفى منتصف العام نجتمع ونتذاكر فى أمر أولادنا واحدًا واحدًا فتكون لدينا صورة عن كل منهم، وما نلاحظه من علامات الانحراف أو التخلف أو الكسل أو الإهمال، ونتصل بالأسرة ونخاطب الأب والأم ونعرض الصورة، والصورة تتحسن شيئًا فشيئًا حتى آخر العام، وفى نهاية المرحلة الابتدائية تكون المدرسة مع البيت قد عرفت ملكات الصبى واتجاهاته، وفى المرحلة الوسطى وهى تعادل الإعدادية والثانوية عندنا تتحدد الاتجاهات والملكات والخصائص، ودون غضب أو إصرار أو تحكم يواصل عدد قليل من الأولاد التعليم الثانوى ويدخلون الجامعة، أما الباقى فيؤدون فى السنة الخامسة من المرحلة المتوسطة امتحانًا يسمى النضوج المتوسط Mltt Lerereife ويتجهون بعد ذلك إلى التعليم المهنى التدريبى، أى فى الاتجاه الحرفى الذى يميلون إليه بكل أنواعه ومستوياته، والاتجاه إلى الحرفية لا يعنى تخصصًا أدنى لا على الصعيد الاجتماعى ولا المالى، وأعرف طالبين أخوين من أسرة متوسطة الحال، دخل واحد منهما مدرسة السكرتارية، ودرس كل الشئون الإدارية التنفيذية وأتقن الآلة الكاتبة

والاختزال، وأخوه دخل كلية الهندسة وأصبـح مهندسًـا، ومن سنوات قرأت أن الذى دخل مدرسة السكرتـارية وصـل إلى منصب عضو فى حكومة الكانتون أو المحافظة ثم أصبح رئيسا لحكومة كانتون زيوريخ، وأخوه أصبح فى نفس الوقت مهندسًا محترمًا، والاثنان دخلا فى القالب السويسرى الذى نعرفه جميعًا دون ضغط أو إرغام أو تحطيم شخصيته أو إضرار المجتمع.

قارن هذه الصورة بما كان لابد أن يحـدث لصبيين أخـوين عندنـا لا يكاد الواحد منهما يصل إلى سن الإدراك، حتى تبدأ عملية القولبة، والتربية عندنا زجر وضرب وإهانة وإرغام على المذاكرة، والأب جلاد رحيم، والمدرس جلاد غير رحيم، والمجتمع ممثلاً فى الشارع والمواصلات والمدرسة جلاد رهيب، والثلاثة يحطمون المصرى الصغير ويطحنونه طحنًا، ويصبح بودرة أو مسحوق إنسان أو إنسان بودرة، والبودرة توضـع فى القالب، ويصب عليها الماء وتعجن وتتجمد فى الشكل الذى نريد. البيت قالب رهيب ليس فيه إلا الشجار والصراخ والفوضى والضرب، ثم يجىء التليفزيون فيقضى على البقية الباقية، وهو من هذه الناحية تحول إلى قالب رهيب، الطفل الصغير يرى المسلسل ويفهم منه أن الحياة تتكون من قوالب أو مراحل يلى بعضها بعضًا، فهو بعد أن يتحول إلى بودرة يدخل فى قوالب الابتدائى، ثم الاعدادى، ثم الثانوى، ثم الجامعة، وكل الأولاد لابد أن يدخلوا نفس القوالب، والمسكين الذى لا يريد أن يدخل فى قالب المدرسة الثانوية أو قالب الجامعة ولد خايب لا أمل فيه وهو شرير الرواية أى عدو المجتمع، وربما كان فى صميمها فى مستوى خيرة المواطنين. وأميل زولا وبرنارد شو وبيرم التونسى كانوا جميعًا أولادا مش نافعين، وسواقط امتحانات، وبعد الليسانس أوالدبلوم أوالبكالوريوس

تدخل فى قالب الماجستير ثم الدكتوراه، كل الأولاد لابد أن يحصلوا على الماجستير والدكتوراه، حتى الرقص والتمريض وأعمال الفنادق لها ماجستير ودكتوراه، وبعد الدكتوراه لابد من الزواج السريع وبعد ذلك لابد من الشقة وقبلها لابد من الوظيفة، ووسائل الإعلام تقول إن كل طفل يولد على أرض مصر له مكان فى الماجستير والدكتوراه، ولابد أن يتزوج بمجرد التخرج، والدولة تلزم نفسها بأن توجد له سكنا، والترقية حق لكل موظف لأنها قالب لابد أن يدخله الإنسان، والعلاوة تمنح للمجتهد والكسلان والذكى والأقل ذكاء، ما دام له فم يأكل فلابد من العلاوة والترقية، ودرجة مدير عام لم يعد لها أى صلة بالإدارة، لأنها مسألة أكل عيش، وهناك ممثلون فى المسارح الهزلية حصلوا على درجة مدير عام. بل وكيل وزارة، لأن وكالة الوزارة قالب لابد من الدخول، فيه والحياة كلها قوالب من سن السادسة إلى الوفاة، حياتك رحلة بين قوالب تخرج من قالب وتدخل فى قالب، والذى يرفض الدخول فى القالب ويشكو من الحذاء الضيق مواطن خائب غير صالح وخارج على النظام وأحيانا كافر زنديق.

جامعة القاهرة والخروج
من عصر تكية السلطان

فى القسم الأول من هـذا المقال تـرى كيف أن جامعـة القـاهـرة استطاعت قبل أن تدخل فى عصر الثلوج وتخريج الطلاب بالجملة كأنهم أرغفة تخرج من مخبز آلى، استطاعت أن تقيم صرح الحضارة المصرية الراهنة بكل أعلامه.

وفى قسمه الثانى ترى كيف تستطيع جامعة القاهرة الخروج من عصر الثلوج والتدهور، وإيقاف كارثة القبول بالجملة والتخريج بالجملة، ومنح الدرجات العلمية بعد مناقشات صورية، والبخل الشديد على كل أدوات العلم: المكتبات والمعامل، ومعاهد التخصص، وتعيين المعيدين بخطابات التكليف، وترقيتهم بعد ذلك على أساس المجاملة وأكل العيش، والنظر إلى الجامعة على أنها تكية سلطانية يحصل الدراويش التنابلة على كل شىء فيها ببلاش، وأرخص شىء فيها هو العلم نفسه.

جامعة القاهرة جديرة بكل ذرة من ذرات تاج الماس الذى يضعونه على مفرقها هذه الأيام.

فهذه السيدة الجليلة - التى تبدو لى دائما كأنها تمثال للحرية أقمناه

مكان منارة الإسكندرية على شاطىء البحر المتوسط - هى عميدة الجامعات الحديثة فى عالم العرب كله، وقد قامت خلال هذا العمر القصير بما تستحق عليه أكثر من التقدير والاحتفال، وهى خلال الثلاثين سنة الأخيرة من عمرها تشق طريقها فى عسر وعناء، كأنها سفينة تفتح الطريق فى بحر متجمد شاسع، فقد أثقلوها بالأعباء وكبلوها بالأغلال، وحملوها فوق ما تطيق، حتى وقفت مكانها وسط الجليد، ولكنها مازالت تحاول السير بالرمق الباقى فى كيانها، على أمل أن تشرق الشمس ويذوب الجليد ويصفو الماء، وتمضى فى طريقها ويعود إليها إشراق الوجه وربيع الحياة..

* * *

ونحن الذين دخلنا تلك الجامعة وهى بعد صبية تملأ الدنيا ببشرها وحيويتها نذكر أيام كنا شبانًا تجمعوا من نواحى مصر كلها وعالم العرب كله، كنا نتجمع للسمر وتبادل الأمانى على السلالم الرخامية بكلية الآداب، وأمامنا فى الناحية الأخرى يتجمع شباب كلية الحقوق، وكل منهم يرشح نفسه لرياسة وزارة أو وزارة إذا لم تسعف الأقدار.

ومازلت أذكر أجيالنا التى سعت إلى تلك الجامعة فى ربيع العمر وإشراق الزمان، تلتمس العلم والفكر والمستقبل لنفسها وبلادها. كانت القاهرة إذ ذاك - أوائل الثلاثينات - جميلة وكل مافيها جديد، كانت كليتنا - كلية الآداب - تواجه شقيقتها كلية الحقوق وكأنها حسناء تنظر فى مرآة، كانت المبانى جديدة وكذلك كانت الأشجار والخضرة والعلم، حتى شيوخ العلم إذ ذاك كانوا شبابا، فهذا هو لطفى السيد مدير الجامعة شيخًا كبيرًا يصعد سلم الإدارة بخطواته المتئدة وبذلته السوداء وقامته

النحيلة يزينها الطربوش، إنه يتحدث إلى على إبراهيم عبقرى الجراحة فى عصره وعميد الطب ومنشىء قصر العينى الجديد، لقد رأيته مرة يمر فى أحد ممرات هذا المستشفى، ويرى بقعة على الحائط فيخرج منديل صدره ويمضى ليزيلها، مازلت أراهما معًا على سلم الجامعة شيخين فى شرخ الشباب يلاحقهما مصطفى مشرفة عبقرى الرياضيات وعميد كلية العلوم، ومحمد كامل مرسى وعبد الرزاق السنهورى، كل هؤلاء كانوا إذ ذاك شيوخًا أو كهولاً، وكلهم كانوا يبدون لنا شبابًا بالعلم والأمل والإيمان فى مستقبل مصر وطنهم العظيم، وطه حسين كان أيامها كهلاً فى أربعيناته، ولكنه كان شبابًا كله، ووجهه كان مليئًا وشاربه الأسود يملأ ما أبقت النظارة السوداء من وجهه، وأما صوته فكان يملأ الدنيا بنغمه الرخيم وموسيقاه التى تضاهى فى حلاوتها صوت محمد عبد الوهاب. وكان هو الآخر إذ ذاك شابًا. وكان طه حسين يبدو لنا إذ ذاك عجيبة وطرفة وعبقرية شابة تمشى على قدمين، وتشق طريقها بين صفوفنا ونحن متجمعون على سلم كليتنا الرخامى الأبيض، ومصطفى عبد الرازق يهبط من سيارته وقورًا جليلاً، ويسير هادئ الخطو نحو كليته، وكل ما يبدو للعين منه يشرح الصدر: جبته البنية الصافية، وقفطانه الفضفاض وحزامه الحريرى الأنيق، وعمامته البديعة. وهو يخرج منديلاً يمسح به وجهه فيتهادى إلينا أريج عطر هادئ لطيف، ويبدو لنا كأنه الشيخ الرئيس أبو على بن سينا عاد إلى الحياة وعاد معه «الشفا» إلى النفوس، وبعد قليل يقبل منصور فهمى بوجهه الأشقر الذى كان يصور لى - لا أدرى لماذا - السلطان المملوكى المنصور سيف الدين قلاوون كما يصفه أبو المحاسن أمير مؤرخى مصر الإسلامية، ها هو ذا يصعد السلم بقامته المديدة وطربوشه الأحمر الكبير، وشاربه الأشقر وهو يمسك بعصاه من

قدمها ويجر رأسها المعقوف على الأرض. ولا بأس عليه فى ذلك، فهو فيلسوف يعيش فى عالم هنرى برجسون ودور كهايم، والدكتور أحمد زكى بحر العلوم والآداب يدك الأرض دكا بخطواته السريعة وقامته المديدة المنسرحة، ومحمد عوض محمد الجغرافى الأديب الشاعر، كان يعدّ شابا يلعب التنس ويخرج من الملعب بقامته الطويلة وهالة الشعر الأسود تاج على رأسه ونظارته الكبيرة السميكة التى يخيل إليك أنه ولد بها، فهى جزء من ملامحه، وهو يدخل سيارته ومعه تلميذه النجيب سليمان حزين الذى كان يمثل إذ ذاك شباب الجيل الجديد من أهل الجغرافية والآداب، ولأمر ما كانت أجيال أعلام العلم الجغرافى إذ ذاك كتابًا وشعراء، فبعد محمد عوض وسليمان حزين يجىء تلميذهما محمد محمود الصياد وكان جغرافيا أديبًا شاعرًا، وعز الدين فريد وكان جغرافيا موسيقيا، ثم صبحى عبد الحكيم الجغرافى الخرائطى الديموجرافى الخطيب البرلمانى المتدفق.

كانت أيامًا جميلة كلها علم وشعر وأدب وأمل، فهذا شفيق غربال عميد مؤرخى عصره وصاحب العبارات الجميلة المحكمة، كان مدرسة وحده بشخصه وعلمه وسعة اطلاعه، ها هو ذا يسير على مهل ويتحدث مع اثنين من الأساتذة الأجانب فى قسم التاريخ: بول جراندور البلجيكى أستاذ التاريخ القديم، وبيير جوجيه أستاذ تاريخ مصر البطلمية.

ومن بعيد يهل أمين الخولى، والذكاء يطفر من عينيه، وهو شاب يعد بالآمال التى تجيش فى صدره ويخب فى جبته المقفلة عند رقبته، أما أحمد أمين فيسير فى بذلته الفضفاضة وطربوشه المائل إلى الوراء، وهيبته - رغم البذلة - تجعله يبدو لك كأنه القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى، وإبراهيم بيومى مدكور الشاب كان حديث العودة من أوروبا،

وكان يبدو لنا كأنه مصطفى عبد الرازق آخر.

أساتذة وأعلام ورايات فكر وبشريات آمال، كانوا فى تلك السنين يتصدرون ركب العلم الحديث فى مصر وعالم العرب كله. وكنا ونحن ننظر إليهم نعد أنفسنا لنأخذ أماكننا فى ركب النور.

* * *

وعند سلم كلية الآداب الرخامى العريض لم تكن هناك إذ ذاك إلا سيارتان أو ثلاثة، كلها صغيرة فى حجم علب الكبريت، تتجلى وسطها أصغر سيارة عرفتها فى حياتى: سيارة الباليلا التى كان يملكها ويختال بها علينا صاحبها وزميلنا إبراهيم عبده الذى أصبح فيما بعد من أعلام الفكر والصحافة والأدب والنشر، ولكنه كان إذ ذاك شابًا لطيفًا دقيق الحجم حاضر النكتة سريع النادرة، يضاهيه فى ذلك صديقنا وزميلنا فى كفاح القلم صلاح ذهنى طيب الله ثراه، وكان صاحب دعابة حلوة يطلق النكتة فيتناقلها أهل الأدب جميعًا، حتى تصل إلى صديقنا الشاعر الرقيق إبراهيم ناجى فى عيادته فى شبرا.

على سلم الكلية كنا نتجمع لتأمل تلك الأنجم الزهر التى كانت تملأ حياة العرب كلها علمًا ونورًا، وكل منا يحلم بأن يسعده الحظ فى قابل حياته بأن يكون خليفة واحد من هؤلاء فى ميدانه ومكانته، وكنا جميعا نشعر شعورًا صادقًا بأن مصر التى أنشأت لنا هذه الجامعة تنتظر منا الكثير، وأن علينا أن نكون جديرين ببلدنا وجامعتنا: فهذا نجيب محفوظ طالب الفلسفة وابتسامته تشرق على وجهه دائمًا، وهو صاحب النكتة الحاضرة والضحكة المدوية، ولويس عوض بوجهه الجاد يتحدث على عهده فى مسائل من الأدب كانت تبدو لنا إذ ذاك عويصة جدا تتخطى

فهمنا. ورشاد رشدى وتحت إبطه ثلاثة كتب أو أربعة وهو يحـدثنا عن توماس هاردى وابتسامتـه تشرق فى وجهـه وسيجارتـه تحرق أصـابعه وشفتيه، وأمينة السعيد درة بنات الجامعة تمر بنا وتلقى التحية بوجهها الجميل المشرق بنور الأمل، وسهير القلماوي تلميذة طه حسين وابنته الروحية تقبل إلى درسها تشتد فى خطوها مثالاً للجد والرزانة، من بيتها إلى قاعة المحـاضرات إلى البيت لا تحـدث أحدًا منـا ولا يجرؤ عـلى الاقتراب منها أحد، فى حين أن أمينة السعيد فى كمال احتشامها ورفيع أدبها كانت تقود بنات جيلهـا، وتشق طريق المستقبـل باسلة مقـدامة، وإبراهيم زكى خورشيد يأخذ بذراع صاحبه ورفيق عمره عبد الحميد يونس، وكل منهما يحدثنا عن كتاب جديد قرأه ويزمع ترجمته، وعبدالحميد يونس بالذات تفوق علينا بكتاب الدراما الذى ترجمه عن آشلى ديوكس، وتوفيق الطويل بوجهه الأشقر ونظرة الجد فى عينيه، وكتب الفلسفة تحت ذراعه وهو دائمًا مسرع يـطوى الأرض طيًّا، كـان خطيب جيلنـا، كنا نستمتع بالإصغاء إليه يتدفق بالكلام المختار فى مناظراته تدفقا، وسلامة موسى يسمعه فى مناظرة فى نادى الشبان المسيحيين فى القاهرة ويقول: ياله من خطيب!

وشوقى ضيف يسير دائما متمهلاً على عهده، إنـه مؤرخ الأدب فى جيلنا، والأستاذ أحمد الشايب عليه رحمة الله يقول: سترون من شوقى إن شاء الله عجبًا، وأبو ريدة ذو الذاكرة الواعية كأنها آلة تسجيل صوت وصورة لا يفوتها شىء، يقبع دائمًا فى المكتبة يدرس الألمانيـة على يـد الأستاذ السويسرى روبرت ران، كانوا يطالبوننا بالإنجليزية والفرنسية فيأبى بعضنا إلا أن يضيف الألمانية، وأستاذ اللاتينية يكف عن اختبارنا فى الدرس الماضى، لأننا كنا فى العادة نحفظ الدرس التالى قبل أن يدرسه

لنا، كنا نلتهم الغد قبل أن يأتى تعجلاً إلى المستقبل، والأستاذ هنرى بير أستاذ الأدب الفرنسى فى جامعة القاهرة أصبح فيما بعد رئيسا لقسم اللغة الفرنسية فى جامعة برينستود، يلقى محاضرات فى الأدب الفرنسى فى موسم الجمعية الجغرافية، ويجد القاعة غاصة بنا إلى آخر مقعد، فيقول لطه حسين: أرجو أن تقول لطلابك أن يتركوا بعض المقاعد لأصدقائى الفرنسيين، وطه حسين يقول له مداعبا: هذا ذنبك وأنت مسئول، أنت اجتذبتهم فطاروا إليك.

ونفرغ من مرحلة الليسانس، ونستمر فى الدراسات العليا، نرى فى ذهابنا ومجيئنا أجيالاً جديدة من الشباب تفوقنا حماسة للعلم ونهماً إلى المعرفة، لاحقنا: جيل عبدالرحمن بدوى وعبدالعزيز الأهوانى ورشدى صالح وعبدالرحمن الشرقاوى ومحمد محمود الصياد، ثم جيل أنيس منصور وموسى صبرى ونعمان عاشور، وجيل يوسف إدريس الفنان الثائر ومصطفى محمود المؤمن الثائر، وثروت أباظة الحقوقى الأديب الذى كان يحلم بالسياسة فيسوقه القدر إلى ميدانه الحقيقى وهو الأدب، ومحمد المعلم ومحمود الشنيطى اللذين برعا فى ميدان النشر، وأجيال أخرى قدر لها أن تدخل الجامعة وتتخرج فيها قبل أن يحاصر الثلج السفينة، فتتراخى فى سيرها وتتعثر.

والجامعة على أيامنا لم يكن لها سور، لأنها كانت جزءًا من المجتمع. وعندما بنوا السور حولها غضبنا وتظاهرنا، وواحد منا كتب مقالاً يقول فيه: لا تقتلوا الجامعة بالأسوار، ولكنهم خنقوها بالأسوار ثم كبلوها فى الخمسينات بالأغلال، وجامعة القاهرة التى كانت فى أواخر العهد الماضى الذى صنفوه فى مكتبة التاريخ القومى تحت اسم العهد البائد، كانت منبر

الوطنية ومنار الحرية فى العصر البائد بالذات، وساحتها لم تكن تخلو من الخطباء قط، هذه الجامعة سكنت وخمدت أنفاسها واستكانت، ويمر بها ذات يوم قطب عظيم من أقطاب العصر غير البائد، ويرى خطيبًا يخطب وشبابًا يهتف: تحيا مصر تحيا الحرية فيهز رأسه ويقلب كفيه ويقول: أما كنا قد أنسيناهم لعبة تحيا مصر هذه؟ ويهمس فى أذنيه هامس: هذه حركة عيال لا تلبث أن تخمد، إنها انتفاضة نفر قليل من العابثين، ويكون الرد: دى انتفاضة الحرامية. وذهبت مثلاً.

ولو كان بيدى دليل للخريجين لرأينا أن كل كليات جامعة القاهرة إذ ذاك كانت تفيض بعباقرة الشباب فى كل ميدان، والأسماء لا تحضرنى ولكنى أرى فى صورة مصر الحضارية آثار محمود يونس ومشهور أحمد مشهور وعثمان أحمد عثمان وعبد المنعم القيسونى وعزيز صدقى ومصطفى خليل، جامعة القاهرة وحدها أنشأت هذه الأجيال كلها من صناع حضارة مصر الراهنة أيام كانت جامعة حقة، جامعة مستقلة الفكر والروح، وأرجو ألا أكون فى كلامى هذا ما يثير إخوانى فى جامعتى الإسكندرية وعين شمس، فجامعة القاهرة أنشأت هذه وتلك، ومعظم الذين أنشئوا الجامعات الأخرى أبناء هذه الجامعة المباركة.

ذكريات مرت بخاطرى، وأنباء الاحتفال بمرور خمس وسبعين سنة تترامى إلى أذنى، وأجلس ذات يوم قريب بعد الظهر فى فصل، وأمامى طلبة الدراسات العليا، والحجرة كئيبة مظلمة، معظم زجاج النوافذ تكسر وأصبح منافذ للريح، بقية الزجاج مازالت عليه بقايا حزينة من طلاء اللون الأزرق الذى وضعوه أثناء الحرب، وعشر سنوات مضت على آخر حرب دخلناها سنة ١٩٧٣، ومن ذلك الحين لم يكلفوا أنفسهم عناء تنظيف

النوافذ، والحجرة فيها أربع لمبات فلوريسنت، ثلاث منها توفيت والرابعة تحتضر، لا يهم. عندما تموت اللمبة الرابعة ينتقلون إلى قاعة أخرى، وتموت هذه القاعة، لا نقود عندنا لشراء لمبات، ولكن عندهم نقود لرواتب موظفين إداريين تملأ مكاتبهم ست غرف، وقبل بضع سنوات قلائل، كنت أحاضر فى قاعة محاضرات بقسم التاريخ والطلاب أمامى فى حالة يرثى لها. كثير من المقاعد الخشبية تحطمت ومعظم القمطرات التى يكتب عليها الطلاب تشققت وتحطمت، لا نقود لهذه أيضا. فى يدى قطعة من الطباشير لاتكتب إننى أكتب الشىء مرة بعد أخرى ولاأرى شيئا، لا الطباشير يكتب ولاالسبورة تقبل، والفراش يقول: ماذا نعمل يا أستاذ. مفيش فلوس. حتى الطلبة لم يعودوا بحاجة إلى سبورة أو طباشير أو حتى إلى أستاذ. عندهم مذكرة الدكتور، أو المينى – أستاذ بتعبير أصح، فليس هناك أستاذ يطبع مذكرة من أربعة ملازم فى مطبعة رزق الله فى حارة معوض الله عند مقلب الزبالة فى الجيزة ويبيعها بسعر الملزمة جنيه، والطلبة يدفعون الجنيهات الأربعة ولكنهم لم يتسلموا إلاملزمتين. وهذا أحسن وحتى لو أخذوا ملزمة واحدة ففيها الامتياز إن شاء الله فإن الامتحان لن يخرج عنها. وألسنة السوء تروج الإشاعات عن جامعتى وأنا أرفضها لا أظن أبدًا أن أستاذًا هنا فى تلك الجامعة يفعل ذلك.

ولا أظن قط أن أستاذًا يتقاضى من الناشر رزق الله ٥٥ فى المائة من سعر البيع. فهذا ربا لا حقوق نشر. إنما يفعل هذا مينى أستاذ أو أستاذ تاكسى أو أستاذ شنطة، وجامعة القاهرة وكل جامعاتنا لاتعرف هذه الأصناف من الأساتذة صناعة كوريا الوسطى، وحاشا لله أن تكون

جامعاتنا قد عرفت هذا النوع من الأسانيد أو القزاقيز. فى الماضى كنا نشكو من تزويغ الطلاب أما اليوم فإن أعضاء هيئة التدريس هم الذين يزوغون.

* * *

ترى: ما كان ضرهم لو أنهم حجزوا من الألوف التى أنفقوها فى صناعة التاج الماسى بضعة آلاف لإصلاح الزجاج المحطم والكراسى العرجاء والقمطرات المكسورة، ودورات المياه التى لايجرؤ على الدخول فيها أسد، والسلالم المحطمة وإصلاح الممرات بين مبانى الجامعة، وما إلى هذا مما يجعل الجامعة فى عيدها الماسى أشبه بحوش فى قرافة باب الوزير، أم أن هذه الجامعة التى تنفق فى عيدها الألوف لاتستحق منديلا يمسح عن وجهها دموع الحزن كأنها يتيم خلفه أبوه على قارعة الطريق؟

ولكن لا بأس يا جامعتى الجميلة، فلست وحدك المظلومة بين مفاخر هذا الوطن العزيز، فكل ما هو عظيم وجميل فى بلادنا يعانى، وهضبة الأهرام كلها بما فيها من أمجاد كانوا على وشك أن يبيعوها، ومتحف الفن المصرى القديم فى القاهرة أصلحوه وأصبح تحفة، ولكنهم حاصروه بالسيارات وأعمال الحفر، والسياحة كلها أصبحت احتكارا لعصابات سائقى التاكسى.

كنت أتمنى أن تكون جامعتنا فى صورة أجمل من صورتها الحالية بكثير فى عيدها الماسى، وقد كتبت الكثير لكن يبدو أن أحدًا فى الجامعة لايقرأ ولا يكتب، أو أنهم يقرأونه ثم يؤشرون عليه: علم ويحفظ.

أما أنا فلا أيأس، وسأظل أكتب وأذكر، وأتعزى هنا بلقمان الحكيم الذى عاش فيما يقال سبعمائة سنة لم يقصر فى عام منها عن دعوة قومه

إلى الهدى دون أن يستمعوا له، فلما كانت السنة التاسعة والتسعون بعد الستمائة ناداه واحد منهم وقال: يالقمان: ألا تتعب من الدعاء؟ ويقول لقمان: حتى تسمعوا وتطيعوا، فيقول الرجل: يالقمان، لقد مات قومى جميعًا ولم يبق إلا أنا، قال لقمان: إذن فعد أنت إلى الحق، وتعال نصل معًا ونطلب لقومك الرحمة، وأقبل الرجل فنظر إليه لقمان فهاله ما رأى: رجل كله عظم وشعر، وليس فيه من دلائل الحياة إلا صوته، فقال له لقمان: - وقد أشفق عليه - استرح أيها الشيخ فما أراك تستطيع القيام والدعاء، ما اسمك أيها الشيخ؟ قال اسمى لبد، إذن فاجلس يا لبد وأنا أدعو لك ولقومك، ونظر إلى الرجل فإذا به قد مات فقالوا:

* أخنى عليه الذى أخنى على لبد *

وسمع لقمان صوتًا يهتف به: يباركك رب القدرة يالقمان ويدخلك الجنة، فقد هديت فى سبعمائة سنة نفسًا واحدة لحظة واحدة!

ولكن أملى فى الله عظيم، ومازلت أرجو إخوانى القائمين بأمر جامعة القاهرة أن يعيدوا النظر، فهم بلا شك يحسون معى متاعب جامعتنا، ويودون لو أعانها الله على الخلاص من متاعبها والدخول فى عصر جديد إن شاء الله، حتى إذا آن أوان الاحتفال بالعيد المئوى كانت الجامعة على أحسن ما نحب ونشتهى.

فى كل بلد من بلاد الدنيا جامعة أو اثنتان أو ثلاث. تعتبر الجامعات الأمهات الرائدات، ولهذه الجامعات وضع خاص، ونظم تميزها عن غيرها دون أن يكون فى ذلك مساس بأى من بقية الجامعات.

ففى فرنسا يعتبرون جامعة باريس، الجامعة الأم أو عميدة الجامعات، فأساتذتها هم خيرة أساتذة الجامعات الفرنسية كلها، وعندما تخلو وظيفة

أستاذ فى إحدى كليات جامعة باريس، فإن مجلس الجامعة يختار من يقع عليه اختياره من أساتذة الجامعات الأخرى فى نفس التخصص، ويعتبر هذا الاختيار تكريمًا لذلك الأستاذ، وهو يقبل فى الغالب حتى يختم عمله الجامعى أستاذًا فى أعظم جامعات بلاده، وقد تحول ظروفه دون القبول فيكتفى بشرف التكريم ويظل فى جامعته، ويعرض المنصب على أستاذ آخر.

والمعاهد العالية وأقسام الدراسات العليا فى جامعة باريس، هى أرفع ما فى فرنسا مكانة وقدرًا، ولا يقبل الطلاب فيها إلا بامتحان مسابقة، ولا يعتبر الالتحاق بأحد هذه المعاهد حقا ثابتا للطالب، إنما هو فى اختبار دائم، ومن خريجى تلك المعاهد وأقسام الدراسات العليا بها تحصل كليات الجامعة على من تشاء من أعضاء هيئة التدريس عن طريق امتحان مسابقة أيضا، ولكن دخول امتحانات المسابقة لا يقتصر على خريجى جامعة باريس ومعاهدها، وأحيانًا لا يقتصر على الفرنسيين، لأن جامعة باريس تريد الحصول على أحسن الكفايات دائما، وهناك تخصصات تحصل عليها الجامعة من إنجلترا أو ألمانيا أو أى بلد آخر، وجامعة باريس تشبه فى هذا كبار الجامعات الأمريكية مثل هارفارد، وبرينستون وييل وبيركلى، ففى تلك الجامعات يفضلون أستاذًا ألمانيا للغة الألمانية وآدابها، وأساتذة فرنسيين للغة الفرنسية وآدابها، وبعض التخصصات الكبرى يحتلها الآن أساتذة من جنسيات شتى، وكلهم يحصلون فيما بعد على الجنسية الأمريكية إذا شاءوا، وأمريكا تكسب خبراتهم وتغنى بعلمهم.

وذلك الوضع يقتضى أيضًا أن تدقق الجامعات الأمهات فى اختيار طلابها، فإن أبواب جامعة هارفارد مثلا لا تفتح لأى طالب، بل هم

يختارون طلابهم بعناية تامة، والطلاب إذا كانوا موهوبين كان تعليمهم فى مقابل رسوم زهيدة، وقد لا تكون هناك رسوم أصلا، أما من يشاء دخول هذه الجامعات ممن لا ينجحون فى اختبارات القبول، فإن عددهم قليل جدًّا، وهم يدفعون رسومًا جامعية عالية، لأن الجامعات فى حاجة إلى أموال، ومع أن جامعات فرنسا وإنجلترا وأمريكا الكبرى تحصل على معاونات من الحكومة تبلغ أضعاف ما يحصل عليه غيرها من الجامعات. فإن لها إلى جانب ذلك أوقافًا وهبات ضخمة جدًّا، وهى تحصل على أموال عظيمة من شركات صناعية كبرى فى مقابل خدمات علمية تقوم بها هذه المصانع. وهذه الأموال كلها لا تكفي، لأن تكاليف الجامعات فى أيامنا هذه عالية جدًا ومعاهدها ومعاملها ومستشفياتها تنفق الملايين، ولهذا فإن أحدًا من الطلاب لا يستطيع الصمود على الدراسة أو العمل فيها إلا إذا كان كفئًا حقًّا، فالحصول على إمكانية الالتحاق بأحد معاهد العلوم والطب والهندسة فى هذه الجامعات عسير بل نادر، لأن وظيفة هذه الجامعات هى المحافظة على مستوى العلم والبحث فى البلاد، فهى معاهد ريادة وطلائع قبل أن تكون معاهد تعليم، والجامعات الأخرى لا تجد فى ذلك أى غضاضة، وهل تظن مثلًا أن جامعة درهام أو برمنجهام أو أدنبرة لا تعترف لجامعة كيمبردج بالصدارة؟ وهل هناك جامعى إنجليزى واحد لا يفخر بجامعة كيمبردج أو أوكسفورد أيا كانت جامعته؟.

* * *

تلك هى الفكرة، وأظن أنها مفهومة، وأرجو أن تكون مقبولة.

إن جامعة القاهرة تعانى أكثر من غيرها من ضخامة أعداد طلابها، وليس هذا عدلًا، فهذه جامعة طليعة، ولابد أن تعامل على هذا الأساس،

وفى بلادنا الآن - والحمد لله - إحدى عشرة جامعة أخرى تستطيع أن تستوعب أى عدد من الطلاب.

فلنجلس الآن ولنفكر فى هدوء لتكون جامعة القاهرة جامعة أمًّا أو جامعة طليعة، ولنعترف لها بذلك، ولنعد صياغة نظمها على هذا الأساس، ولنبدأ التنفيذ برسم الخطة لبناء هيئة التدريس فى جامعة القاهرة بناء جديدًا ونقطة البداية هنا هى الدراسات العليا، فإن نظامها الحالى لا يحقق للجامعة أى تقدم. وبين طلابنا شباب موهوب حقا، ولكننا نضيعه فى الزحام، ونظام تعيين المعيدين بخطابات التكليف نظام قاتل للعلم.

لنعلن من الآن عن مستوى المعيد الذى نريده ولنشترط فيه مانشاء فسنجد دائما بين شبابنا من يستوفى الشروط أو يجتهد فى استيفائها، ومن بين هؤلاء المعيدين الممتازين نختار البعثات بأدق معايير الاختيار والامتحان، لكى نحصل بعد سنوات قليلة على شباب علمى جديد نبنى عليه جامعة القاهرة الجديدة.

ومن الآن ينبغى أن يقتصر القبول فى جامعة القاهرة على الممتازين فعلاً عن طريق امتحان مسابقة غاية فى الدقة، وفى نهاية السنة الأولى فى كل كلية، وستكون سنة إعدادية - نعيد الاختيار والتصفية، فإن طالبًا واحدًا ممتازًا حقًا أبرك علينا من خمسين، ولقمان غفر الله له ورضى عنه لأنه هدى نفسًا واحدة لحظة واحدة.

الدماغ والقلة

الحديث يجرى بينى وعم سعفان، وهو بواب بيت لى فيه شقة فى حى المنيل، وأنا أعنى بهذا السكن لأن الجانب الأكبر من كتبى فيه، وهنا كنت أحب أن أعيش، ولكن الناس جعلوا الحياة هناك عذابًا لأى إنسان يريد أن يعيش ويعمل ويستريح، هنا لا حياة لك ولا عمل ولا راحة وإنما هو العذاب ولا شيء غيره، وتحت نافذتك صف من محلات تخريب السيارات كل منها يحمل اسما عجيبا: «دنيا الميكانيكا» و «مدينة الشاكمان» و «الهندسة الالكترونية» من هذا كله لا يوجد شيء، وإنما دكاكين كأنها الجحور، كل ما فيها شحم وزيت وهباب ومصباح كهربائى تعيس ٥٠ شمعة هو مصدر النور الوحيد وعشرون - قل ثلاثين - غلامًا يدقدقون رأسك بالشواكيش من الصباح إلى المساء، هنا لا رحمة ولا إنسانية، وإنما هى الحرب ولا شيء سواها، وعم فرحات اختصاصى الكلاكس يجعلها لك جحيمًا، إن صوته هو نفسه أعلى كلاكس فى الدنيا، وزنه ٩٠ كيلو، وصوته زمارة إنذار، وهو يضحك ويسب صبيانه طوال النهار.

حول هذا العالم الحافل بالمنغصات تحت أذنى، نشأ عالم خدم وحشم لهؤلاء: عربات كباب وطعمية وقهوة وشاى وامرأة سمينة تبيع الخبز،

وحولها من الأولاد نصف دستة، وأمامها على الرصيف الآخر زوجها إلى جانبه أكوام من البصل الأخضر والكرات، وهذا الرجل افتتح فرعا لبيع الفول النابت، وطشت غسيل ملقى فى نهر الشارع، حافل بالفول النابت المغطى بالماء، ونصفه تعطن لكن هذا لا يهم، هنا لا يرى الناس شيئا ولا يشمون: إنهم يأكلون، جيوبهم مفعمة بالمال، وأقل أوسطى فى هذه الورش الغلبانة يكسب فى اليوم - صافى بعد كل حاجة - خمسين جنيها، وأصغر غلام من أولئك الذين يسيرون فى أسمال بالية ويدقدقون دماغك طول اليوم يتقاضى فى اليوم ثلاثة جنيهات و «يهف» من العملاء جنهين فالمجموع خمسة وهى بمقياس الحكومة مرتب مدير عام..

وعم سعفان يقف أمامى إلى جانب دولاب كتب وضع فوقه قلة، ألف مرة قلت له إن القلل لا توضع فوق دواليب الكتب، وألف مرة يضع القلة فوق الدواليب ويقف أمامى ورأسه على مستوى القلة. وأقول له:

- فيه حاجة يا سعفان..
- لا يابيه. الحمد لله
- ونعم بالله يا عم سعفان، ولكنى أسألك عما يكون بعد حمد الله
- الحمد لله يا سعادة البيه.
- وألف حمد لله يا سعفان، ولكن هل جديد منذ كنت هنا من أسبوع.
- لا يا بيه.
- والسيدة التى تنظف الشقة ألم تأت أمس؟
- أيوه يا بيه ونظفت وعملنا لها شاى..
- ولماذا لم تقل لى ذلك؟
- حضرتك عارف يا بيه.

- ومن أين أعرف إذا لم تخبرنى أنت.
- لا يا بيه الست بسيمة أتت واشتغلت ونظفت والحمد لله.
- كانت وحدها فى الشقة؟
- لا يا بيه كان هنا الأستاذ أنور الذى يرتب الكتب.
- لِمَ لم تقل لى هذا؟
- سيادتك عارف يا بيه.. سيادتك عاوز حاجة؟

وبعد لحظة استدار وابتعد دماغه عن القلة فناديته وعاد:

- فيه خطابات؟
- لا يابيه.
- قصدى النور.. المياه..
- فكرتنى يا بيه بتاع النور عاوز ثلاثين جنيه.
- أين المطالبة
- مع أم عطيات يا بيه.

وتعجبت من أمر ذلك الرجل الذى يقول: ألا شىء هناك وينسى مطالبة شركة النور، وأنا أتطلع إلى دماغه وإلى جانبه القلة، فى لحظة ما خيل إلى أن القلة هى التى تتكلم وأننى لو سألتها لكان أحسن، على أى تقدير هى قلة فيها ماء والماء نعمة، ولكنك لاتدرى ما فى هذا الدماغ، إنه شىء بيضاوى ثابت بين كتفيه، شىء بلا ملامح، لأن هذا المسكين الواقف أمامى أنجب من العيال خمسة: ثلاث بنات وولدين، وامرأته أم عطيات راقدة تحت السلم تعانى أمراضا تحتاج إلى كل أطباء قصر العينى لعلاجها، من باب الاحتياط تزوج الرجل شابة جديدة لتخدمه هو والحرمة والأولاد، وهذه الشابة حبلى فى الثامن لأن أخانا سعفان لا يضيع

وقته ولا ينظر حوله أو فوقه أو تحته بل لا ينظر إلى شىء أو يرى شيئًا.

وعم سعفان يستدير ويمضى حاملاً القلة بين كتفيه ويمضى، وأنصرف إلى العمل ثم أذكر فاتورة النور فأمضى إلى الباب وأناديه وأطالبه بها..

- مش لاقييها يا بيه، نحن نبحث عنها..

وبعد نصف ساعة أتعجل المطالبة وبعد ساعة تأتينى مع أحد أولاده نسخة ممزقة متغضنة فى كل جانب.

وأرفع رأسى عن الكتب، وأنظر من النافذة إلى العالم الحافل الصاخب تحتى، الساعة الآن الثانية عشرة إلا ربعًا والصخب والدق والصياح وأصوات الكلاكس وصلت لذروتها، وضحكات عم فرحات وشتائمه تغطى على كل شىء، وصوت المؤذن يعلو داعيًا لصلاة الظهر ولا أحد يسمع، أو يستجيب، فهؤلاء الناس جميعًا يعيشون فى ظل الجامع ولكنهم لا يصلون بل لا يسمعون الأذان، أتوضأ وأبسط السجادة وَأُؤَدِّى فَرِيضَة الصَّلَاة..

وأعد لنفسى شيئًا من الشاى وأخرج شطيرة أتيت بها معى أتزود بها، لأننى سأعمل هنا إلى المساء، وتمضى بى الأفكار.

* * *

هؤلاء الناس جميعًا فى أى عالم يعيشون؟ عم سعفان، والأسطى فرحات، وأم عطيات، وبقية الأسطوات، والغلمان، وبائعى السموم من يكونون؟ هؤلاء أبناء وطنى وأنا أحبهم، وأحوالهم تعصر قلبى ولكن كيف أصل إليهم؟ ليس بينى وبينهم على الحقيقة خيط واحد محدود، إنهم يعرفوننى وأعرفهم، إذا تقابلنا تبادلنا التحية، وهذا كل ما هنالك، هم فى

عالمهم وأنا فى عالمى، ولا جسور، وظيفتى أن أعلم الناس ولكن لا سبيل لى إلى أبناء وطنى، هؤلاء ومثلهم ملايين لو أننى احتجت إلى خدمة من هؤلاء فهم لن يعاملونى أبدًا على أننى أخ، أو مواطن، بل مجرد إنسان يمكن أن يحصلوا منه على شيء من المال، ولكن يربط لى باشمهندس الشاكمان قطعة من الماسورة يطالبنى بعشرة جنيهات لأن مالى ومال كل مواطن آخر - فى نظره مسروق - إننى أحبهم لكنهم لا يعترفون بوجودى، إننى أفهمهم ولكنهم لا يفهموننى، وعندما قلت لهم مرة إن الفول النابت معطن، نظر بعضهم إلى بعض كأننى تكلمت بالصينية ومضوا يشترون، إن الجامع أمام بصرهم ولكنهم لا يرونه، والمؤذن للصلاة يدعوهم ولكنهم لا يسمعونه، ومن الجامع يسرقون الكهرباء والماء، والجزء الوحيد من المسجد الذى يعرفونه هو دورة المياه، وأنا والمؤذن وإمام الجامع وكل سكان البيت أشباح.

وأعود إلى عملى، إننى أترجم نصوصًا لاتينية من مجموعة «أسبانيا ساجرادا»، وأجمع مادة لبحث ألقيه بعد قليل فى مؤتمر فى أمالقى، وأقول لنفسى: أما كان أفيد لهذا البلد لو تركت اللاتينية والأبحاث وخاطبت هؤلاء؟ ولكننا يا سيدى لا نتكلم لغة مشتركة، كلنا مصريون نتكلم العربية ولكنها ليست نفس اللغة، ونفس الألفاظ لها عندى معان ولها عندهم معان أخرى، لو نطقت ألفاظا مثل: الوطن، الصالح العام. النظافة، الهدوء، تنظيم الأسرة، وما إليها، فهل لها عندى وعندهم نفس المدلولات، فى الأسبوع الماضى أتى إلى هنا رجل فى سيارة، ونزل وتجمع حوله نفر من أصحابه، علمت بعد ذلك أنه إنسان يفكر فى ترشيح نفسه عن هذا الحى لحزب من أحزاب المعارضة، الناس هنا تجمعوا حولهم ويسألونهم إن كانوا يريدون إصلاح سيارات، وعندما علموا أنهم أتوا

ليتكلموا فى السياسة تركوهم، بعد أسبوع قرأت فى صحيفة حزب هذا الرجل أن الحزب عقد هنا، وتحت نافذتى اجتماعًا شعبيًا حافلاً، وأن الجماهير التفت حول قيادات الحزب وأيدتهم وهتفت لهم، أنا نفسى كنت هنا ورأيت كل شىء من هذا الذى تقوله الجريدة، لم يحدث شىء وهذه الصورة المنشورة مع الخبر ليس بينها وبين شارعنا أى صلة، ولكن هذا هو ما تقوله الصحيفة وتلك هى دنيا السياسة.

إذن فها هنا عالم ثالث: عالم السياسة وأهلها، عالم المتنافسين على سيادتنا وحكمنا، فهذا الكذاب الذى وقف تحت نافذتى، زعم أنه عقد اجتماعًا سياسيًا، وأن الجماهير هتفت له وصفقت لخطابه المستفيض عن تردى الديمقراطية، رجل مدلس وكل ما تنشره صحيفته من هذا الطراز، إنهم يتحدثون لغة أخرى ويعيشون فى مصر أخرى. والقلل التى يحملونها على أكتافهم فيها ماء لايمكن أن يكون ماء النيل.

أنا خلف نافذتى معلم ولا أجد من أعلمه، وهنا تحت النافذة ناس فى حاجة إلى العلم ولكنهم لا يريدون أن يتعلموا. وهناك لا أدرى أين، رجال سياسة يزعمون أنهم حكام الغد، ولكنهم لا يجدون من يحكمونه.

وعلى الناحية الأخرى من الشارع.. وأنا أنتظر السيارة بعد الفراغ من العمل أقف إلى جانب عربة بطيخ، الرجل نائم ورأسه يميل، حتى يصبح هو الآخر بطيخة، من الممكن جدًا أن يجىء رجل، ويتناول رأس هذا المسكين، يربت عليه بيده ليتأكد أنها «حمار وحلاوة» ويشتريها ويمضى! لا أظن أن الرجل سيحس، سيتحسس مكان رأسه فلا يجد شيئًا، لا يهم، سيأخذ بطيخة ويضعها بين كتفيه، وصدقنى أن البطيخة «ستشتغل دماغ» بالدماغ سيعيش. بالقلة سيعيش، بالبطيخة سيعيش، لأن المهم أن يكون هنا شىء مستدير، لأنه فى كل حالة لا يوجد داخل الشىء

المستدير شيء، والمخ الذى هنا معطن منذ سنوات طويلة، ولا أحد يدرى أنه مثل الساعات الحكومية كلها معطلة، أو لكل منها توقيت، لا يهم. فإن الناس لا ينظرون فى ساعات الميرى أبدًا ولا يعتمدون عليها فى التوقيت أو غير التوقيت..

وهذا يا سيدى عالم رابع يعيش معنا على أرض هذا الوطن، ولا جسور إنه عالم رجال الحكومة. إن لهم هم الآخرون لغتهم الخاصة بهم، إنهم مصريون يتكلمون العربية ولكننا لا نفهمهم ولا هم يفهموننا، هؤلاء يحملون فوق أكتافهم ساعات معطلة أو مضبوطة على توقيت خاص بها، نحن فى المغيب ولكن عقارب ساعاتهم تقول إنهم فى الفجر، هكذا تقول صحفهم: البلاد كلها فى فجر جديد، ولكن أين هذه الفجر؟ إنه فى ساعاتهم، وهى الأخرى أشياء مستديرة يحملونها بين الأكتاف..

عوالم شتى بعضها إلى جوار بعض، تملأ دنيانا: أدمغة وقلل وبطاطيخ وساعات ميادين وحوائط، اشتريت معطلة جاهزة فى المناقصات، ودقها أصحابنا فى أجسادهم أو جدرانهم وعاشوا بها ومنها وعليها.

* * *

ذلك أننا يا سيدى يتعطل فينا شيئان بعد المولد بقليل: الدماغ والقلب، لأننا نعنى بالأجساد وننسى الرؤوس، والحكومة نفسها تدعم الرغيف واللحم والأرز والزيت ولا شأن لها بالدماغ، وعندها حق، فلو أن أدمغتنا عملت كما ينبغى لما عرف رجال الحكومة كيف يكلموننا، سنتبين أن الساعات التى يحملونها فوق أكتافهم ويعيشون بها: إما معطلة وإما مختلة، وهنا تكون الكارثة، هكذا أحسن، وليعش كل منا بالكرة التى فوق كتفيه: أنا بدماغى، وهؤلاء العمال بالشواكيش التى يحطمون بها

دماغى، وعم سعفان بالقلة، وبائع البطيخ بالبطيخة، وسيادة الوكيل بالساعة المختلة التى اشتراها فى المناقصة، ودقها على جدار جسده وعاش بها، وأهى ماشية! على فين؟ لا يهم، أهى ماشية، وما هى تلك الماشية؟ لا يهم، فهذا عالم الأسئلة التى لا تجد جوابها أبدًا.

وعم سعفان لم يسأل نفسه أبدا من الذى سيربى العفاريت الخمسة؟ من الذى يتولى أمر الزوجة الشابة الجديدة، والأوسطى صاحب الهندسة الالكترونية لم يسأل نفسه أبدًا، ما هى الهندسة أو ما هى الالكترونية، هذه التى تزين دكانه، إنها كلمة كتبها خطاط وعلقها أعلى الدكان، لا يهم إن كانت لافتة أو قلة أو بطيخة أو ساعة معطلة، المهم أنها ماشية وبتجيب فلوس، والمعلم الباشمهندس الالكترونى يدخل جيبه فى اليوم خمسون جنيها صافية مشفية، ولكن الذى تأخذه امرأته كل صباح هو جنيه لا يزيد وكفاية، إنه اشترى للأسرة تليفزيون ملون ٢٦ بوصة، وماذا يريدون منى؟ أقطع نفسى؟ عندكم التليفزيون! كلوا تليفزيون واشربوا تليفزيون، عاوزين تنهبوا.

* * *

وهذا يا سيدى عالم خامس: عالم الراديو والتليفزيون وكل الإعلام، عالم يعيش بنفسه ولنفسه ومن الناس، الأخبار التى تسمعها وتراها فى نشرات الأخبار تقول لك إن كاسبار واينبرجر - مين ده؟ اجتمع فى رومانيا بنيكولاى شاوشيسكو الرئيس الذى كان هنا من أسابيع، وتدارسا أحوال الدنيا، وقالا: إنها تمام. وجورج بوش أنت تعرفه طبعا - قابل الرئيس دنج اكسياوينج فى بكين واتفقا على خراب بيت الروس - ليه -؟ والسيدة نانسى حرم الرئيس ريجان ألا تعرفها؟ اكتشفت فى

رأس زوجها (٧٣ سنة) أربع شعرات بيضاء، وهذا هو أمامك على الشاشة فى مؤتمر صحفى، يؤكد فيه أنه لا يصبغ شعره وهذا هو. الـدليل، ومن البيت الأبيض تنتقل الأخبار إلى أمريكا الوسطى، وهـذه صورة عن حـرب السلفادور - فـين دى؟ وأمـريكـا أرسلت الأسـطول وحـاملة طائرات - يعنى إيه؟ - وهذا هو لبنان - الحرب ما زالت دائرة هناك بين الكتائب والدروز والشيعة، وهل لا يوجد فى لبنان إلا كتائب الموارنة ودروز وليد جنبلاط وميليشيا شيعة أمل؟ ألا يوجد فى لبنان أهل سنة؟ لا... هؤلاء عليوهم ووضعوا العلب فى الجمعيات التعاونية - هكذا يقول الرئيس الأسد - وشامير يحاول تأليف وزارة وها هو ذا أمامك داخل مبنى مجلس الوزراء، وفى النهاية هذه هى الرياضة العالمية، وما كنرو فاز على رولان بطل فرنسا ٣-٢-٣ و٥-٤-٤ و٦-٥-٣ إزاى؟

اتفرج وأنت ساكت يا أخى، ألا تكف عن الأسئلة؟ ألا يكفيك أننا حققنا السيادة الإعلامية على كل تراب الوطن - يعنى إيه والله؟ وفى الختام نحييكم أيها السادة مع النشرة الجوية، وهذه تصاوير ورسوم جميلة، والحرارة زادت عن المعدل - يعنى إيه المعدل من فضلك؟ - لا يهم، فهذه لغة لن تفهمها أبدًا، إنها لغة مضبوطة على ساعة جامعة القاهرة، وكل شىء فى الجامعة معطل إلا الساعة - عجيبة؟

* * *

معقول؟ معقول أننا نعيش فى هذا البلد، خمسة عوالم كلهـا تتكلم العربية، ولكن أحدا منها لا يفهم الآخر؟ هذا معقول ونص كمان، بل هناك عوالم أخرى يتعيش معنا على أرض هذا الوطن ولا نفهمها، فنحن إلى هنا لم نتحدث عن عالم الفلاحين - حوالى ٣٠ مليونا لا هم يفهمون

لغتنا ولا نحن نفهم لغتهم، تقول لهم؟ ددوا النسل فيكون الجواب زيادة النسل، تقول لهم لا تسيروا حفاة فى مياه الترع والبرك فيخلعوا كل ملابسهم ويغوصوا فيها إلى الرقبة، وننشئ لهم جمعيات تعاونية زراعية فيحولوها إلى شركات مساهمة، وأخرى ذات مسئولية محدودة، واسأل العمدة ومفتش الزراعة وسكرتير الجمعية ومندوب البنك، ونشترى لهم عجول التربية بالدولار ونسلمها إليهم بتراب الفلوس، فيبيعونها فى «سوق التلات» وكل أبناء الفلاحين يدخلون الجامعات، ليصبحوا أطباء ومهندسين، وعن قريب نستورد فلاحين من تايوان وكوريا، والفلاحون أصبحوا سماسرة عقارات، والبنات عاملات فى مصانع النسيج، ولا أحد يبقى فى البيوت ليطبخ أو يكنس أو يخبز، والريف كله يعانى من نقص العمالة، ومع ذلك فقد زاد الإنتاج الزراعى على كافة المستويات عشرين فى المائة - اشرح من فضلك! - وعندنا ١٠٠ مصنع ينتج كل منها ١٥ مليون بيضة، وسعر البيضة ارتفع إلى ٢٠ قرشا - مش معقول!، الحقيقة أن كل شىء مش معقول مادمنا لا نتكلم نفس اللغة، مادام كل منا يحمل فوق كتفيه رأسًا ذا شكل خاص به، كيف يمكن أن تتساوى فى التفكير، الدماغ، والقلة، والبطيخة، وساعة الحائط، وكرة الشراب وكرة الجلد؟ بل كيف يكون لنا فكر إطلاقا، إذا كنا لا نهتم بالدماغ؟ هل تتصور أن الأب فى بلادنا يهتم بدماغ اينه؟ هل يخطر بباله أن يشترى لهذا الولد كتابًا أو حتى كراسة بيضاء؟ إنه يشترى له الطعام لينمو جسمه، أما الدماغ فليس له مكان من العناية، والعائلات عندنا تنفق الألوف فى جهاز البنات وتشترى للعريس حتى البيجاما، ولكن لا أحد يفكر فى شىء يقرأ، والنتيجة هى أن البيت المصرى يظل ملجأ لجماعة يعيش كل منهم فى عالم، والعقول داخل الأدمغة تظل كأنها ساعات حكومية معطلة اشتريت فى

مناقصة، كان عندى فى مدريد سائق للسيارة، وكان التفاهم بينى وبين هذا الرجل تامًّا فى المشاوير والرحلات، كنا نتكلم فى نفس الموضوعات ونتحدث نفس اللغة مع أنه أسبانى وأنا مصرى، هذا الرجل أتانى يوما يطلب ٥٠ جنيها سلفة، سألته عما ينفق فيه المبلغ فقال: أريد أن أشترى لأولادى دائرة المعارف الصغيرة التى أراها فى مكتبتك، إنها دائرة معارف أسبانية، عندهم هناك عشرات دوائر المعارف، لأنهم يهتمون بتكوين عقول أبنائهم وعقول أنفسهم، لهذا يتكلمون نفس اللغة وتأخذ الألفاظ عندهم نفس المعانى، إنهم يطبقون هناك الاشتراكية وهى بالفعل اشتراكية لأن معناها واحد بالنسبة لهم جميعا، أما عندنا فإن الاشتراكية كانت عند عبد الناصر وسيلة لوضع اليد على كل شىء، وعند العمال نهب أموال صاحب المصنع، وعند صاحب المصنع هى سرقة ونهب. وعند القيادات وسيلة لبسط النفوذ والإثراء، وهكذا الأمر فى كل الألفاظ والمعانى.

ولماذا نحن هكذا عوالم شتى؟ لماذا كل منا يفكر بطريقة تختلف عن الآخر، ولكل منا دنياه؟ لأننا لا نهتم بالعقول أبدًا، وهل اهتم أحد بتكوين دماغ للعم سعفان؟ لا أبوه اهتم بذلك، ولا أمه، ولا عمدة القرية أو شيخ الكتاب، لهذا يحمل المسكين فوق كتفيه قلة وهو لا يحس، لهذا هو ينجب الأطفال وكأنه أرنبة تلد وتجرى، لهذا يتزوج امرأة جديدة وأولاده لا يجدون طعام يومهم، ينامون تحت السلم على حصير، وفى الشتاء يتغطون جميعا ببطانية ممزقة. وشيخ الجامع يراهم هكذا، ولا يفكر فى أمرهم، لأنه يعيش فى عالمه الخاص به،عالم أئمة المساجد ومشايخها، هذا الشيخ يرى تعاسة عم سعفان بعينيه كل يوم ولكنه لم يحاول أن ينفعه برأيه أو علمه، إنه يعتقد أنه لا يكون إماما وخطيبًا وواعظًا إلا عندما يجىء وقت الصلاة، فيما عدا ذلك لا علاقة له بالبشر أو بتعاسة البشر،

إنه يعيش فى عالم المشايخ ويتكلم لغة المشايخ، والمشايخ يعيشون إلى الآن فى القرن الثامن، أو التاسع، أيام السخاوى والسيوطى وابن حجر، عالمهم هو هو لم يتغير رغم تغير الزمان والأحوال، ولهذا فإنهم عندما يقفون على المنابر ويخطبون فنحن لا نفهم ما يقولون لأن قرونا طويلة تفصل بيننا، وألف مرة صليت خلف أئمة وسمعت خطب الجمعة وألف مرة أحسست أن هذه الخطب ليست لى ولا لعصرى إنها صوت من وراء القبور. ترى متى يتحدث المشايخ لغة الناس؟ ترى متى يصبح المسجد جزءا من حياتنا؟ متى تدب الروح فى المساجد من جديد؟

* * *

أتدرى لماذا لساننا واحد ولغاتنا شتى؟، أتعرف لماذا لغتنا واحدة ومعانيها شتى؟، أتعرف لماذا نحن شعب واحد ولسنا أمة واحدة؟

لأن الصلة بين قلوبنا وعقولنا مقطوعة، القلب هو الإحساس، هو العاطفة والخير، القلب فى لغة القرآن هو الضمير، هو هذا الشيء الصغير الهائل الذى يجعل الإنسان إنسانا، ونحن يا سيدي لا نريد أن نكون ناسًا، وكل منا يريد أن يكون عالمًا قائمًا بنفسه مستقلاً عن الآخرين، عالم كل منا ينتهى عند باب مسكنه لأن قلوبنا ميتة، والواحد منا لا يحس متاعب الآخر، عقولنا شتى لأن قلوبنا شتى، وعالمنا عالم تعيس، ألم أقل لك إن الشيخ لا يحس أنه شيخ إلا على المنبر؟ فكذلك الوزير لا يحس أنه وزير إلا خلف الباب الأخضر، ومثله فى ذلك مثل أى مسئول آخر، إن قلبه لا يرافقه فى عمله، ولسانه لا يتصل بقلبه، إن الذين يعلموننا ينسون أن العلم الحقيقى يكون فى القلب، المرء ينبغى أن يكون إنسانا أولاً ليكون صادقًا، إذا لم يكن القلب جزءا من حياتك فلا بركة لك فى

مال أو ولد ولا وطن، لهذا نحن عوالم شتى. والميكانيكية فى الشارع تحتى لا يحسون قط بأن هناك مواطنين آخخري، فى حاجة إلى نوم أو راحة أو هدوء، لا يعرفون أبدًا أنهم مواطنون فى وطن واحد، أو أفراد فى أسرة واحدة، إنهم يحطمون رأسي ولا يشعرون، ويكسبون ويظلون فقراء، ويتكلمون ويضحكون وهم أموات، والموت الحق هو موت القلب، وهذه الفوضى التى نراها فى حياتنا سببها أننا نعيش بدون قلوب، قلوبنا فى أكنة، أى فى علب صماء، كما قال القرآن الكريم، يسألوننى كيف نصلح مناهج التعليم؟ هل ندرس الحساب فى الابتدائي أو الثانوى؟ هل نعلم الأولاد لغة أجنبية واحدة أو اثنين؟ ومتى نبدأ بكل منها؟ أقول لهم إن الإجابة عن تلك الأسئلة كلها واحدة: أصلحوا القلوب يصلح التعليم كله.

ابدءوا بالقلوب وما عليكم ما صنعتم بعد ذلك، لأن العلم قلب، والوطن قلب، والسعادة قلب، والرخاء قلب، وأبو حامد الغزالى وهو إنسان عظيم لم ينص على شيء بقدر ما نص على قيمة القلوب، وكتاب إحياء علوم الدين هو كتاب إحياء القلوب، لهذا قال إن القلب خارج عن ولاية الفقيه، لأن فقهاء عصره كانت رءوسهم مثقلة بالفقه، وقلوبهم مقفرة من الحب. لهذا لم يكونوا علماء أو فقهاء، أو حتى ناسًا، وأبو حامد ترك الدنيا وهرب منهم عشر سنوات، كتب خلالها إحياء علوم الدين، كتبه بدم قلبه، والفقهاء هاجموا كتاب إحياء علوم الدين، وبعضهم أحرقوه لأنه كشف لهم عن حقيقة نفوسهم، وعرضها كما هى أمام أعينهم، وكانوا هم أول المرتاعين، بدلًا من أن يحرقوا أنفسهم أحرقوا كتاب إحياء علوم الدين، أحرقوا ضمائرهم واستراحوا، وعندما استراحوا ماتوا، أو بتعبير دقيق: مات العلم فى صدورهم، واقرأ ماكتب السيوطى فى سب أستاذه

السخاوي، وما كتب ابن حجر العسقلاني في سب العلماء أجمعين، تفهم عني مـا أريد قـوله، إنني أحتـرم هؤلاء العلماء ولكني لا أحبهم، رغم إعجابي بالسيوطي، فأنا لا أحبه، ولا أحب تلميذًا يؤلف كتابًا كاملًا في شتم شيخه. هؤلاء مع الأسف لم يكونوا علماء بل دواليب كتب.

لو أننا أحببنا عم سعفان وعلمناه لحمل فوق كتفيه رأسا لا قلة، لو أننا علمنا الميكانيكي وأحببناه لما دق دماغنا، وما أخذ منا مائة جنيه فيها يساوي عشرة، ولو أننا أحببنا الفلاح وعلمنا بقلوبنا لما هرب من قريته، وجلس إلى جانب عربة البطيخ وتكوم وتدلى رأسه حتى أصبح بطيخة، لو أننا أحببنا القاهرة لما صارت خرابة، لو أننا أحببنا مصر لكانت في مقدمة الأمم.

خلق الله القلوب لتعيش بالحب، ولكن قلوبنا تموت بالحقد والجشع، ولأن قلوبنا شتى فإن عقولنا شتى، ومعظمنا يسير في الدنيا حاملًا بين كتفيه قلة، القلة قد تمتلىء بالطب، أو الهندسة، أو علوم الأولين والآخرين، ولكنها تظل قلة، قلة من قوارير أو فخار.

والآن يا سيدي تحسس الذي بين كتفيك في رفق لتعرف إن كان دماغا أو قلة أو بطيخة أو حصالة فلوس، أو كورة شراب، وضع يدك على قلبك حتى يتصل القلب بالدماغ.

لا تكن صغيرا.. أبدا

كان فيليبس والد الإسكندر المقدونى ملكًا قويًا طموحًا، وكان يكره الإغريق لأنهم كانوا يتعالون على المقدونيين، ويحقد على الفرس لأنهم خربوا بلاد اليونان، فأعد جيشًا هائلاً ليؤدب به اليونان ويخرب بلاد الفرس، ولكنه كان رجلاً جامد القلب، قاسى الطبع فاسدًا منهومًا إلى الشراب والنساء، وقبل سير الجيش إلى بلاد اليونان بأيام أقام حفلاً لقواده، وأكثر فيه من الطعام والشراب، وفى أثناء الحفل نهض وقد أثقله الشراب، ليجلس على كرسى آخر مع قائده سلوقس، فوقع على الأرض والكأس بيده ومات.

وخلفه ابنه الإسكندر. وكان فى الثانية والعشرين من عمره، ولكنه كان ذا عقل راجح وقلب منير. وقد أدبه أرسطوطاليس فأحسن تأديبه، ومضى يكمل استعداد أبيه ليسير إلى بلاد اليونان والفرس، فقال له القائد سلوقس:

اسمع يا إسكندر، إننا لن نسير معك، فقد رأينا أن ما كان يريده أبوك بنا أوهام مهلكة، والرجل الذى أراد أن يسود بحرين ويغزو قارتين سقط بين كرسيين.

فقال له الإسكندر:

بل ستقوم به يا سلوقس، وعندك حق فيما قلت، لأنك عرفت أبي ولم تعرفني. فأبي اسمه فيلبيس وأنا اسمي إسكندر، وفيليبس أعد هذا الجيش لأنه كان غاضبا على اليونان يريد أن ينتقم منهم، أما أنا فأحب اليونان، وأريد أن أؤاخيهم، وأبي كان حاقدًا على الفرس يريد أن يخرب بلادهم، أما الإسكندر فيحب الفرس ويريد أن يخلصهم من طغاة الملوك. ونحن أيها القادة سنجمع أمم الأرض جميعًا على بساط المودة والعلم والمحبة، ولهذا فسنعبر البحرين، ونجمع بين قارتين ولن نقع بين كرسيين.

ويسمع أرسطو بما قاله الإسكندر فيبعث إليه يقول: نعم ما قلت ونويت، وأبوك فيلبيس كان ملكًا رخيصًا لأنه كان يريد تخريب الدنيا، فوقع بين كرسيين وغرق فى كأس من الخمر، أما أنت فإنسان ثمين لأنك تريد الخير والمحبة والأخوة، ولهذا فلن تقع قط بين كرسيين، وعندنا فى بلاد اليونان زهرة تسمى الأوركيديا، فخذها وازرعها فى تراب فارس وأرض مصر، وستجد فى مصر زهرة تسمى اللوتس، وعند الفرس زهرة تسمى الذلبان (التوليبان وهى التيوليب اليوم)، فأتنا بهاتين الزهرتين، واغرسهما فى ثرى بلاد اليونان، لتسود المحبة ويجتمع البشر تحت راية الأخوة..

وكان ما قال الإسكندر
وكان ما قال أرسطو.

وكلاهما لم يكونا رخيصين، لأنهما أرادا أن يكونا إنسانين غاليين، وإلى يومنا هذا نحن نتعلم من الإسكندر ونتعلم من أرسطو..

* * *

وفى سيرة عمر بن الخطاب نقرأ أن رجلًا أتى عمر بن الخطاب يطلب منه أن ينصفه، وكان عمر مشغولا فضربه بالدرة وانصرف عنه، فمضى الرجل وهو يتذمر، وبعد قليل دخل عمر داره وصلى ركعتين، فدخل عليه الرجل وقال: يا ابن الخطاب، كنت وضيعًا فرفعك الله وكنت ضالًا فهداك الله، وكنت ذليلًا فأعزك الله ثم حملك على رقاب العباد، فجاءك رجل يستعديك فضربته، ما تقول لربك غدًا إذا أتيته؟. قال: فجعل عمر يعاتب نفسه فى ذلك معاتبة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض (أسْد الغابة ١٥٧/٤).

وفى مقابل ذلك نقرأ فى كتاب الوزراء للصابى. أن الوزير أبا القاسم بن مخلد عرض على الخليفة الراضى جريدة (حساب أموال) اليتامى، فجعل ينزل منها وينزل ويأخذ لنفسه ما ينزل حتى بقيت عشرون ألف درهم. فحملها الوزير وأضافها إلى ماله ولم يصب الأيتام شىء.

فعمر هنا رجل أغلى نفسه بمحاسبة النفس فأعزه الله وزاده رفعة. وهناك خليفة ووزير مدًا أيديهما فى أموال الضعف فأرخصا نفسيهما بذلك، وهانا على الله والناس، فلا عجب أن ذل كلاهما واحتقرهما الناس. وإليك صورة هذا الخليفة الرخيص كما رسمها ابن طباطبا فى كتاب الفخرى قال: «وكان قصيرًا جدًا فى غاية القصر، فاحتاجوا أنهم قطعوا من قوائم سرير (كرسى) الخلافة أربع أصابع حتى يتمكن الكرخى الوزير فى مشاورة الخليفة، وتطير الناس وقالوا: هذا مؤذن بنقص الدولة، فكان الأمر كما قالوا عليه واختلفت الأحوال واضطربت الأمور لديه فاستتر.

وفى أخبار المجاهد نور الدين محمود أنهم حملوا إليه مرة مالًا كثيرًا

غنموه من هجوم على قلعة للصليبيين قرب إدلب وقالوا له: الآن تبنى لك قصرًا يليق بك فى حلب فقال: هاتوا المال، وقبضه ومضى به إلى عزاز وكانت بها سوق عظيمة للخيل والسلاح، فاشترى بالمال كله سلاحا وخيلا، وفرق ذلك كله على «الجدد» وهم صغار المطوعة من المسلمين، ودربهم على ركوب الخيل واستعمال السلاح، ثم بنى من ماله مخيما واسعا أسكنهم فيه، وجعل لنفسه فيه غرفة وقال: هذا هو القصر الذى أشتهيه.

ولو أن نور الدين بنى لنفسه قصرًا بهذا المال لكان إنسانًا رخيصًا، ولكنه كان رجلًا غاليا فأعز الإسلام ليعز هو به، ولهذا كان بطلا يزهى به تاريخنا وهو الذى مهد الطريق لنصر صلاح الدين.

وقبيل سقوط قرطبة تزعم المسلمين رجل يسمى سيف الدولة ابن هود، واجتمع له ثلاثون ألف جندى. وعندما حاصر الملك بدرو القاسى قرطبة استغاث أهلها بسيف الدولة فسار إليها ووقف على ثلاثين كيلو مترا جنوبها، وخاف الملك الإسبانى منه وفكر فى الانصراف عن قرطبة خوفًا من المسلمين، ولكن سيف الدولة هذا كان رجلًا رخيصًا دنيئًا فخاف على نفسه واستولى عليه الجبن. فترك قرطبة لتسقط فى يد الأعداء، ومضى إلى مدينة المرية، وكانت له هناك امرأة جميلة وضعها فى أمان رجل من رجاله يسمى الرميمى، فمد هذا الرجل يده إلى المرأة وحازها، ووصل سيف الدولة، فدبر له الرميمى تدبيرا وقتله ورمى بجثته من أعلى حصن..

وهكذا أبى الرجل الرخيص أن يموت فى ميدان الرجال والشرف، وهرب ليموت ميتة الكلب فى سبيل امرأة رخيصة مثله.

وكل إنسان منا يكون حيث يضع نفسه فإذا رفعت همتك وأعززت نفسك أكرمك الله وأعزك وكنت إنسانا رفيع القدر وإن قل مالك، وكم من

رجل يمر بك فى السيارة الفارهة والمنظر الباهر وهو فى سيارته أقذر من الخنزير.

وأذكر أن الأستاذ عباس محمود العقاد قص علينا آخر مشهد جرى بينه وبين مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد، وكان العقاد كاتب الوفد الأول، وأراد النحاس باشا أن يجعله يكتب ما يريد فرفض واستدعاه إليه فمضى للقائه، ودارت بينهما مناقشة حامية، قال العقاد فى ختامها: تستطيع يا باشا أن تفعل ما تريد، ولكن مادام فى يدى هذا القلم، فلن أكتب إلا ما أريد، وإذا كنت أنت نسيت فأنا لا أنسى أننى عباس محمود العقاد.

وأخرج العقاد القلم الذى هزه فى وجه الباشا العظيم، كان قلم رصاص ثمنه قرش، ولكنه كان فى الحقيقة أغلى وأعز قلم عرفه الأدب العربى الحديث، وبه بنى العقاد حصنًا من أمتع حصون الفكر العربى.

ولو أذل العقاد نفسه وقلمه لكسب المال الكثير ودخل الوزارة والباشوية، ولكنه ظل رجلاً بسيطًا يسير على قدميه، ويركب الترام إلى مصر الجديدة، وهو فى سيره هذا كان أعظم من أعاظم الباشوات.

* * *

وعندما وصل جون روكفلر الأب إلى مواقع البترول فى أمريكا كان لا يملك إلا نحو مائة دولار، وكان معه صاحب له، ومرا فى طريقهما على إدارة تطلب كاتب حسابات، وعندما جلسا للطعام انسل صاحبه ومضى فحاز الوظيفة، يحسب أن روكفلر سينافسه عليها، وكان روكفلر قد رأى اللافتة ولكنه لم يحفل لها، إنه كان يطلب ماهو أعظم، وانصرف وحده إلى مواقع التنقيب ومضى يعمل، ونفدت نقوده ولكنه صبر وأصر على أن

يصل إلى ما يريد، وفى أثناء ذلك كان صاحبه قد أصبح مدير حسابات وتزوج، وفى نهاية خمس عشرة سنة وضع روكفلر رجله على أول سلمة من سلالم الملايين، وأقام بعد ذلك دولة المال الكبرى، لأنه رجل أغلى نفسه ولم يرخصها، أو لم يطلب الملاليم فنال الملايين، والإنسان دائمًا حيث يضع نفسه.

أقول هذا كله لأننى أرى الشباب من حولى يتهالكون على وظيفة، ويتقاتلون على شق يسمونه شقة، ويخطبون بنتا لأن أباها يمكن أن يوفر لهم مسكنًا، وهم بهذا كله يرخصون أنفسهم، وهم فى العادة يقولون: وماذا نستطيع أن نفعل؟

ولهؤلاء جميعًا أقول: لو أننا فتحنا الباب لشباب الحرفيين من الأرمن، واليونان، والإيطاليين لرأيتم العجب، يدخل الواحد منهم بلدنا وفى يده حرفة: ميكانيكى، أو كهربائى، أو ساعاتى، أو اختصاصى فى الآلات الكاتبة، أو الحاسبات الألكترونية، أو المصاعد أو البقالة أو حتى الجزارة.. وانظر إليهم بعد عشر سنوات فستجد كلا منهم قد جمع مالاً وأنشأ محلًا جميلًا وأصبح صاحب عمل كبير، وكل ما تحلمون بـه أنتم أصبح ملك يمينهم، وتسألنى كيف يصلون إلى ذلك فأقول لك: لأنهم يرفضون الفقر ولا يبيعون نفوسهم رخيصة أبدًا، وبالصبر والجلد والإتقـان يخرجـون القرش من الحجر، ولا أنسى أبدًا أننى كنت ذات مرة فى طريقى إلى الولايات المتحدة على السفينة مع أسرتى، وتعرفنا بشاب نمسوى متخرج فى الآداب، وكان يقصد أمريكا، ليشغل وظيفة مدرس لغة ألمانية تعاقد عليها، وكان أبوه صاحب مخبز فيه قسم للفطائر والحلوى، وكان الشاب قد تعلم الخبز وعمل الحلوى فى فرن أبيه فى أوقات فراغه، وحصل على

شهادة من اتحاد الخبازين، فلما رست السفينة فى ميناء نيوهاليفاكس فى كندا، صعد موظفون من إدارة الهجرة الكندية، ونصبوا لافتة كبيرة تطلب حرفيين منهم الخبازون وصانعو الحلوى، وقال رجال الهجرة: إن الحكومة الكندية تقدم لصاحب الحرفة محلاً ومعاونة مالية، ومسكنا بصفة سلفة تسدد خلال فترة طويلة، وفوق ذلك كله الجنسية الكاملة فى مدى عام واحد، إذا ثبتت الكفاية المهنية وحسن السلوك، ولو كان شابًا مصريًا لتردد وفكر. وأقبل وأدبر ولكن الشاب النمساوى، لم يتردد وتقدم، وتخلى عن التدريس وأقدم على تغيير مسار حياته كلها، دون أن تطرف له عين، وقال لى وهو يودعنى: هنا أبدأ عزيزًا على أرض ثابتة، إن أمامى هنا طريقا طويلاً وشاقًا ولكنه يغنينى عن وظيفة التدريس التى أظل فيها فقيرًا عمرى كله.

وأعطانى خطاب اعتذار إلى المدرسة التى كان قد تعاقد معها، وهى فى بنسلفانيا فقلت له: ولماذا تستقيل؟. اطلب مهلة لكيلا تضيع من يدك هذه الفرصة فمن يدرى فقال:

- بل لابد أن أضيعها وتضيع معها تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة، حتى لا يكون أمامى إلا طريق الفرن والخبز، هكذا لابد أن أنجح فليس لى مفر من النجاح.

إن شبابنا يظنون أن رجال الحكومة أسعدوه عندما فتحوا له باب الجامعة ليدخلها مجانا، ومنحوا له الوظيفة بعد التخرج، والحقيقة أنهم قضوا عليهم لأنهم قتلوا فيه الطموح وحرموه من فرصة تحدى الحياة. لقد قال عبد الناصر يومًا: لن أستريح حتى يأكل الثلاثون مليونا من يدى!. كان هو يخاف الشاب الطموح، والشاب العزيز، والشاب المرفوع الرأس،

وفى إحدى خطبه قال: وما هى الحرية؟ إنها أن يقفل الإنسان بابه على أسرته ويتعشى وينام، وهذه حرية الدواجن لأن القنوع يحميها من عدوان الكواسر. لهذا فتحوا الجامعة على مصاريعها ودخلنا طريق الفقر. انعدمت الشخصية وانتهى الاختيار واتخاذ القرار، وأصبح المجموع هو الذى يختار ويتخذ القرار، وثمانون فى المائة من الذين يدخلون الجامعات لم يخلقوا لدخول الجامعات، وهم إذ يدخلونها يكونون بعد التخرج بين أحد أمرين: إما الاستمرار فى عمل لا يحبونه، ولا يصلحون له ويحتملون الفقر لا محالة وإما الانحراف، أى التماس الكسب غير المشروع فى الوظيفة، ولهذا نجد عندنا الكثيرين من الموظفين المرتشين أو الحرفيين الذين يسيئون استخدام المهنة، ولماذا والله ينهار الكثير من العمارات الجديدة؟ لأن المهندسين الذين يضعون رسومها ويعملون حسابها ويوافقون على التعلية دون حساب احتمال المبنى القائم ليسوا فى الحقيقة مهندسين، بل مجرد حملة شهادات هندسة؟ ولأن هناك المهندس المنحرف، أو الذى لا يعرف عمله، وكلاهما لابد أن يكون قد دخل كلية الهندسة خطأ. وهل هناك مهندس محترم دخل الكلية برغبته ودرس فيها عن حب، ثم يضطر بعد ذلك إلى أن يبيع ضميره لمقاول أو صاحب بيت؟. وهل من المعقول أن طبيبًا دخل كلية الطب عن رغبة حقيقية فى دراسة الطب وحب لتلك المهنة الجليلة، ثم يطلب الأجر قبل أن يمس المريض أو يرفض فتح حجرة العمليات قبل أن يتقاضى المبلغ الذى يريد؟. وهل معقول أن يلجأ محام يعرف كرامة المهنة ويحب القانون ويدرسه لأنه يعرف قدره، ثم ينصح عملاءه بإعلان الخصوم «بالطريقة الأمريكانى». أى إرسال الإعلان إليهم فى عنوان لا يمكن أن يتسلموه فيه، ثم يستند إلى هذه الأساليب الرخيصة ليكسب قضية بهذا الشكل الوضيع؟ لقد فعل هذا

معى أحد المحامين «وكسب» منى قضية دون أن أعلم، ومـا أدرى إلا والمحضر يبلغنى أن إنسانا لا أعرفه أخذ حكما على وهو يطالب بإخراجى من شقة كانت لأمى. والمطالبة جاءت بعد فوات وقت الاستئناف، فكان هذا المحامى الخسيس تواطأ مع صاحب بيت ومحضر وظن أنه كسب. وقد خطر ببالى أن أذهب إليه لأنظر الأمر، ولكنى عندما نظرت فى وجهه لم أفتح فمى، وهان على التسليم بما طلب فانصرفت، وأغرب من ذلك أنه تمادى بعد ذلك وأرسل يطلب نفقات خبير، وكان محام آخر قد أكد لى أننا نستطيع أن نجعل القضاء يفتح باب القضية من جديد ونكسب فقلت له: يا عزيزى إذا بلغت المحاماة هذا الـدرك فلا والله لا أريـد أن أكسب. سأدفع ما حكمت به المحكمة والعوض على الله لا فى القضية الصغيرة، بل فى الأمل فى العدالة.

إن شباب اليوم يقف حائرا أمام أبواب يظن أنها مغلقة ويقول: ماذا أفعل؟. ولو أنه استطاع أن يتغلب على تمسكه بشهادة جامعية لاتعنى شيئا واتجه إلى حرفة أخرى مما يكسب المال الحلال لما تحير لأن الدنيا لم تنته بعد وأبواب المكاسب لم تغلق، والأرزاق مفتوحة الأبواب، وفى بلدنا هذا ألـوف أبواب الـرزق الحلال، ولكننـا لانراهـا لأن على عيـوننا تلك الشهادات التى هى أشبه بقطع الجلد التى يضعونها على جوانب عيون الخيل والبغال والحمير حتى لا نرى إلا طريقًا واحدًا هو طريق المواشى. وعبدالناصر قال يومًا: لن أستريح حتى يأكل الثلاثون مليونا من يدى!. وقد فعل وفعلنا!° ومازلنا إلى اليوم نأكل من كفه المفتوحـة ولكن أى أكل!.

وقد كتبت مجلة فورشن الأمريكية سنة ١٩٦٥ مقالا قالت فيه: إن

زمن عمل الملايين قد انتهى ولن يجيء مرة أخرى أمثال روكفلر أو فورد أو تدربيلت. وفى سبتمبر ١٩٨٢ أصدرت مجلة فوريس الأمريكية عددا خاصا عن أصحاب البلايين وأصحاب الملايين الذين يملك الواحد منهم ١٠٠ مليون فما فوق فى الولايات المتحدة فأحصت منهم ٤٠٠ رجل وامرأة ذكرتهم بالاسم وخصصت لكل منهم فقرة طويلة، تبين أن منهم ٢٨ بدأوا من الصفر من أوائل السبعينات ومنهم على سبيل المثال شاب دخل الولايات المتحدة مهاجرا من تشيكوسلوفاكيا ولم يكن يملك إلا حوالى ٢٠٠ دولار، وهو ابن صاحب كافيتريا صغيرة فى براج. وله فهم وتخصص فى مسائل المطاعم والمطابخ، وأهم من ذلك أنه كان صاحب عزيمة وطموح وإصرار على ألا يكون صغيرًا، وبدأ بعربة قهوة وعصير وشاى على ناصية شارع صغير فى مدينة (كولورادو)، وكان قد قصدها لأن له اختًا متزوجة بمدرس هناك، والعربة التى بدأ عليها أصلها عربة أطفال أعطته إياها سيدة، لأنها لم تعد تحتاج إليها فأخذها وأعدها إعدادًا جميلًا كله ذوق ونظافة، وفى أول يوم وقف فيه لم يكن معه إلا ١٦ دولارا. وكان قد اشترى كيسًا قديمًا من تلك التى يستخدمها الرحالة والذين يتسلقون الجبال فيدسون أنفسهم فيها ويقفلونها «بسوستة»، وينامون فى دفء وقد سمح له صاحب قطعة أرض تستعمل موقفا لسيارات (باركنج لوت) بالنوم، والوقوف بالعربة فى مقابل تقديم القهوة له ثلاث مرات فى اليوم مع فطيرة ساعة الغداء، وفى أول يوم مر بالمحلات التجارية والمكاتب المجاورة، وأبلغ عن «افتتاحه» عربته وأخذ طلباتهم فى مفكرة، فكان يعمل ساعة ثم يوزع الطلبات نصف ساعة طول اليوم حتى منتصف الليل، ثم يغسل العربة، وينظف مواعينها ويعد أشياء اليوم التالى، وفى الواحدة بعد منتصف الليل يدخل كيسه وينام فى ركن من موقف

السيارات، وقد سمح له الرجل بذلك لأن قوانين الإسكان والإيجارات هناك عادلة وواقعية، ولو أنك سمحت لرجل كهذا بأن يقف بعربة، وينام فى أرض هى لك رحمة به لأتاك من الغد بامرأة وأربعة أولاد، وإذا أردت إخراجه بعد أسبوع لجأ إلى محام يعمل على الطريقة «الأمريكانى» وطالبك بعشرة آلاف جنيه تعويض. ولن تستطيع أن تمس عربته حتى يبت فى القضية بعد سنوات، وفى النهاية يحكمون بأنه لا حق لك فى إخراجه، وتصبح العشرة آلاف ثلاثين ألفا. ولهذا يقسو الناس عندنا بعضهم على بعض، ولا يأمن بعضهم بعضا، وكلما كنت أحقر كنت أقوى، لأن الحقراء كلهم يقفون معك.

واتسعت أعمال الرجل واقتصد مالاً له شأن فى ثلاث سنوات، وهنا ندخل فى العقلية التجارية العملية الأمريكية، فإن صاحب الأرض يرى اجتهاد ذلك الشاب وذكاءه، فيفاوضه على الاشتراك فى العمل: هو يقدم المكان، والثانى يقدم العمل، وهنا أيضا نجد الشاب التشيكوسلوفاكى ينشئ شركة اسمها ميدواى للمطاعم ويدخل فى شركة مع من يريد أن يقدم الأرض أو المكان، ويفتح الرجلان أول مطعم كافيتيريا، ولا يكون تفكير الرجل محصورًا فى «خطف» قرشين وشراء سيارة وشقة وما إلى ذلك. بل إنه يخطط لشىء أكبر وأهم فيتفق مع مزرعة كبيرة للدواجن، وأخرى للمواشى والخضروات والفاكهة، والنظم هناك تساعد، أما عندنا فإن الإدارات تقف لك فى كل طريق، ولكى تنشئ شركة محترمة منتجة وأمينة فهناك ألف عقبة، أما إذا شئت أن تنشئ مركز خطف ونهب ولطش وتهريب فلا قيود هناك. المهم أن الشاب ابتدأ يتوسع فى كل عام، يتفق مع محلات أو كافيتريات قديمة على إنشاء مطاعم وكافيتريات ميدواى، حتى

أصبح عددها الآن ١٣٨ منتشرة من الساحل إلى الساحل كما يقولون وتتبعها مزارع، ومخازن وشركة نقل وإدارات، والشاب أصبح طبعا مليونيرًا.

ولابد أن أضيف هنا أن النظام العام فى كل العالم- عدا مصر - يقف إلى جانب أى عامل ذكى نشيط أمين، وهنا مع الأسف يستطيع أصغر موظف إدارى أن يوقف مشروعًا، ويفتح أبواب الرزق والعمل لعشرات الألوف، ولكى تفتح دكانًا صغيرًا لابد من موافقة عشر وزارات، لأن النظام الإدارى عندنا وضع لخراب البيوت لا لفتحها.

واسمع هذا الخبر: لعلك سمعت بالممثلة السينمائية جيم فوندا، فهذه السيدة لاحظت اهتمام الناس فى أمريكا والغرب بما يسمونه بالكفاءة البدنية (فيزيكال فيتنس) والناس هناك يراقبون طعامهم مراقبة علمية، وعندنا تحشو السيدات أنفسهن بالنشويات فى الصباح إلى المساء «خبز وفول وأرز ومكرونة وبطاطس» وكل بنت أو سيدة، أو رجل هناك يقوم بتدريبات رياضية فى البيت أو فى ناد، ففكرت جين فوندا فى أن تحول التدريبات من واجب ثقيل إلى عملية رقص جميلة، تقوم بها السيدات مفردات أو مع الأسرة، أو مع ساكنات البيت، أو فى صالات مهيأة لذلك، واشتركت مع آخرين فى عمل دفاتر التدريبات وشرائط الموسيقى والفيديو، ونشأت قاعات تسمى الأيروبيك حيث تمارس البنات والسيدات الرياضة جماعيًا تحت إشراف مدربة فنية وأمامهن على شاشة عريضة شريط الفيديو والموسيقى، وانتشرت تلك القاعات وجماعات الإيروبيك فى أمريكا كالنار، ومنها انتقلت إلى أوربا حيث تولتها ممثلة أمريكية الأصل تعمل فى أوروبا تسمى سيدنى روم، وتصور أنت الملايين

التى تجمعت الآن لجين فوندا وشركائها من وراء هذه الفكرة، لأن الأمر اتسع فهناك ملابس التدريب وكتبه، وشرائطه الموسيقية، والفيديو وبرامجه فى محطات الإذاعة والتليفزيون، وهناك الأطباء والمدربون والمدربات، ومطاعم الإويروبيك ومجلات وجمعيات ورحلات ونواد للإيروبيك.

كل ذلك من فكرة واحدة ولكن لا ينبغى أن ننسى أن الفكرة بذرة، والبذرة لابد لها من أرض صالحة. والأرض هنا مع الأسف غير صالحة بسبب النظام الادارى، فأنت إذا فكرت فى تنفيذ فكرة فلابد أن تنشئ معها «مصلحة رش لكى ترش رايح جاى» «والمرشوش عليهم» «موظفون بدءوا حياتهم محترمين». ولكنهم أصبحوا مع الأسف «غير محترمين» والواحد منهم تجلس إليه لتكلمه فيفتح أحد أدراج مكتبه من ناحيتك نصف فتحة، وهذا هو صندوق النذور أو الصدقات غير المباركة.

صدق أو لا تصدق: كانت عندنا صناعة قبل أن تولد وزارة الصناعة، وكانت عندنا تجارة قبل أن نعرف وزارة التجارة، وكان عندنا علماء وفنانون عظماء قبل أن تنشأ الجامعات والأكاديميات.

ولكن لا تيأس أقول لك: هذا هو التحدى الذى لابد أن تواجهه لئلا تكون صغيرًا، لابد أن نصلح هذا كله ولا مفر من إزالة هذه العقبات كلها، لأن هذه العقبات هى نحن، وعندما تجلس إلى موظف لتقضى مصلحة ويفتح درج الصدقات، فاقفله، وقف وقل بأعلى صوتك: أيها السادة أنا لن أدفع شيئًا ولابد أن أقضى مصلحتى، وإلا فستتحطمون جميعًا! هنا يخافونك، وتصبح كبيرًا كالجبل. أما إذا أحنيت رأسك ووضعت ما فيه القسمة فى الصندوق فستظل صغيرًا. وتظل تصغر حتى تصبح لاشىء.

فى وادى الملوك

هذا موسم الحصاد، وعشرات الشركات التى أنفقت عامًا كاملاً كله جهد وعرق تحصد اليوم ثمار الجهد والعرق، وهى الدموع، والدموع تسمى فى مصطلحنا اليوم بالأرباح، وعيون القائمين على هذه الشركات من رؤساء مجالس الإدارات والسادة نواب الرؤساء ونواب نواب الرؤساء وأعضاء مجالس الإدارات ومن يليهم فنازلاً على سلالم الإدارات العجيبة حتى تصل إلى العامل الكادح التعبان المضحى فى سبيل الوطن، أولئك جميعًا تجرى عيونهم بالدموع الغالية مدرارًا. ومصر العزيزة الصابرة تحصد الدموع وهذا هو نصيبها من جهد أبنائها، عليها بعد ذلك أن تحول الدموع إلى أرباح والأرباح تنشر فى البيانات التى تنشرها الشركات فى الصحف هذه الأيام، وكلها والحمد لله وردية زاهرة مطرزة بماء الذهب، وهذه البيانات من نصف صفحة إلى صفحة كاملة فى الصحف اليومية خلاصتها أن الأرباح هذا العام حطمت كل رقم قياسى يخطر على البال، لأن عباقرة الإدارة عندنا فاقوا أندادهم مديرى شركات أخرى مثل: الفيسات والجنرال موتورز، وأسو وموبيل أويل، فهؤلاء مديرون ورؤساء مجالس إدارات متأخرون، لا تصل أرباح شركاتهم إلا إلى ٥٠ أو ستين فى المائة، أما نحن فإن أخيب شركة عندنا تحقق أرباحا مائة فى المائة. وهناك

شركات تكسب ١٤٠٪ وأخرى ١٤٥٪ وإنتاجية العامل وصلت فى بعض الشركات العبقرية إلى ١٥٠ فى المائة، وهى نسبة لم يصل إليها عامل يابانى أو غير يابانى، وهذا العامل المصرى العظيم الذى نراه طول النهاريتشمس فى فناء المصنع ويشرب كوب الشاى وراء كوب الشاى، هذا العامل الذى تراه يحقق إنتاجية تصل إلى ١٥٠ فى المائة لأنه عبقرى وليس غبيًا مثل العامل الفرنسى أو الألمانى أو اليابانى، فهؤلاء أغبياء متأخرون، ولهذا فهم يعملون لكى يكسبوا، أما عاملنا المصرى أعظم عامل فى الدنيا فقد وصل إلى مالم يصل إليه عامل فى الدنيا. إنه يربح وهو جالس يتشمس ويشرب الشاى، وإذا لم يعجبك هذا الكلام فانظر فى بيانات الشركات موقعًا عليها من فلان وفلان وشركاهم محاسبين دوليين.

ومن زمن طويل يقول الناس إن خدمة الأوطان جهد وعرق ودموع، وقد قسمنا نحن هذه الثلاثة قسمة عادلة بيننا وبين مصر العزيزة، فلنا الجهد والعرق ولمصر الدموع، والجهد ياسيدى عندنا هو جهد المقل. والعرق عرق العافية، والشيء الوحيد المؤكد هنا هو الدموع، وتلك هى القسمة الضيزى التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، واذكر قول الله سبحانه فى سورة النجم: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذن قسمة ضيزى إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ والأسماء التى سموها هم وآباؤهم هى الأرباح، وهم حقا لا يتبعون إلا الظن وما تهوى نفوسهم.

وإذا لم يعجبك هذا الكلام فتقدم ياسيدى بطلب إحاطة فيجيبك الرد الحاسم الدامغ فى صورة بيان لا يخر الماء مدعمًا بالقوانين واللوائح

والقرارات، فإذا أبيت أن تقتنع، فليس لك عندنا إلا النبوت أو الشلوت واختر بينهما ياسيدى وخذ ما هو ألذ عندك وأشهى إلى نفسك.

وهذه الشركات جميعا تتبع وزارات، وهى بدعة ابتكرناها، ولا نظير لها فى الدنيا، فالوزير بطبعه رجل هالك تحت ثقل مسئوليات وزارته، فجئنا نحن ووضعنا على كاهل كل وزير من عشر شركات إلى عشرين حتى نقضى على البقية الباقية من جهده وعافيته فى أسرع وقت ممكن، فعليه أن يعصر نفسه عصرًا حتى يدير هذه الشركات جميعا ويشرف على أعمال كل منها إشرافًا دقيقًا مباشرًا وما يقدر على القدرة إلا القادر.

ولهذا فإن الوزراء يتساقطون كأوراق الخريف، وبين يوم وآخر يخطف الواحد منهم رجله إلى لندن أو نيويورك ليجرى عملية فى القلب ثم يعود ليحمل العبء الثقيل..

أما لماذا يتسابقون على الحصول على الوزارات رغم هذا الهلاك، ولماذا يتمسكون بالوظيفة ويتشبثون بها تشبث المستميت؟! فهذا يرجع إلى فرط الوطنية والإصرار على التضحية فى سبيل الوطن، فإذا لم يقنعك هذا فلا تجر وراء المتاعب. فإن العلم الزائد على حده يضر تماما كالعلم الناقص، وقديمًا قال شكسبير فى هامليت على لسان أحد أبطاله: (هو راتشيو) هناك أشياء يحسن أن تغيب عن علمك! وحديثا قال شاعر الربابة الشعبى:

ملك الملوك إذا وهب — لا تسألن عن السبب
الله يعطى من يشاء — فقف على حد الأدب

أما لماذا ينبغى أن تقف هنا عند حد الأدب فلأنك تطأ هنا عتبات عالم مسحور كله أسرار وأخطار، هو عالم الأقوياء والناس العظام، إنه دنيا

الجاه والسلطان. إنه يشبه وادى الملوك الراقد هناك على الضفة الغربية للنيل أمام الأقصر مدينة السحر والفن والعلم. هنا فى وادى الملوك يرقد أو كان يرقد عدد من عظماء ملوك مصر تحتمس الأول والثالث ورمسيس الثانى، أما أشهرهم فهو توت عنخ آمون ذلك الملك الصبى الذى قدر له بعد نحو ثلاثة آلاف سنة من موته أن يبعث حيًّا ليشغل وظيفة سفير مصر المتنقل إلى كل بلاد الدنيا، إنه ما يسمى فى وظائف السلك السياسى: امباسادور آت لارج، أى سفير مطلق بلا سفارة، إنه سفير المجد المصرى الذاهب أيام كانت مصر جوهرة الدنيا ونجمها الصاعد وقائدة الأمم.

ووادى الملوك ومعه وادى الملكات يعتبران أعظم مؤسسة اقتصادية تملكها مصر بعد قناة السويس، فهما مصدران لدخل بلا حدود، لأن مئات الألوف من البشر من أقطاب الأرض الأربعة يريدون أن يزوروهما، فهنا أعظم مقبرة على وجه الأرض، فبعد أن تزور الأقصر وتمتلىء نفسك بروعة الكرنك تعبر النيل إلى الضفة الأخرى وتنزل قرب تمثال ممنون، ومن ثم تمضى إلى تل ضخم كأنه الهضبة تشقه وديان أنشأ الناس شوارع تؤدى إليها، فى هذه الوديان مدافن عظيمة، إذا دخلت بعضها مثل مقبرة سيتى الأول وجدت نفسك فى عالم من الروعة والرهبة والفن والجمال الحزين والعبرة. ممرات طويلة رسم المصرى القديم على جوانبها مناظر الأرض وعلى سقفها مناظر السماء، فقد نبش اللصوص معظم هذه القبور وسرقوا كل ما فيها ولكنهم لم يستطيعوا سرقة الجدران أو السقوف، وفيها من العلم والفن مجلدات، وعندما تصل إلى غرفة الدفن فى النهاية فأنت فى الغالب لن تجد إلا حجرة من الجرانيت خاوية على عروشها، ولكن رجلاً سعيدًا يسمى هوارد كارتر عثر فى سنة ١٩٢٢ على غرفة الدفن سليمة

عليها أختامها، هنا كان يرقد توت عنخ آمون فيها تابوته الذهبى وحوله كل ذخائره، والمصريون القدماء كانوا أعقل بكثير من المحدثين: كان الرجل منهم إذا مات أخذ معه كل ذخائره حتى لا يتشاحن الورثة ويسرعوا إلى المحاكم.

من هنا خرج توت عنخ آمون وصدر أمر بتعيينه سفيرًا طائرا فى وزارة الخارجية، وطاف الدنيا ودعا لمصر دعوة واسعة، وما يكاد يزور بلدًا حتى يهرع أهله إلى مكاتب السياحة ليزوروا مصر ويروا آثارها العظيمة، وكان من الممكن أن يكون وادى الملوك والأقصر والكرنك وبقية مواقع الفن والعلم حتى إسكندرية البطالسة مورد الدخل الأول لمصر، ولكن سيل السائحين انحسر وتراجع، وكل سائح أتى عاد ليقول لقومه: لا تذهبوا إلى مصر، إنها جميلة وآثارها رائعة، ولكن المتاعب التى تلاقونها هناك تفوق ما ستظفرون به من المتعة. فاقرأوا عن مصر فى الكتب ولا تزوروها، ولا داعى أبدا لأن يذهب الواحد منكم ليزور وادى الملوك فيختم حياته فى دهاليز أحد القبور.

ووادى الملوك وكل آثار مصر تابعة لوزير السياحة، وهى فى مجموعها تعتبر أعظم مورد من موارد الدخل لمصر. ولكن السيد وزير السياحة. وأنا لا أعنى هنا الوزير الحالى أو السابق عليه أو التالى له عن قريب، وإنما أعنيهم أجمعين، ففى عصور حكمهم السعيدة انتهت مصر كبلد سياحى. ولم يعد يقبل لزيارة الآثار فيها إلا المغامر الجرىء. ووزراء السياحة يعللون هذا التراجع وتلك الخسارة بتعليلات وأسباب مهذبة معقدة وغامضة، مثل المتغيرات الدولية والأزمة الاقتصادية العالمية وارتفاع

أسعار السفر بالطائرات، وأمثال هذه الحجج والأعذار التى نقبلها لأننا ناس مهذبون نقف على حد الأدب.

وأنصح السيد وزير السياحة أو الذين يرشحون أنفسهم ليكونوا وزراء سياحة فى المستقبل بأن يقرءوا خطابات زوار مصر من الأجانب التى تنشرها جريدتان مصريتان عظيمتان إحداهما تصدر بالإنجليزية وهى الأجيبشان جازيت، والثانية بالفرنسية وهى البروجريه أجيبسيان، فهنا يشرح سائحون صادقون المتاعب التى يصادفونها فى زيارتهم لمصر ومعظمهم يؤكدون فى خطاباتهم أنهم محزونون جدًّا بسبب سوء معاملة المصريين لزوار آثارهم ومعالم مجدهم من الأجانب. وأنا أنصح وزير السياحة المقبل بأن يقوم بالتجربة لحسابه من الآن، فستكون هذه أكبر معين له على النجاح فيما لم ينجح فيه وزير سياحة سابق، ستذهب أيها السيد الوزير المقبل إلى أى بلد أوروبى ثم تعود منها سائحًا، أى تزعم أنك سائح، ولهذا يحسن أن تتكلم عندما تصل مطار القاهرة لغة أجنبية ولا عليك إذا كانت لغتك الأجنبية فى غاية البهدلة، فلن يلاحظ أحد ذلك، لأن مستوى معلوماتنا فى اللغات أصبح يعتبر بواب الفندعالما فى اللغات.

وستفرغ يا سيدى من إجراءات الجمارك، فهى طيبة اليوم ولا بأس بها، وتصل إلى باب الخروج من المطار لتجد نفسك محاطًا بعصابة مخيفة من مافيا سائقى التاكسى، وهم يحيطون بك وأنت - طبعًا - لا تفهم حرفا مما يقولون، ولكنك ستشعر بالخوف قطعًا. ولا تفكر ياسيدى الوزير الحق فى الاستعانة برجل البوليس، إنه أمامك ولكنه لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم، وربما كان معذورًا لأنه رجل واحد، وهؤلاء مافيا يتنازعون

حقائبك وثيابك ولا مفر لك من التسليم، ولن تصل إلى فندقك إلا وقد طارت منك ما بين عشرين وخمسة وعشرين جنيها على الأقل.

وأنت قد حجزت حجرتك، ولكن موظف الاستقبال فى الفندق يقول إن اسمك ليس هناك. ولا تنزعج ياسيدى فإن اسمك سيوجد بعد ان تستقر خمسة جنيهات على الكاونتر وتتسرب إلى أحد الجيوب.

ولا أحدثك يا سيدى عن أسعار الغرف والوجبات، فهذه أنشودة أخرى، ولكنى أرجوك أن تراجع كل فاتورة تقدم إليك، فأنت لابد واجد خطأ فى الحساب: الليالى الأربع تحسب خمسًا أو ستًا. وهناك وجبات لم تأكلها وكلتها محسوبة عليك، ومشروبات لم تذقها ولكنها فى قائمة حسابك.

ومن باب الفندق إلى أى مكان ستجد نفسك فى قبضة أولئك الناس: المشوار إلى الأهرامات يكلفك اليوم ثلاثين جنيها والسائق يأخذها ويشتمك. وأصحاب الجمال والخيل عند منطقة الهرم فتوات وبلطجية، يرغمونك على ركوب الجمل، وقد حكى لى صديق قصة سائح رآه محاطا باثنين أو ثلاثة من الجمالين يصرون على أن يركب الجمل بالقوة، والرجل بطبعه لا يحب الجمال فهو يصيح ويستغيث: أنا أكره الجمال - لا أريد الجمال! ولا فائدة، والشاويش من بعيد ينظر ويتفرج فهذه فرجة، ويسرع صديقى ويخلص السائح من أيدى الجلادين.

ولا تبحث قط عن دورة مياه أو مكان تغسل فيه يدك، وأنت محكوم عليك فى منطقة الأهرامات أن تظل مصلوبا طوال يومك، أما رجالك - رجال وزارة السياحة أقصد - فأنت لن تلقى منهم أحدًا، وإذا وجدت

كشكا عليه لافتة تقول: استعلامات فأنت لن تجد أحدًا قط، لأن موظفى وزارتك رجال يقومون بواجبهم حق القيام.

والقصة ياسيدى طويلة جدًّا ومحزنة جدًا، فأنت ستجد نفس الشىء فى القطار إلى الأقصر، وإذا شئت الذهاب بالطائرة فإن آلامك ستزيد، وفى الأقصر سيرهقك أولئك الناس إرهاقا، وبعض شركات السياحة أقسى على السائحين من سائق التاكسى. وهناك مكتب لوزارة سيادتك فى الأقصر. ولكنك لن تجد أبدًا واحدًا من الموظفين العشرة المعينين عليه. ولن تجد طوال رحلتك نشرة سياحية ولا خريطة ولا أى معاونة، فأنت هنا فى مغامرة مخيفة، وسائق التاكسى يطلب من السائح خمسين جنيها لكى يذهب به إلى الأقصر والكرنك ويعيده إلى فندقه.

وتعود ياسيدى الوزير إلى القاهرة وأنت لا تصدق أنك عدت بالسلامة، وهنا يا سيدى تستطيع أن تتولى وزارة السياحة، فهذه القصة كاملة أمام عينيك، فى كل مكان يغطى ظلام قلوب المصريين المعاصرين على نور المصريين القدماء،ولم أر أمة كانت فى جاهليتها خيرًا مما أصبحت عليه بعد الجاهلية إلا مصر وأمم العروبة جميعًا.

* * *

ولكن الذى أخشاه هو أن السيد الوزير المقبل سيتحول بعد أن يدخل عالم الوزراء إلى واحد من سكان وادى الملوك، ونحن فى مصر نوعان، نوع يسكن وادى النيل وهم عامة الناس، أو ما نسميهم بالرعاع أو العامة من أمثالنا من العاملين المتعبين المحتسبين، ثم سكان وادى الملوك، وهم الأقوياء والناس العظام. والواحد منا يكون من سكان الوادى يعيش معنا فى أمان الله، فإذا مسته عصا الحكم وأضاءوا له النور

الأخضر واختفى وراء الأبواب الخضراء المزدوجة أصبح من سكان وادى الملوك. ووادى الملوك هو وادى الراحة. أنشأه أجدادنا الأماثل ليقضوا فيه فترة الانتظار بين الموت والعودة إلى الحياة، ولما كانوا واثقين من أنهم سيدخلون الجنة - لأنهم ملوك - فقد كانوا يجتهدون فى المحافظة على أجسادهم محفوظة محنطة، وكانوا يأخذون معهم الزاد والزواد حتى إذا تأذنت الآلهة وعادت الروح إلى الجسد نهض الواحد منهم سليمًا معافى، ونهض معه خدمه فأعدوا له طعامه وشرابه وحمامه وعطوره ليدخل دار الخلود فى أبهة كاملة، والشيء الطريف الذى نلاحظه أن أجدادنا كانوا فى أول الأمر يوسعون إلى جوارهم مكانًا فى قبورهم، حتى إذا حان حين الحرم المصون، رقدت إلى جانب زوجها حتى يبعثا معا ويواصلا حياتهما معًا، ثم سئموا ذلك وقالوا: إذا كان الإنسان يعيش مرتين فمن الأفضل أن تكون هناك زوجتان واحدة للأولى وواحدة للثانية ولهذا أنشئوا وادى الملكات.

وسكان وادى الملوك يختلفون اختلافًا تامًّا عن سكان وادى النيل، فما يكاد الواحد منهم يدخل واديهم حتى يتبدل خلقًا جديدًا، فلا يعود يتكلم لغتنا أو يرى الدنيا بعيوننا. وهو ينسى الآلام التى كان يعانيها معنا ويشكو منها. ويتعجب من شكوانا، ويتكلم بلغة الصفحة الأولى من الصحف القومية وهى صفحة وردية مشرقة كل مافيها جميل، على الصفحة الأولى رخاء وسعادة ووفرة وتيسير لكل عسير، وها هى ذى صحف صباح اليوم الذى أكتب فيه هذه السطور تعلن أن خطة قد وضعت ودخلت دور التنفيذ لحل كل مشاكل المرور: لا مطبات لا اختناقات ولا حفر، ولا نقر، ولا أرصفة تكسر الرقبة ولا طفح مياه يتخطى العتبة،وكل ذلك سينتهى فى القريب العاجل، والله سبحانه يحيينا ويحييك،

ووزارة المواصلات تعلن إنشاء ٧٠٠,٠٠٠ خط تليفونى جديد فى ثلاث سنوات، ولا أدرى لماذا لم يقولوا مثلا إنهم سينشئون ٢٣٠,٠٠٠ خط هذا العام. ويدعوا العام القادم للعام القادم، ولكن حكاية السنوات الثلاث أسهل، ويا عالم من منا يعيش؟ وهذا خبر عظيم يعدنا بالحد من الاستيراد وزيادة التصدير لمنع استنزاف الثروة القومية؛ ومحاربة الفساد والانحراف لتشارك الجماهير فى تنفيذ الخطة، وهاى ذى جريدة كبرى تعلن أنها بإذن الله ستطبع عن قريب بآلات عجيبة تطبع لا أدرى كم نسخة فى الثانية وستطبع الجريدة خالية من الأخطاء النحوية لأن الخليل بن أحمد وسيبويه والأخفش والزجاج كانوا أعضاء فى اللجنة التى وضعت مشروع المطابع الجديدة، وسيطبعونها بثمانية ألوان، والخبر نفسه فيه ثلاثة أخطاء أو أربعة أخطاء نحوية ومثلها من الأخطاء المطبعية. كأن شكوانا كانت من حروف الطباعة لا من المادة التى تتضمنها المقالات التى تطبع بها الحروف، وكأن متاعبنا ستخف إذا كانت متاعبنا بثمانية ألوان.

وأطرف أخبار الصفحة الأولى فى هذا اليوم خبر يقول: إنه لأول مرة فى تاريخنا الحديث تمثل القضية الاقتصادية محور اهتمام الحكومة، وهذا خبر لا يصدر إلا من أحد سكان وادى الملوك، فهؤلاء السادة لا يعلمون أن القضية الاقتصادية هى منذ خلقنا الله محور اهتمامنا وسبب بلاوينا وشكوانا نحن أهل الوادى السعيد.

وقد كان لنا فيما مضى صديق من أساتذة كلية الحقوق، وكان يركب الترام والأوتوبيس معنا، ويشاركنا الشكوى من الزمان وهموم الزمان، ثم أراد أحد رؤساء الأحزاب أن يجدد ويدخل عناصر جامعية فى وزارته،

فكان صاحبنا ممن فتحت لهم أبواب وادى الملوك، فدخل واقتعد كرسى الوزارة، وذهبنا نزوره ونهنئه فى مجلسه العالى وراء الباب الأخضر، وفى حديثه إلينا قال لنا: إن منصب الوزارة لا يعجبه لأنه تعب بلا جزاء، وقال: إن راتب الوزير (أيامها) لا يتعدى ١٦٢,٥ جنيه مصرى، فرثينا لحاله واقترح صديقنا صلاح ذهنى رحمه الله أن نفتتح فيها بيننا اكتتابًا لنعاونه به على تحمل مسئوليات الوزارة وتكاليفها.

وبعد شهور ياسيدى انتقل صاحبنا من بيته فى شبرا إلى فيلا عظيمة فى شارع الهرم، واقتنى سيارة خاصة، ثم زاره فى بيته صلاح ذهنى ورأى من فاخر الرياش وعجيب الأثاث ما طار له عقله، وكان رحمه الله صاحب نكتة ودعابة لاذعة فقال: ربما كان راتب الوزير كما قال أخونا ١٦٢,٥، ولكن ما خلف الراتب أعظم وهو والله ١٧٢٥ جنيها فى الشهر لا تنقص. وإلا فقولوا لى كيف يعيش الإنسان عيشة ملوك ويقتنى فيلا وسيارة ويصبح صاحب هيئة وأبهة ويسافر إلى أوروبا للاستجمام؟ وكل ذلك بمائة واثنين وستين جنيها وخمسمائة مليم فحسب؟

والذى غاب عنا يوم ذاك أن الناس إذا دخلوا وادى الملوك أصبحوا سكان عالم آخر أو كوكب آخر، وينتقلون من التعامل بالقروش إلى الجنيهات ثم عشراتها ومئاتها.

وقد كنا ونحن شباب نحسن الظن بالمستقبل ونقول: سيأتى اليوم الذى نكون فيه مثل إنجلترا مثلا: يصبح الواحد منهم وزيرا فلا ينقل إلى وادى الملوك، بل يظل فى وادى الناس. فإذا الأمر يتصاعد ويتزايد، وقد كنا لانرضى أن يقال: حضرة صاحب المعالى وزير المعارف، فأصبح الآن نصه: سيادة الدكتور وزير التربية والتعليم، والتعليم العالى، والبحث

العلمى، ونائب رئيس الوزراء لشئون الخدمات، وأمين عام مساعد الحزب الوطنى، ورئيس المجلس الأعلى للجامعات، والرئيس الأعلى لأكاديمية البحث العلمى إلى آخره.. إلى آخره.

وهذه ألقاب ياسيدى تذكرك بألقاب الملك السلطان الأشرف، العزيز، الكامل، الناصر، محمد بن السلطان المنصور قلاون الأشرفى العادلى المجاهد. الفارس البطل الهمام الضرغام سيف الإسلام.. إلى آخره.

وساعات العمل التى يستطيعها الإنسان عشر لا تزيد، فإذا قسمت أعمال السيد الوزير على ساعات عمله وجدت أنه بالضرورة لن يستطيع القيام بها حتى لو كانت ساعات العمل عشرين أو أربعا وعشرين، ولقد دخلت مرة مكتب وزير المالية مع سكرتيره فى غيابه، نبحث عن طلب كان لنا، فوجدت الطلبات والأوراق التى تنتظر إمضاء الوزير أكواماً وتلالاً، وشعرت بضيعة الأمل فقلت لصاحبى: دعك من هذا الطلب، لو أننا عمرنا عُمر نوح لما حصلنا على إمضاء هذا الوزير.

وقد انتهى عصر هذا الوزير، وجاء غيره والأوراق تتزايد، وكلها حبيسة الغرفة تنتظر الإمضاء فذكرنى هذا بحكاية وزير من وزراء الفاطميين، أراد أن يظهر بمظهر العادل، فكان يجعل فى آخر موكبه رجلاً يحمل سفطا يلقى الناس فيه شكاواهم لينظر فيها الوزير، فإذا وصل القصر دخل الوزير إلى غرفة الطعام، أما سفط الشكاوى، فكان الخادم يتجه به إلى المطبخ ويفرغه فى الفرن ليطبخ عليه طعام الوزير التقى الورع الفاضل الكامل عصمة الدنيا والدين وسيف مولانا أمير المؤمنين.

لا أحد يحب الروس ولا الأمريكيين

تحتاج إلى أن تنظر فى أطلس كبير جدًّا حتى تعثر على جزيرة جرينادا هذه التى شغلت الدنيا والناس الأسبوعين الماضيين، إنها واحدة من عشرات الجزر الصغيرة والكبيرة التى تمتد من جنوبى الطرف الشرقى لجزيرة كوبا حتى قرب سواحل فنزويلا، هذا القوس من الجزائر هو مدخل البحر الكاريبى، بحر العجائب والمغامرات والقرصان والعواصف، هذه الجزر كلها تسمى جزر الرياح (ايزلاس دل بينيتو أو الأنتيك)، بعضها معروف لنا مثل «جواد الوب والمارتنيك وبتاجوس وانتيجوا وبويرتريكو»، وبعضها مجهول لنا مثل «سانتالوثيا وغرناطة هذه».

الجزيرة كشفها كولومبوس فى رحلته الرابعة سنة ١٤٩٨. كشفها مع كثير غيرها قبل أن يعود إلى أسبانيا. ويلقى فى السجن بتهم بشعة منها السرقة وخيانة التاج الأسبانى، فى سنة ١٦٥٠ احتل الفرنسيون الجزيرة وأدخلوها ضمن أملاكهم الكاريبية، وأسكنوها عددا من السود جلبوهم من أفريقية عبيدًا لفلاحة الأرض، وفى سنة ١٧٨٤ انتزعتها إنجلترا من فرنسا وضمتها إلى دولتها الكبرى وأتت بسود آخرين، واستقر فى الجزيرة عشرات من المغامرين الأوروبيين، وفى ٧ فبراير ١٩٧٤ أصبحت

الجزيرة دولة مستقلة ذات سيادة، داخلة فى الكومانولث البريطانى وعضوا فى الأمم المتحدة، مساحتها حوالى ٢٥٠ كيلو مترًا مربعًا وسكانها ١١٠ آلاف، حاكم الجزيرة مندوب سام بريطانى يسمى جول سكون ممثل لإليزابيث الثانية ملكة بريطانيا، ولكن الجزيرة لها رئيس وزراء هو موريس بيشوب الذى قتل قبل الغزو الأمريكى الأخير.

موريس بيشوب كان شيوعيًا، وهو الذى فتح أبواب الجزيرة للروس والكوبيين، بعد أن قام لروسيا بكل ما طلبت منه ولم تعد بحاجة إليه فدبرت اغتياله بواسطة عدد من العسكريين الذين تعلموا فى روسيا وكوبا، هذا الانقلاب كان الخطوة الثانية نحو تحويل الجزيرة إلى حصن شيوعى على أبواب الكاربى مثلها فى ذلك مثل كوبا.

عيون الولايات المتحدة كانت ترقب التطور فى تلك الجزيرة بعينى الصقر، كانت تستعد لغزوها من أوائل ١٩٨٢، المندوب السامى البريطانى كان فى غفلة وتقاريره إلى الخارجية البريطانية لم يكن يقرؤها أحد.

عندما نزل الأمريكيون الجزيرة وجدوا فيها أضعاف ما توقعوه، الروس كانوا قد حولوا هذه الجزيرة إلى حصن، ولو تأخر الغزو الأمريكى لأصبحت غرناطة كوبا شيوعية جديدة: قواعد عسكرية ومطار ومخازن سلاح، ومخبأ للغواصات، ومحطات إرسال واستقبال. وأمريكا التى توقعت إخضاع الجزيرة فى بياض نهار، احتاجت إلى أسبوعين لتستولى على كل مراكز المقاومة.

الغزو الأمريكى تم بالاتفاق مع بريطانيا، ولكن النفاق الإنجليزى احتج على العدوان على عضو من أعضاء الكومانولث، ودول حلف الأطلسى احتجت احتجاجًا فاترًا، فى حين أن روسيا ودول حلف وارسو

يقيمون الدنيا ويقعدونها غضبًا لهذه الجزيرة الصغيرة التى راحت ضحية للاستعمار الرأسمالى، يـدمرون أفغـانستان ويفتكـون بالأفغـانيين، ثم يغضبون لجزيرة لم يصب فى غزوها أكثر من عشرين إنسانا، ثم إنهم هم أنفسهم خدعوا رئيسها، واستخدموه، ثم ذبحوه وساروا فى دمه بأقدامهم. وقبل ذلك وفى طرف آخر من أطراف هذه الدنيا يطلقون صاروخًا على طيارة مدنية فيحرقونها بمن فيها وما فيها.

ولماذا أسقطوا تلك الطائرة وأهلكوا ٢٦٩ آدميًّا معها؟

الجواب عند الولايات المتحدة.

فالذى لا شك فيه هو أن أولئك الأمريكيين كانوا قد وضعوا فى تلك الطائرة شيئًا يتجسسون به على الروس، والروس لابد قد عرفوا ذلك فراقبوا الطائرة، وعندما مرت فى مجالهم الجـوى طلبوا منهـا أن تهبط، والطيار - لابد أنه كان صنيعة أمـريكية أو ربمـا كان من المخـابرات الأمريكية - عـرف أنه لـو هبط انكشف، وما كـان يحسب أن روسيا ستضرب الضربة القاتلة، ولكن روسيـا ضربت، إنها هنـا تدافـع عن إمبراطوريتها. وقامت قيامة الدنيا، ولكن روسيـا لا تحفل بـالدنيـا أو بأهلها، إنها تدافع عن كيانها، و ٢٦٩ إنسانًا ماتوا وكأنهم ذباب ووضعوا فى أكفان الصراع العالمى.

ونحن - العرب - نعرف الانجلوسكسون جيدًا، ومن مـائة سنـة ونحن من ظلمهم ونفاقهم وإنسانيتهم وخداعهم فى شقاء، ونعرف أنهم قادرون على تعريض هذا العدد من الناس للموت إذا كان هذا - فى رأيهم - جزءًا من معركتهم للبقاء.

وإلا فإن الطائرات تعبر جو روسيا فى كل دقيقة من النهار والليل،

ولا يصاب شيء منها بأذى، فلماذا هذه بالذات أسقطت بالصواريخ؟

ونحن المصريين خاصة - نذكر أن طائرة ليبية كانت تحمل نحو مائتى مصرى برىء أسقطها الإسرائيليون على أرض سيناء لمجرد أنها أخطأت المسار أو حملتها رياح ظالمة، فدخلت جو سيناء المصرية أيام كان الإسرائيليون يحتلونها فكانت الكارثة، ويومها لم تغضب أمريكا ولا احتجت، وإنما راحت حيوات المصريين، ولم يتحرك لها ضمير إنسان لا فى أمريكا ولا فى إنجلترا أو أوروبا.

ونحن المصريين حزنًا على مصير رجال البحرية الأمريكية الذين ماتوا فى بيروت، وعلى الجنود الفرنسيين الذين ماتوا هناك، ولكننا نفهم أيضا لماذا ماتوا؟ ونسأل: ماذا يفعل الأمريكيون والفرنسيون فى لبنان؟ يقرون السلام؟ وأى سلام؟ إنه سلام إسرائيل، سلام ربع مليوم مارونى لبنانى يريدون أن يحكموا بالقوة والإرهاب بلدًا تسعون فى المائة من أهله مسلمون، ولكن فرنسا قررت ذلك قبل أن تخرج من لبنان، قررت أن يظل لبنان تابعا لفرنسا تحكمه باريس، وأمريكا اليوم تريد أن يحكم لبنان من واشنطون، ولهذا فكل المسلمين فى لبنان مجرمون ويساريون وضالون، وإذا كان هناك لبنانيون لهم الحق فى الكلام باسم لبنان فهم بيير الجميل وبشير الجميل، ثم أمين الجميل، كتائب فى كتائب. والذين يمثلون لبنان اليوم مع أمين الجميل هو سليم إلياس، وانطوان فتال وغسان توينى، قائد الجيش اللبنانى مارونى، وثلث الضباط موارنة، وثلثا الجنود سُنة مسلمون، ثم يريدون أن تستقر الأمور على ذلك، فإذا تحرك مسلم يعترض على ذلك - سنيا كان أو درزيا أو شيعيا - فهو خارج على القانون.

وأجهزة إعلامنا الذكية عندما تتحدث عن أولئك المسلمين لا تصفهم

إلا بأنهم يساريون أى شيوعيون، وأهل اليمين هم الكتائبيون ولا أحد غيرهم.

وفرنسا التى تقول إنها تسعى للسلام تبيع للعراق طائرات رهيبة لكى تحرق إيران، صاروخ واحد من صواريخ السوبر اتاندار أغرق بارجة بريطانية، فما بالك بما تفعله خمس طائرات تستطيع كل منها أن تدمر نصف مدينة إيرانية مثل همدان أو تبريز أو أصفهان.

نحن لا نرضى عن نظام الخمينى. لكن ولماذا نعاديه؟. لأنه نظام مستبد فيما نقول، ولكن أليست هذه مسألة إيرانية داخلية؟ إذا كان الخمينى ظالما فقد كان شاه إيران أشد ظلمًا واستبدادًا من نظام الخمينى، والخمينى لم يعتد على أرض عربية، ولكن شاه إيران اعتدى على ثلاث جزر عربية وانتزعها من أصحابها العرب، وإمارة عربية كاملة هى عربستان والمنتفق كل أهلها عرب انتزعها منا شاه إيران وأبوه، وعشرات الألوف من شباب إيران ماتوا فى سجون الشاه، ونحن لم نعاد الشاه ولا كرهناه ولا قاطعناه، لأن أمريكا كانت راضية عنه، ولكننا كرهنا الخمينى وقاطعناه ولعناه.

وكيف ستكون النتيجة فى النهاية؟

ستكون أن إيران إذا انسدت أمامها الأبواب فستلقى بنفسها فى أحضان روسيا، ويومها لن ينام عربى واحد آمنًا فى فراشه.

ولأن أمريكا تكره روسيا، فنحن نعادى روسيا ونقاطعها.

ولن تأمن دولة فى الدنيا على نفسها إذا هى عادت روسيا. وهيلموت شميت قال للسادات مرة: لا تسرف فى عداوة الروس، لا تقطع الحبل مع الروس لأنهم خطرون جدًا.

وعندما يتحدث هيلموت شميت عن روسيا فهو يعرف ما يقول، وإذا لم تعتد روسيا علينا عدوانًا صريحًا فخير لنا ألف مرة ألا نهيجها ضدنا، إن الدنيا كلها بما فيها الولايات المتحدة ورونالد ريجان وهنرى كيسنجر وكاسبار واينبرجر وكل إنسان له صوت فى أمريكا يرهبون روسيا.

لأن روسيا أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ، وربما كانت أغنى دولة على وجه الأرض، تحولت اليوم إلى حصن واحد مخيف حقًا، ومن المحيط الهادى إلى وسط أوروبا عند مجرى نهرى الأودار ونايسة قلعة حصينة، تستطيع أن تضع فى الميدان إذا أرادت ثلاثين مليون جندى يحمل كل منهم من السلاح ما يبيد به قرية كاملة.

وقوة الدبابات والمصفحات التى تملكها روسيا، تستطيع أن تجتاح أوروبا كلها فى ثلاثة أيام، ولديها من الطائرات قاذفات القنابل ما تستطيع به تدمير كل مدينة على الأرض فى مدى أسبوع، والقوة البحرية الروسية تزيد على البحريتين الأمريكية والإنجليزية مجتمعين.

* * *

وكل تلك القوة الهائلة تعيش تحت رهبة الخوف، والخوف فى ذاته سلاح رهيب، لأن الخائف إذا استبد به الخوف لم يبال بشىء أمامه، وخوف هتلر من روسيا جعله يهاجمها فى أغسطس ١٩٤٢، وعندما هاجم هتلر روسيا انتهى أمره، وعندما شرع فلاديمير اليانوفتش لينين بناء دولته الشيوعية، كان يظن أنه يبنى دولة البروليتاريا، أى دولة القوى العاملة، لقد كان لينين رجلًا مستبدًا طاغية، كان إنسانًا دمويًا عنيفًا، كله عقل ولا مكان للقلب فى كيانه، ولكى يقيم دولته الشيوعية قتل الملايين وأباد طبقات

كاملة من الناس، ولكنه لم يكن يحب العسكريين، وكان حذرًا جدًّا فى بناء جيشه الأحمر.

وإلى قيام الحرب العالمية الثانية لم تكن روسيا تملك قوة عسكرية يحسب لها حساب، وعندما اقتحمت قوات «الفيرماخت» حدود روسيا بطول ٨٠٠ كيلو متر فى أغسطس ١٩٤٢، كان هتلر يقدر ثلاثة أسابيع لدخول موسكو وتوقيع معاهدة الاستسلام، ولكن قوات هتلر عندما وصلت نهر الفولجا، وأرادت عبوره عند ستالينجراد فتح عينيه على ما أذهله:

قوة الروس وتصميمهم الذى لا يوصف فى الدفاع عن أرضهم، وجيش الجنرال باولوس ظل يقاتل من منتصف شتاء ١٩٤٢، إلى آخر شتاء ١٩٤٣ حتى فنى معظمه، والجنرال باولوس نفسه استسلم ونفى إلى سيبيريا، وتلك كانت نقطة التحول فى تاريخ العصر.

منذ ذلك التاريخ بدأت روسيا تبنى قوتها العسكرية، وأربعون فى المائة من ثروة روسيا كلها تنفق فى الأغراض العسكرية، إلى أواخر حكم ستالين، كان الحزب البولشفيكى هو الحاكم فى روسيا، أيام مالكنوف وبعده خروشوف، بدأ صعود الجيش خلال حكم ليونيد بريجنيف والكسى كوسيجين انحسم الأمر وأصبح الجيش هو القوة الفعلية فى روسيا، ويورى اندروبوف رئيس روسيا يعتبر إلى حد ما رجل الجيش، أو الواجهة الحزبية للنظام العسكرى، فقد كان طوال خمس عشرة سنة مديرًا للمخابرات الروسية، أو ما يعرف باسم كا-جي-بى إنه أخطر سلاح مخابرات فى الدنيا، والسى آى إيه لا يساوى شيئًا أمام المخابرات الروسية.

لقد كان لينين وستالين من بعده يقولان: إن السيادة فى روسيا للحزب والعقيدة الشيوعية.

وماو تسى تونج قال مرة: إن الحزب يسيطر على البندقية، انتهى ذلك الآن وأصبحت روسيا دولة عسكرية أسبرطية، والعسكريون يمثلون أغلبية فى اللجنة السياسية المركزية، وكل تشكيلات الحزب و ٦٥ من جامعات روسيا تحت الإشراف المباشر للقوات المسلحة، والقيادة هى التى توجه الدراسة فيها بحسب ما يخدم الأغراض العسكرية.

وفى روسيا ٢٥ أكاديمية عسكرية وظيفتها تخريج الضباط والأخصائيين فى الفنون العسكرية، ولا يتخرج ضابط فى أى أكاديمية عسكرية وظيفتها تخريج الضباط إلا بعد خمس سنوات كاملة على الأقل، وفى كل أكاديمية معامل للتجارب والدراسات، والعلم الروسى كله موجه لخدمة الجيش.

وإذا أنت نظرت إلى الخريطة، تبينت أن روسيا ضحية مساحتها الشاسعة، وروسيا والبلاد الداخلة فى فلكها تمثل نصف العالم القديم، أى أفريقيا وآسيا وأوروبا، وكل متر على الحدود محروس حراسة بالغة الدقة، وكل متر داخل روسيا نفسها تحرسه بندقية أو مدفع، وشبكة رادار لا نظير لها تراقب كل متر على أرض روسيا وأوروبا وآسيا، لأن روسيا تخشى الداخل كما تخشى الخارج، سادة الاتحاد السوفييتى لا يحتملون أى ملاحظة أو معارضة، وأى إنسان تصدر منه كلمة يراها سادة النظام غير متفقة مع سلامته يستبعد دون رحمة، وأقل ما ينتظره هو النفى إلى سيبيريا أو منغوليا، وسيبريا لم تعد منفى واسعًا مخيفًا فحسب، بل تحولت إلى مصنع رهيب، والمنفيون لا يقضون مدة النفى يتنزهون بين الأشجار كما فعل لينين أثناء نفيه، بل لابد أن يعملوا فى المصانع أوالمزارع، وأحيانا يرسلون

إلى المناطق القطبية حيث يعملون فى السفن القطبية، ولا أحد يبكيهم فى حالة المرض أو الموت..

فى روسيا لا يهتمون كثيرًا بما يشغل بالنا نحن من العناية بما نسميه براحة المواطن أو رفاهيته، وليس فى روسيا شاب يتعلم مايريد بل ما تريد الدولة، وليس هناك مواطن روسى لا يقضى بين ثلاث وأربع ساعات فى اليوم فى طوابير الطعام أمام الجمعيات، والمواطن هناك لا يحصل إلا على الضرورى، والدولة هى التى تقرر حدود هذا الضرورى، وربات البيوت يقضين ساعات طويلة فى انتظار مائة جرام من الزبد أو اللحم، أو زوج من الثقانق أى السجق، وليس هناك شىء يسمى الذوق، أو المزاج، أو الكيف، لأنك تأخذ ما يعطونك إياه، فأنت لا تختار لون بذلتك مثلا، بل تأخذ ما تجده، ولابد أن تكون سعيدًا بما تحصل عليه مهما كان.

وتملك روسيا اليوم من الطائرات المتطورة، والغواصات النووية ضعف ما تملك الولايات المتحدة، وكمية المدافع والصواريخ التقليدية والنووية التى تملكها روسيا لا تصدق، وغواصات روسيا تجوب بحار الأرض جميعًا باحثة عن ملاجىء لها تستخدمها فى حالة الحرب، ولعلك سمعت عن الغواصات التى ضبطت فى مياه السويد والنرويج، ويمكن القول عمومًا أنه لا يوجد على سطح الأرض أو باطنها أو على المياه أو فى جوفها أو فى الفضاء الخارجى موضع لا يعرفه الروس معرفة تامة، وللروس مخازن أسلحة مخبأة فى مواضع من الكرة الأرضية لا تخطر على بال أحد.

وذلك كله لا يرجع فقط إلى الاستبداد، بل إن الروسى نفسه يشعر بالفخر لأن بلاده تملك تلك الأراضى الشاسعة، وتفرض على الأرض وما

فيها ومن فيها السلطان والخوف، والروسى يعبد بلاده عبادة، وهذا تحس به وأنت تقرأ كل كتاب روسيا وخاصة دستويفسكى، وتولستوى، وحتى سولسنيتسن، وشعب روسيا هو الذى حطم فى الحقيقة قوة النازية، لأن قوات ألمانيا عندما توقف تقدمها على ضفاف الفولجا، تولى المتطوعون لروس إبادة كـل من وصلت إليه أيـديهم من قوات ألمـانيا ومنشـآتها العسكرية، حتى داخل حدود ألمـانيا الشـرقية، وقـد خسرت القـوات المسلحة الروسية فى الحرب العالمية الثانية ثمانية ملايين عسكرى، ولكن الذين ماتوا فى حرب العصابات اثنا عشر مليونًا، ومعنى ذلك أن الروسى العادى لا يعانى اليوم مما نسميه نحن بالحرمان من أطايب العيش، أو الرفاهية لأن حبه لبلاده وفخره بها يغنيه عن ذلك كله.

وهذا كله ظاهر فيما يوفق إليه الشباب الروسى من انتصـارات فى ميادين الرياضة العالمية، ولا نسبة إطلاقا بين عزيمة الشـاب الريـاضى المصرى فى التدريب واللعب وعزيمة الروسى: والرياضى الروسى يتدرب سبع ساعات على الأقل فى اليوم، و ليس هناك شاب ريـاضى روسى لا يحلم بتحطيم رقم قياسى عالمى، وهناك فتيات روسيات بين الثانيـة عشرة والخامسة عشرة يعشن بحلم كسب ميدالية ذهبية لروسيا، والعمال فى المصانع ليسوا تعساء بالساعات الطويلة التى يقضونها فى المصانع، بل هم سعداء بذلك لأنه يسعدهم أن يروا بلادهم فى تلك المكانة الرفيعة، وهم على حق فى ذلك، فإن روسيا فى صدارة الدنيا فى كل ميدان، إنهم سادة الأرض والجـو والفضاء، إنهم يقـودون العلم والتكنولـوجيـا، وشبـابهم يفوزون بالميداليات الذهبية، لقد أخذ النظام الشيوعى منهم كل شىء ولكنه أعطاهم كل شىء أيضًا، حقًا إن الفرد الروسى يخسر كثيرًا على المستوى الشخصى،ولكنه يكسب كثيرًا على المستوى القومى، إنه يخسر

لتكسب روسيا، وهذا فى ذاته شيء عظيم، قارن بذلك الأنظمة التى أخذت منا كل شيء وأعطتنا فى مقابل ذلك الهزيمة، حرموا المواطن المصرى من كل حق، ثم حرموا مصر من عزة النصر، وأقفلوا فى وجهها أبواب الأمل وشيء آخر يعزى الروسى فى متاعبه، إن الناس من حوله وفوقه فى البلاء والحرمان سواء، هناك فساد طبعًا ولكن فى حدود ضيقة جدًّا والمفسد عندما يكتشف أمره يبتر بترًا، ولا يجامل ولا يدلل، الذى يغيظك عندنا أنك تجد نفسك تشقى وتتعب وتحرم.

ومن حولك ناس يسعدون ويتنعمون دون أن يبذلوا جهدًا، أنت تزرع وهم يحصدون، أنت تدفع وهم ينفقون، وعندما ينكشف أمر واحد منهم، فإنه يعامل معاملة ملوك، والمتعوس يظل متعوسًا إلى الأبد، والسعيد عندنا يظل سعيدًا إلى الأبد.

وخلف القوة العسكرية الروسية تقف أشد أجهزة المخابرات فى الدنيا رهبة، وأوسعها ذكاء وأنشطها حركة، إنه جهاز الكا – جى – بى وهى اختصار لعبارة روسية معناها (لجنة أمن الدولة) العاملون فيه اليوم ٧٠٠,٠٠٠ إنسان منبثون فى كل ركن من أركان روسيا ونواحى العالم كلها بما فى ذلك فضاء الله بيننا وبين النجوم، ومبنى هذا الجهاز الذى يشير إليه الروس فى كلامهم باسم «الكومينيت»، يقع غير بعيد من الكرملين فى رقم ٢ ميدان درزنيسكى، إنه أضخم مبنى فى روسيا بعد الكرملين، الدنيا كلها تحت بصر هذا البيت وفى متناول يده، وفى أى مكان فى الدنيا لا تأمن أن يكون الجالس إلى جوارك من رجال. الكا. جى. بى. أو نسائه، إنه وريث فرق النشيكا، التى أنشأها لينين للقضاء على أعدائه وأباح لها دماء الناس، فى أيام ستالين وحكم الإرهاب، وأصبح الجهاز

يسمى جى. بى. أو، وكان رعبًا للناس داخل روسيا، وكل ما دخل تحت سلطانها من بلاد الدنيا، هنا كان يحكم بنفى بيريا الذى فاق هايزيخ هملر بمراحل، منذ تولى رياسة الجهاز يورى فلاديمير، وفتش اندروبوف (بالعربى جورجى ابن فلاديمير اندرويوف)، سنة ١٩٦٧ تطور النظام وتغير شكله وملابسه وأساليبه، ولكنه يظل جهازًا رهيبا للتجسس. وألوف من غير الروس يعملون فيه لأن المرتبات والأموال التى يعطيها لا حدود لها، ولا توجد قرية فى أوروبا وأمريكا وآسيا ليس فيها ممثل لذلك الجهاز، ومعلوماته فى غاية الدقة.

فى مواجهة الكا. جى. بى. يقف جهاز السى. آى. أيه. الأمريكى ويعمل فيه ١٣٠,٠٠٠ إنسان، يقولون إنه أمهر جواسيس الدنيا، ولكن الدلائل تقول إنه أخيب أجهزة المخابرات فى التاريخ، وهزائم أمريكا فى محاولة غزو كوبا فى خليج الخنازير أيام كنيدى، ومأساة محاولة إنقاذ الرهائن فى إيران أيام كارتر، وأخيرًا مأساة المعلومات الناقصة والخاطئة عما كان يجرى فى جزيرة غرناطة شواهد على ذلك.

* * *

ولكن الروس لا يخدمون إلا الروس، إنهم لا يحبون إلا أنفسهم، ونادرًا ما يحصل أحد منهم على شىء، وهذا ليس بجديد، ولكنه قديم منذ عرف الناس الروس، إنهم الشعب الوحيد فى العالم الذى يأخذ ولا يعطى، إذا حصل طالب من روسيا على منحة دراسية فهم يطلبون منه فى مقابل ذلك أن يهبهم حياته، لو دعاك روسى إلى كأس من الفودكا فى بيته، فتأكد أنه يريد منك أضعاف كأس السم هذا. عندما ساعدونا فى إقامة السد العالى أرادوا أن يستذلونا إلى الأبد، والسادات ما كان

ليكسب حرب أكتوبر لو لم يخرج الروس من مصر، ولكنه أخطأ عندما أصر على عداء الروس، ظن أن ذلك يقوى مركزه فى أمريكا، الأمريكيون ليسوا فى مجال السياسة أحسن من الروس، وأساس مأساة عبد الناصر هم الأمريكيون، وخلف معظم مآسينا تقف أمريكا. تكفينا بلوة إسرائيل، وهى اليوم بلوة أمريكية، عندما انتصرنا فى حرب أكتوبر، سارعت أمريكا تحاول حرماننا من ثمرة النصر، وكلنا نعرف ماذا حدث، والمشكلة أن الأمريكيين يبذلون أقصى ما يستطيعون لكى يحبهم الناس، إنهم مرضى بذلك، ولكنهم فى الحقيقة نادرًا ما يحبون أحدًا، ونادرًا كذلك أن يحبهم أحد، لا أحد يحب الدول الكبرى.

إذا كنت تريد أن تعرف الوجه الحقيقى لأمريكا فاذهب إلى أمريكا الوسطى والجنوبية، هناك لن تجد شجرة فاكهة إلا ملك أمريكى، كل خيرات الأرض هناك ملكا لأمريكا بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وما يدفع أهل السلفادور ونيكاراجوا إلى الثورة والحرب الأهلية، إلا ظلم الولايات المتحدة واستبدادها وجشع الرأسماليين الأمريكيين.

لا أحد يحب الروس، ولا أحد كذلك يحب الأمريكيين، وكل الحلول التى تتقدم بها الولايات المتحدة لمشاكل الدنيا لا تخدم إلا أمريكا، عندما تتدخل أمريكا فى شئون لبنان فتأكد أنها لا تخدم السلام، أو العرب، أو لبنان بل تخدم أمريكا، وسر قوة إسرائيل أنها عرفت أن تقنع أمريكا أن صالحهما واحد، وأن كل ما ينفع إسرائيل يخدم أمريكا، وكل قطعة سلاح توضع فى يد إسرائيل هى قوة لأمريكا. هذه كذبة ضخمة، ولكن أمريكا تصدقها، لأن مصلحتها فى أن تصدقها، وهذه مسألة أمريكية إسرائيلية لا دخل لنا فيها، ولكن علينا أن نضعها دائما نصب أعيننا.

* * *

إن روسيا تعيش فى ظل الخوف، إنها تملك أوسع مساحة تملكها دولة أخرى فى الأرض، وهذا بالذات سر خوفها، إنها تخشى تفكك هذه الدولة وضياعها. ولهذا فقط تحولت إلى معسكر وترسانة سلاح وصواريخ سام٣ أو٧ التى تقف فى مواجهة صواريخ بيرشينج وكروز، كلها أسلحة أو قل أدوية ضد الخوف لأن روسيا لاتنام، فإن احدًا فى الدنيا لا ينبغى أن ينام، ولأن الولايات المتحدة يجهدها الأرق فلابد أن تصاب الدنيا كلها بالأرق، وعيب الدول الكبرى أنها تريد أن تظل كبرى، وتزداد كبرًا مع الزمن، لهذا ينبغى أن تظل بقية دول الدنيا صغرى وتزداد صغرًا مع الزمن. إنها تعرف أيضا ألا شىء يدوم على حاله إلى الأبد، وأدولف هتلر أقام دولة لتحكم الدنيا ألف عام، فلم يدم لها السلطان والمجد إلا اثنى عشر عامًا، ونحن الدول التى أرادت لها تصاريف التاريخ أن تكون صغرى أو نصف صغرى ينبغى أن نعامل الدول الكبرى على أننا دول كبرى، حذار أن نتعامل مع الناس على أننا صغار.

جانب من مأساة لبنان يكمن فى أن لبنان الموارنة اعتبر نفسه دائمًا دولة صغرى تابعة لفرنسا، أو فى حماية أمريكا. وعاشت دهرًا على أموال العرب، وفى النهاية داسها الجميع.

* * *

لا أحد يحب الروس، ولا أحد كذلك يحب الأمريكيين، ولا أحد يحبنا أيضًا، لأن الحب مفهوم غير موجود فى عالم السياسة والمال، على هذا الخط ينبغى أن نتصرف، ونحن الآن نقف على أقدامنا بعد الدياسبورا الناصرية، ولكننا فى أول الطريق السليم وعلينا أن نستمر فيه وأملنا الأكبر هو الرئيس مبارك، والأموال الأمريكية التى تقدم لنا لا تخدمنا، بل تخدم أمريكا، وهذه حقيقة ينبغى أن تكون حلقًا فى آذاننا.

هكذا كان خلق الكعبة الشريفة قبل أن يخلق الله السموات والأرض

النص لأبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى

كان أبو حامد الغزالى إذا رفع رأسه من السجدة الأخيرة فى كل صلاة أطال القعود صامتا قبل التسليم فسئل فى ذلك فقال: لكى يطول أنسى بالله.

وهذه العبارة أرددها كلما فرغت من الطواف والسعى عند كل زيارة للحرم الشريف. فأنا أجلس على الدرج الرخامى، وأرسل بصرى فى ساحة الحرم، ويمتلىء قلبى خشوعا وأنا أتأمل الكعبة وأطيل النظر فى أعجب مشهد على سطح الأرض: مشهد دوران الطائفين حول الكعبة فى حركة لا تتوقف قط على مدار العام أبد الدهر، وأربعا وعشرين ساعة كل أربع وعشرين ساعة، يواصل المؤمنون طوافهم بالبيت العتيق، تذهب إلى الحرم فى أى ساعة: فى الصباح أو الظهر أو منتصف الليل أو قبيل الفجر، فترى الناس يطوفون كأنهم تيار ماء لا يتوقف، يذهب ناس ويأتى ناس من أركان الأرض الأربعة، وتحل جماعة منهم بعد جماعة، والطواف مستمر وأصوات التلبية تملأ سمعك، ويطول قعودى وتأملى،

ولكنى أشعر وأنا جالس هنا أنى آنس بحضرة الله سبحانه، فأنا هنا وقلبى هناك، وأنا هنا وعقلى مع أمة الإسلام فى كل مكان، وهذا الدوران جزء من حركة الكون: كما تدور الأرض حول نفسها، وكما تدور الأرض حول الشمس، وكما يدور الكون كله بعضه حول بعض، فى حركة دائرية أبدية قدرها بارئ الكون، يدور أولئك المؤمنون حول بيتهم العتيق حتى يطوى الله الأرض ومن عليها.

وإذا كانت الصلاة عبادة نجوى مع الله سبحانه وأنسًا به. فإن الحج والاعتمار والصلاة فى الحرم عبادات أنس بالله سبحانه وبالإسلام والمسلمين. فأنت منذ تهل بالحج أو العمرة لا تصبح أنت نفسك، إنما أنت واحد من ألوف كثيرة من المؤمنين يملئون الدنيا حولك: أنت فى بحر من الإيمان يبدأ من ساحل المحيط الهادى. وهؤلاء الناس من حولك أقبلوا من كل شبر من ذلك العالم الإسلامىّ الواسع، أقبلوا جميعا ليطوفوا ويسعوا ويلقوا بأنفسهم فى أمواج الإيمان، تحملهم فى مراحل المناسك، ولا أحد منهم يحس بنفسه أو يذكرها، فكلهم فى زى الإحرام، وكلهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتلبية.

وفى التاسع من ذى الحجة يتحرك موكب الإيمان هذا كله إلى عرفات: ألوف بعد ألوف تسير لتقف فى عرفات، هناك يصلون. الظهر والعصر جمع تقديم جماعة فوجًا بعد فوج وأصوات الخطباء لا تتوقف، والصلاة لا تنقطع والتكبير والتلبية متصلان، وينقضى الوقت إلى المغرب وأنت لا تشعر، وتصلى المغرب والعشاء جمع تأخير فى مزدلفة بعد وصولك إليها مع الناس وهذا هو النفر وأنت تستقر فى مزدلفة ولكن غيرك ينطلق إلى منى ليجمع الجمرات، وتقضى الليل فى منى وأنت لا تدرى كيف قضيته.

لأن صلاة الناس وأصواتهم من حولك لا تنقطع، ولا أشعر برغبة فى طعام، ولا أنا أحمل فى الحج كله طعامًا لأننى أعيش فعلًا على زاد الإيمان، وليس معى إلا ماء معدنى فى جراب معلق بعاتقى، فأنا أشرب ولا أطعم.

ويقبل فجر العاشر من ذى الحجة: فجر يوم العيد ويوم الأضحى ويوم النحر، فى هذا الوقت يحتفل عالم الإسلام كله بعيد الحج وينتقل بروحه إلى هذا الموقف العظيم، ويطير بى خيالى إلى قريتى فأرى الناس يصلون العيد ثم ينحرون، وأولادهم يزاطون ويضحكون ويتطايرون إلى البيوت فى انتظار إفطار يوم العيد، ولكنك هنا لا تنحر إلا بعد أن تذهب إلى مكة وتطوف طواف الإفاضة، وتعود إلى منى لتقرب إلى الله ما تيسر لك فى المنحر. وكل منى منحر، وكل مكة منحر، وأجلس وأشم رائحة من اللحم وأخرج من جرابى فنجانا آخذ فيه شيئًا من المرق وطبعا يضعون فيه بضعة من اللحم وأشرب وآكل كما فعل رسول الله ﷺ فى حجة الوداع.

وأنظر فى ساعتى فإذا هى قبل الثامنة صباحًا. كل هذا تم فى غبش الصبح المشرق، وتنقضى أيام منى ورمى الجمرات مرة بعد أخرى، ونعود إلى مكة فأطوف طواف الوداع وألتمس موضعى من الدرج وأجلس وأرسل بصرى مع سيل الطائفين الذى لا ينقطع.

* * *

هذه العبادة الرفيعة التى يطول فيها أنسك بالله وعباد الله المؤمنين بدأت على هذا النحو المحكم مع رسول الله فى حجة الوداع فى ختام العام العاشر للهجرة، ما كان أحد يدرى يومها أنه لم تبق لرسول الله على هذه الأرض من أيام الدنيا إلا ثلاثة شهور تزيد قليلًا، أو تنقص يسيرًا، ولكن

حركة الطواف ومواسم الحج ستتصل ما شاء بارئ الكون سبحانه علام الغيوب..

ولكن إيمان المسلمين الدافق يأبى أن يقبل أن الحج إلى هذا البيت الشريف بدأ مع الإسلام، بل بدأ مع خلق الله الأرض ومن عليها. وأبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى مؤرخ مكة يجمع لنا فى فاتحة كتابه المبدع: «أخبار مكة» كل ما صاغته أخيلة المسلمين من أخبار خلق الكعبة، ووضع هذا البيت المكرم فى هذه البقعة الشريفة من الأرض لتكون حمى للحجر الشريف، الذى كان عندما أهبطه الله إلى الأرض متلألئا ناصع البياض، والحكايات هنا أدب شعبى صاغه الإيمان، وأرسله الرواة منسوبًا إلى كعب الأحبار حينًا، وإلى ابن عباس حينًا، ونحن نقرؤه فتخشع قلوبنا، ونشعر بالعجب من ترامى خيال المسلمين. فقد أنشأ هذا الخيال الصور الجميلة التى سنقرؤها بنصها فى هذه الصفحة وما يليها بأشكالها وألوانها وحركاتها وموسيقاها، فإن كنت شاعرًا فهذه صور شعرية لو كان شعراء العرب وعوها لصاغوا لنا منها أعجب الشعر، وهنا ألوان وصور وأشكال وأضواء لو قرأها ليوناردو أورافاييلو، لأخرجا منها لوحات هى السحر بعينه، ولكننا معاشر العرب والمسلمين نستلهم بيكاسو وسلفادور دالى ولا نستلهم أصولنا، ونطوف الأرض باحثين عن موضوعات لوحات فلا نجد إلا بشاعات، فهذا يا أهل الفن والإيمان مجالكم بلا حدود فانطلقوا فيه، ولقد أنشأ بيتهوفن بعيدًا عن مهد المسيح واحدة من أروع مقطعاته هى الصلاة الخاشعة Misa Solemnis ولو كنت من أصحاب النغم، لخرجت من هذه الصفحات بشيء أسميه الصلاة المحمدية Misa Muhammedamis أو الصلاة الإسلامية Misa Eslamica.

ونص أبي الوليد الأزرقي هنا مرسل كما هو بأسانيده، وقد جعلنا الأسانيد بالحرف الصغير، فلعل القارىء لا يحتاج إلى قراءتها. وجعلنا بقية الأخبار والصور بالحرف الكبير، فهو الذى نرجو أن يقرأه القارىء الكريم ويجد فيه مواضع الإلهام.

وصلى الله على سيد الأمة محمد نبي الرحمة وآله وصحبه «ذكر ما كانت الكعبة الشريفة عليه فوق الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض وماجاء فى ذلك»

قال أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى، قال حدثنا سفيان بن عيينة عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب، قال: قال كعب الأحبار: كانت الكعبة غثاء على الماء قبل أن يخلق الله عز وجل السموات والأرض بأربعين سنة ومنها دحيت الأرض.

قال حدثنا أبوالوليد، قال حدثنى مهدى بن أبي المهدى، قال حدثنا أبو أيوب البصرى عن هشام عن حميد قال: سمعت مجاهدا يقول: خلق الله عز وجل هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرضين.

قال حدثنا أبو الوليد قال حدثنا جدى عن سعيد بن سلام عن طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس أنه قال:

لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض، بعث الله تعالى ريحًا هفافة فصفقت الماء، فأبرزت عن خشفة فى موضع هذا البيت، كأنها قبة، فدحا الله الأرضين من تحتها فمادت ثم مادت، فأوتدها الله تعالى بالجبال، فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس، فذلك سميت مكة أم القرى.

قال وحدثنى يحيى بن سعيد، عن محمد بن عمر بن إبراهيم الجبيرى، عن عثمان بن عبد الرحمن، عن هشام عن مجاهد قال:

لقد خلق الله عز وجل موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرض بألفى سنة، وإن قواعده لفى الأرض السابعة السفلى.

ذكر بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم ومبتدأ الطواف كيف كان

حدثنا أبو الوليد، قال: حدثنى على بن هارون بن مسلم العجلى عن أبيه، قال: حدثنا القاسم بن عبد الرحمن الأنصارى، قال: حدثنى محمد بن على بن الحسين. قال: كنت مع أبى على بن الحسين بمكة، فبينما هو يطوف بالبيت وأنا وراءه إذ جاءه رجل شرجع من الرجال يقول: طويل، فوضع يده على ظهر أبى فالتفت أبى إليه فقال الرجل: السلام عليك يا ابن بنت رسول الله إنى أريد أن أسألك، فسكت أبى وأنا والرجل خلفه، حتى فرغ من أسبوعه أى طوافه حول الكعبة سبع مرات، فدخل الحِجْر، فقام تحت الميزاب، فقمت أنا والرجل خلفه فصلى ركعتى أسبوعه، ثم استوى قاعدًا فالتفت إلى فقمت فجلست إلى جنبه فقال يا لله حمد فأين هذا السائل؟ فأومات إلى الرجل، فجاء فجلس بين يدى أبى، فقال له أبى: عَمَّ تسأل؟ قال أسألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت، لم كان؟ وأنى كان؟ وحيث كان؟ وكيف كان؟ فقال له أبى نعم من أين أنت؟ قال من أهل الشام قال: أين مسكنك؟ قال: فى بيت المقدس، قال: فهل قرأت الكتابين؟ - يعنى التوراة والإنجيل - قال الرجل نعم، قال أبى: يا أخا أهل الشام احفظ ولا تروين عنى إلا حقًا، أما بدء هذا الطواف بهذا البيت فإن الله تبارك وتعالى قال للملائكة: إنى جاعل فى

الأرض خليفة، فقالت الملائكة أى رب أخليفة من غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون، ويتباغضون ويتباغون؟ أى رب اجعل ذلك الخليفـة منا فنحن لانفسـد فيها. ولا نسفـك الـدمـاء، ولا نتبـاغض، ولا نتحاسد، ولا نتباغى، ونحن نسبح بحمدك، ونقدس لك، ونطيعك، ولا نعصيك، فقال الله تعالى إنى أعلم ما لا تعلمون، قال: فظنت الملائكة أن ما قالوا ردًا على ربهم عز وجل، وإنه قد غضب من قـولهم فلاذوا بالعرش، ورفعوا رءوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون، إشفاقًا لغضبه وطافوا بالعرش ثلاث ساعات، فنظر الله إليهم فنزلت الـرحمة عليهم، فوضع الله تعالى تحت العرش بيتا على أربع أساطين من زبرجد، وغشاهن بياقوتة حمراء، وسمى ذلك البيت الضراح، ثم قال الله تعالى للملائكة، طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش، قال فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش، وصار أهون عليهم من العرش وهو البيت المعمور، الذى ذكره الله عز وجل، يدخله فى كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبدًا.

ثم إن الله سبحانه وتعالى بعث ملائكة فقال لهم ابنوا لى بيتا فى الأرض بمثاله وقدره، فأمر الله سبحانه من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

فقال الرجل صدقت يابن بنت رسول الله ﷺ هكذا كان.

ذكر زيارة الملائكة
البيت الحرام بمكة شرفها الله

حدثنا أبو الوليد، قال: حدثنى مهدى بن أبى المهدى قال: حـدثنا عبد الرزاق قال: حدثنا عمر بن بكار عن وهب بن منبه عن ابن عباس.

أن جبريل عليه السلام وقف على رسول الله ﷺ وعليه عصابة حمراء، قد علاها الغبار، فقال له رسول الله ﷺ: ما هذا الغبار أرى على عصابتك أيها الروح الأمين؟ قال: إني زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن، فهذا الغبار الذى ترى مما تثير بأجنحتها.

وأخبرنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى عثمان بن يسار قال: بلغنى والله أعلم أن الله تعالى إذا أراد أن يبعث ملكًا من الملائكة لبعض أموره فى الأرض أستأذنه ذلك الملك فى الطواف بالبيت فهبط الملك مُهلًا.

وأخبرنى جدى، عن سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه، نحو هذا إلا أنه قال: ويصلى فى البيت ركعتين.

وأخبرنى جدى، عن سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى عباد بن كثير عن ليث بن معاذ قال: قال رسول ﷺ: هذا البيت خامس خمسة عشر بيتا، سبعة منها فى السماء إلى العرش، وسبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى، وأعلاها الذى يلى العرش. البيت المعمور، لكل بيت منها حرم كحرم هذا البيت، لو سقط منها بيت لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السفلى، ولكل بيت من أهل السماء ومن أهل الأرض من يعمُرهُ كما يُعَمر هذا البيت.

ذكر هبوط آدم إلى الأرض وبنائه الكعبة، وحجه، وطوافه بالبيت

حدثنا أبو الوليد، حدثنا جدى قال: حدثنا سعيد بن سالم، عن طلحة بن عمرو الحضرمى، عن عطاء بن أبى رياح عن ابن عباس، قال: لما

أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة كان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض، وهو مثل الفلك من رعدته قال: فطأطأ الله عز وجل منه إلى ستين ذراعًا، فقال: يا رب ما لى، لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم؟ قال: خطيئتك يا آدم، ولكن اذهب فابن لى بيتًا فطف به واذكرنى حوله، كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطى، فطويت له الأرض وقبضت له المفاوز، فصارت كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان من مخاض ماء أو بحر، فجعل له خطوة ولم تقع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عمرانًا وبركة، حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام، وأن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض، فأبرز عن أسٍّ ثابت على الأرض السفلى، فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلًا، وأنه بناه من خمسة أجبل من لبنان، وطور سيناء والجودى، وحراء، حتى استوى على وجه الأرض.

قال ابن عباس: فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم عليه السلام، حتى بعث الله الطوفان قال: وكان غضبًا ورجسًا قال: فحيث ما انتهى الطوفان ذهب ريح آدم عليه السلام.

قال ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند قال:

فدرس موضع البيت فى الطوفان حتى بعث الله تعالى إبراهيم وإسماعيل، فرفعا قواعده وأعلامه. وبنته قريش بعد ذلك وهو بحذاء البيت المعمور لو سقط ما سقط إلا عليه.

حدثنا أبو الوليد حدثنا مهدى بن أبى المهدى قال حدثنا إسماعيل بن عبدالكريم الصنعانى عن عبدالصمد بن معقل عن وهب بن منبه قال: إن الله تعالى لما تاب على آدم عليه السلام أمر أن يسير إلى مكة فطوى له

الأرض، وقبض له المفاوز فصار كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان فيها من مخاض ماء أو بحر فجعله له خطوة، فلم يضع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عمرانًا وبركة حتى انتهى إلى مكة.

وكان قبل ذلك قد اشتد بكاؤه حزنه لما كان فيه من عظم المصيبة، حتى إن كانت الملائكة لتحزن لحزنه ولتبكي لبكائه، فعزاه الله تعالى بخيمة من خيام الجنة ووضعها له بمكة فى موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة، وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة فيها ثلاثة قناديل من ذهب من تبر الجنة، فيها نور يلتهب من نور الجنة، ونزل معها الركن وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة، وكان كرسيًا لآدم عليه السلام يجلس عليه.

فلما صار آدم عليه بمكة وحرس الله له تلك الخيمة بالملائكة، كانوا يحرسونها ويذودون عنها ساكن الأرض، وساكنها يومئذ الجن والشياطين فلا ينبغى لهم أن ينظروا إلى شىء من الجنة، لأنه من نظر إلى شىء من الجنة وجبت له، والأرض يومئذ طاهرة نقية لم تنجس، ولم تسفك فيها الدماء، ولم يعمل فيها بالخطايا، فلذلك جعلها الله مسكن الملائكة وجعلهم فيها كما كانوا فى السماء يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون.

وكانٍ وقوفهم على أعلام الحرم صفًا واحدًا مستديرين بالحرم الشريف كله، الحِلّ من خلفهم والحرم كله من أمامهم فلا يجوزهم جن ولا شيطان.

ومن أجل مقام الملائكة حُرِّم الحرم حتى اليوم، ووضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة، وحرم الله عز وجل على حواء دخول الحرم، والنظر إلى خيمة آدم عليه السلام من أجل خطيئتها التى أخطأت فى الجنة. فلم تنظر إلى شىء من ذلك حتى قبضت.

وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها ليلم بها للولد خرج من الحرم كله حتى يلقاها.

فلم تزل خيمة آدم عليه السلام مكانها حتى قبض الله آدم ورفعها الله تعالى.

وبنى بنو آدم بها من بعده مكانها بيتـا بالـطين والحجارة، فلم يـزل معمورًا يعمرونه هم ومَنْ بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام فنسفه الغرق وخفى مكانه.

فلما بعث الله تعالى إبراهيم خليله عليه السلام طلب الأساس، فلما وصل إليه ظلل الله تعالى له مكان البيت بغمامة فكانت حِفافُ البيت الأول ثم لم تزل راكدة على حِفافه تُظِل إبراهيم، وتهديه مكان القواعد حتى رفع الله القواعد قامة، ثم انكشفت الغمامة فذلك قول الله عز وجل: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أى الغمامة التى ركدت على الحِفاف لتهديه مكان القواعد.

فلم يزل بحمد الله منذ رفعه الله معمورًا.

قال وهب بن منبه: وقرأت فى كتاب من الكتب الأولى ذكر فيه أمر الكعبة، فوجد فيه أن ليس من ملك من المـلائكة بعثـه الله تعالى إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت فينقض من عند العرش محرمًا ملبيًا حتى يستلم الحجر ثم يطوف سبعًا بالبيت ويركع فى جوفه ركعتين ثم يصعد.

وحـدثنى محمد بن يحيى، عن إبـراهيم بن محمد بن أبى يحيى، عن عبد الله بن لبيد، قال: بلغنى أن ابن عباس قال: لما أَهْبط الله سبحانه آدم عليه السلام إلى الأرض أهبطه إلى موضع البيت الحرام، وهو مثل الفلك من رعدته، ثم أنزل عليه الحجر الأسود - يعنى الركن - وهو

يتلألأ من شدة بياضه. فأخذه آدم عليه السلام، فضمه إليه أُنسًا به ثم نزلت عليه العصا، فقيل له: تخط يا آدم فتخطى فإذا هو بأرض الهند والسند، فمكث بذلك ما شاء الله ثم استوحش إلى الركن فقيل له: احجج. قال: فحج فلقيته الملائكة فقالوا: بَرَّ حجك يا آدم! لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام!

وحدثنى جدى، قال: حدثنا سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج، قال: أخبرنى محمد بن إسحاق قال: بلغنى أن آدم عليه السلام لما أُهْبط إلى الأرض حزن على ما فاته مما كان يرى ويسمع فى الجنة من عبادة الله، فبوأ الله له البيت الحرام وأمره بالسير إليه. فسار إليه لاينزل منزلا إلا فجر الله له ماء معينًا حتى انتهى إلى مكة فأقام بها يعبد الله عند ذلك البيت ويطوف به، فلم تزل داره حتى قبضه الله بها.

حدثنى جدى قال: حدثنى سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج قال: بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب: يا كعب أخبرنى عن البيت الحرام. قال كعب: أنزله الله تعالى من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم عليه السلام فقال له: يا آدم إن هذا بيتى أنزلته معك يطاف حوله كما يطاف حول عرشى، ويصلى حوله كما يصلى حول عرشى، ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ثم وضع البيت عليه، فكان آدم عليه السلام يطوف حوله كما يطاف حول العرش، ويصلى عنده كما يصلى عند العرش، فلما أغرق الله قوم نوح رفعه الله إلى السماء وبقيت قواعده.

وحدثنى جدى قال: وحدثنى إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى، عن الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس

رضوان الله عليه قال: كان آدم عليه السلام أول من أسس البيت وصلى فيه حتى بعث الله الطوفان.

حدثنا مهدى ابن أبى المهدى، قال؛ حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعانى، عن معمر عن أبان أن البيت أهبط ياقوتـة لآدم عليه السـلام أو درة واحدة.

وحدثنى جدى قال: كان البيت الذى بوأه الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذ ياقوتة من يواقيت الجنة حمراء تلتهب، لها بابان أحدهما شرقى، والآخر غربى، وكان فيه قناديل من نور آنيتها ذهب من تبر الجنة وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض، والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ ياقوتة بيضاء.

حدثنا جدى قال: حدثنى إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى، قال: حدثنا المغيرة بن زياد عن عطاء بن أبى رياح قال: لما بنى ابن الزبير الكعبة أمر العمال أن يبلغوا فى الأرض، فبلغـوا صخرًا أمثـال الإبل الخلف قـال فقالوا: إنا قد بلغنا صخرًا أمثال الابل الخلف قال: قال: زيدوا فاحفروا فلما زادوا بلغوا هواء من نار يلقاهم فقال: ما لكم؟ قالوا: لسنا نستطيع أن نزيد، رأينا أمرًا عظيما فلا نستطيع، فقال لهم: ابنوا عليه، قال فسمعت عطاء يقول: يرون أن ذلك الصخر مما بنى آدم عليه السلام.

وحدثنى جدى، عن سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج، عن الزهرى عن عبيد الله بن عتبة، عن ابن عباس عليه السلام: خر آدم ساجدًا يبكى فهتف به هاتف فقال: ما يبكيك يا آدم؟ قال أبكانى أنه حيل بينى وبين تسبيح ملائكتك، وتقديس قدسك، قيل لـه: يا آدم قم إلى البيت الحرام، فخرج إلى مكة فكان حيث يضع قدميه يفجر عيونًا وعمـرانًا،

ومداين ومصابين قدميه الخراب والمعاطش فبلغني أن آدم عليه السلام تذكر الجنة فبكى، فلو عدل بكاء الخلق ببكاء آدم حين أخرج من الجنة ما عدله، ولو عدل بكاء الخلق وبكاء آدم عليه السلام ببكاء داود حين أصاب الخطيئة ما عدله.

حدثني جدي قال: أخبرنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه:

أن آدم عليه السلام اشتد بكاؤه وحزنه لما كان من عظم المصيبة، حتى إن كانت الملائكة لتحزن لحزنه، ولتبكي لبكائه قال: فعزاه الله بخيمة من خيام الجنة وضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة، وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من ياقوت الجنة وفيها ثلاثة قناديل من ذهب من تبر الجنة، فيها نور يلتهب من نور الجنة. فلما صار آدم عليه السلام إلى مكة وحرس له تلك الخيمة بالملائكة فكانوا يحرسونه ويذودون عنها سكان الأرض، وسكانها يومئذ الجن والشياطين، ولا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنة، لأنه من نظر إلى شيء منها وجبت له، والأرض يومئذ نقية طاهرة طيبة لم تنجس ولم تسفك فيها الدماء، ولم يعمل فيها بالخطايا فلذلك جعلها الله يومئذ مستقر الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا في السماء يسبحون الليل والنهار لا يفترون، قال: فلم تزل تلك الخيمة مكانها حتى قبض الله آدم عليه السلام ثم رفعها إليه.

حدثني مهدي بن أبي المهدي، عن عبد الله بن معاذ الصنعاني، عن معمر، عن قتادة في قوله عز وجل ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ قال: وضع الله تعالى البيت مع آدم عليه السلام، فأهبط الله تعالى آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند، وكان رأسه في السماء ورجلاه في

الأرض،وكانت الملائكة تهابه فقبض إلى ستين ذراعا فحزن آدم عليه السلام إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فشكا ذلك إلى الله تعالى فقال الله تعالى يا آدم إنى أهبطت معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي فانطلق إليه فخرج آدم عليه السلام ومد له فى خطوه فكان خطوتان أو بين خطوتين مفازة فلم يزل على ذلك، فأتى آدم عليه السلام البيت فطاف به، ومن بعده من الأنبياء.

حدثنى محمد بن يحيى، عن عبد العزيز بن عمران، عن عمر بن أبى معروف، عن عبد الله بن أبى زياد أنه قال: لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام من الجنة قال: يا آدم ابن لى بيتاً بحذاء بيتى الذى فى السماء تتعبد فيه أنت وولدك، كما تتعبد ملائكتى حول عرشي. فهبطت عليه الملائكة فحفر حتى بلغ الأرض السابعة فقذفت فيه الملائكة الصخر حتى أشرف على وجه الأرض وهبط آدم عليه السلام بياقوتة حمراء مجوفة لها أربعة أركان بيض فوضعها على الأساس فلم تزل الياقوتة كذلك حتى كان زمن الغرق فرفعها الله سبحانه وتعالى.

كل الطواويس
أيديها فى الماء

لا على رجليك أنت آمن مرتاح، ولا فى السيارة أنت آمن مرتاح، وليس أمامك إلا طريق الآلام هذا، تسير فيه راضيًا أم غاضبًا على رغمك، لابد أن تسير فيه حافيًا حاملا همومك فوق رأسك وكتفيك، قدر مكتوب على جبينك وعلى كل جارحة من جوارحك، ولا فرار من القدر المكتوب، وحكم صادر عليك قبل أن توجد، ولا استئناف أمامك ولا نقض، وليس هناك إلا التنفيذ، ما دمت قد ولدت هنا فلابد أن تدفع الثمن، لابد أن تؤديه من لحمك وعظمك ودمك وأعصابك، ولابد أن تبتسم إلى جانب ذلك وتقول إنك سعيد، عزاؤك الوحيد أننا كلنا مثلك فى نفس الطريق، سنظل جميعًا هكذا نجر أقدامنا ما بقى لكل منا من أيام العمر، وهناك بعد منحنى الطريق وخلف الصخور ينتظرك باب الراحة، راحة الأبد، هناك تنام وتتمدد وتأمن، فلن يستطيع أحد أن يؤذيك، ومن بعيد سيترامى إلى سمعك صوت الملقن يقول لك فى صوت قوى خاشع: «يا عبدالله»، هذا آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة»..

وإلى أن يجىء هذا اليوم الموعود لا تؤمل فى أن يأتيك فرج، هذا قضاء

الله فيك ولا معقب، لا تفكر فى الشكوى، لأن الذى ستشكو له هو جلادك، ولا تلتفت حولك لأن كل الذين يحيطون بك فى مثل حالك، هنا لا يوجد إلا تعيس وأتعس والأتعس، الماشى منهم تعبان، والراكب هلكان، وغارات عادم السيارات توزع الموت على الجميع بالقسطاس، الماشى منهم يبحث عن مأوى يريح عظامه فيه، والراكب هارب من القانون والعدالة، وهارب منك أيضا يبحث عن حصن يحتمى وراء جدرانه، ليوزع فيه المسروق والمنهوب على امرأته وأولاده، ليجلس بعد ذلك أمام القضاء ساخرًا ضاحكًا، يسب اللصوص ويستنزل اللعنات على قطاع الطرق، ويخرج بعد ذلك بحكم لطيف كأنه نسمات ليلة ربيع: التحفظ عليه سنة والحفاظ على مسروقاته آمنة حتى يصدر القضاء حكمه فيها بعد خمسين سنة إن شاء الله، وبعد خمسين سنة لن يكون أحد منا ها هنا، سيكون هناك ناس جدد ولدوا يوم القيامة وتخرجوا فى الجامعة بعد القيامة، وهؤلاء سيقيمون تمثالاً للبطل الذى داس على كل شىء فى هذا البلد، واستحق بذلك أن يكون بطل الأبطال، وسيقف خطيب بليغ ويقول: اهتفوا معى للبطل الذى غير خريطة مصر وعلمكم بأستاذية بالغة معنى الخوف والذل والجوع..

* * *

أفكار سوداء، وأخرى رمادية، وثالثة بلا لون، طافت كلها بخيالى المجهد وأنا أصلب قوامى المتهالك فى انتظار سيارة أجرة، أو حتى سيارة موتى تحملنى إلى بيتى، والوقت بعد الظهر والمكان شارع بولاق أو شارع فؤاد أو شارع ٢٦ يوليو. «إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» لأن الاسم الوحيد الذى ينطبق على حقيقة

هذا الشارع هو شارع العذاب، وقفت أسند نفسي إلى سيارة نصف نقل تركها سائقها على الرصيف ومضى إلى أى داهية، لا أدرى، خلفى دار سينما تعرض فيلما اسمه «الفضيحة»، وأمامي دار سينما أخرى تعرض فيلما اسمه «العار». وبين الفضيحة والعار أين أذهب يا ربى، أين؟ وأنادي سائق التاكسى ألتمس منه مكانًا فينظر إلى بعيني ثور فى الطريق إلى المذبح ويمضي، وأسأل عامل التذاكر فى حافلة أوقفها أمامي انسداد المرور: إلى أين من فضلك؟ والرجل - الذى بدا لى وجهه كأنه رأس دجاجة قطعوا رقبتها وألقوها للقط - ينظر إلى ولا يجدنى أهلا للجواب، وصاحب السيارة نصف النقل عاد وهو يأمرنى بأن أبتعد عن طريقه، فأنا أسد عليه الطريق، التعيس ملأ معدته فولاً وطعمية وطينًا. وغطى ذلك كله بزجاجة من البيرة، وأحس أنه أصبح ملك الفيران، ودون أن يحفل بأحد يحرك سيارته ويقتحم الطريق، ويغيب بكارثته فى الزحام..

وساعة ونصف انقضت وأنا على هذه الحال، الساعة الآن الثالثة والنصف بعد الظهر ولا أمل، وتقول لى نفسى: إذا كانت هذه جنازتك فاحترم نفسك وكن أنت الجنازة والمشيعين، والجنازة فى اللغة هى الميت نفسه، سر على بركة الله على مهلك خطوة خطوة ولتحرسك العناية، قبل كل خطوة انظر أمامك وخلفك وتحت قدميك خاصة تحت قدميك، وانظر فوقك، ولحظة من فضلك.

وعلى مهل أسير. شيئًا فشيئًا أصل إلى كوبرى المشاة وأصعد وحدى، الناس هنا ليسوا من الغباء بحيث يصعدون القناطر والكبارى، وأحسن من ذلك عندهم وألذ أن يسلكوا كالفيران أو القردة بين السيارات أو تحتها، وفجأة تجدهم فى الجانب الآخر من الشارع، ولا تدرى كيف

وصلوا،وأهبط القنطرة العلوية لأجد نفسى أمام مشكلة مرورية اجتماعية أخلاقية دينية: فهناك حاجز يفصل قسمى الشارع. والحاجز من حديد وسلك، وارتفاعه متران والقردة يتصورون أن الدولة لم تضعه لتنظيم المرور، بل لكى يتمرنوا فيه على شغل القرود، والمنظر حقيقة منظر جبلاية قرود، وسيدة محجبة تلبس ثوبًا يصل إلى الكعب جالسة أعلى الحاجز تنظر فى هلع، لقد أعجبها شغل القرود، فقرأت الفاتحة وسألت رئيس الجماعة العون، وتسلقت الحاجز. وعندما استقرت أعلاه وجدت نفسها فى مأزق ولا حل، فهى لا تستطيع أن تنزل، ولو أنها لم تكن محجبة ذات رداء يكنس الأرض لتحللت من القيد، ورفعت ثوبها شيئًا لتستطيع أن تحرك ساقيها، ولكن أمير الجماعة قال لها إن الساق عورة والعورات لابد أن تستر، وتربيتها تحرم عليها أن تأذن لذكر أجنبى أن يمسها، والناس تجمهروا للفرجة على هذه العجيبة وكل منهم يشير برأى، والمسكينة هناك معلقة بين السماء والأرض، وفى عينيها فزع بلا حدود، بعضهم يقترح استدعاء الونش أو الرافع. ومع أن الونش ذكر أجنبى فإنه حديد جماد، ولم يرد فى الذكر الحديد الجماد الأجنبى نص.

وكان بودى لو انتظرت حتى يصل الناس إلى حل لتلك المشكلة المرورية الأخلاقية الفقهية، ولكن الساعة أصبحت الرابعة، والمشوار أمامى طويل، وأجد نفسى أمام شارع صغير لابد أن أعبره والسيارات تيار واحد لا ينقطع، فما هو الحل؟ ويخرجنى من الحرج بائع جوافة ابن حلال يأتى بعربته ويقف بها فى وسط الشارع وينادى على «قلل الشربات» ويتوقف المرور ويتزاحم الناس والمرور يقف، ولكن هذا لا يهم، والبائع الذى يعرف الأصول استأذن رجال المرور قبل أن يقف،

وعبأ لهم أكياس «قلل الشربات» وارسلها مع صبيه وأغمضت العيون، والفرصة واتتنى وعبرت فى أمان «قلل الشربات».

وبعد مبنى شركة النور يستوقفنى مشهد، ما أظن أننى كنت أتصور أن من الممكن أن يحدث، فإن رجلاً قد وضع قفص خبز فى مدخل شارع جانبى وأشعل سيجارة وترك الناس يقلبون الخبز، ويمسحون فيه أياديهم، كأن الأرغفة مناديل، وبعد التقليب الطويل يحمل كل منهم سطرًا من الخبز ارتفاعه متر، ويمضى بعد أن يدفع الثمن: قرشين للرغيف، والتسعيرة نامت وماتت بين أجفان الحراس. وامرأة تقبل من بعيد تصرخ وتولول وتأخذ بضبع بائع الخبز وتستغيث، وأجمع الحكاية من رذاذ ما أسمع من كلام الناس، وملخصها أن ابنا لهذا الرجل وتلك المرأة قد داسته سيارة غير بعيدة، ووضعه الناس على الرصيف، وغطوه بورق الصحف، والمرأة تطالب الرجل بأن يسرع ليرى الابن الضحية، والرجل يرفض ويقول إن هذا الولد القتيل ليس ابنه، وكل الناس يعرفون أنه طلق أمه بالذات، لأن هذا الولد وثلاثة مثله ليسوا أولاده، هى أنجبتهم كلهم بمجهودها الخاص وهو غائب مسافر، وهو لهذا برىء من هذا الولد. ولا شأن له فيما يجرى له «خلينا نشوف أكل عيشنا بقى يابنت الـ..» والبوليس يأتى ويصر على أن يذهب الرجل معهم، فهو رسميا وفى الورق أبو الغلام، والرجل يقول: «محروق دين الورق واللى كتبوه»، وفى بحر التعاسة من عجائب المخلوقات ما يفوق أعجب مما نرى مع الدكتور جوهر العظيم فى عالم البحار.

وهذه أيضا حكاية كنت أحب أن آتيكم منها بنبأ آخر، ولكن معذرة فالساعة الآن الرابعة والثلث، وما زال أمامى ثلاثة أرباع طريق العذاب.

وهذا أمامى، تاجر صف الموتوسيكلات وسد بها عين الشمس فكيف أفوت؟ والرجل العديم النظر يرانى أنظر فى دراجاته التايوانية والهونجوكنجية ويحسب أننى زبون ويقول: موتوسيكل يا حاج؟ سبحان الله أيها الذكى! إذا كنت حاجًا كما تقول فكيف أركب السيارة النارية وأنا ما حججت إلا لأبتعد عن النار وأركب دراجة الجنة؟

وبعد مسافة قليلة ينفتح باب مبنى تبين لى أنه مدرسة وليس زريبة مواش. ويتدفق تيار الأولاد، وكل منهم قد حمل سطرا من الكتب، وآخر من الكراريس، فأتذكر أن هذا أول الموسم الدراسى، وهذه الكتب حق لكل طفل فى مقابل خمسة وعشرين قرشًا فقط لا غير، لأن التعليم عندنا والكتب والكراريس بالمجان، وهذه هى فلسفة الماء والهواء التى أهدانا إياها طه حسين، والأولاد يسيرون بأحمالهم فى ملابس هى هلاهيل لبسوا فوقها مرايل أصبحت هى الأخرى مماسح بلاط فى ثلاثة أيام، والشارع هنا غارق تحت الماء، وأنا أسير فى حذر بالغ لا أدرى أين أضع قدمى، وتقع الكتب من بعض الأولاد ويجمعونها، ولا أحد يهتم، وهنا بائع بطاطا، وعربة كشرى، وأخرى للفول والطعمية وكله هباب، ولكن الناس عندنا هواة زفت وقطران، وهذه أم ولد أتت تأخذ ابنها وهى - فيما بدا لى - معلمة حرم معلم وزنها طن، والولد ترك حمل الكتب والكراريس مع أمه وأخذ منها شيئا أظنه جنيها، واشترى من كل الأصناف، وأكل البطاطا، ثم الكشرى، وعجز عن البقية فناولها أمه، والبقية كانت ساندويتشات فول وطعمية، والمرأة وقفت تأكل وأخذت ورقة جريدة من الشارع ولفّت بها بقية القطران ووضعتها تحت إبطها لتعطيها لأولادها، وحملت نصف كوم الكتب والكراريس وحمل الغلام النصف الآخر، وبعد قليل يرى الولد

مرجيحة نصبها إنسان عجيب فى وسط الرصيف، ويأخذ من أمه نقودًا أخرى ويعطى بقية الكتب لأمه ويجرى ليتمرجح، والأم ترفع ذيل ثوبها وتضع فيه الكتب ولا حرج، فهى تلبس كل ما عندها من الثياب بعضها فوق بعض، وأقف لأدرس خطة لعبور الشارع، وعلى العادة أجمع القصة من رذاذ ما يترامى إلى سمعى، وهذه التركيبة الواقفة إلى جوارى تجد زكيبة مثلها، ويبدأ الحديث وأفهم أنها الزوجة الثالثة فى سجل زيجات معلم اسمه الحاج حجاب فيما سمعت وقد أنجبت منه بنتا، وهذا الغلام، وهو الخامس فى سجل نسل المعلم حجاب بارك الله فيه، والمعلم حجاب مريض القلب والكلى والكبد والرئة وكل شىء، وهذه المسكينة التى تقف إلى جوارى تنتظر ضناها وحبة عينها الذى يتأرجح مريضة بالقلب، والحكماء حذروها من الحمل وهى بين نارين: الموت من أمام وخطر الطلاق من خلف، ولا أمان إلا بولدين ثلاثة آخرين وربنا يستر. والولد تأرجح بخمسين قرشا، وأكل بجنيه، وأخذ كل كتب العام وكراريسه بخمسة وعشرين قرشًا. وهذا هو الدستور والدستور يحمى هذه الفوضى كلها، ولكنك لابد أن تقطع لسانك وترميه للقطط وإلا كنت مواطنًا متخلفا غير صالح، ولابد من عقابك، وبطل الأبطال الذى علمنا الظلم وألبسنا لباس الجوع والخوف ما زال يحكمنا لأنه غير خريطة مصر «كما قال الخطيب».

وعند كوبرى أبى العلا أجد نفسى أمام المستحيل، فهذا طريق النيل، وعرضه نصف كيلو متر. فكيف أعبره وسيل سيارات الموت لا يتوقف؟ وأنظر إلى يسارى فأرى جامع السلطان أبى العلا، فأجده كتلة من السواد لكثرة ما تراكم عليه من تراب القرون، وأقول له: مش عيب.. تبقى سلطان ويكون هذا حالك؟! ويقول لى الرجل من تحت ركام التراب:

يا سيدى أنا سلطان حقا ولكنى سلطان المتعيس، وسلطان المتعيس هو أتعسهم فيما تعلم، وأنت فيما أرى أتعس منى، ولكن لا بأس. سأساعدك: ماذا تريد؟ سيدى ولى الله أريد أن أعبر هذا المحيط.

و أنظر فإذا رجل مرور شاب على رأسه خوذة حديد بيضاء. ومن بعيد أشير إليه فأراه يقبل نحوى وأنا لا أصدق. ودون أن يسألنى يمد لى ذراعه ويقول: تعال يا حاج واعبر معى بسلام. وفى أمان هذا الضابط الطيب أعبر جبهة من النيران تذكرنى بالجبهة الغربية التى وصفها لنا أريك ماريا ريمارك فى روايته التى لا تنسى، وألتفت لأشكر هذا الشاب ولكنه اختفى، حقا إن هذا البلد فياض بالخير وأهل الخير، ولكنهم كلهم مغيبون تحت ركام التعاسة والإهمال والنسيان.

وقبل أن أعبر كوبرى أبى العلا أذكر أن عندى سؤالا يحيرنى من سنوات، وأنتهز فرصة وجودى فى حماية أبى العلا فأسأله: ولا مؤاخذة يا ولى الله، متى كنت سلطانًا على مصر؟ أأنت من سلاطين الأيوبيين أم المماليك البحرية أم البرجية أم من سلاطين آل عثمان؟ معذرة – ولو فيها قلة أدب – فأنت تعلم أننى من أهل التاريخ وأريد أن أصنفك وأضعك فى مكانك من سجل السلاطين! ويقول صوت الشيخ فى غضب: أنت مؤرخ. فأنت حشرى تتدخل فيما لا يعنيك، وأنت تذكر أن الحافظ العلامة أبا طاهر السلفى قد حرم الكلام فى التاريخ لأنه غيبة، وألم تسمع أن شيخ المحدثين الحافظ إسحاق بن مروان بن مخلد المعروف بابن راهويه قد حرم الكلام فى التاريخ، وقال إنه علم انتهى بنهاية القرن الرابع الهجرى، لأن سلسلة الرواة الثقات للحديث انتهت، فلم يعد للناس هناك حاجة بعلم التاريخ، وأنا أسير على الكوبرى كتبت مذكرة

إلى السيد مدير جامعة القاهرة أقترح فيها إلغاء قسم التاريخ تنفيذًا لرأى الحافظ ابن راهويه، ثم ألقيها فى النيل.

وأخيرا، وبعد عناء دام ساعتين ونصفا أجد نفسى فى بيتى، لا تسلنى كيف، ولكنك إذا كنت تصدق أن المركبة الفضائية اكسبلورز قد وصلت إلى نهاية المجموعة الشمسية، وانطلقت فى فضاء الله، فإنك لا تستكثر على إنسان مصرى أن يصل سالما من مصب شارع سليمان باشا - معذرة طلعت حرب - إلى بيته عبر النيل فى ساعتين ونصف.

المهم أننى انحططت على كرسى، ومددت يدى فخلعت حذائى، وجلست أسترد أنفاسى وأجمع شتات نفسى. والسيخ متولى الشعراوى قال إن الإنسان يتكون من بدن وروح، وإنهما إذا اجتمعنا كانت النفس، فهذا هو بدنى وبقيت روحى، فأنا أنتظرها لأجمع نفسى، وأهلى يهنئوننى بالسلامة كأننى عبرت الأطلسى سابحًا، ويسألوننى أن أنهض إلى المائدة، فالطعام ينتظرنى من ثلاث ساعات، وأستمهلهم، فما خلق الله بشرًا سويًّا ينظر إلى طعام بعد هذا الغلب الذى رأيت: ثلاث ساعات وأنا فى جهنم ويداى وقدماى وكلى فى النار، ثم تكون لى رغبة فى طعام؟ ثلاث ساعات لم أر فيها وجهًا مرتاحا أو ابتسامة على وجه إنسان، ثم تكون لى رغبة فى طعام؟ ثلاث ساعات بين المخاطر والمزالق والأخطار والمشاكل وأسباب الهلاك جميعا. ثم تكون لى رغبة فى طعام؟ ومنظر البطاطا وعليها أسراب الموت، والكشرى وعليه رسم جمجمة القرصان وعظمتيه، وساندويتشات الفول والطعمية وعليها رايات الخطر الحمراء، والغلمان وأمهاتهم يلتهمون السم والمرضٍ ويحملون من مالى أنا المسكين، حملاً من الكتب مقابل خمسة وعشرين قرشا، ثم تكون لى رغبة فى طعام؟.

وتصيح بى شريكتى فى العـذاب، والآلام ست البيت - عوض الله صبرها خيرًا - يا رجل: تهلكنا خوفا عليك وتهلكنا فى تسخين الأكل مرة بعد أخرى ساعتين، ثم تجلس الآن على الكرسى مرتـاحًا، ونحن كالخدم بين يديك؟ حقا إن الذى يده فى الماء لا يشعر بآلام من يده فى النار.

وأنهض فأغسل يدى من هباب النار والطريق، وأجلس إلى مـائدة الطعام وأصيب شيئا، لا لأنى جائع بل لكى أطمئن أهل البيت على أنى أكلت، ليرفعوا المائدة ويستريحوا، ثم أتوضأ وأصلى الظهر والعصر، وأعود إلى مقعدى وأسأل: هل بقى بيننا أحد من جنس الذين يدهم فى الماء؟ أنا شخصيا وكل من يحيطون بنا أيدينا وأرجلنا وكياننا كله فى النار، ترى أين يعيش أصحاب الأيدى السعيدة فى الماء؟

وتقع عينى على صحف اليوم: الأهرام وأبو الهول وأبو سمبل وكل سجلات المجد والفتوح، و أقرأ: رئيس الوزراء يصرح بأن تسعين فى المائة من مشاكل المواصلات قد انحلت، وأن سيارات التاكسى قد وضعت تحت رقابة حازمة، والحافلات أصبحت تزيد على حاجة الناس، ونصف مقاعدها الآن خالية، ووزير التموين يؤكد أن كل شىء فى الجمعيات متوافـر، والرفوف لا تحمل ما عليها، ووزير آخر يؤكد أن عشـرين مشروعًـا إنتاجيًا قد تمت. وهى تنتج الآن أضعاف ما أملناه منها فى ربـع الوقت المقرر، ونحن نصدر منها الآن بملايين الجنيهات، ووزير ثالث يؤكد أن كل طفـل يولـد على أرض مصـر له مكـاالجامعـات، وحقه فى المـاجستير والدكتوراه مضمون، وفى مؤتمر التكنولوجيا العليا الذى عقد فى القاهرة أخيرًا تقدم الباحثون المصريون بمائة بحث فيها علاج الدنيا من كـل

أمراضها، حتى مرض سقوط الأظافر الذى يشكو منه أهل كما تشاكا، وتحيرت فيه مراكز البحث فى الدنيا، وجد له شاب صغير عبقرى فى جامعة كفر العفاريت علاجًا ناجحًا، والعلاج رخيص بسعر التراب، لأن الباحث المصرى النابغة وجد الدواء فى فطر يعيش فى مستنقع قريته، وسبحان الله : خلق المرض فى كما تشاكا والدواء فى مستنقع قرية صاحبنا، ويضيف الخبر أن تلك الجامعة ستتخذ قرارا باعتبار المستنقع منطقة علمية لابد من المحافظة عليها بكل ما فيها من أصناف البعوض وحوامل الموت.

وأتأمل الأخبار وما يزينها من الصور، فأجد وجوهًا ضاحكة تطفح بالسعادة، وكل هؤلاء سعداء محبورون يسبحون فى بحار الهناء، وأقول لنفسى: إذن فهؤلاء هم الذين أيديهم فى الماء، هؤلاء السادة المسئولون السعداء هم الذين أيديهم فى الماء، هؤلاء هم الذين يسبحون فى أنهار الرخاء سبحًا، وإلا فهل يضىء وجه إنسان بهذا البشر كله إلا إذا كانت يداه ورجلاه وكل جسمه العزيز فى الماء، وهذا والله رجل لا يمكن إلا أن يكون فى قمة السعادة، فإن ابتسامته من الأذن إلى الأذن، ووجهه مشرق وضاء وهو يقول: مجلس الشعب يضرب رقما قياسيا فى إقرار القوانين: ١٥٠ قانونًا فى هذه الدورة؟؟ كل قانون منها يفتح لنا بابًا من أبواب السعادة والرخاء، وملايين الدولارات تنهال علينا ونحن لا ندرى، وشباب مصر خسر معركة الكرة أمام زامبيا - تصور زامبيا؟ ولكنه نفذ مشروعات هائلة بجهود ذاتية ى كل محافظات مصر، والعالم كله يصفق، وهذا هو تصريح مسئول كبير - ولا تسلنى: مسئول عن إيه، لأنه مسئول وبس، وأنت يا حشرى مش مسئول وبس، ومتى كان لهلفوت غير

مسئول مثلى ومثلك أن يرفع عينيه فى وجه مسئول مشرق الوجه بكل آلاء سعادة الدنيا؟

* * *

وعشرات المرات سألت نفسى: هذا المسئول - الكبير أو الصغير - مسئول عن ماذا؟ وزير الصناعة مثلاً هل هو مسئول عن الصناعة؟ ومسئول أمام من؟ وما حدود هذه المسئولية؟ لقد كان عندنا وزير صناعة يقول إننا نصنع كل شيء من الإبرة إلى الصاروخ، ثم تبين بعد ذلك أننا لا نصنع الإبرة أو الصاروخ، فماذا فعلنا له؟ وكان عندنا وزير زراعة يقول إن إنتاجنا الزراعى يغطى كل حاجتنا فى سنة ١٩٨٢، وجاءت سنة ١٩٨٢ وراحت، وإنتاجنا الزراعى لا يغطى ٤٠ فى المائة من حاجتنا، فماذا فعلنا فيه؟ ووزراء التعليم جميعًا قالوا إن الأمية ستتلاشى من مصر سنة ١٩٨٠، ونحن الآن سنة ١٩٨٣، ونسبة الأمية زادت حتى قاربت ٨٠٪ فماذا فعلنا لأولئك السادة!

أتريد الحقيقة يا سيدى؟ إن المسئولين فى هذا البلد هم الذين لا يسألهم أحد عن شيء، أما غير المسئولين - مثلى ومثلك - فهم فى الحقيقة المسئولون. نحن نحمل على أكتافنا كل الأعباء، كل المتاعب، كل الديون، وهؤلاء الذين مررت بهم فى الطريق مسئولون عن أولاد ونسوان ونفقات بلا نهاية. أما الذين نسميهم مسئولين - وكلهم على وزن فعيل: وزير وكيل. رئيس. مدير - فهم غير مسئولين فى النهاية، أو هم - إذا أردت الإنصاف - مسئولون عن أنفسهم وأولادهم وحواشيهم وهنا - إن جئت إلى الحق - يقومون بمسئولياتهم كاملة، كلهم ياسيدى أيديهم فى الماء العذب الزلال، وأولادهم يسبحون فى الماء الصافى النمير سبحًا، كلهم لا يعيشون فى عالمنا الجميل هذا، ولا يخوضون معارك الأسعار

ولا يحترقون ليقطعوا بحار الشهور بمرتبات هى ملاليم، كلهم لا يعرفون عذاب مشى الرصيف أو الخوض فى مستنقعات الشوارع، أو التخشب فى محطات الأوتوبيس، أو التذلل بين أيدى سائقى التاكسى، كلهم يقولون إن الأسعار فى غاية من الرخاء، وهى فعلاً رخية لهم، لأن دخولهم فوق مستواها، ولا شىء يغلو عليهم، حتى حفلات خوليو ايجليسياس وداليدا رخيصة لهم، وماذا فى مائتى جنيه تنثر فى ليلة على طعام فى النادى، والمدموازيلات يتغزلن فى المغنى الأسبانى، وهو يدهش من أمرهن ويسأل إحداهن: والسيدة الوالدة.. ألن تغضب إذا رأتك على هذه الحال؟ يا سيدى إنهم هم الذين يصنعون الأسعار ويضحكون علينا بالتسعيرة. والأسعار التى لا يحفلون لها تبكينا لأنها فوق مستوانا. عالمنا يا سيدى لن تجد فيه إلا تعيسًا وأتعس والأتعس. وعالمهم لا يعيش فيه إلا سعيد وأسعد والأسعد، ونحن مسئولون عن كل شىء لأننا نعيش فى وادى غير المسئولين، وهم غير مسئولين عن شىء لأنهم يعيشون فى رياض المسئولين.

وواحد منهم قضى - يا أخى - أكثر من عشر سنوات فى جحيم الوزارة، وهكذا يتحدث عن منصب الوزير. مرتبه كما هو فى الدفاتر لا يزيد عن ٣٠٠ جنيه فى الشهر، ولكن المسكين دخل الوزارة من شقة وخرج منها فى فيلا على بابها الأمامى مرسيدس ٢٨٠ أس. أى. وعلى بابها الخلفى سيارة أغلى وأجمل للست هانم والأولاد، لا تسأل من أين أرجوك، لأن السيد الوزير حصل بعد عذاب الوزارة على لقب وزير سابق، ووزير سابق يساوى فى تسعيرة السعداء أكثر من وزير راهن أو مرهون، والوزير السابق العزيز تولى إدارة بنك، وراتبه فيه ٣٠,٠٠٠ جنيه يضاف إليها ٥٠,٠٠٠ بدلات - فى السنة، لا فى الشهر أرجوك - والراتب

معفى من الضرائب بحكم القانون، والبدلات معفاة هى الأخرى بحكم القانون وبالعافية أيضا، هذا الرجل أصبح طاووسًا، لأن الطاووس هو المخلوق الذى يزيد ذيله على جسمه حجمًا وجمالاً، وصاحبنا بدلاته أكثر من جسمه فهو طاووس. والطواويس عندنا أيديها كلها فى الماء، بيوتهم فيها جميل وأجمل والأجمل، وبيوتنا ليس فيها إلا وحش وأوحش والأوحش، وحذار أن تسىء الأدب، فهؤلاء أولياء أمرك يا ولد، ومنذ متى كان لأبى فصادة المنتوف الذيل أن يتطاول ويتطلع إلى الطاووس ذى التاج والذيل الباهر الألوان؟!

قف عند حدك أيها الصعلوك، فالدنيا درجات ومقامات، تأدب وقف مكانك، فإذا كانت يدك فى النار فاصبر على ما أصابك، فهذا هو القدر المكتوب على جبينك ولا فرار، وإذا لم تعجبك هذه الدنا فاحترق إلى أخرى، وعندك بعد ذلك الآخرة وفيها إن شاء الله العوض، وحياتك ستبدأ بعد أن تخلص من هذه الدنيا، ويرحب بك فى عالم الخلد صوت الملقن يقول: يا عبد الله هذا آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة! وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه قال: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا..

وإلى أن نلتقى على خير إن شاء الله..

ذكريات حلوة..
وأصداء مرة..

فى الواحدة بعد ظهر ٦ أكتوبر ١٩٧٣ بدأ الحدث الحاسم، انطلقت أكبر قوة طيران ملكتها أو حركتها دولة من دول العالم الثالث - ٢٤٠ طائرة - بنظام كامل محكم من المطارات الحربية المصرية. واستطاعت بدقة كاملة أن تهدم فى بحر ساعة من الزمن كل ترسانة العدو الإسرائيلى فى جبهته الغربية وسيناء: القاعدة الجوية الإسرائيلية فى العريش، والمطارات الحربية الأخرى التى أنشأتها إسرائيل فى سيناء: مطارات المليز وتمادة والسر والجفجافة شرق الحائط الجبلى فى منطقة الممرات، وتحطمت فى نفس الوقت مراكز الرادار والتشويش فى أم خشيب وأم مرجم والطاسة وغيرها.

بتلك الضربة إنشلت قوى سلاح الطيران الإسرائيلى، قطعت يدها الطويلة التى كانت تتصور أنها تستطيع أن تفعل بمصر ما تشاء، فى أقل من ساعة أصيب هذا الجهاز العسكرى الرهيب، ركيزة التفوق العسكرى الإسرائيلى. والكبرياء الإسرائيلية، وأصيبت إسرائيل كلها بذعر كامل، إذ اضطرت إلى أن تعد فى سرعة خطرة مطارات وأجهزة أخرى فى العمق

الإسرائيلى لمواجهة اليد المصرية الطويلة التى كالت لها هذه الضربة التى لم تكن لتخطر لأحد من بنى إسرائيل على بال.

فى نفس الوقت انطلقت قذائف المدفعية المصرية الثقيلة - ٤٠٠٠ مدفع مضافا إليها قوة صواريخ أرض أرض كاملة - انطلق هذا الوابل النارى يحطم كل مراكز المدفعية الإسرائيلية على الشاطىء الشرقى للقناة ومراكز مدفعية الهجوم الإسرائيلية فى خط بارليف وما وراءه إلى عمق يتراوح بين ١٠ و١٥ كيلومترا، وأصيبت قوة المدفعية الإسرائيلية على طول ضفة القناة الشرقية بضربة قاصمة، حطمت خطوطها الأمامية والخلفية وتمهد الطريق أمام العبور.

وخط بارليف الرهيب الذى أنشأته إسرائيل ليكون السد المسلح الهائل الذى يحول دون مجرد التفكير فى العبور، ويؤمن سيطرة إسرائيل على سيناء للأبد، هذا الخط الحصين تحول إلى خندق - أو قل إلى سجن - للقوات والمعدات الإسرائيلية المركبة فيه، انتهت إلى الأبد قيمته العسكرية كلها.

وحتى الساتر الترابى الهائل - سد يأجوج ومأجوج - الذى أقامته إسرائيل على ضفة القناة، وبنته من تربة طفلية وصلصالية تجعل مهمة اختراقه بقنابل المدافع مستحيلة، هذا الساتر اندفعت خراطيم المدفعية المائية المصرية تحطمه، وتحيل ترابه إلى طينة لزجة متماسة صماء أخذت تنحدر إلى مياه القناة وتعرضها للردم بالطين، أو ما يسمى بالإطماء، فكان لابد من إزالة الإطماء على عجل حتى لا يحول الطين اللزج دون عملية إقامة رءوس الجسور للعبور وبسرعة خاطفة وعبقرية عسكرية حقيقية وجهت تيارات المضخات المائية الكاسحة إلى أعالى الساتر لكى ينحدر

الطين إلى الناحية الشرقية بدلا من السقوط فى القناة، وأمكن فى بحر ست ساعات من العمل المتواصل شق ٨٥ ثغرة فى ذلك الساتر الترابى. وبسرعة خاطفة تمكنت القوات المصرية من إقامة ١٠ أو١١ من الكبارى العائمة الثقيلة bniages pomtoom لعبور الدبابات و١٠ كبارى للمشاة ونحو ٥٠ معدية، وعبرت القوات بأدواتها الثقيلة والخفيفة وبدباباتها أيضًا، وشرعت فى إقامة معابر bridge heads وبدأت عملية كانت تبدو مستحيلة: العبور.

وهل هذا كله كان معناه العبور الكامل؟

أبدًا، فإن هذا كله ما كان ليجدى نفعًا لو لم تسلح طلائع القوات العابرة بأسلحة جديدة ابتكرتها العبقرية العسكرية المصرية: صواريخ كتف خفيفة مضادة للطائرات والدبابات، وعربات يد خفيفة تحمل الأسلحة والأثقال والمؤن وتجر باليد، وسلالم من الحبال ليتسلق بها الجنود الساتر الترابى مستعينين بسلالم خشبية ليتمكنوا من الإجهاز عليه، كل هذا تم إعداده فى سرعة خاطفة، وأصبح حقيقة، وعبرت القوات المصرية واخترقت الساتر الترابى وانقضت على قوات العدو الإسرائيلى خلفه فى طريقها للاستيلاء على عرين الأسد نفسه: خط بارليف.

وبدأت بالفعل تستولى على حصونه فى حماية مظلة نيران المدافع المصرية fire barrage وهذا كله - وهنا جانب آخر من جوانب المعجزة العسكرية المصرية - تم على امتداد القناة من البحر المتوسط إلى الخليج - ١٧٠ إلى ١٨٠ كيلو مترًا، أو نحو ١٠٠ ميل فى المراجع الإنجليزية التى أعتمد عليها الآن - ومع أن المصريين لم يستولوا فى هذا الهجوم العسكرى الخاطف إلا على ١٠٠ كيلو متر من ضفة القناة

الشرقية، فإن قواتنا استردت بعملها هذا القناة كاملة، لأن طبيعة ضفة القناة فيها قطاعات ذات تكوين جيولوجى خاص يخرجها من المواجهة.

وبهذه الضربات التى لا تصدق، كانت مصر قد تمكنت خلال الأيام الثلاثة الأولى من الهجوم من استرداد قناتها وإزالة الساتر الترابى، والاستيلاء على خط بارليف بكامله ودخلت فى مواجهة حقيقية – للمرة الأولى – مع القوات الإسرائيلية، فاكتسحتها اكتساحًا. وهذا ما كانت إسرائيل تعرفه وتخشاه، ولهذا ففى حروبها الماضية كلها معنا كانت تحرص على أن تتجنب تلك المواجهة باستخدام سلاح الطيران الذى كان يمثل يدها الطويلة التى توقف أى محاولة مصرية للتقدم للمواجهة مع الجندى الإسرائيلى الذى كان قد أصبح بفضل هذا التكتيك – أو قل: الكذبة التكتيكية – أبسل جندى فى الدنيا، وضراوة جنود الصابرا الانتحارية، كانت قد أصبحت من زمن طويل حقيقة فى أذهان الدنيا بفضل سلاح الدعاية، أو قل: الكذب الإسرائيلى المحكم.

وكانت القيادة المصرية تعرف أن العدو، لن يلبث أن يستعيد توازنه، ويلجأ إلى استخدام سلاح طيرانه المخيف من مطارات أخرى، ليحطم المعابر ويوقف تدفق قواتنا فلجأت خلال الليل إلى تحريك سريع لمواقع الكبارى والمعابر واتجاهاتها ومحاورها، وأقامت بعض الكبارى والجسور الخداعية لينشغل بها العدو، وغطت ذلك كله بغطاء كثيف من الدخان يمنع الرؤية واستمرت عملية العبور.

وفى ٧ أكتوبر أعلنت إسرائيل أنها دمرت كل المعابر ورءوس الجسور التى أقامتها القوات المصرية، أعلنت ذلك مقدمًا، ثقة منها فى أنها ستفعل ذلك حتما، بل أعلنت أنها ستسيطر على الضفة الشرقية خلال ٢٤ أو ٤٨

ساعة! وبعد ذلك بيومين أعلنت أنها تخلت عن خط بارليف، وأن الحرب ستكون طويلة وصعبة جدًا، وأن الخسائر الإسرائيلية فادحة!

أعلنت إسرائيل ذلك بعد أن تأكدت أنها خسرت المواجهة مع المصريين بعد أن بذلت أقصى ما استطاعت من جهد. ففى الليل من يوم ٧ أكتوبر (ليلة ٨ أكتوبر) قامت إسرائيل بهجومها الجوى الشامل، تحركت يدها الطويلة وقبضتها الحديدية لتضرب الضربة القاضية، أو ماسمته صحفها بضربة اليد القاضية من أسفل إلى أعلى Istailis Straight left hand book.

و٢٥٠ طائرة إسرائيلية قامت بقصف المواقع المصرية على ضوء المشاعل المعلقة فى السماء، فجعلت الليل نهارًا واستمر ذلك طول الليل، وفى الصباح جربت إسرائيل الضربة القاضية اليمنى، ونصف قوة سلاح الجو الإسرائيلى ٢٥٠ طائرة مقاتلة من أقوى طراز - قامت بغارات جوية متلاحقة على ارتفاع منخفض لتصطاد كل جندى مصرى، وكل دبابة مصرية، كما فعلت بنجاح باهر سنة ١٩٦٧، ولكن هيهات فقد فوجئت بوابل من صواريخنا قصيرة المدى من طراز سام ٧ تساندها المدفعية فاضطرت إلى الارتفاع لتصيدها صواريخنا بعيدة المدى من طراز سام ٢ وسام ٣ فتساقط الكثير منها، أو عجز عن تحقيق أهدافه، وبعد ساعات من المحاولة تبينت إسرائيل أن يدها الطويلة قد قطعت، وأن المصريين نجحوا فى أن يغطوا قواتهم بستار سميك جدًّا من النار الحامية يستحيل اختراقه. لقد نجحت المدفعية - ربما للمرة الأولى فى التاريخ - فى تغطية القوات المهاجمة بغطاء كامل الوقاية، وتحرر الطيران المصرى من عبء تغطية القوات، وانطلق ليصيب قلب دفاعات العدو ومراكزه وقواعده خلف الجبهة.

ودباباتنا العابرة تمكنت من تحطيم دبابات العدو فى أضخم معركة دبابات فى التاريخ، وأدرك موشيه دايان أنه انهزم. واعترف بذلك، وأنا أنقل نص كلامه هنا مما أورده د. جمال حمدان فى كتابه القيم (٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية). (ص ٧٧) «لقد كانت لى نظرية هى أن إقامة الجسور سوف تستغرق منهم طول الليل، وأننا سوف نستطيع إيقاف ذلك بمدرعاتنا، ولكن تبين أن هذه ليست مسألة سهلة، ولقد كلفنا إرسال الدبابات إلى جبهة القتال ثمنًا غاليًا جدًّا، فقد أحدثت الأسلحة المضادة للدبابات التى استخدمها المصريون خسائر فادحة فى المدرعات الإسرائيلية، وكانت هذه نقطة خطأ أساسية من هيئة الأركان الإسرائيلية؛ فنحن لم نتوقع ذلك»..

ويمضى موشيه دايان يستغيث بالولايات المتحدة ويصيح: إن لم تدركونا هلكنا. والولايات المتحدة التى تقف فى وجه العرب دائما فى اللحظات الحاسمة أسرعت بإرسال مدد لإسرائيل عن طريق جسر جوى، لم يسمع بمثله من قبل، وآثارها الصناعية تضع نفسها فى خدمة إسرائيل، وتكون التعقيدات التى نعرفها جميعًا، ولو لم تفعل الولايات المتحدة ذلك فربما كانت قد خلصت نفسها إلى الأبد من عقدة إسرائيل. وكسبت العرب والشرق الأوسط معهم، ولكنها تصرفت على هذا النحو لسوء حظنا وسوء حظها أيضًا، فإسرائيل فى نهاية المطاف ليست دولة ولا أمة تقوم على أرض هى لها، ولكنها قوة عسكرية تأخذ شكل الدولية، قوة احتلال أجنبى يزعم أنه أقام وطنًا وأمريكا - عن علم أو جهل - ما أكثر ما تقف وراء الباطل. ثم تندم بعد ذلك ساعة لا ينفع الندم! وقفت إلى جانب الطاغية الجبار شاه إيران رضا بهلوى، وتخلت عنه عندما

احتاج إليها، وهى اليوم تقف وراء فرناندو ماركوس فى الفيلبين وستتخلى عنه فى القريب، ووقفت إلى جانب بينوشيه فى تشيلى عندما تصدى بقواته العسكرية لمذبحة سلفادور أيندى ومن معه، وكما تخلت روسيا وقت الحاجة عن ايندى وتركته لأعدائه ليذبحوه، أو ليرغموه على الانتحار، فستتخلى أمريكا فى القريب عن بينوشيه، والعالم بين الطاغية الروسى والطاغية الأمريكى يقف بالفعل معرضا بين نارين.

وموشيه دايان الذى كان يتمنى أن تقوم القوات المصرية بمحاولة العبور ليسحقها سحقًا ويغرق المصريين إلى آخر جندى فى مياه القناة وقف ينظر إلى القوات المصرية الزاحفة وقد مادت به الأرض، وأيقن أن عقدة التفوق كانت قناعًا على عينيه والآن زال القناع، ومن يومها إلى أن مات استقر فى نفسه احترام بالغ للمصريين ورجل العبور أنور السادات.

أنتقل بك الآن إلى الجبهة السورية فى حرب أكتوبر لنرى الفارق الهائل.

لقد رأيت قدرة المصرى على تنفيذ الخطط واستعمال الأسلحة والالتزام بالخط المرسوم تحت النيران.

فعلى الجبهة السورية وفى نفس الوقت بدأ الهجوم السورى المباغت، وفى الساعات الأولى وبينما كان المصريون يجاهدون للعبور تمكن السوريون فى هجوم شامل على طول هضبة الجولان من استعادة جبل الشيخ وجزء كبير من القطاع الأوسط، ووصلت القوات السورية إلى أبواب القنيطرة عاصمة الجولان وقاعدتها الاستراتيجية، بل بلغ من نجاح الخطة المصرية السورية التى وضعت بإحكام أن وصلت الطلائع السورية إلى حدود إسرائيل وتوغلت فى شمال إسرائيل، حتى أصبحت

على حافة التلال المطلة على الجليل، وكانت على وشك شطر القوات الإسرائيلية العاملة فى الشمال إلى شطرين.

وهنا يتبين لك الفرق بين الجنديين المصرى والسورى، فبينما التزم المصرى بخطته بأمانة تامة فلم يخسر نصره، نجد السوريين فى نهاية اليوم الثانى من الحرب (٧ أكتوبر) يزدهيهم النصر، ويخدعهم ما كتبه أحد الصحفيين الفرنسيين، وهو جيرار لوجران، من أن السوريين على وشك أن يقتطعوا قطعة من شمال إسرائيل كقضمة تفاحة (جمال حمدان ص١٢٠) فيصدر القائد السورى الأعلى مصطفى طلاس، الذى ما زال قائدًا أعلى، أمره بفرد جناحى الهجوم السورى ليتم الاستيلاء على قطعة أكبر من شمال إسرائيل بالإضافة إلى جبل الشيخ، والقنيطرة التى أعلنت الدعاية السورية - سابقة للحوادث - أنها تحررت،وهنا كانت الكارثة، لأن فرد الجناحين كان على حساب كثافة القوة المهاجمة، ورقت كثافة قوة المدرعات السورية المهاجمة، ولم تعد قوة الدفاع المضادة للطائرات بالكفاءة اللازمة لحماية كل الجبهة، وبينما كانت الطائرات الإسرائيلية تتساقط بغزارة على الجبهة السورية خلال اليومين الأولين حتى قيل - يومها - إن صيد الطيارين الإسرائيليين الهابطين بالمظلات أصبح هواية الدمشقيين، نجد سلاح الجو الإسرائيلى يحطم القلب السورى، وتتقدم دبابات إسرائيل وتستعيد جبل الشيخ، وتقذف بالسوريين بعيدا عن القنيطرة، وهنا ودون داع أصلا نجد الطائرات السورية تهاجم المستعمرات الإسرائيلية فى الجولان: فى سهل الحولة، والجليل ومرج ابن عامر، فى حين وصلت المدرعات الإسرائيلية إلى مشارف سعسع، وضاعت الخطة وتفرق الجهد، والجبهة انخرقت فى الوسط

تمامًا فى اليوم السادس من الحرب، وعندما جاء وقت وقف النار كانت إسرائيل أبعد داخل سوريا مما كانت عليه قبل الحرب.

هذا ياسيدى يعطيك مثالاً عن كفاءة المصرى وبسالته إذا هو أعطى فرصة وترك لينفذها، وأنا ما أقصد أبدًا المقارنة بين الجندى المصرى والجندى السورى، فالجندي السورى مقاتل عربى باسل، وهو أخونا فى النضال، ولكن لم نعلمه شيئًا، فكيف نطالبه بما لم نعلمه نحن إياه ؟! وكيف نلومه فيما نحن أسوأ منه فيه!

وعندما تقف فى إدارة حكومية وترى الهرج والفوضى والقذارة وسوء الأداء وضعف الالتزام واللامبالاة فإياك أن تتهم هذا الشعب، بل اتهم مدير تلك الإدارة، ثم من فوقه، ومن فوق فوقه، حتى تصل إلى الوزير إذا اقتضى الأمر، فنحن لا يهمنا إلا مصر، وليس لنا إلى جانبها عزيز.

وعندما أقرأ فى الصحف ، أن محافظة القاهرة قررت هدم كل أدوار العمارات المضافة دون ترخيص تطرب نفسى وأقول: أخيرا محافظ حاسم!

وعندما أقرأ بعد ذلك أن محافظتى الجيزة والقاهرة معا أوقفتا العمل بهذا القرار لإعادة النظر فى التعقيدات التى تترتب على تنفيذه أقول: يا خسارة ياناس! يا ألف خسارة!! ولماذا لم تدرس كل تلك المشاكل والتعقيدات قبل إصدار القرار؟

وعندما يهمس الناس فى أذنى: لقد أوقفوا تنفيذ القرار لأنهم مشتركون فى بناء الأدوار غير المرخص بها، وأنهم أوقفوه حماية لمصالحهم أقول: معذورون! الناس المساكين معذورون.

وعندما أقرأ أن مجلس الشعب وافق على قرار بإيقاف التعدى على الأرض الزراعية محافظة على الثروة الحقيقية الوحيدة التى نملكها أقول: قرار رشيد لمجلس نواب رشيد!

وعندما أرى أن العدوان على الأرض الزراعية يستشرى أكثر مما كان قبل صدور القرار أجد نفسى أقول: وماذا تفعل الحكومة؟

وعندما أسمع طلابى من شباب القرى العائدين لمواصلة دراستهم فى الجامعات يقولون: إن أصحاب الأمر فى نواحيهم على رأس المعتدين على الأراضى الزراعية، وإن بعض كبار المسئولين هناك تحولوا إلى سماسرة عقارات، وإن العمد ومشايخ الخفر ومشايخ العزب يشتركون فى توسيع كوردونات القرى، لتحويل الأراضى الزراعية إلى أراضى مبان، وإن فلانا فى المحافظة وإن علانا فى القاهرة يتولون حمايتهم ويشاركونهم الغنيمة، أقول: إن هؤلاء الشبان معذورون، وأنا نفسى لا أستطيع تفسير ما تراه عيناى، وفسرها لى أنت يا سيدى إن استطعت.

* * *

وكلام كثير أليم وشائن يملأ الأسماع، والقلب منقبض، والنفس فى حيرة، والدموع فى العيون على ما يعانى منه شعب محير متعب، يشعر أنه ضائع. كما كان رجال جيشنا يشعرون عندما ضيعهم قادتهم فى حرب ١٩٦٧، وناس على أكبر جانب من المسئولية تشير إليهم الأصابع باتهامات رهيبة، وأنا لا أملك إلا أن أقول: إن الناس معذورون!

ألم تصدر محكمة مصرية من شهور قرارًا بطرد ثلاثة وزراء سابقين من بيت استولوا عليه معا أيام كانوا وزراء واغتصبوه من صاحبته؟

واكتفت المحكمة بطردهم أو استخلاص المال المغصوب من أيديهم. فهل نحن إذا قبضنا على لص ووجدنا المال فى جيبه نكتفى باسترداد المال وإطلاق سراحه ؟!

وأجلس وأمامى طلاب الدراسات العليا بجامعة القاهرة لكى أحاضرهم فى منهجية التاريخ، ولكنى لا أستطيع حصر ذهنى فهو مشتت، فقد قرأت فى نفس الصباح كلامًا غريبًا لمدير جامعة القناة يقول فيه: إن جامعة القناة تبدأ حيث تنتهى جامعة القاهرة.

ماذا يريد هذا السيد يا ناس؟

جامعة القاهرة تصبح مدرسة ثانوية بالنسبة لجامعة القناة؟!

ولماذا؟

لأن رئيس جامعة القناة دكتور جديد صغير السن «زغنن» يعنى؟ ورئيس جامعة القاهرة دكتور قديم «عجوز ما ينفعش» يعنى؟

ليه يا ناس هذا الكلام؟

هان عليكم هذا الشعب؟ هانت عليكم عقولنا؟

* * *

ورئيسنا يهز قلبى بخطابه فى الأمم المتحدة بحصافة نظره وسلامة رأيه وحسن بيانه.

وأسأل لماذا أيها الناس لا تكونون على مستوى القيادة، كما كان الجنود على مستوى قيادتهم فى حرب أكتوبر فكان النصر العظيم؟

وينبهنى الطلاب قائلين: أين أنت يا أستاذ؟ أين سرحت؟

وأقـول: شرد بي ذهني إلى ضفـاف القناة حيث قـام شباب مثلكم بتحقيق معجزة لمصر، لأن الجيش والقيادة كانا على مستوى واحد رفيع من المسئولية والقدرة على الأداء.

ويقولون: فسر كلامك يا أستاذ!

وأقول: خير لنا أن نعود إلى منهجية التاريخ. فإن الماضي ظهره قوي يتحمل كلامنا، وأهله مضوا إلى رحمـة الله، أما أهـل الحاضـر فأخشى ألا نكون حملهم، وهل تذكرون حكاية الفك المفترس؟ إذن فحذار من الفك المفترس!

حكاية مدام عفاف
والسلطان العادل
سيف الدين خوش قدم

كنا فى الولايات المتحدة أول ما عرفت السكرتيرات، أو أمينات الأسرار، كانوا قد اختارونى أستاذا زائرا فى جامعة ييل فى مدينة نوهيفن فى ولاية لونيكتيكات بشرقى أمريكا..

وأيامها كانت الدنيا دنيا، وكانت أمريكا بلدا سعيدًا آمنًا، ولم يكن الناس قد عرفوا بعد قطاع طرق الشوارع، أو جماعات الروكز، أو السفاحين الذين يقتلون الرجل ليحصلوا على ١٠ دولارات، أو لمجرد نزوة طلعت فى دماغ الواحد منهم فيقول بعد ارتكاب جريمته: أحسست أننى لابد أن أقتل إنسانا، وكان هذا الرجل أقرب إنسان إلىّ.. أنا لا أعرفه، ولا بينى وبينه خصومة، ولكن هكذا أراد حظه فقتلته! وهذا يحدث فى أمريكا كل يوم.

وبدلا من أن يعاقبوه يحيلونه على علماء النفس، وينزلونه فى مستشفى هو فندق، فعنده الطعام والتليفزيون ومكتب وورق وصحف وكل ما يشاء،

وتنقضى عشر سنوات وهم يفكرون فى أمره، وصاحبنا ما نشان الذى قتل مع عشيقاته الممثلة شارون تيت على أبشع صورة ما زال فى المصحة والحكومة الأمريكية تنفق عليه ٢٠٠ دولار فى اليوم، ثم جاءه الفرج وألغيت عقوبة الإعدام لأنها - تصور! - منافية لحقوق الإنسان.

ولهذا فإن البلاد الإسلامية العاقلة مثل السعودية ترفض التوقيع على ما يسمى بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان، لأن فى هذا الإعلان أشياء غير معقولة بل منافية لأبسط قواعد العدالة، وكيف والله يقال: إن القاتل لا يقتل؟ لأن الدولة - ممثلة الأمة - لا ينبغى أن تلجأ إلى الانتقام؟

المهم أننى ذهبت فى سنة ١٩٥٠ أستاذًا زائراً فى جامعة ييل، وكنا حوالى عشرة رجال ونساء أعضاء هيئة التدريس فى قسم التاريخ، وكانت للقسم سكرتيرة واحدة اسمها مسز نورما كارتن، كانت فى منتصف الأربعينات من عمرها، وكانت وسيمة رشيقة، ولها ولد وبنت فى أوائل العشرينات.

ومسز كارتن كانت تقوم بأعمال السكرتارية لنا كلنا على نحو يدعو إلى الإعجاب، كنت لا تراها إلا فى آنق صورة دون تكلف أو قصد، كنت تراها فى ثياب رشيقة غاية فى الحشمة. على وجهها ابتسامة لا تغيب، وفى نفسها طيبة جميلة، وأنت تأتى فى الصباح وتطلب منها كل ماتريد: تملى عليها نصوص خطابين أو ثلاثة، وترجوها أن تحجز لزوجتك موعدًا مع طبيب التوليد، وترسل زهورًا إلى زميل لمناسبة عيد ميلاده، وتحجز لك تذكرة فى قطار السابعة صباحًا إلى نيويورك بعد غدٍ مع الحجز فى فندق كذا، هى تسألك إن كنت ستحضر العشاء عند العميد فى يوم كذا، وتبلغك أن الأستاذ فلان مريض فى المستشفى ويستحسن أن تمر عليه، وتدخل إلى

درسك وتلقى محاضرتك وتخرج لتجد أن كل شيء تمام على الطريقة الأمريكية لا المصرية: خطاباتك جاهزة على التوقيع، وموعد الطبيب حجز، والزهور أرسلت، وتذكرة سكة الحديد حجزت وكذلك حجرتك فى فندق ولنجتون وهذا هو رقم الغرفة، وهى تنصحك بأن تحضر العشاء عند العميد لأن السيدة حرم العميد لا تحب أن يعتذر أحد عن الاستقبال فى بيتها.

وكنت أنا أقل مئونة من غيرى لأن الآخرين كانوا يطلبون عشرات الأشياء، وهى تقوم بكل المطالب فى كفاية تملأ النفس بهجة وهى لا تنسى أن زوجتك اقترب ميعاد ولادتها، فهى تمر عليها فى البيت لتذهب معها إلى المتاجر لشراء حاجات الطفل القادم.

وإلى حد بعيد كانت نورما كارتن الذراع اليمنى لعشرة رجال ونسائهم، وكان رئيس القسم مؤرخًا عظيمًا ولكن مشاكله مع امرأته لا تنتهى ونورما دائمًا هى الوسيط وقاضى الصلح.

* * *

وعرفت السكرتيرات مرة ثانية فى اليونسكو فى باريس فى مقر اليونسكو من ربع قرن مؤسسة نافعة فعلا، أما اليوم فهى مؤسسة أوقاف عجوز لا ينتفع منها إلا موظفوها وخبراؤها المستحقون فى أوقاف اليونسكو، وهم ألوف ومرتباتهم تستهلك كل دولار فى خزائنها.

وكانت تصاريف العمل قد شاءت، أن أكون خبيرًا هناك لمدة سهور ثلاثة، لدراسة موضوع أثر وسائل الاتصال بالجماهير على الشباب، وكنت أقضى فى باريس نصف الأسبوع والباقى فى مدريد، وكان لى هناك مكتب وسكرتيرة تسمى مدام أرفيو، سوزان أرفيو.

هذه يا سيدى كانت فى الثلاثينات، ولكنها كانت آية فى الكفاية، كانت تجيد الإنجليزية والفرنسية وتكتب الماكينة بسرعة ودقة، وتأخذ أى رسالة بالاستينو أو الاختزال، وكانت تعرف كل شىء وتحل لك كل مشكل، وتعطيها فقط المذكرة فتكتبها لك أحسن كتابة وأبلغها، وتحجز الطائرة والفندق وتحافظ لك على حقوقك فى المنظمة، ومن الثامنة صباحًا تجدها فى مكتبها، وفى منتصف النهار تدعوك للغداء فى الكافيتريا مع زوجها وابنتها، زوجها الطبيب يدعوك إلى مسرحية بديعة يمثلونها فى الشاتليه، ومدام أرفيو تنصحك فى كل ما يتعلق بما تريد شراءه لزوجتك وأولادك، وهى تذكرك بموعدك مع طبيب العيون، ولا أذكر أنها نسيت مرة واحدة أن توصلنى بسيارتها إلى المحطة الجوية (الأبرو جار) قرب الأنفاليد، فإذا لم تستطع فهناك ابنتها كارولين أو زوجها الدكتور روجيه أرفيو.

وإلى جانب ذلك كله فهى باريسية من شعرها إلى كعب حذائها: أنيقة رشيقة تلبس من عند ديور وشانيل وسكيباريلى وهيئتها تقول إنها لا تنسى أبدًا موعدها الأسبوعى مع قاعة التجميل أو الصالون دبوتيه، كل ذلك مع كمال وحشمة وأدب وظرف وحنان أنثوى عظيم.

* * *

وفى مدريد كانت سكرتيرة المعهد الأولى أمينة السر حقًّا، والذين عملوا هناك لا ينسون قط سيلفى لا مفوس، ثم مرسيدس ماس، نظامنا الحكومى لا يعطى أمثالهن إلا ملاليم ثم يرسلون إليك من القاهرة بأمر بألا يزاد راتب الموظفين المحليين إلا بعد استشارة مجلس الدولة! وفى نفس الأسبوع يصلك شاب هايف عينوه ملحقا ثقافيا ثانيًا أو ثالثًا وراتبه مئات ولا عمل له على الإطلاق، ومن أول يوم يصبح عبئًا عليك وعلى

السكرتيرة، وحضرته لابد أن يشترى السيارة المرسيدس من الأسبوع الأول، ويتقدم إليك بقائمة مشتريات من المسموحات فى طول ذراعه، وفى قرار تعيينه أنه يتقن الفرنسية والإنجليزية وعنده مبادئ فى الأسبانية، ويتبين لك فى النهاية أن كل ما لديه يادوبك مبادئ فى العربية، وهذه هى حصيلة بكالوريوس العلوم الاقتصادية الذى يحمله بدرجة مقبول، ولكنه يا سيدى قريب فلان أو كتب فى صحيفة مجهولة عشر مقالات غزل فى واحد من الآلهة، أو أنصاف الآلهة الـذين كانـوا يحكموننـا، وهذه هى المكافأة، وهى فى نفس الوقت عقاب لك ولكل من يعرفه، والسكرتيرة تأخذ ٥٠ جنيها وحضرته يأخذ ٥٠٠.

* * *

وأخيرا وعندما ألقت سفينتى مراسيها فى الوطن العزيز وأصبحت فيما قيل لى «رئيس تحرير قد الدنيا» قال لى مدير العاملين.

– أختار لك إن شاء الله سكرتيرة معتبرة.

وأقول له: يافلان إننى فى مصر أفضل السكرتير على السكرتيرة إذا لم يكن من ذلك بد..

– وليه يادكتور؟ إن السكرتارية اختصاص العاملات، وكل الرؤساء هنا عندهم سكرتيرات وهم مبسوطون أربعة وعشرين قيراطًا.

– يافلان أنا رجل عملى جدًا، أريد أن أغلق باب مكتبى وأملى مقالى، وأريد من مساعدى أن يأتينى بالكتاب الفلانى من المكتبة، ويشترى لى الكتاب العلانى من شارع الجمهورية أو سور الأزبكية، وأطلب إليه أن يمر بى فى البيت لنراجع معًا بريد القراء، وأملى عليه الإجابات، وهذا كله

أستطيع أن أعهد فيه إلى السكرتير، أما السكرتيرة فأنت تفهم عنى، ونحن فى بلد شرقى، ولا يمكن أن تطلب من السكرتيرة ذلك كله، هذا إلى أنى أريد شابًّا يكتب الماكينة بسرعة وكفاية.

– عندى يا افندم كل ما تطلب. عندى بنت هلوبة تؤدى لك كل ما تريد، وتكتب الماكينة بسرعة سبعين كلمة فى الدقيقة كتابة معتبرة وهى خريجة معهد التجارة العالمية.

وأحس أن السيد مدير العاملين قد اختار وقرر وعين وكل هذا الحديث بينى وبينه لا طائل وراءه، والسكرتيرة التى اختارها أخت الست حرمه واسمها مدام عفاف، وهى كما قال هلوبة، والسيدة عفاف اللهلوبة ستكون فى مكتبها الملحق بمكتبى غدًا إن شاء الله من الساعة الثامنة والنصف صباحًا.

وأنا بطبعى رجل مبكر أؤمن بالحديث الشريف: البركة فى البكور، وحوالى الثامنة أكون فى مكتبى أكتب وأراجع.

والساعة العاشرة تصل مدام عفاف وتبدأ يومها بخناقة مع الفراش الذى لم ينظف مكتبها والصوت يترامى إلىّ من بعيد وأرفع السماعة وأقول:

وصلت يا مدام عفاف؟

– وصلت يا دكتور وسآتيك بعد دقيقة، بعد أن أجد لى حلا مع الفراش.

– إذن فأوصلينى بالأستاذ فلان فى جريدة الجمهورية.

– وما رقمها يا دكتور؟

– يا مدام عندك دفتر التليفون، وهناك عمال الاسو يتش تصرفى.
- سه يا مدام عفاف فإن أمامنا عملاً كثيرًا وبعد أن تفرغى من تلك المكالمة تفضلى إلى مكتبى لأعطيك شيئًا تكتبينه.

وبعد ثلث ساعة أطلبها فتقول إنها لا تصل إلى رقم جريدة الجمهورية، فأستدعيها وأدعوها للجلوس، وأطلب مكتب رئيس مجلس الإدارة، وأحصل منه على أرقام كل الصحف وأناولها إياها وأقول:

– هكذا كنت أريد منك أن تتصرفى، فإن الإنسان ينبغى أن يعمل عمله، وكان ينبغى أن يخطر على بالك أن سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة لديها أرقام كل الصحف، والآن اعملى لك دفتر عناوين مرتبًا على الحروف الأبجدية، ومن الآن فصاعدًا تكتبين الأرقام التى تهمنا. والآن خذى هذا المقال واكتبيه على الماكينة.

وأخذت المقال ومضت، وبعد ساعة أذهب لأرى ماذا عملت فأجدها لم تكتب شيئًا.

– لماذا يا مدام.
– لا أستطيع أن أقرأ خطك.
– ولماذا لم تقولى ذلك من ساعة، إننى أعرف أن خطى عسير بعض الشيء. ولكنك إذا عرفت بعض قواعده سهل عليك بعد ذلك. أعطنى المقال لأراجعه وخذى هذا الكتاب وانقلى هذه الصفحة.
وتأخذ الكتاب وأنظر فإذا بأختنا تكتب بأصبع واحدة، وتأخذ فى سطر دقيقتين فأقول:

– يا مدام عفاف، ألا تكتبين سبعين كلمة فى الدقيقة؟.. هـذا نص مطبوع.

أكتب ولكنى متعبة هذه الأيام.

وأتبين أن مدام عفاف حامل، ومادامت حاملًا فلا مجال لمطالبتها بأى عمل، فآخذ أوراقى وأقول لها:

– ما دام هذا هكذا فلماذا أخذت عمل السكرتارية؟

– كل السكرتيرات هنا عملهن الوحيد هو التليفون..

– ياسيدتى أنا لست وزيرًا ولا رئيس مجلس إدارة حتى يطلبنى الناس كل دقيقة، وأتصل طول اليوم بالحكام، والناس العـظام، إن عملنا كله قراءة وكتابة ومراجعة، فمن الآن تتمرنين على الآلة الكاتبة، وخذى هذا البريد فاقرئيه، واكتبى أعلى كل رسالة ملخصًا لها حتى نرد على صاحبها.

وبعد ساعة من العمل أناديها لأرى ماذا فعلت بالبريد فلا أجدها ويقولون لى إنها نزلت إلى الجمعية التعاونية فقـد وصلت إليها دواجن فأسرعت لتأخذ نصيبها.

وفى اليوم التالى، تأتى بعد العاشرة بقليل، وتعتذر بأنها كان لابد أن توصل أولادها إلى مدارسهم ثم تشترى بعض أشياء البيت، ونظرت إليها وفهمت، فتركتها ومضيت إلى عملى، وقد عولت على أن أقوم بكل عملى وحدى وكأن لا سكرتيرة هناك، وأنا لم أطلب هذه السيدة، وليس لى حق فى أن أطالبها بشىء. فهى ليست هنا للعمل، بـل لأنها فى حاجـة إلى المرتب ولا ضير فى هذا أصلا، وبعـد قليل تـأتى إلى مكتبى وأدعوهـا للجلوس فتجلس وتقول:

– كنت أحسب أن كل عملى فى السكرتارية هو المكالمات التليفونية وإدخال الزوار عليك بالدور.

– لقد تكلمنا فى هذا أمس وأظنك رأيت أن زوارى ليسوا عشرات، إنهم قليلون جدا، وكلهم صحفيون وكتاب، وكلهم زملائى فلا دور هنا ولا استئذان.

وإنما الشىء الذى أحتاج إليه حقا هو الكتابة على الآلة الكاتبة، فهذه المقالات لابد أن تكتب على الماكينة قبل أن تنزل المطبعة، ورسائل القراء مهمة جدا. فالقراء هم أصحاب كل المطبعة، ورسائل القراء مهمة جدا، فالقراء هم أصحاب كل مجلة أو جريدة، ورسائلهم تعبير عن حبهم أو عدم حبهم لمجلتنا، واستجابتنا لرسائلهم دليل على تقديرنا لحبهم، وأنت فيما أرى بطيئة جدًا فى الكتابة على الآلة وخطى وخطوط القراء عسيرة عليك، فلا تضايقى نفسك، تكفيك أسرتك وأولادك: من وصل منهم إلى هذه الدنيا فعلاً ومن هو فى الطريق إليها.

كأننى لم أنجح فى عملى معك.

– لا داعى لأن تضايقى نفسك، الحق أن هذه ليست مسئوليتك، بل هى مسئولية قريبك مدير العاملين الذى قال لى إنك «هلوبـة» وكنت تستطيعين فعلا أن تقدمى لى عونا كبيـرًا،ولكن لا عليك، لا تضـايقى نفسك، عودى إلى مكتبك واعملى ما تشائين، فلن أضايقك بطلب بعد الآن.

فصمتت لحظة ثم قالت:

– ولكن صدقنى إذا قلت لك إننى أحسن من غيرى بكثير فى هذه

الدار، إننى على الأقل أحاول، وسأجتهد فى التمرن على الآلة وستجدنى بعد قليل فى المستوى الذى تريد..

- هذا أحسن، وتستطيعين أثناء ذلك أن تعاونى مدير التحرير فى إنجاز أعماله، فإن عليه عملاً كثيرًا مع المطبعة.

وبالفعل تحسنت الست عفاف كثيرًا. تقدمت فى الكتابة وتعلمت الكثير من مدير التحرير، وأصبحت فى الواقع عاملة مناولة أو عاملة مراسلة، ولكنها لم تستطع أبدًا أن تتحكم فى وقتها، كانت تعيش بعقلها وكيانها فى بيتها، أولادها وبيتها قبل كل شىء، وزوجها لم يكن رجلاً مريحًا ولكنه محور حياتها، أحيانًا كانت تأتى بابنها الصغير إلى المكتب، والولد طول الوقت يجرى فى الممرات، وأحيانا كنت أراها تشتغل التريكو، ولم أعد أهتم، ولو أنها أتت بالخضار لتعده فى المكتب كما يقال أن غيرها يفعل لما أدهشنى ذلك، فهذه ليست فى الحقيقة موظفة وإنما هى ربة بيت، وأم أولاد تستعين براتب الوظيفة على تسيير أمور أسرتها.

وعندما تقدمت فى شهور الحمل ثقلت فى مكانها، أصبحت تأتى قرابه الحادية عشرة وتجلس ساكنة لتستريح، لأن زوجها وأولادها يتعبونها فى البيت، أما هنا فى المكتب فهى تستريح، ومن حقها أن تستريح، وأخذت الماكينة إلى غرفتى لكى أكتب عليها رسائلى، فدخلت يومًا وقالت:

- إنك تجيد الكتابة فيما أرى

- إننى أكتب الأشياء البسيطة

وتعود إلى مكتبها ثم ترجع ومعها ورقة وتقول:

- هل أطلب إليك معروفًا؟

– فى خدمتك ياست عفاف.

– هذا طلب أريد أن أتقدم به إلى نقابة الصحفيين أريد أن أدخل النقابة، كل زميلاتى دخلن النقابة..

– والمطلوب منى ؟

– ولو فيها رذالة، تكتبها لى على الآلة، إنها ثلاثة سطور. وتوافق على الطلب وتتفضل بتأييده، النقابة تشترط ذلك، ولكنك لست صحفية ياست عفاف.

– قلت لسيادتك إن زميلاتى كلهن دخلن النقابة، رؤساء التحرير وافقوا على ذلك وأنا لست أقل منهن.

– يا مدام عفاف. المفروض أنك سكرتيرتى : تكتبين لى وتساعديننى. وقد وجدنا أن ظروفك لا تسمح لك بذلك وسكتنا، والآن تريدين أن أكون أنا سكرتيرك ؟ أكتب لك الطلب على الآلة وأوافق عليه على رغمى، لم يبق إلا أن تعودى إلى مكتبك وأقوم أنا بتحويل المكالمات التليفونية إليك !

وهذا ما حدث بالفعل ! لأن مدام عفاف اقتربت من الوضع فأصبحت تأتى يوما وتتغيب اثنين، وقريبها مدير العاملين يطلب إلىّ أن أتساهل معها فأقول له :

– اسمع يا أخى. إننى بالفعل سأتساهل معها، لا لأنها قريبتك بل لأنها سيدة طيبة محترمة، وأنا أحترم السيدات، إنها تعمل إلى الآن تسع سنوات فى الدار، وكان من الممكن أن تكون سكرتيرة تحرير ناجحة جدًّا، لقد كانت بالفعل ملهوبة عندما تخرجت فى المعهد وعملت فى الدار، ولكن

وصايتك عليها جعلتها كركوبة، كان من الممكن أن تكون موظفة ناجحه وربة بيت ناجحة، فأصبحت الآن زوجة غير ناجحة وموظفة أقل نجاحًا. فهى تريد منى أن أكتب لها طلباتها، وهى معظم الوقت متغيبة، زوجها وصاحباتها وقريباتها يتصلن بى ويأمروننى بأن أبلغها رسائل، والست أمها تكلمنى منذ أيام وتطلب إلى أن أبعث فراشًا يبلغ ابنتها رسالة ثم تقول إن البنت مرضت لكثرة العمل فى مكتبى، لا يكفى الست الهانم أننى أصبحت سكرتيرًا لابنتها، بل هى تحملنى الآن مسئولية تعبها، قلت لك مرارًا: إننى لن أنتفع بسكرتيرة ولكنك تصورت أنك تخدمها إذا فرضتها علىّ وهذه هى النتيجة.

- إذا كنت فى غير حاجة إليها فسأنقلها إلى مكتبى.

- افعل ماترى، فأنت المسئول عن العاملين، أما أنا فلا أظن أننى أحتاج إلى سكرتير.

- إذن فعندى لك شاب أعتقد أنه ينفعك.

- لا والله يا أخى، كفاية الست عفاف ولا حاجة لى بالسيد عفيفى، إذا كنت تريد أن تخدم كل أفراد عائلتك فعلى غير حسابى.

* * *

وبين الحين والحين جعلت أسأل نفسى: لماذا تنجح المسز نورما كارتينى، ومدام فرانسواز أرفيو وسنيوريتا سيلفى لا مفوس، ومرتيدس جينزالت ماس فى أعمالهن ولا تنجح ست عفاف؟ هل هى أقل ذكاء أو استعدادًا للعمل؟ هل هى أقل إخلاصًا أو تفانيًا فى العمل؟

غير صحيح! فأنا أول المنادين بحق المرأة فى العمل، وما عرفت فى تجاربى ميزة للرجل على المرأة فى الذكاء أو القدرة أو الجلد على العمل.

والمرأة المصرية والعربية عمومًا أثبتت أنها ند الرجل ومساويته فى كل ميدان، وعندما ألقى بنظرى إلى ماضينا أشعر بمقدار الخسارة التى منينا بها عند تحكم الرجل فى المرأة، وفرض عليها سيادة غير مطلوبة ولا مشروعة عندما تصور أنه أذكى وأقدر، والمرأة العربية على الأقل أثبتت أنها فى النهاية نجحت فى القيام بدورها أكثر مما نجح الرجل، فإن الرجل أعطاها البيت والأولاد وقال لها: هذا مكانك وإياك أن تبرحيه، وأساء معاملتها، وظلمها وتزوج عليها فى السر وخانها، ورغم ذلك كله فقد قامت بواجبها وأنشأت الأجيال، وقامت على الزوج والولد. أما الرجل فقد زعم أنه يحمى الأوطان وينهض بمسئولياتها، ففشل فى الأمرين: لا هو حمى الأوطان ولا نهض بالمسئوليات والحال فى النهاية ما تراه.

والإسلام أعطى المرأة كل حقوقها، ولكن الرجال سلبوها هذه الحقوق، ورسول الله ﷺ لم يعنف فى حياته على أى من نسائه لا فى حديث أو تصرف، فجاء المسلمون فلم يعرفوا إلا العنف فى معاملة نسائهم، والتطاول عليهم باليد واللسان، ورسول الله ﷺ لم يطلق فى حياته امرأة مع أن الله سبحانه أباح له الطلاق، ولكنه أراد أن يعطى القدوة، فترك حقه فى الطلاق لكى يقتدى به الناس، فجاء المسلمون بعده وجعلوا الطلاق والزواج لعبتهم المفضلة، وأى هلفوت لا يساوى ثلاث فرنكات يقول لك إن من حقى أن أتزوج واحدة واثنين وثلاثا وأربعا، والمحكمة تؤيده فى ذلك، ولا تستحى أن تقول إن الشريعة شىء والقانون شىء، والقرآن الكريم يقضى بأن الزوجية إما عشرة بمعروف أو تسريح بإحسان، فتكون النتيجة العشرة بالسوء والضرر والطلاق بالشلوت، وقانون العمل يعطى العامل المعاش والتأمين، أما قانون الأحوال

الشخصية فيردد فى أسلوب مهذب ما يقوله الجهلاء من أن المرأة خادمة الرجل، إن المرأة فى نظر الشريعة إنسان كريم له كل الحقوق والواجبات ولكنها فى نظر المجتمع مع الأسف ما زالت فى وضع، هو أسوأ مما كانت عليه فى الجاهلية وكأننا لم ندخل فى دين ولا إيمان.

* * *

وطوال أربعة عشر قرنا تعرضت المرأة عندنا لعملية غسيل مخ، جعلتها فى النهاية تصدق ما يقال لها من أنها ملك للرجل، وعقد الزواج أصبح وثيقة بيع، ونتيجة هذا الموقف القاسى تقف المرأة بعيدًا جدًّا عن الوضع الذى تستحقه، وكل من السيدات الغربيات اللاتى ذكرتهن متزوجات ولهن أولاد، ولكن المجتمع لا يحملهن من المسئوليات فوق ما يطقن، ولهذا فإنهن زوجات فى البيت وسيدات عاملات خارجه، ولا دخل لهذا فى ذاك أبدًا. أما المرأة عندنا فتحمل معها بيتها إلى عملها، فهى تعمل من أجل بيتها وأولادها لا للعمل فى ذاته، وهى عندما تترك عملها وتسرع إلى الجمعية باحثة عن الدواجن لا تشعر بأنها تخطىء، لأنها أولًا وآخرًا أم وربة بيت، ومسئوليتها الأولى أمام بيتها، والوظيفة وسيلة لمعاونة الأسرة، ولا تصدق أن المرأة فى الغرب تتجاوز فى حياتها حدود الحرية أو حقوق الزوجية، هذا وهْمٌ كبيرٌ نعيش فيه، وهو ظاهرة فى بعض العواصم الغربية، ولكن المرأة فى الغرب ليست أقل احترامًا للشرف من امرأتنا العربية والبرهان أمامك، فنساء الغرب يحسن تربية أولادهن، وكل من تراهم من رجال الغرب الذين يقودون بلادهم بأحسن مما نقود نحن بلادنا هم من تربية نساء غربيات، والذين يحسبون مثلًا أن المرأة الفرنسية فى مجموعها متحللة متبذلة يقعون فى خطأ جسيم، لأن

المرأة الفرنسية فى صميمها من أصلح ربات البيوت، وأخلصهن للزوج وأحناهن على الولد، ولكن أحدًا لم يفرض عليهن وصاية، والمجتمع يعتبرهن مسئولات كل المسئولية عن أنفسهن فكسبن عن هذا الطريق احترامهن لأنفسهن، وأحسن بمسئولياتهن حيال أنفسهن وحيال أوطانهم وأسرهن، ومدام سوزان أرفيو تبدو لك فى الغاية من الأناقة والرشاقة، وهى لا تنسى أبدا موعدها الأسبوعى مع الصالون دى بوتيه، لأنها حريصة على أن تحتفظ بكل شخصيتها كامرأة، ولا يخطر ببالها أن تخرج إلى الطريق وكأنها زكيبة أو كيس قطن، لأن المرأة الزكيبة والزوجة الكيس لا يمكن أن تكون - بهذا وحده - أصلح من المرأة الأنيقة الرشيقة.

كان من الممكن جدًا أن تكون مدام عفاف فى نفس نجاح مسز نورما كارتين، ولكن مجتمعنا حطمها وأنساها الكتابة على الآلة الكاتبة، وزوجها من البداية كان يعاملها بظاهر من الاحترام ولكنه فى داخل نفسه يراها رعية وملك يمين، وفى الأفلام التى تدخل بيوتنا يندر أن يوجد فيلم لا تصفع المرأة فيه على وجهها، وفى فيلم يعرض فى السينما اليوم يظهر أكبر ممثلين فى عالم السينما، وكل منهما يصفع امرأة صفعة تلقى بها على الأرض. والأولاد الذين يرون ذلك سيصفعون أخواتهم وزوجاتهم بكل قسوة. والقانون لا يطالب الرجل الراغب فى الزواج بأن يعلن بين يدى المأذون إن كان متزوجًا أو له أولاد قبل أن يعقد زيجة أخرى، والمرأة العربية هى العامل الوحيد فى الدنيا الذى يعمل دون تأمين، وهذا يمين بطلاق، وتلك نفقة سنة، وهذا مؤخر الصداق، وهذا هو كل التأمين الذى تقدمه المحاكم للمطلقة، والزوج عندما يعطى ذلك يكون رجلاً قانونيًا جدًا ومحترمًا جدًا، أما المرأة فتلك نهايتها، ونفقة السنة لا تكفى شهرًا،

ومؤخر الصداق قروش، وأصحابنـا يكتبون المقـالات فى الصحف عن التقدم الهائل الذى حققته المرأة المصـرية، والمـرأة فعلاً بـذلت أقصى ما تستطيع لتتقدم، ولكن المجتمع كله متخلف، ولا يمكن لمدام عفاف أن تصبح مثل مسز نورما كارتن أو سوزان أرفيو أو سيلفى لا مفوس، لأن رجالنا مازالوا يعيشون فى عصر الملك العادل سيف الدين خوش قدم سلطان مصر والشام.

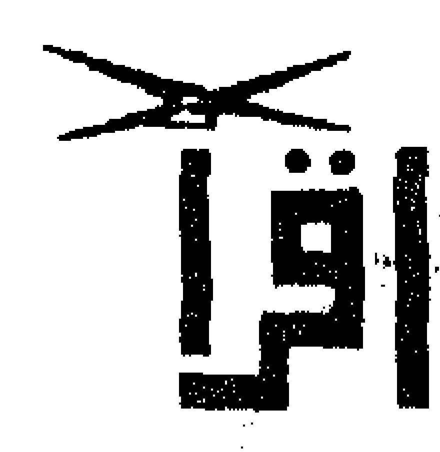
فهـــرس

صفحة

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٩٦١١
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3574 - 1	ISBN

١ / ٩١ / ٦٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



إن حياة المصرى بسيطة ومعقّدة فى نفس الوقت. لأن المصرى بطبعه بسيط وطيب. لكن مشاكل المصريين تأتى من الاهمال.. ومن الكلام بغير مسئولية.

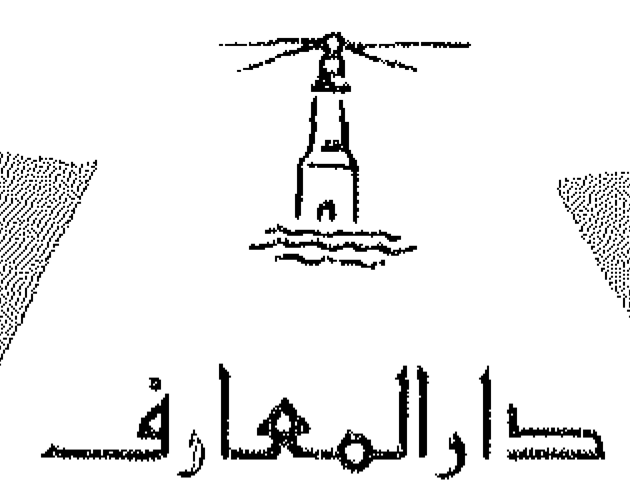
فأنت تطلب منه شيئًا.. فيقول لك «عينيّه» وهو طبعًا لن يعطيك عينيه. إنها مجرد كلمة يقولها. وتتوالى حكاية «عينيَّه» حتى أصبح المصرى مدينًا للدنيا كلها!!!

اقرأ

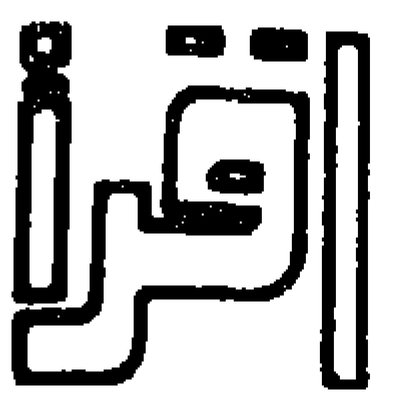
عدد ممتاز

المهندس سعد شعبان

ثقب في الفضاء



دار المعارف



[٥٩٦]

ثقب فى الفضاء

المهندس سعد شعبان

ثقب في الفضاء



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هـذه السلسلة ونشرهـا ، لم يفكـروا إلا فى شىء واحد ، هـو نشر الثقافـة من حيث هى ثقـافة ، لا يـريـدون إلا أن يقـرأ أبنـاء الشعـوب العـربيـة . وأن ينتفعـوا ، وأن تـدعـوهم هـذه القـراءة إلى الاستـزادة من الثقـافـة ، والـطمـوح إلى حيـاة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طـه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة الأنبياء - الآية ٣٢]

قـرآن كريم

مقدمة المؤلف

ثقب الأوزون، ابن شرعي لقضية التلوث التى تزايدت على الأرض، فانتقلت إلى أغوار السماء، ولم تعد مشكلة التلوث حبيسة دوائر البحث العلمي، ولا مقصورة على مناقشات المثقفين، بل أصبحت فى دائرة اهتمام رجل الشارع، كما لم تعد مشكلة تختص بها الدول المتقدمة وحدها، بل أخذت سبيلها إلى الدول النامية أيضًا، لأن أضرارها وآثارها عبرت الحدود الجغرافية.

ومن ثم فقد رأيت أن المكتبة العربية فى حاجة إلى مؤلف، يتناول المشكلة من كافة أطرافها، خاصة بعد أن ثار جدل حولها، يحاول التقليل من أهميتها ولعلى قد وفقت، والله ولى كل توفيق.

مهندس / سعد شعبان

المحتويات

البـاب الأول

الغلاف الجـوى

الهـواء:

تنفرد الكرة الأرضية دون سائر الكواكب بأنه يحيط بها غلاف جوى تتجدد فيه التفاعلات الكيماوية بصفة مستمرة، وهذا ما جعـل كرتنـا الأرضية متميزة بظاهرة الحياة المتعددة الصور على سطحها بل وفى باطنها، فى صور إنسان وحيوان ونبات، بل يمكن أن نضيف إليها أيضًا صورًا غير منظورة لم نتوصل إلى معرفتها بعد.

ولقد تعارف الناس على أن يطلقوا على الطبقة القريبة من الأرض، من هذا الغلاف الجوى اسم «الهواء» وفى الهواء تهب الرياح، وتظهـر السحب، ويهطل المطر.

ويتألف الهواء الذى يعلو رؤوس البشر، من غازات مختلفة، متمازجة أو منفصلة عن بعضها البعض، هى التى يكون ثقلها ما تعارف العلماء على

تسميته باسم «الضغط الجوى» ونظرًا لاختلاف كثافة كل من هذه الغازات، ولاختلاف خواصها الطبيعية أيضًا، فإن هذه الغازات تتوزع فى الغلاف الجوى فى طبقات يعلو بعضها البعض الآخر، وتتضافر العوامل الطبيعية المختلفة فى إعطاء صفات مختلفة خاصة لكل طبقة من طبقات الغلاف الجوى، تميزها عن الطبقات الأخرى، ووفقًا لنواميس طبيعية، نجد أن الكثافة تقل كلما زاد الارتفاع عن سطح الأرض، وكذلك تقل درجات الحرارة.

وبنظرة مجردة فإن الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية يمتد إلى ارتفاعات محدودة، ولكن ماذا يكون بعد هذه الارتفاعات؟. إن ما يعلوه هو «الفضاء القريب» أو «الفضاء الدانى» الذى يفصل الكرة الأرضية عن جيرانها من الكواكب وعن القمر وعن الشمس، ولكن الفضاء لا يظهر فجأة، بل تنساب إليه طبقات الغلاف الجوى فى تدرج، حتى تصل إلى انعدام الوجود الغازى..، أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم «الفضاء البعيد» أو «الفضاء الخارجى».

ومن الواضح أن كلمة «فضاء» تعنى الخلو من المكونات والغازات، ولكن ليس خلوا خالصًا تمامًا، ولكنه يعنى التخلخل الشديد من المكونات.

طبقات الغلاف الجوى:

تعارف العلماء قديمًا على تقسيم الغلاف الجوى إلى ثلاث طبقات رئيسية، كما فى الشكل (١)، هى:

١ - التروبوسفير أو الطبقة اللصيقة (Tropo Sphere).

٢ - الاستراتوسفير أو الطبقة المحيطة (Stratosphere).
٣ - الأيونوسفير أو الطبقة المتأينة (Iono Sphere).

ولكل من هذه الطبقات حدودها من حيث الارتفاع وخواصها، ومكوناتها وآثارها على الأرض، ويمكن توضيح ذلك تفصيلاً:

طبقة التروبوسفير:

الطبقة اللصيقة بسطح الأرض، تمتد حتى (١٨) كيلو مترًا فوق خط الاستواء وحتى (٨) كيلومترات فوق القطبين، وفيها تحدث الظواهر الجوية المعروفة من ضباب وسحب وأمطار ورياح وتيارات حمل رأسية ومطبات هوائية والعواصف، وذلك نتيجة لدورة بخار الماء التى تعتبر مقصورة على هذه الطبقة وحدها، وفيها تتناقص درجة الحرارة مع الارتفاع بمعدل قدره (٦) درجات مئوية لكل (١٠٠٠) متر ويحد الطبقة من أعلاها غلاف، وهى ما تعارف علماء الطبيعة الجوية على تسميته «التروبوبوز»، وهو الذى يفصلها عن الطبقة التالية.

طبقة الاستراتوسفير:

تمتد حتى ارتفاع (٨٠) كيلومترًا فوق الأرض، والجزء الأسفل من هذه الطبقة حتى ارتفاع (٣٠) كيلومترًا يتميز بأن حرارته ثابتة، ولا تحدث فيه تيارات حمل، ويعتبر مستقرا تمامًا.

لكن بعد هذا الارتفاع تبدأ درجة الحرارة فى الارتفاع وتصل إلى أقصاها عند ارتفاع (٦٠) كيلومترًا حيث تصل إلى (١٠٠) درجة مئوية،

ثم تأخذ الحرارة فى الانخفاض ثانية حتى تصل إلى (٢٠) درجة مئوية عند ارتفاع (٨٠) كيلومترًا.

وسبب هذا الارتفاع فى درجة الحرارة انتشار غاز «الأوزون»، ونظرًا لانعدام وجود بخار الماء فى طبقة الاستراتوسفير فإن الظواهر الجوية تنعدم فيه، ولذلك يعتبر الطيران فيه مثاليًا لتوفر الرؤية الجيدة.

ويحرص بعض العلماء على تقسيم الاستراتوسفير إلى طبقات فرعية منفصلة، هى كما أشرنا من قبل طبقات «الأوزونوسفير» و «الميزوسفير»، و «والثرموسفير»، ويعنينا هنا أن طبقة «الأوزونوسفير» هى التى ترتفع فيها درجة الحرارة ارتفاعًا ملحوظًا، وهى بين ارتفاعى (٣٠)، (٦٠) كيلومترًا.

طبقة الأيونوسفير:

تمتد بين ارتفاعى (٨٠)، (٣٠٠) كيلومتر، وتتميز بانتشار «الأيونات» أى ذرات الهواء المتأينة نتيجة لتعرضها للأشعة فوق البنفسجية، والعوامل الجوية السائدة على هذه الارتفاعات من انخفاض حاد فى درجات الحرارة، ونقص فى الضغط، الأمر الذى يساعد على خلق حالة من التوتر الذرى، الذى ينتهى بجعل ذرات الغازات المتخلخلة تخلخلاً شديدًا، فى حالة شبه «متكهربة» فيمكنها أن تعكس الموجات اللاسلكية التى تخترقها.

وقد تعارف علماء الاتصالات اللاسلكية على تقسيم طبقة «الأيونوسفير» إلى طبقتين فرعيتين هما طبقة «هيفيسيد» «Heaviside»

نسبة إلى العالم «كينلى هيفيسيد» وهى تمتد بين ارتفاعى (٨٠)، (١٠٠) كيلومتر، وطبقة «أبلوتون» «Appleton»، وهى تمتد بين ارتفاعى (٢٥٠)، (٣٠٠) كيلومتر. وكلتا الطبقتين تعملان على عكس الموجات اللاسلكية القصيرة «Short Waves» وإعادتها إلى الأرض، وخاصة ليلًا، ولـذلك يسهل التقاط الإذاعات ذات الموجات القصيرة عندما يحل الظلام. ولقد عمل بعض العلماء على تحديد طبقات فرعية أخرى فى طبقة الأيونوسفير مثل الطبقة (د) (D) تحت طبقة «هيفيسيد»، والطبقة (چ) (G) فوق طبقة «أبلتون»، وكلتا الطبقتين لهما نفس الخواص.

التقسيم الحديث:

أما التقسيم الحديث لطبقات الغلاف الجوى بدءًا من سطح الأرض، فقد تعددت وأصبحت.

١ - التروبوسفير أو الطبقة اللصيقة (Troposphere).
٢ - الاستراتوسفير أو الطبقة المحيطة (Stratosphere).
٣ - الميزوسفير أو الطبقة الوسيطة (Mesosphere).
٤ - الثرموسفير أو الطبقة الحرارية (Thermosphere).
٥ - الأيونوسفير أو الطبقة المتأينة (Ionosphere).
٦ - الأوكسوسفير أو الغلاف الخارجى (Oxosphere).

ويهمنا أن نشير إلى أن هذا التقسيم لا يناقض التقسيم القديم السابق توضيحه، ولكن الاختلاف يتركز فى طبقة الاستراتوسفير التى قسمت إلى طبقات فرعية، وفيها تظل درجة الحرارة ثابتة تقريبًا حتى ارتفاع (٣٠) كيلومترًا.

وهى تضم «طبقة الأوزون» التى ترتفع فيها درجة الحرارة نتيجة لامتصاص الأشعة فوق البنفسجية.

* طبقة الميزوسفير:

أو الوسيطة فتمتد حتى ارتفاع (٨٠) كيلومترًا فتنخفض درجة الحرارة، وتتميز بظهور «الومضات المضيئة»، وتتحكم فى هذه الطبقة الشهب والنيازك التى ترد من الفضاء الخارجى قبل وصولها إلى سطح الأرض.

* طبقة الثرموسفير:

فهى تمتد حتى ارتفاع (٨٠٠) كيلو متر وتحدث فيها تبدلات حادة فى درجات الحرارة بين الليل والنهار وتضم طبقة «الأيونوسفير» فى الجزء الأسفل منها حتى ارتفاع (٣٠٠) كيلومتر.

* طبقة الأوكسوسفير:

أو الفضاء الخارجى فتمتد إلى ارتفاعات تتجاوز (١٠٠٠) كيلومتر نحو الفضاء الكونى الذى بين الكواكب، وبين الكواكب والشمس، وبين النجوم وبعضها البعض.

وفى طبقة الأيونوسفير تحدث أحيانًا ظواهر جوية خاصة وغير شائعة، ويغلب أن نرى فى المناطق الباردة والقطبية، ظاهرة «وهج الأورورا» «Ourora» وهى توهج يحدث فى طبقات الجو العليا نتيجة لتأين الغازات. وفى المناطق القطبية الشمالية تسمى «أورورا بولاريس Ourora Polaris»

شكل (١) طبقات الغلاف الجوى

أما فى المناطق القطبية الجنوبية فيسمى «أورورا أوسترإليس Ourora Oustralis».

يلى طبقة الأيونوسفير، الفضاء الخارجى الذى يفصل الأرض عن الكواكب، أخواتها فى المنطقة الشمسية، ويطلق عليه علماء الكونيات اسم «الفضاء البيكوكبى»، ويليه الفضاء الذى يفصل الكواكب عن الشمس والنجوم الأخرى المماثلة لها، ويطلقون عليه اسم «الفضاء البينجمى».

تكوين الغلاف الجوى:

المفترض أن الأرض مثل سائر الكواكب الأخرى، كانت كتلة صخرية منصهرة عند بدء تكوين المنظومة الشمسية بانفصالها عن الشمس قبل نحو ٤,٢ مليار سنة، ووفقًا لهذه النظرية السائدة دون غيرها من حيث المنطق المعقول، فإن هذه الكتلة عندما بدأت تبرد، تشكل جو محيط بها من غازات انطلقت من السطح الساخن لهذا الكوكب، ومن البراكين التى كانت تبعث بهذه الغازات عاليًا بعيدًا عن السطح.

ويتألف جو الأرض اليوم من الغازات التالية من حيث نسبة كتلتها فيه:

- النتروجين بنسبة ٧٥٪.
- الأكسجين بنسبة ٢٣٪.
- ثانى أكسيد الكربون بنسبة ٠,٠٤٪.
- الأرجون بنسبة ١,٣٪.
- وبعض غازات أخرى ضئيلة النسبة.

ومن حيث الحجم فإن هواء الغلاف الجوى حتى ارتفاع ٢٥ كيلومترًا، يتكون من الغازات التالية حسب نسبتها المئوية:

- النتروجين بنسبة ٧٨,٠٩٪.
- الأكسجين بنسبة ٢٠,٩٥٪.
- الأرجون بنسبة ٠٠,٩٣٪.
- الكريبتون بنسبة ٠٠,٠٠٠١٪.
- الهيدروجين بنسبة ٠٠,٠٠٠٠٥٪.
- الهيليوم بنسبة ٠٠,٠٠٠٥٢٪.
- النيون بنسبة ٠٠,٠٠١٨٪.
- بخار الماء بنسبة ٠٤,٠٠٪ على الأكثر.
- ثانى أوكسيد الكربون بنسبة ٠٠,٠٣٪ على الأكثر.
- الأوزون بنسبة ٠٠,٠٠٠٠١٪ على الأكثر.

من ذلك يتضح أن الأوكسجين هو العنصر الأساسى فى تكوين الغلاف الجوى من حيث أهميته للحياة على الأرض فى صورها المختلفة، فالجسم البشرى الذى ينقطع عنه الأوكسجين لبضع دقائق يكون مصيره الموت. ولكن لو دققنا التفكير فإن الأوكسجين هو الغاز الحافظ لاستمرار الحياة على الأرض، ولكنه ليس السبب الأول فيها، لأن الأوكسجين مصدر النبات، الذى يبنى خلاياه بامتصاص غاز ثانى أوكسيد الكربون، ويلفظ فى الجو غاز الأوكسجين الزائد عن حاجته لاستكمال دورة التمثيل الغذائى فيه.

ويردد البعض خطأ وبدون تفكير، القول السائد «أن الحياة هى عطاء

الأوكسجين» ظنا منهم أن الأوكسجين هو العامل الأول فى وجود الحياة على الأرض، لكن الحقيقة أن الفضل الأول فى هذا يعود إلى الماء، وليس الأوكسجين، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ (سورة الأنبياء آية ٣٠). ولذلك تزدهر الحياة حول ضفاف الأنهار وحول آبار المياه وحيث يسقط المطر وتترعرع الأشجار. وكل الحضارات القديمة نشأت ونمت وازدهرت فى أحضان الأنهار وروافدها، لأنها ارتبطت بالنباتات والزراعة ونظم الرى، وعلى العكس تجدب الحياة، وتصعب وتندر، حيث يعز وجود مياه الأنهار، ومياه الأمطار، كما فى الصحراوات والقفار.

ومن ذلك يتضح أن غازى النتروجين والأوكسجين هما المكونان الرئيسان فى الهواء، ويسميان غازات دائمة، لأن نسبتهما لا تتغير من حيث الحجم من مكان لآخر، والشأن فى ذلك أيضًا يكون بالنسبة لبعض الغازات الأخرى الضئيلة.

لكن الدور الفعال فى الهواء بالنسبة للظواهر الجوية يلعبه بخار الماء.

دورة بخار الماء:

الدورة التى تتجدد فيها الغازات فى الغلاف الجوى، يلعب فيها النبات دور «الوسيط»، فالنبات يستمد ثانى أوكسيد الكربون من الهواء ليبنى به خلاياه، ويلفظ إلى الجو الأوكسجين الناتج عن التفاعلات التى يقوم عليها هذا البناء، ليستنشقه الإنسان والحيوان. وتنشط عملية البناء هذه نهارًا فى ضوء الشمس، فيما يسمى «التمثيل الكلوروفيللى»، ولذلك

تروبوسفير

٩٠ كم

ميزوسفير

٥٠ كم

ستراتوسفير

أوزونسفير

١٠ كم

ثرموسفير

شكل (٢) طبقة الأوزون

يستحب أن يتواجد الإنسان فى الغابات أو الحدائق نهارًا، ليستنشق الأوكسجين النقى. وتشير بعض القياسات إلى أن الشجرة الواحدة متوسطة الحجم، يكفى أن تمد (٤٠) شخصًا بالأوكسجين نهارًا.

بينما تنعكس الآية ليلًا، فيبدأ النبات فى لفظ ما يزيد عن حاجته من ثانى أوكسيد الكربون، ولذلك أيضًا لا يستحب أن يتواجد الناس فى الحدائق ليلًا. ولكن الواضح أنه قد أصبح فى عصر المدنية الحديثة قدرًا كبيرًا من ثانى أوكسيد الكربون، لكنه ملوث بالسموم التى تمخضت عنها التكنولوجيا الحديثة، فيما نطلق عليه مجازًا «تلوث البيئة».

ولذلك فإن الدور الرئيسى فى الغلاف الجوى يلعبه بخار الماء ويسانده الأوكسجين وثانى أوكسيد الكربون، فى إضفاء استمرارية الحياة على الأرض، ويستوى هذا الأمر سواء فوق سطحها أو تحته.

ولو تتبعنا دورة بخار الماء فى الغلاف الجوى نجدها دورة مغلقة، تبدأ بتبخر مياه البحار والأنهار والمحيطات والبرك والبحيرات، والتى تغطى حوالى ٤,٥ سطح الكرة الأرضية، وذلك بتأثير حرارة أشعة الشمس التى تسقط عليها، فيتصاعد بخار الماء فى الجو إلى أعلى، وكلما زاد ارتفاعه بردت حرارته، حتى تصل درجته إلى درجة التكثف، وتتكون منه قطرات الماء، ثم تتكون السحب من البخار المتكثف حول بعض النويات الصلبة كالأتربة والأملاح، والذى عندما تزداد برودته يتحول من الصورة الغازية إلى الصورة السائلة، ولكن على هيئة قطرات أو ذرات صغيرة يستطيع الهواء حملها. فإذا زاد هبوط درجة الحرارة حولها، فإن هذه القطرات، تتزايد فى الوزن حتى تصبح أثقل مما يستطيع الهواء حمله، فتسقط على



شكل (٣) السحب من الفضاء

الأرض فى هيئة مطر، فتكمل بذلك الدورة فى الغلاف الجوى وتعود المياه لتشكل الأنهار أو تزيد المحيطات أو تروى الأرض.

وقد ورد فى القرآن الكريم، عدة تصويرات لهذه الدورة فى قوله تعالى:

﴿الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابًا، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفًا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون * وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين * فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يُحْيِ الأرض بعد موتها إن ذلك لَمُحْيِ الموتى، وهو على كل شىء قدير﴾.

[سورة الروم - الآيات ٤٨ - ٥٠]

* وفى الآية الكريمة:

﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شىء، فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبا متراكبًا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب...﴾ [سورة الأنعام - الآية ٩٩]

* وفى الآية الكريمة:

﴿هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسِيمُون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.

[سورة النحل - الآيتان ١٠، ١١]

البـابُ الثـانى

الـرداء الكونى

اكتشاف طبقة خاصة:

نـظمت الأمم المتحدة فى عـام ١٩٥٨ دورة علمية خـاصـة لتبـادل المعلومات العلمية بين الدول، وأطلق على الدورة «السنة الجيوفيزيقية»، أو «السنة الجغرافية الدوليـة»، رغم أن مدة هـذه الدورة كـانت أربع سنوات. ووقتها كان عصر الفضاء قد بدأ فى عام ١٩٥٧، بإطلاق القمر الصناعي السوفيتى الأول «سبوتنيك - ١»، ثم تلاه عدة أقمار أمريكية، ثم سيل منهمر إلى الفضاء.

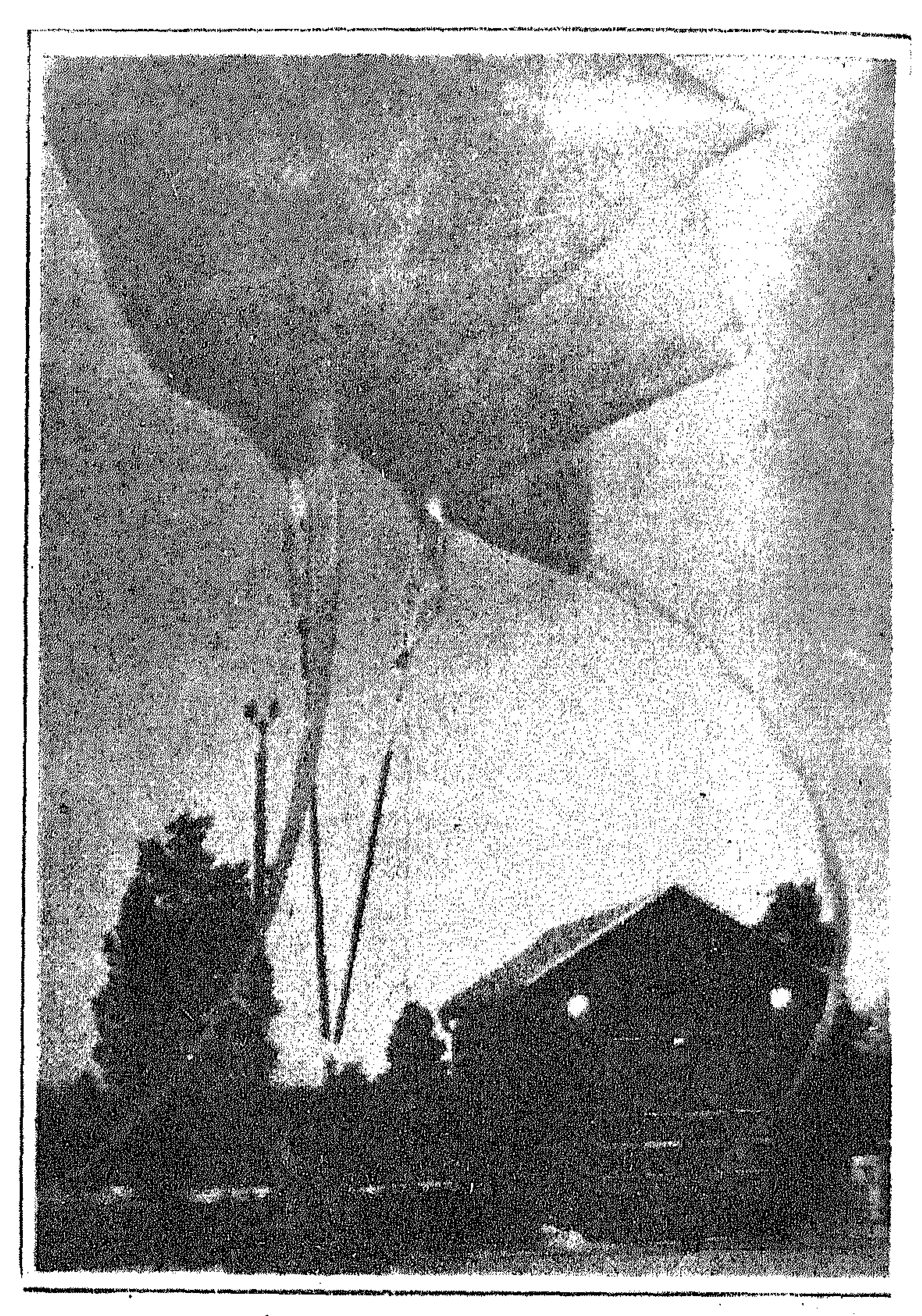
ولقد كانت كل الأقمار الصناعية آنذاك تطلق لأغراض علمية بحتة، تتركز فى جمع المعلومات عن ذلك المجهول الجديد «الفضاء» لمعرفة طبيعته ومكوناته وأنسب وأسهل الطرق للتعامل معه.

ولقد تفنن كثير من العلماء فى مختلف التخصصات فى استحداث أجهزة

توضع فى أقمار القياسات العلمية، لتسجيل ما يريدون معرفته عن الفضاء، بعد أن كانت وسائلهم تقليدية ومحدودة الفاعلية مثل إطلاق البالونات، وتعليق بعض الأجهزة بها.

ولقد أزاحت القياسات العلمية التى سجلتها بعض الأقمار الصناعية سرا كان مبهمًا قبل ذلك بعدة سنوات، وظل علماء الطبيعة الجوية يتخبطون فى تفسير أسبابه قبل حلول عصر الفضاء. ذلك أن الأقمار الصناعية قد كشفت وجود ارتفاع فى درجة الحرارة فى طبقة من الغلاف الجوى، وازدياد هذا الارتفاع الحرارى بزيادة الارتفاع، بينما كان المفترض وفقًا للمعدلات الطبيعية فى الطبقات الأخرى، أن تهبط درجة الحرارة ولا ترتفع، وأن يزداد هبوطها بزيادة الارتفاع. ولذلك فقد كان ما سجلته الأقمار الصناعية غريبًا، وتركزت هذه الظاهرة فى طبقات الغلاف الجوى بين (٢٨)، (٢٥٠) كيلومترًا. غير أن الإحصائيات المتوالية من قياسات سلسلة الأقمار الصناعية الأمريكية المسماة «الكاشف» أو «إكسبلورر» «Explorer»، أوضحت للعلماء السر الذى كان مستغلقًا عليهم سنوات طوال. ولقد تكونت هذه السلسلة من الأقمار من (٣٨) قمرًا، وتوالى إطلاقها بين فبراير ١٩٥٨، ويوليو ١٩٦٨.

وعندما عكف العلماء على تحليل معطيات هذه الأقمار، وضح أمامهم أن السبب فى ارتفاع درجة الحرارة فى هذه الطبقة مرجعه إلى وجود غاز «الأوزون» «Ozone» بتركيز شديد، وأن تفاعلاً كيماويا تحدثه الأشعة فوق البنفسجية فى مكونات هذه الطبقة.



شكل (٤) إطلاق البالونات لقياس الأوزون

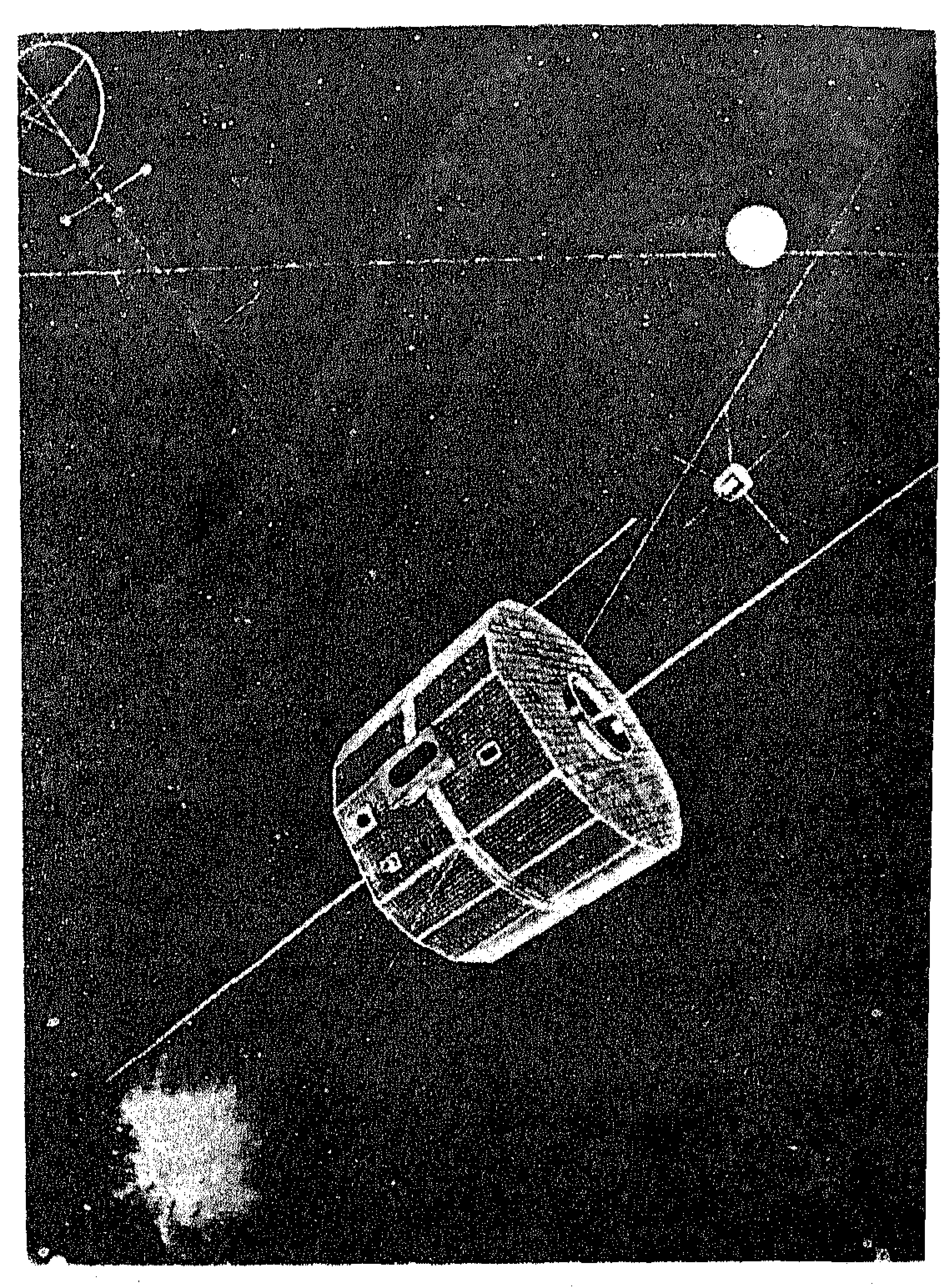
غاز الأوزون:

الأوزون غاز شفاف وسام، ورمزه الكيمـاوى ($أ_3$)، أى يتكون من ثلاث ذرات من ذرات الأوكسجين، لأنه.. فى حقيقة الأمر صورة غير مستقرة من صور الأوكسجين الذى يتكون الجزىء الواحد منه من اتحاد ذرتين ($أ_2$).

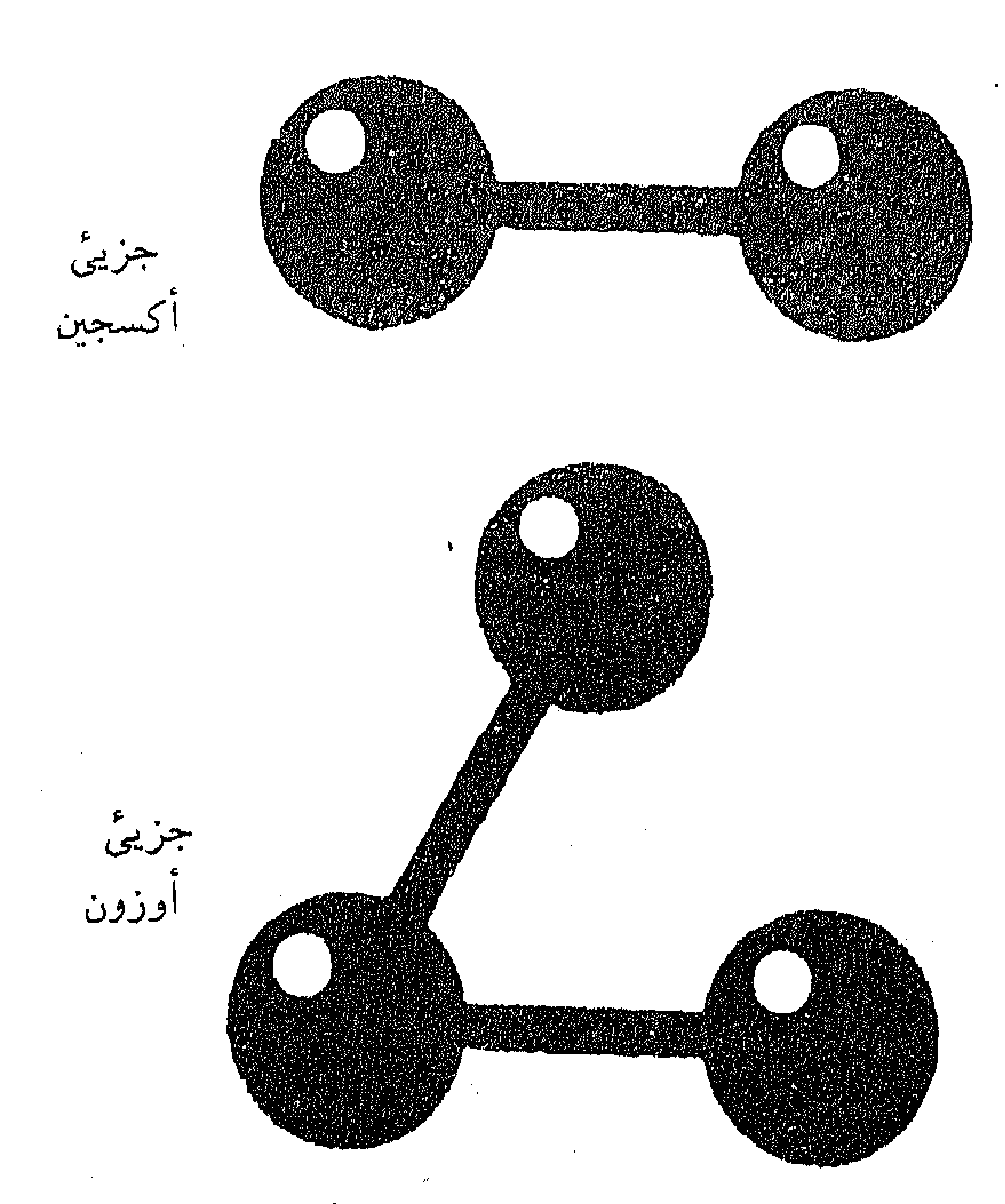
ولقد خلق الله الأوكسجين غازًا مستقرا، تتوقف عليه كل صور الحياة على الأرض، وهو الأصل فى التواجد فى الغلاف الجوى.

لكن تعرضه فى بعض طبقات الجو العليا للأشعة فوق البنفسجية، يجعله يتفكك، وتصبح ذرات بعض جزيئاته غير مستقرة، وتنفصل إحدى ذرات الجزىء المتعلق أو المتفكك لتكون جزيئًا آخر، مكونة غازًا غير مستقر هو «الأوزون».

والأوزون نسبته فى الغلاف الجوى ضئيلة، وقد لا تتجاوز فى بعض الأحيان واحدًا فى المليون. والخواص الطبيعية لغاز الأوزون رغم أنه صورة من صور الأوكسجين، تختلف عنه تمامًا. فهو كما سبق أن أسلفنا، شفاف وسام. ولذلك فمن رحمة الله بعباده أن تكوُّنه لا يتم قريبًا من سطح الأرض، حتى لا يستنشقه الإنسان أو الحيوان مختلطًا بالأوكسجين، لأن تنفس قدر ضئيل منه يحدث تهيجًا فى الجهاز التنفسى، وقد يؤدى إلى الموت فى النهاية. وفضلاً عن ذلك فإن له القدرة على إتلاف النباتات، وكثير من المواد الأخرى مثل المطاط، وبعض أنواع الملابس ولكن الله جعل له فوائد أخرى جليلة.



شكل (٥) القمر الأمريكى إكسبلورر Explorer



شكل (٦) تركيب الأوزون والأكسجين

ومن لطف الله بالبشرية أن غاز الأوزون شديد السمية، فهو يفوق مركبات السيانيد والاستركنين وأول أوكسيد الكربون المعروفة بأنها من أشد المواد والغازات سمية. بيد أن عوادم السيارات فى المدن المزدحمة يؤدى إلى زيادة تركيزه، فنسبة هذا التركيز لا تزيد عن ٠,٠٢ جزء فى المليون من المناطق الخالية من السيارات. ولكن فى المدن الصناعية والعامرة بالسيارات، تقفز نسبته إلى ٠,٠٥ جزء فى المليون، ولكن للأوزون

فى الحياة فوائد أخرى كثيرة، منها فائدة طبيعية تتمثل فى قتل البكتريا والفيروسات والطفيليات.

ولذلك تستخدمه بعض الدول فى معالجة مياه الشرب ومياه الصرف الصحى، وفى تعقيم بعض المعلبات، أو تعقيم المأكولات. وبذلك يمكن تصور أن وجود الأوزون فى الغلاف الجوى يقوم بعملية تنظيف أو تعقيم للبيئة.

ولقد أوضحت قياسات الأقمار الصناعية أن طبقة «الأوزون» يتركز وجودها قرب ارتفاع متوسطه ٢٨ كيلومترًا، لكنها قد تعلو عن ذلك أو تهبط، ولكن هذا التركيز لا يعنى أن الأوزون ينتشر بنسب متفاوتة فى طبقة الجو التى تعلو «التروبوبوز» التى أشرنا إليها من قبل والمسماة «الاستراتوسفير»، لأن الحقيقة أن الأوزون ينتشر بين الارتفاعات ١٨، ٥٠ كيلومترًا، لكن تركزه يكون فى طبقة محددة على ارتفاع بين (٢٨، ٣٠) كيلومترًا بنسبة أكبر. الأمر الذى جعلهم يطلقون على هذه الطبقة التى ترتفع فيها درجة الحرارة ارتفاعا حادًا اسم «الأوزونوسفير».

ولا يعنى تواجد الأوزون فى هذه الطبقة أنه يشكل كل جزيئات الهواء فى هذه الطبقة، بل يتوزع فيها بنسب ضئيلة. وقد لا يزيد هذا التواجد عن نسبة جزىء واحد من الأوزون وسط مائة ألف جزىء من الغازات الأخرى.

ولو شئنا أن نتصور مقدار ضآلة وجود غاز الأوزون فى الغلاف الجوى، فوق سطح الأرض حتى ارتفاع ٥٠ كيلومترًا، وتصورنا كذلك تعرض كميات الأوزون لظروف مماثلة لتلك الظروف الموجودة على سطح



شكل (٧) البرق أحد مسببات تكون الأوزون

البحر من ضغط وحرارة، لما زاد سمك طبقة الأوزون هذه عن بضع ملليميترات، وقد لا يزيد سمك هذه الطبقة الخيالية عن ملليمترين على الأكثر.

لكن رغم ضآلة هذا التكوين، وندرته فى الغلاف الجوى فإنه يجدد نفسه بصفة مستمرة، بمعنى أن صورته غير المستقرة تتعرض لبعض الظروف التى تجعلها تتفكك وتندثر. ولكن استمرار سقوط الأشعة فوق البنفسجية من الشمس، يجعل الأوزون يجدد نفسه بقدر ما يكون هذا التحلل طبيعيا.

وعلى سبيل المثال، فإن من حكمة الله أن حدوث البرق نتيجة تفريغ الشحنات الكهربية التى فى السحب، يلعب دورًا.

فإذا مازاد اضمحلال الأوزون عن الحد الطبيعى، فإن الأمر يكون له شأن آخر تنعدم معه فوائد وجود هذا الغاز فى الغلاف الجوى، والذى جعله الله رداء كونيا، يحمينا من غوائل الإشعاعات التى يمكن أن تنفذ إلى الأرض.

بل إن الحياة على سطح كوكب الأرض مدينة فى استمرارها إلى وجود هذه الطبقة الرقيقة، التى تعمل بمثابة مرشح (فلتر) ليس فقط للإنسان وحده، بل هو يحمى كل صور الحياة الأخرى من نبات وحيوان بل وتمتد إلى الأحياء البحرية، بما فى ذلك «البلانكتون» ذات الخلية الواحدة التى تتغذى عليها الأسماك.

الأشعة فوق البنفسجية:

أشعة الشمس فى طبيعتها تموجات قصيرة جدا، ترتحل فى الفضاء بأكبر سرعة خلقها الله فى الحياة، وعرفها الانسان حتى الآن، وهى سرعة الضوء.

وقد تعارف الناس على أن أشعة الشمس لونها أصفر فاتح يميل إلى البياض، ويصاحبها احمرار تحدثه فى الأجسام التى تسقط عليها، بالإضافة إلى الضياء الذى تضفيه عليها. لكن أشعة الشمس المرئية، أمكن للعلماء منذ بضعة قرون تحليلها، واثبات أنها تتكون من سبعة ألوان مندمجة ومتمازجة، وأطلق عليها اسم «ألوان الطيف» وهى:

البنفسجى، والأزرق، والنيلى، والأخضر، والبرتقالى، والأحمر، والأصفر.

كما أمكن للعلماء إثبات أن هذه الألوان يختلف كل منها فى تموجاته عن الآخر، فكل منها له «طول موجى» يختلف عن الآخر، أى أن لكل منها ترددًا مختلفًا. وأمكن لهم أيضًا معرفة أن هناك تموجات أخرى «غير مرئية» تجاوز ألوان الطيف المرئية، وتزيد عنها وتقصر. ورغم أنه من المتعذر على الإنسان رؤيتها بالعين المجردة إلا أنه يمكن لوسائل قياس أخرى إدراك وجودها. واستدلالاً بآثارها الكيماوية أطلقوا على هذه الأشعة غير المرئية اسم «تحت الحمراء» و«فوق البنفسجية». والتموجات الضوئية سواء المرئى منها، أو غير المرئى تقاس بوحدة متناهية الصغر هى «النانومتر» أو اختصارًا «نم»، وهى تعادل واحدا من

ألف مليون متر. فالتموجات الضوئية المرئية تقع بين ٤٠٠، ٧٠٠نانومتر.

أما تموجات الأشعة تحت الحمراء فتزيد عن ذلك وتقع بين ٧٠٠، ٩٠٠ نانومتر، وتموجات الأشعة فوق البنفسجية تقل عن ذلك وتقع بين ٢٠٠، ٤٠٠ نانومتر. والأشعة فوق البنفسجية يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء حسب أطوال موجاتها:

الجزء الأول: أطوال موجاته بين (٢٠٠، ٢٨٠ نم)، وهى أشعة قاتلة للحياة البشرية، وتحدث أضرارًا بجلد الإنسان، وقد تحدث أنواعًا من الأورام السرطانية. ومن حكمة الله أن غاز الأوزون المنتشر فى طبقات خاصة من الغلاف الجوى يحجبها، ويمنع وصولها للأرض.

الجزء الثانى: أطوال موجاته بين (٢٨٠، ٣٢٠ نم) وهى ضارة أيضًا بالحياة، ولكن غاز الأوزون يقوم بامتصاص جزء كبير منها، وهو يحدث ما يطلق عليه الأطباء اسم «مالينوما» «Malinoma».

الجزء الثالث: أطوال موجاته بين (٣٢٠، ٤٠٠ نم)، وهى غير ضارة نسبيا بالحياة، ولا يمكن لغاز الأوزون امتصاص إلا جزء ضئيل منها.

من ذلك يتضح أن الوظيفة الكبرى التى يقوم بها غاز الأوزون فى الغلاف الجوى، هى حجب الجزء الأكبر من الأشعة فوق البنفسجية قبل وصولها إلى الأرض. فكأنه رداء كونى خلقه الله لحجب الأشعة الضارة بالإنسان وهى الفضاء.

وليس الأمر ضارًّا بالحياة البشرية وحدها، بل يمتد إلى آثار طبيعية أخرى سنأتى إليها فيما بعد.



شكل (٨) طبقة الأوزون

تجـدد الأوزون:

قد يكون أكثر وضوحًا القول بأن التموجات فوق البنفسجية ذات الأطوال من (٢٤٢ نم)، هى التى تقوم بتفكيـك جزيئـات الأوكسجين العادى الثنائى الجزىء ($أ_٢$) حتى تصبح بعض ذراته حرة. وتنطلق هذه

لتتفاعل مع ذرات أوكسجين أخرى لتكوين الأوزون. ولا يمكن أن يتم هذا التفاعل إلا بوجود جزيء غاز آخر ليأخذ الطاقة الحركية التى يطلقها التفاعل.

وعادة ما يكون هذا الغاز «الوسيط» هو النتروجين (أى الأزوت) وسنرمز إليه بالرمز (و) فتكون المعادلة الكيماوية لهذا التفاعل هى:

ا + ا٢ + و ← ا٣ + و

ويؤدى هذا التفاعل إلى أن يكتسب الغاز الوسيط طاقة تجعله يتحرك بسرعة أكبر، فتزداد حرارته، فيؤدى ذلك إلى تسخين الوسط الذى يتم فيه التفاعل أى طبقة الاستراتوسفير. وعلى نفس المنوال يتفاعل الأوزون نفسه بتأثير الأشعة فوق البنفسجية ذات الموجات الطولية بين (٢٠٠، ٢٨٠نم)، وتندمج معظم ذرات الأوكسجين المفردة التى تشكلت بهذه الطريقة بجزيئات أوكسجين أخرى لتعيد تشكيل الأوزون مجددًا.

وهناك تفاعلات أخرى، تدمر الأوزون بشكل أكثر وضوحًا، مثل أكاسيد النتروجين (ن ا) التى لو وجدت فى الغلاف الجوى فإنها تعمل كوسيط لتحويل الأوزون، وذرات الأوكسجين إلى جزيئات أوكسجين حرة أخرى على النحو التالى:

ن ا + ا٣ ← ن ا٢ + ا٢

ن ا٢ + ا ← ن ا + ا٢

وبذلك يعود أكسيد النتروجين إلى حالته الأصلية فى نهاية هذه الدورة، بعد أن يقوم بتنقية جزيئات الأوزون.

وبذلك تكون النتيجة الإجمالية، بقاء الديناميكية المستمرة لهذه التفاعلات ما بين تفكيك وتوليد، تجعل الأوزون يظل مستمرا فى الاحتفاظ بكمياته وتوزيعاته فى مختلف طبقات الغلاف الجوى. وكلما اختل هذا التوازن، يتجدد التفاعل حتى يعود التوازن إلى ما كان عليه. وتبقى نتائج هذا التفاعل، وهو امتصاص مزيد من الأشعة فوق البنفسجية، وزيادة حرارة الغلاف الجوى، الأمر الذى يمكن أن نطلق عليه اسم «التأثير الصوبى».

وتستطيع بعض الغازات الأخرى أن تلعب دور الوسيط الذى شرحناه بالنسبة لغاز النتروجين، إذ يستوى فى ذلك غازات الهيدروجين والكلور، فإنها مثله تلعب دورًا هاما فى إحداث التوازن الديناميكى، لحفظ نسب الغازات وتوزيعاتها فى الغلاف الجوى.

البــابُ الثـالث

قصة الفجـوة

كانت طبقة الأوزون محل متابعة ومراقبة بواسطة علماء الطبيعة الجوية، وسلطات الأرصاد الجوية فى مختلف الدول المتقدمة، قبل أن يبزغ عصر الفضاء بكثير. والعهد بنا ليس ببعيد، بإطلاق أجهزة الأرصاد الجوية الطائرة إلى جهات متعددة. وهى أجهزة «الراديو-صوند» «Radio-Sond» والمعلقة فى البالونات لقياس مختلف العناصر الجوية اللازمة لعمليات الرصد الجوى. وانطلاق طائرات خاصة بالقياسات الجوية لمساعدة السلطات الحربية فى قياس العناصر الجوية أيضًا، لإمكان إصدار تنبؤات جوية دقيقة. ومن المشرف أن «مصر» امتلكت عام ١٩٢٦ الجهاز رقم (٤) لقياس نسبة الأوزون فى الجو، وذلك على مستوى العالم كله.

وفى عقد الستينات، عندما بدأ التفكير فى صناعة «الطائرات الأسرع

من الصوت» لأغراض نقل الركاب المدنيين، على ضوء خبرة صناعة بعض هذه الطائرات فى الحرب العالمية الثانية، فكر لفيف من العلماء فى آثار هذه الطائرات على تبديد الأوزون فى الارتفاعات التى ستطير عليها. غير أن هذا التفكير كان مبكرًا ولم يلق ترحيبًا، وكأنه كان صيحة فى غير واد، باعتبار أن الغلاف الجوى فسيح والفضاء لا حدود يمكن تصورها لامتداده.

غير أنه فى عام ١٩٧٤، نشر بحث لعالمين أمريكيين هما الدكتوران «رولانـد، ومولينـا» أشارا فيـه إلى اكتشـاف جـديـد، وهـو أن غـاز «الكلورو- فلورو- كربون»، يعتبر مصدرًا هامًا لغاز الكلور فى طبقات الجو. وأن الكلور كعنصر وسيط، يمكن أن يقطع سلسلة تجدد غاز الأوزون فى الغلاف الجوى، كما سبق أن أشرنا فى الباب السـابق. وكان عقـد السبعينات قد شهد تزايدًا كثيرًا من الصناعات التى تستخدم الغاز المشار إليه. ولذلك كان هذا البحث بمثابة الجرس، الذى نبه العلماء إلى خطورة ما ستتعرض له البشرية من جراء تزايد استخدامات التكنولوجيا الحديثة لغاز «الكلورو - فلوروكربون».

قياس تركيز الأوزون:

لقياس تركيز الأوزون فى الجو بوحدة جزء واحد فى المليون جزء من حيث الحجم، والمفروض ألا تتعدى نسبة تركيزه (٥٠) جزءًا فى البليون جزء، وإلا تحول إلى تأثير ضار، فإذا ما تجاوز (١٠٠) جزء فى البليون أصبح خطرًا على الحياة.

ويقاس هذا التركيز فى الجو بجهاز يسمى «مقياس دوبسون للتحليل

الضوئى» «Dobson Spectro Photometer» وهو جهاز يحلل طيف ضوء الشمس، وقوة ظهور خطوط الطيف التى يشكلها غاز الأوزون، وبذلك يظهر كمية الأوزون الموجودة فى منطقة القياس. وعلى سبيل التدليل، فقد أجريت قياسات فوق مدينة «لوس أنجلوس» الأمريكية على مدى شهر كامل، فوجد أن نسبة الأوزون ضئيلة للغاية. وفى عام ١٩٧٩ أجرى قياس لتركيز الأوزون فوق مدينة القاهرة، فوجد أن نسبته (٥٠٠) جزء فى البليون وذلك لمددَ كانت تتراوح بين ٣، ٨ ساعات خلال شهرى مايو ويونيو. وكان القلق قد بدأ يساور العلماء بين عامى ١٩٧٠، ١٩٨٠، بعد ما كثرت أعداد الطائرات الأسرع من الصوت عسكرية ومدنية، وأخذت تنهب السماوات على ارتفاعات عالية تفوق غلاف «التروبوبوز» بسرعات بلغت (٢,٢) ماخ. وتبارت فى ذلك عدة دول أولها الاتحاد السوفيتى بطائرات «تى يو - ١٤٤»، وفرنسا وبريطانيا بطائراتها المشتركة الصنع المسماة «الكونكورد». وبرز إلى جانب ذلك سبب هام، هو تعمد أغلب طائرات الخطوط المدنية فى رحلاتها عبر كل القارات إلى الطيران على ارتفاعات عالية فى طبقة الاستراتوسفير، حيث ساعدها على ذلك ما أدخل على تصميماتها من تعديلات مكنتها من اعتلاء كل طبقات السحاب التى تنتهى فوق طبقة «التروبوسفير». فحسنت الرؤية أمامها، وتوخيًا للوفر فى الوقود، وهذا هو السبب الأهم، ومن ثم أصبحت طبقة «الاستراتوسفير» التى يتوزع فيها «الأوزون» تتلقى كل يوم، بل كل ساعة فيضًا من عادم هذه الطائرات. ولاشك أنه إلى جانب ارتفاع درجة حرارة غازات هذه العوادم، فإنها تحوى عناصر وسيطة، تفكك غاز الأوزون كما سبق أن أوضحنا.



ولو أمعنا النظر، نجد أن سلوك الأوزون فى طبقة التروبوسفير تختلف عنه فى طبقة الاستراتوسفير. فالتلوث الصادر من النشاط البشرى على الأرض يجعل الأوزون، يتزايد فى طبقة التروبوسفير الملاصقة لسطح الأرض. أما فى طبقة الاستراتوسفير فإنه يتناقص نتيجة للتفاعل الكيماوى بفعل الأشعة فوق البنفسجية الذى أشرنا إليه من قبل.

بعثات للاستكشاف:

يعود فضل التسجيلات الأولى لنضوب الأوزون إلى بعثة علمية بريطانية برئاسة الدكتور «جوفارمان»، وكانت تعمل فى منطقة القارة القطبية الجنوبية المعروفة باسم «انتاركتكا» منذ عام ١٩٥٧. وقد ظلت تزاول مهامها العلمية حتى عام ١٩٧٩. وكانت تداوم على قياس نسبة تركيز الأوزون طوال هذه المدة. وتمخضت قياسات هذه البعثة التى كانت تتمركز فى منطقة يطلق عليها اسم «خليج هالى» عن أن مستويات هذا التركيز كانت مستقرة وفى إطار الحدود الآمنة طوال فترات الشتاء الجنوبى المظلم بطبيعته، وذلك على مدار سنوات الرصد الأولى. وقد سجلت البعثة أن نسبة هذا التركيز أخذت فى الانهيار، وتدنت إلى مستويات خطيرة خلال سنوات الرصد الثلاث الأخيرة لعملها، أى بين عامى ١٩٧٧، ١٩٧٩. وبلغت نسبة هذا النقص ٤٠٪. وصدرت أول إشارة من هذه البعثة الرائدة وأن ثقبًا كبيرًا تأكد نضوب الأوزون فيه، يتمركز فوق منطقة القطب الجنوبى، وأن سعة هذا الثقب أخذ يتزايد سنة بعد أخرى، وأن هذا الثقب يظهر دوريًا خلال شهور الربيع الجنوبى.

ومن ثم فقد بدأ اهتمام العلماء يتجدد بطبقة الأوزون، وما طرأ عليه فى

أوائل عقد الثمانينات، خاصة وأن عصر الفضاء كان قد بدأ يعطى ثماره التطبيقية، بمعطيات الأقمار الصناعية التى بدأت تتوالى فى سيل منهمر إلى الفضاء لأغراض علمية، وأخرى تطبيقية. وبدءًا من عام ١٩٨٢ ولمدة خمس سنوات، بدأ لفيف من العلماء دراسات عن الهواء فوق القطب الجنوبى وظن بعضهم فى بادئ الأمر، أن ظاهرة نضوب الأوزون فوق القطب الجنوبى، مرجعه إلى زيادة النشاط الشمسى المعروف باسم «البقع الشمسية» والتى يزداد نشاطها فى دورة تتجدد كل أحد عشر عامًا. وسرعان ما دحض هذا الرأى، وتبين عدم صحته، لأن البقع الشمسية لو كانت مسئولة عن ذلك، لكان الأمر المنطقى أن يحدث ذلك فوق خط الاستواء لانخفاض نسبة تركيز الأوزون فيه عن المنطقة القطبية.

ولذلك انصرف العلماء إلى توجيه أصابع الاتهام إلى تلوث البيئة، الذى يتزايد نتيجة انتشار التكنولوجيا، وإغراقها فى التفنن فى وسائل الترفيه عن البشر باستخدام مواد ومركبات كيماوية حديثة وكأن الأمر أصبح كمن يضع السم فى العسل.

وبدا أن التفسير الأكثر معقولية لظاهرة الثقب الجنوبى القطبى، هو أنه خلال فصل الشتاء القطبى المظلم يشكل الهواء جدارًا عازلاً بينه وبين الكتل الهوائية المحيطة بالمنطقة، نتيجة لهبوب رياح تدور حول القارة القطبية. وتنخفض درجة الحرارة آنذاك حتى (−٩٠) مئوية فى طبقة «التروبوسفير» مما يؤدى إلى تشكل غيوم مؤلفة من جسيمات دقيقة متجمدة. ونتيجة لوجود صور من غاز الكلور فى الهواء بسبب تزايد النشاط البشرى على الأرض فيما أصبح يطلق عليه اسم «ظاهرة

التلوث»، فإنه تتم تفاعلات كيماوية تطلق ذرات الكلور. وما أن تعود الشمس إلى السطوع من جديد فى الربيـع القطبى، حتى تبـدأ سلسلة التفاعلات الكيماوية تنشط، وتطلق مزيدًا من ذرات الكلور لحدوث مزيد من تدمير الأوزون. ويمكن لكل ذرة من الكلور أن تجدد دورة تفاعلها مع الأوزون مئات المرات، بل آلاف المرات. ولكن مع حلول الصيف القطبى تتبخر السحب فى طبقة التـروبوسفـير، ويتحول الكلور إلى مـركبات أخرى مثل «أزوتات الكلور» وتمتلئ «فجوة الأوزون» حتى يحل الربيع التالى.

ويمكن تشبيه حدوث الفجوة بتصور حوض مملوء بالماء وفتحنا صنبورًا فوقه ليصب الماء فيه بسرعة ثابتة، لكن بالوعة الحوض تفرغ الماء بنفس هذه السرعة. بذلـك نجد أن كميـة الماء التى فى الحـوض تبقى ثابتـة لا تتغير، وبالتالى يظل ارتفاعها داخل الحوض ثابتًا كذلك. فإذا ما قمنا بزيادة فتحة الحوض فإن الماء سيتدفق منها، وبالتالى ينخفض مستوى الماء داخل الحوض. ثم بعد حين سنجد أن التوازن يعود من جديد، ويبقى مستوى الماء ثابتًا لكنه يكون منخفضًا عن ذى قبل.

هكذا يكون الأمر بالنسبة للفجوة، ينصب فيها الأوزون، ثم يتجدد من جديد. ولكن عندما يكون النضوب متزايدًا وأسرع من معدل التجدد، فإن ظاهرة نفاذ الأشعة فوق البنفسجية تظهر على الأرض. ويبدو أن هذا التفسير ينقصه قدر من المنطق، لأن المنطقة القطبية غير مأهولة ولا يوجد فى هوائها تلوث يسمح بالقول بتواجد الغازات المدمرة للأوزون. لكن علماء آخرين، فسروا ذلك بأن الرياح القطبية لا تتحرك بنفس طريقة

تحركها على الأرض، بل تأخذ شكل دوامات تقذف بحماقات البشر الكيماوية إلى هذه المنطقة. وتتركز فيها نتيجة لدوران الأرض.

وفي عام ١٩٨٦، توجهت بعثة علمية قوامها (١٥٠) عالمًا إلى منطقة القطب الجنوبي، وقد نظمت جهودهم وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا»، كما قامت بتوفير وسائل وأجهزة أكثر تقدمًا ودقة، مما استخدمته البعثة السابقة. وقد أخضعت للبعثة طائرتين لهما القدرة على التحليق على ارتفاعات شاهقة. وكانت إحدى الطائرتين من طراز (تي يو - ٢) الأمريكية والتي كانت مخصصة للتجسس، والتي سبق لها اختراق المجال الجوي للاتحاد السوفيتي سرا عدة مرات، في رحلات متكررة بين باكستان والنرويج دون أن تكتشفها أجهزة الرادار السوفيتية. حتى نجحت في إسقاطها عام ١٩٦٠. وسقف أقصى ارتفاع هذه الطائرة يصل إلى (٧٥) ألف قدم.

وكانت الطائرة الأخرى من طراز «دي-س٨» بعد أن زودت بأجهزة القياس اللازمة، وسقف ارتفاعها يصل إلى (٤٠) ألف قدم.

بذلك توفر للعلماء وسائل مكنتهم من الصعود في طبقات الغلاف الجوي العليا، وإجراء القياسات فيها مباشرة، بل وجمع عينات من الهواء نفسه.

وقد حملت طائرات بعثة ناسا مجموعة من الأجهزة الحديثة، توخى في تصميمها أن يكون البحث عن أسباب نضوب الأوزون شاملاً كل الاحتمالات، ومن هذه الأجهزة:

- أجهزة قياس ارتفاعات السحب.

- أجهزة قياس نسب بخار الماء ونسب بخار حامض النتريك فى الهواء.
- أجهزة قياس نسبة تركيز غاز الأوزون.
- أجهزة قياس مكونات طبقات الغلاف الجوى.
- أجهزة قياس شدة الأشعة فوق البنفسجية.
- أجهزة قياس اتجاهات الرياح، ودرجات الحرارة والضغط ونسب الرطوبة.
- أجهزة تحليل عينات من الهواء وتحديد نسب غاز الكلور بها.

وقد تمخضت جهود هذه البعثة عن التأكد من أن الفجوة المتمركزة فوق القطب الجنوبى، تتكون فى فترة الربيع القطبى. وأمكنهم قياس اتساعاتها بالطائرات فى أكتوبر ١٩٨٧. فقدرت مساحتها بما يعادل مساحة الولايات المتحدة الأمريكية، ويبلغ عمقها قدر ارتفاع جبل «إيفرست». وأن الفجوة يتخلخل فيها الأوزون وينقص بنسبة ٤٠ إلى ٥٠٪. وكان من حسن الحظ أن منطقة القطب الجنوبى غير مأهولة بالسكان، لكن بعد القياسات المتكررة حتى عام ١٩٨٧ ظهر أن التخلخل من الأوزون أكثر بكثير مما كان متصورًا من قبل. وأن أطراف المنطقة المتخلخلة وصلت إلى مناطق مأهولة، حيث امتدت إلى جنوب الأرجنتين وأستراليا وإلى نيوزيلندا. وهكذا أصبح الخطر مباشرًا وداهمًا، إلى الحد الذى جعل العلماء العاملين فى هذه البعثة، يعمدون إلى استخدام ملابس خاصة لتقيهم مضار هذه الأشعة فوق البنفسجية.

صور من الفضاء:

لاحظ العلماء فى السنوات العشر الأخيرة أن صور الأقمار الصناعية للمنطقة القطبية الجنوبية تظهر بوضوح، وجود تآكل فى طبقة الأوزون. وقد عكف الدكتور دونالدهيث من وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» على تفسير الصور التى بثها قمر الأرصاد الجوية الأمريكى «نيمبوس - ٧»، وتابع هذا العالم ظاهرة هذا «الثقب» على مدى ستة أعوام، حتى تأكد أن الأمر جد لا هزل فيه، ولا مجال للشكك أو للتأويلات أو الظنون.

وقد استمع اتحاد الجيوفيزيائيين الأمريكيين إلى عالم آخر من وكالة «ناسا» هو الدكتور ستور لاسكى، وأكد لهم أن ظاهرة ثقب القارة القطبية الجنوبية، بدأت فى أواخر السبعينات وأنها ازدادت حدة فى عام١٩٨٥. وقد بدت الدهشة على الجميع عندما أوضحت صور الأقمار الصناعية أن الثقب يتسع فى خريف كل عام (أى فيما يقابل الربيع القطبى الجنوبى)، حتى أصبحت مساحته أكبر من رقعة الولايات المتحدة الأمريكية، وهكذا فضحت صور الفضاء الأمر، وأكدته.

ولذلك استعد علماء الولايات المتحدة الأمريكية عام١٩٨٦ لإجراء قياسات أكثر دقة، بأجهزة قياس للإشعاعات والغازات ذات حساسية بالغة، لتوضع فى مكوك الفضاء. غير أن كارثة احتراق المكوك «تشالينجر»، التى وقعت فى يناير ١٩٨٦، والتى توقفت رحلات المكوك بعدها لمدة قاربت ٣٢ شهرًا، عطلت إجراء هذه القياسات.

ولم يقف العلماء مكتوفى الأيدى خلال هذه المدة، فقد تشكل فريق



شكل (١٠) فجوة الأوزون فوق المنطقة القطبية الجنوبية من الفضاء

بحثى يتكون من (١٥) عالمًا فى تخصصات مختلفة، واتجهوا إلى محطة الأبحاث الأمريكية «ماك موردو» فى القارة القطبية الجنوبية. وبعد أسابيع قليلة أبلغ فريق البحث العلمى واشنطن لاسلكيًا، أن هناك

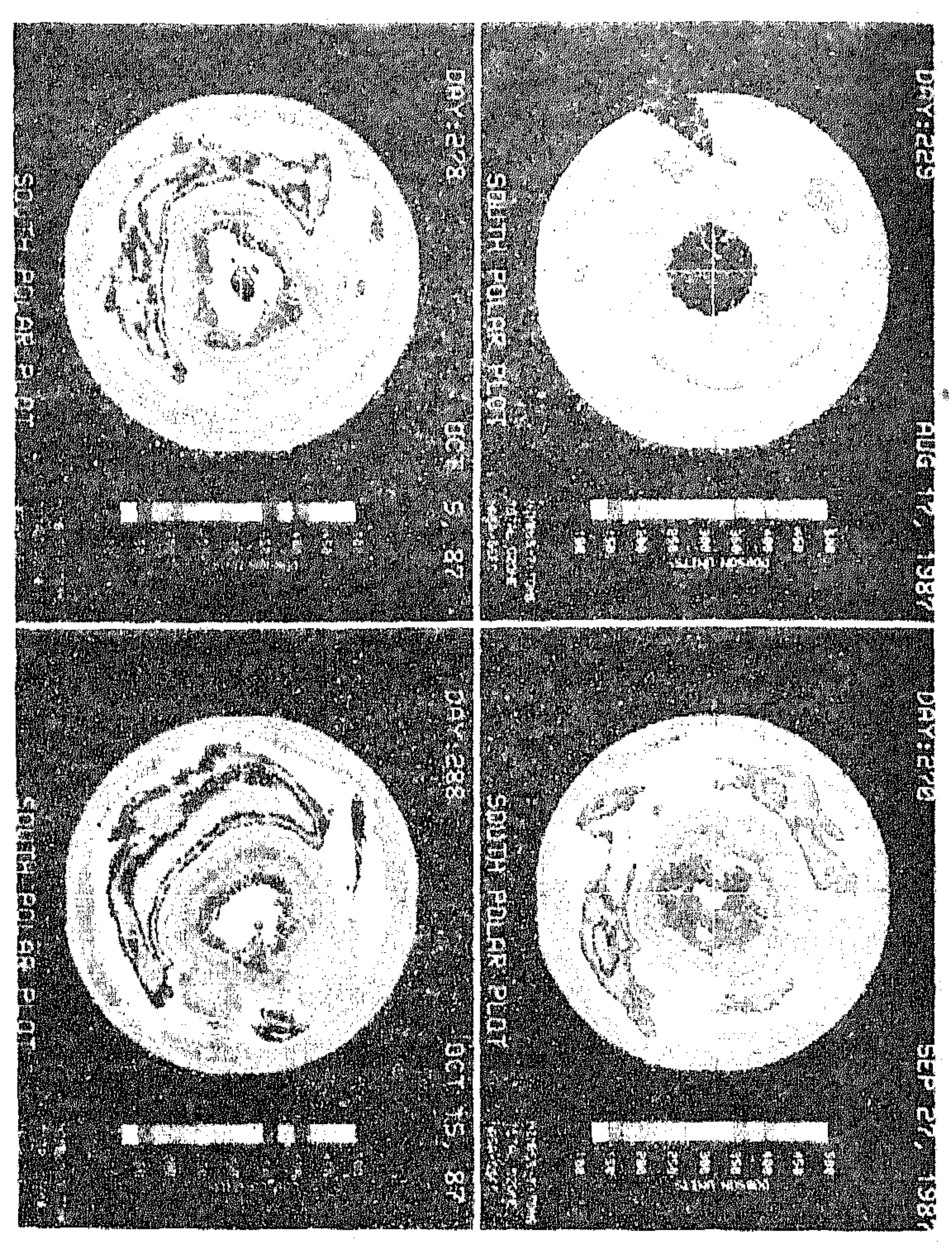
تأكيدات بأن فجوة الأوزون تبدأ فى الظهور فى الربيع القطبى، (خلال شهر سبتمبر). ثم يكتمل اتساع الفجوة خلال الثلاثين يومًا التالية أى حتى منتصف شهر أكتوبر، وأن أقصى معدل لانخفاض غاز الأوزون يصل إلى ٤٠٪ عندما تكون الفجوة فى أقصى اتساعها .

القطب الشمالى أيضا:

فى عام ١٩٨٦، رصد لفيف من العلماء الكنديين وجود فجوة أخرى للأوزون فوق القطب الشمالى، وإن كانت أصغر من الفجوة الجنوبية.

وفى عام ١٩٨٨ تشكل فريق بحثى من علماء كندا، وإنجلترا، والاتحاد السوفيتى، وصعدوا بالطائرات فوق المنطقة القطبية الشمالية، لجمع عينات من الهواء، فوجدوا زيادة كبيرة فى نسبة مركبات الكلور تعادل (٥٠) ضعفًا عن القدر المتوقع. وقد فضحت صور القمر الأمريكى «نيمبوس - ٧» أيضًا أن الثقب الأوزونى الشمالى يتمركز فى سماء النرويج.

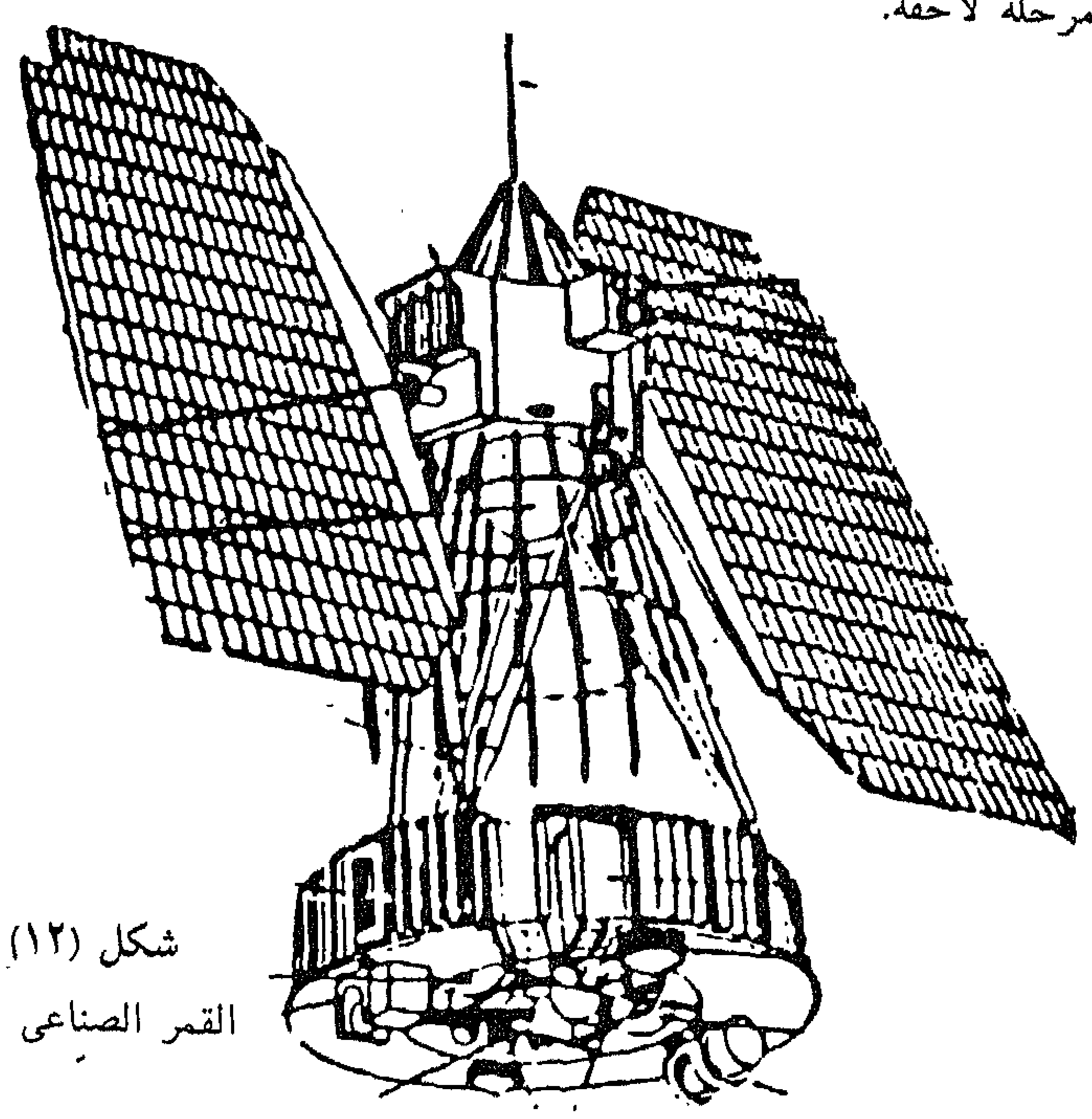
وقد تجمع فى عام ١٩٨٨، حشد من علماء فرنسا وألمانيا الغربية والسويد والنرويج ونيوزيلندا وأمريكا وكندا، وأطلق على هذه الحملة العلمية اسم «تكنوبس Technops»، وعملت برئاسة البروفسر الفرنسى «باتريك أمديو» وتوجهت إلى منطقة القطب الشمالى واستخدمت بالونات استطلاع، وصواريخ تجريبية مزودة، بأجهزة قياس للأوزون أطلق عليها اسم «أوزومتر». وتأكد لهذه الحملة وجود ثقب للأوزون فوق المنطقة الشمالية، وتقدر نسبة تضاؤل الأوزون فيه بمقدار ٢٠٪.



شكل (١١) تدرج اتساع ثقب الأوزون خلال عام ١٩٨٧

وفى إطار تقدم البحث العلمى لزيادة المعرفة عن طبقة الأوزون فيها، فقد عكف على انتاج طائرة مروحية خفيفة الوزن من مواد كالجرافيت والهيدروكربون، يمكن أن تطير بدون طيار بالتوجيه من الأرض، وذلك بهدف اختراق ثقب الأوزون فوق المنطقتين القطبيتين الجنوبية، والشمالية على ارتفاع يقرب من (٢٦٠٠٠) متر، أى (٨٥٠٠٠) قدم، لجمع مزيد من المعلومات عنه.

والطائرة مزودة بحاسب أليكترونى، وينتظر أن تطلق إلى الفضاء فى مرحلة لاحقة.



شكل (١٢)
القمر الصناعى نيمبوس

البــابُ الرابـع

أصابع الاتهـام

تلوث أم تلويث:

لم يعد هناك مجال لدى العلماء المدققين أن مشكلة «تلوث البيئة»، التى تشغل بال الساسة والمفكرين والعلماء بل والعامة، قد تصاعدت إلى أعالى الفضاء. وأن اللعنة قد حلت على الأرض، بسبب ما يرتكبه أهلها من حماقات، بدا أثرها واضحًا بعد عشرات السنين. وأن التكنولوجيا الحديثة التى ظنوا أنها توفر للبشرية الرخاء والرفاهية، أصبح بعض نتاجها سيفًا مسلطًا على رقاب العباد، فوق كل القارات. وأن بعضًا من هذه الآثار، لم يصبح ضارا فحسب بل أصبح يهـدد الحياة فـوق الكوكب. وأصبحت أخطار الأوزون أكثر من فوائده، بل وأصبح مشكلة دوليـة تنعقد لهـا المؤتمرات، ويجتمع لها ملوك ورؤساء الدول، وتغير بسببها عظام الـدول بعضًا من استراتيجياتها وصناعاتها. ولأن الأمر جد لاهزل فيه، فإن العلماء

يجددون ويجتهدون فى وسائلهم لدرء أخطار هذا الوباء الوخيم، الذى يطل على الكرة الأرضية من السماء خلال فجوة أو فجوات. وبذلك لم يصبح لدى الجميع شك فى أن المشكلة فى حقيقتها ليست تلوث بيئة، بل تلويثا صنعه الإنسان. وحاشا أن ننسب إلى الطبيعة التى خلقها الله بإحكام، أنها هى السبب فى مشكلة صنعناها بأيدينا، لأن ما خلقه الله، جعله بحكمته موزونًا ومتزنًا مصداقًا لقوله تعالى:

* ﴿إنا كل شىء خلقناه بقدر﴾ [سورة القمر - الآية ٤٩]
* ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون﴾ [سورة الحجر - الآية ١٩]

ولكن الأزمة وقد حلت بنا، وحاقت بنا آثارها، لم تعد مستحصية بلا حل، فكل ما يتعقد من الأمور لابد له من حل. وها هى الحلول تترى، لكن بعد أن تكون البشرية قد ذاقت درسًا أليمًا.

لقد ظن العلماء أن الداء يرجع أغلبه إلى الإسراف فى استخدام بعض الكيماويات على الأرض، تنطلق منها غازات مدمرة لغاز الأوزون، إذ تحوله إلى صورته الأصلية وهى الأوكسجين، ومن أهمها غاز الكلور. لكن عندما واجهوا الأمر بدقة، وتمعنوا فى الأسباب والمسببات، وجدوا أن هذا الإسراف فى الكيماويات التى استحدثتها بعض الصناعات الحديثة، ليست المؤثر الوحيد، بل هناك مسببات أخرى كثيرة. ومن ثم فقد أصبحت أصابع الاتهام تشير إلى كثير من الاتجاهات وليس اتجاهًا واحدًا.

وبعض من هذه الغازات، من فصيلة لها خاصية التطاير الشديد إلى

أعـلى وتعرف بـاسم «Very highy valatile gases» فتلعب فى الغلاف الجوى دور الوسيط، وتقوم بغزو الأوزون.

وبحثًا عن الأسباب التى تحدث نضوب غاز الأوزون، فى طبقات الجو عامة، وفوق القطبين الجنوبى والشمالى خاصة، يمكن أن نجدها موزعة على عدة نشاطات بشرية. بعضها مدنية واسعة الانتشار فى الدول المتقدمة والنامية عـلى السواء، ولكن بتفـاوت فى الكثافـة. وبعض النشاطـات الأخرى عسكرية تقوم بها الدول المتقدمة فى السماء أو فى الفضاء، وقد انتقينا أربعة من أهم هذه الأسباب:

الرباعى المدمر:

١ - المرذذات الملعونة.

٢ - الطيران النفاث.

٣ - إطلاق الصواريخ إلى الفضاء.

٤ - التفجيرات النووية.

١ - المرذذات الملعونة:

«المرذذات» نعنى بها العبوات أو (البخاخات) التى تنفث منها المواد الكيماوية، على هيئة ذرات دقيقة، محملة على غـازات مضغوطـة داخل علب. وقد شاع استعمال هذه العلب المضغوطة فى السنـوات الأخيرة لأغـراض متعددة، منهـا معطرات الغـرف، ومثبتات الشعـر للسيدات، ومبيدات للحشرات المنزلية والناموس، ومنظفات لبعض الأسطح. هذه

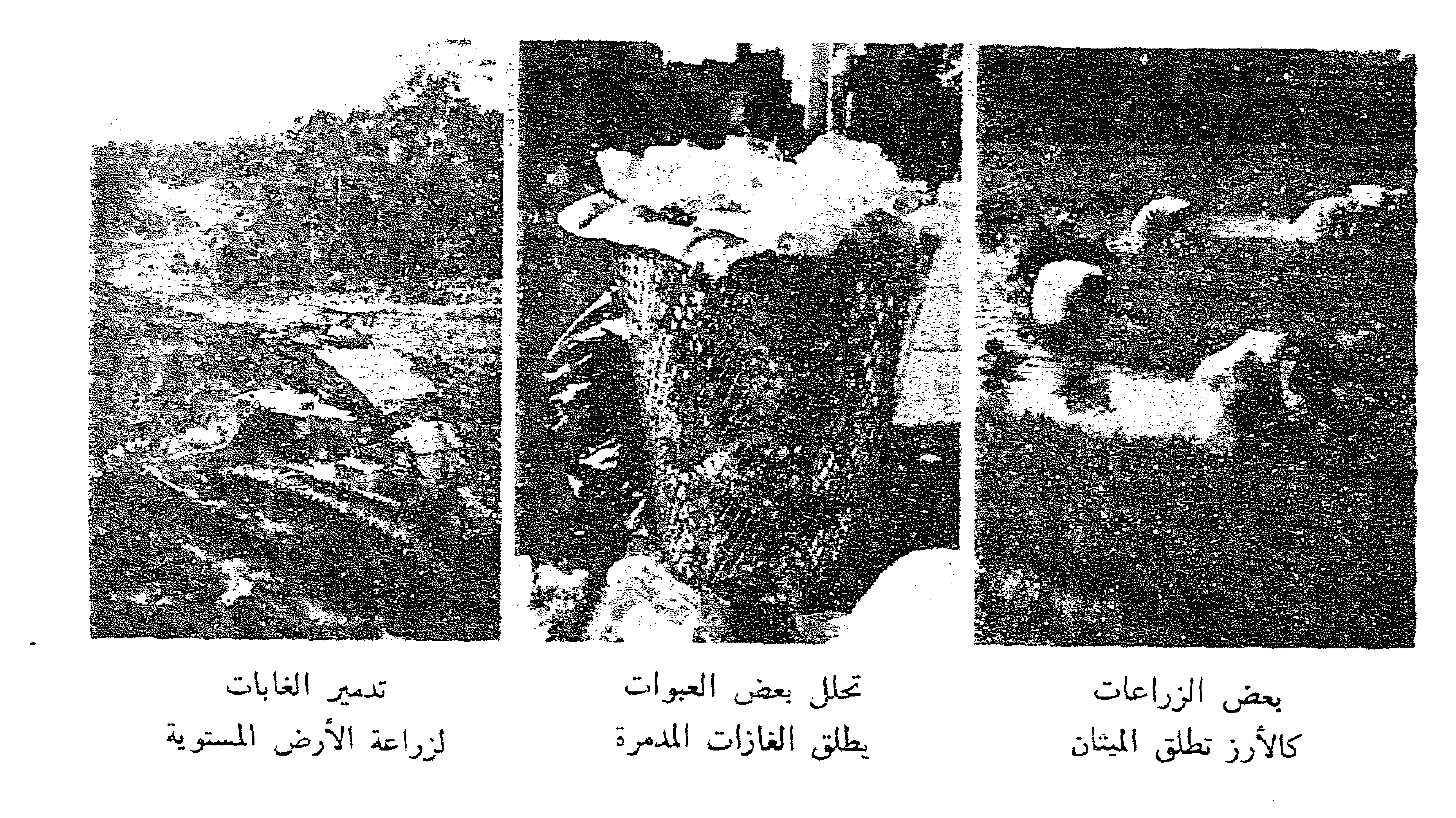


شكل (١٣) أنواع مختلفة من المرذذات

المرذذات يمكن أن نطلق عليها لفظًا تجاريا كيماويًا هو اسم «الأيروسولات» ونجد أسماءها تحمل فى شقها الأخير هذا الاسم (..... سول) تعبيرًا عن غاز لا يوجد فى الطبيعة، ولكن يتم تخليقه صناعيًّا، ويضغط فى هذه العبوات، ليعمل كمادة حاملة للمواد الكيماوية الفعالة داخلها.

ومنذ عام ١٩٢٨ تمكنت إحدى الشركات الأمريكية من تصنيع المركب الغازى «كلورو فلورو كربون» (chloro flurocarbons)، والذى يتكون من اندماج ذرات العناصر الغازية المعروفة «الكلور، والفلور، والكربون» وكلها عناصر خاملة وغير سامة، ولا تتفاعل مع غيرها من المواد بسهولة. لكن المزايا التى تبدت لهذا المركب الصناعى الجديد، كانت مثالية لعمليات التبريد. إذ وجد أن «الكلوروفلوروكربون» يتبخر عند درجات حرارة منخفضة، ومن ثم فقد أصبح غازًا أثيرًا لدى مهندسى التكييف والتبريد. وسرعان ما انتشر استخدامه فى الثلاجات والمكيفات، ويطلق عليه العاملون فى هذا المضمار لفظًا تجاريا، هو «الفريون».

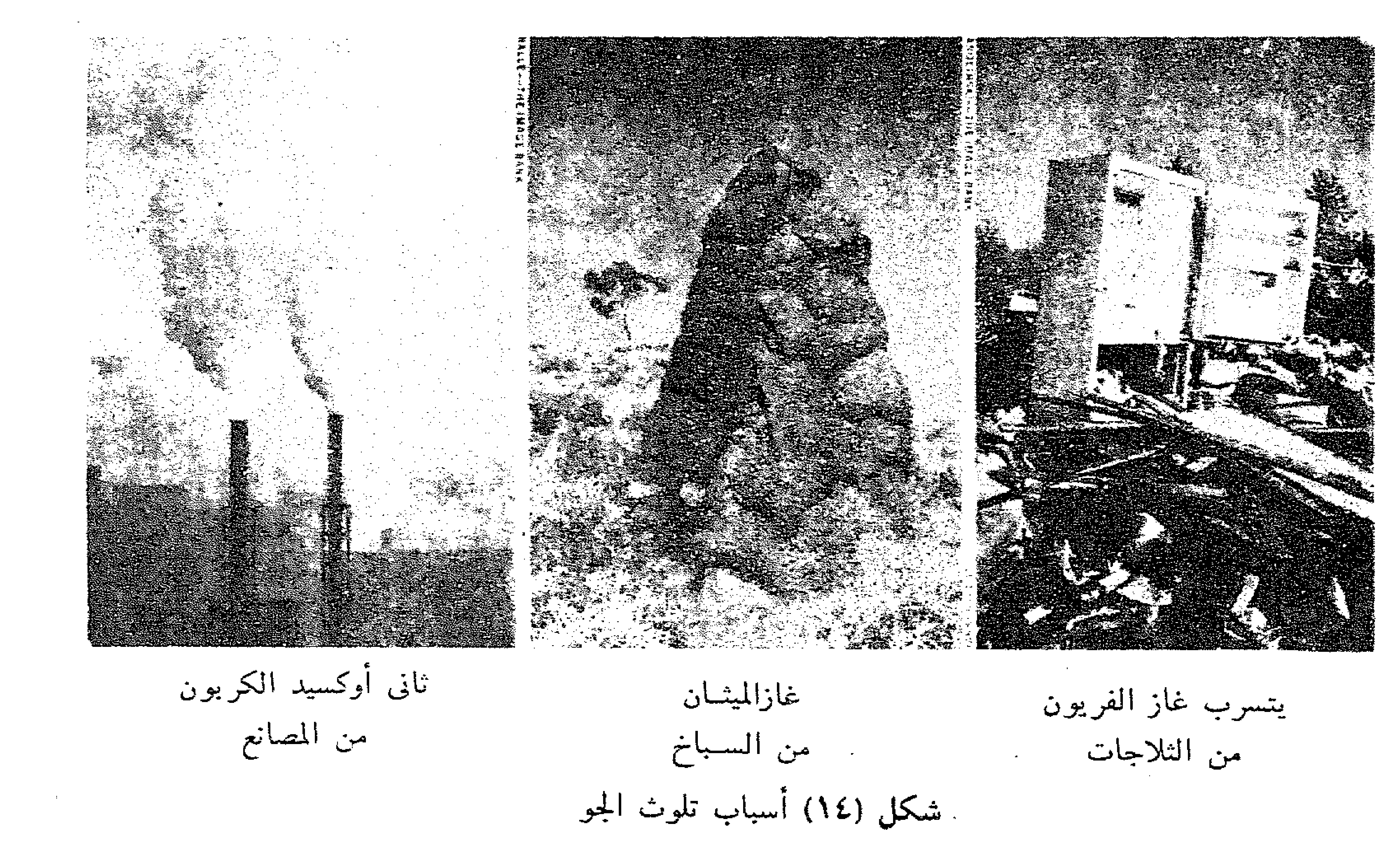
ولأن غاز «الكلوروفلورو كربون» سهل فى تصنيعه، ويعتبر رخيص التكاليف، فسرعان ما دخل في صناعات كثيرة، وسرعان أيضًا ما تعددت أنواعه ومزاياه. فقد دخل فى صناعة العبوات الرذاذة غاز «الكلوروفلورو كربون - ١١، ١٢»، بينما دخل النوع ١١٣، فى كثير من الصناعات الاليكترونية لتنظيف مكوناتها الدقيقة. وأصبح معدل إنتاجه ضخمًا، مع رواج صناعات التليفزيونات وأجهزة الإرسال والاستقبال، وخاصة راديو الترانزستور، والحواسب الاليكترونية، وشاع استخدامه أيضًا فى صناعة



بعض الزراعات
كالأرز تطلق الميثان

تحلل بعض العبوات
يطلق الغازات المدمرة

تدمير الغابات
لزراعة الأرض المستوية



يتسرب غاز الفريون
من الثلاجات

غازالميثان
من السباخ

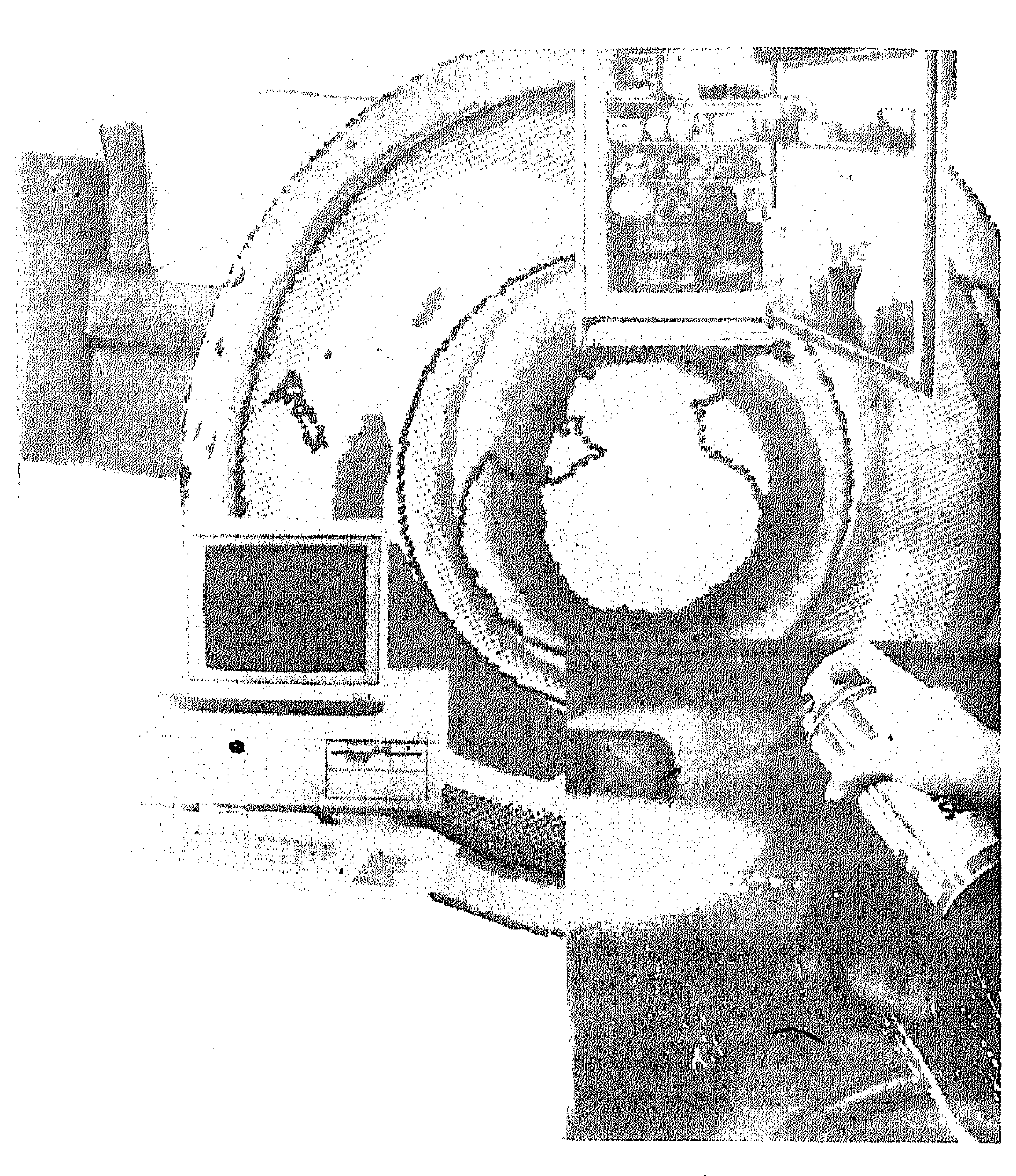
ثانى أوكسيد الكربون
من المصانع

شكل (١٤) أسباب تلوث الجو

الاسفنج الصناعى والألياف الصناعية، لأنه يتميز بأنه جيد العزل، وكل ما يمكن أن نطلق عليه اسم «الرغويات» التى تستخدم فى الأثاثات، وعوازل الصناعة، ومختلف أصناف العبوات ومواد الإطفاء بل، وبعض الأوعية التى توضع فيها الأطعمة الخفيفة التى شاع استخدامها فى تجهيزات الوجبات الخفيفة. وتسربت نفس المادة أيضًا إلى كثير من مواد المذيبات والمنظفات الصناعية.

لكن هذا الانتشار الواسع لغاز «الكلوروفلورو كربون»، فى كثير من الأجهزة والمعدات والتجهيزات، التى توفر الرفاهية وسهولة الحياة للبشر، كان بمثابة السم القاتل فى العسل اللذيذ. فقد تبين أن هذا الغاز، له عمر طويل قد يمتد قرنًا أو يزيد، فعمره المتوسط بين ٧٥، ١١٠ سنة، وأن خلال هذه المدة الطويلة يمكنه أن يتصاعد فى الجو علوًا لأنه شديد التطاير، بينما يظل نشطًا ومواصلاً لتفاعلاته الكيماوية. ويتمثل الخطر فى هذا الغاز فى احتوائه على غاز الكلور الذى ينتج من تفكك الكلوروفلورو كربون، تحت تأثير الأشعة فوق البنفسجية.

وقد وجد أن الكلور الذى ينفصل من هذا الغاز، هو العنصر الوسيط، فى تدمير غاز الأوزون. وبذلك وضح أن هذا التفاعل البطىء، الذى يتم فى طبقة الاستراتوسفير، هو السبب الجوهرى والأول فى نضوب الأوزون، وتقليل نسبة تركيزه فى بعض طبقات الغلاف الجوى، ووجود ثغرات أو فجوات فى مناطق متفرقة فيه. وأن هذا النضوب ليس تفاعلاً سريعًا يحدث للتو واللحظة، بل له خاصية الاستمرار البطىء وأن هذا التفاعل قد يدوم قرونًا، وهو يتم وفقًا لتفاعلات كيماوية على النحو التالى :



شكل (١٥) مصادر التلوث الصناعى

إذا ما سقطت الأشعة فوق البنفسجية على الكلور وفلور وكربون، فإن إحدى ذرات الكلور الثلاثة التى به تنفصل عن الذرتين الأخرتين، وتتجه إلى أقرب جزىء من غاز الأوزون الذى يتكون من ثلاث ذرات من الأوكسجين. فتجذب إليها ذرة أوكسجين واحدة منها وتضمها إليها. وبذلك يتحول الأوزون من ثلاث ذرات أوكسجين إلى ذرتين فقط، أى يصبح جزىء أوكسجين. أوبمعنى آخر فإن ذرة الكلور تحطم جزىء الأوزون وتحوله لأوكسجين وهذا ما يمكن أن نعبر عنه بالمعادلات الكيماوية التالية:

– ذرة كلور + جزىء أوزون ← أوكسيد الكلور+ جزئ أوكسجين
كل + ا٣ ← كل ا + ا٢

وتكون النتيجة:

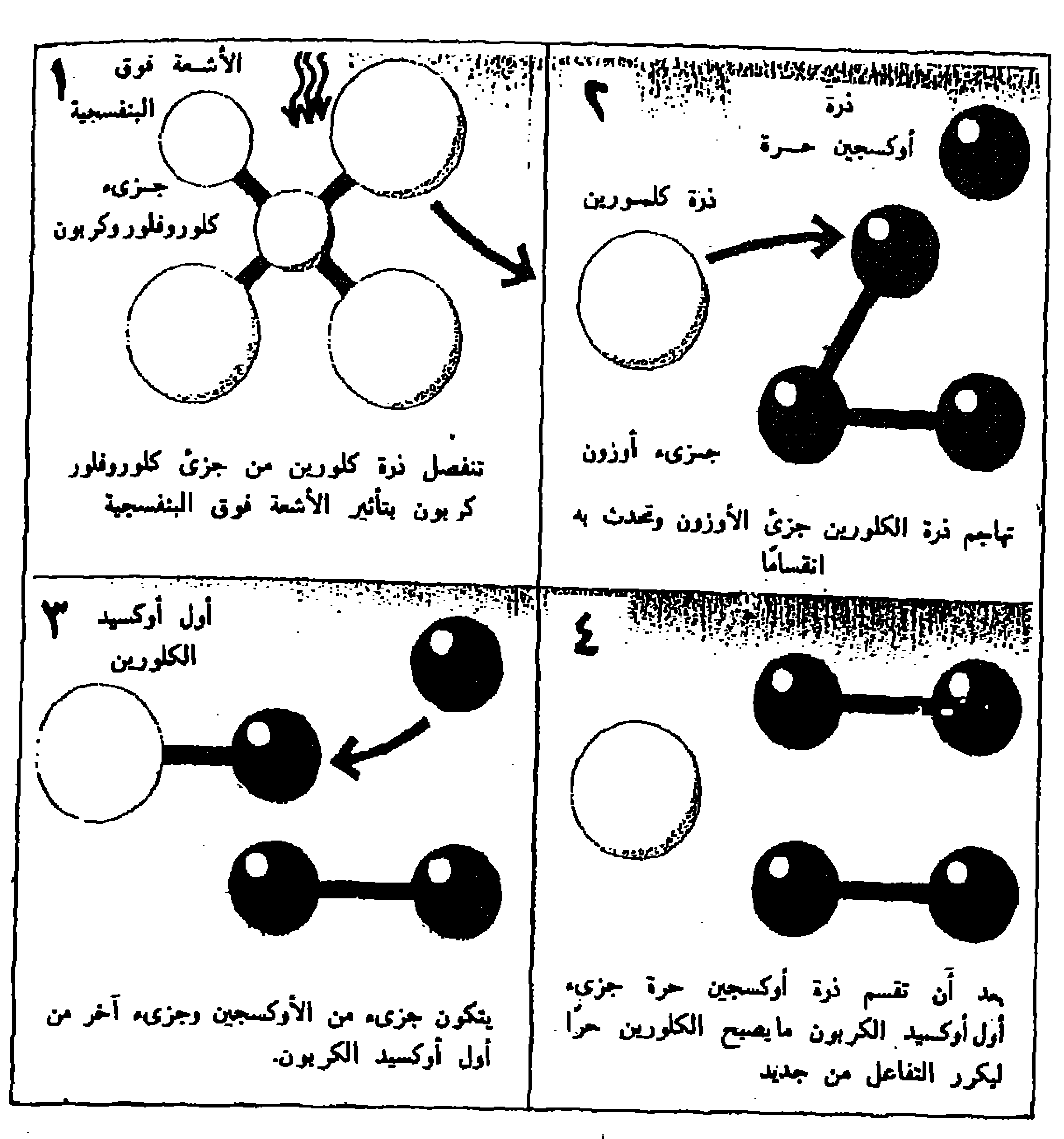
– جزىء أوزون + ذرة أوكسجين ← جزئ أوكسجين+ جزئ أوكسجين
ا٣ + ا ← ا٢ + ا٢

وبعيدًا عن تأثير «الكلوروفلورو كربون» فى الغلاف الجوى، فإن هناك غازات أخرى غير الكلور ذات تأثير مماثل ومدمر على الأوزون. وهى غازات الأيدروجين، والنتروجين، إذا زادت عن نسبة تكرينها الطبيعية، فهى تلعب دورًا أساسيا فى التفاعلات الكيماوية التى يطلق عليها اسم «التفاعلات الضوئية» التى تعمل على استمرار حالة التوازن الديناميكى لنسب الغازات، وتوزيعاتها فى الغلاف الجوى.

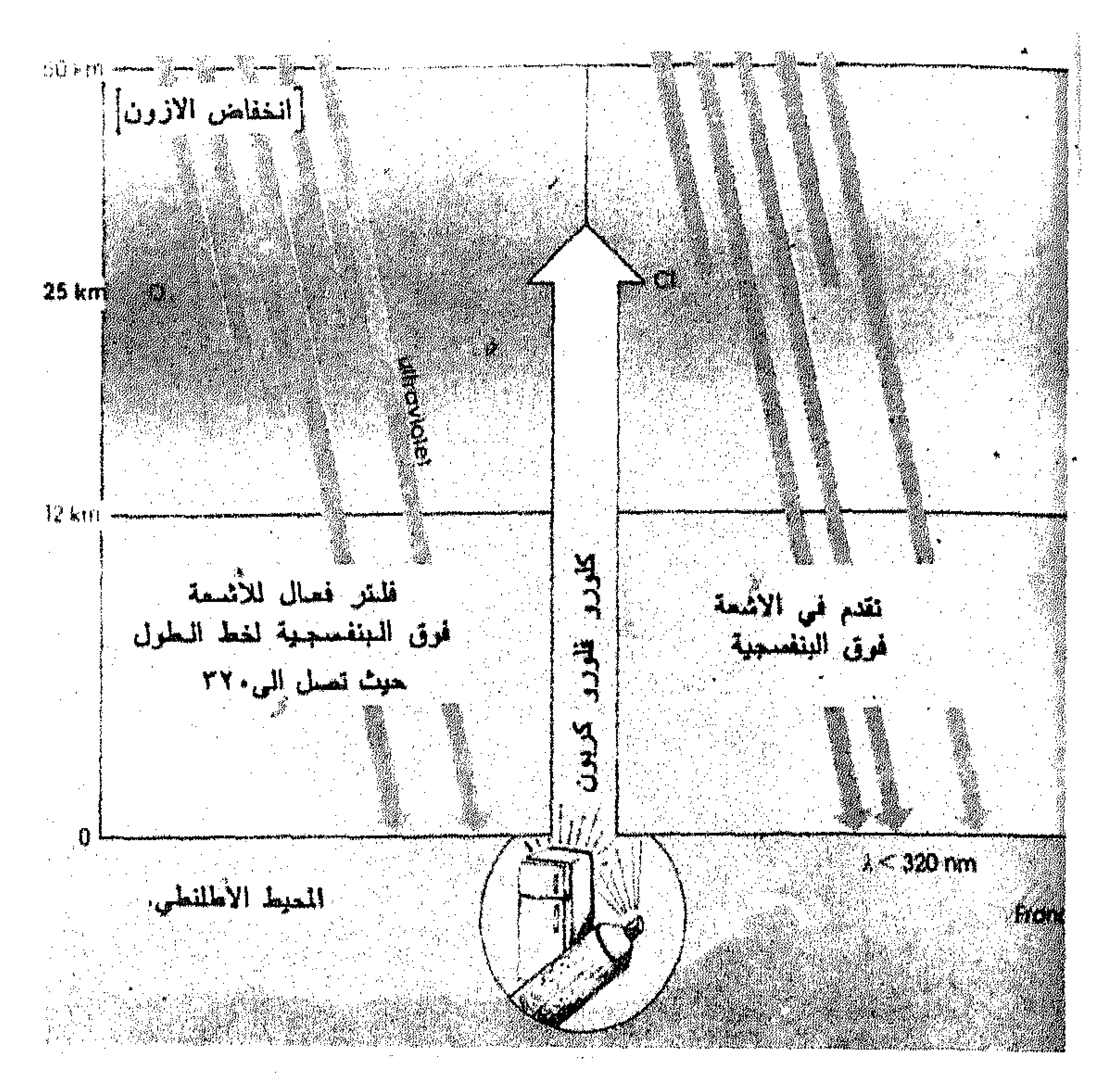
ولابد أن نقف هنا وقفة موضوعية، نوضح فيها أن بعض الناس يستهين بتسرب غاز «الفريون» من الثلاجات وأجهزة التبريد والتكييف،

وهو يعمل داخلها فى دوائر مغلقة، هى التى يطلق عليها الفنيون اسم «المكثفات Condensers». إن الحقيقة أن هذا الغاز المحتبس فى هذه الأجهزة، مصيره المحتوم إلى التسرب عند تلفها، وأنه لاشك يتسرب قدر منه عند ضخه فيها، كما أن استخدام غاز «الكلور وفلور وكربون» ليس مقصورًا على صناعة التبريد، بل ينتشر فى الصناعات الأخرى التى سبق الإشارة إليها. ولا يتم ذلك فى دوائر مغلقة مثل أجهزة التبريد. بل يكون التعامل معه بطرق تسمح بتسرب قدر كبير فيه إلى الهواء.

وهناك ظن آخر يساور كثيرًا من الناس، عند استخدام عبوات المرذذات المضغوطة فى علب محدودة الحجم، سواء كمبيدات حشرية، أو معطرات للغرف، هو عدم تصور إمكان تصاعد هذه الغازات الصغيرة الحجم إلى أعالى الغلاف الجوى، استهانة بالقدر الضئيل من هذا الغاز، الذى يمكن أن تحويه علبة يمكن الإمساك بها باليد الواحدة. والحقيقة أن مثل هذا التصور مقصور ومحدود فى إطار الاستخدام الشخصى لفرد واحد، دون أن ينطلق الخيال بصاحبه إلى إمكان تصور الكم المهول من هذه العلب، على مستوى كل قارات العالم، فهى لا تعد بالملايين ولكن بالبلايين. وإن كانت النار يمكن أن تشب من مستصغر الشرر، فإن تجمع هذا الشرر لا يجب الاستهانة به. خاصة وأن هذا الغاز كما سبق أن أسلفنا له خاصية طبيعية هى «شدة التطاير»، ومعنى التطاير هو الصعود إلى أعلى. وفضلًا عن ذلك، فإن تصاعد غاز «الكلور وفلور وكربون» إن كان يتم من بلايين المرذذات، فإنه أيضا يتصاعد ببطء شديد من تحلل بقايا بعض المخلفات المستخدمة من التغليف للأطعمة السريعة والمطاط الصناعى.



شكل (١٦) تأثير الغازات الوسيطة على الأوزون



شكل (١٧) تأثير الأشعة فوق البنفسجية على الأوزون

كما أن عمره الطويل الذى قد يمتد إلى قرن كامل يسمح له بأن يظل يؤدى عمله التدميرى فى طبقات الغلاف الجوى، متفاعلاً مع كل ذرة أوزون يقابلها على النحو الذى أوضحناه من قبل.



شكل (١٨) الحواسب الاليكترونية تتحكم فى كل مظاهر الحياة

وفضلاً عن ذلك، فإن القاعدة الصناعية العريضة التى خلقتها التكنولوجيا الحديثة فى المجالات التى سبق أن ذكرناها، لا يمكن الاستهانة بها، فعلى هذه الصناعات يقوم الجزء الأكبر من اقتصاديات الدول الكبيرة، لأنها تقدم لكل الطبقات فى مختلف الشعوب، أجهزة رخيصة نسبيا توفر لهم حياة رغدة مرفهة أصبح من الصعب أن يستغنى عنها أى بيت فى الريف، أو فى الحضر، كالثلاجة، والتليفزيون، والأثاث اللين، حتى مستوى الحشية الطرية المصنوعة من المطاط الصناعى لكل سرير.

ناهيك عن الانتشار الرهيب للحواسب الاليكترونية الذى امتد ليدخل كل مجالات تجل عن التصور فى البنوك، والشركات، والمحال التجارية والجامعات، ودور البحث، والجيوش، ومراكز التدريب، والمدارس والمستشفيات وشركات الطيران، بل امتد إلى دور اللهو، وإلى الاستخدام الشخصى فى المنازل، حتى أصبحت هناك حواسب صغيرة «مينى» و«ميكرو». وأصبح يمكن للأطفال فى طور النمو استخدام بعض من هذه الأنواع للعب بها. لذلك فإن مجمل القول إنه لكى يسهل التصور فعلينا أن نعرف كم بليون علبة رش، تستخدمها الشعوب التى يتجاوز تعدادها المليارات، مثل الصين، والهند. وكم مليون ثلاجة تتلف منهم ويتسرب غازها إلى الجو، وكم بليون قطعة أثاث يستخدم فيها المطاط الصناعى.

٢ - الطيران النفاث:

عرف المحرك النفاث فى أواخر الحرب العالمية الثانية، وبدأ استخدامه

فى الطائرات بدءًا من عام ١٩٣٩. وإليه يعزى الفضل فى القفز بسرعات الطيران إلى سرعات فوق - صوتية Super Sonic، كما يعزى إليه أيضًا الفضل فى العلو بسقف الارتفاعات للطائرات، أى قدرتها على الصعود علوا أكثر من ذى قبل.

وعندما بدأ انتشار الطائرات الأسرع من الصوت فى المجالات العسكرية، كان التفكير فى طبقة الأوزون، لا يساور إلا عقول عدد محدود من العلماء. لكن الالتفات إلى هذا التأثير بدأ يتعاظم عندما حمى وطيس المنافسة، بين الاتحاد السوفيتى، والدول الغربية فى مجال تصنيع طائرات مدنية تحمل ركابًا عاديين بسرعات فوق صوتية. وكان محك الجدل بين العلماء هو التوقف عند اختيار أنسب السرعات فوق الصوتية التى يمكن أن يتحملها الجهاز البشرى للإنسان أى جسمه، دون أن يحدث فيه تغيرات ومؤثرات بيولوجية أو فسيولوجية جسيمة، أو تصيبه بالضرر. وانصرف الاهتمام إلى هذا الجانب دون أن يلتفت إلى الجانب الأهم، وهو مدى ما يمكن أن تحدثه كميات الغازات الرهيبة التى يمكن أن تنفثها هذه الطائرات من عوادم فى الغلاف الجوى، ولا موجات الهواء التصادمية (Shock waves)، التى تسبق هذه الطائرات. فالأمر ليس مقصورًا على الإزاحة الميكانيكية الضخمة، والاضطراب الذى تحدثه هذه الطائرات فى الكتل الهوائية التى تطير فيها. بل يمتد الأمر أيضًا إلى نفث خليط من الغازات التى تخرج من مؤخراتها كعوادم حرق كميات كبيرة من الوقود، تكون بلا شك مليئة بكم هائل من الغازات المختلفة النوع، والتى تضم فى مكوناتها بعضًا من الغازات الوسيطة التى تعمل على تفكيك جزيئات الأوزون كما أوضحنا من قبل.



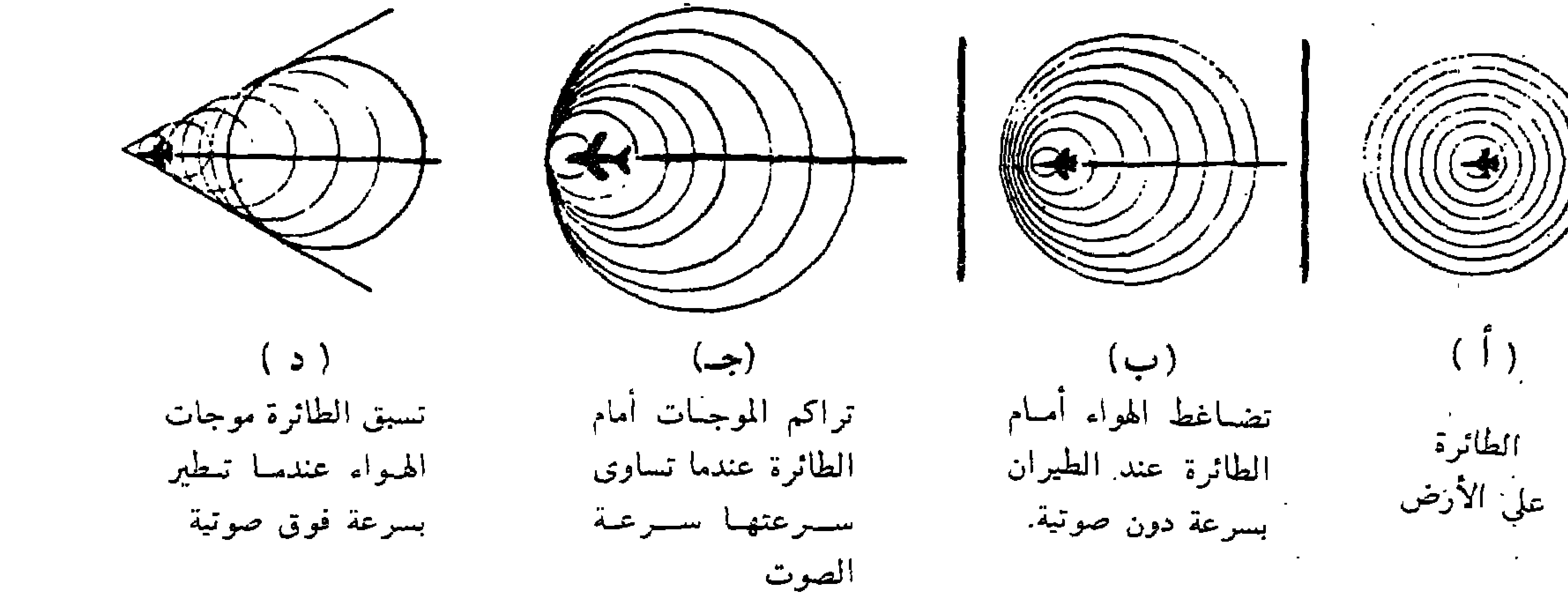
شكل (١٩) الطائرة الكونكورد فوق الصوتية

ولا يمكن أن نستهين بعملية الإزاحة الميكانيكية للكتل الهوائية التى تحدثها الطائرات الأسرع من الصوت، فالمعروف فى ديناميكا الهواء أن التضاغط الذى تحدثه حركة الطائرات الأسرع من الصوت فى طبقات الهواء، تتسبب فى تكوين «فيلم» أى غشاء رقيق من الهواء المضغوط انضغاطًا شديدًا تحت وطأة الحركة السريعة للطائرات. حتى أن نسبة الزيادة فى كثافة الهواء المضغوط الذى يسبق مقدمة هذه الطائرات تصل إلى نسبة ٤٠٪.

إن هذا الاضطراب بلاشك، يحدث خلخلة وإزاحة للكتل الهوائية التى تتحرك وسطها الطائرة الواحدة. واليوم أصبحت أغلب الطائرات تستخدم محركات نفاثة، وحتى تلك المستخدمة على الخطوط المدنية أصبحت إما نفاثة (تربينية) أو (تربو – مروحية).

وإن كان الكثير منها يطير بسرعات «دون – صوتية»، إلا أن البعض الآخر، بدأ يطير بسرعات «فوق – صوتية» بدءًا من عام ١٩٤٦. ولقد اختيرت السرعة الملائمة لتكون (٢,٢) ماخ أى بأكثر من ضعف سرعة الصوت بقليل.

ولقد كان قصب السبق فى هذا المضمار للسوفييت، إذ بادروا باستخدام الطائرة «تى يو ١٤٤» على خطوطهم المدنية اعتبارًا من أواسط الستينات. ولأن الحرب الباردة كانت محتدمة بين الشرق والغرب آنذاك، فقد تضافرت جهود فرنسية وبريطانية على إنتاج طرازين مختلفين من الطائرة «فوق – الصوتية» الغربية «الكونكورد»، وبدأ طيرانها بدءًا من عام ١٩٧٢.



شكل (٢٠) موجات الهواء التصادمية

وكان بعض الناس يضجون بالشكوى من الإزعاج الصوتى الذى تحدثه هذه الطائرات، قرب مطارات الصعود والهبوط، ومن الفرقعات الصوتية التى تحدثها عند اختراق سرعتها للحاجز الصوتى «Sound Barriar». لكن لم يحفل - سوى بعض العلماء - بالاضطراب الذى تحدثه هذه الطائرات فى طبقات الغلاف الجوى، والتى من آثارها تدمير غاز الأوزون فى هذه الطبقات، نتيجة لخروج غازات وسيطة مثل غاز النتروجين (الأزوت) منها. إذ أن محركاتها تقوم بشفط أو ابتلاع قدر هائل من الهواء من مقدماتها، للحصول على الأوكسجين الموجود فى الهواء، والموجود فى أكاسيد النتروجين أيضًا وذلك بغية أن يعمل الأوكسجين، كعامل مساعد للاحتراق الهائل الذى يحدث فى غرف احتراق محركات هذه الطائرات. ومن ثم فإن بقايا هذا التفاعل، وهو غاز الأزوت «النتروجين» يكون بالضرورة موجودًا فى غازات العادم التى تنفثها من مؤخراتها، والتى تؤدى إلى دفع الطائرة بالتالى إلى الأمام.

ولقد زاد الطين بلة، أن الولايات المتحدة - رغم عدم إقدامها على إنتاج طائرات مدنية فوق صوتية، قد قامت بتصنيع طائرة عسكرية للاستطلاع الاستراتيجى هى الطائرة (س.ر - ٧١) (S.R. 71) وهذه تطير بسرعة (فوق - صوتية) تبلغ ٣,٢ ماخ، ولها سقف ارتفاع يطاول (٨٦٠٠٠) قدمًا أى (٢٦) كيلومترًا. ومعنى ذلك أنها بلاشك تستطيع أن تمرح فى طبقة الاستراتوسفير تمزيقًا وتدميرًا لجزيئات الأوزون فيه.

ولم يقتصر الأمر على الطائرات فوق الصوتية وحدها، بل عمد مصممو الطائرات المدنية إلى تصنيع محركاتها وهياكلها، بحيث تستطيع أن

تحلق على ارتفاعات عالية، لكى تقتصد فى استهلاك الوقود. ومن ثم أصبحت كثير من الطائرات المدنية تصعد إلى ارتفاعات فى طبقة الاستراتوسفير معتمدة على التكييف الصناعى للضغط فى داخلها «Pressurisation».

وبذلك أصبحت الطائرات فى غنى عن الأوكسجين من الهواء اللازم لتنفس الركاب. وفضلاً عن الوفر فى حرق الوقود، فإن الطيران على هذه الارتفاعات العالية، يجعلها على ارتفاعات فوق كتل السحاب الذى لا يتشكل إلا تحت الطبقة الفاصلة «التروبوبوز»، الذى يوجد على علو ١٢ كيلومترا فوق خط الاستواء، وينحدر تدريجيا إلى علو ٨ كيلومترات فوق القطبين.

ولا شك أن تحرر الطائرات من السحب يجعلها تطير فى جو صاف، وفى مأمن من حوادث التصادم لتوفر الرؤية الصافية، فضلاً عن عدم التعرض لاهتزازات ناجمة عن التيارات الهوائية الصاعدة والهابطة، والتى تحدث الأثر المضخى «Pumping». ومعنى ذلك فى النهاية أن مختلف الطائرات سواء تلك التى تطير بسرعات (فوق - صوتية)، أو بسرعات (دون - صوتية) وسواء الطائرات العسكرية أوالمدنية، أصبح أغلبها يخدش الارتفاعات القريبة من طبقة الاستراتوسفير التى يبدأ غاز الأوزون فى التشكل فيها. ومن ثم أصبح معرضًا إما للتحرك بالإزاحة، أو للنضوب، أو التدمير بالتفاعل الكيماوى مع المركبات التى تنفثها هذه الغازات.

٣ - إطلاق الصواريخ إلى الفضاء:

تنقسم الصواريخ العسكرية أو المدنية المستخدمة فى عمليات غزو الفضاء، إلى نوعين من حيث نوع الوقود المستخدم فى دفعها.

النوع الأول منها، صواريخ تعمل بالوقود السائل، والنوع الثانى صواريخ تعمل بالوقود الجاف أو (الصلب).

ولأن أغلب عمليات إطلاق الصواريخ، تجعلها تخترق طبقات الغلاف الجوى التروبوسفير، والاستراتوسفير على الأقل، فإن قدرًا كبيرًا بل مهولاً من غاز الأوزون يتعرض للتدمير. والسبب فى ذلك أن القدر المهول من الغازات الملازمة لدفع حركة الصاروخ للأمام، تستلزم حرق قدر هائل من الوقود السائل أو الصلب، أى أن الغازات الناتجة عن الاحتراق، والتى تنفث فى الجو من مؤخرات الصاروخ تكون هائلة الحجم وتقدر بآلاف الأطنان. وفى كل أنواع الصواريخ، تحوى هذه الغازات قدرًا كبيرًا من الغازات الوسيطة لتدمير الأوزون كالكلور، والنتروجين وغيرهما. ويكون ذلك بنسبة كبيرة فى الصواريخ التى تستخدم الوقود الجاف أى الصلب، وبنسبة أقل فى الصواريخ ذات الوقود السائل. ولأن أغلب الصواريخ الحديثة أصبحت متعددة المراحل، فإن بعض مراحلها تكون عاملة بالوقود الصلب لتحقيق خفة الوزن. ومعنى ذلك أن الإتلاف لطبقة الأوزون أصبح شائعًا فى أغلب إطلاقات الصواريخ. ويكفى أن نتصور أن صاروخًا مثل صاروخ «ساترن - ٥» الذى رفع كل سفن الفضاء الأمريكية من برنامج «أبوللو» الذى هبط بعضها على القمر،



شكل (٢١) صاروخ (ساترن–٥) الأمريكى

لنعلم أن ارتفاعه كان يصل إلى (١٠٨) مترا، أى ما يعادل عمارة مكونة من ٣٠ طابقًا. وهذا الصاروخ كانت كمية الوقود التى يحتويها تبلغ (١٤٠) طنا، يمكن لهذه الكمية أن تعطينا دلالة مقنعة عن القدر الهائل من الغازات التى ينفثها صاروخ واحد.

ناهيك عن أنواع الصواريخ الأخرى، التى تستخدمها الجيوش فى كل دول العالم، والتى تعددت أنواعها وأصبحت بين سطح/سطح وسطح/جو، وجو/سطح. والتى أصبح كثير منها عابرًا للقارات ولا تقتصر حركته على العلو، صعدًا فى طبقة الاستراتوسفير بل يمضى علوًّا فيما يليها من طبقات، ليحقق الوصول بعيدًا عن مكان إطلاقه عدة آلاف من الكيلومترات. وقد بلغ مدى بعض هذه الأنواع التى عمرت بها ترسانات الدول المتقدمة إلى (٢٠٠٠٠، ٢٥٠٠٠) كيلومترًا.

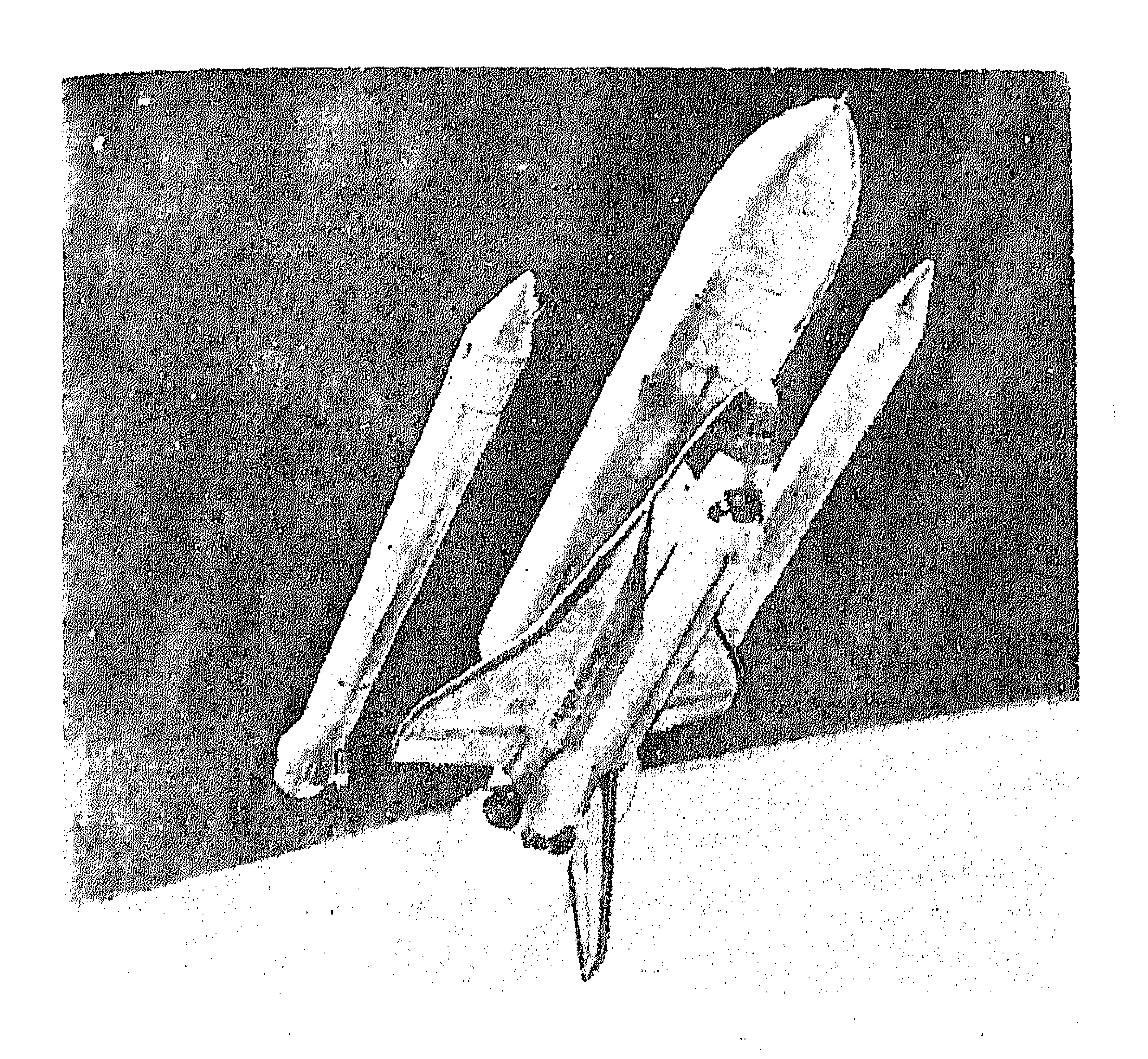
وهذا ما دفع العلماء إلى الدعوة لوضع قيود على استخدام مركبات الحمل العسكرية، أو المدنية وخاصة تلك، التى تعمل بالوقود الجاف. ولقد نشط الاتحاد السوفيتى فى توجيه هذه الحملة معرضًا بعمليات الإطلاق الأمريكية المتكررة، وخاصة عمليات إطلاق مكوك الفضاء الأمريكى (Space shuttle) والتى تعاظم شأنها بعد عام ١٩٨٠، وأصبحت متكررة فى السنوات الأخيرة كل شهر أو شهرين تقريبًا.

وفى إحصائية سوفيتية، ورد أن كل عملية إطلاق لمكوك الفضاء، يترتب عليها تدمير مليون طن من غاز الأوزون، وهذا ما يعادل تدمير ٣٠٠ طن أوزون لكل حمولة طن، يستطيع المكوك حملها إلى الفضاء. وقد قارن السوفييت فى هذه الإحصائية، هذا الإتلاف الأمريكى، بما يحدثه

الصاروخ السوفيتى «بروتون» الذى يعمل بالوقود الصلب، وقالوا بأنه يترتب عليه فقط إتلاف ٣٨ طنًا من غـاز الأوزون لكل طن حمـولة. أما مجموعة صواريـخ «إنيرجيـا» السوفيتيـة التى نجح السـوفييت فى إنتاجها أخيرًا، والتى دفعوا بها المكوك التجريبى «بوران» عام ١٩٨٨، فإنها لا تتلف غير ١٥ طنا من الأوزون لكل طن حمولة.

وقد نادى السوفييت بوضع ضوابط لتحديد عدد عمليات الإطلاق للمركبات الفضائية، بالإضافة إلى حتمية وضع ضوابط على إنتاج المواد الكيماوية المدمرة لطبقة الأوزون. والدعوة أيضا إلى التدرج للوصول إلى حظر عمليات الإطلاق التى تستخدم الوقود الصلب.

ومع أن الدعوات السوفيتية دائمًا تتهم بأنها لا تخلو من الأغراض السياسية، إلا أن العلماء تثبتوا من أن الأمر فعلًا يدعو إلى القلق. ولذلك نشط كثـير منهم فى القياس والتحليـل والإحصاء. ولقـد ثبت مثلًا أن الدقيقتين الأوليين فى عمليات إطـلاق المكوك الأمـريكى والتى تحترق خلالها صواريخ الدفع الابتدائية التى تعمل بالوقود الجاف، والتى تمثل المرحلة الأولى فى الصواريخ الحاملة للمكوك، ينتج عنها (١٨٧) طنا من غاز الكلور ومركباته، و(١٧)طنا من أوكسيد النتروجين، و(١٨٠) طنا من أوكسيد الألومنيوم. وهذه الغازات لها تأثير مدمر على الأوزون كما سبق أن أوضحنا فى الأبواب السابقة. وقد قدر العلماء أن (٥٠٠) عملية إطلاق متتالية للصاروخ «ساترن - ٥» الأمريكى، كفيلة بالقضاء على كل غاز الأوزون فى كل الغلاف الجوى.



شكل (٢٢) الصاروخين الجافين لمكوك الفضاء

٤ - إلتفجيرات النووية:

كان تفجير القنبلتين الذريتين فوق مدينتى هيروشيما ونجازاكى اليابانيتين، فى أغسطس ١٩٤٥، هما بداية النهاية بالنسبة للحرب العالمية

الثانية، ومع ما صاحبهما من فواجع تدميرية مميتة، لم تشهدها البشرية من قبل. فإن الآثار البيئية التى أعقبت هذين التفجيرين، ظلت تؤذى البقية الباقية من الأحياء فى هاتين المدينتين، لعدة سنوات. فقد مات على الفور (٧٢) ألف مواطن يابانى، وأصيب (٨٠) ألفًا آخرين إصابات بالغة. ولم يقتصر ذلك على هاتين المدينتين وحدهما بل امتدت إلى المدن المجاورة حتى مئات بل آلاف الكيلومترات، وتمثلت فى الإشعاعات المميتة، والتى تركت جيلاً من المشوهين ما زال كثير منهم أحياء.

لكن ما يعنينا أن هذا التفجير الذرى، قد أعقبه بثوان معدودة عمود من الدخان، شمخ إلى ارتفاع عال فى الجو ثم الفضاء، ملبدًا بغيوم كثيفة، حجبت ضوء الشمس عدة ساعات. وأصبح شاهدًا على أبشع جريمة ارتكبها الإنسان، فى حق أخيه الإنسان بقسوة لم يشهدها التاريخ من قبل.

ومع كل ما حواه عمود الدخان من أذى، فلاشك أن الغازات والحرارة البالغة التى نجمت عنه، كان لها تأثيرات بالغة على طبقة الأوزون، وما تحتها وما فوقها، وهى تطاول عنان السماء مخترقة كل طبقات الغلاف الجوى، بدفع ذاتى قوى اكتسبته من قوة التفجير هذه.

وبعد ذلك تطورت الأمور، وأصبحت التفجيرات الذرية، هينة وضعيفة بالنسبة لما توصل إليه العلماء بعد ذلك من أنواع أخرى على رأسها التفجيرات النووية. وما استجد من أنواع القنابل الفتاكة والمدمرة مثل القنبلة الكوبالتيه، والنيوترونية. وهى كلها تبث فى الغلاف الجوى قدرًا



شكل (٢٣) عامود الغازات الذى أعقب تفجير هيروشيما

هائلاً من الغازات والإشعاعات والحرارة، التي بلا شك تعمل على تدمير غاز الأوزون أو على الأقل نضوبه.

واليوم أصبحت التفجيرات النووية، تجرى من أجل التجارب، ليس فقط من تحت الأرض، أو فى المناطق الصحراوية النائية وحدها، بل تجرى أيضًا فى أعالى الغلاف الجوى، وفى صمت ودون إعلان، لأن قليلاً من البشر من يحس بها. بل امتد الشر أيضًا إلى أعالى الغلاف الجوى والفضاء فى صورة أخرى، تتمثل فى استخدام محركات تعمل بالطاقة النووية فى بعض الأقمار الصناعية وسفن الفضاء، وخاصة تلك المستخدمة لأغراض التجسس العسكرى. وهذه بلا شك تخترق طبقات الغلاف الجوى فى دوران متكرر، ومستمر لعدة شهور، أو لعدة سنوات. وهى فى كل دورة لا تكف عن بث إشعاعاتها ومؤثراتها على غاز الأوزون فى هذه الطبقات.

لذلك، لو تأملنا تطور الأمور، نجد أن المؤثرات على غاز الأوزون فى طبقات الجو العليا. ولم تعد تأتينا من الأرض مع الملوثات التى أشرنا إليها، بل أصبحت تندس فى طبقات الغلاف الجوى نفسه، وتلاحق جزيئات الأوزون رواحًا وجيئة وبصفة مستمرة.

الباب الخامس

المخاطر

إذا كانت الأشعة فوق البنفسجية غير مرئية، ومصاحبة لضوء الشمس، فإن آثارها البيئية، ظلت كذلك مدة طويلة غير معروفة لكثير من العلماء.

ولقد كان البدء فى التعرف عليها، بإدراك آثارها الطبية على بعض الأمراض، وخاصة الجلدية، إلا أن آثارها على البشر عامة، بسقوطها المصاحب لضوء الشمس، وعلى النبات خاصة، ظل لسنوات طويلة أمرًا غير معروف الآثار، حتى تفجرت مشكلة طبقة الأوزون فى الثمانينات.

غير أن جهدًا سابقًا فى العشرينات، كان هو الأمر الوحيد الذى يعد بمثابة دق ناقوس الخطر، عندما لاحظ عالم شاب أن نسبة انتشار بعض الأمراض فوق جبال الهيمالايا، تزداد بين سكان هذه المرتفعات، عنها بين سكان نفس المنطقة الذين يعيشون فى سهول ووديان هذه المرتفعات.

فكان التفسير المنطقى لهذه الظاهرة لأول وهلة آنذاك، أن السبب الجوهرى يرجع غالبًا إلى انخفاض درجة الحرارة على هذه الارتفاعات الشاهقة.لكن لأن الأمراض التى كانت شائعة بينهم كانت تتعلق بأمراض العيون، وهى المعروفة باسم «عتامة العين البيضاء» أو «الكاتركتا» والشيخوخة المبكرة، وبعض الأمراض الجلدية، فقد ظن بعض العلماء أن أسباب هذه الظاهرة ترجع إلى تعرض سكان المرتفعات لنوع غامض من الإشعاعات، يسقط عليهم من السماء، ولا يتعرض له سكان السفوح والوديان. ولأن الأمر كان غامضًا، وغير محدد، فقد أطلق على هذه الإشعاعات غير المحددة، والتى ترد من الفضاء، اسم «الأشعة الكونية» «Cosmic Rays» . تعبيرًا عن أنها تصل من الفضاء الخارجى، وربما يكون مصدرها الأجرام الكونية التى حول الأرض.

غير أنه بعدما تقدمت بحوث الإشعاعات، وبزغ عصر الفضاء، ثم انفجرت قضية طبقة الأوزون، أصبح الأمر واضحًا أن الإشعاعات المعنية هى الأشعة فوق البنفسجية. وأن تعرض سكان المرتفعات لقدر منها يزيد عن الحد الآمن، هو السبب فى حدوث الأمراض المشار إليها.

ولقد ظل وهم اكتساب الصحة من تعرض المصطافين، وهم أنصاف عرايا على الشواطئ لأشعة الشمس، مسيطرًا على عقول كثير من الناس لسنوات طويلة. وما زال هذا الوهم سائدًا حتى اليوم، ومقياسه أن تكتسب البشرة اللون البرونزى القاتم المائل إلى الاسمرار. وتبارت الآنسات والسيدات فى تعرية أكبر أجزاء من أجسادهن، جريًا وراء الوهم، وهم غافلون عن أن هذا يعرضهم لأكبر المخاطر. ومنظر الناس

وهم عرايا على الشواطئ فى ازدحام رهيب فيما يشبه تجمعات النمل، أمر يدعو إلى الرثاء، ويرسم صورة من صور الجهل والجرى وراء الأوهام. وتقدر الجمعية الأمريكية لمرضى السرطان، أن ٦٠٠,٠٠٠ حالة جديدة على الأقل من المصابين بسرطان الجلد، تشخص بعد انقضاء كل صيف فى الولايات المتحدة. وذلك نتيجة لتدفق المصطافين على الشواطئ لتعريض أجسادهم لأشعة الشمس المباشرة. وأن على الأقل ٢٧,٦٠٠ حالة من هذه الإصابات تكون سرطانًا إيجابيا، والمعروف طبيا باسم «ميلانوما» «Melanoma»، وأن نسبة ٧٪ من هذه الإصابات الإيجابية تكون مميتة.

ولم تكن هذه النسبة من الإصابات الجلدية بهذا القدر الكبير فى السنوات الماضية، بل ازدادت أعدادها فى السنوات الأخيرة. وهذا ما يعد برهانًا واضحًا على صحة تفسير، أن نفاذ قدر أكبر من الأشعة فوق البنفسجية إلى الأرض، لنضوب الأوزون فى الغلاف الجوى، هو العامل المسبب لهذا المرض.

وليت نضوب الأوزون، وبالتالى زيادة نسبة الأشعة فوق البنفسجية النافذة إلى الأرض، يقتصر على هذه النتائج، بل أن له نتائج أخرى كثيرة، من أهمها:

١ - انتشار سرطان الجلد:

يندهش الأطباء فى كثير من الدول المتقدمة، لتزايد أعداد المصابين بسرطان الجلد فى السنوات الأخيرة، وقد عبر عن ذلك أحدهم قائلًا: عندما كنت حديث التخرج، كان من النادر أن أرى حالة «ميلانوما»



شكل (٢٤) التكالب على العرى على الشواطىء له مخاطره

واحدة كل سنة، واليوم تعرض عليّ حالة على الأقل كل أسبوع. ويعزو الأطباء الأمريكيون هذا التزايد، إلى إقبال كثير من الناس بعد الحرب العالمية الثانية، على التمتع بالأجازات الصيفية على الشواطئ، مع حرصهم على التعرض لأشعة الشمس ليكسبوا بشرتهم اللون البرونزى. وأن الإصابة «بالميلانوما» ربما تحدث تراكميًا، بمعنى اختزان الجسم للمؤثرات سنة بعد أخرى، حتى تصبح الإصابة السرطانية إيجابية.

ويؤكد كثير من الأطباء أن نقص الأوزون فى الجو، يحدث زيادة فى عدد «كارسينوما» «Carcinomas» الخلايا الباسيلية، وكذلك كارسينوما الخلايا «الاسكواماس» «Squamous».

والثابت طبيا أن موجات الأشعة فوق البنفسجية الأكثر طولاً، وهى التى عبرنا عنها فى الباب الثانى بالجزء (حـ) تحدث شيخوخة الجلد، أى التجدد المبكر للجلد، وقد تحدث بعض الحروق.

أما التموجات الأقل طولاً من الأشعة فوق البنفسجية، والذى رمزنا إليه بالجزئيين (ب)، (ا) فإنهما يحدثان حروقًا فى الجلد، وثنيان «كرمشة» كبيرة فيه. وهما مسئولان عن إحداث إصابات «الكارسينوما» و «الميلانوما» الإيجابية. وخلافًا عن أنواع الأورام السرطانية الأخرى، فإن «كارسينوما» الخلايا «الباسيلية» نادرًا ما تبرز وتتورم أو تنتقل إلى أجزاء أخرى من الجسم، ولذلك ينظر إليها المصابون باستهتار، ولا يعيرونها اهتمامًا. وعندما يضطر الأطباء للتعامل معها جراحيا، فإنهم قد يضطرون لإزالة أجزاء هامة من الجلد المصاب، قد يكون جزءًا من الأنف أو الأذن.

أما كارسينوما الخلايا «Squamous» فهى أشد خطرًا، إذ تظهر على شكل تقرحات، أو تقيحات حمراء، أو قرمزية وتعطى إفرازات من منتصفها، وقد تؤدى فى النهاية إلى نتائج وخيمة.

وعامة فإن الإصابة بسرطان الجلد، يتعرض لها بكثرة سكان المناطق الشمالية ذوو البشرة البيضاء، وخاصة ذوى البشرة الحمراء، كالأوروبيين ذوى الشعور الصفراء، والذين تتأثر بشرتهم بالتعرض مددا قصيرة للشمس. أما سكان خطوط العرض المتوسطة، وذوى الشعور السوداء والداكنة كالقوقازيين والأسيوين وسكان حوض البحر الأبيض المتوسط، فهم أقل عرضة للإصابة بهذا النوع من السرطان.

أما ذوى البشرة السوداء، مثل سكان جنوب أفريقيا، وجنوب أمريكا، فنادرًا ما تظهر بينهم هذه الإصابات، ومعدل الإصابات الإيجابية بينهم بالنسبة للإصابات بين البيض لا تزيد عن (١ إلى ٥٠). وهذه الحالات النادرة عند ظهورها بين السود، يكون مكانها فى الأجزاء الرخوة من الجلد، مثل باطن الكف أو بين أصابع الأقدام، أو تحت أظافر اليد.

هذا التباين بين نسبة إصابات ذوى البشرة البيضاء والسوداء بسرطان الجلد، هو خير دليل على أن الأشعة فوق البنفسجية، هى العامل المؤثر، إذ أن خطوط العرض القريبة من خط الاستواء تتعرض لأشعة الشمس متعامدة على سطح الأرض.

أما فى مناطق خطوط العرض المتوسطة، فإن أشعة الشمس تصل إلى سطح الأرض مائلة عليه بزاوية، ويزداد ميل هذه الزاوية كلما زاد خط العرض شمالاً، وهذا الميل يعنى التعرض لقدر أكبر من الأشعة فوق

البنفسجية. والسبب فى ذلك أن هذه الأشعة فى طريقها إلى الأرض، تسلك نتيجة لميلها من الغلاف الجوى طريقًا أطول، مما يجعل غاز الأوزون يتعرض لقدر أكبر من التلف، وبالتالى يسمح بنفاذ قدر كبير منها إلى الأرض. ويحرص العقلاء فى كثير من البلاد اليوم، على تجنب إصابات سرطان الجلد بإشاعة جلوس المصطافين تحت مظلات وأماكن ظليلة، وكذلك إشاعة ارتداء الفانلات والملابس التى تغطى بعض أجزاء الجسم، أثناء التواجد على الشواطئ.

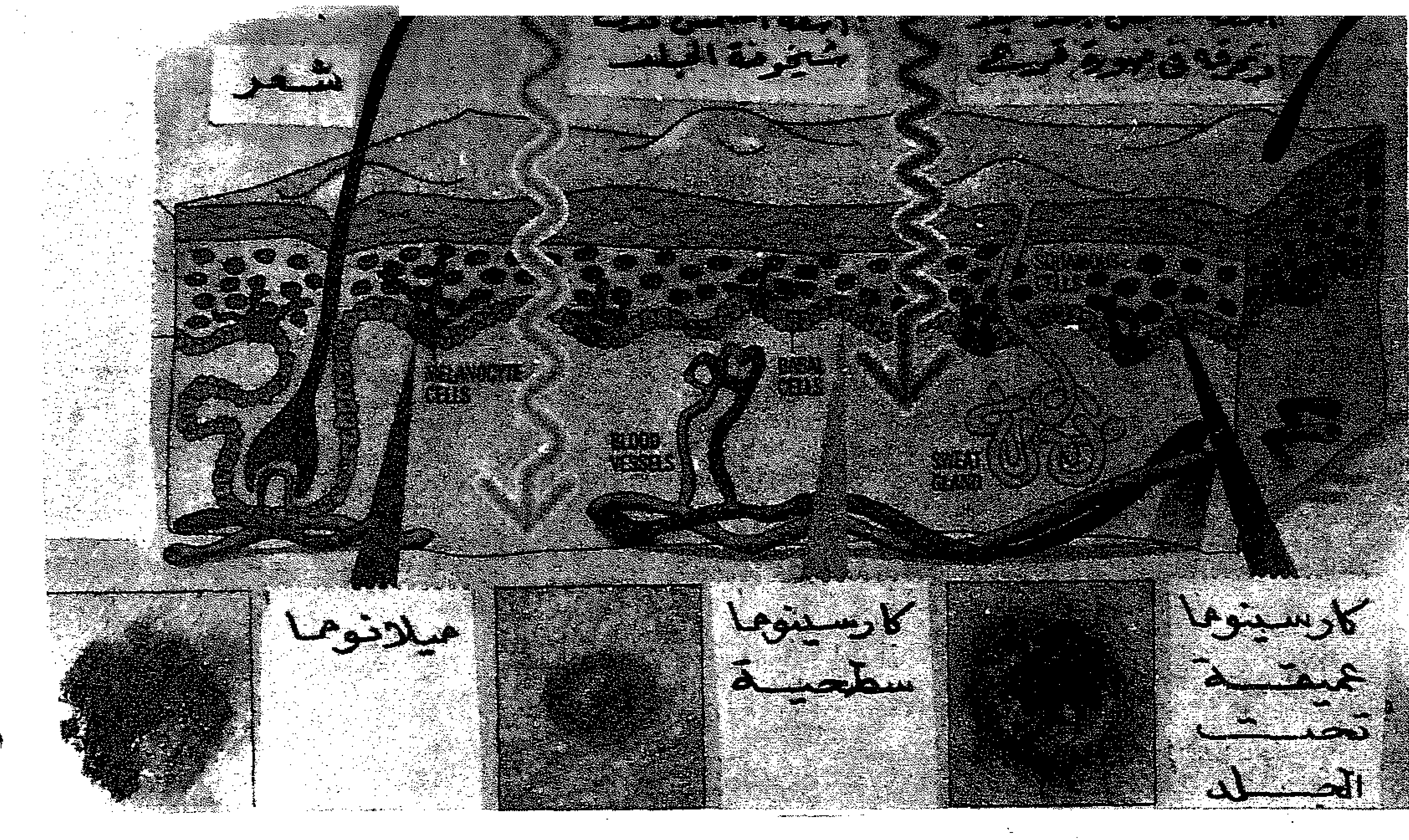
ومن باب التوعية ظهرت مؤخرًا فى الولايات المتحدة نشرات دعائية، تحذر من التعرض الزائد لأشعة الشمس، تحت شعار: «احترق اليوم... تدفع باكر!!».

ولقد دلت بعض الإحصائيات العلمية على أن النقص فى طبقة الأوزون، لو بلغ ١٪، فإن الأشعة فوق البنفسجية التى تصل إلى الأرض تزداد بنسبة تعادل ٢٪، وبالتالى فإن معدل الإصابات بسرطان الجلد يزداد بمعدل ٤٪.

وهناك إحصائيات أمريكية، تقول بأن نقصًا قدره ٣٪ فى طبقة الأوزون يعنى ١٨٠٠٠ (ثمانية عشر ألف) إصابة بسرطان الجلد كل سنة.

٢ - التأثير الوراثى:

إن تعريض جلد الإنسان لقدر كبير من الأشعة فوق البنفسجية، يمكن أن يحدث التلف فى الخلايا المعروفة باسم «Epidermal» التى تحت البشرة الخارجية للجلد مباشرة. إن ذلك يحدث تلفًا فى الحمض النووى المعروف



شكل (٢٥) أنواع الميلانوما والكارسيوما فى جلد الانسان

باسم «د ن ا» DNA المركز فى نويات هذه الخلايا. وينجم عن ذلك انقسام هذه الخلايا دون تحكم، وحدوث الأورام. وهذا الانقسام قد يحدث نتيجة التعرض المتكرر لجرعات من الأشعة السينية، أو للحروق، أو نتيجة امتصاص الجلد المتكرر لجرعات من الكيماويات مثل بعض «الكريمات». لكن العامل الأهم، هو تعرض الجلد أيضًا للأشعة فوق البنفسجية. بقدر كبير. وبعد أن يدوم هذا التعرض لسنوات طويلة، يبدأ ظهور الأعراض على هيئة بثور أو نقط سرطانية، يطلق عليها «كيراتوسيز Keratoses» أى «بثور». ويغلب حدوث هذا فى الأشخاص ذوى السن المتوسط أو المتقدم، وعادة ما يكون ظهور هذه البثور فوق الأماكن التى لا تغطيها الملابس أغلب الوقت.

ولأن حمض «د ن ا» هو المسئول عن نقل الصفات الوراثية، فإن إصابته تكون نتيجة للإسراف فى التعرض للأشعة فوق البنفسجية، حينها ينتقل من جيل إلى جيل وراثيًا.

٣ - عتامة العيون وأمراض أخرى:

كما أن نضوب غاز الأوزون، وتسرب قدر كبير من الأشعة فوق البنفسجية إلى الأرض، إضافة إلى ما يحدثه فى الجلد، يمكن أن يحدث أمراضًا أخرى من أهمها «عتامة العيون» المعروفة باسم «المياه البيضاء»، أو «الكتاركت Cataract»، وأمراض أخرى مثل:

* الشيخوخة المبكرة.
* العمى الجليدى Snow Blindness.

* شيخوخة الجلد.
* ضعف الجهاز المناعى.

ونقص مناعة الجسم، تعنى مقاومة أقل لانتشار الأورام السرطانية. وهذا ما ثبت معمليا فى البحوث الطبية، إذ أن تعرض الجسم لجرعات أكبر من الأشعة فوق البنفسجية، أدت إلى نقص جهاز المناعة فى الجسم.

٤ - نقص المحاصيل الزراعية:

لقد أجريت تجارب معملية على تأثر عدة أنواع من النباتات بالأشعة فوق البنفسجية، لدراسة مدى تأثرها بهذه الأشعة، ويقول علماء النباتات، بأن لدى كل النباتات أنسجة وقائية تجعلها تتأقلم مع كافة المؤثرات الخارجية، لذلك يتباين تأثير الأشعة فوق البنفسجية، على النباتات المختلفة، مع تساوى الجرعات.

وعلى سبيل المثال فإن نبات «فول الصويا» أصبح يعطى غلة، تقل بنسبة ٢٥٪، عند تأثره بجرعة من الجزء (ب) من الأشعة فوق البنفسجية.

ولقد درست تأثير جرعات مختلفة من هذه الأشعة على (٢٠٠) نوع من النباتات، ولقد أظهر القطن والكرنب وبعض البقول حساسية نحو جرعات هذه الأشعة، واتضح أن نموها يقل وتوقف ظهور أو إنبات بادراتها. كما اتضح أيضًا توقف عمليات بناء الأنسجة فى ⅔ النباتات محل التجربة.

وأثبتت التجربة أيضًا، أن حبوب اللقاح قد فشلت من الإنبات، وهذا يعنى أن تسرب الأشعة فوق البنفسجية سيضر بكثير من المحاصيل، أى سيقلل غلتها، وسيلحق الضرر بكثير من الأشجار أيضًا.

ولقد وضح هذا التأثير فعلاً اليوم فى كثير من الدول التى تكسو الغابات رقعة كبيرة منها. إذ ثبت أن نسبة كبيرة من أشجار هذه الغابات. قد ألم بها المرض، وأصبحت أغصانها مريضة بآفات لم تكن معروفة من قبل، ودب الجفاف إلى أغصانها، أو دب النخر فى سيقانها، وتهادى كثير منها ساقطًا إلى الأرض، بعد أن ذبلت أغصانه، وجفت أوراقه. ولقد أظهرت إحصائية ألمانية غربية فى عام ١٩٩٠ أن نسبة (٤٥ - ٥٠٪) على الأقل من أشجار الغابة السوداء، قد ألمت بها الآفات. ويرجع العلماء الأسباب، ليس فقط إلى تزايد الأشعة فوق البنفسجية من ثقوب الأوزون، بل يرجحون أن يكون السبب الأكثر تأثيرًا، هو تزايد ثانى أوكسيد الكربون مختلطًا بعناصر أخرى فى الجو. نتيجة للإسراف الشديد فى حرق الوقود فى السيارات التى تخترق الطرق عبر هذه الغابة.

وإذا ما أمعنا النظر فى هذا اللون من التلوث، فإنه ليس مقصورًا على الأشجار أو المحاصيل الزراعية، بل يمتد أيضًا إلى الأعشاب والزراعات، التى تتغذى عليها الحيوانات. وهذا يعنى أن الضرر سيلحق أيضًا بالثروات الحيوانية.

لذلك تبدو الصورة قاتمة، لأن ثقب الأوزون، لن يكون أثره نقص غلة المحاصيل والإسهام فى نشر المجاعات، بل أيضًا، التأثير على الثروة الحيوانية بنقص مصدر غذائها، بل لقد ثبت أيضًا أن تأثيره على قطعان

الماشية الأليفة، يصيب بعضها - مثل الإنسان - بمرض فى عيونها، هو «التهاب الملتحمة»، المعروف باسم «العين الحمراء» «Pink Eye».

٥ - التأثير على الثروة السمكية:

ولقد وجد أيضًا أن تدفق قدر كبير من الأشعة فوق البنفسجية، يقلل من الطحالب والنباتات ذات الخلية الواحدة المعروف بأسماء «البلانكتون، والبروتوزا Protozoans»، والتى تتغذى عليها الأسماك. وأنه يتسبب أيضًا فى هلاك يرقات الأسماك التى تعيش قريبًا من سطح ماء المحيطات والأنهار.

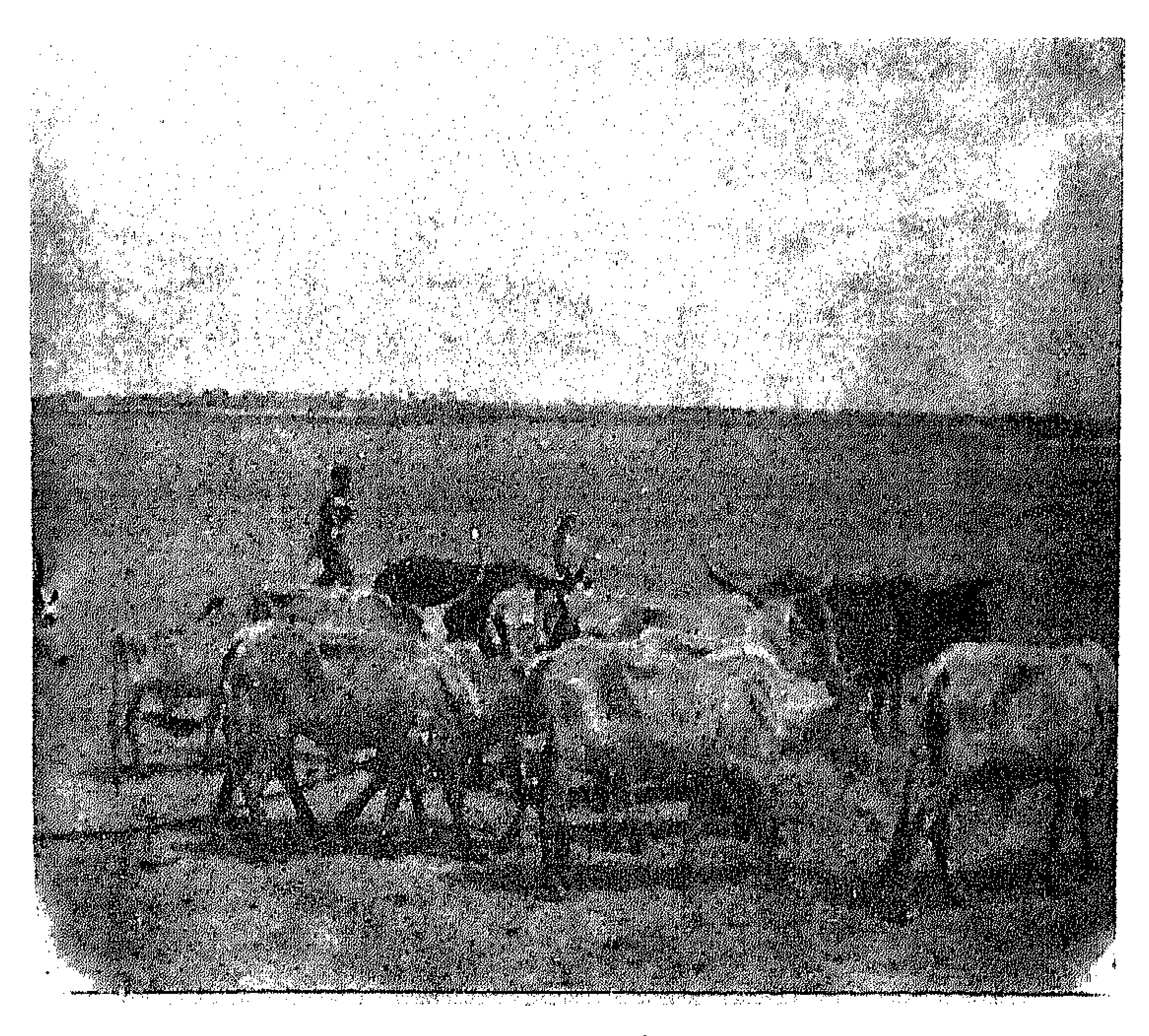
٦ - أضرار اقتصادية:

إن تدفق الأشعة فوق البنفسجية صوب الأرض، يتسبب فى اختزال بعض الألوان وتحويلها إلى ألوان أخرى، وكذلك فإنه يحول لون الزجاج الصافى، ويجعله مائلاً إلى الاصفرار.

وتتفاعل هذه الأشعة مع بعض أنواع الطلاء، مثل طلاء السيارات، ففضلاً عن أنها تغير ألوانها، فإنها تتفاعل معها وتحولها من سطوح ملساء إلى سطوح محببة نتيجة تقشير أجزاء منها.

٧ - تغير المناخ:

إن زيادة الأوزون فى طبقات التروبوسفير نتيجة لعامل التلوث ونقصه فى طبقة الاستراتوسفير، نتيجة الزيادة فى الأشعة فوق البنفسجية، تحدث بلا شك خللاً فى التوازن فى الغلاف الجوى. وتجعل هناك تغيرًا فى



شكل (٢٦) أثر الجفاف على الحيوانات

متوسطات درجات الحرارة فى طبقات الغلاف الجوى، وهذا بدوره له تأثير على دورة الفصول وما يصاحب كل فصل من مناخ، تعودت عليه البشرية عبر عصور التاريخ السابقة، عندما كان هذا التوازن مستقرا ومتجددًا بنفس القدر كل عام. وهذا ما يجعلنا، نشعر اليوم بحلول صيف مبكر، أو خريف متأخر، أو شتاء يسود فيه برد قارس، أكثر مما تعود عليه الناس. أو حلول ظواهر جوية «خاصة» فى غير موعدها. مثل موعد



شكل (٢٧) الجفاف فى أبشع صوره

حلول «الخماسين» فى مصر مبكرة، وكذلك «التوز» فى الكويت، والسعودية، أو «الهبوب» فى السودان.

ونظرًا لارتباط ظاهرة تغير المناخ ليس فقط بنقص الأوزون بل أيضًا بعامل آخر أكثر فاعلية، وهو تزايد ثانى أوكسيد الكربون فى الجو، فإن ذلك سيكون موضوع باب آخر.

الباب السادس

البيوت الزجاجية

إن الحياة على سطح الأرض، مدينة إلى وجود الماء الذى قال الله تعالى عنه فى القرآن الكريم:

﴿وجعلنا من الماء كل شىء حَىّ﴾

ولكن الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية، ملىء بغازات مختلفة، يلعب الدور الأساسى فيها، ثلاثة غازات هى: الأوكسجين، وثانى أوكسيد الكربون، والأوزون.

وإذا كان التلوث الذى شمل علينا حياتنا قد أتلف من الأوزون القدر الكبير، وجعل الأشعة فوق البنفسجية تنفذ إلى الأرض، لتحدث فيها خللاً لم تعهده من قبل، فإن التلوث أيضًا له أثره بالنسبة لثانى أوكسيد الكربون فى الغلاف الجوى. إن العوامل البيئية التى يلعب نقص الأوزون دورًا فى تغييرها، وضح أن ضمنها تغير متوسط درجة الحرارة فى الغلاف الجوى. ولكن ليس الأوزون وحده الذى يحدث هذا التغيير، بل إن غاز

ثانى أوكسيد الكربون أيضًا له دور أكبر وأشد أثرًا، هو وغاز آخر هو غاز «الميثان». بل إنهما يعتبران سببًا فى كوارث بيئية منتظرة فى السنوات القادمة.

ولذلك شئنا أن نفرد هذا الباب لهذه العوامل المؤثرة على مناخ الأرض، والتى ترتبط ارتباطًا قويًا بظاهرة ارتفاع درجة الحرارة على الأرض. لكى نفصلها عن قضية الأوزون، منعًا للخلط بين المؤثرات.

ذلك أن قضية غاز ثانى أوكسيد الكربون، تقوم على احتمالات وافتراضات وقياسات، لم تصعد إلى مستوى التأكيد بعد، من حيث تأثيرها على مناخ الأرض. وأن إحكام دراسة الموضوعات المتعلقة بالطقس والمناخ حول الكرة الأرضية كلها، وفى طبقات الغلاف الجوى، تقوم على عوامل متشابكة، وليست بالبساطة التى يظنها البعض. وفضلًا عن ذلك فإن إمكانات القياس غير متوفرة حاليا، ويصعب توفير الأجهزة والمعدات والوسائل اللازمة لها، خاصة وأن القياسات التى تنبنى عليها الدراسات الحالية، تعتبر قاصرة، لأنها تتم فى المناطق المأهولة، بينما أكثر من $\frac{٢}{٣}$ سطح الكرة الأرضية يكسوها ماء البحر والمحيطات، وجزء كبير من اليابسة، تكسوه صحراوات قاحلة، أو غابات غير مأهولة، وهذه المناطق يصعب أن تخضع للقياس.

لذلك يلجأ العلماء إلى أسلوب النماذج الرياضية على الحواسب الاليكترونية، لوضع مدخلات تقوم على الافتراضات، بغية الحصول على نتائج مازالت حتى الآن غير مؤكدة، لكنها أقرب ما تكون إلى الاتجاه والمدى الصحيح.

حرق الوقود:

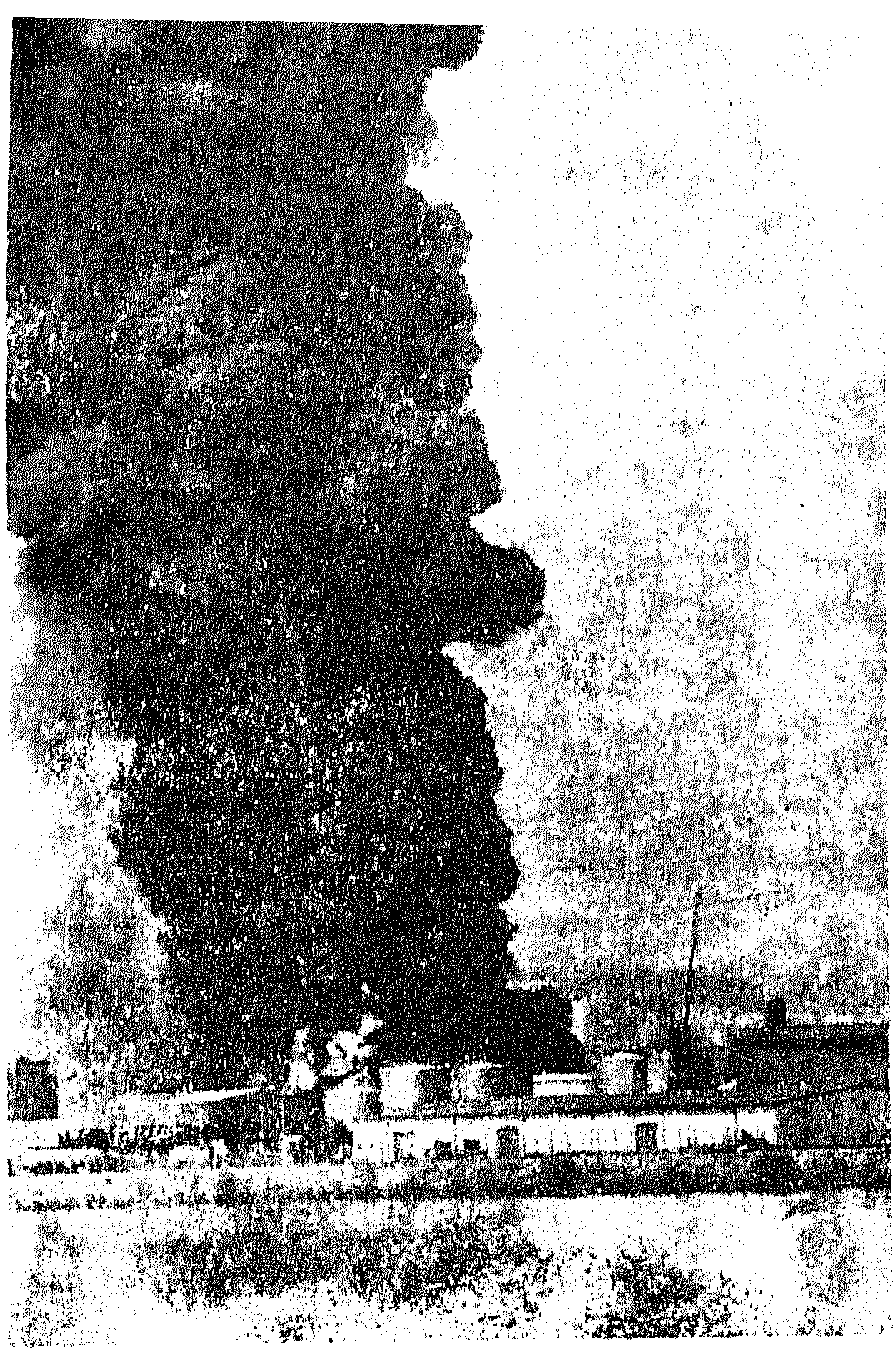
مع بداية الثورة الصناعية، واستخدام الفحم كمصدر للوقود، ازدادت نسبة غاز ثانى أوكسيد الكربون فى الجو، فقد وصلت إلى (٣٦٠) جزءًا فى المليون جزء.

وكانت قبل الثورة الصناعية (٢٨٠) جزءًا فقط فى المليون جزء من الهواء.

وبعد ازدهار الثورة الصناعية، وتقدم التكنولوجيا، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، بدأ الإسراف فى حرق البترول، وتزايدت أعداد السيارات، والطائرات، والمصانع، وأصبح جو الأرض معبئًا بنتائج هذا الإسراف.

ولقد أوضحت الإحصائيات أنه حتى عام ١٩٣٤، زاد متوسط درجة الحرارة فى نصف الكرة الشمالى، حيث يغلب وجود مراكز الثورة الصناعية، بمقدار نصف درجة مئوية. وأوضحت هذه الإحصائيات أيضا أنه بين عامى ١٩٣٤، ١٩٧٧ وصلت هذه الزيادة إلى ٢,٥ درجة مئوية. هذا الأمر لا يمكن تجاهله، أو الاستخفاف بنتائجه، أو النظر إليه باستهانة على أنه ظاهرة طبيعية، لأن الفرق فى درجة الحرارة بين ما كانت عليه الأرض فى «العصر الجليدى» وأقصى ما ارتفعت إليه درجة الحرارة على الأرض بعد هذا العصر، لا تزيد عن (٥)° خمس درجات مئوية.

لذلك فإن العبث السائد على سطح الكرة الأرضية، والمتمثل فى الإسراف فى حرق الوقود، وتصاعد مزيد من ثانى أوكسيد الكربون إلى



شكل (٢٨) دخان المصانع يناطح السماء

الغلاف الجوى، هو الاتجاه الغالب الذى تشير إليه أصابع الاتهام حاليا.

وعلى المدى الطويل فإن التغييرات المنتظرة نتيجة لهذا العبث، ستكون مصيرية فى أغلب قارات العالم. إذ قد تتحول المناطق شبه الصحراوية إلى صحارى قاحلة بعد أن يضربها الجفاف. كما قد تغرق بلاد وبلدان وتغمرها المياه، أو تجرفها الفيضانات، وتختفى من الوجود.

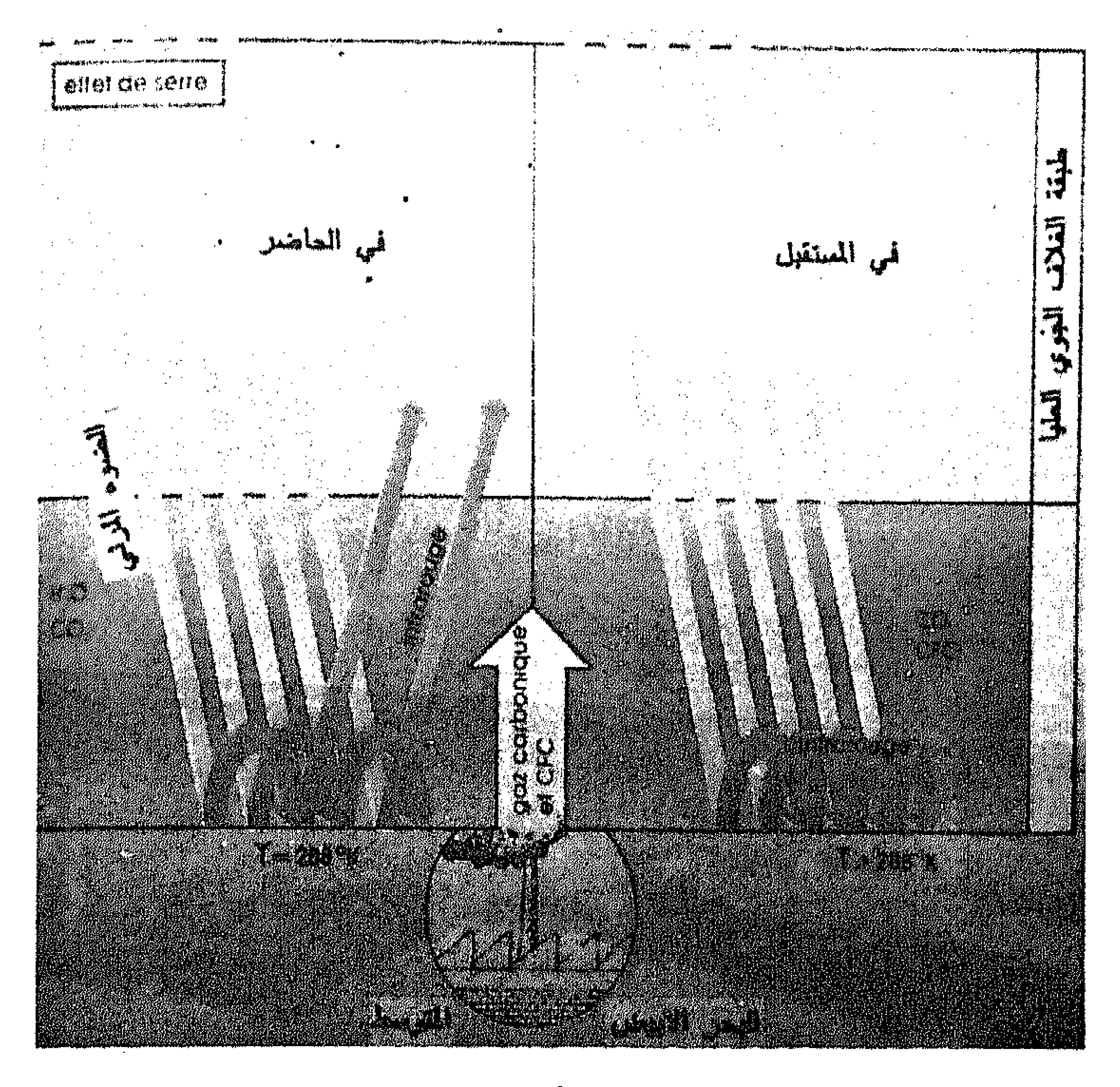
وعندئذ، يصعب على العلماء، إذا كانوا يتوخون الإنصاف، القول بأن هذه ظواهر طبيعية، لأن الطبيعة قد خلق الله فيها كل العوامل متوازنة. أما هذه الظواهر الطارئة، فهى نتاج عبث الإنسان بالطبيعة، وإسرافه الذى أدخل الخلل على هذا التوازن.

ظاهرة البيوت الزجاجية:

دلت الإحصائيات التى تحتفظ بها هيئات الأرصاد الجوية فى كثير من الدول المتقدمة، على أن الفترة التى بدأت منذ عام ١٩٨٠ شهدت أعلى معدلات لارتفاع درجات الحرارة فى مختلف أرجاء الكرة الأرضية، مقارنة بدرجات الحرارة فى السنوات السابقة، وخاصة خلال القرن الماضى.

ويعتقد أن هذا التغيير سببه الأساسى، هو حدوث تغييرات كيماوية فى الغلاف الجوى للأرض، نتيجة نشاطات بشرية متزايدة، أدت إلى ارتفاع درجة الحرارة عن معدلاتها المتوسطة بمقدار يتراوح بين (١)° م، (٢)° م. والعامل الأول فى هذه الزيادة، هو ازدياد نسبة ثانى أوكسيد الكربون فى الجو.

وقد أطلق العلماء لفظًا مجازيًا على هذه الظاهرة هو اسم «التأثير



شكل (٢٩) تأثير ثانى أوكسيد الكربون فى الجو

الصوبى» أو «ظاهرة البيوت الزجاجيـة» «Green House Effect». ومـرجع هـذه التسمية إلى أن الحـرارة المكتسبة بـواسطة الأرض من الشمس طوال النهار، تشع إلى الجو فى فترة الليل مرة أخرى منعكسة إلى أعـلى. غير أن وجـود غلالـة ثانى أكيـد الكربـون المتزايـدة فى طبقة

التروبوسفير، تعمل كمظلة تقوم بعكسها ثانية إلى الأرض، إذ أنها لا تستطيع النفاذ إلى الطبقات العليا للجو، وهذا يشبه تمامًا ما يحدث فى «الصوبة الزراعية» أو «البيوت الزجاجية» التى تستخدم للاحتفاظ بالحرارة اللازمة لنمو بعض أنواع النباتات. أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم «الدفيئة». ويتوقع العلماء ازدياد تأثير البيوت الزجاجية خلال السنوات الثلاثين القادمة على الأقل، وارتفاع درجة حرارة جو الأرض أكثر بمقدار قد يصل إلى أربع درجات مئوية، الأمر الذى يمكن أن تكون له نتائج بالغة الضرر.

والسبب الواضح لوجود غلالة ثانى أوكسيد الكربون، هو تزايد حرق الوقود المستخدم فى المصانع، والسيارات. غير أن هناك سببًا آخر لا يمكن تجاهله، وهو حرق الغابات عن عمد فى بعض الدول، كمثل ما يحدث فى منطقة غابات الأمازون فى البرازيل، التى كانت يومًا ما تغطى مساحة قدرها (٣) مليون متر مربع. إن الهدف الشرير لحرق الغابات هو تنظيف أراضى لإقامة المساكن فى المناطق المتاخمة للمدن والقرى، وتصلح للزراعة المنظمة. وهو أمر شائع فى كثير من غابات أفريقيا وأندونيسيا والفلبين أيضًا. مثل هذا العمل المدمر، لا يستمر أيامًا بل يمتد شهورًا، لأن إطفاء حرائق الغابات أمر يصعب تحقيقه. فهو عمليًا يظل مستمرًا، دون تدخل بشرى فعال، حتى تهدأ العواصف، أو تسقط الأمطار، أو تخمد النيران ذاتيًا. والضرر الذى يلحق بالبيئة من جراء هذه الحرائق، ليس مقصورًا على قذف آلاف الأطنان من غاز ثانى أوكسيد الكربون إلى الجو، بل يمتد أيضًا إلى كون هذه الغازات عالية الحرارة. وبالتالى فهى ترفع درجة



شكل (٣٠) ارتفاع درجة الحرارة على الأرض

الحرارة فى الغلاف الجوى بقدر ليس ضئيلاً. وفضلاً عن ذلك فإنها تقلص «الغطاء الأخضر» للأرض، الذى هو ينبوع الرحمة للبشر، والذى يعطيها إكسير الحياة وهو غاز الأوكسجين كما أوضحنا من قبل. وهذا ما دعا وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» إلى تصوير مناطق الغابات المشتعلة فى الأمازون، بواسطة مكوك الفضاء فى بعض رحلاته، لتحديد المساحات التى احترقت، ومتابعة تقدمها.

وتقدر بعض الجهات العلمية، أن نسبة زيادة ثانى أوكسيد الكربون فى الجو خلال القرن العشرين، بلغت ٢٥٪ عما كانت عليه فى القرن التاسع عشر.

وقد بنى هذا التقدير بعد تحليل عينات من الهواء كانت محصورة داخل بعض الكهوف الجليدية منذ القرن الماضى. وقد دلت هذه التحليلات على أن هذه الزيادة، ارتفعت من (٢٨٠) جزءًا فى المليون جزء من الهواء من القرن الماضى، إلى (٣٦٠) جزءًا حاليا. وإذا استمر المعدل كما هو، فإن المتوقع أن تصل النسبة إلى (٣٧٥) فى نهاية القرن العشرين.

وغاز الميثان أيضًا:

أشارت بعض التقارير الحديثة إلى أن تأثير غاز ثانى أوكسيد الكربون فى رفع درجة الحرارة للجو، ليس هو العامل الوحيد، بل يوجد غاز آخر أكبر أثرًا هو غاز «الميثان» «Methane»، وأن هذا الأثر أشد (٢٥) مرة من غاز ثانى أوكسيد الكربون.

وغاز الميثان يشكل الجزء الأكبر من الغازات التى تتصاعد من آبار

البترول، فهو يتسرب إلى الجو من حقول النفط، وحقول الغاز الطبيعي، ومن عمليات استخراج الفحم، أو تصنيعه.

كما أن نوعيات كثيرة من البكتريا تقوم بتوليده عند تفاعلها مع بعض المواد العضوية كالأسمدة. أو عندما تغمر بعض المزروعات تحت المياه مثلما يحدث فى حقول الأرز ومفارخ الدواجن، أو بعض مناطق التقطير. ويتصاعد غاز الميثان من الأسمدة العضوية التى يحرص الفلاحون على اقتنائها، فى كثير من دول العالم الثالث، وبعض الدول الأوروبية، ويطلقون عليها اسم «الكومبوست»، أو فى ريف مصر باسم «السباخ البلدى». باعتبارها مصدرًا هامًا لتسميد المشروعات، وإكساب التربة قدرًا كبيرًا من الخصوبة. وفى أستراليا يطلق على أكوام هذا السماد العضوى اسم «ترميت Termite». والكوم الواحد منه يستطيع أن يطلق ٥ لترات من غاز الميثان فى الدقيقة الواحدة.

ولقد أثبتت دراسات أجريت فى جامعة كاليفورنيا أن نسبة غاز الميثان، قد تضاعفت فى الغلاف الجوى خلال القرنين الماضيين. وأجرى وفد من العلماء السوفييت والأمريكيين دراسات على الثلوج المستخرجة من القارة القطبية الجنوبية، وثبت لهم أن نسبة غاز الميثان، قد تضاعفت فى الجو خلال المائة وستين عامًا الماضية.

وما زالت الأسباب مجهولة حتى الآن، لماذا يحتفظ الغلاف الجوى بكميات ضخمة من هذا الغاز، تجعل إحداثه لتأثير البيت الزجاجى أكثر قدرة (٢٥) مرة من غاز ثانى أوكسيد الكربون.

الاحتمالات المتوقعة:

الاحتمالات المتوقعة لارتفاع درجة حرارة الجو، تشير كلها إلى عواقب وخيمة. ولو شئنا أن نعددها، فإنها كلها تندرج تحت الرؤية المستقبلية للعالم، من وجهة نظر العلماء. وهى إن كانت صورة قاتمة لمستقبل لا يسر، فإن هذا لا يمنع العلماء من دق ناقوس الخطر.

وإن كان بعض العلماء يرى أن البعض يلجأ إلى أسلوب التضخيم والتهويل واختلاق آثار مرعبة ومثيرة، بعيدًا عن الأمانة العلمية، وقد يدخل ضمن ذلك بعض الأهداف السياسية.. وبعض هذه الاحتمالات هى:

* إن الأثر المباشر لارتفاع درجة حرارة الجو، هو أن يرتفع منسوب مياه البحار والمحيطات لزيادة حجمها. وهناك «نماذج رياضية» تشير إلى أن هذا الارتفاع يمكن أن يبلغ (٣٠) ثلاثين سنتميترًا خلال الأربعين سنة القادمة. ولا يمكن تجاهل أن يكون أحد أسباب هذا الارتفاع هو ذوبان ثلوج قبب الجليد فى المنطقتين القطبيتين وانسياب مياهها إلى المحيطات. وعواقب مثل هذا الارتفاع يمكن تصور خطورتها البالغة بالنسبة لكثير من المناطق التى يقل مستواها عن مستوى سطح البحر مثل دولة هولندا، التى تنفق ملايين الجنيهات كل سنة لمنع البحر من الطغيان على أراضيها وسواحلها.

ومثل دولة بنجلاديش، وجزر المالديف، وولاية كاليفورنيا فى الولايات المتحدة الأمريكية. ومثل دلتا نهر النيل. إن الثابت حاليًا، أن مستوى مياه

البحر يرتفع ملليمترًا واحدًا كل عام، أى أنه يرتفع ١٠ سنتيمترات كل قرن. ولا شك أن الارتفاع المضطرد فى درجة الحرارة سيزيد عن هذا المعدل، وهذا ما نشاهد آثاره فى مصر حاليًا «فالنحر» قد أكل شواطئ مصيف رشيد، خلال الأعوام الأخيرة. وهذا يحدث أيضًا فى مناطق رأس البر، والبرلس وإدكو.

إن تزايد هذا «النحر» يعنى تهجير آلاف السكان، وخسارة آلاف الأفدنة، وضياع ملايين الجنيهات فى الإنشاءات القديمة والزراعات القائمة. وضرورة إنفاق ملايين أخرى فى إقامة الحواجز والسدود.

ولقد أحصى بعض العلماء المناطق التى يمكن أن تتأثر بهذا الارتفاع فى مستوى المياه، فوجد أنه (٧٠٠) مدينة ساحلية على وجه التقريب. ولقد قدرت الولايات المتحدة الأمريكية أن إنقاذ شواطئها سيلزمه إنفاق (٣٠٠) مليار دولار على الأقل.

كما أن الأثر الثانى لارتفاع درجة الحرارة هو تغير مناخ الأرض. ولقد سبق للبشرية أن شهدت تغيرات مناخية سابقة فى حقب مختلفة، حدثت بسببها تغيرات مختلفة فى معالم الحضارة. وكان السبب الأساسى فى هذه التغيرات، هو اختلاف درجة الحرارة. فقد غطى الجليد كل أوروبا فى العصور الجليدية ثم تراجع عنها. وكانت مناطق شمال أفريقيا ذات أمطار غزيرة، ثم تحولت إلى صحراء. وهذه التحولات التى شهدتها الحياة، نتجت عن تغيرات فى درجات الحرارة كانت تقل عن أربع درجات.

فما بالنا والمتوقع أن يزيد الارتفاع فى درجة حرارة جو الأرض، نتيجة تزايد النشاطات، التى تلوث الغلاف الجوى، على (٤)°، فى القرن القادم.



شكل (٣١) التصحـــر

والذى لاشك فيه أن ارتفاع درجة الحرارة، سيتبعه ازدياد البخر من مياه البحار والمحيطات، وهذا بدوره سيؤدى إلى زيادة الأمطار فى بعض المناطق وقلتها فى مناطق أخرى. ومعنى ذلك أن حزام المطر الموجود حاليًا سيتحرك، وتصبح بعض المناطق الدائمة الخضرة شبه قاحلة أو قاحلة. وعلى الجانب الآخر، ستتلقى مناطق أخرى مجدبة قدرًا من الأمطار. أى بمعنى آخر إن التوزيع الجغرافى للمحاصيل سيصيبه تغيير كبير.

وقد يأتى يوم فى أوائل القرن القادم نجد فيه إنجلترا الباردة الطقس حاليًا، قد اعتدل جوها، وأصبح مناخها كمثل مناخ دول البحر الأبيض المتوسط.

ويتنبؤ العلماء بأنه إذا لم تتخذ إجراءات فعالة، فإن الصحراء الأفريقية الكبرى، سوف تمتد لتشمل أجزاء واسعة من أفريقيا. وأن الدول التى تعتمد فى غذائها على الأمطار الكثيفة لإنتاج المحاصيل سوف تعانى من الجفاف، وستزداد مشكلة «التصحر»، أى زحف رمال الصحراء لتأكل بعض المدن والقرى المتاخمة للصحراوات.

وبمعنى صريح، أو بقول أدق، فإن هناك مزيدًا من المجاعات ستقبل عليها البشرية. وعلى سبيل المثال، فإنه قد تم عمل «نموذج رياضى» على الحاسب الأليكترونى لظروف دولة إفريقية هى أوغندا، التى تعيش على البن. فتبين أنه لو زادت درجة الحرارة بمعدل درجتين، فإن ذلك سيؤدى إلى القضاء على البن الأوغندى كلية.

وتغير المناخ، يعنى تغير طول فترة الشتاء وطول فترة الصيف، وهذا بدوره يعنى تغير إنتاج المحاصيل.

البَابُ السَابعُ

مؤتمرات واتفاقيات

سيناريو تطور الأحداث بالنسبة لثقب الأوزون، بدأ عام١٩٧٤، بمقال علمى نشر فى الولايات المتحدة، ثم تحقق وجود الثقب فوق المنطقة القطبية الجنوبية عام١٩٧٩. لكنه منذ بدأ عقد الثمانينات أصبح الثقب مشكلة عالمية. فالأخطار التى نبه إليها العلماء، سقطت أمامها الحدود الجغرافية للدول، فهى لا يمكن أن تقتصر على دولة دون أخرى، ولا يمكن أن تكون محدودة، بل هى تشمل البيئة العالمية دون تفرقة. ولذلك يستوى أمام مخاطرها الفاعل والمفعول به.

من أجل هذا أثارت هذه المخاطر التى كانت متوقعة فى أوائل الثمانينات، المهتمين بشئون البيئة فى الدول المتقدمة. وبادرت بعض الدول المتقدمة علميا إلى اتخاذ حلول إيجابية، وذلك بوضع خطوات تدريجية للحد من إنتاج بعض الكيماويات المؤثرة على طبقة الأوزون. والحقيقة التى يجب إبرازها - دون تعصب أو تحيز -، هو أن الولايات

المتحدة كانت أول دولة اتخذت هذه الخطوة، قبل أن تتحرك المحافل الدولية، لإبرام أى اتفاقية، أو توقيع أى معاهدة، رغم أنها أكبر دولة منتجة لهذه الكيماويات.

ففى عام ١٩٧٨، حظرت الولايات المتحدة الأمريكية استخدام «الكلوفلوروكربون» فى علب الرش المختلفة الأنواع. وهذا التاريخ سابق لكل الاتفاقيات، ويعقب بدء دق ناقوس الخطر بأربع سنوات فقط.

وقد حذت حذوها أربع دول هى كندا، وفنلندا، والنرويج والسويد. ولكن علماءها طلبوا مزيدًا من الأدلة العلمية على تأثير هذه المادة على غاز الأوزون، إذ لم تكن التجارب والأدلة، قد نضجت بعد عن هذا الثقب.

ولقد كانت البحوث العلمية، حتى ذلك الحين فى أوائل الثمانينات، غير مؤكدة ويثار حولها كثيرٌ من الشكوك. ولم تكن الأخطار المتوقعة ترقى فى نظر أغلب الدول إلى درجة اليقين، نظرًا لافتقاد الدليل العلمى القاطع. ولذلك كانت الحلول، تتخذ من قبل قليل من الدول بشكل فردى، وكان التنسيق وتبادل المعلومات ما زال محدودًا.

لكن بعض الهيئات الدولية، كانت تتحرك لخلق وعى علمى عالمى للتنبيه إلى الأخطار. حتى أفلح «برنامج الأمم المتحدة لحماية البيئة»، فى عقد أول مؤتمر عالمى للحفاظ على طبقة الأوزون، فى فيينا عام ١٩٨٥.

معاهدة فيينا (١٩٨٥):

لقد تم توقيع «معاهدة فيينا» فى مارس ١٩٨٥، وكانت بمثابة إقرار

عـالمى لاتخاذ الخـطوات الفعالـة للحفاظ عـلى طبقة الأوزون، ونصت المعاهدة على قيام الدول الموقعة على المعاهدة بخفض استهلاك المواد التى تمثل خطرًا عـلى غاز الأوزون فى الجـو إلى النصف، قبل نهايـة القرن العشرين، وعلى الأخص مادة «الكلوروفلوروكربون».

بروتوكول مونتريال (١٩٨٧):

وفى سبتمبر ١٩٨٧، وقعت الدول الصناعية على «بروتوكول» يقضى بتطبيق «معاهدة فيينا ١٩٨٥»، ووضعها موضع التنفيذ. وكـان ذلك فى اجتماع حضره ممثلو (٤٠) دولة فى مونتريال بكندا فى النصف الثانى من سبتمـبر ١٩٨٧. ولحسن الحظ فـإن الـدول التى وقعت عـلى هـذا البروتوكول، كانت تضم ٧٧٪ من المصانع المنتجة للمواد المهلكة لغاز الأوزون. ولذلك كان هذا بمثابة تحرك عالمى للاعتراف بخطأ قديم، تأخر الاتفاق على درء أخطاره ما لا يقل عن عشر سنوات على الأقل.

ولأن بعض الدول الصناعية الكبرى، كانت لها تحفظات، فقد نص فى البروتوكول على أن يبدأ سريانه اعتبارًا من يناير عام ١٩٨٩. وأن تقوم (٣١) دولة من الدول التى وقعت عليه بالعودة بإنتاجها، وخفضه إلى القدر الـذى كانت تصنعـه عام ١٩٨٦، بعـد ستة أشهـر من بـدء سـريـان البروتوكول. أى بعدم المضى قدمًا فى زيادة ما تنتجه، بل خفضه.

كما ورد أيضًا نص آخر على أن تقلل كل الدول إنتاجها إلى الثلث ($\frac{1}{3}$) قبل نهاية القرن العشرين.

تجربة لتصنيع الأوزون ١٩٨٧:

ماكاد التحرك الدولى الإيجابى «بروتوكول مونتريال» يعلن، حتى تولد لدى بعض رجال الصناعة الأمريكيين تفكير، لماذا لا تُصنع الأوزون؟، ويبث فى الجو بدلاً من أن يطالبهم المجتمع الدولى بخفض إنتاجهم لبعض المواد الكيماوية، ويسبب لهم خسائر مالية ضخمة.

ففى شهر ديسمبر ١٩٨٧ - أى بعد توقيع البروتوكول بشهرين فقط، وفى مدينة نيويورك اجتمع ممثلو ثلاث عشرة مجموعة لأكبر الشركات الكيماوية المنتجة لغاز الكلوروفلوروكربون، لغرض وضع الخطط الكفيلة بتنفيذ البروتوكول. وفى نفس الوقت البحث عن بدائل، وضمنها محاولة تصنيع الأوزون نفسه بطرق مستحدثة، وتعويض ما يفقد منه فى الجو.

والواضح أن الفكرة كانت خيالية، لأن الأوزون غاز غير مستقر، وليس عنصراً مستقلا بذاته. بل هو مخلق نتيجة ظروف طبيعية، وهذا ما تشير إليه الدلائل التى استقرت، ولذلك فإن هذه الفكرة لم تظهر إلى الوجود حتى الآن.

مؤتمر لندن (مارس ١٩٨٩):

من أجل الإعداد الجيد، «للإعلان العالمى لحماية البيئة» الذى كان قد تحدد موعده يوم ١٢ مارس ١٩٨٩، اجتمع قبل ذلك ببضعة أيام فى العاصمة البريطية «لندن»، مندوبو الدول التى ستشارك فى توقيع إعلان

لاهاى، تحت اسم «المؤتمر التنفيذى للحفاظ على طبقة الأوزون». وكان ذلك بين ٦ إلى ٨ مارس ١٩٨٩.

وقد اشترك فى مؤتمر لندن (١٢٤) دولة، مثلها (٨٥) وزيرًا، وافتتح أعماله الأمير «تشارلز» ولى العهد البريطانى، وورد فى كلمته تعبير بليغ، هو:

«إن الحفاظ على طبقة الأوزون، لم تعد مشكلة السياسيين فقط، ولكنها مشكلة رجل الشارع العادى، لأنه أول من سيقاسى إذا ما تآكلت طبقة الأوزون.

صحيح أن أحدًا لن يطلب الآن إلى شعبه أن يتوقف عن استخدام الثلاجات، أو أجهزة التكييف. ولكن ذلك يمكن أن يحدث بالفعل إذا لم يتم، وعلى الفور تخفيض استخدام غاز «الكلوروفلوروكربون» واللجوء إلى غازات أخرى، مهما كانت التكاليف. إن على دول العالم الغنية اليوم أن تدفع فاتورة حساب استهلاكها لهذه الغازات خلال السنوات الماضية».

إعلان لاهاى (مارس ١٩٨٩):

شهدت العاصمة الهولندية لاهاى أكبر تجمع عالمى لحماية البيئة فى شهر مارس ١٩٨٩. فقد حضره (٢٤) رئيس دولة وحكومة لتوقيع «الإعلان العالمى لحماية البيئة». وكان منهم الرئيس المصرى «محمد حسنى مبارك» ومنهم بخلاف السيد الرئيس، الملكة بياتريس ملكة هولندا، والملك حسين ملك الأردن، وزين العابدين بن على رئيس تونس،

وفرانسوا ميتران رئيس فرنسا، والمستشار الألمانى «هليموت كول»، ورئيس وزراء أسبانيا، ورئيسة وزراء النرويج، ورئيس وزراء السويد، ورئيس وزراء ساحل العاج، ورئيس منظمة اليونسكو، ورئيس وزراء السوق الأوروبية المشتركة، والدكتور مصطفى كمال طلبة (المصرى) مدير برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة.

وقد وقع الرؤساء إعلان لاهاى التالى:

نص إعلان لاهاى «لحماية البيئة» وطبقة «الأوزون»:

١ - إن كل الحقوق التى تنبع من حق الحياة، وهو الحق الذى تكفله المسئولية فى كافة بلدان العالم.

٢ - واليوم تتحدد أساسيات الحياة فى كوكبنا، بما يتعرض له الغلاف الجوى للأرض من مخاطر عميقة.

٣ - وقد أوردت الدراسات العلمية المسئولية على مدار السنوات القليلة الماضية، وجود وأبعاد المخاطر المأخوذة فى الاعتبار، والتى تتصل على وجه الخصوص بتسخين الغلاف الجوى وتدهور طبقة الأوزون.

وقد قاد هذا الأخير - بالفعل - العالم نحو العمل من أجله، متمثلاً فى اتفاقية فيينا لعام ١٩٨٥ لحماية طبقة الأوزون، وبروتوكول مونتريال عام ١٩٨٧. بينما تتم دراسة الغلاف الجوى من خلال مائدة مستديرة، بين حكومية تأسست بواسطة برنامج الأمم المتحدة للبيئة، والمنظمة الدولية للأرصاد، وقد بدأت أعمالها على التو بالإضافة إلى القرار رقم ٤٣/٥٣

لعام ١٩٨٨، الذى وافقت عليه الجمعية العامة للأمم المتحدة من أجل حماية المناخ العالمى.

٤ - وتبعًا للمعرفة العلمية الحالية، فإن تداعيات مثل هذه الظواهر، قد تهدد تمامًا الأنظمة البيئية شأنها فى هذا الشأن معظم الأرصدة الحيوية للجنس البشرى.

٥ - وبما أن المشكلة تشمل بعدها الكوكب كله، فالحلول يجب أن تقترح على مستوى شامل. ونظرًا لطبيعة مثل هذه الأخطار، فإن الإصلاحات المأمولة يجب ألا تتضمن فقط المسئولية الأساسية من حيث صون النظام البيئى، بل أيضًا حق الإنسان فى بيئة صالحة للحياة. وما يستتبع ذلك من مسئولية مجتمع الدول - وجهًا لوجه - بكل أجيالها الحاضرة والقادمة لعمل كل ما يمكن عمله من أجل صون نوعية الغلاف الجوى.

٦ - نكون واضعين فى اعتبارنا - رغم ذلك - أننا إذ نواجه مشكلة ذات حل له صفات ثلاث، وضعًا يدعونا لتعامل جديد، بنمو مبادئ جديدة للقانون الدولى، وبصناعة القرار مع وسائل قسرية غير مسبوقة.

٧ - إن ما سنحتاجه هنا، الطرق التنظيمية، التى تأخذ فى الحسبان مشاركة ومساهمة جهود الدول، التى حققت مستويات مختلفة من التنمية. فمعظم الإفرازات التى تؤثر على الغلاف الجوى تنبع من الأمم الصناعية، وهى فى نفس الوقت الأمم التى لديها الحيز الأكبر للتغيير. كما أنها أيضًا هى التى تملك الموارد الكبرى للتعامل المؤثر مع هذه المشكلة.

٨ - المجتمع الدولى له التزامات خاصة تجاه الدول النامية، خاصة

تلك الأقل نموًا منها، وهى التى سوف تتأثر سلبيا وبشدة من جراء تغيرات الغلاف الجوى، على الرغم من أن مسئولية العديد منهـا فى مثل هـذه العملية هى مسئولية غيرها.

٩ - يجب على المؤسسات الاقتصادية والهيئات التنموية، سواء منها الدولى أو المحلى أن تنسق أنشطتها، كى تحث على إنتاج الطاقة القابلة للاستمرار.

١٠ - التصديق على هذا الإعلان سيكون بمثابة اعتراف بالالتزام نحو:

(أ) مبدأ تأسيس هيئة ضمن إطار الأمم المتحـدة، وفى سياق صـون الغلاف الجوى، تكون مسئولة عن مجابهة المزيد من تسخين الغلاف الجوى.

(ب) مبدأ أن تقوم هذه الهيئة، أو تلتزم بعمل الدراسات الضرورية التى توفر المعلومة الصحيحة حين الطلب، وتؤكد على دوران وتبـادل المعلومات العلمية.

(جـ) مبدأ الوسائل المناسبة أو الجزاءات، من أجل الحث على التنفيذ المؤثر لقرارات الهيئة،من خلال الاحتكام لمحكمة العدل الدولية.

(د) مبدأ التعويض العادل للأقطار، التى يثبت أن القرارات التى تؤخذ لصون الغلاف الجوى، قد خلقت عبئًـا غير عـادى عليها. من منطلق مسئوليتهم العملية، عن تدهور الغلاف الجوى.

وبالنسبة لهذا فإن وسائل نهائية يجب أن تؤسس.

(هـ) التصميم على منح المبادئ المذكورة عاليه، الأرضية المؤثرة والمتماسكة، ليس فقط على المستوى التنظيمى، بل من ناحية التمويل أيضًا، من خلال الوسائل التشريعية الضرورية القابلة للتفاوض.

١١ – رؤساء الدول والحكومات الذين أعربوا عن موافقتهم على هذا الإعلان من خلال توقيعاتهم المذيلة فى نهايته:

● يؤكدون على تصميمهم من أجل تنفيذ المبادئ المحددة به.

● يعلنون نيتهم لمزيد من التقدم فى مبادرتهم، من خلال الأمم المتحدة، وبالتنسيق والتعاون التأمينى مع الهيئات الموجودة والتى تعمل فى كنف الأمم المتحدة.

● يدعون كل دول العالم، للمشاركة فى الوصول إلى الاتفاقيات التى تحدد إطار العمل والوسائل التشريعية الأخرى الضرورية لتأسيس الهيئة، وتنفيذ المبادئ الأخرى المعلنة عاليه، لصون الغلاف الجوى ومنع التغيرات المناخية.

● يلحون على كل دول العالم، للتوقيع والتصديق على الاتفاقيات الخاصة بصون الطبيعة والبيئة.

● يناشدون كل دول العالم، للتصديق على الإعلان الحالى.

النتائج

أسفرت وقائع مؤتمر لندن، وإعلان لاهاى فى مارس ١٩٨٩ عن أن الشعور السائد بين غالبية الدول، هو ضرورة تكثيف الجهود لوقف الخطر الداهم الذى يهدد البشرية.

وتبلورت المشاعر فى الدول النامية، على أن المسئولية الحقيقية تقع على دول العالم الأول المتقدمة والمصنعة للغازات، والمواد المؤثرة على طبقة الأوزون. وأن هذه الدول التى خلقت المشكلة، أصبحت اليوم تطالب الدول النامية بالكف عن استخدام هذه المواد، واللجوء إلى بدائل أخرى. ولكنها أكثر تكلفة، وهذا فيه قدر بين من الظلم.

ولأجل التخفيف من هذا الإحساس، وتوفير مشاعر العدالة لدى كثير من الدول النامية، وتشجيعها على التوقيع على «بروتوكول مونتريال»، فقد تقدمت دول السوق الأوروبية المشتركة، باقتراحات بتقديم مساعدات مالية وفنية، والمعلومات اللازمة للدول النامية، من أجل مساعدتها على المضى فى استخدام بدائل للغازات المؤثرة على طبقة الأوزون.

التخطيط لعام ١٩٩٢:

يجرى الإعداد حاليا لعقد «مؤتمر عالمى للمناخ» فى البرازيل

عام ١٩٩٢، وذلك فى إطار الاحتفال بمرور عشرين عامًا على أول مؤتمر للبيئة سبق أن انعقد فى أستوكهولم عام ١٩٧٢.

مظاهرة لإنقاذ كوكب الأرض (١٩٩٠):

ولقد أثمرت هذه الجهود العالمية، والدولية، فى نمو الوعى لدى الشعوب للحفاظ على البيئة، وقد تبلور هذا الوعى فى المظاهرات الشعبية التى انتظمت فى عواصم ومدن ما لا يقل عن (١٣٥) دولة فى يوم ٢٢ أبريل ١٩٩٠، تحت شعار: «يوم الأرض». وأتى ذلك احتفالاً بالذكرى العشرين ليوم كوكب الأرض، الذى كان قد احتفل به لأول مرة عام ١٩٧٠.

وقد أتت المسيرات الشعبية والمظاهرات والمحاضرات والاحتفالات، تعبيرًا عن زيادة الوعى للحفاظ على البيئة، وإدراك خطورة مشكلة التلوث وتأثيره على سلامة الإنسان. وعلى رأس هذه الموضوعات الوعى بخطورة نضوب طبقة الأوزون، ومخاطر انتشار غاز ثانى أوكسيد الكربون فى الجو.

اتفاق ١٩٩٠:

فى ٢ يوليو ١٩٩٠، اجتمعت فى لندن اللجنة التحضيرية للاجتماع الثانى للدول الموقعة على «بروتوكول مونتريال» وحضرها مندوبو (٨٠) دولة، وقد أقرت (٥٦) دولة منها اتفاقًا تاريخيًا لحماية طبقة الأوزون. كان من أهم قراراته، إنشاء صندوق دولى برأسمال قدره ٢٤٠ مليون دولار لمعاونة الدول النامية على استخدام غازات بديلة لتلك المهلكة لطبقة

الأوزون. وشملت الاتفـاقية أيضًـا حظر تصنيـع عدد كبـير من الموا
الكيماوية اعتبارًا من عام ١٩٩٧ من المـواد المستخدمـة فى صناعـات
البنزين، والتنظيف والايروسولات.

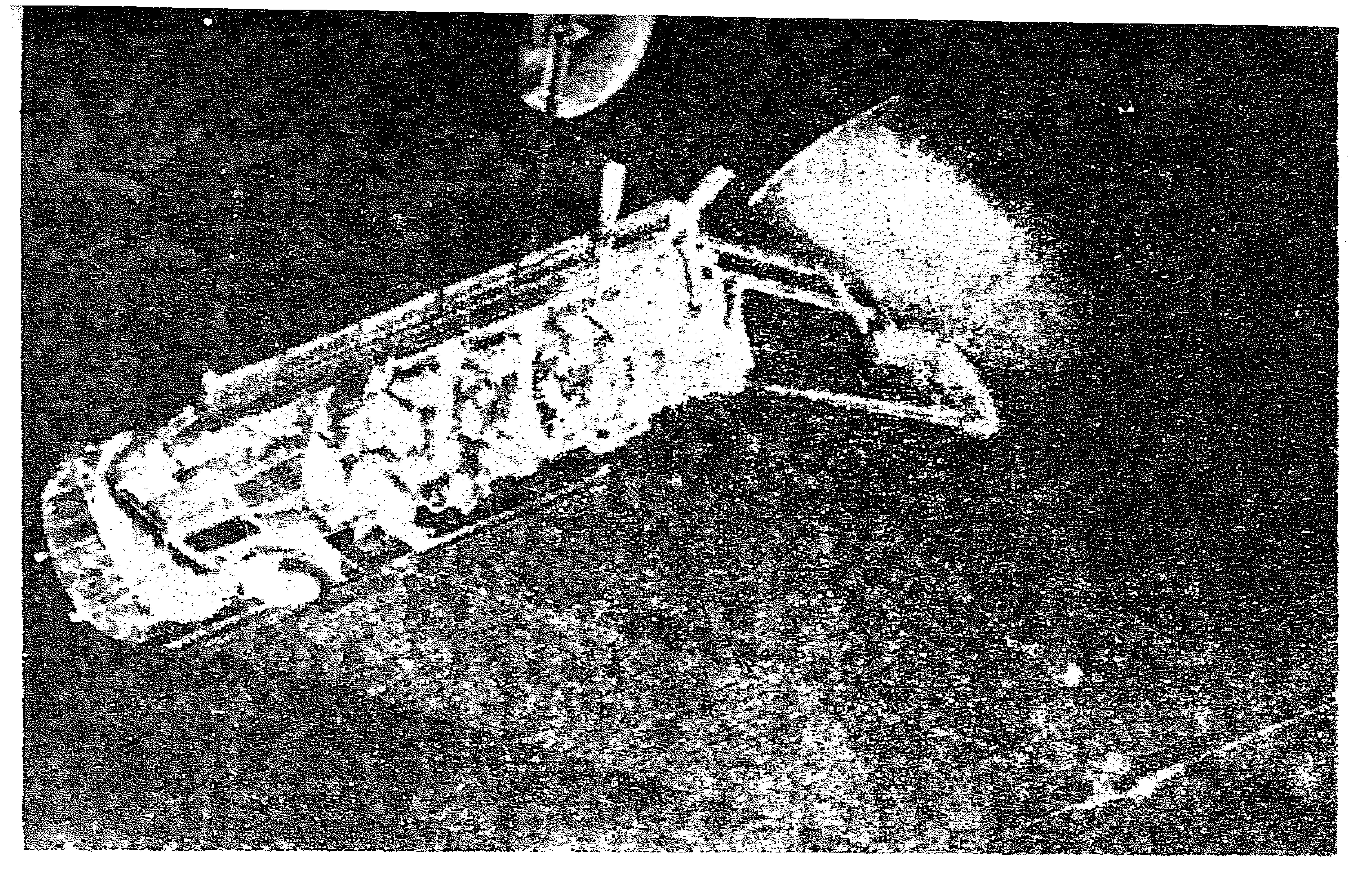
البـدائل:

يرتكز البحث العلمى حاليا، من أجل الحفاظ على طبقة الأوزون، على الأمل فى تصنيع مواد بديلة «للكلوروفلوروكربون» لا يكون لها الأثر المهلك لغاز الأوزون.

ولقد أعلنت مؤسسة «ديبونت» الأمريكية للصناعات الكيماوية، أنها تـوصلت فعلاً إلى مـواد جديـدة، لكى تستعمل فى تنـظيف الشرائح والمنتجات الاليكترونية، وأجهزة التبريد والتكييف بدلاً من «الفريون». وحاليًا ترصد كثـير من الشركـات الكبرى، ميـزانيات كبيـرة للبحث العلمى، من أجل الوصول إلى بدائل. وهناك إشارات إلى الوصول إلى غاز جديد تحت اسم «هيدروكربون»، لكن هذا الأخير اكتشف أن له آثارا أخرى، فهو لا يهلك غاز الأوزون، ولكن يهلك البشر على الأرض، بالتأثير على صحتهم؟.

مشروع لإنقاذ كوكب الأرض:

تبنت وكالة الفضاء الأمريكية مشروعًا بيئيا ضخمًا، منذ عام ١٩٨٧ أطلقت عليه اسم «كوكب الأرض». وعرضته أول رائدة فضاء أمريكية



شكل (٣٢) المنصة الفضائية الأمريكية التى ستطلق عام ١٩٩٦ لدراسة البيئة

«الدكتورة سالى رايد». ويعنى البرنامج بثلاث مشاكل عالمية بيئية هى

* التلوث.
* الانفجار السكانى.
* الإسراف فى استخدام الطاقة.

ويعنينا الحلول المقترحة للتقليل من مخاطر هذه المشاكل وخاصة المشكلة الأولى.

ويفكر العلماء المشتركون فى التخطيط لهذا البرنامج فى إطلاق منصتين فضائيتين تحت اسم (E.O.S)، بدءًا من عام ١٩٩٦ ليستمرا فى الفضاء لمدة عشرين سنة.

والهدف من إطلاق هاتين المنصتين، دقة رصد التقلبات التى تطرأ على سطح الأرض، والتغيرات التى يتعرض لها الغلاف الجوى، وذلك فى إطار تعاون وثيق مع عدد من الأقمار الصناعية.

ولذلك فإن النتائج المعول على التحكم فيها فى البيئة، تبدأ بالحد من حجم التغيرات البيئية، مثل ذوبان الغطاء الجليدى فى المنطقتين القطبيتين ومستوى المياه فى البحيرات الصغيرة، والآثار المدمرة لتلوث الأشجار والنباتات.

وقد يكون عجيبًا التفكير فى التحكم من الفضاء فى ظواهر وآثار بيئية على الأرض، وهذا هو الجديد فى الأمر. لأن دور الأقمار الصناعية، قد يقف عند رصد الظاهرة والتعرف على وجودها ومداها. ولكن دور «المنصة الفضائية» سيمتد إلى استخدام أجهزة وإشعاعات.

وقد خصصت الولايات المتحدة الأمريكية فى عـام ١٩٩٠ ميزانيـة قدرها ٢٤,٢ مليون دولار، لبناء المنصتين، فى إطار ميزانية إجمـالية قـد تتجاوز ٢٠,٠٠٠ مليون دولار.

الباب الثامن

جدل وحوار

الوجه الآخر:

إن الأمانة العلمية تقتضى القول، بأن ما سقناه فى الأبواب السابقة عن الأوزون، وفجوة الأوزون ومسببات نضوبه، وعن ملوثات الجو، وآثار ذلك كله، يعتبر وجهًا واحدًا لمشكلة بيئية أصبحت عالميـة. لكن هناك وجهة نظر أخرى تعترض على ذلك، بل وتنكر وجود فجوة الأوزون من أساسها. ولا أجد غضاضة فى أن أعرض لهذا الوجه الآخر، لأن التعرض للرأى المعارض، بالتمحيص، هى سمة العلم النافع، ولابد أن يكون من صفات العلماء الاستماع لكل رأى بصدر رحب. ثم إعمال الفكر بالنقد البعيد عن الهوى، فليس فى العلم أهواء. بل برهان وقياسات، وتجارب وحوار ومعادلات وإحصائيات، ثم أخيرًا إعمال للمنطق.

لقد سمعنا بالرأى المعارض لمخاطر الأوزون فى مصر أول ما سمعنا

من أستاذنا «الدكتور جمال الدين الفندى»، فى ندوة علمية عامة فى معرض الكتاب الدولى عام ١٩٨٩. والرجل لـه مكانتـه العلمية ولـه تخصصه، ومؤلفاته وأستاذيته، التى لا يستطيع أن يقتحمها عليه أحد. ولقد استمع إليه النـاس، دون اعتراض، لأن المقـام لم يكن يسمح بـوجود المتخصصين. وقد رحبت بقوله من حيث المبدأ، وقد كان لى شرف إدارة الندوة، ولم يكن المقام يسمح بالخوض فى التفاصيل أمام جماهير المستمعين. ثم أتيحت لى الفرصة للاطلاع على آرائه فى بعض المجلات العربية. ثم طلع علينا عالم آخر هو «الدكتور رشدى سعيد» على صفحات الأهرام فى شهر يناير ١٩٩٠، وردد نفس ما ذكره الأستاذ الدكتور/ جمال الفندى مع شيء من التبيان والتوضيح. وأرجع ذلك لأسباب سنفردها فيها بعد.

وأعقب ذلك، أن نشرت الأهرام وعلى صفحتهـا الأولى فى أبريـل ١٩٩٠ رأيًا مماثلًا لعالم فرنسى هو البروفوسير «هارون تازييف» بما يعنى أن مخـاطر ثقب الأوزون أكـذوبة كبـرى، تقف وراءها مـافيا صنـاعة الكيماويات العالمية، والاحتكارات الصناعية، التى تريد أن تتحول ببعض المنتجات الشائع استخدامها حاليًا إلى أخرى أغلى ثمنًا.

هذه هى الآراء المعارضة، لمخاطر الأوزون، والتى تقول بـأن الأمر ضرب من الخداع، على مستوى جماهير العالم.

وقبل أن نتعرض لهذه الآراء، بالنقد تأييدًا أو نفيًا، يلزم أن نخوض فى تفاصيلها، لأن الأمر يجب ألا يعتمد على العموميـات، ومن العبث أن يتجادل العلماء لمجرد الاعتراض على رؤوس الموضوعات.

تفاصيل الاعتراضات:

تتلخص نقاط الاعتراض التى يتبناها المعترضون فى الأمور التالية:

١ - إن ثقب الأوزون الذى ظهر فوق منطقة القطب الجنوبى، ليس أكثر من ظاهرة طبيعية، وهو ليس ثقبًا بالمعنى الحرفى بل «نضوب» أو قلة فى التركيز. وسبب حدوثه هو الظواهر الجوية غير العادية فى هذه المنطقة المتجمدة القارصة البرد. والقول بأن فى الغلاف الجوى طبقة يتركز فيها غاز الأوزون، هراء لأن الأوزون يتوزع فى كل طبقات الغلاف الجوى بنسبة ضئيلة للغاية.

٢ - القول بأن ثقب الأوزون يتسع ليس صحيحًا، وكذلك القول بأنه ثقب دائم، بل هو فجوة «تلتئم فى الشتاء القطبى» ثم تعود نسبة تركيز الأوزون مرة أخرى لتقل بعد عدة شهور. وهذه الظاهرة موجودة منذ وجدت الكرة الأرضية. لكن إمكانيات رصدها لم تكن متاحة من قبل. ولم ينجم عنها أية أضرار منذ خلق الله الأرض حتى الآن.

٣ - يستحيل على الغازات المسببة لتلوث الغلاف الجوى أن تصعد إلى ارتفاعات ٣٠ أو ٤٠ كيلومتر، لانعدام وجود التيارات الهوائية الصاعدة إلى هذا العلو، فى الاستراتوسفير. وأى شىء من الأرض لا يمكن أن يصل إلى حيث يتركز غاز الأوزون، فيما أطلقوا عليه طبقة الأوزون.

٤ - إن ازدياد نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الجو أمر حقيقى، لكثرة المصانع وازدياد أعداد السيارات وحرق الغابات، لكن مياه الأمطار تغسل

الجو فى نصف الكرة الأرضية. ولذلك لا مجال للقول بتغير المناخ على الأرض، لأن له دورات لا نعلم عنها الكثير ذلك أن الإحصائيات الخاصة بذلك، لم تبدأ فى أوروبا إلا منذ (٢٠٠) عام تقريبًا، وفى أفريقيا لم تبدأ إلا منذ (٥٠) عاما وفى مصر فقط. وأنه من باب المغالاة، القول بأن درجة حرارة الجو سترتفع درجة أو اثنتين أو ثلاثة، وهذه كلها ظنون لا إثبات لها.

٥ - من العسير تحديد نسبة ثانى أكسيد الكربون الذى تنفثه عمليات حرق الوقود والغابات فى الجو. والقول بارتفاع درجة حرارة الجو المتوقعة، والتى زين لها تعبير «البيت الزجاجى» مخالفة لذلك تمامًا. فالبشرية مقبلة على عصر جليدى، وليس العكس.

٦ - لقد أقحم بعض العلماء مرض السرطان فى عملية تضخيم أهوال وأخطار ثقب الأوزون، لأن الأوزون ليس وحده الذى يحجب الأشعة فوق البنفسجية عن النفاذ إلى الأرض، بل الأتربة العالقة فى الجو أيضًا تقوم بهذا العمل. والأوزون لا يحجب سوى جزء ضئيل من هذه الأشعة.

٧ - وقضية ثقب الأوزون، ومخاطره استخدمتها مصالح كبرى، لتكون الشغل الشاغل للعاملين فى شئون البيئة. وسرعان ما استغلت الشركات المنتجة لبعض المواد الكيماوية هذا الزعم وأخذت تقرع له الطبول، على مستوى الدعايات العالمية، لأن فترة احتكارها لهذه المواد، أوشكت على الانتهاء. والسر وراء ذلك أن أسعار هذه المواد، وما تدخل فيه من منتجات، أوشكت أن تصبح فى متناول الدول الفقيرة، ولأنها تسعى وراء جنى الأموال الطائلة بشراهة. فلا بأس من اختراع وهم

يوقف تصنيع هذه المواد عام ١٩٩١، لكى تتحول هى إلى مواد أخرى جديدة. ولا شك أن أسعار المنتجات التى تدخل فى صناعتها هذه المواد، ستكون أكثر خمس أو عشر مرات من المواد التى سيوقف استخدامها.

٨ - إن حملة التخويف والتهويل من فجوة الأوزون، وراءها مصالح عالمية وأطماع مالية شريرة، وقد وقع فيها بعض كبار المسئولين فى دول مختلفة. والعائد سيكون ليس مليارات الدولارات بل آلاف المليارات، ولذلك جندت له أبواق زائفة.

تحليل وتعقيب:

المبدأ القائم على احترام الرأى الآخر مبدأ حضارى، ويجب أن لا يفسد للود قضية. والعلماء هم أهل الخشية الذين وصفهم الله بقوله: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

لذلك إذا ما أمعنا النظر فى الآراء المضادة، فإن النظرة يجب أن تكون متجردة وموضوعية.

وهذا ما سأحاول أن أتوخاه فى التعقيب على ما سبق أن أوردته من آراء المعارضين، سالكًا فى ذلك كل إجلال واحترام لهم فى غير ما تعريض. فلكل رأيه وفكره، خاصة وأن منهم من أجله وأحترمه وأدين له، بأستاذيته لى وهو الدكتور «جمال الفندى» أبو رجال الأرصاد الجوية الأكاديميين فى مصر، وأول مصرى حصل على دكتوراه الطبيعة الجوية. وكل المتنبئين الجويين فى مصر والعالم العربى، حصلوا على دراساتهم الجوية فى رحاب الجامعة على يديه.

ولكن لأن القضية عامة، وأصبحت تهم الجماهير قبل أن تهم المتخصصين، فإن الموضوعية العلمية تقتضى التجرد من أى هدف. وقد آليت على نفسى منذ عهد بعيد، أن أبعد عن كل نوازع الميل عند بدء هذا الكتاب، لأن التضخيم والتهويل ليس من ورائه هدف يمكن أن أحققه أو أبغيه. وحسبى أن أقول إنى على يقين أن الكثرة لا تفتننى، وإن الضخامة لا تلهينى عن الجوهر، متأسيًا فى ذلك بقوله تعالى:

﴿قل لا يستوى الخبيث والطيب، ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون﴾ [سورة المائدة - آية ١٠٠]

وحسبى أيضًا أنى كراهب للفكر العلمى، جندت نفسى لأن أجمع كل الحقائق فى وعاء واحد، وأبسطها للناس فى قالب محبب، فلست كالببغاء أردد ما يرددون أو أكتب ما يكتبون، ولكن أتوخى المنطق، وأقرر المعقول وأخضعه لنواميس العلم. يشجعنى على ذلك أنى أقرب إلى الهواة من المحترفين، لأن كتابة الحقيقة العلمية بالنسبة لى غاية وليست وسيلة. لذلك أحسب أن كل قول مرسل دون برهان، نتيجته الطبيعية هو أن يبعد الناس عن الحقيقة. وزعم أن ثقب الأوزون وهم وأكذوبة، قول أقل ما يوصف به أنه قول مرسل، ألقى على عواهنه دون أن يسانده برهان أو دليل.

وكيف للعلماء أن يكفروا بالبراهين والتجارب..؟ وكيف للعلماء أن ينكروا الجهد المضنى والمتعدد الجوانب الذى قامت به البعثات العلمية، التى أضناها البحث تحت ظروف جوية قارصة وقاسية، فى المناطق القطبية؟. وكيف للعلماء أن يصفوا الجهد المخلص والبناء بأنه أكذوبة؟، إن

الأكذوبة يمكن أن تنطلى على فرد واحد، أو على أفراد، لكن أن تنطلى على رهط كبير من العلماء المتخصصين فهذا أمر يصعب تصديقه.

إن أحدهم أو بعضهم يمكن أن يخدع أو يرشى أو يشترى، فكيف بالآخرين؟.. وإن كان الأمر يمكن أن يتأثر به علماء دولة أو بعض دول، فكيف بهؤلاء الذين يحتشدون من دول أخرى؟.

وما بال هذه المؤتمرات التى يحضرها آلاف من المتخصصين، الذين يمثلون مئات الدول، هل يمكن أن تنطلى الأكاذيب على كل هؤلاء جميعًا، ويصبحوا منقادين لرأى كاذب؟. وهل يمكن أن نتناول الأمر بهذه البساطة، وننكر جهد ما يقرب من ستة عشر عامًا، بقول لا يقوم على برهان؟.

إذا كانت وسائل العلم وأجهزته وأساليبه التقليدية، قد أخطأت الطريق، فما بال الصور الفضائية التى تعلو كل البشر، وتصور من ارتفاع مئات الكيلومترات بأدق الأجهزة وأحدث التكنولوجيات، وتظهر أن ثقب الأوزون فوق المنطقة القطبية يتسع عامًا بعد عام.

وما بال الحواسب الاليكترونية، لا تخطئ فى أدق الأمور العلمية، ولا يحلو لها أن تسجل كل الأخطاء. إلا فيما يتعلق بالجو والأوزون وثانى أوكسيد الكربون.

إن الحقائق العلمية لا يمكن أن تلتوى وتتلون، ويصبح فيها وجهات نظر مختلفة، وتنسف الأمور من أعماقها، وتنفى الحقائق من أصلها وترجعها إلى نوازع سياسية وأهواء اقتصادية وميول شركات، وأعمال عصابات، فنجعل العلماء كأنهم من رجال المافيا.

وكيف تنعقد كل هذه المؤتمرات الضخمة، تحت أمر كله وهم ويقال إن الفخ نصب، وإن الأمور قد زينتها الصحافة العالمية، وكستها برداء براق كله وهم وتضخيم وأكاذيب، حتى وقع فى الفخ الجميع، ومنهم ملوك ورؤساء دول ووزراء ؟.

ولابد أن نتساءل، أليس لهؤلاء الرؤساء مستشارون ووزراء وأتباع ؟ وإذا كان البعض قد انزلق إلى مجرد حب الظهور، والسعى إلى الشهرة، فكيف يكون ذلك سمة يوصف بها الجميع على اختلاف جنسياتهم، وتخصصاتهم وقدراتهم ؟.

إن المعقول والمنطق، يقتضى أن نقول، بأن هذا القول المرسل يحتاج إلى دليل، ولا أقول إنى أكذبه ولكنى أستبعده.

وأقيم حكمى هذا على حقائق علمية، تتعلق بطبيعة الجو فى طبقات الفضاء، لكى أرد على الحقيقة العلمية الوحيدة التى دارت فى فكر المعارضين، وهى أن المواد الملوثة للجو، لا يمكن أن تصعد إلى أعالى الغلاف الجوى، لأنه لا توجد تيارات هوائية تصعد بها إلى أعلى، بعد طبقة «التر بوسفير».

وهذا يقتضى القول بأن الغلاف الجوى فى طبقة الاستراتسفير، لا يخلو من تكوين الهواء قطعيا، بل يتخلخل فيه الهواء وتقل كثافته، وتتباعد جزيئاته حتى يصبح بين كل جزىء والآخر بضعة أمتار، ثم بضعة كيلومترات، ثم بضعة آلاف من الكيلومترات.

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للهواء، فلماذا لا يكون بالنسبة للأوزون الرقيق، بنسب ضئيلة تشمل طبقتى التروبوسفير،

والاستراتوسفير على حد سواء، وفى كلتا هاتين الطبقتين يوجد الهواء أيا كانت نسبته ولو كانت ضئيلة، وفى كلتا الطبقتين أيضًا يوجد الأوكسجين الذى يتكون منه الأوزون.

وإذا ما أمعنا النظر فى الاعتراض على عدم وجود التيارات الهوائية الصاعدة، التى تحمل المواد المسئولة عن تلويث الجو، فهذا أمر يدعو للعجب، لأننا نكون قد تناسينا أن غاز «الكلوروفلوروكربون» له طبيعته الخاصة بكونه «شديد التطاير». وأن صعوده إلى أعلى يتم ببطء اعتمادًا على هذه الخاصية، وكذلك المثيان، وكذلك الغازات المشبعة بمركبات النتروجين الذى يوجد فى طبقات الجو العليا.

إن العلو الذى نتحدث عنه لا يزيد عن ٤٠ كيلومترًا، فما بالنا وهذا العلو ضئيل للغاية، بالنسبة لاحتراق الصواريخ وبعض الطائرات العسكرية.

وهل يجوز أن نوجه أنظارنا إلى مصادر التلوث الصادرة من الأرض، ونتعجب كيف يمكن أن تصل إلى علو ٤٠ كيلومترًا، وننكر مصادر التلوث، التى تخترق كل طبقات الغلاف الجوى نفسه وتصعد آلاف الكيلومترات، وهى تلوث بغازاتها المتنوعة كل طبقاته، كالطائرات والصواريخ.

ولعل الدقة تقتضى القول بأن نضوب غاز الأوزون ليس لسبب واحد فقط، هو تصاعد بعض أنواع الغازات من الأرض، ذلك أن هناك سببًا آخر أكبر تأثيرًا على نقص الأوزون وفنائه، هو تأثير الأشعة فوق البنفسجية عليه. فإذا أنكر البعض صعود الملوثات من الأرض، فكيف هم

أن ينكروا تأثير الأشعة فوق البنفسجية التى تسقط عليه من أعلى مصاحبة لضوء الشمس.

ومن العجيب حقا أن يقال، بأن ارتفاع درجة حرارة الأرض، وهم ودجل، إن حقيقة «ظاهرة البيوت الزجاجية» إنها نتاج غلالة من ثانى أوكسيد الكربون تتكون قريبًا من سطح الأرض، فتعكس الحرارة المنبعثة منها، ولم يقل أحد إنها تصعد إلى عنان السماء.

إن إنكار أن البشرية انفتحت شهيتها أكثر من اللازم على حرق الوقود، فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية، أمر يصعد إلى مستوى المغالطة. وإن إنكار أن أعداد السيارات قفزت عشرات المرات فى كل دول العالم أمر يدعو إلى العجب. وإنكار أن مداخن المصانع أصبحت تنفث آلاف الأطنان من ثانى أوكسيد الكربون وغيره من الملوثات، أمر يجب أن نضع أمامه علامات استفهام كثيرة.

كل ذلك أدى إلى تشكيل عناصر مشكلة تلوث البيئة وتجسيد مخاطرها، وخير شاهد على ذلك، أشجار أوروبا التى تتهاوى وغاباتها التى جفت أغلب فروعها، والآفات المجهولة التى تنخر فيها.

وثالثة الأثافى هو إنكار أن مناخ الأرض قد تغير، وإنكار مقولة أنه قد اعتراه كثير من التغيير. إن الأمر ليس فى حاجة إلى برهان، ولا الرجوع إلى إحصائيات سابقة، قبل ذلك بمئات السنين.

إن السنوات القليلة الماضية فيما لا يزيد عن عشرين سنة، وهى بالنسبة لأى شخص فى متوسط العمر، ليست مدة طويلة، تثبت أن المناخ والطقس ودورة الفصول قد تغيرت. وأحسن مثال على ذلك رياح

الخماسين، التى كانت تحل فى مصر فى شهور فبراير ومارس وأبريل. ولقد تعلمت ذلك عندما كنت أدرس هذا العلم منذ أكثر من ثلاثين سنة.

واليوم قولوا لى متى تحل بنا الخماسين فى مصر؟ إنها أحيانًا تغيب ولا تهب إلا مرة واحدة فى العام أو مرتين، ويحدث ذلك أحيانًا فى مايو، بل وفى يوليو، رغم أنها فى الماضى كانت تهب على الأقل عشر هبات خلال خمسين يومًا.

ومن منا لا يحدث أسرته وأصدقاءه عن الصيف الذى يحل بنا هذه الأيام مبكرًا، أو الشتاء الذى يأتى برده متأخرًا عدة أسابيع بل عدة شهور.

إن الأمر واضح للعيان، وسجلات مصلحة أرصاد القاهرة، يمكن أن تثبته، ولا داعى للرجوع ١٠٠ أو ٢٠٠ سنة إلى الوراء.

موجـز القـول

إن علماء العالم عندما دقوا ناقوس الخطر لم يجرمـوا، وأن الأقوال المرسلة، عندما تخالف رأى الأغلبية لابد أن يساندها إثبات، وإلا فهى مجرد رأى مخالف للفت الأنظار.

ولا أسمح لنفسى بالتسرب إلى الظن بأن الأمر قد لا يزيد عن أنه تطبيق لنظرية خالف تعرف، ولا أسمح لنفسى كذلك بإساءة الظن، فى إنكار جهود الآخرين.

ولكن حسبى أنه فى مصرنا العزيزة، هناك بادرة أمل قد تمثلت فى وجود «جهاز للبيئة» يعمل على سلامتها ونظافتها، والتقليل من تلويثها.

وأن الوزير المسئول عن هذا الجهاز واحد من أنجـح وزراء مصر المتحررين من القيود، وهو الدكتور عاطف عبيد.

ومن بوادر الأمل كذلك، أن أحد أحزاب مصر التى تشكلت مؤخرًا، هو «حزب الخضـر»، أتى تعبيرًا عن وعى شعبى، نـأمل لـه الازدهار والنجاح فى نشر مزيد من الوعى عن نظافة البيئة وعدم تلويثها، ليقف الجهد الشعبى مساندًا للجهد الحكومى، وليرتفع بذوق الإنسان المصرى فى الحفاظ على ما وهبنا الله من طبيعة، يشهد لنا الجميع، أنها من أندر وأجمل ما خلق الله بحرًا وجوا وأرضًا وتراثًا.

وعلى الله قصد السبيل وهو الموفق.

فهـرست

الصفحة

الصفحة

الصفحة

نبذة عن المؤلف

المهندس - سعد شعبان

المؤهلات:

- بكالوريوس فى الهندسة الكهربية - جامعة إسكندرية ١٩٥١
- ماجستير فى الملاحة الجوية من الاتحاد السوفيتى ١٩٦٠
- إجازة طيارى الخطوط الجوية «بمرتبة الشرف» ١٩٥٧

النشاط العلمى والثقافى:

- رئيس تحرير مجلة المهندسين بالقاهرة (سابقًا) من فبراير ١٩٧٥ إلى يوليو ١٩٨٨.
- رئيس تحرير مجلة القوات الجوية بالقاهرة (سابقًا) من ١٩٦٨إلى١٩٧٦.
- رئيس تحرير مجلة الكلية الجوية ببلبيس (سابقًا) لمدة ثلاث سنوات.
- رئيس تحرير سلسلة «العلم والحياة» بالهيئة العامة للكتاب.
- رئيس لجنة الثقافة الجوية والفضاء بنادى الطيران المصرى لمد اثنتى عشرة سنة.
- عضو لجنة الفضاء باتحاد الطيران الدولى بباريس.
- عضو اللجنة العليا للفضاء بأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا بالقاهرة منذ عام ١٩٨٢.
- أستاذ مادة الفضاء بالدراسات العليا بكلية العلوم جامعة القاهرة (سابقًا).
- متحدث إذاعى وتليفزيونى والمستشار العلمى لبرنامج «عالم الفضاء والطيران» بالتليفزيون وبرنامج «عالم الفضاء» بالإذاعة.
- أستاذ مادة الفضاء بأكاديمية ناصر العسكرية.

- كاتب علمى نشرت له مئات المقالات العلمية عن الفضاء والطيران بمجلات العربى بالكويت، والدوحة بقطر، والحرس الوطنى بالسعودية، والدفاع بالسعودية، والدفاع والهلال والجديد وأكتوبر بالقاهرة.

الجوائز والأوسمة الرسمية المصرية:

- وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى عام ١٩٧٩ (بترشيح وزارة الطيران المدنى).
- وسام العلوم والفنون عام ١٩٨٢ (بترشيح نقابة المهندسين).
- وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى عام ١٩٨٣ (بترشيح رئاسة الجمهورية).
- جائزة الدولة التشجيعية فى تبسيط العلوم عام ١٩٨٦.

الجوائز العالمية:

- دبلوم «بول تساندييه» من اتحاد الطيران الدولى بباريس عام ١٩٧٧.
- نوط الجدارة من المنظمة العالمية للثقافة الجوية بواشنطن عام ١٩٨٥.
- جائزة «كالينجا» لنشر الثقافة العلمية من منظمة اليونسكو ١٩٨٩.

شهادات التقدير والأوسمة الأهلية:

- وسام الشكر من الاتحاد العام للكشافة والمرشدات عام ١٩٦٥.
- شهادة تقدير من وزارة الطيران المدنى للجهود فى مجال الثقافة الجوية عام ١٩٧٧.
- شهادة تقدير من الجمعية المركزية للكشافة الجوية عام ١٩٨٥.
- شهادة تقدير من الجمعية المصرية للمحافظة على جمال الطبيعة عام ١٩٨٦.

النشاط الاجتماعى:

- رئيس مجلس إدارة جمعية تعمير صحراء الأهرام.

● رئيس مجلس إدارة مسجد فيصل بمطار القاهرة.
● عضو مجلس إدارة مسجد الإمام الحسين، «سابقا».
● رئيس مجلس إدارة مسجد الرحمن «بأبو يوسف» بإسكندرية.

المناصب الرسمية:

● لواء مهندس أركان حرب بالقوات الجوية «سابقًا».
● مدير مكتب نائب رئيس الجمهورية «سابقًا».
● مدير مكتب رئيس الجمهورية بدرجة وزير «سابقًا».

المؤلفات العلمية

عن الفضاء:

١ - صواريخ العصر	وزارة الثقافة	١٩٦٥
٢ - أعماق الكون	دار الكتاب العربى «أعيد طبعه فى الكويت أربع مرات»	١٩٦٧
٣ - الصواريخ فى الحرب الحديثة	التوجيه المعنوى ق.م	١٩٧١
٤ - الطريق إلى القمر	وزارة الثقافة «أعيد طبعه فى مصر ١٩٨٠، ١٩٨٥ بالمملكة العربية السعودية	١٩٧١
٥ - الأقمار الصناعية وسفن الفضاء	دار الكتاب العربى	١٩٧٣
٦ - سكاى لاب والطريق إلى الكواكب	وزارة الثقافة	١٩٧٥
٧ - الملاحة الكونية	القوات الجوية	١٩٧٥
٨ - عصر الفضاء	كتاب اليوم	١٩٧٦

عن الطيران:

٩ - مساعدات الراديو والرادار «بالانجليزية»	القوات الجوية	١٩٥٣
١٠ - المساعدات الملاحية	القوات الجوية	١٩٥٩ «مع آخر»
١١ - أحدث الطائرات	وزارة الثقافة	١٩٦٤
١٢ - المغناطيسية فى الطائرة	القوات الجوية	١٩٦٧
١٣ - دليل الطائرات العربية والمعادية	القوات الجوية	١٩٦٨
١٤ - تمييز الطائرات	التوجيه المعنوى ق.م «أعيد طبعه ثلاث مرات»	١٩٦٩
١٥ - الطيران الأسرع من الصوت	القوات الجوية	١٩٦٩
١٦ - إنقاذ الطيارين	القوات الجوية	١٩٧١
١٧ - نظم الملاحة الحديثة	القوات الجوية	١٩٧٥ «مع آخر»

عن تبسيط العلوم:

١٨ - الكشاف الجوى	جمعية الكشافة الجوية «أعيد طبعه مع تعديلات ١٩٧٧»	١٩٦١
١٩ - الكشاف الجوى المتقدم	جمعية الكشافة الجوية	١٩٦٣
٢٠ - طرائف علمية	كتاب الجمهورية	١٩٦٨
٢١ - السندباد الجوى	وزارة الطيران المدنى	١٩٧٢
٢٢ - وليد على القمر	دار الفتى العربى «بيروت»	١٩٧٧
٢٣ - كيف يعمل الصاروخ	دار الشروق	١٩٧٨
٢٤ - العلم فى فنجان	دار روز اليوسف «الكتاب الذهبى»	١٩٨٤
٢٥ - أسرار العلم	الهيئة العامة للكتاب	١٩٨٧

٢٦ - لعنة التلوث	الهيئة العامة للكتاب	١٩٨٨
٢٧ - أسرار الفضاء	الهيئة العامة للكتاب	١٩٨٨
٣٨ - الطريق إلى الكواكب	الهيئة العامة للكتاب	١٩٩٠

عن حرب أكتوبر:

٢٩ - دور القوات الجوية فى حرب ١٩٧٣	القوات الجوية	١٩٧٤
٣٠ - مصر بعد العبور	دار الشعب	١٩٧٥

(مع آخرين) (أعيد طبعه عام ١٩٨٨).
بتقديم من الرئيس حسنى مبارك

٣١ - عودة مكوك الفضاء
٣٢ - حرب الكواكب تحت الطبع

* * *

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٢١٧٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3613-6

١ / ٩١ / ٢٦٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

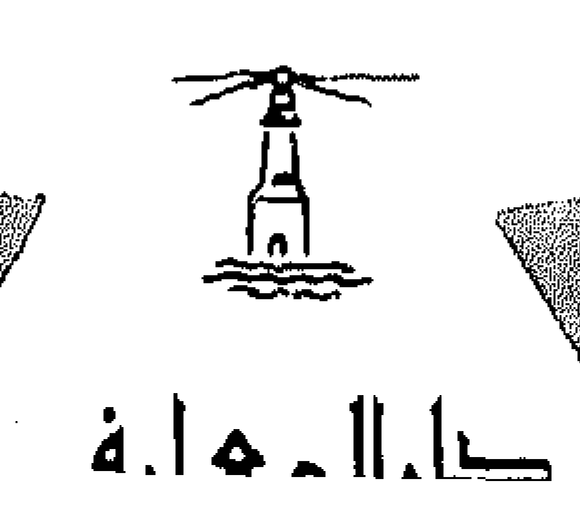
فى عام ١٩٧٤ نشر العالمان الأمريكيان « رولاند ، ومولينا » بحثًا أشارا فيه إلى أن غاز « الفريون » يمكن أن يقطع سلسلة تجدد غاز « الأوزون » فى الغلاف الجوى ، فإذا باللعنة قد حلت على الأرض ، وصارت التكنولوجيا الحديثة فى بعض صورها سيفا يهدد الحياة فوق الأرض !!

جرس إنذار يدقه المهندس سعد شعبان الحاصل على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى عام (١٩٧٩) .. ووسام العلوم والفنون عام ١٩٨٢ - ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى (١٩٨٣) وجائزة الدولة التشجيعية فى تبسيط العلوم عام ١٩٨٦ .

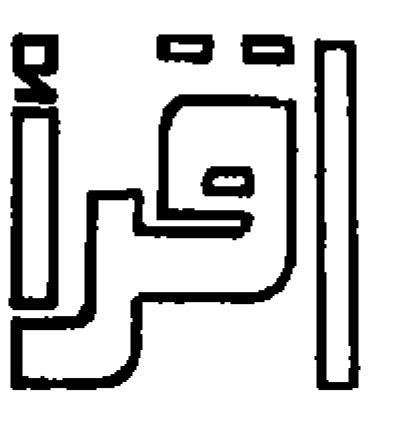
اقرأ

حسين قدري

مذكرات
سائح مصري في مصر!



دار المعارف



[٥٧٠]

مذكرات
سائح مصري في مصر!

حسين قدرى

مذكرات سائح مصرى فى مصر!



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هـذه السلسلة ونشرهـا، لم يفكـروا إلا فى شىء واحد، هـو نشر الثقافـة من حيث هى ثقـافة، لا يـريـدون إلا أن يقـرأ أبنـاء الشعـوب العـربيـة. وأن ينتفعـوا، وأن تـدعـوهم هــذه القـراءة إلى الاستــزادة من الثقـافـة، والـطمـوح إلى حيـاة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طـه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الإهداء...

لو أن كل الذى تعلمته من حروف اللغة العربية كان ثلاثة حروف فقط؛ لكفانى ذلك..

ولو أن كل ما أستطيع أن أكتبه من حروف اللغة العربية كان ثلاثة فقط؛ لكفانى ذلك..

ولو أن كل ما أستطيع أن أنطقه من حروف اللغة العربية كان ثلاثة فقط، لكفانى ذلك..

لست أريد من اللغة العربية أكثر من أن أستطيع أن أقرأ اسمها، وأن اكتب اسمها، وأن أنطق اسمها..

اللغة العربية عندى ثلاثة حروف فقط...

حسين قدرى

الفصل الأول

فى بيتنا مارجريت!!

كانت السياحة دائما من بين اهتماماتى.. قمت برحلاتعديدة نشرت معظمها فى مجلات عربية وإنجليزية وفرنسية.. وكنت أنا السائح دائـماً بطبيعة الحال.. أكتب عما أراه ويشـير انتباهى ويلفت نـظرى فى البلاد الأجنبية التى أزورها.. أكتب كمصرى، لأن الذى أراه بعين مصرية يختلف عن الذى يراه غيرى بعين أخرى.. ولو ذهبنا صديقين مصرى وألمانى - مثلا - كسائحين إلى دولة ثالثة، ولنقل فرنسا مثلا.. فإن الذى يلفت نظرى ويشد انتباهى سوف يختلف قطعًا - وبشدة - عما يلفت نـظر زميلى الألمانى ويشد انتباهه.. ما أراه أنا غريبًا وعجيبًا، قد يراه هو عاديًا جدًّا لا يتوقف عنده ولا يلفت نظره على الإطلاق، وما قد يراه هو غريبًا وعجيبًا قد أراه أنا شيئًا عاديًا جدًّا.. ولنأخذ مثالاً واحدًا: فلو رأينا فتى وفتاة فى حضن بعض يتبادلان قبلة طويلة فى الشارع، فلن يلفت ذلك نظر صديقى الألمانى لأنه يراه فى وطنه كل يوم وكل دقيقة، أما أنا فسوف

يلفت ذلك نظرى جدًّا لأنه لا يحدث فى بلدى، ليس فقط لأنه غير مسموح به بحكم القانون، لكن أيضًا بحكم التقاليد والتربية، وبحكم نظرتنا الشرقية إلى الحب والعواطف على أنها أمور خاصة جدًّا لا تحدث إلا بين ٤ جدران مغلقة.

وفى الوقت نفسه لو شاهدنا، صديقى الألمانى وأنا، فى أحد شوارع باريس فتاة منقبة أو حتى محجبة، فلن أكلف نفسى عناء النظر إليها نظرة ثانية، لأنه منظر معتاد ومألوف وغير غريب على عينى المصرية أو الشرقية وأراه كثيرًا فى مصر فهو شىء غير جديد علىّ.. بينما سوف يشهر صديقى الألمانى كاميرته ويلتقط لها عدة صور لكى يريها لأصدقائه الألمان عند عودته لوطنه باعتبار أنه قد رأى شيئًا غريبًا لا يراه فى بلده.

وهذه هى الفكرة الأساسية من السياحة: أن نرى أشياء مختلفة عن التى نراها فى وطننا.

وفى الوقت نفسه فقد كان يشغلنى كثيرًا شيئان «سياحيان».. الشىء الأول هو: كيف يرى السياح بلدنا، مصر؟ كيف ترى العين الأجنبية أو الأوروبية مصر؟ ما الذى يعجبهم أو يثيرهم أو يدهشهم - أو يضايقهم - فيها؟ ما الذى يلفت نظرهم فى مصر فيحكونه لأصدقائهم بعد عودتهم إلى بلادهم؟

الشىء الثانى هو كيف نعامل نحن - الشعب المصرى - السياح الأجانب فى بلدنا؟! هل نعاملهم على أنهم «صيدة» ومحفظة دولارات واسترلينى وماركات ينبغى أن نفرغها إلى آخر بنس إسترلينى أو سنت أمريكى أومارك ألمانى أو «ين» إذا كان السائح يابانى؟ هل نحاول أن

«نستكردهم» ونغشهم و «نخمهم» باعتبار أنهم ما يعرفوش، أو أضعف الإيمان «آهم راجعين بلدهم وحايطولونا فين بعد كده»!! كيف تعاملهم الفنادق والمطاعم والكازينوهات والتاكسيات ومحلات خان الخليلى؟ هل يقول لهم موظفو الاستقبال فى الفنادق إن كل غرف الفندق مشغولة حتى يبتزوا منهم اللى فيه النصيب، فى حين أن الفندق لم ينزل به نزيل واحد منذ ٤ شهورا؟ هل ننشلهم أونسرقهم أونسىء معاملتهم!؟ و (جيبت بكشيش يا چونى) أو(هاتى شلن يا مزمزيل إلهى تنطسى فى نظرك)، هل لازالت موجودة فى المناطق السياحية من الشحاتين إياهم!؟ هل لا زلنا نرغمهم على ركوب الجمل بالعافية فى منطقة الأهرام وأبى الهول ثم نطالبهم بعشرة جنيهات، فإذا دفعوها متضررين قال لهم الجمال الفهلوى: «وفين أجرة الجمل»!؟.. هل لازال الترجمان الشهير يحكى للسياح أى كلام يختلف تمامًا عن التاريخ المصرى الذى درسوه ويقول لهم: إن أخناتون هو أول من نادى بالوحدة العربية قبل «اختراع» العرب بـ ٩٦٥١ سنة و٣ شهورا!؟.. والنكتة الأثرية الترجمانية الشهيرة التى تقول إن ترجمانا كان دليلاً لمجموعة من السياح فى منطقة الأهرامات وفجأة عثروا على جمجمة مرمية على الرمال فسألوا الترجمان: «إيه دى يا ترجمان»؟ فقال لهم: «دى جمجمة الملك خوفو بانى الهرم الأكبر».. وبعد قليل صادفوا جمجمة أخرى لطفل صغير هذه المرة مرمية على الرمال أيضًا، فسألوا الترجمان: «وذى إيه كمان يا ترجمان»؟ فقال لهم بثقة: دى جمجمة خوفو وهو صغير».

فكرت فى أن أقوم بدور السائح وأصل إلى مطار القاهرة كسائح

وأسيح فعلاً لعدة أيام أفعل فيها كما يفعل السياح، وأترك نفسى لسائقى التاكسيات والترجمانات وعمال الفنادق وبائعي خان الخليلى وغيرهم، يفعلون بى ما يفعلونه مع السياح!؟ لكن كيف أستطيع أن أقنعهم بأننى سائح وشعرى الأكرت، وملامحى المصرية تماما يفضحانى!؟ هل أعوج لسانى وأرطن وأعمل خواجة ثم يشتمنى واحد فأنسى أننى خواجة وأفقعه جوز أقلام وأجرجره من قفاه على القسم!؟.. ثم إن وجهى إلى حد ما معروف فى مصر باعتبار أننى صحفى ربع مشهور تنشر الصحف والمجلات صورتى مع مقالاتى التى أكتبها عن رحلاتى.. صحيح أننى أغش القراء وأنشر صورة لى أيام أن كنت تلميذاً فى ثانوى، لكن برضه بيعرفونى.. فماذا أفعل لكى أبدو سائحا!؟

لاشيء.. ليس هناك أى أمل فى أن أبدو سائحًا.. فما الحل!؟

وتنام الفكرة وتصحو.. وتختفى ثم تعود.. الفكرة جيدة فعلاً لكن تنفيذها هو اللى صعب.

ونامت الفكرة سنوات عديدة، حتى قفزت إلى إمكانية التنفيذ فجأة فى الربيع الماضى: صديقة إنجليزية حميمة، اتصلت بى من لندن تليفونيا لتقول لى: «حسين، أنا خلاص حاتجنن.. الشغل واخدنى ١٦ ساعة فى اليوم، حتى اكتشفت من كام يوم فقط أننى لم أحصل على أجازة واحدة ولم أسافر خارج إنجلترا ولا مرة واحدة منذ ٣ سنوات.. وخلاص قررت أننى لازم آخذ أجازة طويلة فى الصيف القادم.. وأنت دعوتنى كثيرًا لزيارة مصر وكنت دائمًا أعتذر بظروف عملى وضيق وقتى.. فإذا كانت دعوتك لى لازالت قائمة فهل ستستطيع أن تتحملنى لمدة ٤ أسابيع هذا الصيف!؟».

أجبتها وقد سطعت الفكرة فى ذهنى كشمس وسط النهار. فكيف لم أفكر فى ذلك من قبل: «أتحملك وأتحمل أبوكى كمان.. على أن توافقى على أن أكتب عن رحلتك لمصر فى مجلتى هنا».. فقالت مندهشة: «تكتب عنى!؟ وهل أنا مشهورة عندكم إلى هذا الحد»!؟ قلت: «لا مشهورة ولاحاجة ولا حد سمع عنك ولا يعرفك فى مصر إلا أنا.. لكنك تؤدين تمامًا الغرض الذى أفكر فيه منذ سنوات.. وسوف أشرح لك المسألة كلها حين تصلين إلى القاهرة»..

مارجريت توملين صديقة إنجليزية حميمة. ترجع صداقتنا إلى سنوات بعيدة.. عرفتها فى أمريكا حين تجاورنا فى السكن فى الفترة التى عملتها أنا هناك، ثم توطدت صداقتنا أكثر. حين عادت إلى إنجلترا وكنت أنا قد سبقتها إليها بنحو سنتين، فأصبحنا نلتقى كل يوم تقريبًا.. فنانة تشكيلية شهيرة ورسامة رائعة. وأستاذة فى كلية الفنون الجميلة.. سيدة حسناء، بيضاء، حمراء الشعر خضراء العينين، تتكلم الانجليزية الشيك الراقية جدا التى لا تخطئها الأذن بما يناسب أستاذة فى الجامعة.. شديدة الملاحظة وتتمتع بعين نقادة ساخرة وكأنها ولدت لتكون صحفية طويلة اللسان والقلم، ومع ذلك فهى كتلة مرح وظرف وخفة دم، وبنت نكتة تتذوقها وتلقيها وكأنها بنت بلد من بولاق لندن.

«مارجريت توملين» تؤدى تماما الغرض الذى أريده وتمنيته.. خواجاية تمامًا وسائحة ١٠٠٪.. سأتركها تتصرف وتتعامل كسائحة، وسيكون دورى فقط هو أن أراقب من بعيد وأسجل ما يحدث.. أسجل انطباعاتها هى عن مصر ورؤيتها لها كسائحة وأسجل شكل تعاملات ناس السياحة

معها، حتى لو نشلوها وسرقوها واستكردوها وخدعوها وضحكوا عليها، فسوف أتركها لهم وأتركهم لها تتفاهم معهم بطريقتها، وتكون مهمتى هى التسجيل فقط.

تعالى يا «مارجريت»..

وقد بدأت رحلة «مارجريت» إلى مصر وهى لا زالت فى لندن.. فحين قرأت لى على التليفون البيانات التى كتبتها فى استمارة طلب تأشيرة دخولها لمصر التى ستتقدم بها للقنصلية المصرية فى لندن، وذكرت لى ماذا كتبت أمام خانة (الوظيفة)، مت أنا من الضحك حتى كادت مدة المكالمة أن تنتهى وأنا لا أستطيع أن أتوقف عن الضحك.. فقد كتبت «مارجريت» أمام خانة الوظيفة: (آرتست ARTIST) بمعنى (فنانة تشكيلية)!! فطلبت منها أن تضع كلمة (رسامة)، أو (أستاذة فى كلية الفنون الجميلة) بدلاً من حكاية (آرتست) هذه.. وشرحت لها أننا فى مصر نتعامل مع صفة (آرتست) على أنها راقصة شرقية، ودرجة عاشرة كمان.. ولو كتبت فى جواز سفرها أمام خانة الوظيفة كلمة (آرتست) فسوف يطالبها موظفو الجوازات فى مطار القاهرة بأن ترقص لهم ١٠ بلدى حتى تثبت لهم شخصيتها.. وبما أنها لن تستطيع أن ترقص ولا حتى ٣ بلدى، فمن الأفضل أن تضع كلمة (رسامة) فقط! وحصل..

فى يوم وصول «مارجريت» إلى مصر انتظرتها فى مطار القاهرة من الداخل فى منطقة وصول الركاب إلى صالة المطار.. لكنها ضاعت منى فى زحمة وصول ٤ طائرات دفعة واحدة من أماكن مختلفة من العالم، ولشركات طيران مختلفة، وانشغالى بمراقبة مجموعة كبيرة لا تقل عن ٥٠

أو ٦٠ من الفتيات المنقبات، كلهن يرتدين لونًا واحدًا وكأنه زى رسمى أو (يونيفورم).. حتى أن تعليقًا مرحًا من واحد كان يقف إلى جوارى أطلق عليهن: فريق مصر الدولى للمنقبات.. وعلق واحد آخر مندهشًا: هل سوف يكشفن عن وجوههن أمام ضابط الجوازات أم لا!؟ وهل تقبل إدارة الجوازات إصدار جواز سفر وفيه صورة منقبة!؟

ولحقت بمارجريت وهى واقفة فى الطابور الطويل أمام مكتب الجوازات قبل أن تصل إليها يد أمين الشرطة الذى كان ينظم الطوابير بأن يشخط فى السياح الأجانب باللغة العربية: «خش جوا الصف.. خش جوا الصف» ويزغد السياح الرجال فى كتفهم فيضعهم (جوا الصف)، ويزغد السائحات البنات والستات (بحنية) ومش مهم بعد كده يخشوا جوا الصف أم لا.. ولحقت «مارجريت» قبل أن تطولها يد أمين الشرطة الحنين فتنقلب المسألة بنكد من أول لحظة لها فى مصر لأننى أعرف طبعها النارى العنيف، ومرة كنا معًا فى أحد شوارع نيويورك وقبل أن أتدخل أنا فقعت هى سكرانًا إعترض طريقها، فقعته (بوكسا) جابه الأرض فافترش الرصيف بالعرض. ولعله لا زال راقدًا هناك حتى الآن.

ولأنه كان فى صالة الوصول فى مطار القاهرة ركاب ٤ طائرات فى وقت واحد، فإننا فى هذه الزحمة قد استطعنا الإفلات من رذالة الشيالين الذين يفرضون أنفسهم على المسافرين، حتى المصريين منهم - وقد حدث ذلك معى مرارًا - فالشيال يتركك حتى تنزل شنطتك بنفسك من فوق الـ (سير)، ثم ينقض عليك ليختطفها من يدك بدعوى مساعدتك، ثم يضعها على (الترولى)، الذى كنت قد أحضرته أنت بنفسك، وينطلق بها..

وتضطر مرغمًا أن تجرى وراءه وإلا تاه منك فى الزحمة.. وبعد ١٠ خطوات بالعدد تجد نفسك قد وصلت إلى المنطقة الجمركية فيسلمك الشيال الترولل، ويمد يده مفتوحة إليك يتعجلك البقشيش لأن ضحايا آخرين غيرك لسه فى داخل الصالة ينتظرون عودته لينقض عليهم ويفعل بهم ما فعل بك.. ومهما أعطيته من بقشيش حتى لو كتبت له شيكًا بألف جنيه فسوف يدير لك الأسطوانة الشهيرة: «يابيه ده إحنا من صباحية ربنا ما استفتحناش، وحضرتك أول زبون لى النهارده وكلك نظر و ..» إلى آخر هذه الأسطوانة السمجة التى تسمعها من كل شيال بنفس الطريقة ونفس الكلام.. ثم تسمعها مرة أخرى بعد دقائق من سائق التاكسى الذى سوف يأخذك من المطار إلى حيث تريد.. وغالبًا - لو كنت سائحًا - إلى حيث يريد هو.. فقد تطلب منه أن يذهب بك إلى فندق (النيل هيلتون) - مثلا - فيقول لك إنه قد أوصل اليوم ٨ زبائن إلى (النيل هيلتون). وجميعهم لم يجدوا غرفًا فى الفندق، وعاد فذهب بهم مرة أخرى إلى فندق (النيل حنفى) فى الناصرية أو السيدة زينب الذى به أماكن خالية، لذا فهو - سائق التاكسى - قد اختصر الطريق الآن.. وتجد نفسك وقد وصلت فعلاً على باب (النيل حنفى)، وليس لك خيار وأنت لا تعرف البلد..، ثم تكتشف أن (النيل حنفى) هو فندق درجة ١٥ ليس لدى وزارة السياحة ولا حتى وزارة الداخلية أى علم به، لكنك تكون قد «اتدبست» واللى كان كان.. لأن سائق التاكسى النشيط، قد قبض العمولة من (النيل حنفى) عن توريدك إليه ثم اختفى وتركك تواجه مصيرك.

ورغم أنه - كما ذكرت - ٤ طائرات قد وصلت إلى مطار القاهرة فى وقت واحد، ففى الحقيقة أن رجال الجمرك فى المطار كانوا سريعين وشهلين ومرنين، ومرت كل الأمور بسهولة ويسر، ولم يحدث تكدس ولا تزاحم ولا فوضى فى منطقة الجمرك.. حتى أن «مارجريت» أبدت دهشتها للانضباط الذى رأته ولم تكن تتوقعه.

كنا - الأسرة الكريمة وأنا - قد قررنا أن تقيم «مارجريت» خلال فترة زيارتها لمصر فى بيتى، لكى تكون تحت أعيننا طول الوقت ونرى انطباعاتها ٢٤ ساعة فى اليوم من ناحية، وأوفر على نفسى مليون جنيه كنت سأدفعها لو أنزلتها فى فندق يليق بقدرها، وهو لن يقل طبعًا عن فندق ٥ نجوم.،. ولم أكن مهيأ - لا نفسيا ولا «جيبيا»، ولا حتى «صحفيا» - لأن أغرم ٦ آلاف جنيه لو أننى استضفتها فى فندق.

وتقرر - الأسرة هى التى قررت - أن تكون «ثناء» و «حياة» هما اللتان تنوبان عن الأسرة فى القيام بمهمة المضيفات أو (وصيفات الشرف) المرافقتين لمارجريت طوال زيارتها لمصر.. لأن واحدة منها مدرسة لغة إنجليزية، والثانية تستطيع أن تعد من واحد لعشرة بالإنجليزية دون أن تخطئ إلا فى رقمين أو ثلاثة.

وهكذا، فحين خرجت «مارجريت» من باب مطار القاهرة وجدت نفسها تستقبل كأميرة والطفلتان «حنان» و «هبة» بفساتينهما البيضاء الصغيرة تقدمان إليها باقة ورد فاخرة.. فانحنت لتتلقى باقة الورد من الطفلتين وتقبلهما. وبمجرد أن اعتدلت فى وقفتها وجدت نفسها فى حضن

صديقتى الفنانة الكبيرة «سعاد حسين» التى كانت قد تعرفت عليها فى لندن منذ عدة سنوات، وأصرت «سعاد» على أن تكون فى استقبال «مارجريت» فى مطار القاهرة كما استقبلتها «مارجريت» فى مطار «هيثرو».. واستعرضت مارجريت (طابور المستقبلين) وأنا أقدمهم إليها، والبنات يعانقنها ويقبلنها والشبان يكتفون -متضررين- بمصافحتها باليد: سعاد- هناء- حياة- ثناء- عزة- أحمد فؤاد- سيد محيى الدين- عادل.. وفلاشات التصوير فى كاميرا سيد تلاحقها وتصورها كلما التفتت يمينًا أو يسارًا.. فالتفتت إلىّ وهى ترفع حاجب الكبرياء الأيسر لتقول لى: «وبتقوللى إن ماحدش يعرفنى فى مصر إلا أنت»!!..

وفى السيارة فى الطريق من المطار إلى البيت بدت «مارجريت» وكأنها جالسة على «رولمان بلى».. فقد أصرت «سعاد» على أن تأخذ «مارجريت» فى جولة ليلية فى القاهرة قبل أن تذهب إلى البيت، لكى ترى القاهرة وأضواء القاهرة فى الليل.. فسعاد تعتقد أن القاهرة فى الليل أجمل منها فى النهار، وأنا أرى أن القاهرة هى أجمل مدينة فى العالم ليلًا ونهارًا.. لكن رأى «سعاد» هو الذى انتصر الليلة لأنها هى التى كانت تقود السيارة.. فرأت «مارجريت» الشوارع الواسعة النظيفة الخالية من المارة - قرب الثانية صباحًا - وانبهرت من شكل الطرق العلوية المتعددة، وقالت إنها لا تقل عن مثيلاتها فى أمريكا التى عاشت فيها ٧ سنوات من عمرها.. وصارت رقبتها تدور وراء كل مسجد (تكتشفه) وتتعرف عليه من مئذنته العالية المضاءة، وكل ١٠ خطوات مسجد وبين كل مسجد ومسجد مسجد: «وذلك مسجد آخر.. وذلك مسجد آخر..

وذلك مسجد آخر.. و ..» والتفتت إلىّ لتقول: «يقال إن القاهرة هى مدينة الألف مسجد، لكننى أتصور الآن أنهم أكثر كثيرًا من ذلك.. متى كانت آخر مرة عددتهم فيها»!!

وحين وصلنا فى نهاية الجولة إلى البيت، وأطلت على القاهرة النائمة الصاحية المظلمة المضيئة من شرفة الطابق الثانى عشر فى ميدان رمسيس، ودارت بعينيها ٣٦٠ درجة تتفرج على القاهرة كلها فى هذا الجو من هذا الارتفاع، قالت بصوت خافت حالم: «أتصور أننى - من فرط سعادتى واستثارتى - لن أستطيع أن أنام الليلة».

وقبل أن تنتهى من جملتها كانت قد طبت نائمة، وحملناها حملاً إلى الفراش!!

الفصل الثانى

مارجريت.. فى قسم البوليس!

وأنا فى القاهرة أستيقظ عادة قبل العاشرة صباحًا.. ورغم أننا وصلنا إلى البيت من المطار فى الثالثة بعد منتصف الليل. إلا أننا إستيقظنا قبل السابعة صباحًا على «مارجريت» وهى تهزنا بعنف: «استيقظا يا كسالى.. هل ستنامان طول النهار؟»..

كانت قد اكتشفت مكان المطبخ فى الشقة الواسعة الكبيرة، وأعدت صينية إفطار فاخرة مما وجدته فى المطبخ.. الأوربيون عمومًا يعتبرون الإفطار وجبة أساسية، لأنهم يعيشون عليها طول اليوم حتى المساء حين يعودون إلى بيوتهم من مكاتبهم.. الغداء ممكن ساندوتش سريع أو حتى لا شىء.. لكن الإفطار والعشاء هما الوجبتان الأساسيتان..

وجلست «مارجريت» على حافة الفراش فى مواجهة القراندة المفتوحة التى تطل على القاهرة كلها من الطابق الثانى عشر، لكى تشهد القاهرة أمامها على امتداد البصر من وسط المدينة حتى الطريق الصحراوى عند

أهرامات الجيزة، مرورًا بالقاهرة القديمة: شبرا، وجزيرة بدران والسبتية، وبولاق، ثم مبنى التليفزيون، ونهر النيل وبرج الجزيرة، وعمارات الزمالك العالية، ثم النيل مرة أخرى وامبابة والعجوزة والمهندسين وبولاق الدكرور حتى بداية الصحراء.،، وهى مبهورة محتبسة الأنفاس متسعة العينين - الخضراوين الجميلتين - وتصف لنا وهى سعيدة جدًّا كل شىء تراه أمامها ابتداء من ٣ أطفال يلعبون على رصيف نفق شبرا، إلى عربة زبالة يجرها حمار صغير جدًّا إلى واحدة ست ماشية فى الشارع لابسة جلابية سوداء وعلى رأسها قبعة خوص كبيرة لابساها بالمقلوب.. (تقصد مشنة) !!

تقول لى بعد لحظات: «تعرف.. المدن الأخرى التى زرتها فى أنحاء العالم، هى مجرد مدن.. مبانى ومساكن يعيش فيها الناس، وخدمات ومواصلات ومرافق.. لكن القاهرة شىء آخر مختلف، تشعر باختلافه للوهلة الأولى ومن أول نصف ساعة لك فيها.. القاهرة كائن حى.. مدينة لها نبض.. هكذا أحسست بها أمس ليلًا وهكذا أحس بها الآن»..

ونزلنا لكى تبدأ «مارجريت» أول خطواتها على أرض مصر..، وبعد ١٠ خطوات من البيت وجدت نفسى مضطرًا أن آخذها إلى قسم البوليس!! لأ .. هى لم تفعل شيئًا بعد.. سوف تفعل.. لكننى آخذها إلى قسم البوليس كتعليمات مكتب الجوازات فى مطار القاهرة: ينبغى أن يكون مكان السائح معلوماً لأجهزة الأمن فى الدولة. فإذا كان سوف ينزل فى فندق أو فى شقة مفروشة، فسوف يتولى الفندق أو صاحب الشقة المفروشة هذه المسألة ويبلغ جهاز الأمن المختص بأسماء النزلاء عنده

وأرقام جوازات سفرهم.. أما إذا نزل السائح ضيفًا على أحد - كما فى حالة «مارجريت» - فإن على هذا الـ «أحد» أن يسجل لدى قسم الشرطة التابع له أن السائح فلان الفلانى أو السائحة فلانة الفلانية التى بيانات جواز سفرها كذا، سيقيم عنده لمدة كذا.

ورغم أن ضابط مباحث قسم الأزبكية الشاب - ضابط المباحث هو الشاب طبعًا وليس قسم الأزبكية - استقبلنا جيدًا وباحترام وأدب شديد، إلا أنه قال لنا إنه لابد «أيضًا» من تسجيل «مارجريت» فى إدارة الجوازات فى مجمع التحرير !! لماذا هذه الازدواجية وتسجيل السائح مرتين فى مكانين مختلفين !؟ لا أحد يعرف، لكن علينا أن نطيع وننفذ.

وفى طريقنا، سيرًا على الأقدام، إلى مجمع التحرير عبر وسط البلد، مررنا فى شارع عرابى.. وعند مطعم التابعى الشهير أقول لها إنه أشهر مطعم إفطار فى مصر، فلا يلفت نظرها لأنها لم تر إلا واجهة المطعم من الخارج.. لكن بعده بخطوات تتوقف أمام محل طعمجى صغير جدًا يقلى الطعمية فى الشارع على الرصيف أمام الناس.. ووقفت «مارجريت» تتفرج مندهشة على سرعة العامل وهو يكبش بأطراف أصابعه قطعة صغيرة من عجينة الطعمية الخضراء ويلقيها فى إناء القلية أمامه فتطش فى الزيت المغلى وتفور من حولها فقاعات صغيرة وتبدأ الطعمية (تحمر) على الفور.. و «مارجريت» تتابع حركات يديه السريعتين وأقراص الطعمية تتكاثر على سطح الزيت بسرعة.. وتخترق رائحة الطعمية الساخنة الطازجة الشهيرة نغاشيشها الإنجليزية فتتوقف عن السير، وتقول مبهورة وهى تبتلع ريقها : He is making cakes.. ده بيعمل كيك» !!

فشرحت لها وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسى من الضحك أن الذى يعمله ليس (كيك) وإنما هو طعمية.. وشرحت لها مكونات الطعمية التى لم تكن قد رأتها أو سمعت عنها فى حياتها من قبل، فقالت: «أذوق» فسألتها: «كم ساندوتشا تريدين؟» قالت: «لا أريدها فى ساندوتشات.. أريدها هكذا فقط لكى أعرف طعمها الحقيقى دون أى إضافات أخرى قد تغير طعمها» سألتها: «تاخدى كام واحدة» قالت: «اثنين كفاية». فاشتريت ٤ طعميات - لى ولها - وضعها لى الطعمجى فى قرطاس من ورق الجرائد.. فاندهشت «مارجريت» جدًّا من شكل القرطاس وكونه من ورق الجرائد.. لأنهم فى أوروبا كلها يرمون الصحف فى الزبالة بمجرد أن ينتهوا من قراءتها.. و «مارجريت» الآن عرفت أن للصحف المصرية فوائد أخرى.. كنت أريد أن أستغل سذاجتها وأقول لها إن هذه صحف خاصة تطبع خصيصًا لكى نلف فيها الطعمية.. لكننى خفت لتفتكرنى كداب!

المهم، فتحت لها القرطاس فمدت يدها وبأطراف أصابعها الإنجليزية الرشيقة المطلية بالمانيكير، التقطت طعمياية قطمت منها قطمة صغيرة بحذر لكى تستطعمها، ثم وضعت بقية الطعمياية كلها فى فمها مرة واحدة وشهقت من التلذذ والانبساط.. وبينما فمها الصغير لازال محتشدا بالطعمياية الأولى مدت أصابعها بسرعة فى القرطاس والتقطت الطعمياية الثانية وهى تنظر بكل وجهها داخل القرطاس لترى كم واحدة بقيت.. ووضعت الطعمياية الثانية فى فمها فى قطمة واحدة وهى تسألنى وكأنها ترجونى ألا أفعل: «إنت مش بتاكل ليه!؟» فقلت لها وأنا ميت من

الضحك فى داخلى: «مش جعان أوى» فقالت على الفور وهى تمد يدها لتأخذ القرطاس كله من يدى: «OK».. وفى ربع دقيقة كانت الطعميتان الباقيتان قد تلاشتا.. وكنا قد وصلنا فقط إلى آخر ناصية الرصيف، فتوقفت «مارجريت» ونظرت وراءها لكى ترى كم بعدنا عن محل الطعمجى وهى تسألنى باهتمام: «هل هذا هو الرستوران الوحيد الذى يصنع هذا الكيك فى القاهرة، أم ممكن أن نجدها فى أماكن أخرى، قريبة !؟» !! فقلت لها إنه ليس فى مصر أكثر من «رستورانات» الطعمية لأنها الغذاء الشعبى الأول لكل الناس فى مصر.. فاطمأنت وهدأت.

ومشينا فى شارع سليمان باشا وهى مبهورة بكل شىء وتتفرج على كل شىء وتتوقف أمام كل شىء، وبين لحظة وأخرى تقول لى بسعادة بالغة: «إذن فهذه هى القاهرة، أخيرًا، التى طالما حلمت من وأنا طفلة بأن أراها».. كانت الدنيا حر وفى يونيو والطعمية عملت عمايلها معاها، فقالت لى إنها عطشانة، وتريد أن تشرب شيئًا.. فدعوتها إلى عصير فراولة، فاتهبلت على طعم الفراولة التى تتذوقها لأول مرة عصيرًا.. أكلت الفراولة كثيرًا كفاكهة، لكنها لم تتصورها أبدًا عصيرًا.

وظلت هكذا كل ٥ دقائق تتهبل على شىء وتنبهر لشىء، حتى وصلنا إلى ميدان سليمان باشا، ورأت الصحف والكتب التى تفترش الأرض وتحتل مساحة واسعة جدًّا من رصيف الميدان، ورأت رجلًا بجلابية زرقاء يجلس (على قرافيصه) بجوار الكتب واضعًا يده على خده.. فتوقفت مندهشة جدًّا، وسألتنى: «لماذا كل هذه الكتب مرمية فى الشارع هكذا ؟ هل هذا الرجل يعترض أو يحتج على شىء ما، ويعلن احتجاجه بهذه

الطريقة!؟ هل هو Homeless ليس له سكن ويطالب الحكومة بمسكن لكي يضع فيه كل هذه الكتب!؟ شكله لا يدل أبدًا على أنه قرأ كتابًا واحدًا من هذه الكتب.. أنت صحفي فلماذا لا تسأله؟». لم أشأ أن أذكر لها أنه أهم ناشر في مصر الآن حتى لا تظن أن كل واحد قاعد (على قرافيصه) في الشارع وحاطط إيده على خده، ناشرًا.

ونحن في ميدان سليمان باشا سألتني: «إنني لم أر نهر النيل بعد.. هل نحن نسير في عكس اتجاهه؟».. فأخذتها إلى مبنى جامعة الدول العربية لنزور صديقي «السيد الطاهري» مدير الإعلام بالجامعة العربية ورفيق أولى خطواتي في الصحافة، فقد بدأنا معًا في يوم واحد في مجلة واحدة هي مجلة (التحرير) الأخت الصغرى لجريدة الجمهورية.. ولم نبق كثيرًا عند «السيد الطاهري» فقد كان الغرض من زيارته - في الحقيقة - هو أن ترى «مارجريت» النيل من نافذة مكتبه. «مارجريت» لأنها فنانة فهي شديدة الحساسية سريعة التأثر والانفعال.. بعد أن تأملت النيل طويلاً وملأت عينيها منه قالت في صوت خافت: «لقد عشت في أستراليا ١١ سنة، وفي أمريكا ٧ سنوات وفي إيطاليا سنتين، وفي سويسرا سنة، وفي انجلترا بقية عمري.. ورأيت أنهارها جميعًا لأنني أحب الأنهار بل مغرمة بها.. لكنني لم أر نهرًا أجمل من نهركم.. لقد رأيته أمس ليلاً في طريقنا من المطار إلى البيت حين أصرت سعاد على أن تريني كباري القاهرة.. وانبهرت له ليلاً، وظننت أن الليل هو الذي يضفي عليه هذا السحر.. لكنه بالنهار لا يقل جمالاً عنه في الليل.. أريد أن أراه أيضًا عند الغروب».. فقلت أطمئنها: «سوف ترينه في أي وقت تريدين، فهو في

هذا المكان ٢٤ ساعة فى اليوم».

كنا نقترب من مبنى مجمع التحرير حين انطلقت «مارجريت» فجأة ترمح كالغزال لكى تأخذ فى حضنها فتاة جميلة محندقة صغيرة الحجم أنيقة، وجاءت بها فى يدها لكى تقدمها لى: «هـذه الآنسة الجميلة هى ثنـاء، قريبتك، هل تذكرها»؟!.. كنا قد تركنا «ثنـاء» فى البيت عند نـزولنا صباحًا لكى تجهز الغداء. ثم تلتقى بنا فى ميدان التحرير عند الظهر.. وبما أن «مارجريت» لم تكن تعرف ميدان التحرير بعد، فقد دهشت جـدا لـرؤية «ثنـاء» وظنت أننا نلتقى بهـا صدفـة! بعد ذلـك بأيـام كانت «مارجريت» تعرف الشوارع الرئيسية فى وسط القاهرة بالاسم والموقع.

وفى مجمع التحرير جلسنا فى مكتب الصحافة التابع لهيئة الاستعلامات بينما أخذ الساعى جواز سفر «مارجريت» ليسجله وعاد به مختومًا بعد ٣ دقائق بالضبط.. ولم تستطع «مارجريت» - وحتى «ثناء» - أن تخفيـا دهشتهما من هذه السرعة، فقلت لها أغيظها: «الصحافـة فى مصر هى السلطة الرابعة كما تعرفين» فقالت فى غضب: «لا أعرف ولا أريد أن أعرف.. لقد وعدتنى بأن أمر بكل الظروف التى تمر بها السائحة العادية التى ليس لها صديق صحفى زى حضرتك، فلماذا تغير كلامك هكذا من أول يوم»!

«ثنـاء» هى المندوبـة فوق العـادة التى اختارتهـا الأسرة لمـرافقـة «مارجريت» خلال زيارتهـا لمصر من نـاحية لأن «ثنـاء» مدرسـة لغة إنجليزية وتستطيع أن تتفاهم مع «مارجريت»، ومن ناحية أخـرى لأن «ثناء» فتاة مرحة كلها ظرف وخفـة دم وحبوبـة وعشريـة وتحب كل

الناس، وكل الناس تحبها بسهولة جدًّا. وثالثا لأن «ثناء» بنت شيك و (لبيسة) ويليق عليها كل شيء حتى لو لبست جزمة كاوتش من غير رباط.. ورابعا لأنها أكثر بنات الأسرة (لماضة) ولا تقف أمامها مشكلة، فهي تحل أى مشكلة تواجهها إما بالابتسامة الجميلة، وبالذوق والأدب والرقة وحسن التعامل، وإلا فبالتكشيرة - الجميلة أيضًا - وبالصوت العالى المسرسع الذى يخرق طبلة الأذن فـ «تتساب لها بلاد»، وتتحل المشكلة.

وقد وقعت «مارجريت» فى حب «ثناء» ووقعت «ثناء» فى حب «مارجريت» من أول لحظة، حتى أن «مارجريت» دعت «ثناء» بإصرار وإلحاح أن تذهب إلى لندن وتنزل ضيفة.. عندى أنا!

وتولت «ثناء» القيادة.. فهى أكثر منى معرفة بشوارع القاهرة ومحلات القاهرة وتعرف المستخبى فى دكاكين القاهرة.. والقاهرة - أو مصر - تعتبر الآن كنزًا للسائح الأجنبى بعد ارتفاع أسعار تغيير العملة ارتفاعًا كبيرًا.. فالجنيه الإسترلينى الذى فى جيب «مارجريت» يساوى خمسة جنيهات ونصف من الجنيهات المصرية التى فى جيبى أنا.. لذا اندهشت «مارجريت» جدًّا للأسعار المتواضعة للغاية لكل ما رأته، لأنها كانت تحسب كل شيء فى ذهنها الإلكترونى بحساب الاسترلينى: «هذا الشىء بـ٥٥ جنيه مصرى، إذن هو بعشرة جنيهات إسترلينية.. يا بلاش.. لأن سعره فى لندن لا يقل عن ٦٠ جنيه إسترلينى» لذا فما أن أخذتنا «ثناء» إلى محلات وسط البلد فى شوارع سليمان باشا وقصر النيل وشواربى، حتى إنقطعت صلتها بى تمامًا ولم يعد لوجودى معها أى لزوم.. حتى أننى

فكرت فى أن أذهب لأقضى عدة أيام على الشاطىء فى الإسكندرية ثم أعود لآخذ «مارجريت» و «ثناء» من شارع شواربى، إذا كانتا قد انتهيتا بعد من شراء ما تريد «مارجريت».. كان معها كشف صغير جدًا فيه ٥ أسماء فقط - منهم قطتها !! - تريد أن تشترى لهم هدايا من مصر، وحددت لنفسها ميزانية إسترلينية لا تتجاوزها.. لكنها وجدت أنها بنفس الميزانية الإسترلينية تستطيع أن تشترى هدايا لعشرة أشخاص بدلاً من خمسة فقط، فاشترت هدايا لسكرتيرتها ولكلبها وكلبة الجيران، وبرضه فاضت فلوس، فقررت أن تشترى هدية لزوجها أيضًا !!.. وكانت كل الهدايا التى اهتمت «مارجريت» بأن تشتريها لها الطابع المصرى أو الفرعونى المميز.

نظرت «مارجريت» فجأة فى ساعتها ثم سألتنى: «أنتم فى مصر تتناولون وجبة الغداء أيضًا، أليس كذلك» !؟.. واقترحت «ثناء» أن نعود إلى البيت بمترو الأنفاق لكى ترى «مارجريت» الـ (أندرجراوند) المصرى.. «مارجريت» زبونة دائمة للأندرجراوند اللندنى وتقول إنها تقضى فيه وقتًا أكثر مما تقضيه فى أى مكان آخر.. فبين بيتها ومرسمها ساعة ونصف فى الأندرجراوند، وبين بيتها وكلية الفنون الجميلة ساعة بالضبط، وبين بيتها وبيتى ساعة وربع، وبين مكتبها ومكتبى نصف ساعة.. وهى تحصل على أجازة أسبوعية من شغلها لكنها لا تحصل على أية أجازة من الأندرجراوند الذى تتعامل معه كل يوم.. لذا فلم تبد عليها السعادة كثيرًا حين اقترحت «ثناء» أن نركب الأندرجراوند إلى البيت.. لكن «ثناء» طمأنتها بأن عدد محطات الأندرجراوند بين البيت عندنا فى ميدان

رمسيس وبين أبعد مكان فى وسط البلد هي خمس محطات فقط، والمشوار الذى سنركبه من أوله لآخره يستغرق أقل من ٥ دقائق.. فرحبت «مارجريت» على الفور وركبنا فعلاً الأندرجراوند لكى تفاجأ به.. أعجبها جدًّا شكل تصميم المحطات من الداخل، وكل محطة لها طابع خاص مميز بحيث تستطيع أن تعرف المحطة من شكلها وديكورها الداخلى دون أن تحتاج إلى أن تقرأ اسمها.. وقالت «مارجريت» لثناء - لأنها تعرف أننى أعرف ذلك - أن ٩٥٪ من محطات الأندرجراوند فى لندن (قرعاء) وكلها زى بعضها من الداخل وبدون أى ديكور أو تصميم داخلى على الإطلاق. بحيث أنك لا تعرف أين أنت إلا إذا قرأت اسم المحطة المكتوب بداخلها.. وأضافت «مارجريت» بأنه لعل السبب فى ذلك سبب اقتصادى، فمترو الأنفاق فى لندن عدد محطاته ٢٨٤ محطة بينما عندكم فى مصر خمس محطات فقط.. لكن «ثناء» أجابتها بأننا شعب يحب الدندشة. ويهتم كثيرًا بالمظهر الجيد والشكل الخارجى.. لذا فعندما يصبح عدد محطات الأندرجراوند عندنا ٢٨٤ محطة مثل لندن، فبرضه سوف تجدين أن لكل محطة شكلها الخاص وديكورها الخاص.. ولما يبقوا ٢٨٤ محطة ابقى تعالى شوفيهم بنفسك علشان تتأكدى!!

يدينا ويديكى طولة العمر يا «ثناء»!

ونزلنا من الأندرجراوند فى محطة (حسنى مبارك) فى ميدان رمسيس التى تواجه بيتى مباشرة على الرصيف الآخر.. لكن قبل أن نعبر الشارع توقفت «مارجريت» فجأة وتلفتت حولها يمينا ويسارًا وهى تشمشم بأنفها الدقيق فى كل اتجاه ككلب بوليسى مدرب، ثم قالت: «الرائحة تجيء من

هذا المكان» وأشارت بيدها إلى باب محل على الرصيف المواجه للعمارة وقالت: «هنا رستوران آخر يعمل الكيك الذى أكلت منه فى الصباح.. ما رأيك فى أن نتغدى من هذا الكيك الآن.. إنه سوف يعجب ثناء جدًا» و «ثناء» مندهشة لأنها لا تعرف حكاية الـ (كيـك) هذه.. لكننى قلت لمارجريت: «إطمئنى من ناحية ثناء فهى قد فـطمت على هـذا الكيك وتأكله ٧ مرات فى الأسـبوع..، ثانيا هو ليس كيك لكن اسمه طعمية.. ثالثا أن هناء وحياة وثناء قد قضين فى المطبـخ أمس ٤ ساعـات لكى يطبخن لحضرتك الغداء الذى سوف تتناولينه الآن ولا يصح أن تكسرى بخاطرهن وتتركى الأكل المصرى الشهى الذى ينتظرك فى البيت لكى تملئى بطنك طعمية، ثم....» وأشرت لها إلى باب العمارة وإلى باب مطعم الفول والطعمية وكيف أنهما فى مقابل بعضهما تمامًا بحيث أنها حين تهفها نفسها إلى الطعمية سوف تكون فى فمها بعد ٣ دقائق بالضبط.

واطمأنت «مارجريت» وعبرنا الشارع إلى الرصيف الذى عليه بيتى، وقبل أن تدخل من باب العمارة ألقت نظرة أخيرة على مطعم الفول والطعمية وكأنها تقيس المسافة بينه وبين باب العمارة.

الخواجات دول فى مخهم حاجة مش صح.. طعمية!!

وبالفعل كان الغداء فاخرًا.. كانت صديقتى مذيعة التليفزيون «هناء مصطفى» - وهى طباخة أكثر من رائعة - قد قادت معركـة مطبخيـة بالأمس، وحشرت فى المطبخ معها «ثناء» و «حياة» لتساعدانها فى عمل ٤ أصناف مصرية تمامًا: كشك بالفراخ - بامية - أرز معمر - والحلو (أم على).. وأعدت «ثناء» سفرة رائعة حتى أن «مارجريت» لم تستطع أن

تخفى دهشتها، وقالت: «وتقولون إن ظروف مصر الاقتصادية صعبة!؟ كل هذا الأكل من أجل ٣ أفراد فقط؟ إنه يكفى ٢٠ شخصًا ويفيض.. أنتم مجانين قطعًا.. ولعلنى الآن قد عرفت أسباب أزمة مصر الاقتصادية» !!

الانجليز يأكلون أكلًا بسيطًا وسريعًا طول الأسبوع، ولا يأكلون أكلًا معقولًا ووجبات كاملة مطبوخة غير فى الـ (ويك إند) أو نهاية الأسبوع، مثل يوم الجمعة عندنا.. وفى كل أيام الأسبوع يعدون الوجبات على القد بالضبط وليس أكثر من الذى سيؤكل فعلًا.. إذا كنت ستأكل بيضتين أو قطعتين من (الهامبورجر) فإنك لن تقلى ٦ بيضات ولن تسخن ٨ قطع (هامبورجر) تأكل منها ثم تضع الباقى فى الثلاجة.. ومطابخهم ليس فيها مكان لتحفظ فيه (حلل) الأكل لكى يأكلوا منه فى اليوم الثانى واليوم الثالث.. وحين تطبخ الزوجة الانجليزية يوم السبت أو الأحد لزوجها وأولادها فحين ينتهى الغداء يكون كل الأكل المطبوخ قد انتهى، وتغسل أوانى الطبخ وتعود إلى مكانها.. الثلاجة يوضع فيها الخبز والعصائر والبيض والزبد واللبن والجبنات وما إلى ذلك.. لكن أكل مطبوخ قطعًا لا ..

«أصابع السيدة هذه رائعة.. نحن نعرفها فى إنجلترا كنوع من النباتات لكننا لا نزرعها ولا نطبخها، بل ولا نعرف أصلًا أنها تطبخ.. (أصابع السيدة هى البامية باللغة الانجليزية Lady's Fingers). الأرز أول مرة فى حياتى آكله بهذه الطريقة، إنه يصلح وجبة كاملة وحده.. رائع.. قلت لى إن اسمه أرز معمر.. هل له علاقة برئيس ليبيا، أوهل هو أكلة ليبية

أصلاً!؟.. هذا الصنف اسمه سهل النطق: كشك.. لكن طعمه غير مستساغ فى فمى.. إنه يشبه الـ (بودنج) أو الـ (كاسترد) لكنه حادق وليس حلوا، لذا أستغربه كثيرًا.. أما (مامة على) هذه فهى رائعة حقيقة لكننى خلاص امتلأت ولم يعد فى بطنى مكان لها.. لماذا تضعون كل شىء على المائدة مرة واحدة وكأنكم تريدون أن تتخلصوا من ضيوفكم فى أسرع وقت ممكن، يأكلوا ويمشوا.. هل يضايقكم لو احتفظت بنصيبى من (مامة على) فى الثلاجة لكى أتناوله مع الشاى فى المساء»؟.. ثم وضعت نصف الصينية فى طبقها ووضعته فى الثلاجة بنفسها.. ذكرتنى بشىء لا زلت حتى الآن أضحك له بعد ١٥ سنة قضيتها فى أمريكا وإنجلترا: الثلاجة الإنجليزية سواء فى البيت أو فى مكان العمل، تبدو وكأنها مقسمة إلى خانات.. إذا اشترى أحد أفراد البيت شوكولاتاية مثلاً ولن يأكلها كلها مرة واحدة فإنه يضع بقيتها فى الثلاجة ويلصق عليها ورقة صغيرة مكتوب عليها اسمه.. إذا أكل نصيبه من الفاكهة وبقى إصبع موز أو برتقالة أو تفاحة وضعها فى الثلاجة ليأكلها فيما بعد، ولصق عليها ورقة صغيرة عليها اسمه.. إذا اشترى الابن أو البنت قطعة جبن لم يأكلها كلها وبقيت منها قطعة فى حجم طابع البريد: لصق عليها ورقة عليها اسمه.. علبة كوكاكولا، زجاجة لبن، قطعة زبد، علبة عصير.. إلخ.. وتفتح الثلاجة الانجليزية - فى البيت أو فى مكان العمل - فتجدها مليئة بهذه الأوراق الصغيرة التى تحمل أسماء أصحابها.. وياويله وياسواد ليله من تحدثه نفسه بالاعتداء على «ممتلكات الغير»!.. حكى لى صديق انجليزى شاب فى أوائل عشريناته أن أختيه التوأم - ١٦ سنة - فقعتاه مرة علقة

هائلة لأنه تجاسر واستولى على بقية شوكولاتاية صغيرة تخص إحدى التوأمين.. وأيد أبوه وأمه موقف البنتين وقالا له ما معناه: إنت اللى جبته لنفسك.. تستاهل»..

لذا لم أندهش حين فتحت الثلاجة عصرًا فوجدت ورقة صغيرة عليها إسم «مارجريت» على طبق (أم على) بتاعها!!

بعد الغداء قلت لمارجريت: «سأدخل الآن لأنام ساعتين أو ثلاثة، وأنت خذى راحتك: إذا أردت أن تنامى أو تشاهدى التلفزيون أو تدردشى مع ثناء.. البيت بيتك فافعلى ماتشائين».. قالت بحدة: «تنام الآن فى عز النهار!؟ وماذا سوف تفعل بالليل إذن!؟ إن اليوم ٢٤ ساعة فقط يا مستر قدرى وأنا لم أجئ إلى مصر لكى أنام فترة العصر.. جهز نفسك للنزول حالاً.. تعالى معى ياثناء.. سنكون جاهزتين للنزول بعد ١٠ دقائق بالضبط»!!

بعد ١٠ دقائق فعلاً كنا نركب الأندرجراوند - الذى أصبح هواية مارجريت المفضلة طوال زيارتها لمصر، حتى أنها بعد أسبوع واحد كانت تستطيع أن تذهب إلى وسط البلد وحدها لتتسكع فى المحلات وتتفرج على الناس على راحتها - وبعد خمس دقائق أخرى كنا على باب المتحف المصرى أو دار الآثار المصرية فى ميدان التحرير.. وسلمنا الأستاذ «محمد حسن» مدير المتحف إلى المرشدة الشابة الجميلة «أميمة» التى أخذتنا فى جولة طويلة فى المتحف. شرحت لنا ولمارجريت شرحًا وافيًا لكل ما رأيناه، وهى بين حين وآخر تسألنى إن كانت إنجليزيتها واضحة بالنسبة لمارجريت.. لكننى فى الحقيقة كنت خجلاً جدًا من نفسى، وهمست

لثناء بأننى زرت المتحف المصرى مرتين فقط طول حياتى، مرة وأنا تلميذ فى ابتدائى فى رحلة مع المدرسة، والمرة الثانية كانت منذ ٢٠ سنة حين صحبت زميلة صحفية هندية لزيارة المتحف.. رغم أنه فى طريقى من بيتى إلى مكتبى مرتين كل يوم على الأقل.. فهمست لى «ثناء»: «حضرتك على الأقل زرته مرتين من قبل.. أنا عمرى الآن ٢٦ سنة ولم أزره فى حياتى إلا الآن، بل - فى الحقيقة - لم أفكر أبدًا من قبل فى زيارته.. بذمتك دى مش حاجة تكسف إن الأجانب ييجوا من بلادهم من آخر الدنيا علشان يزوروا متاحفنا، واحنا المصريين حتى لا تخطر على بالنا زيارتها.. لكن أرجوك ألا تذكر ذلك لمارجريت لأنها سألتنى ونحن فى غرفة النوم نستعد للنزول: هل رأيت المتحف المصرى؟ فقلت لها: كثيرًا جدًّا.. ولم أكن أكذب، لأننى أقصد طبعا أننى رأيته من الخارج وأعرف أنه فى ميدان التحرير»!!

وفى المساء جلسنا «مارجريت» و «ثناء» وأنا، فى فراندتى التى تطل على القاهرة كلها من الطابق الثانى عشر، والتى أعتبرها أجمل وأكبر وأوسع فراندة فى مدينة القاهرة الكبرى إن لم يكن فى مصر كلها.. لا أعرف مساحة ملعب كرة القدم بالضبط قد إيه، لكن فراندتى مساحتها تماثل ربع مساحة ملعب كرة القدم!! المهم جلسنا فى المساء نشرب الشاى وتأكل «مارجريت» عدة ملاعق من طبقها (أم على)، ثم تعيد الطبق إلى الثلاجة مرة أخرى مع التنبيه المشدد بأن هذا هو طبقها الخاص وأن أى اعتداء على طبقها سوف تعتبره عدوانًا على إنجلترا كلها، وسوف تقابله بالمثل..

وجاء عدد من الأصدقاء لزيارتنا فى المساء للترحيب والاحتفاء بمارجريت التى سمعوا عنها كثيرًا منى.. وكانت دهشتها كبيرة حين فوجئت بهم يحملون لها عددًا من الهدايا التذكارية رغم أنهم لا يعرفونها بعد وأول مرة يرونها فيها.. قدمت لها «إيلين» و «حياة» مروحة يد أنيقة جدًّا، وقالت لها «إيلين» - اليونانية الأصل المولودة فى صعيد مصر ولا تعرف كلمة واحدة من اللغة اليونانية ولا الإنجليزية، ولا تجيد من اللغات «الأجنبية» إلا اللهجة الصعيدية وارد قنا -: «أيوه يا حبيبتى.. حاتنفعك فى الحر ده اللى انتى مش واخده عليه فى بلدكم».. وقدم لها أستاذى «عزالدين رضوان» صينية حلويات شامية فاخرة.. وقدم لها «سيد محيى الدين» لوحة فرعونية كبيرة مرسومة على القماش لكى تأخذها معها إلى إنجلترا لتبرزها وتعلقها فى بيتها تذكارًا لزيارتها لمصر.. وقدمت لها «سعاد حسين» خاتمًا بفص من الفيروز اشترته لها من مكة وكانت تنوى أن ترسله لها فى لندن معى.. وقدم لها «عادل» دعوة مفتوحة لزيارة قريته (كفر أيوب سليمان) فى الشرقية لكى ترى الريف المصرى وتتذوق الأكل الفلاحى: الفطير المشلتت والجبنة القديمة والعسل الأبيض والحمام المحشى فريك.

وحين طالت القعدة همست «مارجريت» فى أذنى: «أليس من اللائق أن نقدم عشاء للضيوف»!؟ قلت لها: «عندك حق.. كلك كرم» قالت والسعادة تملأ وجهها: «سأنزل أنا وثناء لنشترى العشاء من الرستوران المواجه للعمارة.. سنعشى الضيوف من ذلك الكيك المصرى الرائع.. تأمية»!!

أخيرًا حفظت اسمها، لكن عذرًا للكنة: طعمية!!

الفصل الثالث

نابليون بونابرت.. إجازة يوم الجمعة !

فى الصباح ونحن جالسون للإفطار قالت لى «مارجريت»: «فلقت دماغى بأحاديثك التى لا تنتهى عن طفولتك السعيدة، وعن حبك لوالديك وحب والديك لك.. أريد أن أرى البيت الذى ولدت فيه والحى الذى نشأت فيه».

ونزلنا لنركب الأندرجراوند - هواية «مارجريت» المفضلة الآن، بعد الطعمية - ونـزلنا فى محطة السيدة زينب.. كان عيد الأضحى على الأبواب وباقٍ عليه أيام قليلة، لذا فبمجرد خروجنا من باب محطة السيدة زينب، وجدنا أنفسنا فجأة فى وسط قطيع من الخرفان المعروضة للبيع.. وهاصت «ماجى» وزاطت - وهى تحب الحيوانات جدًّا، كل الحيوانات - لمنظر الخرفان تسرح فى الشوارع طليقة هكذا وكأنها ليس لها صاحب.. وراحت «مارجريت» تربت بيدها على رأس ورقبة كل خروف بحنان شديد وكأنه كلب أو قطة !!.. وظن بائع الخرفان أننا جئنا

لنشترى خروفًا، وأن «مارجريت» تتحسسها لتختار واحدًا منها، فوقف من بعيد ينتظر النتيجة: زبونة خواجاية وزوج مصرى.. لكن حين انحنت «مارجريت» على حمل صغير وضمته إلى صدرها وقبلته فى رأسه اتسعت عينا البائع من الدهشة وقطعًا ظن أن الست دى مسكينة مخلولة ومخها مش مضبوط.

ومشينا إلى شارع السد البرانى فشارع التلول، حتى القديمة. وأريتها البيت رقم ٤٣ الذى ولدت فيه، لكنه هدم الآن وبنى مكانه عمارة حديثة.. وحكيت لها حكايات الطفولة وكيف كنا نلعب الكرة الشراب فى الشارع بعد خروجنا من المدرسة، ثم الكرة الكاوتش بعد أن كبرنا شوية.. وكيف كنا نصنع من شنطة كتبنا المدرسية (الجون) الذى يقف فيه حارس المرمى، وكيف كانت نتائج مبارياتنا دائما سخية وكريمة: ١٨-١٤ مثلا أو١١-٩ فى المباريات القوية.. وكيف أن شارعنا هذا وحده قد خرّج عددًا من أصحاب الأسماء اللامعة فى كل المجالات، خصوصا فى الفن والأدب: من جنينةناميش التى تعتبر امتدادًا لشارعنا خرج الأديب يوسف السباعى، ومن قبله والده المرحوم محمد السباعى، وغير بعيد عن شارعنا خرج يوسف وهبى، ومحمد كريم، ومحمود تيمور، وزهرة العلا، وبرلنتى عبدالحميد والمذيعتان فاطمة فهمى وجولار عرفان.. ومن شارعنا نفسه خرجت المطربتان شريفة فاضل وثناء ندا ابنتا الشيخ محمد أحمد ندا شيخ الجامع اللى على الناصية وكان بيتهما لصق بالجامع مباشرة، والمخرج المسرحى كرم مطاوع، والممثل حسن يوسف، والكوميدى أحمد الحداد، والمرحوم عبد المنعم إبراهيم. ومن المقرئين الشيخ محمد رفعت، والشيخ

مدين منصور مدين، ومن لاعبى كرة القـدم حنفى بسطان وشلة أولاد الحسنى، ومن الديبلوماسيين نبيل عثمان المستشار الإعلامى لمصر فى هيئة الأمم المتحدة، ومن الصحفيين اللامعين - هاها - حسين قدرى..

وطبعا كان الاسم الوحيد من بين كل هـذه الأسماء الـذى عرفتـه «مارجريت» هو اسم حسين قدرى فقط..

وصلنا إلى ميدان السيدة زينب.. ورغم أن اليوم كان يوم جمعة والزحام شديد، إلا أننا - ببطاقتى الصحفية المغلفة بورقة من فئة الخمسين قرشا، وبعد أن وضعت «مارجريت» إيشاربًا على شعرها الأحمر - استطعنا أن ندخل مسجد السيدة زينب من باب الحريم، لكى ترى «مارجـريت» ضريح السيدة زينب من الداخل لتكون أول مرة فى حياتها ترى فيها ضريحًا.. ولم تهضم عقليتها الأوروبية فكرة (الضريح) وأن يكون هناك شخص ما مدفون هكذا فى وسط واحد من أهم ميادين القـاهرة وأن يتكالب الناس رجالاً ونساء، بالآلاف، لزيارة ذلك الضريح كل يوم.. مسألة غريبة على تفكيرها الأوروبى رغم أنها سيدة مثقفة وقرأت كثيرًا عن الإسلام بالذات، لكن هذه هى أول مرة تواجه فيه الأفكار والعادات الإسلامية وجهًا لوجه.

لكن الذى أدهشها جدًّا وأزعجها جدًّا - إلى درجة الفزع - أنها رأت خادم المسجد يضرب النساء المتجمعات داخل الضريح بحزام جلد فى يده لكى يفسح لها هى الطريق حتى تصل إلى الضريح نفسه!! ومع ذلك فقد تقلصت ملامح وجهها وكادت أن تبكى من الرهبة والخشوع

وهى تقف أمام الضريح بأعمدته النحاسية اللامعة، ونقوشه العربية الدقيقة، وإحساسها بأنه فى داخل هذا الكشك النحاسى المربع يرقد جثمان سيدة من بيت النبى محمد ﷺ، عاصرته وعاشرته، وماتت منذ أربعة عشر قرنًا أو أكثر من ١٤٠٠ سنة..

وبمجرد خروجنا من باب المسجد التف حولنا حشد كبير من الشحاتين رجالاً ونساء.. وظنت «مارجريت» أنهم يحيونها ويرحبون بها فابتسمت لهم ابتسامة واسعة وقالت: «هاللو» ونقلت شنطة يدها إلى يدها اليسرى لكى تبدأ فى مصافحتهم.. لكننى جذبتها من ذراعها لكى أخرج بها من وسط هذا الحشد قبل أن تكتشف الحقيقة وننفضح أمام الأجانب.. وأكدت لها ظنها أنهم يحيونها لأنهم عرفوا أنها أجنبية من شعرها الأحمر.

بعد مسجد السيدة زينب أخذتها لمشاهدة متحف (بيت منج) الأثرى فى حارة (منج) وراء المدرسة السنية.. (بيت منج) على قدر ذاكرتى كان مقر قيادة «نابليون بونابرت» أثناء الحملة الفرنسية على مصر، ثم أصبح بيت واحد من قواده بعد ذلك: «كليبر» أو «مينو» لم أعرف بالضبط، لأننا فوجئنا بأن البيت المتحف كان مقفلاً لأن اليوم هو يوم الجمعة.. وكأن المسئولين عن الآثار أو المتاحف فى مصر يعتقدون أن السياح لا يجيئون إلى مصر فى أيام الجمعة!

وعدنا إلى شارع الشيخ البغال فى السيدة زينب لكى أفرجها على السوق المفتوح المقام فى الشارع.. فشاهدت الباعة وهم يعرضون بضاعتهم على عربات اليد أو على أقفاص من (الجريد) موضوعة على

الأرض.. ورأت محل (الفرارجى) الذى يبيع الفراخ والحمام والبط والأوز والأرانب، وأعجبها شكل المحل جدًّا لأنه ليس موجودًا فى أوروبا كلها محلات من هذا النوع، لأن ذبح أى شىء غير مسموح به فى البيوت فى أوروبا.. لا تستطيع أن تشترى فرخة صاحية أو بطة صاحية لكى تذبحها فى بيتك.. سوف يذبحك الجيران، ويذبحك البوليس الانجليزى لو اكتشف أو لو أبلغ عنك أحد.

ورأت «مارجريت» محلات السماكين والسمك الحى يلعب ويلعلط ويتنطط صاحيًا فى طشوت وأحواض مليئة بالماء موضوعة على الرصيف فى الشارع أمام المحل، وهو لا يعرف أنه بعد ساعات قليلة سوف لا يتنطط ولا يتلعلط ولا حاجة أبدًا بعد أن يكون قد استقر فى بطون أهالى حى السيدة زينب الكرام.

وأعجبت مارجريت تمامًا - كفنانة - بحوارى السيدة زينب الضيقة المبلطة بالبلاط الحجرى المربع الكبير.. وفى سوق شارع سلامة - (حيث جرت أحداث رواية عودة الروح لتوفيق الحكيم) - فتحت عينيها - الخضراوين الجميلتين - على اتساعهما وهى ترى ثمار الفراولة الحمراء الزاهية الجميلة الرائعة، معروضة فى (قفة) على الأرض والكيلو منها يباع بـ ٥٠ قرشا مصريا فقط، يعنى أقل من ٩ بنسات إنجليزية، بينما الرطل الواحد منها يباع فى إنجلترا بجنيه استرلينى كامل أو خمسة جنيهات ونصف مصرية.. فسألتنى كم تزن هذه القفة تقريبًا !!فقلت لها: «حوالى ١٠٠ أو١٥٠ كيلو.. هل تريدين أن تأخذيها كلها!؟» فقالت بحسرة: «لا .. نأخذ ٤ كيلو فقط.. لكن اسأل البائع هل هو موجود هنا كل يوم،

أو اقترح عليه أن ينتقل ليجلس تحت العمارة عندنا فى ميدان رمسيس» ومن فرط سعادتها كادت أن تقبل البائع الصعيدى وهو يعطيها كيس الفراولة فى يدها لولا أننى حذرتها من تقبيله وإلا فقد يطلب منها أن (تصلح غلطتها).. وكانت طول الوقت - منذ أن وصلت إلى مصر - وهى تذكرنى بشىء ما وأنا أقول لها «حاضر»،حتى وجدته فى سوق شارع سلامة، فاشتريت لها: كيلو تمر هندى!! كانت قد ذاقته مرة عندى فى بيتى فى لندن فظلت تتحدث عنه وعن طعمه ومذاقه الرائع لمدة خمس سنوات بعد ذلك، وأظنها ما ظلت على صداقتى طوال هذه السنوات إلا طمعًا فى أننى سوف أشترى لها يوما. كيلو تمر هندى من السيدة زينب، وها قد حدث، وأظنها سوف تهجرنى الآن بعد أن نالت منى ما كانت تبغى..

قالت لى «مارجريت» بعد أن خرجنا على وش الدنيا إلى ميدان السيدة زينب، إن الأسواق المفتوحة فى الشارع موجودة فى لندن. وفى كل مدن أوروبا، لكنها هناك منظمة ومنضبطة إلى الحد الذى يفقدها بهجتها كأسواق مفتوحة.. لكن السوق الذى رأته اليوم فى السيدة زينب بطابعه المحلى والشرقى تمامًا والزحام والصخب والزيطة، وأصوات الباعة العالية ينادون على بضاعتهم بطريقة منغمة وكأنهم يغنون، ويهللون للزبائن ويتبادلون معهم المرح والمداعبات والهزار ويعطونهم (كبشة فوق البيعة).. كل هذا «الجو» الموجود هنا هو الذى يجعل للسوق هنا طعمًا شرقيًا مختلفًا تمامًا عن السوق فى أوروبا.

ونظرت مارجريت فى ساعتها فقلت لها على الفور: «نعم، نحن فى

مصر أيضًا نتناول وجبة الغداء.. ورغم أن حى السيدة زينب هو أشهر مكان لعمل صديقتك الطعمية فى مصر، إلا أننى سأدعوك اليوم إلى أكلة أخرى.. أشهر أكلة مصرية فى العالم كله، ومن يتذوقها مرة يظل يتذكرها طول عمره»..

وهكذا تعرفت «مارجريت» على الكباب والكفتة لأول مرة.. وأعجبت بها إلى أقصى حد.. واتهبلت على سلطة الطحينة حتى أنها أخذت الطبق من وسط المائدة ووضعته إلى جانبها ووضعت ذراعها حوله لكى تستأثر به وحدها.. ولأننى شبعان من سلطة الطحينة فقد اكتفيت بمشاهدة ذراعها الذى بدا لى أظرف كثيرًا من سلطة الطحينة.. وفرحت كطفلة صغيرة وهى ترانى أقطع رغيف العيش البلدى بيدى بدون سكينة. وأغمس لقمة الخبز فى طبقة سلطة الـ (بابا غنوج) بيدى بدون شوكة.. فأزاحت شوكتها وسكينها جانبًا، وفعلت مثلى وهى فى غاية السعادة.

بعد أن انتهينا من الغداء سألتنى: «ما هو برنامجنا بعد ذلك!؟.. قلت لها وقد عمل الكباب والكفتة عمايلها، وشعرت بجفنىّ يتثاقلان: «لا شىء سنعود إلى البيت لنستريح قليلاً، ثم نفكر فيما نفعله فى المساء» قالت: «عد أنت إلى البيت، ونم ١٠ ساعات إذا شئت.. أما أنا وثناء فإن لدينا مشوارا آخر.. تعالى يا ثناء».. وأخذت ثناء فى يدها وتركتانى!

حكت لى «ثناء» بعد عودتها إلى البيت أن «مارجريت» قالت لها إن زيارة واحدة للمتحف المصرى لا تكفى، وأنها تريد أن تقوم فيه بجولة أخرى على راحتها، وتأخذ وقتها فيه دون أن تكون معها مرشدة سياحية (تسربعها). وتنقلها نقلات سريعة على كيفها. وكأنها تدلق عليها شوية

المعلومات اللى هى حافظاهم لكى تخلص منها وتعود إلى مكتبها.. لذا فقد ذهبت هى و «ثناء» مرة أخرى إلى المتحف المصرى فى ميدان التحرير حيث قضيتا فيه ٤ ساعات كاملة شاهدتا فيها جناح توت عنخ آمون.. وكانت «مارجريت» هى التى تشرح لثناء التاريخ المصرى الفرعونى الذى درسته – مارجريت – مرتين: مرة وهى تلميذة فى المدرسة الثانوية، ومرة وهى طالبة فى كلية الفنون الجميلة، حين درست الفن الفرعونى المصرى القديم.. وقالت لى «ثناء» إنها كانت سعيدة جدًّا، وهى تستمع إلى شرح «مارجريت» لها للتاريخ المصرى لأنها – ثناء – كانت قد نسيت أصلا شوية التاريخ الذى درسته وهى تلميذة فى إعدادى، ثم ألقته وراء ظهرها تمامًا بمجرد أن انتهت من امتحانها فيه.. وأتذكر الآن أننى سألت «ثناء» مرة وهى طالبة فى كلية التجارة: «ثناء عندك فكرة عن التاريخ المصرى؟» فقالت مندهشة: «أعرف التاريخ الميلادى والتاريخ الهجرى. والتاريخ القبطى: أمشير وطوبة وكوبا وحاجات كده.. لكن فيه حاجة اسمها التاريخ المصرى كمان»!!

هايلة «ثناء» دى.. يابخت تلامذتها بيها..

حين عادت مارجريت و «ثناء» إلى البيت عصرًا كنت قد نمت واسترحت وقمت.. وشربنا الشاى فى الفراندة وقد خلعت «ثناء» حذاءها وفردت ساقيها أمامها لتريح قدميها اللتين تعبتا من اللف مع «مارجريت» طول اليوم.. بينما «مارجريت» وفنجانها فى يدها تدور على قدميها كالنحلة. لكى تستمتع برؤية القاهرة كلها من هذا الارتفاع... ثم جاءت لتضع فنجانها على المائدة أمامنا وهى تقول: «١٠ دقائق فقط

وسأكون مستعدة وجاهزة للنزول» فقالت «ثناء» بفزع: «والله العظيم حاعيط.. نزول!؟ عايزة تروحي فين تاني؟ إنت مابتتعبيش!؟» قالت «مارجريت»: «مش احنا معزومين على سهرة فى العاشرة مساء؟ الساعة الآن السادسة.. هل سنقضى ٤ ساعات قاعدين فى البيت نتأمل فى جمال بعض ولا نفعل شيئًا مفيدًا!؟.. تعالوا نخرج نروح أى مكان، ثم نعود إلى البيت قبل العاشرة.. مارأيكما فى ذلك!؟»..كشرت «ثناء» تكشيرتها الجميلة وهى تغطس فى كرسيها، وكأنها لا تنوى أن تتحرك من مكانها لمدة ١٠٠ سنة قادمة على الأقل، وقالت: «الدور عليك أنت الآن يا أونكل.. لقد أخذت نصيبى معها اليوم ولن أتحرك من هنا الآن حتى لو قامت الحرب.. فاذهب أنت معها وإذا أكلتما جيلاتى فأرجوك أن تأكل واحدة زيادة بإسمى.. واحدة كبيرة من فضلك» وأغمضت عينيها ونامت فى كرسيها..

ونزلت أنا ومارجريت.. وأمام باب العمارة وجدنا أوتوبيسًا واقفًا فى إشارة المرور، فسألتنى «مارجريت»: «هل هذا الأوتوبيس يذهب إلى أى مكان؟» فقلت لها مندهشًا: «طبعًا، فهو لن يقف هنا طول عمره» فقفزت «مارجريت» فيه على الفور لكي تركب - لأول مرة - أوتوبيسًا قاهريًا.. والمدهش جدًا الغريب جدًّا أن الأتوبيس لم يكن مزدحمًا، وكان نظيفًا من الداخل وكأنه لسه خارج من الغسيل حالاً، بل ووجدنا مكانين متجاورين جلسنا فيهما معًا.. وطبعًا لم أذكر لها أن هذه هى أول مرة لى خلال العشرين عامًا الماضية التى أركب فيها أوتوبيسا فى القاهرة: وأجلس على مقعد.. تركتها (على عماها) تظن أن ذلك هو الشىء العادى

الذى يحدث كل يوم.. لأن الظروف كانت كلها مواتية اليوم فيما يبدو، فإنها قد أعلنت انبساطها جدًّا من مهارة سائق الأوتوبيس، وقيادته المتزنة الهادئة، وقارنته بسائقى أوتوبيس رقم ٥٧ اللندنى الذى تركبه أحيانًا ومعظمهم من الانجليز الزنوج المتوحشين الذين يتعاملون مع الأوتوبيس وكأنه سيارة سباق.

ونزلنا من الأوتوبيس بالقرب من مبنى التليفزيون لكى نتمشى على كورنيش النيل من عند ماسبيرو فى اتجاه فندقى سميراميس وشبرد، وهى مبسوطة جدًّا من شكل الجالسين على الكورنيش وقت الغروب: اثنين اثنين، ولد وبنت ولد وبنت، أو أسر بكامل عددها: الأب والأم ودستة أولاد، وحلل المحشى وصوانى السمك ورصة أرغفة العيش البلدى فوق بعضها وأكواب الماء المثلج من الـ (كولمان) الذى ظنت «مارجريت» أن الحكومة توزعه مجانًا على الفقراء فى مصر، لأنها رأت مع كـل أسرة (كولمانها) الخاص، ومعظمها بلون واحد، الأزرق أو اللبنى.. وتركتها على اعتقادها فهى لاشك سوف تحكى ذلك لكل أصدقائهـا ومعارفهـا بعد عودتها إلى إنجلترا.

واستكملنا تمشيتنا لكى أريها جزيرة المنيل.. أعجبها جدًّا شكل النيل ليلًا والأضواء تنعكس على صفحته المنبسطة الواسعة.. والناس جلوس على السور الحجرى للكورنيش وفى حدائقه الصغيـرة رجال وستـات وشبان وبنات وأطفال، يأكلون ويشربون ويمرحون، وكـل أسرة معهـا جهاز الراديو الكاسيت بتاعها أو تليفزيونها الصغـير بالبـطارية حتى لا يفوتهم شىء من البرامج التى يحبونها وهم خارج البيت.. كل شىء

موجود الآن فى مصر فيما يبدو.. باعة الدرة المشوى على الفحم وباعة الترمس بحباته الذهبية على عربات اليد والكلوبات المضيئة وصف قلل الماء.. أعجبها جدًّا منظر الناس يمدون أيديهم فيتناولون قلل الماء ويرفعونها إلى أعلى فيسقط الماء منها إلى أفواههم المفتوحة فيشربون ويرتوون دون أن تلمس القلل شفاههم.. وأرادت أن تقلدهم، وتفعل مثلهم لكننى منعتها بإصرار خوفا من أن (تشرق) وتموت منى «غرقًا» على كورنيش النيل.. أعجبها شكل المبانى القديمة الباقية على كورنيش المنيل عمرها قرن من الزمان على الأقل تجاورها وتلاصقها المبانى الحديثة على أحدث طراز معمارى.. أعجبتها الأشجار الضخمة القديمة العتيقة وفروعها تتدلى حتى تلامس الأرض وشكلها يوحى بأنها فى مكانها هذا منذ مئات السنين.

تعبت من المشى فدخلنا واحدًا من الكازينوهات المنتشرة على كورنيش النيل فى هذه المنطقة.. ومن أول لحظة ومن قبل أن نجلس شعرت أنا أننا قد دخلنا «فخا» وليس كازينو.. شكل الجرسونات أقرب إلى الفتوات، وجميعهم متجهمون ورافعون حاجبًا ومنزلون حاجبًا زى فريد شوقى، ويتعاملون مع الزبائن بغلظة وبسخف متعمدين وكأنه نوع من الإرهاب.. طلبنا زجاجتين (سفن آب) فجاء بهما الجرسون بعد أكثر من نصف ساعة ووضعهما أمامنا ومشى.. فناديته وقلت له: «إحنا حانشربهم هنا مش حاناخدهم معانا البيت.. حانشربهم وهم مقفولين»؟! فقال وهو ينظر فى عينى ببرود وكأنه يشتمنى: «حضرتك ما طلبتش منى إنى أفتحهم» قلت مندهشا: «مش عادة إن الزباين هى اللى تفتح

القزايز.. ثم مفيش كوبايات بتيجى مع الطلبات»!؟ فقال بحدة وكأنه موشك أن يمسك فى خناقى: «حضرتك تطلب كل اللى أنت عايزه مرة واحدة علشان احنا مش فاضيين.. الكازينو فيه زباين تانيين غيرك». وتركنا ومشى!!

كان ممكنًا أن أظن أن وجود «مارجريت» معى بشكلها الأجنبى، شعرها الأحمر ممكن أن يكون قد ضايق الجرسون المتدين - مثلاً - لكننى كنت قد لاحظت أن كل الجرسونات يتصرفون بنفس الطريقة مع كل الزبائن، فعرفت أن الأمسية - غالبا - لن تنتهى على خير.. وبعد أن شربنا الـ (السفن آب) - من الزجاجة مباشرة - طلبت الحساب فقال لى الجرسون الفتوة على الفور: «ستة جنيه ٧٥ قرش»!!.. قلت وأنا أشعر كأن نشالاً يهددنى بمطواته ليأخذ فلوسى معتمدًا على أن معى فتاة أجنبية، لن أجرؤ أن أجادله أمامها حتى لا أتبهدل أنا وهى: «ستة جنيه و٧٥قرش علشان ٢ سفن آپ ؟! روح هات لى فاتورة بالمبلغ ده» فقال بشراسة: «مابنطلعشى فواتير، وهو الحساب عندنا كده»!! قلت له بغلظة أنا أيضًا: «أنا صحفى وعايز فاتورة ومش حادفع ولا مليم إلا بفاتورة.. وإذا ماكنتش حاتجيب لى فاتورة يبقى حانروح سوا قسم البوليس»!!.. وبهت حين سمع كلمة صحفى وتركنى واختفى.. وبعد قليل جاءنى فتوة آخر، مبتسمًا هذه المرة، ليقول لى: «المعلم بيقول لك ادفع اللى تدفعه» قلت له: «مش حادفع ولا مليم واحد إلا بفاتورة» قال: «١٢٠ قرش كويس»!؟ قلت: «كويس.. لكن برضه عايز فاتورة» قال وابتسامته اللزجة تملأ وجهه من أقصى الشمال إلى أقصى اليمين: «خلاص، خلّى الحساب عندنا المرة دى» قلت: «لا المرة

دى ولا المرة الجاية.. عايز فاتـورة وإلا حاخـرج من هنا عـلى قسم البوليس دوغرى» قال: «اللى تشوفـه سعادتـك» وتركنى واختفى هـو الآخر.. ولمـدة نصف ساعة التالية لم ألمح جرسـونًا واحـدًا فى كل أرجـاء الكازينـو.. اختفوا جميعًا وكأنهم يرغموننى على أن ننصرف دون أن أدفع شيئًا حتى لا أقضى الليلة كلها فى انتظار الجـرسون الـذى لن يجىء.. فتركت عـلى المائـدة ١٢٠ قرشًـا وانصرفنا.

أريد أن أتصور ماذا سوف يفعـل بقية زبـائن هذا الكـازينو وقت الحساب.. أو أن ذلك حـدث معى فقط لأنه كـانت معى سيدة تبـدو أجنبية.. وماذا كان سيفعل اثنان آخران لو كانا كليهما من السياح الذين يشاء حظهم العاثر أن يقعوا فى هذا الكازينو أو مثيله!! هل هذه الأماكن تخضع لرقابة ما أو لتفتيش ما مفاجئ من أجهزة السيـاحة أو شـرطة السياحة!؟ هل نعطى السياح وهم داخلون فى مطار القاهرة نشرة صغيرة مطبوعة بعدة لغات: نقول لهم فيها: «لو خدعكم أحد، أو سرقكم أحد أو غشكم أحد أو هددكم أحد فاتصلوا بشرطة السياحة فى هذا الرقم».. أم أن هذه الأماكن والكازينوهات محمية بشكل أو بآخر حتى تستطيع أن تتصرف هكذا دون أن تخشى شيئًا!؟

بعد أن خرجنا من الكازينو طلبت منى «مارجريت» أن أحكى لها ما حدث بالضبط. فحكيته لها كما حدث تمامًا لأنه جزء من المادة الصحفية التى أنا بسبيلها الآن.. فسألتنى: «وهل قلت لهم. إنك صحفى لذا تركونا حتى ننصرف فلا تحدث مشاكل»!؟ قلت: «نعم» قالت: «كان يجب ألّا

تفعل ذلك وأن نذهب إلى قسم البوليس.. وقد فعلت أنا ذلك مرتين وأنا فى إيطاليا».

عدنا نتمشى على الكورنيش مرة أخرى حتى وصلنا إلى فندق شبرد، فانحرفنا يمينًا لندخل إلى ميدان التحرير، فوجدنا أنفسنا أمام جامع عمر مكرم، وكان فيه سرادقان للعزاء فى وقت واحد كما يحدث فى معظم الأيام.. فتوقفت «مارجريت» أمامها وسألتنى: ؟Is it a street party.. هل هى حفلة تقام فى الشارع»!؟ فشرحت لها فكرة سرادقات العزاء التى تقام لكى يستقبل أهل المرحوم أصدقاء الأسرة والجيران والزملاء، الذين يذهبون للعزاء، فلايضيق بهم بيت أسرة المرحوم.. فأطلت «مارجريت» برأسها -من على الرصيف الآخر- داخل السرادق وسألتنى مندهشة: «وهل كان للمرحوم كل هذا العدد من الأصدقاء»!؟ قلت: «هذا السرادق يفرغ ويمتلىء مرة أخرى كل نصف ساعة.. نحن شعب عشرى ودود مجامل ونحب أن نأخذ بخاطر بعض فى الأفراح وفى الأحزان.. والأصدقاء عندنا يظلون أصدقاء طول العمر، وليس مثل الحال فى أوروبا حين يترك شخص ما عمله فى موقع ما فإن علاقته بكل زملائه فى هذا العمل تنقطع فورًا وكأنه لم يكن زميلاً لهم لعدة سنوات، أو حين تنتقل أسرة من حى لتسكن فى حي آخر فتنقطع صلتها بكل الجيران السابقين.. إن كل أصدقائى وجيرانى الذين عرفتهم منذ كان عمرى ٦ سنوات لا زالت صلتى بهم مستمرة حتى اليوم، وغالبًا ما يصبح أولادهم أصدقائى وأصدقاء أولادى، وهكذا».. فقالت «مارجريت» فى أسىً: «إننى لم أر أختى الصغرى «چيل» منذ أكثر من ١٥ سنة ونحن

نعيش فى مدينة واحدة، وأولادها الخمسة لا يعرفون ابنتى ولم يروها طول عمرها، وهم أولاد خالة.. وحين تتصل بى أختى تليفونيا مرة كل سنة، فهى تتصل لمجرد أن تعرف أننى لا زلت على قيد الحياة ولم أمت بعد.. وإذا ردت عليها ابنتى فهى تقول لها: إعطينى مارجريت، أنا چيل.. فتقول لى ابنتى: مامى.. جيل على التليفون، وهى خالتها.. لقد مر على تخرجى من كلية الفنون الجميلة وتركى بيت الأسرة ٢٥ سنة الآن، لم أر أمى خلالها إلا مرة واحدة فقط، وبعد ١٨ سنة لم أرها فيها، حين أصررت أنت على أن ترى أمى، فذهبنا معا لزيارتها منذ ٧ سنوات، ولولا إصرارك لما ذهبت.. هذا هو الفارق بيننا وبينكم.. لذا تجدنى مندهشة تمامًا من شكل علاقتك بأسرتك، وبأصدقائك الذين لا يخلو منهم بيتك كل مساء.. لقد انتهى شىء اسمه (الصداقة) فى أوروبا كلها الآن.. للأسف».

الذى قلته لمارجريت عن أننا شعب عشرى ودود يقيم للعلاقات الأسرية وللصداقة وللجيرة وزنًا كبيرًا، لم يكن فيه أى قدر من المبالغة فنحن كذلك فعلا.ومن أمثالنا الشعبية (النبى وصى على سابع جار) وهو ترجمة شعبية للحديث الشريف (مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)..

حين بدأت حياتى الصحفية كان من بين الذين تعلمت على أيديهم أسرار المهنة: أستاذى الصحفى القديم والكاتب المسرحى الآن «أنور عبد الله».. ثم تشاء الظروف بعد ذلك بعدة سنوات أن نتجاور فى السكن فى عمارة واحدة فى ميدان رمسيس، فتعرفت أيضًا بزوجته الفنانة «سعاد حسين».. وبعد سكنانا العمارة بشهرين بالضبط أنجبا أول إنتاجهما

«أشرف»، وبعد «أشرف» بسنة و ٨ شهور كان إنتاجها الثانى «سماح» قد شرفت.. ومنذ طفولتها كان «أشرف» و «سماح» صديقين لى أيضا وليس والداهما فقط.. «أشرف» الآن هو أحد المديرين فى فندق (شبرد)، و «سماح» هى النجمة الشابة «سماح أنور».

كل هذه المقدمة لكى أصل إلى أننا - «مارجريت» وأنا - مدعوان الليلة من صديقى الشاب «أشرف أنور عبد الله»، وزوجته الروسية الحسناء «جاليا Galia»، لكى نسهر فى سيدنا الحسين لكى ترى «مارجريت» أشهر أحياء القاهرة القديمة.. الحى الذى لا ينام لا ليلاً ولا نهارًا، ويعمل ٢٤ ساعة فى اليوم ٣٦٥ يومًا فى السنة.

حين نزلنا من السيارة أمام الجامع الأزهر مباشرة، وقفت «مارجريت» تملأ عينيها منه وهى تهمس لى: «ذلك تاريخ حقيقى.. جامعة دينية عمرها أكثر من ١٠٠٠ سنة.. وقد سبق الأزهر جامعة أوكسفورد وجامعة كمبريدج - اللتين بدأتا كلاهما كجامعة دينية لدراسة اللاهوت - سبقهما الأزهر بأكثر من ٣٠٠ سنة، وليس بسنة أو سنتين أو عشرة، لكن بـ ٣ قرون كاملة.. فهل تشعرون فى مصر حقيقة بقيمة أنكم تمتلكون أقدم جامعة فى العالم على الإطلاق».

الحارات الضيقة جدًّا فى حى سيدنا الحسين، والأزقة المبلطة، والأضواء المتلألئة والشوارع السهرانة الصاحية طول الليل، ومحلات الكشرى والفطير والبليلة والكبدة والمخ، والمقاهى العامرة بزبائنها وروادها، والناس التى تملأ الشوارع والميدان وكأننا فى عز الظهر والساعة الآن بعد

منتصف الليل بساعة.. والجو المصرى تمامًا الشرقى تمامًا الذى يحوطنا، جعل الفنانة التشكيلية فى «مارجريت» تتمنى لو كان معها دفتر الإسكتشات وأقلامها لكى ترسم مجموعة اسكتشات للأزهر ولحى سيدنا الحسين فى الليل.. قعدنا فى مقهى أو منتدى (السكرية) على موائد أرابيسك عليها صوانى كبيرة من النحاس الأصفر، وكراسى من الخوص المجدول.. والشاى الأخضر فى الأكواب الزجاجية الصغيرة والأطباق الزجاجية ذات الحواف المذهبة والشيشة تكركر حولنا يمينًا ويسارًا، والجرسونات ذوى الجلاليب البيضاء الناصعة وعليها مريلة الجرسون الشهيرة، والقرفة والسحلب والحلبة الحصى.. كل هذه أشياء جديدة تمامًا، ومبهرة تمامًا للعين الأجنبية فى «مارجريت»، كسائحة وكفنانة.. الأزهر وسيدنا الحسين هو الحى اللاتينى المصرى بالنسبة للأجانب، وهو أقدم وأعرق أحياء القاهرة بالنسبة لنا كمصريين.

سهرنا، وضحكنا، وتطايرت القفشات المصرية الروسية الإنجليزية.. ورغم أننا نحن الأربعة كنا أصحاب مهن مختلفة ومجالات عمل مختلفة: الإنجليزية فنانة تشكيلية والروسية مرشدة سياحية، والمصريان فندقى وكاتب، إلا أن التشنيعات والقفشات إنهالت فوق رأس الكاتب المسكين الذى أمثله أنا.. حكى «أشرف» عن الناقد الأدبى الذى كتب يعرض كتابًا لمؤلف مغرور، فقال: والكتاب جيد فسارعوا بشراء نسختكم، فلم يبق منه فى السوق إلا عدة ملايين قليلة من النسخ»!! وحكت الإنجليزية «مارجريت» عن السيدة التى قابلت بالصدفة فى إحدى الحفلات كاتبًا مشهورًا فقالت له: «سيدى إننى مدينة لك، فأمس لم أستطع النوم إلا فى

السادسة صباحًا، وأنا أقرأ كتابك.. بدأت أقرأ فيه فى السادسة إلا خمس دقائق !!.. وسألتنى الروسية «جاليا»: «هل أنت صعيدى»؟ فقلت لها: لا، ليه» !؟.. فحكت لى عن الصحفى الصعيدى الذى ذهب ليعمل فى أوروبا فاشترى بيتا بابه الخارجى من الزجاج، فركب له عين سحرية !!

الفصل الرابع

مارجريت تكتشف سماح أنور!

«مستر قدرى.. ستأخذنى اليوم إلى الأهرامات وأبى الهول، أليس كذلك !؟»

«مارجريت» هى التى تقرر الآن المكان الذى تحب أن تزاه فى اليوم الذى تريده.. كونها تعيش فى وسط عائلة مصرية، جعلها تشعر بمنتهى الألفة وأنها ليست سائحة أو ضيفة، وإنما هى عضو فى الأسرة لها نفس الحقوق وليست عليها أى واجبات.. فبنات الأسرة كلهن أحببنها ويخدمنها ويلبين طلباتها وكل رغباتها وهى قاعدة هانم لاتفعل شيئًا إلا أن تتفسح وتتفرج وتنبسط وتنتقد وتبدى ملاحظاتها، والكل سعيد بذلك.. سعداء لأنها سعيدة ومرحة ومبسوطة ومستمتعة بزيارتها لمصر وبالجو العائلى جدًّا الذى يحيط بها.

ورن جرس التليفون: الروسية الجميلة «جاليا» زوجة صديقى «أشرف» - فى الشقة تحتنا مباشرة - تسأل: «ماهو برنامجكم اليوم»؟

قلت: «سنذهب إلى الأهرامات وأبى الهول.. لماذا لا تأتيان معنا»؟ قالت: «ذلك ما كنت سأقترحه، أن نقضى اليوم كله معا.. سنذهب معكم إذن إلى الأهرامات، ثم نقضى بقية اليوم بعد ذلك حول حمام السباحة بفندق (رامادا) فى بداية الطريق الصحراوى.. ما رأيكم فى ذلك!؟»

فى منطقة آثار أهرامات الجيزة سلمنا رجل الآثار الشهير دكتور «زاهى حواس» إلى مفتشة الآثار السمراء الجميلة «ناهد البكرى»- المفتشة هى السمراء الجميلة وليست الآثار طبعا - كتلة ظرف وخفة دم مصرية «ناهد» هذه.. أدهشنى أن عرفت منها أنها خريجة كلية الخدمة الإجتماعية، فإن إنجليزيتها ممتازة حتى لخريجة قسم إنجليزى من كلية الآداب.. «ناهد» بعد دراسة سريعة فى كلية الآثار، تعد الآن رسالة ماجستير موضوعها (الخدمة الاجتماعية للطفل الفرعونى).. لست أدرى أين ستجد «ناهد» أطفالاً فرعونيين لكى تجرى بحثها عليهم!!

ذهلت «مارجريت» لرؤية الأهرامات الثلاثة وقالت أنها لم تتصور أبدا أنهم بهذه الضخامة.. وسألت نفس السؤال الذى لا يسأله كل السياح فقط، لكن كل المصريين أيضًا: كيف استطاع الفراعنة القدماء أن يصعدوا بهذه الأحجار الهائلة الحجم والوزن - ٢ طن أو ٢٠٠٠ كليوجرام للحجر الواحد - إلى هذا الارتفاع الشاهق ولم يكن على أيامهم أوناش تعمل بالكهرباء كما هو الحال الآن!؟ وحتى ونحن لدينا هذه الأوناش الآن، فكم يبلغ حجم الونش الذى يستطيع أن يرفع حجرًا بهذا الثقل إلى هذا الارتفاع: ١٤٦ مترًا!؟ يعنى ارتفاع عمارة من ٥٠ طابقًا!! ثم: أى نوع من (السقالات) وقف عليه العمال المصريون

القدماء حتى استطاعوا أن يغطوا جسم الهرم كله بـ(المونة)، بعد أن رصوا كل هذه الأحجار!؟ أى معجزة هندسية تلك التى أقامها المصريون الفراعنة وتركوها لتعيش بعدهم آلاف السنين، ولازالت تعيش حتى الآن، ربما لالآف أخرى قادمة من السنين!!

«ثم هذه الرمال ليست صفراء، إنها ذهبية.. سواء كان ذلك لانعكاس أشعة الشمس عليها أو لأى سبب آخر، لكنها ذهبية وليست صفراء.. وإذا كانت الرمال هنا لازالت ذهبية بعد كل آلاف السنين التى مرت منذ بناء الأهرامات، إذن فالمنطقة نفسها رمالها ذهبية.. فهل يكون ذلك هو السبب - أو أحد الأسباب - التى جعلت الملك خوفو، ومن بعده ابنه وحفيده، يبنون الأهرامات فى هذه المنطقة بالذات وليس فى أى منطقة أخرى!؟

«أبو الهول - تستطرد «مارجريت» وكأنها لا تتحدث إلينا لكنها تفكر بصوت عال - أبو الهول مؤكد أن هناك أسرارًا كثيرة تحيط به وبمعناه الذى يرمز إليه، وبسبب إقامته فى هذا المكان، وهو يعطى ظهره للأهرامات ولا يواجهها. أسرار لم تكتشف بعد، وحين تكتشف فهى ستغير تاريخ العالم القديم كله. إن أبو الهول هذا هو مفتاح الأهرامات كلها، وسيكون مفتاح التاريخ الفرعونى كله، الذى قد يكتب من أول وجديد وتحدث فيه تغييرات كثيرة لم تكن تخطر على بال أحد..

«مارجريت» رغم استغراقها فى تأملاتها لم تنس - كرسامة - وجه مفتشة الآثار «ناهد» التى ترافقنا.. مالت علىّ لتهمس لى بعيدًا عن سمع

«ناهد»: «هذه الفتاة جميلة جدًّا.. فرعونية الملامح تمامًا.. ولو رأيت صورتها على طابع بريد لعرفت فورًا أن طابع البريد هذا مصرى.. هل كل البنات المصريات بهذا الجمال الفرعونى»!؟ قلت: «فى الحقيقة لأ.. لكن ربما لأن ناهد تعمل فى هيئة الآثار.

بعد أن انتهينا من زيارة الأهرامات ذهبنا - بناء على دعوة أشرف و «جاليا» - إلى فندق (رامادا) فى أول الطريق الصحراوى لنقضى بقية اليوم فى حمام السباحة.. بعد ٣٠ ثانية من وصولنا، كانت «جاليا» بمايوهها البيكينى قد قفزت فى حمام السباحة الشاسع وراحت تبلبط كبلطية مرحة سعيدة هربت من حر يونيو إلى الماء الرطب، وصاحت بمارجريت تستحثها أن تنضم إليها.. الوقت عند «جاليا» غيره عند «مارجريت».. «جاليا» الآن زوجة المصرى وتعيش فى مصر والوقت أمامها براح.. «مارجريت» الوقت أمامها محدود لأن أجازتها محدودة.. بعد ٣ دقائق نظرت فى ساعتها وقالت لى: «خلاص عرفت أن عندكم فنادق ١٠ نجوم مثل عندنا، وعندكم حمامات سباحة شيك مثل عندنا.. ياللا بينا بأه» قلت لها مندهشًا: «ياللا بينا على فين؟ إننا مدعوان لنقضى بقية اليوم حول حمام السباحة هذا» قالت: «الوقت الضيق لا يسمح لى بهذا الترف.. وعندما أعود إلى لندن أعدك بأننى سأقضى يومًا بأكمله فى حمام السباحة القريب من البيت، لا أخرج من الماء طول النهار.. لكن الآن وأنا فى مصر أحب أن أتفرج على مصر، وأريد أن أركب الأوتوبيس الآن مرة أخرى لكى أتفرج من نافذته على المناطق التى سنمر بها.. ياللا يامستر قدرى» !!

فى مدخل الفندق تقف مجموعة تاكسيات.. ركبنا أولها وقلت للسائق إننا سوف نذهب إلى فندق مينا هاوس - حيث محطة الأوتوبيسات - وهى مسافة لاتزيد عن كيلومتر واحد وأجرها لا يزيد عن ٥٠ قرشا.. لكن السائق قال لى بغلظة وجفاء إن تسعيرة هذه التوصيلة هى خمسة جنيهات!! فقلت له مندهشا لهذه السرقة العلنى الـ (عينى عينك): «موافق، وسأدفع لك ما تريد حتى لو طلبت ١٠٠جنيه.. لكننى صحفى، وسأسأل فى إدارة المرور وفى شرطة السياحة ما إذا كان ذلك صحيحًا أم لا .. فإذا كان صحيحا فحلال عليك، أما إذا لم يكن صحيحًا فقد، جنيت على نفسك وفقدت رخصتك وسوف يحاسبونك على القديم والجديد وكم سائحًا سرقت منذ أن بدأت العمل» .. وتبعثر سائق التاكسى تمامًا ولم يجد ما يقوله غير أنه ينتظر على باب الفندق منذ السادسة صباحًا دون أن يركب معه زبون واحد، وأنه رب أسرة كبيرة، وأطفاله لم يأكلوا منذ ٣ أيام ووو.. فقلت له إننى قد سمعت هذه الاسطوانة ألف مرة قبل ذلك وليس فيها يقوله الآن شىء جديد علىّ، لأن كل سائقى التاكسى فى الفنادق وفى المطار ينشدون نفس النشيد لجميع الركاب.. وحتى لو كان ذلك صحيحًا فهو ليس ذنب الزبون الذي يركب معك بعد طول انتظارك، وليس مطلوبًا منه أن يدفع لك تعويضًا عن وقفتك على باب الفندق منذ السادسة صباحًا، وإنما الزبون يدفع عن المشوار الذى يركبه فقط لا غير.. ثم، اختصارًا لكل هذه الحواديت: هل هناك فعلاً تسعيرة بأن أجر هذه التوصيلة هو خمسة جنيهات»!؟

وكنا قد وصلنا فعلاً إلى فندق مينا هاوس ونزلنا من التاكسى،

ففوجئت بالتاكسى بنطلق فجأة بأقصى سرعة دون أن يأخذ منى شيئًا على الإطلاق، وكأنه يهرب قبل أن ألتقط نمرته.. لكننى كنت قد التقطتها فعلاً.

من أمام فندق مينا هاوس ركبنا أوتوبيس رقم ٨٨٨ إلى ميدان رمسيس.. مسعدة جدًا ومحظوظة الست «مارجريت» هذه.. ففى كل مرة ركبنا أوتوبيسا بناء على إلحاحها، كان الأوتوبيس رايق وفاضى ونظيفًا وبيلمع وكأنه لسه خارج من (الأجانس) حالاً.. فى الأوتوبيس الذى ركبناه من الهرم وجدت «مارجريت» حاجزًا زجاجيًّا يقسم الأوتوبيس من الداخل، فسألتنى: «ليه ده»؟ فشرحت لها مسألة الدرجة الأولى والدرجة الثانية وهى ليست موجودة فى أية وسيلة مواصلات داخلية فى إنجلترا كلها، لا فى الأتوبيسات ولا فى الأندرجراوند.. فأصرت على أن تجلس فى الدرجة الثانية لكى تكون (مع الشعب)!!

وانبسطت جدًّا - للمرة الثانية - من ركوب الأوتوبيس، ومن الرحلة الطويلة جدًّا التى قطعناها فيه.. فقد اخترق بنا شارع الهرم كله حتى الجيزة، فجامعة القاهرة والدقى، والمهندسين، والعجوزة، والزمالك وبولاق فشارع رمسيس حتى ميدان رمسيس.. وعند نزولنا سألتنى «مارجريت» عن ثمن التذكرة لهذه الرحلة الطويلة؟ فلما قلت لها إنه ١٠ قروش مصرية يعنى أقل قليلاً من ٢ بنس إنجليزى حتى كادت أن يغمى عليها من الدهشة، لأن أقل تذكرة أوتوبيس فى لندن الآن لأربع أو خمس محطات فقط هو ٤٠ بنسًا - (جنيهان مصريان ونصف تقريبا) - وأقل تذكرة فى الأندرجراوند اللندنى ثمنها ٨٠ بنسا - (٤ جنيهات مصرية

و ٤٠ قرشًا) - وربنا يجعل كلامنا خفيف على هيئة النقل العام المصرية!!

مدعوان للغداء اليوم عند صديقتى الصغيرة الفنانة الشابة «سماح أنور» فى شقتها الجديدة فى المهندسين.. جرت العادة منذ سنوات بعيدة أننى فى أول يوم أعود فيه إلى مصر فى أجازة من عملى فى إنجلترا. أن تكون أول وجبة أتناولها فى مصر - غداء أو عشاء حسب موعد وصولى - فى بيت أقرب أصدقائى إلى قلبى: أستاذى الكاتب «أنور عبد الله» وزوجته الفنانة الكبيرة «سعاد حسين».. «سعاد» ست بيت رائعة وطباخة أكثر من رائعة.. وحدث ذات مرة أن عدت من إنجلترا لكى أجد أن «سعاد» فى رحلة (العُمرة) السنوية - فهى تؤدى العمرة كل سنة منذ أكثر من ١٠ سنوات - ومع ذلك فقد كانت مائدة العشاء رائعة مهولة كالمعتاد وأكثر شوية.. فقلت لسماح وأنا سعيد فعلاً: «تسلم إيديكى ياسموحة، بنت ماما صحيح، الأكل حقيقى رائع» فوضعت «سماح» وجهها فى طبقها ولم تنطق بكلمة، لكن باباها «أنور عبد الله» صاح بى مستنكرًا «سماح!؟ دى سماح ما بتعرفشى تسلق بيضة.. أنا يا أستاذ اللى طبخت الأكل ده كله».. فقلت لسماح ناصحًا: لا ياسموحة ياحبيبتى. لازم تتعلمى إزاى تطبخى.. افرضى إنك ما اتجوزتيش، تحتاسى»!!

لكن الحمد لله إن «سعاد» موجودة الآن، وهى التى - احتفاء بمارجريت - قدمت لها سفرة مصرية خالصة، زاغت عينا «مارجريت» فيها يمينًا ويسارًا، تريد أن تأكل من كل شىء وتتذوق كل شىء وتعرف

ما هذا وما ذاك.. لكن العين بصيـرة والمعدة الأوروبيـة صغيرة بحكم التعود.. حتى صاحت فى النهاية، وهى تخبط على السفرة بيديها الاثنتين كالأطفال المقموصين: «تانى مرة لما تعزمونى اعملوا صنف واحد فقط أو صنفين، علشان أعرف أستمتع بالأكل وأشبع.. لكن بهذه الطريقة لا أنا أكلت من كل صنف حتى أعرف ما هو، ولا أنا قادرة على أن آكل أكثر من ذلك، فماذا أفعل»!؟.. وأجابتها «سماح» على الفور: «اكتبى لأمينة السعيد» فقالت «مارجريت» مندهشة: «ماذا!؟» قالت «سمـاح» وهى تدفس وجهها فى طبقها: «ولا حاجة.. قصدى بالهنا والشفا».

كانت مارجريت قد تعرفت بأنور وسعاد وسماح فى لندن، التى زاروها عدة مرات، والتقت بأشرف كثيرًا فى بيتى فى لندن، حين كان يدرس إدارة فنادق فى بلفاست فى أيرلندا، وكان يقضى عطلات نهاية الأسبوع دائمًا معى فى لندن.. «مارجريت» تعرف الأسرة كلها، وتعرف أنها أسرة فنية: «أنور» كاتب مسرحى، «سعاد» ممثلة كبيرة، «سماح» ممثلة صـاعدة، «أشرف» – بجانب عمله الفندقى – يختار الموسيقى التصويرية للأفلام والمسرحيات.. لكنها لم تر أى شىء على الإطلاق من أعمـالهم الفنية: لا أفلام، ولا مسرحيات، ولا مسلسلات تليفزيونية.. فإننى مصر بشدة على ألا يدخل الفيديو بيتى اللندنى، لأننى فى لندن لا وقت لدى لكى أجلس لمشاهدة الفيديو.. التليفزيون الانجليزى رائع خطير مهول: ٤ قنوات عامة يراها الجميع + أكثر من ٣٠ قناة خاصة، تستطيع أن تراها إذا دفعت رسوما معينة.. ولو تركت نفسى للتليفزيـون فسوف أجلس أمامه ٢٤ساعة فى اليوم تلميذًا مطيعًا فى مدرسة التليفزيون الإنجليزى..

لذا فقد ألزمت نفسى بألا أشاهد فيه إلا نشرات الأخبار وبرنامج واحد وفيلم واحد أو تمثيلية واحدة كل يوم مهما كانت الأسباب وحتى لو كان عندى فراغ يسمح بأكثر من ذلك، حتى لا أتعود على مسألة (أكثر من ذلك) هذه.

لذا، فبعد الغداء طلبت «مارجريت» أن تشاهد شيئًا لسماح وسعاد على الفيديو.. فعرضت «سماح» لها مقتطفات من بعض المسرحيات التى قامت ببطولتها.. وضحكت «مارجريت» كثيرًا وهى تتفرج على «سماح» وهى ترقص فى مسرحية (راقصة قطاع عام) وقالت لها: «هذه هى أول مرة أكتشف فيها أن لك ساقين مثلنا.. فإننى لم أرك أبدًا، لا فى لندن ولا فى مصر، ولا حتى فى البيت، بغير البنطلون.. أنت فتاة جميلة ومليئة بالأنوثة، فلماذا تصرين على أن ترتدى هذه الملابس الغريبة التى تجعلك تبدين كما لو كنت Tomboy) - Tomboy تعبير إنجليزى توصف به البنت التى تتشبه بالصبيان وترتدى ملابسهم وتتصرف مثلهم).. ثم كانت المفاجأة الأكبر لمارجريت حين عرضت لها «سماح» على الفيديو فيلمها (حالة تلبس) الذى تقوم فيه بدور ضابطة بوليس وتقود موتوسيكلاً ضخما (هارلى) فى زحمة مرور القاهرة، تطارد به مجرمًا هاربًا حتى تقبض عليه.. وتأكدت «مارجريت» - بحكم أن لديها خبرة سينمائية - من أن «سماح» هى التى تقود ذلك الموتوسيكل الضخم بنفسها فعلاً وليست دوبليرة.. وصفقت - «مارجريت» وليست «سماح» - لسعاد حسين التى قامت بدور أم سماح فى المشهد الذى تصاب فيه بالشلل فجأة حين يموت أمام عينيها ابنها الصبى الصغير أخو

«سماح» فى الفيلم.. وبصمت «مارجريت» بأصابعها العشرة - بالإنجليزية - على أن «سماح» ممثلة ممتازة، وأن «سعاد» ممثلة رائعة، وأن الغداء كان أكثر من رائع.. وذلك للعلم.

مشاكسة هذه السيدة ومغرمبأن تنكش الآخرين وتثيرهم، مثلى تمامًا.. اليوم صباحًا قالت لى: «أليس غريبًا أن تكون مصر هى أهم بلد إسلامى. ومع ذلك فليس فيها متحف إسلامى واحد»؟!! قلت لها مغيظًا: «عندنا فى مصر مثل شعبى يقول: لو صبر القاتل على المقتول لمات لوحده.. اليوم بالذات هو يوم المتحف الإسلامى، حتى شوفى» وأريتها برنامج زيارتها مكتوبًا بالتواريخ، والأماكن باللغة الإنجليزية.. فقالت لكى تزيد غيظى أكثر: «أعرف.. فقد رأيته صباحًا على مكتبك حين استيقظت قبلكما لكى أعد الشاى»!!.. كارثة هذه السيدة.. أعذر زوجها الذى طفش منها وترك لها إنجلترا كلها وعاد إلى وطنه إيطاليا. ومن هناك أرسل لها ورقة الطلاق على يد محضر إيطالى..

المسافة بين بيتى فى ميدان رمسيس والمتحف الإسلامى فى باب الخلق مسافة ليست كبيرة وممكن أن نقطعها سيرًا على الأقدام فى أقل من نصف ساعة.. لكن المشوار يستحق المشى، لأنه كله مشاهدات تهم السائح الأجنبى الذى يزور مصر لأول مرة ولم ير هذه المنطقة من قبل.

شارع (كلوت بك) الذى يبدأ من ميدان رمسيس وينتهى إلى ميدان العتبة الخضراء، هو أحد شوارع القاهرة القليلة جدًا الآن الذى لا زالت باقية فيه (البواكى) التى كانت طراز مبانى القرن الماضى.. وشهرة الشارع ليست فقط مستمدة من وجود البواكى فيه، لكن أيضًا لأنه كان

(حى البغاء) الرسمى، حتى أواخر الأربيعينات.. وكان يطلق عليه أيضًا (وش البركة) و (الواسعة) و (الأزبكية) و (البواكى).. الحارات المتفرعة منه مرتفعة عن مستوى الشارع فتصعد إليها بخمس أو ست درجات عريضة من الحجر بعرض الحارة نفسها.. وحين تصل إلى أعلى هذه الدرجات تجد أمامك الباب الخشبى السميك القديم جدًّا الذى كانت الحارة تغلق به، والذى لم أر مثيله فى أى منطقة أخرى فى القاهرة إلا فى هذه المنطقة، ولعل ذلك كان له علاقة بكونه كان حياً للبغاء.. ولا زالت هذه الأبواب موجودة حتى الآن.. ثم الحارات نفسها مبلطة ببلاطات حجرية مربعة كبيرة مثل معظم حارات القاهرة فى وقت من الأوقات وحتى أوائل الخمسينات قبل أن يزحف الأسفلت من الشوارع الرئيسية ليغطى الشوارع الفرعية الصغيرة ثم الحارات.. وقلت لمارجريت إننى كنت أحب أن أريها هذه المنطقة من الداخل لولا أننى لست متأكدًا من مدى الأمان فى التجول فيها الآن، وهل لازالت منطقة خطرة أم لا ، سيئة السمعة أم لا، مشبوهة أم لا.. لذا فمن الأفضل أن تشاهديها من الخارج فقط ونحن نمر من شارع كلوت بك..

سألتنى مارجريت: هل فكرت مرة فى أن تكتب تحقيقًا صحفيًا عن تاريخ هذه المنطقة وسمعتها زمان، وهل لا زالت هذه السمعة تؤثر على سكانها الحاليين، وما علاقة سكانها الحاليين بسكانها القدامى، هل هم أولادهم وأحفادهم أم ناس مختلفون تمامًا !؟ وهل كان البغاء فى هذا الحى يمارس بشكل (عائلى) أو (أسرى)، يعنى سكان البيت كله، يمتهنون هذه المهنة ويعيشون منها، ويتوارثها الصغار عن الكبار، والبنات عن الأمهات

والجدات، وهكذا.. وهل كانت الأم التى تمارس البغاء تعد ابنتها وتهيئها منذ صغرها لأن تكون هذه هى مهنتها حين تكبر وتنضج!؟ وهل كان الآباء والأعمام والأخوال والأخوة الرجال، هم الذين يديرون ويشرفون على نسائهم اللاتى يشتغلن بالبغاء!؟ وهل كان يحدث أن «تنحرف» بنت من البنات وترفض أن تشتغل بالبغاء لكى تصبح موظفة فى الحكومة أو فى شركة أو مدرسة مثلاً!؟ وهل كان يعيش فى نفس المنطقة ناس آخرون عاديون لا علاقة لهم بمسألة البغاء هذه!؟.. وقلت لى إنه كان (بغاء رسميا) يعنى معترف به من الدولة والحكومة. فهل كانت البغايا والمومسات لهن سجل تجارى وماسكين دفاتر محاسبية، ويدفعن ضرائب للدولة وأشياء من هذا القبيل باعتبار أن البغاء عمل تجارى يدر إيرادًا وربحًا!؟ هل كن يعلن عن (بضاعتهن) فى الصحف وفى التليفزيون!؟ هل فكرت مرة فى عمل موضوع صحفى هكذا»!؟

قلت: «فكرت، وعدلت.. لأن عندى موضوعات أهم تشغلنى.. ولن يجيء دور (حى البغاء) فى أولويات موضوعاتى قبل ٦٠ سنة أخرى من الآن.. وحين أكتبه سنة ٢٠٥٠ – إن افتكرت، وإن كان لنا عمر – فإننى أعدك بأننى سوف أرسل لك نسخة من المجلة التى سأنشر فيها الموضوع!

مرورا بميدان الخازندار ومحل (سمعان صيدناوى) الذى اختفى منه اسم «سليم سمعان» وبقى اسم «صيدناوى» – وكان اسمه «يوسف صيدناوى» بالمناسبة – رغم أن شهرته عندنا كمحل ملابس ونحن أطفال كان اسم (سمعان) فقط: رايحين محل سمعان واشترينا ده من محل

سمعان، ولم نكن نقول صيدناوى أبدًا.. إلى المسرح القومى فى ميدان العتبة، الذى قلت لمارجريت عنه إنه يعادل مسرح الـ (أولد ڤيك) فى لندن.. إلى ميدان العتبة الخضراء، ومبنى هيئة البريد، ومبنى المطافى.. وحكيت لها عن دار الأوبرا التى احترقت فى أوائل السبعينات ولم نستطع أن نقيم بدلاً منها غير بعد ذلك بعشرين سنة، وأقامتها اليابان نيابة عنا.. وإن كنا - فى الحقيقة - شعب غير «أوبرالى»، بمعنى أن الأوبرا كفن، ليست من بين اهتمامات المصريين، ولا حتى معظم المثقفين منهم.. وأقول «معظم» حتى لا يتقمص منى الـ٣ أو٤ أفراد الذين يدعون أنهم مهتمون بالأوبرا..

وندخل شارع الفن.. شارع محمد على، الذى أصبح اسمه شارع القلعة منذ أكثر من ٣٥ سنة، ومع ذلك فلازال الجزء من الشارع الذى يمتد من ميدان العتبة إلى ميدان باب الخلق معروفًا باسم شارع محمد على حتى الآن.

شارع الفن وشارع الموسيقيين وشارع الراقصات وفرقة حسب الله التى كانت فى البداية فرقة واحدة صاحبها واحد اسمه حسب الله، ثم أصبحت أى فرقة تخرج من شارع محمد على اسمها فرقة حسب الله.. الشهرة كده.. وانبسطت «مارجريت» جدًّا من المحلات التى تبيع الآلات الموسيقية، وتعرض فى واجهاتها الزجاجية الآلات الشرقية الشهيرة، مثل العود، والقانون، والناى، والطبلة، والرق.. أول مرة فى حياتها ترى محلات من هذا النوع.

وفى مواجهة محلات المزيكة هذه مباشرة سوق العتبة الشهير.. الفراخ

والفواكه والأسماك عشرات الأصناف والأنواع والألوان.. كرنفال غذائى قالت عنه «مارجريت» أنه يشبه سوق (كوفنت جاردن) فى لندن الذى ظهر فى فيلم (سيدتى الجميلة) الذى مثلته «أودرى هيبورن» ولكن - مرة أخرى - عندكم حياة أكثر ونبض أكثر وحيوية أكثر..

الحمد لله إنها حتى الآن مبسوطة من كل شىء رأته.

وصلنا أخيرًا إلى ميدان باب الخلق وإلى المتحف الإسلامى الملاصق لدار الكتب القديمة التى لا أعرف ماذا أصبحت الآن.. وهما فى الحقيقة مبنى واحد ينقسم إلى نصفين من الداخل فقط وليس من الخارج.

أمام باب المتحف الإسلامى من الخارج وقفت «مارجريت» وثبتت قدميها فى الأرض كطفلة عنيدة، وتربست وحمرت لى عينها - الخضراء الجميلة - وقالت: «اسمع.. احتفظ ببطاقتك الصحفية فى جيبك اليوم.. لا أريد مفتشة آثار ولا مرشدة سياحية.. إن كل البيانات مكتوبة على كل المعروضات باللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية، وأنا أجيد لغتين منها + ٤ كلمات من اللغة الثالثة.. فهل تسمح بأن تتركنى أتفرج وأشاهد هذا المتحف على راحتى، وبدون حرس شرف يشوش علىّ متعة المشاهدة».

وعلى الرغم من أن «مارجريت» خرجت من زيارتنا للمتحف الإسلامى وهى شديدة الانشراح والابتهاج، وقالت لى: «لو أن زيارتى لمصر كانت فقط لكى أزور هذا المتحف لقلت إنها تستحق.. أنا الآن سعيدة تمامًا تمامًا، ولا أريد أى شىء على الإطلاق بعد ذلك» ونظرت فى ساعتها ثم قالت بخبث: «إلا الغداء طبعًا»!!.. رغم هذه السعادة البالغة

التى أبدتها فنانة تشكيلية أوروبية لها قيمتها ولها وزنها - ٥٥ كيلو - إلا أننى لا أدرى لماذا شعرت أن محتويات المتحف قليلة جدًّا، وأن المتحف واسع الأرجاء جدًّا بالنسبة لكم المعروضات حتى ليبدو وكأنه فاضى.. وأذكر أن هناك أشياء كثيرة رأيتها من قبل فى زياراتى العديدة لهذا المتحف لم أرها هذه المرة.. وأشياء أخرى - كثيرة أيضًا - رأيتها فى جناح المتحف الإسلامى الذى كان ملحقا بدار الكتب نفسها يحتل إحدى قاعاتها الفسيحة، أيضًا هذه التحف لم أرها فى المتحف الإسلامى اليوم.. لكن بما أن «مارجريت» لا تعرف ذلك ومبسوطة وسعيدة إلى هذا الحد بما رأته اليوم فى المتحف الإسلامى، فالحمد لله.

«ماذا تريدين أن تتغدى اليوم يا مدام» !؟.. «أعجبنى كثيرًا ذلك اللحم المفروم المعمول على شكل أصابع ومشوى على الفحم».. «اسمه كباب وكفته» «كيباب وكوفتا».. «لأ.. كباب وكفتة».. «كيباب وكوفتا».. «خلاص، كيباب وكوفتا كيباب وكوفتا، خليكى على راحتك.. لكننى سآخذك اليوم إلى مطعم آخر سوف يعجبك الجو فيه كثيرًا».

كنت - منذ ١٥ سنة - حين تحتاج ظروف العمل إلى أن أسهر ليلة كل أسبوع فى مطبعة دار الهلال لمتابعة مونتاج مجلة الإذاعة والتليفزيون قبل دخولها إلى المطبعة، كنا شلة المجلة فى وسط السهرة نذهب كلنا لنتعشى كباب وكفتة من عربية يد فى حارة مبلطة صغيرة جدًّا فى مواجهة مسجد السيدة زينب.. فنقعد على دكة خشبية لا تعرف لونها الأصلى كان إيه، ومائدة خشبية لم يكن لها لون أصلى فى يوم من الأيام.. ومع ذلك فقد كانت هذه العشوة الظريفة والقعدة الأظرف وشلة شبان المجلة - كنا

شبانًا من ١٥ سنة - تساوى تعب وإرهاق الأسبوع.. وكان كل منا يتكلف ليس أكثر من ٣٠ أو٤٠ قرشا..

ومنذ سنتين هفت هذه القعدة على بالى.. تذكرتها ذات ليلة وأنا سهران فى بيتى مع عدد من الأصدقاء، فنزلنا كلنا لنذهب لنتعشى فى نفس المكان. لكننى وجدت المسألة قد اختلفت تمامًا وربنا فتح - بشدة - على كبابجى عربية اليد فتحول - فى نفس المكان بالضبط - إلى مطعم كبير أنيق فى بساطة وشديد النظافة إلى حد يثير الانتباه، ورائحة الشواء تملأ الحارة كلها وتفتح النفس أكثر مما هى مفتوحة.. والسفرجية بجلاليبهم البيضاء الناصعة يروحون ويجيئون بين الموائد بسرعة ونشاط، والابتسامة تملأ وجوههم،وسرعة تلبية الطلبات.. تطلب أى شيء فيكون عندك حالاً.. والماء المثلج والأكواب التى تبرق من النظافة، والفوط النظيفة، والموائد البيضاء النظيفة. وكل شيء يجعلك تأكل بنفس وتشبع بنفس، وتقوم هانئًا راضيًا سعيدًا.. ورغم أننى دفعت ليلتها ١٠٠ ضعف بالضبط ما كنت أدفعه من ١٥ سنة، إلا أننى كنت سعيدًا لأن الجو والقعدة كانت تساوى ذلك وأكثر، كما أن الأسعار فى كل الدنيا شاطت وولعت..

تذكرت هذا المطعم الظريف وأنا و «مارجريت» خارجين من المتحف الإسلامى، فقلت فى نفسى: «هو ده.. قطعًا حاننبسط جدًّا من الجو كله على بعضه».

وذهبنا.. فباظ اليوم كله.

جغرافيًّا، الموقع هو نفس الموقع، وموجود مطعم فعلاً فى نفس المكان، لكنه شيء مختلف تمامًا تمامًا تمامًا.. من أول لحظة تشعر بأن كل شيء قد

تغير -فى خلال سنتين فقط- الموائد لم تمتد إليها يد بأى نوع من التنظيف منذ أن وضعت فى هذا المكان، وليس عليها مفارش.. المكان كله على بعضه أصبح معتما مقبضًا وأرضيته قذرة، وجدرانه قذرة، وكأن الزبائن يمسحون أيديهم فيها، لأنه لم تعد هناك فوط على الموائد.. السفرجية يرتدون جلاليب قذرة لا تستطيع أن تكتشف لونها الأصلى وكأنهم يشتغلون فى ورشة حدادة وليس فى مطعم.. السفرجى الذى أحضر لنا ما طلبناه يبدو أنه كان قد أصيب فى حادث ما منذ أكثر من شهر، وذراعه متعور ومربوط بشاش قذر ملئ بآثار دم أحمر قديم قاتم، ويحمل كل الأطباق على ذراعه السليم، ويضعها أمامك على المائدة بذراعه المتعور، وكأنه يضع شاشه وقطنه الملىء بالدم فى طبقك.. وشكل التعامل الغريب جدًّا الذى يتعامل به السفرجية معك وكأنهم يكرهون الزبون ويحتقرونه.. ووضع السفرجى طبقى الكباب - طبقين صاج - أمامنا وتركنا ومشى.. فناديته وسألته: «مفيش سلطات»!؟ فذهب إلى مائدة قريبة منا كان زبائنها قد أكلوا وانصرفوا فأخذ من على المائدة طبقًا (كان فيه) سلطة خضراء ولم يبق فيه الآن إلا أقل من نصفه!! طلبت منه ماء فذهب وأخذ شفشقًا «ألمونيوم» من أمام زبائن لسه قاعدين بياكلوا فعلاً!!

حين خرجنا من المطعم قالت لى «مارجريت»: هل قلت لى إنك كنت تأكل فى هذا المكان منذ ١٥ سنة»!؟ قلت: «آه» قالت: «الآن عرفت السبب الذى جعلك تهاجر من مصر إلى إنجلترا»!!

الفصل الخامس

جريمة فى الحمام!

كان اليوم هو اليوم السيىء بالنسبة لمارجريت طوال زيارتها لمصر.. كنا قد تعودنا أن تستيقظ هى بدرى جدًّا قبلنا، وتأخذ حمامها الصباحى وتتزوق وتتزين، وتعد الإفطار بنفسها وعلى مزاجها هى واختيارها، ثم تجيء لتوقظنا - قبل السابعة صباحًا - بصينية الشاى والإفطار..

اليوم حين فتحت عيناى فى الصباح وحدى دون أن أجد «مارجريت» أمامى جالسة على حافة الفراش كعادتها وصينية الإفطار بيننا، ونظرت إلى الساعة فوجدتها السابعة والنصف صباحًا، قلقت على «مارجريت»، فأيقظت ابنة أختى وذهبنا إلى غرفة «مارجريت» فوجدناها جالسة فى فراشها وعينيها - الخضراوين الجميلتين - مليئتين بالدموع.. «صباح الخير يامارجريت».. ماذا حدث؟ هل حلمت حلمًا مفزعًا!؟.. قالت من بين دموعها: «أى خير هذا الذى تتحدث عنه.. أنا لم أنم لحظة واحدة طول الليل.. هذه الكلاب التى تنبح طول الليل فى الشارع تحت العمارة،

أليس لها أصحاب !؟ هل هي مطلقة في الشوارع هكذا طول الليل لكي تحرم سكان الحي من النوم؟ ومع أن عمارتكم إلى جوار قسم البوليس مباشرة، فإذا لم يكن السكان يستطيعون شيئًا تجاه هذه الكلاب، أفلا يستطيع البوليس شيئًا !؟ في إنجلترا - كما أظنك تعرف - لا يوجد كلب بدون صاحب، ومع ذلك فهناك فرق خاصة تجوب الشوارع طوال اليوم، فإذا وجدت كلبًا وحده وليس معه أحد، أو ليس مع أحد - وذلك شيء نادر جدًّا جدًّا - فهي تأخذه إلى حظيرة الكلاب في منطقة (باترسي) حيث تحتفظ به لمدة أسبوع واحد، أسبوع واحد فقط لا غير، فإذا لم يطالب به أحد، أو لم يتقدم لشرائه أحد، فإنه يُعطى حقنة خاصة تميته في ثوان، ويتم التخلص منه.. وبهذه الطريقة يتم إعدام ١٦٠ ألف كلب في السنة في كل أنحاء إنجلترا، مع أننا - الإنجليز - شعب يحب الكلاب جدًّا إلى درجة الهوس.. لكنني هنا في مصر على كثرة بيوت الأصدقاء التي زرتها معكما لم أجد بيتًا واحدًا يقتني كلبًا، وكل الكلاب عندكم مطلقة السراح في الشوارع، تختفي بالنهار وتعقد مؤتمراتها في الليل، لتنبح طول الليل تحت النوافذ والبلكونات، في المناطق السكنية وكأنها تنتقم من السكان.. كل ليلة كنت أشعر بها فكنت أضع قطنًا في أذني ثم أستغرق في النوم من الإرهاق والتعب والدوران طول اليوم، لكنها الليلة كانت فظيعة ولم ينفع معها لا قطن، ولا تعب، ولا إرهاق.. قطعًا هناك حل ما لهذه المؤتمرات النابحة طوال الليل.. لكنني لو قضيت ليلة أخرى كهذه فسوف أعود إلى إنجلترا فورًا، لكي أكمل نومي هناك»!!

كانت هذه هي «افتتاحية» اليوم.. ثم كان اليوم نفسه شديد الحرارة..

وعدنا من زيارتنا الثانية للأهرامات وأبي الهول لكي نجد المفاجأة رقم ٢ في انتظارنا: عصابات بوابي العمارات في القاهرة الآن أصبحت تكون «مافيا» لابتزاز السكان، وإرهابهم بوسائل أصبح كل السكان يعرفونها جيدًا ومع ذلك فهم لا يستطيعون مقاومتها ولا يجدون لها حلا.. أصبح البوابون الآن هم أسياد الموقف - بموافقة وتأييد و «مشاركة» أصحاب العمارات - وهم المتحكمون والقادرون على جعل السكان يرفعون أيديهم مستسلمين ويخرجون محفظة نقودهم ويسلمونها للبوابين صاغرين.

عدنا إلى البيت عصرًا بعد ليلة لم تنم فيها «مارجريت» من نباح الكلاب، ويوم في صحراء الهرم في عز الحر، لكي نجد المياه مقطوعة عن جناح العمارة الذي فيه شقتي و ٢٢ شقة أخرى.. وإعادة المياه إلى الشقق يتطلب سباكًا، وإحضار السباك يتطلب أن تدفع كل شقة ٨ جنيهات الآن حالاً وفورًا، وإلا فسوف تقضي بقية اليوم والليلة وصباح غد - في عز الحر هكذا - بدون مياه في الشقق!! ويلم السادة البوابون ٢٠٠ جنيه في خبطة واحدة من الـ ٢٣ شقة بحجة المياه المقطوعة والسباك.. وندفع صاغرين.. ويتكرر ذلك مع كل جناح من جناحي العمارة مرة كل أسبوعين أو ثلاثة على الأقل.. وليس هناك جهة ما رسمية في البلد يلجأ السكان إليها من عسف وإرهاب وابتزاز البوابين ومن ورائهم أصحاب العمارات.

وأدفع صاغرًا فعندي ضيفة أجنبية لا أريد أن تنفضح أمامها، ويدفع ٢٢ ساكنًا آخرين صاغرين.. ومع ذلك فلا تعود المياه قبل السابعة مساء، حين يتم التحصيل من السكان المغلوبين على أمرهم، فيفتح السادة

البوابون المحبس الذى كانوا قد قفلوه.. هكذا!!

ثم كانت ثالثة الأثافى.. فليلة كاملة لم تنم فيها «مارجريت» - التى تنام من العاشرة مساء عادة - ويوم فى صحراء الهرم فى عز الحر، ومياه مقطوعة لعدة ساعات بعد العودة إلى البيت، ثم: ضربة شمس عادت بها من صحراء الهرم جعلتها تفرغ كل ما فى معدتها عدة مرات، وترقد سطيحة فى الفراش وهى لا تقوى حتى على البكاء، وتعتقد أنها سوف تموت فى مصر الآن حالاً وتدفن فى مقابر الصدقة، وهى مقابر مؤكد لا تتوفر فيها «الشروط الصحية» الكافية!!

واحتست أنا و «ثناء» ولم نعرف ماذا نفعل.. فكلانا لم يمر بتجربة كهذه من قبل.. فاستنجدنا بجارتينا فى الطابق العاشر: «إيلين» و «حياة».. اللتين صعدتا على الفور.. وكانت المياه قد عادت فأخذت «حياة» مارجريت إلى الحمام فى دش رائع؛ وعادت بها إلى الفراش لتجلس إلى جانبها تهدهدها وتلاغيها وتدلعها حتى خرجت «إيلين» من المطبخ وهى تحمل صينية عليها فرخة مسلوقة فى شوربة لسان العصفور.. وجلستا حول «مارجريت» فى الفراش تفصصان لها الفرخة وتطعمانها بأيديهما فى فمها كالأطفال الظغنين المرضى، حتى لمعت الدموع فى عينيها - الخضراوين الجميلتين - وقالت وهى تشرق بدموعها وبشوربة لسان العصفور: «مرة أخرى هذا هو الفارق بيننا وبينكم.. العلاقات الأسرية عندنا مقطوعة تمامًا.. وقد تتزوج البنت وتنسى أن تخبر والديها بذلك، وقد تهاجر البنت من إنجلترا إلى أستراليا - مثلاً - ولا تتذكر أن

تبلغ أسرتها بذلك إلا بعد سنة أو سنتين، وقد يختفى الولد من بيت أسرته فلا تلاحظ الأسرة ذلك غير بعد عدة شهور.. وإذا كان هكذا شكل علاقة الأسرة ببعضها عندنا، فإن شكل الصداقة قد فقد معناه أصلا.. ليس هناك الصديق وقت الشدة A FRIEND IN NEED A FRIEND INDEED كما كان المثل الانجليزى يقول زمان.. حتى لقاء الأصدقاء - أو الصديقات - فى بيوت بعضهم البعض أصبح مسألة نادرة الآن تمامًا.. يلتقون فى الـ «پبPUB» أوالمشرب ليشربا كأسا أو كأسين ثم قد لا يلتقيان مرة أخرى بقية الأسبوع، وإذا اختفى أواختفت واحدة من شلة الصديقات. ولم تذهب إلى الـ«پب PUB» فى الموعد الأسبوعى، فلن يشغل واحد من بقية الشلة باله بأن يرفع سماعة التليفون ويتصل بها ليعرف ماذا حدث لها.. أصبح كل فرد الآن فى أوربا جزيرة منعزلة لا علاقة لها ببقية الجزر، بل ولا تهمها بقية الجزر عامت أو غرقت.. لذا تكثر حالات الانتحار فى أوروبا الآن بين شبان وشابات صغيرات، لأنهم يشعرون ويشعرن بالوحدة الشديدة وبأن أحدا لا يأبه لهم.. ويترك العواجيز أبواب بيوتهم مفتوحة - أو على الأقل غير مغلقة بالمفتاح - حتى لا يموتوا وحدهم، والشقة مقفولة عليهم فلا يشعر بهم أحد.. وأظنك سمعت عن ممثل السينما الأمريكى الشهير «وليم هولدن» الذى مات فى بيته، ولم يكتشفوا موته غير بعد ٤ أيام حين تخلف عن موعد عمل هام.. ومغنى (الروك آند رول) الشهير «ألفيس بريسلى» الذى مات بنفس الطريقة وعثروا على جثته فى الصباح التالى - بالصدفة - بعد ساعات طويلة من موته».

وعادت تبكى من جديد وهى تقبل «ثناء» و «حياة» و «إيلين» وأنا لأ ..

كان المفروض أن نسافر فى الصباح التالى إلى «أبو سمبل» بالطائرة لنقضى نصف يوم هناك، ثم نعود على نفس الطائرة من «أبو سمبل» إلى أسوان لنقضى فيها يومًا واحدًا تشاهد فيه «مارجريت» معالم أسوان الشهيرة: خزان أسوان، والسد العالى، ومعبد كلابشة، وقبر أغا خان، وجزيرة النباتات، وقبة«سيدى على أبو الهوا» وقبائل البشارية، ونبيت ليلة واحدة فى فندق (نيو كتاراكت)، ثم فى اليوم التالى نستقل الباخرة النيلية. أو الفندق العائم لمدة ٤ أيام و ٤ ليالى بين أسوان وإدفو والأقصر، ونقضى فى الأقصر يومًا واحدًا أيضًا. تشاهد فيه معبد الأقصر ومعبد الكرنك وطريق الكباش، والبحيرة المقدسة، ووادى الملوك ووادى الملكات ومعبد الملكة الشهيرة «حتشبسوت» وقصر الأميرة «عين الحياة»، ونبيت ليلة واحدة فى فندق (ونتر بالاس)، ثم نركب القطار من الأقصر إلى القاهرة.. لكى تكون «مارجريت»-كسائحة - قد رأت أهم آثار مصر العليا، واستعملت ٣ وسائل انتقال فى رحلة واحدة: الطائرة والباخرة النيلية والقطار.. وذلك طبعًا غير الفلوكة فى أسوان وعربات الحنطور فى الأقصر، والمعدية بين شرق النيل وغربه فى الأقصر أيضًا..

كل ذلك ألغى الآن.. «مارجريت» بعد أن جربت ضربة الشمس فى القاهرة فى عز يونيو، رفضت تمامًا أن تذهب جنوبًا ولا خطوة واحدة: «وكمان عايز توديني أبو سمبل على بعد أكثر من ١٠٠٠ ميل جنوبًا من

القاهرة!؟ إذا كانت دماغى قد ساحت من شمس القاهرة فماذا سيحدث لى فى أبو سمبل وأسوان والأقصر!؟ أنت تريد أن تتخلص منى قطعًا.. لن أتحرك من هنا خطوة واحدة جنوبًا، لكن إذا كنت تريد أن تأخذنى شمالاً إلى الشاطئ وإلى البحر الأبيض فسأكون جاهزة بعد ١٠ دقائق»!!

- اصبرى قليلاً ياسيدتى الجميلة، لم يأت دور الشاطئ بعد.. فغدا هو أول أيام عيد الأضحى المبارك، وقد دعانا بعض الأصدقاء لنقضى أول يوم العيد معهم لكى ترى شكل وتقاليد الاحتفال بالعيد على الطريقة الإسلامية المصرية.

كانت ضربة الشمس التى أصابت «مارجريت» أمس أهون كثيرًا مما أصابها اليوم.. كنا مدعوين اليوم - أول أيام عيد الأضحى - للإفطار عند أسرة مصرية صديقة.. وطلبوا منا أن نكون عندهم قبل السابعة صباحًا، لكى ترى «مارجريت» مراسم الاحتفال بالعيد من بدايتها.. والذى دار بذهنى أنا شخصيًا أن هذه «المراسم» هى صلاة العيد والتكبيرات و (الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرًا، ربنا ولك الحمد) ثم الإفطار بالفتة بالخل والتوم واللحم المسلوق والمرق والممبار إلى آخر إفطار عيد الأضحى الذى كنت قد افتقدت طعمه - ولا أقول نسيته - بعد ١٦ عيد أضحى لم أشهدها فى مصر منذ تركتها إلى أمريكا ثم انجلترا.

لكن الذى لم أكن أتصوره هو أن (هذه المراسم من البداية) - كما قالوا لى - سوف تؤدى إلى كارثة .. وحين جاءت مضيفتنا ربة البيت لكى تأخذ «مارجريت» من ذراعها تدعوها للذهاب معها إلى الحمام، لم

أفطن إلى سبب هذه الدعوة إلا بعد أن كان الوقت قد فات فعلاً.. وأنا أقفز من مقعدى جاريًا إلى الحمام لكى أحول دون وقوع الكارثة، كانت الكارثة قد وقعت فعلاً، وارتفع صراخ «مارجريت» الهيستيرى يملأ الشقة كلها، والعمارة كلها، بفزع شديد وقد امتقع وجهها من الهلع والرعب وهى تشد شعرها الأحمر بعنف، وأنا أحاول أن أسحبها بعيدًا عن الحمام، حتى سقطت من طولها مغشيًا عليها.

وذعر الجزار وفر هاربًا وقد ظن أنه ربما لضعف بصره قد ذبح «شخصا» آخر غير الخروف.. وحين فتحت «مارجريت» عينيها صاحت: «هل قبضتم عليه؟».. «قبضنا على مين يا مارجريت؟»..«على ذلك المجرم الذى قتل ذلك الحمل المسكين».. «ليس مجرمًا إنه جزار، وليس حملاً إنه خروف».. وشرحت لها بهدوء وبالراحة فكرة التضحية بخروف العيد و: «وأنت لست نباتية وتأكلين اللحم.. فهل تظنين أن اللحم الذى تأكلينه لحما صناعيًا مثلاً»!؟ لكنها انتطرت واقفة وأصرت على أن ننصرف فورًا من عند هؤلاء الناس الهمج البرابرة المتوحشين الذين يدعوننا لنشاهد قتل خروف مسكين مهما كانت الأسباب.. «وكيف تظنينهم يذبحون الخرفان فى أوروبا؟ هل يطلقون عليها الرصاص أو يعدمونها بالكرسى الكهربائى»؟.. «لكنها لا تذبح هكذا.. إنها تذبح بآلات خاصة تجعلها لا تشعر بالألم، ولا أراها وهى تذبح فى حمام شقة هكذا وكأنكم ترتكبون جريمة قتل.. كيف تطلبون من أطفالكم أن يكونوا رقيقى المشاعر والأحاسيس وهم يشهدون هذا المنظر البشع مرة على الأقل كل عام!؟ هل هؤلاء الأطفال سيرسمون فنًا أو يكتبون شعرا

أو يؤلفون موسيقى فى يوم من الأيام»!؟

أربعة أيام بعدها و«مارجريت» لا تأكل اللحم وقد فقدت شهيتها أصلاً، وتشيح بوجهها إذا مررنا على محل جزار، وتلمع الدموع فى عينيها - الخضراوين الجميلتين - إذا مررنا بخروف «لسه صاحى» وتربت على رأسه بحنان وحزن كأنما تواسيه فى مصابه الفاجع.. حتى تصورت أنا أنها سوف تصبح نباتية من الآن إلى آخر يوم فى حياتها.

بعد ٤ أيام كنا فى سيدنا الحسين ليلا، ومررنا على مطعم تفوح منه رائحة الكباب فتملأ المنطقة كلها وتخترق النغاشيش الجوعى الهفتانة.. فنظرت «مارجريت» إلى المطعم طويلاً ثم دون أن تدير وجهها إلى ناحيتى سألتنى بصوت خافت: «حسين.. تفتكر الرستوان ده عنده كوفتا» !؟.

وأكلت وحدها طن كفتة، على روح شهداء عيد الأضحى المبارك!

انتهزت فرصة أن مارجريت قد عادت إليها ابتسامتها أخيرًا، فرأيت أن أريها شيئًا آخر جديدًا عليها تمامًا لاتراه فى أوروبا كلها.. فقد ظننت أن منطقة الأزهر وسيدنا الحسين، تسهر طول الليل لأسباب سياحية فقط.. ومنذ أن تعرفنا ببعض من ٨ سنوات وهى تقول لى دائما: «أنت إنسان غريب وشاذ.. هل تظن أن هناك شخصًا آخر غيرك ممكن أن يكتفى بنوم ٣ أو ٤ ساعات فى اليوم كله!! أنت مجنون وتنتحر بذلك، وتظن أنك تستمتع بيومك أكثر».. «يا سيدتى الجميلة أنت تنامين ٨ ساعات فى اليوم على الأقل، ومع ذلك فأنا أكبر منك بخمس سنوات ولم أمت بعد، وصحتى زى الحديد.. ولست أنا وحدى هكذا، لكن المصريين كلهم ناس (سهيرة)

يعشقون السهر للصبح.. ناس يعشقون الحياة ويعيشونها».. ولم تصدقنى حتى جاءت إلى مصر. ورأت بعينيها - الخضراوين الجميلتين - الأصدقاء يسهرون عندى ونسهر عندهم حتى الثالثة والرابعة صباحا.. ثم شهدت - وسهرت - فى الأزهر وسيدنا الحسين عدة مرات.. ولما كنت فى كل مرة نفكر فيها فى السهر فى القاهرة القديمة آخذها إلى سيدنا الحسين، فقد ظنت هى أنه الحى الوحيد الذى يسهر طول الليل فى القاهرة..

الليلة بعد أن سهرنا فى سيدنا الحسين، حتى قرب الثانية صباحًا قلت لها: «ياللابينا نذهب إلى مكان آخر».. وذهبنا إلى السيدة زينب لكى نشرب عصير قصب من محل هناك.. لم يعجبها عصير القصب لأن حلاوته زاعقة، فشربت أنا الكوبين وشربت هى عصير برتقال.. ثم مشينا من جوار المدرسة السنية إلى حى الناصرية.. وانبهرت «مارجريت» للمنظر الخارجى لـ (حمام السوق) الذى لازال باقيًا حتى الآن.. وشرحت لها فكرته فقالت إنها نفس الفكرة التى تطورت لتصبح الـ (ساونا) الآن.. وانبهرت مرة أخرى حين رأت كل محلات ودكاكين الحى فاتحة طول الليل هكذا - الثانية بعد منتصف الليل - والمقاهى مليئة بالناس طول الليل هكذا. والصياح المنغم للجرسون البلدى ذى الجلابية والطاقية والمريلة وصينية الطلبات على يد واحدة وفيها عشرات الأكواب من كل صنف ولون: قهوة، شاى، ينسون، حلبة، جنزبيل، كراوية قرفة.. والأطفال يلعبون الكرة الشراب فى الشوارع فى ذلك الوقت المتأخر من الليل، والستات والبنات رايحين جايين فى الشوارع فى أمان واطمئنان تمامًا، بعكس الفكرة التى كانت عند «مارجريت» من أن المرأة المصرية

لا تخرج من باب بيتها بعد غروب الشمس، حتى لا يختطفها أحد أو يعتدى عليها أحد.. ومحلات الفكهانية والفاكهة المرصوصة تلالاً تضوى من النظافة تحت أضواء الكلوبات، وعربات باعة التين الشوكى وعربات البطاطة المشوية، وعربات الكبدة والكباب والكشرى بشكلها المميز، ثم عربات البليلة وحمص الشام، والبخار يتصاعد منها جميعا.. وتختلط الروائح الشهية لتداعب النغاشيش مرة أخرى لكن «مارجريت» كانت قد امتلأت بالكفتة و - تانى - العين بصيرة والمعدة الأوروبية صغيرة لا تحتمل الرمرمة التى تستوعبها المعدة المصرية المصفحة التى ممكن أن تتعشى ٣ مرات فى ليلة واحدة إذا كانت المسألة تستاهل!!

وفى ميدان عابدين أريتها قصر عابدين الذى كان «فاروق» آخر ملوك مصر يحكم منه، وأريتها البيت الذى عشت فيه أنا فى نفس الميدان لمدة سنتين ونصف فى أوائل الستينات.. ودهشت حين رأت الشقة التى كنت أسكنها مضاءة، وسألتنى: «هو فيه حد آخر سكن فى الشقة دى بعدك»!؟ فقلت مندهشًا لدهشتها: «ياسلام.. أمال يعنى حايعملوها متحف؟!».. وأكملنا المشوار فى شارع محمد فريد أو عماد الدين لكى نصل إلى منطقة المسارح، لترى المسارح وهى تنهى عروضها والجمهور يخرج منها ليملأ الشوارع فى ذلك الوقت المتأخر جدًا من الليل أو المبكر جدًا من الصباح، بينما كل المسارح ودور السينما فى لندن - وفى كل أوروبا - تنهى عروضها فى العاشرة والنصف مساء على الأكثر، حتى يلحق روادها بوسائل المواصلات العامة - الأندرجراوند - والاوتوبيسات - ليعودوا إلى بيوتهم فى وقت مناسب، لأن اليوم التالى

يوم عمل، وعليهم أن يكونوا فى مكاتبهم قبل التاسعة صباحًا.

لأنها ولدت وعاشت طفولتها وصباها فى ضاحية (تشينجفورد) فى أقصى شمال مدينة لندن، حيث هى أقرب إلى الريف منها إلى المدينة، ثم عاشت بعد ذلك ١١ سنة فى أستراليا على حافة مدينة (ملبورن)، المدينة أمامها والريف وراءها.. لذا فقد كانت «مارجريت» مهتمة جدًّا وشغوفة جدًّا بأن ترى الريف المصرى.. ولما وعدتها بأن أرتب لها زيارة لمدينة بلبيس التى عشت طفولتى فيها حتى سن الثامنة ثم لم أرها مرة أخرى إلا بعد ذلك بثلاثين سنة، قالت لى: «أريد أن أرى البيت الذى نشأت فيه، ومدرسة الأطفال والمدرسة الابتدائية اللتين كنت طفلاً وولدًا صغيرًا بهما.. لكننى أيضًا أريد أن أرى الريف نفسه وليست مدينة بلبيس فقط»..

لى أصدقاء كثيرون فى قرية قريبة من بلبيس منذ دعانى المرحوم المهندس «شكرى أيوب» محافظ الشرقية الأسبق مرات عديدة لزيارة قريته (كفر أيوب سليمان) على بعد ٣ كيلو مترات من بلبيس، وكنت فى كل زيارة ألتقى بشبان وشابات كفر أيوب فى قعدات دردشة حول الصحافة والفن والأدب والسفر إلى الخارج والحياة فى أوروبا.. «عادل عبد المقصود» الطالب بكلية اللغات والترجمة فى جامعة الأزهر هو سفير كفر أيوب عندى وسفيرى عندهم، ينقل لى أخبارهم وينقل لهم أخبارى بين كل لقاءين.. رتب «عادل» لنا أن نزور مدينة بلبيس لساعة واحدة، ثم نقضى بقية اليوم فى حقول كفر أيوب.

فى الصباح نزلنا من البيت عندى شلة من الأصدقاء وبنات الأسرة: مارجريت وأنا، وعزة، وثناء، وسيد، ومعنا دليلنا عادل.. «مارجريت»

تتلفت حولها طول الوقت، طول المسافة بين القاهرة وبلبيس - ٥٠ دقيقة - وتسأل عن كل شيء وتستفسر عن كل شيء: «كيف تكون هذه هي دلتا نهر النيل، وفيها كل هذه المناطق الصحراوية!؟ حتى المنطقة التي في حضن فرعي النيل ليست كلها مزروعة»!!

وصلنا إلى بلبيس.. المعالم التي كنت أعرفها وأتذكرها قد اختلفت تمامًا أو «اختفت» تمامًا.. البيت الذي نشأت فيه هدم وبنيت مكانه عمارة كبيرة.. (روضة أطفال الأمريكان) لم يعد هناك روضة أطفال بهذا الاسم ولم يتذكر أحد مكانها وحين التقينا بواحد من جيلي ومعاصري وسألناه قال إنه أبدا لم توجد في مدينة بلبيس روضة أطفال بهذا الاسم!! بعض الناس يصرون على أنه ليس في العالم دولة اسمها تشيكوسلوفاكيا ماداموا هم لم يسمعوا عنها من قبل.. حتى مدرستي الإبتدائية التي كانت المدرسة الابتدائية الوحيدة في بلبيس في ذلك الوقت (مدرسة بلبيس الابتدائية الأميرية) ضاعت في زحام عشرات المدارس الابتدائية التي تملأ المدينة الصغيرة الآن.. لم أستطع أنا أن أتذكر اسم الشارع الذي كانت فيه المدرسة، ولم يستطع أحد أن يدلني على أقدم مدرسة في المدينة.. الشيء الوحيد الذي بقي في موضعه هو مركز البوليس الذي كان أبي رئيسه.

وخرجنا من بلبيس و «مارجريت» محبطة جدًا، وأنا أشد منها إحباطا، فقد ضاعت كل معالم وذكريات طفولتي بفعل الزمن الذي لا يبقى شيئًا على حاله.

بعد ٣ دقائق كنا في كفر أيوب سليمان.. وجولة سريعة في شوارع القرية التي خرج كل أطفالها يجرون وراءنا يتفرجون على «الست

الخواجاية».. وقد استنتجوا أن «مارجريت» هي «الخواجاية» بيننا، ربما لأن شعرها أحمر، وربما لأنها تتكلم لغة لا يفهمونها!!.. وشاهدت «مارجريت» كل شيء على الطبيعة بدون ترتيب.. يوم عادى من أيام القرية المصرية.. الفلاحات يجلسن أمام أفران الخبيز ورائحة الخبز الفلاحي الشهي تملأ الجو حولهن.. رطنت «مارجريت» شيئًا للفلاحة الجميلة التي تجلس أمام الفرن، لم تفهمه الفلاحة طبعًا، لكنها بكرم شرقاوى أصيل مدت يدها لمارجريت برغيف لسه خارج من الفرن سخن ملهلب.. فراحت «مارجريت» تنقل الرغيف بين راحتيها وهي تصوصو من سخونته، ولم ينبها منه إلا قطمة أو قطمتين لأن «ثناء» و «عزة» خطفتا منها الرغيف، ونال كل واحد من المجموعة كلها نصيبًا من الرغيف الواسع الطرى الساخن الشهي.. ورأت «مارجريت» جملًا يتمشى وحده في شوارع القرية،ووقف الجمل مستكينا و «مارجريت» ترفع ذراعها إلى أقصاه لكي تلمس بيدها رقبته حتى ألتقط لها صورة تذكارية معه.. وما أن التقطت الصورة وربتت «مارجريت» بيدها على رقبته حتى فهم الجمل الذكي أن مهمته قد انتهت، فعاد يتمشى وحده من جديد.. لكنها حين رأت جاموسة سوداء ضخمة مربوطة في وتد وهي تتناول غداءها واقتربت مارجريت منها فرفعت الجاموسة رأسها الكبير ونظرت إلى «مارجريت» بعينيها السوداوين الواسعتين الجميلتين وخارت بما يشبه الغضب وكأنها تخشى أن تشاركها «مارجريت» غداءها، فاكتفت «مارجريت» بأن لوحت لها بيدها من بعيد وهي تقول لها: «هاللو».

وحين دخلنا في الحقول والممرات الضيقة بين المزروعات، صاحت

«مارجريت» كطفلة صغيرة جذلة، وهي ترى حقول الذرة ثم القطن فالأرز مترامية على امتداد البصر وليست هناك أية مباني في طريقها.. هذا هو الريف ببساطته وسحره واتساعه..

ووصلنا إلى ماسورة ضخمة تعمل بـ (وابور) لسحب المياه الجوفية من باطن الأرض وتتدفق المياه بقوة وشدة من الماسورة الكبيرة لكي تصب في قناة أو مجرى صغيرة تأخذ المياه المتدفقة لكي تروى بها الحقول.. وحاولت «ثناء» بحجمها الصغير جدًّا الرشيق جدًّا، المحندق جدًّا أن تستند إلى الماسورة لكي تأخذ حفنة ماء بكفها إلى فمها، كما كنا نفعل ونحن أطفال حين نشرب من حنفيات المدرسة، لكن قوة دفع الماء الخارج من الماسورة الضخمة خبط «ثناء» في وجهها ففقدت توازنها وسقطت بجسمها كله في القناة الصغيرة التي تصب فيها الماسورة.. وانتشلناها بسرعة قبل أن يجرفها التيار بعيدًا عنا وحد يلاقيها فيأخذها.. وخرجت وقد ابتل تمامًا (السلوبيت) البمبي الذي كانت ترتديه، فالتصق بجسدها كله، فذكرتني بمنظر الممثلة الايطالية «سيلفانا مانجانو» في فيلم (مرارة الأرز) الذي شهدناه ١٥ مرة ونحن مراهقين ولازلنا نذكره حتى الآن.. وقطعًا شبان كفر أيوب الذين كانوا معنا سيظلون بقية عمرهم يتذكرون شكل «ثناء» و (السيلوبيت) المبتل ملتصق بجسدها.. لكن ضحكة «ثناء» العريضة المرحة المهياصة لم تختف من وجهها لحظة واحدة حتى وهي موشكة على الغرق في (شبر ترعة).

ورأت مارجريت حمارًا أبيض صغيرًا يقف هادئًا على مقربة منا ينظر إلى ناحيتنا في وداعة وكأنه يتفرج علينا.. فذهبت إليه تربت على رأسه

بود وحنان.. وفى اللحظة التالية كانت قد قفزت فوق ظهره والحمار مستسلم - ولا شك أنه سعيد - وقامت به «مارجريت» بتمشية رايحة جاية فى الغيط عدة مرات، وهى سعيدة جدا بأنها تركب حمارًا لأول مرة فى حياتها.. وسألتنى وهى تنزل من فوق ظهره: «تفتكر الحمار اللى زى ده يساوى كام بالاسترلينى».

وتفسحنا فى الحقول فترة طويلة، والشلة تزداد وتكبر طول الوقت، حتى حان موعد الغداء، فوجدنا تحت شجرة وارفة ظليلة طبلية كبيرة تحتها حصير مفروش.. وأكلت «مارجريت» غداء مختلفًا تمامًا فى جو مختلف تمامًا: البتاو الفلاحى الطرى الكبير + فطير مشلتت + قشطة رايبة + جبنة قريش + مش أو جبنة قديمة، كان واضحًا أنها مش قديمة أوى، فلم يكن فيها «أشياء صاحية» ممكن أن تثير فزع «خواجاية» مش واخدة على وجود هذه «الأشياء المتحركة» فى صنف ما من أصناف الأكل.

وبعد الغداء جاء الأولاد بحبل من الليف ربطوه بين شجرتين متقاربتين ليكون مرجيحة فلاحى ظريفة جدا، اتسعت لها عينا «مارجريت» - الخضراوان الجميلتان - من الدهشة،وشهقت وكادت أن يغمى عليها وهى ترى البنتين المصريتين «ثناء» و«عزة» وهما تجلسان على مخدة صغيرة وضعت فى وسط هذا الحبل الليف لتتمرجحا بخفة ورشاقة.. وحين عرضت على «مارجريت» أن تتمرجح هى أيضًا رجعت خطوتين إلى الوراء، وقالت: «أبدا.. هذا الحبل لن يتحمل ثقل جسدى» قلت: «لقد تحمل ثناء» قلت: «إن ثناء فراشة رشيقة.. إننى أستطيع أن أحملها

بإصبعين فقط» قلت: «لقد تحمل عزة» قالت: «وعزة عصفورة مزقلطة ليس إلا» قلت لها متحديا: «وما رأيك فيّ أنا»؟ قالت بتحد: «أراهنك على كل ما في جيبي أن الشجرتين سوف تنخلعان من مكانهما بمجرد أن تجلس أنت على هذه المرجيحة الحبل»..فجلست وتمرجحت وعليت لفوق ونزلت لتحت، لكن لم يكن في جيب «مارجريت» إلا منديل، وكلينكس كمان.. لكنها كانت قد تشجعت، فوضعت نفسها في وسط المرجيحة وهي تنظر إلينا محذرة بنظرة صارمة جادة وكأنها تركب صاروخًا سوف ينطلق بها إلى الفضاء: «لا أحد يقترب مني.. دعوني أتمرجح وحدي دون أن يزقني أحد».. وبدأت تقلد ما رأت «ثناء» و «عزة» تفعلانه، فدفعت بقدمها في الارض فكادت أن تنكفيء على وجهها، ودفعت بقدمها في الأرض مرة أخرى فكادت ان تنقلب على ظهرها.. فرفعت قدميها من على الأرض قليلاً وطلبت من «ثناء» – أخفنا حجما وأرشقنا وأكثرنا أدبًا وتهذيبًا – أن تدفعها دفعة صغيرة: «دفعة صغيرة فقط ياثناء.. فاهمة؟».. ودفعتها «ثناء» دفعة صغيرة فتأرجحت «مارجريت» في الهواء قليلاً، ثم دفعة صغيرة أخرى، ودفعة صغيرة ثالثة و«مارجريت» تضحك سعيدة فقد بدأت تتمرجح فعلاً.. لكن دفعة «ثناء» التالية أطاحت بمارجريت إلى أعلى، وهي تصرخ فزعا حتى ظننا أنها سوف تسقط من المرجيحة في القرية المجاورة.. لكنها عادت «من فوق» لكي تتلقاها «ثناء» بدفعة ثانية قوية.. و «مارجريت» تصرخ و «ثناء» تدفع، «مارجريت» تصرخ و «ثناء» تدفع، حتى بدأت «مارجريت» تطمئن وتنبسط وتنسجم من المرجيحة الحبل، فبدأ صوت ضحكاتها «الانجليزية»

يجلجل فى الفضاء حتى خشينا أن يأتى سكان القرى المجاورة على صوت ضحكاتها.. حتى اكتفت وشبعت مرجحة فصاحت بى وهى تومئ برأسها ناحية «ثناء»: «حسين.. إنزع هذه الفيشة الصغيرة اللعينة من الكهرباء.. كفاية كده».. ونزلت من على المرجيحة لكى تهجم على «ثناء» و.. تأخذها فى حضنها وتقبلها.. فندمت أنا على أننى لم أتطوع لمرجحتها.. لكننى على أى حال قررت أننى فى المرة التالية سوف أطلب من «ثناء» أن تمرجحنى: «دفعة صغيرة ياثناء.. فاهمة»؟ ثم أنزل من على المرجيحة لأشكرها !!

وبعد الغداء والمرجحة ذهبت المجموعة كلها لصيد العصافير ببندقية الرش التى أحضرها «سيد محيى الدين» معه لكنه نسى أن يحضر معها «الرش».. بينما تمددت أنا و «مارجريت» على حصيرة فى وسط الغيط فى منطقة ظليلة فى غفوة نحو نصف ساعة، حتى عادت المجموعة إلينا مرة أخرى بعد أن فشلوا فى خداع العصافير وتخويفها بالبندقية الفاضية لكى تستسلم دون قتال.. فجاءوا ليوقظونا من غفوة العصارى الظريفة لكى نذهب إلى النادى الثقافى فى القرية، حيث ينتظرنا عدد كبير من شبان وبنات كفر أيوب الذين كنت قد تعرفت بهم وبهن فى زياراتى السابقة، لكى يحتفوا بنا وبمارجريت.

وقرأ الطالب «محمد منصور» آيات من القرآن الكريم ليفتتح اللقاء.. «مارجريت» تطرب لشيئين باللغة العربية لا تفهم منهما حرفا، لكنها تنتشى لهما كثيرًا : القرآن الكريم وصوت أم كلثوم !!.. ثم ألقى «عادل عبد المقصود» كلمة باللغة الإنجليزية – وهو طالب متفوق فى كلية

اللغات والترجمة ينجح مرة كل ٣ سنوات - رحب فيها بمارجريت بلغة إنجليزية سليمة تمامًا حتى أن «مارجريت» قد فهمت منها ٤ أو ٥ كلمات.. وقال فى كلمته يصف «مارجريت» بأنها THE BEAST LADY وهو يقصد THE BEST LADY فقلب المعنى من (أحسن سيدة) إلى (السيدة المتوحشة)!! ولم تضحك «مارجريت» لأنها ظنت أن «عادل» يعرفها جيدًا.. وردت «مارجريت» على كلمة «عادل» وعلى ترحيب شبان وبنات القرية، بأنها تشعر الآن أن لها أسرة كبيرة وقرية تنتمى إليها فى مصر ويسعدها أن تعود إليها مرة أخرى ومرات.

ووجه إليها البنات والشبان أسئلة عديدة كانت معظمها عن انطباعاتها عن زيارتها لمصر حتى الآن، وعن الحياة الإنجليزية، ثم عن الفن والرسم باعتبارها فنانة تشكيلية، وأستاذة فى كلية الفنون الجميلة.. وعرض عليها ٣ من شباب القرية: محمد سليمان، وقدرى أنور، وعبد العزيز منصور، رسوماتهم التى أثارت دهشتها، وقالت إن مستواهم الفنى لا يقل عن مستوى تلامذتها فى كلية (سانت مارتن) للفنون الجميلة فى (تشيرنج كروس) فى لندن.. وأن كل واحد من الثلاثة أفضل من الآخر ولو استمروا فى الرسم فسوف يكونون فنانين ممتازين فعلًا فى المستقبل القريب، وسوف يموتون جوعًا لو تفرغوا للفن، لأن الفن الجيد فى أى مكان فى العالم لا يكفى صاحبه لأن يأكل ٣ وجبات فى اليوم، ثم تباع لوحاته بملايين الجنيهات والدولارات بعد أن يكون هو قد مات من الجوع و «شبع» موتًا!!

ومن النادى الثقافى خرجنا فى جولة ليلية فى حوارى القرية الضيقة،

أشبه بمظاهرة.. وظل عددنا يتزايد مع كل خطوة بانضمام ناس جدد، حتى أصبحت القرية كلها تسير فى المظاهرة الترحيبية.. وذهبنا لكى نشهد (ليلة الحنة) لعروس من القرية، سوف تتزوج فى اليوم التالى - الخميس - وصعدت «مارجريت» و«ثناء» و«عزة» ومعهن من بنات القرية «سهير مسعود» و«سماح منصور» لكى يباركن للعروس «إيمان» فى غرفتها.. وأخذت أم العروس فستان الفرح لكى تفرجه لمارجريت، لأن العروس لم تلبسه بعد.. سوف تلبسه فى الغد..

وظلت هذه المظاهرة الصاخبة من شبان وبنات وأطفال القرية، تمشى فى ركابنا حتى ركبنا السيارة مرة أخرى قرب العاشرة ليلاً لنعود إلى القاهرة.. فبكت الصغيرة «سامية» - ١٠ سنوات - التى كانت متعلقة بذراعى ومتأبطانى طول اليوم، بكت وهى تقول لى من بين دموعها: «أنا حبيتكم خالص واتعلقت بيكم خالص، أعمل إيه دلوقتى وانتم سايبينى وماشيين»!! فردت عليها «مارجريت» بالجملة التى كانت قد سمعتها من «سماح أنور» ولم تفهمها وقتها، ثم فهمتها فيما بعد وحفظتها كما هى باللغة العربية: «اكتبى لأمينة السعيد»!

الفصل السادس

حين كان إيجار البيت في مصر.. شلن !!

نبهت على مارجريت أمس ليلًا بألا تعد الإفطار اليوم صباحًا لأننى سوف آخذها للإفطار خارج البيت.. كنت أريدها أن تتناول الإفطار فى معطم التابعى للفول والطعمية، باعتبار أنه أحد أشهر معالم مصر «الغذائية».زمان كان ممكنا أن تدخل عند التابعى فتفطر: فول وطعمية وسلطة ٣ أصناف وتشبع وتملأ بطنك، وتدفع ١٠قروش وأنت خارج.. لكن لأنه لا شىء بقى على حاله فى مصر: وكل الناس فى مصر الآن تبتكر كل طريقة ممكنة لابتزازك. ولكى تضع يدها فى جيبك لتكبش منه أكثر فلوس ممكنة وتطلع تجرى، فقد اختلف النظام عند التابعى أيضًا.. الآن لم تعد تستطيع أن تفطر على مزاجك، فول فقط، أو طعمية فقط، أو تقرر نوع السلطة التى تريدها فتطلبها: سلطة خضراء، سلطة طحينة، بابا غنوج أو طرشى أو ليمون معصفر.. الآن: ذلك كله + بدنجان مقلى + بطاطس محمر + سلطات أخرى، يأتيك فى صينية واحدة متعددة

الخانات مثل صوانى الجيش والمعسكرات تدفع فيها نحو جنيهين.. وليس مهما أنك تريد أن تفطر فول فقط أو طعمية فقط أو أنك لا تحب سلطة البابا غنوج ولا تأكل الطرشى لأسباب صحية، فكل هذه الاصناف أمامك الآن فى الصينية وقد دفعت ثمنها وخلاص.. أكلتها فبالهنا والشفا، ما أكلتهاش أنت حر لكننا قبضنا ثمنها من جيب حضرتك وخلاص.

واندهشت مارجريت جدا من أننا ونحن لسه لم نجلس على مقاعدنا بعد. كان الجرسون النشيط يرمي الصينيتين الحافلتين أمامنا ويطلع يجرى، حتى أنها سألتني باستغراب: «وهم عرفوا إزاى إنت حاتطلب إيه»؟! فقلت مداريًا: «أصلى اتصلت بهم فى التليفون قبل أن ننزل من البيت»!!

ورغم ذلك فقد أعجبها الجو جدًّا. والصخب داخل المطعم والجرسونات النظيفين النشطين رايحين جايين بسرعة ونشاط بين الموائد يرفعون الصوانى الفارغة ويضعون أماكنها صوانى جديدة ويزغدون الزبائن اللى خلصوا علشان يقوموا يمشوا، وزبائن داخلة وزبائن خارجة طول الوقت.. كما انبسطت من شكل الصينية الحاشدة.. ثم ونحن خارجين بعد الإفطار قالت لى: «لكن تعرف.. برضه الكيك اللى بيعمله الرستوران الثانى فى الشارع قدام الناس، طعمه ألذ»!!

السيدة زينب فى طريقنا دائما إلى مشاوير كثيرة.. اليوم كانت فى طريقنا إلى شارع قدرى باشا - وهو ليس قريبى - لكي نزور (متحف أندرسون) أو (بيت الكريدلية) الملاصق تمامًا لمسجد أحمد بن طولون..
وبيت الكريدلية متحف رائع غير عادى يعطى صورة كاملة لشكل

الحياة فى مصر منذ ٥٠٠ سنة.. وقد كان بيتًا مهجورًا لعشرات السنين - لا أدرى لماذا - حتى (اكتشفه) عام ١٩٣٥ الدكتور «آندرسون» الطبيب الإنجليزى فى الجيش المصرى.. فطلب من الحكومة المصرية أن تؤجره له، فأجرته له فعلاً بإيجار شهرى قدره ستة قروش مصرية (نحو شلن إنجليزى بعملة ذلك الزمان حين كان الجنيه المصرى أغلى من الجنيه الإنجليزى ، وبأقل من بنس واحد بعملة هذه الأيام!!).. وحول الدكتور «أندرسون» (بيت الكريدليه) إلى متحف من أجمل المتاحف التى زرتها فى حياتى، وكأنه أعاد الحياة إلى بيت مصرى قديم من ٥٠٠ سنة لازال يعيش حتى الآن.

وكان ذلك هو رأى «مارجريت» أيضًا التى انبهرت إنبهارًا عظيما بكل مارأته فى المتحف حتى كادت أن تبكى من التأثر «الفنى» وهى تتخيل شكل الحياة المصرية اليومية، وشكل الأسرة المصرية التى كانت تعيش فى هذا البيت منذ ٥٠٠ سنة مضت.. فى البيت قاعة كانت تقام فيها الأفراح وحفلات الزفاف.. وعلت الابتسامة شفتينا معًا ونحن نستمع إلى دليلنا يشرح لنا لماذا كان الكرسى المخصص للعروس عريضًا وكبيرًا وواسعًا ومتينا، بينما الكرسى المخصص للعريس صغيرًا وعاديًا، فقال إن جمال العروس فى تلك الأيام كان يقاس بـ «حجمها»، وكلما كانت العروس ثقيلة الوزن كبيرة (المساحة) مترامية الأطراف كان ذلك دليلاً على أنها بنت عز ومن بيت كرم ومتغذية كويس!!

المدهش أننى عشت معظم سنوات طفولتى وصباى و مطلع شبابى حتى تخرجت، واشتغلت مهندسًا ثم صحفيا، فى حى السيدة زينب، ومررت على

مسجد ابن طولون وعلى (متحف أندرسون) هذا آلاف المرات دون أن يخطر على بالى مرة واحدة أن أدخله، ثم أدخله الآن مع «مارجريت» لأول مرة فى حياتى بعد أن عزِّلت من السيدة زينب بثلاثين سنة.. وفى تصورى - الآن - أنه يجب على كل مثقف مصرى أو مهتم بالتاريخ المصرى، أو حتى طلبة المدارس والجامعات عمومًا، أن يزوروا هذا البيت لكى يعرفوا كيف كان شكل الحياة فى البيوت المصرية زمان منذ عدة مئات - قريبة - من السنين.

مهما كانت سعادة «مارجريت» وانبهارها بما تشاهده وتراه، فإنها لا تنسى أبدًا موعد الغداء.. وما أن تنظر فى ساعتها حتى أعرف أن موعد الغداء قد حان.. وكان فى ترتيبى فعلًا لليوم أن آخذها للغداء عند أشهر (حاتى) أو كبابجى فى حى السيدة زينب.. وهو مطعم على قدر ذاكرتى القوية - بدأ كمسمط يبيع لزبائنه لحمة الرأس والكرشة والفشة والطحال والممبار، ثم تحول إلى كبابجى.. وفى الحالتين كان مطعمًا نظيفًا جيدا ممتازًا ، وإن كنت لم أدخله منذ سنوات بعيدة.

قالت «مارجريت» ونحن نجلس إلى مائدتنا فى المطعم الفاخر جدًّا جدًّا من الداخل، الذى كان مفاجأة لى أنا شخصيًا، أنها تشعر أنها فى دار للأوبرا فى أى عاصمة من عواصم العالم ، بالأعمدة المستديرة العالية والنقوش فى أعلاها، والستائر الشيك جدًّا ذات اللون البيج الفاتح الهادئ تحجب الرؤية خارج المطعم وتحجب أيضًا الزبائن عن المارة فى الشارع.. الموائد المستديرة ذات المفارش شديدة النظافة والكراسى المذهبة ذات الظهور العالية.. وأطقم المائدة: الأطباق الصينى الفاخرة،

والملاعق والشوك والسكاكين من الطراز القديم، والفوط فى حلقتها الفضية.. كل ذلك يعطى عبقا خاصا وفخامة شرقية رصينة.. حتى أن «مارجريت» عادت لتقول: «تعرف أن الجو هنا يذكرنى تمامًا بمطعم (مكسيم) الشهير فى باريس، إلا فى شىء واحد، هو أن مطعم (مكسيم) مزدحم دائما، بينما كنا نحن الزبونين الوحيدين فى مكسيم السيدة زينب فى ذلك الوقت من اليوم -قبل الثانية ظهرًا-..كما أعجبتها جدا(النيفة)التى تطلبها باستمرار الآن بعد أن كانت قد سمعت عنها كثيرًا من كل أصدقائها الإنجليز الذين زاروا مصر قبلًا.. واحدة من صديقاتها استحلفتها أن تأكل طبقًا من النيفة زيادة باسم هذه الصديقة.. لكن الذى أشك فيه كثيرًا هو أن تلك الصديقة كانت تعنى أن أدفع أنا ثمن هذا الطبق الزيادة الذى كلفنى ثمانية جينهات كاملة.. لكن بالهنا والشفا طبعًا.

مارجريت معجبة جدا - كرسامة وكفنانة - بالحياة التى يموج بها شارع السد البرانى الذى فيه ضريح السيدة زينب.. وبما أننا - بعد الغذاء - كنا قريبين جدا منه فقد أرادت أن تمشى فيه قليلًا.. كانت فى زيارتنا السابقة لضريح السيدة زينب قد لفتت نظرها (شحاتة) شابة زى القمر ذات عينين سوداويين واسعتين جميلتين مكحلتين.. ونحن نسير اليوم فى شارع السد وجدت «مارجريت» الشحاتة الجميلة جالسة فى مكانها المعتاد، فابتسمت لها وحيتها بود قائلة: Hello, how are you فقالت لى الشحاته مخضوضة: «أنا عملت لها حاجة دلوقتى يابيه؟» فقلت لها مطمئنا: «أبدا.. دى افتكرتك، فبتقول لك إزيك».. فطلعت الشحاتة تجرى ورانا وهى تزغرط حتى اختفينا عن نظرها.

صديقتى مذيعة التليفزيون «هناء مصطفى» عازمانا الليلة لحضور فرح مصرى يقام فى فندق (النيل هيلتـون).. طول عمرى لا أحب زيطة الأفراح وأكره حضورها وأشعر بالضيق الشديد إذا اضطررت لحضور فرح ما .. حتى أفراح أخوتى لم أحضرها - لأننى كنت خـارج مصر وقتها!! - والفرح الوحيد الذى حضرته - مضطرًّا - كان فرحى أنا شخصيًّا!! وإن كنت لا أذكر الآن هذا الفرح كان بمناسبة إيه: زواجى أم طلاقى!!

لذا فقد طلبت من «هناء مصطفى» أن نكتفى بمشاهدة الزفة المصرية فى الهيلتون الليلة، ثم نخرج لنكمل السهرة فى مكان آخر..

وذهبنا أنا و «مارجريت» إلى الهيلتون ليلاً لكى نحضر الزفـة من بدايتها.. وفى زحمة الزفة والفرح تهنا عن «هناء» فلم نلتق، لكننا حضرنا الزفة على أى حال.. ولأن الأفراح الإنجليزية ليس فيها غناء ولا رقص ولازفة، إنما بعد الكنيسة يتوجه العروسان ومدعويهما إلى مطعم أو نادى يكون محجوزًا مسبقًا فيتناولون العشاء جميعًا على مائدة واحدة طويلة، أو على مجموعة موائد صغيرة متفرقة، وقد يحدث - وقـد لا يحدث - أن يرقص المدعوون معا كأى سهرة عادية..

لذا فقد فزعت «مارجريت» لصوت الدفوف العالى جدًّا جدًّا الذى يخرم طبلة الأذن، وكأن (المطبلاتية) يريدون أن تسمعهم القاهرة كلها وليس المدعوون هنا فقط، والغناء العالى جدًّا جدًّا، وكأنـه صريـخ أو صوات وليس غناء.. ومجموعة الراقصات يرقصن بطريقة أوتوماتيكية وبسرعة وقوام قوام كأن هناك ١٥ زفة أخرى تنتظرهن فى آخر مصر

الجديدة.. وبعض بنات الأسرة - أسرة العروس أو أسرة العريس - لا يعجبهن رقص الراقصات المستعجلات، فيقتحمن الحلقة بفساتينهن العادية ليرقصن رقصًا والله أجمل كثيرًا وأرق كثيرًا وأنثوى كثيرًا عن رقص هؤلاء الستات المستعجلات.. ولكن..

كنت قد لاحظته من أول لحظة بدأت فيها الزفة.. لفتت «مارجريت» نظرى إليه لتكوينه العام وملامح وجهه وتسريحة شعره وحتى (الشيب) فى فوديه، أنه يشبه كثيرًا إلى حد التطابق رئيس جمهورية الأرجنتين «كارلوس منعم».. لكن كارلوس منعم المصرى الليلة كان يحاول أن يبدو وكأنه ينظم الزفة، فيقف فى مقدمة الصف ويختار المنطقة المليئة بالفتيات والسيدات المتفرجات فيقف فى وسطهن ويفرد ذراعيه إلى جانبيه بطولها وكأنه (يوسع) لضاربى الطبول، لكن ليلمس بذراعيه، ويديه صدور السيدات والفتيات وهن مندمجات مع الزفة و (مش واخدين بالهم).. لكننى أنا كنت واخدبالى منه وأراقبه وأنا مفروس جدًّا منه.. لذا فحين التقط بعينيه «مارجريت» بشعرها الأحمر المميز انتقل على الفور الى المنطقة التى نقف فيها، وضبط نفسه بحيث أنه حينما يفرد ذراعيه تكون «مارجريت» هى هدفه «المباشر».. لكنه لفرط «اندماجه» لم يلاحظنى إلى جوارها، لذا فما أن فرد ذراعيه حتى وجد أن يده تلمسنى أنا بعد أن وضعت نفسى بينه وبين «مارجريت» !! وكلما غير وضعه وجدنى سادد عليه السكة.. فما كان منه إلا أن مال على أذنى وهمس لى بحدة أن أبتعد قليلاً !!.. فشخطت فيه بصوت عالى - رغم ارتفاع دقات الدفوف - بأن يخرس ويتحرك بعيدًا وإلا طرقعته على قفاه قدام الناس

كلها فى وسط الفرح..وناولته - على سبيل العينة - زغدًا قويًا بكوعى جعله ينثنى كرقم ٦ وهو ينظر إلىّ مندهشا وكأننى مجنون!

وترك المكان كله وانتقل إلى منطقة أخرى يمارس فيها نشاطه «الاجتماعى»!!

جارتى الطيبة رنت لى جرس التليفون بعد منتصف الليل لتقول لى: «وحشتونا.. بقالنا كام يوم ما شفناكمش.. نيجى لكم نقعد معاكم شوية؟».. «ياألف أهلًا وسهلًا».. منذ أن سكنت فى شقتى فى هذه العمارة من٢٨سنة وأنا أحب هذه الأسرة كلها: الزوج - الذى أصبح مرحومًا الآن منذ عدة سنوات - والزوجة شديدة الطيبة والرقة والوداعة، والابنة الوحيدة التى كانت طفلة ظغننة زى القمر فى سنواتها الأولى، وأصبحت الآن شابة حسناء دلوعة وشخلوعة وزى القمر برضه.. وتوطدت العلاقة بيننا أكثر كثيرًا بعد وفاة المرحوم حتى أننا أصبحنا وكأننا أسرة واحدة، وكلما كنت فى مصر لا يمر يوم إلا وهما - الأم والابنة - عندى أو أنا عندهما.. أشعر تمامًا كما لو كانتا أختى وبنت أختى.

وصعدت «إيلين» و «حياة» لتسهرا معنا فى فراندتى الكبيرة.. «حياة» تطرطش شوية كلمات إنجليزى من هنا وهناك.. أما «إيلين» فهى لا تتكلم إلا اللغة العربية باللهجة الصعيدية جدًّا لأنها - رغم أنها يونانية الأصل - إلا أنها من مواليد (جنا) - قنا - ومصرة على الاحتفاظ بهويتها الصعيدية.. ظريفة جدًّا «إيلين» وأحبت «مارجريت» كثيرًا.. لذا فعندما تجلسان معًا تكونان متآلفتين تمامًا، وتسمع منهما أظرف حوار ممكن أن يدور بين اثنين ستات: «إيلين» تكلم «مارجريت» باللغة

العربية الصعيدية وهى تعوج لسانها بلكنة بطريقة (تشطرى كالب) ظنا منها أن ذلك يكفى لكى تفهمها «مارجريت»: إچييك (إزيك) يا اختى؟ كويشة؟».. و «مارجريت» تكلم «إيلين» بانجليزية سليمة جدًّا وواضحة جدًّا وبطيئة جدًّا وهى تضغط على مخارج الألفاظ ظنًّا منها أن «إيلين» سوف تفهمها بهذه الطريقة.. والاثنتين (جيتو مبسوط كتير)! و«حياة» مغرقة فى الضحك على شكلها معًا، وبين حين وآخر تتدخل لتترجم بينهما: «ياماما مش كده.. ماما عايزة تقول....» وتترجم فتقول شيئا مختلفًا تمامًا عما قالته مامتها وعما قالته «مارجريت»!! وأنا الوحيد المستمتع فى هذه الزحمة كلها، ربما لأننى مش فاهم حاجة أبدًا من الثلاثة.

مدعوان أنا ومارجريت اليوم للغداء فى جريدة الأهرام.. صديقى الصحفى الشاب - لأننا من سن بعض تقريبًا.. هو أكبر منى بـ ١٥ سنة فقط - «عبده مباشر» وزوجته الألمانية «بيرى» يدعوانى للغداء أو العشاء كلما كنت فى مصر، ربما لأننا أصدقاء عمر، وربما لأننا إحنا الثلاثة (شراقوة).. أنا و «عبده» من محافظة الشرقية، وزوجته «بيرى» من ألمانيا الشرقية!!

أثناء الغداء فى مطعم جريدة الأهرام دارت المناقشة حول مدى تجاوب الأجنبيات مع شكل الحياة فى مصر.. الألمانية تعيش فى مصر منذ ٢٢ سنة والإنجليزية من أقل من ٢٠ يومًا.. المدهش أننى فى كل مرة رأيت فيها «بيرى» وجدت أنها سعيدة جدًّا بحياتها فى مصر، وأن «مارجريت» حتى الآن كل ما رأته فى مصر قد أعجبها بشدة - (باستثناء البوابين والمياه المقطوعة وضربة الشمس وذبح الخرفان فى حمامات البيوت)!! - إلا أن

كلتيهما قد اتفقتا من أول المناقشة على أن الحياة فى مصر ليست مريحة بالنسبة للمرأة الأجنبية!!ولم أتمالك أن شعرت بالضيق لرأيهما هذا، وقلت لمارجريت ونحن فى طريق عودتنا إلى البيت: «على أى حال فإن بيرى قد تكون مضطرة إلى البقاء فى مصر وترك ترف ألمانيا (الشرقية) لارتباطها بزوج وبابنة شابة.. لكن الحمد لله أنك لست مضطرة وستعودين إلى إنجلترا بعد أن تنتهى إجازتك خلال أيام.. فمبروك عليك جنة إنجلترا ونعيمها».

بعد منتصف الليل يرن جرس التليفون فى البيت عندى ويأتينى صوت صديقتى العزيزة مذيعة التليفزيون «هناء مصطفى»: «حسين.. عندى مفاجأة لكم.. لما شفت إن مارجريت يمكن تكون شبعت من القاهرة وتلاقيها بدأت تشعر بالملل، حجزت لكم شاليه فى العريش – على حسابى – لمدة خمسة أيام.. إيه رأيكم؟ تروحوا»!؟

مصيف لم يكن على البال، ولا على الخاطر، ولا كان فى البرنامج أساسًا..

– تروحى يا مزمزيل؟

– أروح يا خالو..

– تروحى يا مارجريت؟

– فين «الأريش» دى؟

– على البحر الأبيض..

– أبيض بنى كحلى أصفر مش مهم.. أروح أى حتة فيها بحر.. محتاجة لأجازة من الأجازة!

ورحنا...

الفصل السابع

ضابطات بوليس مستوردات!

من تحت العمارة فى ميدان رمسيس ركبنا تاكسى (بالنفر) من القاهرة إلى العريش.. فى الأيام العادية وفى الأحوال العادية، يتقاضى التاكسى المرسيديس الفاخر ثمانية جنيهات عن النفر.. لكن الدنيا صيف أولا، وشكلنا واضح أننا لسنا من أهالى العريش،ومعى حسناوان واحدة منهما خواجاية، فيبقى رايحين نصيف.. لذا أصر سائق التاكسى المهكع جدًا - التاكسى هو المهكع جدًا وليس السائق - على أن يتقاضى منى ٣٠ جنيها وليس ٢٤ جنيها فقط.. وماله، إشمعنى ده اللى مش حايسرق يعنى.. جينا على سواق تاكسى وحانتشطر!

أذهب إلى العريش لأول مرة منذ ٢٤ سنة.. آخر مرة كنت هناك كانت قبل حرب يونيو ١٩٦٧ بأيام قلائل.. بنت أختى رغم أنها مدرسة لغة إنجليزية قد الدنيا وبتعرف تعد من واحد لعشرة بالانجليزى دون أن تخطئ، إلا أنها سألتنى: «مش العريش دى اللى عند دير سانت كاترين

ياخالو» !؟ فزغرت لها لكى تخرس، وحمدت ربنا أنها سألتنى باللغة العربية حتى لا نتفضح أمام الأجانب.. أما «مارجريت» فأول مرة فى حياتها تذهب إلى سيناء.. انبسطت جدًّا من منظر الصحراء الممتدة أمامها على مرمى البصر بلا نهاية، ومن شكل (المعدية) عند عبورنا قناة السويس بالعرض من الشاطئ الغربى إلى الشاطئ الشرقى، ونحن قاعدون داخل السيارة، بعد أن عبرتها -«مارجريت»- مرتين بالطول من بورسعيد إلى السويس عند سفرها إلى أستراليا، بعد تخرجها من كلية (ويلسدن) للفنون الجميلة فى لندن وذهابها للعمل كرسامة فى ملبورن، ثم عبرتها مرة أخرى بعد ذلك بـ١١ سنة من السويس إلى بورسعيد وهى عائدة من أستراليا فى طريقها إلى إيطاليا حيث عملت لمدة سنتين أخريين.

وتذكرنى مارجريت بأننى كنت قد حكيت لها أننى فى نفس الفترة التى عبرت فيها هى قناة السويس فى طريقها إلى أستراليا، كنت أنا أيضًا، قد تخرجت فى نفس السنة وعينت مهندسًا فى إحدى شركات البترول فى السويس - قبل اشتغالى بالصحافة - وكنت أقضى معظم أوقات فراغى ساعات طويلة جالسًا على (دكة) حجرية على شاطئ بورتوفيق، أرقب قوافل السفن التى تمر أمامى خارجة أو داخلة من وإلى بوغاز السويس من وإلى البحر الأحمر..وتتصور «مارجريت» - ربما لأنها فنانة وخيالها واسع - أننى لابد وأننى كنت جالسًا أرقب السفينة التى كانت هى عليها فى طريقها إلى أستراليا، لأنها هى نفسها كانت طول فترة عبور السفينة لقناة السويس تقف مستندة إلى حاجز السفينة ترقب الشاطئ المصرى.. فلابد وأننى قد رأيتها يومها دون أن نكون نعرف أننا يومًا ما بعد ٢٠

سنة، سوف نلتقى فى أمريكا ثم فى إنجلترا ونصبح صديقين حميمين هكذا.. فسألتها ببرود: «كنت لابسة فستان لونه إيه يومها؟»..

وصلنا العريش بعد خمس ساعات.. وبسهولة جدًّا اهتدينا إلى مصيف التليفزيون وإلى شاليه (وسام) الذى حدده لى «هناء مصطفى».. وبعد ٣ دقائق بالضبط كانت البنتان - «مارجريت» وبنت أختى - تغطسان وتقبان فى مياه البحر الأبيض.. من أول لحظة اتهبلت «مارجريت» على منظر البحر الأبيض الذى يطل عليه الشاليه مباشرة على بعد أقل من ٣٠ مترا رمال ونخيل.

كان إسمه زمان (شاطئ النخيل) - مثل (پالم بيتش) فى ميامى فى فلوريدا - والمنطقة اسمها (المساعيد).. وكنت قد سألت مرة عن حكاية إسم (المساعيد) فشرحوه لى ببساطة جدًّا: المساء عيد.. وتحولت باللهجة العرايشى إلى المسا عيد. ثم انضغطت فى كلمة واحدة لتصبح: المساعيد.

وبعد أن شبعت الآنستان غطسًا وقبقبة فى البحر الأبيض خرجتا تجريان من البحر وقد قرصهما الجوع.. فذهبنا كلنا إلى مدينة العريش نفسها على بعد حوالى ٤ كيلو مترات لكى نشترى ما نملأ به الثلاجة والنملية فى الشاليه للأيام الخمسة التى سنقضيها هنا: للإفطار فقط.. فإن كلا من الحسناوين، قد أعلنتا العصيان المدنى وقررتا عدم التعامل مع مطبخ الشاليه إلا لعمل الشاى فقط: «هو احنا جايين نصيف ونتفسح ونشم الهوا، والا جايين نضيع الخمس أيام فى الطبخ وتحضير السفرة وغسيل الأطباق والمواعين.. نتغدى ونتعشى برة ياخالو، وكل واحدة منا مستعدة تساهم فى المصاريف».. وأخرجت «ثناء» من كيسها قرش تعريفة

تذكارى تحتفظ به للذكرى والتاريخ منذ إلغاء المليم والتعريفة.. فسألتها «مارجريت»: «قد إيه ده يا ثناء؟» قالت ثناء: «حوالى ربع بنس» فقالت «مارجريت» على الفور: «خلاص.. يبقى ده لينا إحنا الاثنين»!

كرما أوى الستات دول..

وقضينا الليلة كلها سهراتين جالسين على رمل الشاطئ، وماء البحر يغسل أقدامنا فى الرايحة والجاية، وضوء القمر يغمر وجوهنا بلونه الفضى، ونحن نتكلم همسًا كأننا لا نريد أن نخدش شكل اللوحة الطبيعية الرائعة التى نعيش لحظاتها الآن.. وحين بدأت أضواء الفجر تنبلج من بعيد قالت مارجريت شيئًا غريبًا: «تعرف ياحسين ما الذى أتمناه الآن؟ أتمنى أن نموت الآن فى هذه اللحظة، وندفن معًا فى هذه البقعة الساحرة»!! فقلت لها: «معلش إسبقينى إنت وأنا أبقى أحصلك يعدين.. لسه عندى شوية حاجات لازم أخلصها قبل ما اموت».. فزعلت الست لأننى أفسدت شاعرية اللحظة..

ستات هِبْل..

نزلنا فى الصباح إلى مدينة العريش مرة أخرى لكى نتفرج عليها على راحتنا فى ضوء النهار.. مهما اتسعت العريش فهى لا تزيد عن قرية كبيرة.. نفطر فول وطعمية فى مطعم شعبى فى شارع السوق الرئيسى فى العريش.. منظر الشعر الأحمر واللغة الانجليزية لم يعد يلفت نظر العرايشية الذين اعتادوا إما على وجود السياح فى العريش بشكل دائم على امتداد السنة، أو وجود الإسرائيليين الذين احتلوا العريش مرتين

عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧.. لكن «مارجريت» هي التي أعلنت سعادتها الشديدة بأنها الآن على أرض سيناء، التي لم تكن تحلم برؤيتها في يوم من الأيام. والتي كانت تنزعج بشدة كلما سمعت عن أن هناك حربًا تدور على أرضها أو أن قوات إسرائيل قد احتلتها، لأنها ترى أن سيناء أرضا مقدسة.

الحسناوتان لاتريدان أن تخرجا من البحر.. كان الغداء ساندوتشات سريعة حتى تعودا إلى البحر مرة أخرى.. على اعتبار أننا سوف نخرج مساء للعشاء في نادي ضباط الشرطة الذي مررنا عليه صباحًا ورأينا على بابه لوحة كبيرة بأنه يرحب بالضيوف المصطافين.. وطبعًا هذه الدعوة كانت تنطبق علينا، فنحن ضيوف ومصطافون.. لكننا حين ذهبنا إلى النادي في المساء اكتشفنا أن النادي قعدته ظريفة جدًّا فعلًا، وراقية و محترمة فعلًا، لكنه لا يقدم إلا الغداء فقط وليس العشاء !!.. لذا فبعد قعدة سريعة قمنا من جديد نبحث عن مكان آخر نتعشى فيه.

مررنا على فندق اسمه (النورس) له حديقة كبيرة جميلة، فدخلنا لنتعشى فيه.. لكن مدير الفندق الشاب «عبد المحسن» قال لنا أن الفندق لم يفتتح بعد لذا فهو لا يقدم شيئًا على الإطلاق، حتى أنه هو شخصيًّا لم يتناول عشاءه منذ ٣ أيام، وأنه أرسل إلى أهله في منيا القمح لكي يرسلوا له (زوادة) وإلا حايموت من الجوع في هذا الفندق..، ونصحنا بأن نذهب إلى فندق (أوبروى) غير بعيد عن مكاننا الآن، فهو المكان الوحيد الذي تجد فيه أكلًا في هذه الساعة المتأخرة جدًّا من الليل في العريش.. الثامنة مساءً !!.

وذهبنا فعلا إلى فندق (أوبروى). وفى مطعمه الفاخر الذى يطل على البحر مباشرة تناولنا عشاء رائعًا، وتعرفت «مارجريت» على (السمان) لأول مرة فى حياتها، والتهمت منه سمانتين بحالهما.. وسهرنا وانبسطنا ثم تمشينا عائدين إلى الشاليه، والصحراء والنخيل يغمرهما ضوء القمر على يسارنا، والبحر الأبيض كسبيكة رائعة من الفضة هائلة المساحة على يميننا.. جو شاعرى تمامًا.. لكن بمجرد دخولنا الشاليه سألتنى «مارجريت» - وهى أروبة جدًّا فيما يتعلق بمسائل الحسابات والفلوس: «إنت راجعت فاتورة الرستوران فى أوبروى»!؟ قلت لها: «لا .. أراجعها ليه؟» قالت: «وريني كده» فأعطيتها الفاتورة فراجعتها بدقة ثم قالت فى انتصار: «لقد توقعت ذلك.. غالطوك فى الحساب يا مسترى قدرى ودفعوك ١٨ جنيها زيادة عن طلبات لم نطلبها ولم تجىء لمائدتنا.. ماذا ستفعل الآن!؟» قلت لها: «سأتصل بوزير السياحة بمجرد عودتنا إلى القاهرة» قالت: تحلف!؟» قلت: «أحلف».

وصمت ٣ أيام.. حاعكنن على نفسى ليه!؟ ويبقى لى فى ذمة وزير السياحة ١٨ جنيها.

لكننا من اليوم التالى أصبحنا زبائن مستديمين فى نادى ضباط الشرطة.. وأصبح الجرسونات العساكر يبتهجون لرؤية «مارجريت» ويحيونها هى و «ثناء» ولا يحيوننى أنا.. لعلهم ظنوهما ضابطات شرطة مستوردات وارد بريطانيا أو من السوق الحرة.. أطباق «مارجريت» المفضلة الآن هى السمان والأرز بالخلطة وسلطة الطحينة.. وتأكل بنفس

وشهية مفتوحة على مصراعيها حتى أنها هى نفسها مندهشة من ذلك وتقول إنها عمرها ما أكلت بهذه الكميات ولا هذه الشهية ولا هذه النفس المفتوحة..

فرحانة جدًّا هى بالبحر وبقربه الشديد من الشاليه، لذا فهى طول الوقت رايحة جاية بين الشاليه والبحر تبلل قدميها وساقيها وتجلس على الرمال على حافة الماء حتى تأتى الموجة فتغمرها كلها حتى صدرها لكى تكتسب اللون البرونزى وتعود به إلى إنجلترا، لكى تكيد زميلاتها بأنها قد صيفت على شاطئ البحر الأبيض فى مصر.. شعرها الأحمر وفستان البلاج عارى الظهر حتى وسطها يلفت نظر جيراننا أهل الشاليهات المجاورة، اللاتى ترتدى المتحررات منهن فساتين بأكمام طويلة، وذيل مجرجر على الأرض، ينزلن بها إلى البحر لكى تكتسب الفساتين اللون البرونزى الجميل!!

مارجريت تستيقظ من الفجر وتجرى إلى البحر بالمايوه لكى تكون على راحتها دون أن تخدش مشاعر جيراننا فى الشاليهات المجاورة.. لكن جارنا فى الشاليه الملاصق لنا انبهر للشعر الأحمر الذى يراه لأول مرة فى حياته فيما يبدو، فحاول جاهدًا أن يلفت نظرها.. لذا فهو يصحو مبكرًا هو الآخر وينتظرها على الشاطئ، وهو يلبس نظارة الغوص التى لا يخلعها أبدًا ويقف على الشاطئ تيها فخورًا نافشًا عضلاته، لكنه يجرى مرعوبًا إذا جاءت الموجة إلى ناحيته.. وسرعان ما توطدت الصداقة بينه وبين «مارجريت» وراحت تلاغيه ويلاغيها ويقضيان وقتًا طويلًا معا.. لكن حين تطورت المسألة إلى الأحضان والقبلات - وكنت أراقبهما من

بعد حتى لا يلاحظنى هو - سحبت كاميرتى وصورتهما معا و (الإيد فى الإيد) حتى أمسك عليها دليل خيانتى مع شاب فى الرابعة من عمره.. فقد احتاج هذه الصور فى يوم ما !!.

حكت لى اليوم أن زميلة لها حين عرفت بأن «مارجريت» قادمة إلى مصر لتقضى أجازتها فى ضيافتى، حكت لها - وكأنها تحذرها - بأن صديقة لها إنجليزية تزوجت فى لندن من شاب مغربى وعاشت معه فى إنجلترا فترة.. وكان قد حكى لها أنه من أسرة مغربية غنية جدًّا، وأنه يمتلك فى المغرب قصرًا وسيارات وخيولا وخدمًا وحشمًا، وأقنعها بأن تذهب معه إلى وطنه فى أجازة.. فلما ذهبت فوجئت بأنه بدوى يعيش مع أسرتـه كلها (زوجتين غيرها و٩ أطفال) + الغنم والبهم، فى خيمة واحدة !! وطبيعى ألَّا يكون فى هذه الخيمة لا دش ولا بانيو ولا حمام ولا تواليت ولا ماء جارى !! وحبسها فى هذه الخيمة تحت الحراسة لا تغادرها حتى استطاعت الهرب والعودة إلى إنجلترا لتحكى قصتها للصحف الإنجليزية !!

أتصور أن زميلتها كانت تريد أن تقول لمارجريت بشكل غير مباشر أو حتى تحذرها وتنبهها بشكل مباشر، من أنها ينتظرها نفس المصير.. لذا فقد سألت أنا «مارجريت» إن كانت وهى على الطائرة فى طريقها من لندن إلى القاهرة، قد تصورت أن شيئًا كهذا ممكن أن يحدث لها ؟ فقالت: «مش بالضبط، لكننى حين لم أجدك فى انتظارى تحت الطائرة فى مطار القاهرة كما وعدتنى، ووقفت فى طابور الجوازات نحو ١٠ دقائق دون أن تظهر، توقعت أسوأ الفروض، وقررت فى نفسى أننى إذا لم أجد احدًا من طرفك فى انتظارى خارج المطار، أحدًا أعرفه وأكون قد رأيته من قبل فى

لندن، مثل سعاد حسين أو سماح أو أنور عبد الله أو أشرف، فإننى لن أغادر المطار إلا بعد أن أتصل بالسفارة الإنجليـزية لأعـرف منها إيـه حكايتك بالضبط.. ثم أعود إلى إنجلترا فورًا على أول طائرة ممكنة إذا لم تستطع السفارة الإنجليزية أن تهتدى إليك أو تدلنى على أخبارك».

سألتها: «والآن»؟

قالت بالعربية: «الهمدو لله» ثم استطردت بالانجليزيـة: «وعندمـا أعود إلى لندن سأقول لزميلتى أن صديقتها الإنجليزيـة هذه صعلوكـة وقعت على صعلوك، والطيور على أمثالها تقع».

«مارجريت» من الآن تحلم - وتلح - فى أن نذهب إلى الاسكندرية التى سمعت عنها كثيرًا منى ومن «سعاد حسين» ورأتها وتعرفها من على الخريطة - الإسكندرية طبعًا، وليست سعاد حسين - ومهتمة بأن تعرف كم تبعـد عن القاهـرة وفى كم من الوقت نصـل إليها بعـد أن نترك القاهرة!؟ وسعدت جدًّا حين عرفت بأننا نقطع المسافة فى ساعتين تقريبا سواء بالقطار أو بالسيارة..

الإسكندرية فى برنامجنا فعلًا، لكن فى الأسبوع القادم.

سنعود من العريش إلى القاهرة غدًا.. وأردت أن نعود بالأوتوبيس الـ(سوپر چيت) على اعتبار أننا سوف نذهب إلى الإسكندرية بالقطار (التربينى) ونعود بسيارة خاصة فتكون «مارجريت» قد ركبت كل وسائل المواصلات الممكنة فى مصر.

ذهبت إلى محطة الأوتوبيسات الرئيسية فى العريش لكى أحجز تذاكر

العودة.. ولأنني أحجز لنفسي (نصف تذكرة) ببطاقتي الصحفية فقد عرف ناظر المحطة أنني صحفي، وأراد - كتر خيره - أن يجامل الصحافة بأن يسهل لنا الأمور، فسألني عن موقع الشاليه الذي ننزل فيه، وطلب مني ألا نتعب أنفسنا بنقل حقائبنا من الشاليه لغاية محطة الأوتوبيس الرئيسية - ٤ كيلومترات تقريبا - وأنه سيعطي تعليماته لسائق الأوتوبيس بأن يتوقف أمام الشاليه لكي نركب من هناك.. كتر خيره.. كرم وأريحية مصرية غير مستغربة.. وحدث ذلك بالفعل في اليوم التالي، لكن ما حدث «بعد ذلك» لابد وأن أحكيه بالتفصيل، عسى أن يقع عليه نظر أحد من المسئولين عن السياحة في البلد.

توقف الأوتوبيس أمام الشاليه ونزلت منه فتاة جميلة ترحب بنا «أهلاً وسهلاً يا أفندم».. «أهلا بيكي ياست الحسن».. ووضعنا حقائبنا في مخزن العفش وركبنا الأوتوبيس.. فاخر جدا ومريح جدا وهادئ جدا..

بمجرد أن جلسنا في مقاعدنا جاءت الفتاة الجميلة تسألني في أدب شديد وبابتسامة واسعة: «حا تاخدوا إيه؟» سألت «مارجريت» فقالت: «سفن آپ» وسألت «ثناء» فقالت: «مش حاخد حاجة.. حا انام» وغطست في مقعدها المريح وراحت في نوم عميق.. فقلت للمضيفة الحسناء: «سفن آپ».. وذهبت الحسناء، وعادت ومعها زجاجتا (السفن آپ) فتحتها وأعطت لي واحدة، ولمارجريت واحدة.. ثم ذهبت وعادت مرة أخرى لكي تضع على «حجر» كل منا صينية صغيرة من البلاستك الخفيف فيها قطع صغيرة من أشياء متناثرة: قطعة كيك صغيرة، قطعة بيتزا صغيرة جدًّا، باكو فيه بسكويتتين، كيس تشيبسي صغير.. وتركتها

على حجرنا ومشيت.. فظننت - ساذجا - أن هذه الصينية وزجاجتى الـ (السڤن آب) تجىء مع تذكرة الأوتوبيس مثل الوجبة والمشروبات التى تقدم على الطائرة، ورفعت رأسى شامخًا أمام «مارجريت» التى ترى بنفسها الآن مدى تقدما فى الخدمة السيح وتطورنا بها.. لكننا كنا لسه متغديين حالاً غداء حافلاً فى نادى ضباط الشرطة فى العريش، وليس فى معدتنا أى مكان لشىء آخر، لذا فقد أخذت «مارجريت» الصينيتين من على حجرى وحجرها ووضعتهما معًا فى شنطتها دون أن نمد أيدينا فيهما.. ولكن.

قبل وصول الأوتوبيس إلى محطته النهائية فى ميدان رمسيس بالقاهرة جاءت المضيفة أو الجرسونة الحسناء لكى تطلب منى سبعة جنيهات ثمنًا لهذه الفتافيت التى رمتها على حجرنا وطلعت تجرى زى بتوع النعناع فى تراموايات القاهرة زمان!!.. ووجدت نفسى موروطا أمام «مارجريت»، لكننى لم أشأ أن أبوظ فكرتها عن الخدمة السياحية فى بلدنا وأحولها إلى «الابتزاز السياحى» العلنى.. فأعطيت للجرسونة عشرة جنيهات فأعادت إلىّ جنيها واحدًا وتلكأت قليلاً متوقعة أن أقول لها (تخلّى الباقى علشانها) كبقشيش، فلما لم أفعل أعطتنى جنيها آخر وهى متأففة ومتضررة وعلامات الاشمئناط تبدو على وجهها الجميل.. وبرضه تلكأت مرة أخرى فلما لم أقل لها تخلّى الجنيه الباقى علشانها سألتنى بسداغة: «هى الصينية كان فيها كيس تشيبس والا لأ؟» فقلت: «أيوه كان فيها كيس تشيبس» فقالت ببرود وهى تعطينى ظهرها وتنصرف: «يبقى خلاص، كده مضبوط»!!.. يعنى أكون قد دفعت ثمانية جنيهات فى مقابل

زجاجتى سڤن آپ !!

ولم أستطع أن أسكت أكثر من ذلك ولتذهب سمعتنا السياحية فى ستين داهيـة إذا لم أرفض – كصحفى على الأقـل – هذه السـرقة العلنى.. فناديت مشرف الأوتوبيس أو الكمسارى وسألته: «هل البوفيه اللى فى الأوتوبيس تابع للشركة نفسها والا قطاع خاص» !؟ فقال وهو يـرفع حاجبًا ويخفض حاجبًا كفريد شوقى فى أفلامه القديمة: «قطاع خاص، بتسأل ليه»؟ قلت له إننى صحفي وإننى طلبت زجاجتى سڤن أپ فقط لاغير ولم أطلب شيئًا آخر، فهل أنا مضطر ومجبر على أن أدفع ٨ جنيهات ثمنا لزجاجتين سڤن أپ ؟! أريد أن أعرف هل هذه الجنيهات الثمانية التى دفعتها سوف تدخل خزينة الشركة الليلة أم ستدخل خزينة حـد آخـر؟ لأننى سوف أتصـل غدًا صبـاحا بـرئيس مجلس إدارة شركـة الأوتوبيس وأحكى له عن هذا الابتزاز – إذا لم يكن يعرفه فعلا – لكى ينهى عقد الذى أو التى – (فقد اتضح أنها «التى») – تدير هذا البوفيه ويطردها لأنها تسرق الركاب علنا، أو أن يفقد هو منصبه كرئيس مجلس إدارة الشركة لأنه لو كان يعرف بما يحدث فى أوتوبيساته وساكت وراضى فهو إذن يشتغل لحساب البوفيه وليس لحساب الدولة التى تمتلك شركة الأوتوبيس هذه !!

وذهب مشرف الأوتوبيس وتكلم مع الجرسونة فنظرت إلى ناحيتى وقد امتقع وجهها – الجميل – واختفت ابتسامتها – الجميلة – لكنها لم تفعل شيئًا.. فناديتها وطلبت منها فاتورة بالمبلغ الذى دفعته، تبين فيهـا أننى طلبت ٢ سڤن أپ فقط.. فقالت لى وهى مرعوبة إنها ليست لديها فواتير،

ولم يحدث أبدًا على امتداد الأربع شهور التى عملت فيها فى هذا (المنصب) أن طالبها أحد من الركاب بفاتورة من قبل.. فطلبت منها أن تـريني (قائمة الأسعار) المعتمدة من الشركة أو من وزارة السياحة التى تحاسب الركاب على أساسها.. فقالت إنها ليست لديها قائمة أسعار ولم يحدث من قبل أن طالبها أحد من الركاب بقائمة الأسعار.. فسألتها: «والراكب يعرف منين إن الأسعار اللى بيدفعها لك هى الأسعار المضبوطة وأنـك لا تسرقينه سواء لحسابك أنت شخصيا، أو لحساب المعلمة التى تدير هذا البوفيه.. (وكنت قد عرفت من مشرف الأوتوبيس أن التى تمتلك وتدير بوفيهات أوتوبيسات الشركة كلها واحدة ست قال هو عنها: المعلمة!! ياترى تقرب لمين بالضبط هذه المعلمة) !؟.. واستطردت أكلم الجرسونة الحسناء ممتقعة الوجه: «على العموم فغدًا صباحًا سأتصل برئيس مجلس إدارة شركة الأوتوبيس وأطلب منه يشوف إيه حكاية المعلمة بتاعتكم دى بالضبط.. وسأتصل بوزير السياحة علشان الوزارة تحاسبكم على الأسعار دى القديم والجديد من يوم حصولكم على عقد بوفيهات أوتوبيسـات الشركة».

فاعتذرت الجرسونة الحسناء بأن هذه هى غلطتها هى، وأنها هى التى سوف تعاقب وسوف تفقد وظيفتها بسببها، وأنها لسه متعينة جديد من أربعة شهور فقط!! ومش عارفة النظام بالضبط، وأنها كانت تظن أنه بما أن المسافة بين العريش والقاهرة طويلة فإننى «قـد» أحتاج إلى هـذا الأكل!! فقلت لها إننى لم أطلب منها أكلًا، وإنما طلبت زجاجتى سفن أپ فقط، ثم: هل سعر هذه الصينية بالفتافيت اللى عليها أربعة جنيهات!؟

فقالت إنها فى الحقيقة ليست متأكدة بالضبط من الأسعار، وإنما هى تقدرها هكذا بتقديرها الشخصى!! فسألتها مندهشًا: «ورصيد تقديرك الشخصى ده بيروح للمعلمة صاحبة البوفيه كل يوم وهى راضية به وموافقة عليه من غير ما تقول لك إن ده كتير، أو يمكن ده قليل»!؟

فمدت الجرسونة – الجميلة – يدها بثمانية جنيهات أعطتها لى.. فسألتها عن ثمن زجاجتي الـ(سڤن أپ)؟ فمدت يدها مرة أخرى وأخذت من يدى ١٢٠ قرشًا.. وكانت يد «مارجريت» أسرع منها وهى تعيد إليها الصينيتين، اللتين ستكونان قطعًا من نصيب راكب آخر سوف يدفع صاغرًا ٨ جنيهات–وربما أكثر – لأنه ليس صحفيا وليس طويل اللسان مثلى.. أو ربما لأنه سيخشى البهدلة والتهزىء حين يرى فريد شوقى الأوتوبيس يرفع له حاجبًا وينزل حاجبًا!!

ورغم أن حصيلة مارجريت من اللغة العربية لاتزيد عن ٣ كلمات: صباه الهير – الهمدو لله – سلامو أليكم.. إلا أنها حكت لى – بالإنجليزية طبعًا – كل الحوار الذى دار بينى وبين فريد شوقى الأوتوبيس أولا، ثم حوارى مع ليلى علوى البوفيه ثانيًا – وكأنها كانت تستمع إليه من جهاز ترجمة فورية.. وانبسطت – هى – جدًّا من أننى قد أعدت الأمور إلى نصابها وأوقفت عملية الابتزاز هذه، وقالت لى: «ماذا كنت سأفعل أنا كأجنبية عن البلد لو كنت وحدى»!؟ فقلت لها: «نفس ما كان يمكن أن يفعله – أو الأدق أن أقول «ألا يفعله»–أى واحد من الركاب المصريين لا يكون جريئًا وسليط اللسان وقوى الجسم بحيث

لا يخشى من تلعيب حواجب فريد شوقى ولا ينكسف من حلاوة ليلى علوى»..

ولم تفهم «مارجريت» شيئًا طبعا..

لكنها فى الصباح التالى وهى توقظنا من النوم بصينية الشاى والإفطار قالت لى: «ما تنساش تكلم النهارده وزير السياحة» فقلت مندهشا وكان الموضوع كله قد طار من دماغى: «أكلم وزير السياحة ليه»!؟ قالت: «علشان تقول له عن فريد شوقى وليلى علوى - (فقد ظنت أنهما الاسمين الحقيقيين لمشرف الأوتوبيس وجرسونة البوفيه) - وكمان ماتنساش تقول له عن الـ١٨ جنيه بتوع رستوران فندق أوبروى»!!

الفصل الثامن

أطـول لســـان
فى أفريقيـــا !!

حسبتها مارجريت على أصابع يـديها: «إذا كنـا سوف نـذهب إلى الإسكندرية غدًا لمدة خمسة أيام، فإننا سوف نعود إلى القاهرة فى اليوم السادس لساعات قليلة، لأننى فى صباح اليوم السابع سأكون على الطائرة فى طريق عودتى إلى لندن.. إذن فاليوم هو آخر فرصة لى لأتجول مرة أخيرة فى شوارع القاهرة، جولة الوداع.. قيام.. البســا.. سننزل الآن حالاً».

ديكتاتورة هذه السيدة، وقطعا كان نفسها تطلع شاويش فى الجيش البريطانى لكنها ما جابتش مجموع.. قمنا ولبسنا ونزلنا فى آخر جولة لها فى شوارع القاهرة التى أحبتها كثيرًا.. وأصبحت تعرف ميدان (التهرير) وشارع (سوليمان باشا) و (كصر النيل) وشواربى ومحطة المترو (أهميد أورابى) وميدان رمسيس.

قبل أن ننزل من البيت عدت جنيهاتها الإسترلينية التى جاءت بها

معها من لندن، قالت باندهاش: «هذه هى أرخص أجازة صيف قمت بها فى حياتى.. إننى أكاد لم أنفق شيئًا» قلت لها مشاكسًا: «كونى دقيقة فى كلامك.. قولى إنك (لم تنفقى شيئًا).. قالت: «ثناء وعدتنى بأنها سوف تغير لى ١٠ جنيهات إسترلينية بـ ٥٥ جنيهًا مصريًا سوف أنفقها كلها عن آخرها اليوم.. وإذا فاض منها شىء فسأشترى لكما چيلاتى على حسابى».

اشترت جلابية منقوشة مدندشة من جلاليب كرداسة قالت إنها سوف تذهب بها إلى مرسمها فى شارع (كنجز رود) فى حى (تشيلسى) أغنى وأرقى وأغلى أحياء لندن.. وشارع (كنجز رود) هو شارع الموداات والتقاليع وعلى رصيفه طول اليوم عرض أزياء مستمر تقدمه أشيك وأجمل وأغنى بنات لندن، يرتدين أعبط ما يمكن أن تلبسه بنت أوروبية، ومع ذلك فهو لايق عليهن جدًا ولاد الإيه، أو الأصح أن نقول (بنات الإيه).. ليس هلاهيل، وليس مقطعًا ومهربدًا فهذه موضة ولاد الإيه التانيين.

اشترت أيضًا كل الأشياء التى كانت قد جربتها لأول مرة وأعجبتها خلال زيارتها لمصر: اشترت (لسان العصفور) الذى ذاقته مرة واحدة حين أصابتها ضربة شمس فطبخت لها «إيلين» فرخة مسلوقة بشوربة لسان العصفور، فظنته «مارجريت» نوعًا من الدواء اللذيذ موصوفًا لضربة الشمس، فاشترت منه كيسين أتصور أنها سوف تضعهما فى أجزاخانة بيتها فى لندن.. اشترت أيضًا علبة ملبن لـ: قطتها!! قالت أن قطتها تحب الملبن.. أول مرة فى حياتى أسمع أن القطط بتاكل ملبن..

اشترت كمية توابل مصرية كانت قد رأت مثلها فى مطبخ البيت عندى، أنا متأكد تمامًا أنها لن تعرف كيفية استخدامها فى طبخ الأكل. اشترت كمية (كعب غزال).. وهو فطير صغير جدًّا محشو بالعجوة أعجبها اسمه قبل أن يعجبها طعمه.. أرادت أن تشترى كمية (كيك مصرى) - الطعمية التى وقعت فى غرامها ولن تسلاها أبدًا - لكننى أقنعتها بأن تؤجل الطعمية إلى آخر يوم قبل سفرها حتى تأخذها معها طازجة، وليست بايتة لمدة ٧ أيام!

ونحن فى شارع شواربى نظرت فجأة إلى ساعتها. وقالت بخبث ورثته لا شك عن أجدادها الأوائل الذين كانوا يهودًا قبل اختراع الإنجليز: «مش إحنا دلوقتى فى شارع كصر النيل؟ يعنى قريبين من بيت أخوك.. تعالى نروح نفاجئهم، نسلم عليهم وأودعهم، ونتعشى عندهم»!!

الست دى لو قعدت فى مصر شهر واحد كمان حاتبقى ألعن من المصريين..

أعجبها بيت «أحمد فؤاد» أخى الأكبر أكثر من بيتى.. قالت إن بيتى أوروبى زيادة عن اللزوم، ويكاد يكون نسخة مكبرة من بيتى فى لندن.. لكن بيت أخى مصرى أكثر وشرقى أكثر.

هللت لها «مديحة» زوجة أخى، وزاطت وفرحت بها «هدى» ابنة أخى لأنها أحبتها كثيرًا.. وأخذتها «مديهة» - كما تنطق اسمها - معها إلى المطبخ وعادت وفى يدها صينية فيها طبق بامية ورغيف عيش بلدى!! وغمست البامية بإيدها بالعيش كما رأتنا نفعل، ومزمزت بها حتى جهز العشاء، فتعشت معنا مرة أخرى.. بعد العشاء شربت كوبين من عصير

الفراولة حتى كادت أن يغمى عليها من النشوة والسعادة.. لا أظن أن كثيرًا من السياح يكون عندهم الفرصة التى كانت عند «مارجريت» لترى شكل الحياة المصرية اليومية داخل البيت المصرى العادى، مثل بيتى وبيت أخى وبقية بيوت الأسرة والأصدقاء التى زارتها معنا.

وجاء يوم السفر إلى الإسكندرية.. أعجبت مارجريت كثيرا بالقطار التربينى وقالت إنه لا يقل عن خطوط السكك الحديدية الإنجليزية الشهيرة (إنتر سيتى) ذات اللون الأصفر المميز.. أعجبها كثيرًا كذلك الغداء الذى تناولناه فى مقاعدنا فى القطار دون أن نحتاج إلى أن ننتقل إلى عربة الأكل.. فقد كان الغداء وجبة كاملة مطهوة جيدًا، ورخيصة جدًّا سواء حسبناها بالعمل المصرية أو بالإسترلينى.. فبالإسترلينى لا يتجاوز ثمنها جنيهًا واحدًا.. وقالت إن وجبة مثلها فى قطارات إنجلترا لن تقل عن ١٥ جنيها.. إسترلينى طبعًا.

إنبسطت جدًّا من منظر الحقول الخضراء الممتدة على الجانبين على إمتداد البصر طوال المسافة بين القاهرة والإسكندرية.. هى مثل كل الأوروبيين تحب الزرع وتعشق اللون الأخضر.

على يميننا فى الجانب الآخر من العربة أسرة عربية لم أستطع أن أتعرف على جنسيتها من لكنتها العربية: سيدة جميلة شابة بين الخامسة والثلاثين والأربعين، ومعها أورطة أطفال من مختلف الأعمار.. سبعة أو ثمانية أطفال من سن ١٤ ونازل.. كادت أن تحتكر بوفيه القطار لحسابها طوال الوقت، والـ ٢ تروللى المخصصين لخدمة العربة كلها كانا يادوب رايحين جايين ومش ملاحقين على طلبات السيدة الشابة التى بين الخامسة

والثلاثين والأربعين!! المدهش أن الأطفال لم يكونوا هم يطلبون شيئًا، لكن السيدة هي التى كانت تلح وتضغط وتتوسل، ثم فى النهاية تشخط وتأمر، ليأكلوا هذا ويشربوا ذاك.. والأطفال يأكلون ويشربون مضطرين مرغمين.. ويأكلون من الحاجة نصفها ويشربون من الزجاجة ربعها، ثم يتركونها.. والسيدة تبدو وكأنها تريد أن يرى كل ركاب العربة قد إيه هى غنية ومعاها فلوس.

«مارجريت» لم ترفع عينيها عن هذه السيدة وفرقتها طوال الوقت.. ثم مالت علىّ لتهمس فى أذنى: «أتمنى أن أستطيع أن أقرأ بنفسى ماذا سوف تكتبه عن هذه المرأة السمينة التى تبدو محدثة نعمة وجديدة على الثراء.. سوف تكتب عنها أليس كذلك»؟!.

لكن قبل أن أرد عليها كانت مفاجأة جديدة تطب علينا.. سيدة أجنبية، بطة بضة بيضاء قاربت الستين لازالت بها مسحة من جمال قديم غابر.. كانت تجلس على بعد ٣ أو ٤ صفوف من مكاننا فى مواجهتنا بحيث ترانا ونراها.. شكلها المدندش زيادة عن اللزوم يوحى بأنها - ولو أنها أجنبية - إلا أنها بلدى جدا والثراء شىء جديد عليها.. طول الوقت وهى تراقبنا ولا ترفع عينيها عنا وكأنها تحاول أن تصطاد عينينا بنظراتها.. حتى التقت عيناى بعينيها فعلاً . فابتسمت لى ابتسامة واسعة، فبادلتها ابتسامتها وهززت لها رأسى، فعلى الفور تركت مكانها فى عربة القطار وجاءت لتجلس فى المقعد الخالى أمامنا بجوار «ثناء» لكى تسألنا بالإنجليزية بلكنة أجنبية: هل التقينا فى مكان ما قبل ذلك؟! لأنها تشعر أن وجوهنا مألوفة لديها، وأنها ممكن أن تكون قد رأتنا فى أى مكان فى

العالم، لأنها تقضى معظم شهور السنة تتجول فى العالم منذ وفاة زوجها دون أن ينجبا أولادًا.. هزت «مارجريت» رأسها نفيا وقالت للسيدة إنها لا تذكر أنها رأتها من قبل.. وقلت أنا للسيدة إن الدنيا قد أصبحت صغيرة ومحتمل أن نكون قد التقينا فى أى مكان فى العالم ولم نتكلم لكننا نتذكر وجوه بعض.. وأننى على أى حال سعيد بمعرفتها.. سألتنا هل نحن سياح؟ فقالت لها «مارجريت» إنها إنجليزية تزور مصر الأول مرة، وإن مستر قدرى - اللى هو أنا - مصرى لكنه يعيش فى إنجلترا فى الوقت الحالى بحكم عمله.

وفوجئت بالسيدة وقد علت وجهها فجأة علامات الاشمئناط والقنعرة والكبرياء وهى تقول لى: «مصرى؟! لقد ظننتك إيطاليًا.. لقد عشت طفولتى هنا، وكان أبى واحدًا من عشرات اليونانيين المليونيرات فى مصر، ثم تركناها إلى فرنسا وسويسرا وإيطاليا.. المصريون ناس سيئون جدًّا.. لقد كنا نسكن فى قصر فخم فى الموسكى - هكذا!! - وكان لدينا سيارات وعربات تجرها الخيول، وعشرات من الخدم والعبيد كلهم مصريون.. وكان أبى يضربهم بالكرباج كل يوم.. فلما قامت الثورة فى مصر سرق الخدم والعبيد المصريون كل شىء حتى السيارات والخيول.. لقد كنت صغيرة ولا أذكر كل التفاصيل، لكننى أجىء إلى مصر بين حين وآخر لأحاول أن أبحث عن قصرنا القديم فى الموسكى فلا أجده»!!

فقلت لها على الفور: «حين قامت الثورة فى مصر ياسيدتى لم يكن عمرك أقل من ٥٠ سنة.. لذا فأنت قطعًا تتذكرين جيدًا أنه لم يكن قصرا فى الموسكى لكنه كان غرفة فوق السطوح فى السكاكينى أو الظاهر أو

جزيرة بدران أوالترعة البولاقية أودرب البرابرة أوحارة اليهود... والمليونيرات اليونانيين الذين تتحدثين عنهم كانوا كلهم جرسونات فى المقاهى والبارات والخمارات فى القاهرة والأرياف، والكويس فيهم كان فاتح دكان بقالة جريجى، وكانوا جميعهم كوستا وينى وماريو وخرالمبو.. وكانت ستاتهم اليونانيات كمريرات ودادات وخادمات فى بيوت الأعيان المصريين.. وبناتهم اليونانيات الجميلات منهن كن كومبارس فى السينما فى مصر، أو راقصات عند بديعة مصابنى وببا عز الدين وصفية حلمى، وغير الجميلات كن بائعات فى شيكوريل وشملا وسمعان صيدناوى وعمر أفندى وأوريكو واسكندر أفيرينو، أوبائعات حلويات فى الأمريكين وجروبى وتسيباس وقويدر، وفى أوقات فراغهن كن يبعن أشياء أخرى أنا أذكرها جيدًا بحكم أننى كنت مراهقا حين قامت الثورة و .. و .. و ..

وقاطعتنى مارجريت وهى تقول للسائحة اليونانية العجوز بأدب شديد: «سيدتى لقد جئت للمكان الخطأ وللشخص الخطأ.. وكان ينبغى علىّ أن أنبهك من البداية إن مستر قدرى هو صاحب أطول لسان فى القارة الأفريقية كلها.. وها هو قد نكد عليك بدلا من أن تنكدى أنت عليه.. فهل تكتفين بذلك وتعودين إلى مقعدك،أم أحكى لك أنا أيضًا عن اليونانيين الذين رأيتهم فى أستراليا»!؟

وشمخت بأنفها السيدة اليونانية التى انتهى عمرها الافتراضى منذ ٢٠ سنة على الأقل.. وقامت من سكات دون أن تنطق كلمة أخرى.. ولم أرها بعد ذلك فى العربة كلها حتى وصلنا إلى الإسكندرية.

محجوز لنا ومدفوع مقدما فى فندق من أشهر فندقين فى الاسكندرية

يطل على البحر مباشرة وله شاطئه الخاص.. ومع ذلك فقد اضطررنا إلى البقاء بحقائبنا أكثر من نصف ساعة فى بهو الفندق حتى ينتهى قسم الاستقبال من «البحث» عن الغرف المحجوزة لنا - والمدفوع أجرها مقدمًا - وكأنها تاهت منهم أو سيرسلون لشرائها من فندق آخر.. بنات وشبان قسم الاستقبال متجهمون دائمًا ويتعاملون مع النزلاء بكثير من الكبرياء والتعالى و (التنطيط) كما لو كان النزلاء لاجئين من فيتنام الجنوبية يطلبون معونة الشتاء من إدارة الفندق.. حتى يصل الأمر إلى التريقة على نزيلة عربية كانت تدفع إيجار جهاز فيديو وتليفزيون استأجرتهما لكابينتها.. ولم تعرف موظفة الاستقبال الجميلة - فى عز الموسم السياحى - الايجار المطلوب للفيديو.

الغرفة فاخرة جدًّا، ونظيفة وشيك بكل المقاييس.. لكننى أفهم أن فندق ٥ نجوم تتبع إدارته فندق شبرد، أن يكون بكل غرفة تليفزيون ملون أو حتى أسود وأبيض، جهاز راديو، ساعة حائط.. لماذا يدفع النزيل نحو ٢٠٠ جنيه مصرى فى الليلة الواحدة، للمبيت فقط، إذا لم يكن فى الغرفة حتى هذه الأشياء البسيطة.. طلبت «مارجريت» مكواة لتكوى (جوبتها) التى ستخرج بها فى المساء..طلبت المكواة فى السادسة مساء.. وخرجنا للعشاء وعدنا، ولم تصل المكواة إلا بعد منتصف الليل.. فى الواحدة صباحًا رفعت سماعة التليفون فى غرفتى لأطلب من عامل تليفون الفندق أن يوصلنى بفندق شيراتون المنتزه عبر الشارع، فرد علىّ عامل التليفون بغلظة وجفاء وفظاظة كأننى أزعجته من نومه، ولم يعطنى المكالمة إلا بعد أن طلبتها منه ٣ مرات على امتداد نصف ساعة.. رأيت

صورة «سماح أنور» على غلاف مجلة مصريـة أعجبت «مارجـريت» وأرادت أن تحتفظ بها تذكارًا، اشتريتهـا من محل بيـع الصحف فى بهو الفندق.. البائع العجوز فى المحل طلب منى ٧٥ قرشًا.. «ليه يا صديقى؟ دى مكتوب عليها إن سعرها ٤٠ قرشًا فقط»؟ فمد يده وأخذ المجلة من يدى ليضعها مرة أخرى بين المجلات المعروضة وهو يقول لى ببرود: «من غير ليه.. إحنا أسعارنا كده»!! فى كل فنادق العالم التى تعاملت معها، حتى لو كانت فنادق نجمة واحدة وليست ٥ نجوم، فإن إيجار الغـرفة يشمل الإفطار أيضًا.. هنا لأ .. وإذا تجاسرت وطلبت فنجانين شاى فى غرفتك فى أى وقت فإن فاتورة الستة جنيهات التى ستدفعها فى كل مرة سوف تجعلك تفضل أن تأخذ تاكسى لتنزل إلى محطة الرمل لتشرب شاى هناك وترجع.. أرخص كتير قطعًا.

وحين انتهت إقامتنا طلبت من مكتب الاستقبال أن يرسل واحدًا من حاملى الحقائب ليأخذ حقائبنا من الطابق الرابع إلى بهو الفندق.. بعد نصف ساعة لم يأت أحد فأخذنا حقائبنا بأنفسنا ونزلنا بها.. طابور طويل من الذين مهمتهم حمل حقائب النزلاء واقفون صفًا طويلاً فى مـدخل الفندق لا يفعلون شيئًا، وما أن تقف بحقائبك - التى أنزلتها من الغرف بنفسك - أمام مكتب الاستقبال حتى ينقض عليك ٣ أو ٤ من حاملى الحقائب هؤلاء لكى ينتزعوا منك الحقائب لينقلوها مجرد ١٠ خطوات من أمام مكتب الاستقبال إلى جوار باب الفندق الزجاجى.. فإذا أعـطيت الواحد منهم جنيهًا أبقى الجنيه فى يده المفتوحة الممدودة إليك وهو ينظر فى عينيك مباشرة باستنكار وكأنه سوف يشتمك أو يرمى الجنيه فى وشك..

ويبدو فى النهاية أن عذاب الإقامة فى الشقق المفروشة أهون كثيرًا من عذاب النزول فى فنادق الدرجة الأولى.

مارجريت لم تجىء إلى الإسكندرية - وإلى مصر كلها - لكى تنام فترة العصر.. تركتانى نائما ونزلت هى و «ثناء» إلى الشاطئ الخاص بالفندق، ثم جلستا بعض الوقت فى بهو الفندق.. قالت «مارجريت» إنها تريد أن تتفرج على نوعية الناس الذين ينزلون فى فنادق الدرجة الأولى فى مصر فى عز موسم الصيف هكذا.. وعادتا إلىّ وهى مندهشة جدًا: «كيف تقولون إنكم دولة من دول العالم الثالث، ودولة مدينة بمليارات الجنيهات واقتصادها راكع على ركبتيه أمام الدولار والاسترلينى والين والمارك، ثم يكون ٩٥٪ من نزلاء هذا الفندق مصريين!؟.. وهم ليسوا مصريين رجال أعمال أو فى مأموريات عمل، لكنهم أسر وعائلات بأكملها بأطفالها وعيالها وشبانها وبناتها وخدمها وكلابها وقططها.. كيف تكون مصر دولة مدينة إذا كان كل واحد من هؤلاء قادرًا على أن يدفع ٢٠٠ جنيه فى الليلة الواحدة فى الغرفة الواحدة، غير الأكل.. ومؤكد أن الأسرة كلها لا تنزل فى غرفة واحدة.. هل تستطيعان تفسير هذه المعادلة الغريبة لى» !؟

ردت عليها «ثناء» بالعبارة المصرية الشائعة جدا هذه الأيام: «اكتبى لأمينة السعيد» !!

المهندس «ثروت أسعد» صديقى منذ أكثر من ٢٠ سنة، منذ أن كان مهندسًا حديث التخرج حتى أصبح الآن كبير الخبراء فى هيئة اللويدز العالمية للتسجيل البحرى.. «ثروت» يدعونا إلى العشاء الليلة فى (النادى

السورى) فى محطة الرمل.. أرى «ثروت» كثيرًا كلما جئت أنا إلى مصر، وكلما ذهب هو إلى إنجلترا بحكم عمله، لكننى لم أر ابنتيه «شيرين» و«نرمين» منذ كانتا طفلتين صغيرتين حتى فوجئت بهما الليلة شابتين حسناوتين واحدة منهما طالبة فى الجامعة، والثانية محصلاها فى العام القادم.. كانت مع البنتين صديقتهما «دينا» فى مثل عمرهما.. البنات الثلاث تعلمن فى مدارس أجنبية طول عمرهن، لذا فلغتهن الإنجليزية ممتازة.. «نادية» زوجة «ثروت» رغم أنها مهندسة زراعية إلا أنها قد طورت لغتها الإنجليزية لكى تكون على مستوى إبنتيها.. «ثروت» كبير الخبراء فى شركة «إنجليزية».. لذا فرغم أن القعدة فى النادى كانت ظريفة جدا والعشاء كان فاخرًا جدًّا، إلا أننى لم أملك إلا أن ألتمس العذر لمارجريت فى الملل الذى كان يصيبها بين حين وآخر حين يستغرقنا جميعًا - بحكم العادة - الحديث باللغة العربية وننسى أن معنا ضيفة إنجليزية يجب ألا نتركها تشعر بالوحدة، وهى جالسة بين ٦ أشخاص جميعهم يجيدون الإنجليزية.. وطبعًا كان يضايقها أكثر أن نضحك كثيرًا على شىء ما أو على حكاية ما دون أن تشاركنا هى الضحك، فتكون قاعدة (زى الأطرش فى الزفة) لأنها لا تعرف لماذا نضحك!!

الفصل التاسع

راقصات الحكومة!

مارجريت تعود إلى إنجلترا يوم السبت القادم، لذا فهى تريد أن تطمئن إلى أن مكانها محجوز على طائرة مصر للطيران لذلك اليوم، ولا تريد أن تترك شيئًا للظروف.. فشلت تماما فى الاتصال تليفونيا بمكتب مصر للطيران فى محطة الرمل.. فإما أن الخط مشغول باستمرار، أو إذا رن جرس التليفون فلا أحد يرفع السماعة ليرد.. لم يكن أمامنا بد من الذهاب إلى مكتب مصر للطيران فى محطة الرمل بأنفسنا.

لابد وأن هناك طريقة أكثر تحضرًا من هذه الطريقة.. عشرات من الناس يملئون المكتب بغير نظام وكأنه جمعية استهلاكية يوم توزيع الفراخ، ولا أحد يرد على أحد لأن الجميع يتكلمون فى وقت واحد.. ولا أعرف إن كان العيب فى عدم وجود نظام واضح للعمل فى المكتب، أو العيب من موظفى المكتب، أو أن العيب فينا نحن جمهور المتعاملين.. لكننى لا أرى هذه الصورة أبدًا إلا فى مكاتب شركات الطيران العربية والأفريقية.. للأسف.

المهم أننا بعد دقيقة واحدة من وجودنا فى داخل هذه المعمعة أدركت أننا لن نصل إلى أى شيء مع هذه الزيطة، وممكن أن نقضى هنا عدة ساعات دون أن ننهى شيئًا.. فأخذت «مارجريت» وانصرفنا وفى ذهنى أن أتصل تليفونيا بالقاهرة بصديق لى عضو مجلس ادارة فى مصر للطيران.. وأقترح على كل واحد من جمهور المتعاملين مع الشركة أن يبحث له عن واحد من أعضاء مجلس إدارة مصر للطيران، ويصاحبه.

كان اليوم هو يوم السياحة فى الإسكندرية.. لم أزر المتحف الرومانى من قبل فى حياتى، لكننى حين زرته اليوم مع «مارجريت» شعرت بالسعادة الشديدة والفخر الشديد أننا لدينا فى مصر هذا المتحف.. فهو متحف غنى بمحتوياته المعروضة عرضًا جيدًا، والشروح المكتوبة على كل منها واضحة جدًّا ووافية جدًّا.. وتمنيت لو أن الوقت كان أمامنا متسعا لكنا قد قضينا اليوم كله فى هذا المتحف.. وذلك كان إحساس «مارجريت» أيضًا، التى انتزعتها انتزاعا من المتحف بعد ساعتين كاملتين، لأننا كان لدينا برنامج زيارات أخرى لبقية اليوم.

وبقدر ما كنت تيها وفخورًا ونحن فى المتحف الرومانى بقدر ما بقيت (فى نص هدومى) ونحن نخرج من متحف الأحياء المائية.. زرت متحف الأحياء المائية مرة وأنا تلميذ فى ابتدائى ولم انبهر به يومها.. وزرته اليوم فانكسفت جدًّا منه.. ولو كنت وحدى لهان الأمر، لكن وجود «مارجريت» معى، وهى السائحة التى أريد أن أرى مصر السياحية من خلالها. فهذه الغرفة فى البدروم التى ندعى أنها متحف الأحياء المائية هى شيء مخجل جدًّا وكأن مصر بلد فى وسط الصحراء لا يطل على عدة

آلاف من الأميال على ساحل البحر الأبيض من السلوم غربا إلى رفح شرقًا، مرورا بمرسى مطروح، والعلمين، وسيدى برانى، وسيدى عبدالرحمن، وبرج العرب والدخيلة والعجمى والإسكندرية، وأبو قير، ورشيد، وجمصة، وبلطيم ورأس البر وبورسعيد، وبور فؤاد، والبردويل، والعريش.. وعلى ساحل البحر الأحمر من بور سعيد شمالا إلى علبة وحلايب فى أقصى الجنوب، مرورا بالقنطرة والاسماعيلية والسويس، وسواحل سيناء كلها، وخليج السويس ورأس غارب والغردقة والقصير وسفاجة، وبرنيس ورأس بناس.. وقد زرت هذه المناطق كلها، ورأيت فيها العجب من الأحياء والكائنات البحرية، التى لا يوجد ١ : ١٠٠٠ منها فى متحف الأحياء المائية فى الاسكندرية، الذى يبدو وكأنه قد أنشىء بغرض -فقط- تعريف أطفال المدارس الابتدائية فى سنواتهم الأولى بعالم البحر واحدة واحدة وبالتدريج دون أن يتخضوا ويفزعوا من البحر.. لكن أن نفتحه للسياح الأجانب ونقول لهم هذا هو متحفنا للأحياء المائية، فذلك يندرج تحت بند (الغش التجارى).. لأنهم سوف يكتشفون من اللحظة الأولى أنهم قد (إنضحك عليهم) ليس فقط فى ثمن تذكرة دخول المتحف وإنما أيضًا فى الوقت الذى بددوه فى زيارته، ولو كنا قد أخذناهم إلى سوق السمك فى المنشية لانبسطوا أكثر.

لذا فبعد ٣ أو ٤ دقائق فى المتحف بدا على وجه «مارجريت» الضيق والإحباط.. وقبل أن أقترح أنا أن ننصرف كان المتحف - كترخيره - قد انتهى فعلاً.. فهو غرفتان أو ثلاث فيها فاترينات مضاءة شبه خاوية.. وكان بعضها خاويا فعلاً..

كانت شيئًا مهيبا حقا قلعة قايتباى، أو طابية قايتباى البحرية.. يكفى أن تعلم فى البداية أنها فى مكانها هذا منذ مئات السنين.. وقد شهدت تاريخًا بحريا مثيرًا: تاريخ المماليك الذين حكموا مصر قبل الحملة الفرنسية، ثم الحملة الفرنسية على مصر ونابليون بونابرت، إلى الحملة الانجليزية بعد ذلك بنحو ٣ سنوات، ثم تاريخ محمد على باشا الكبير وأسرته من بعده حتى الخديو توفيق الذى شهد عهده ثورة أحمد عرابى.. وكانت طابية قايتباى هى إحدى القلاع البحرية المصرية التى ضربها مع الاسكندرية الأسطول الإنجليزى بمدافعه عام ١٨٨٢ قبل ١١٠ سنوات من الآن لكى تحتل إنجلترا مصر ٧٢ سنة بعدها، حتى جاء جمال عبد الناصر فأنهى هذا الإحتلال عام ١٩٥٤.

«مارجريت» لأنها فنانة تشكيلية أصلًا ودارسة تاريخ فهى ترى الأشياء بعين غير العين التى يراها بها الإنسان العادى أو السائح العادى.. لذا كان استغراقها واندماجها فيما تراه شديدًا، حتى أنها اعتذرت للدليل الذى كان يرافقنا من إدارة القلعة، وطلبت منه أن يشرح لى أنا و «ثناء» باللغة العربية، لأنها تريد أن تقرأ بنفسها المكتوب باللغة الانجليزية تحت المعروضات و (تعيش الجو بنفسها).. وظلت تنتقل داخل الطابية ونحن وراءها فى ساعات كاملة نسيتنا فيها تمامًا وكأننا غير موجودين.. وقالت لى ونحن نترك طابية قايتباى وراءنا قرب العصر: «لقد استغرقتنى المشاهدة تمامًا حتى أننى تصورت نفسى أعيش فى هذه الطابية فعلا منذ ٥٠٠ سنة».. فقلت لها بجد: «كانوا الضباط والعساكر وقتها حاينبسطوا بشكل» !!

قالت ونحن فى السيارة: هل هناك شىء آخر فى برنامج اليوم!؟ قلت: «قصر رأس التين» قالت: لقد حكيت لى عنه من قبل.. ذلك القصر الذى خرج منه فاروق آخر ملوك مصر مطرودًا إلى إيطاليا بعد أن خلعته الثورة المصرية عن العرش.. أليس كذلك؟ قلت: «صح» قالت: «أريد أن أرى القصر من الخارج فقط.. أريد أن أتخيل منظر خروج فاروق من قصره مدحورًا بعد مُلك لم يستطع أن يحافظ عليه» قلت لها وأنا أبتسم فى داخلى: «كما تشائين» ولم أقل لها إن مشاهدة قصر رأس التين من الخارج فقط كان هو بالضبط الذى فى برنامجنا.. لأننى كنت قد عرفت أن القصر لم يعد متحفًا ومزارا سياحيًا كما كان فى وقت من الأوقات، بل تحول إلى إدارة ما حكومية احتلته لأسباب عسكرية أيام حرب ١٩٦٧ ثم نسيت أن تعيده متحفًا مرة أخرى رغم مرور ١٩ عامًا الآن على آخر حرب مرت بها مصر.

مارجريت تيدو وكأنها مركبة جهاز إنذار فى معدتها.. فهى تنسى ساعة يدها طول اليوم ولاتنظر فيها إلا مرة واحدة فقط.. وهذه المرة الواحدة معناها أن موعد الغداء قد حان..

كان المهندس «ثروت أسعد» قد نصحنى أمس بأن نجرب مطعمًا جديدًا افتتح مؤخرًا على شاطئ الإسكندرية قرب قصر رأس التين.. ولم نستغرق وقتًا طويلاً فى العثور عليه.. مطعم شيك فعلاً بديكوراته الشرقية وإضاءته الهادئة من الداخل حيث الصالونات الأرابيسك وعدد قليل جدا من الموائد، وبوفيه السلطات المفتوح الذى تأخذ منه ما تشاء بنفسك، وحسب اختيارك، وتضعه فى طبقك بنفسك وتعود به إلى مائدتك،

ثم القعدة الرئيسية والعدد الأكبر من الموائد فى الـ (تيراس) الخارجى الكبير الذى يطل على البحر مباشرة.. القعدة رائعة والجو على بعضه جميل وشرقى وفاخر، والسلطات أكثر من رائعة وأكثر من مشبعة.. لكن السمك الذى جاءنا على الغداء كان صدمة لى - لى أنا على الأقل كأكيل سمك - فقد طلبت طبقًا من (السبيط) أو (الكاليمارس) أغلى طبق فى القائمة، فجاءنى شىء جاف مقرمش وكأنه بطاطس (تشيبس).. والسبيط إذا فقد طراوته وليونته فقد طعمه.. ولم يكن منظر السفرجية الجادين جدًّا الصارمين جدًّا يوحى بأنك ممكن أن تطلب تغيير طبقك لأنه لم يعجبك، بل يجعلك تتصور أن هذا الطبق بحالته هذه قد مر على ١٠ زبائن قبلك أكل كل واحد منهم - أو قرقش - قطعة واحدة من هذا (السبيط التشيبسى) ثم ترك الطبق لكى يصل إليك فى الآخر.

وحمدت ربنا أنها جاءت فىّ أنا ولم تحدث مع «مارجريت» أو «ثناء»، لأن «مارجريت» - كأوروبية - لم تكن تتردد فى أن تطلب مدير المطعم نفسه لكى تطلب منه تغيير الطبق، أما «ثناء» فهى فضوحية ولست أظنها كانت ستطلب أقل من محافظ الاسكندرية أو وزير الحكم المحلى.

مارجريت وثناء (جايين على هوا بعض).. فبينما أحب أنا أن أنام قليلاً فترة العصر طالما أنا موجود فى مصر - وهى العادة التى أحرم منها تمامًا طوال وجودى فى إنجلترا - فهما لا تعترفان بمسألة نوم العصر هذه.. وإذا لم تستطيعا إغرائى بمكان ما نذهب إليه عصرًا فهما تتركانى نائمًا وتنطلقان هما على راحتهما.. وذلك ما حدث اليوم بعد عودتنا من جولتنا الصباحية.

وحين أيقظتانى فى المساء كانتا متزوقتين ومتشيكتين وعلى سنجة

عشرة: «خير يا حسناوات.. عايزين إيه»!؟.. «ماذا لدينا فى البرنامج للمساء»!؟.. قلت وأنا أعطيهما ظهرى وأعود إلى النوم من جديد: «مفيش برنامج فى المساء.. جولة حرة.. روحوا اتمشوا على كيفكم» قالتا وقد جلست واحدة منهما عند رأسى والأخرى عند قدمى، كناكر ونكير: «وهل يرضيك أن نتجول وحدنا ونحن ستات؟ مش خايف لاحد يخطفنا»!؟ قلت وأنا أقوم متضررا: «هو معقول برضه حد يرضى يخطفكم»؟!!

الجولة فى حدائق قصر المنتزه التى تحيط بالفندق، أو التى بنى الفندق على حافتها فى جزء بدا لنا صغيرًا جدا جدا بالنسبة إلى الاتساع الهائل للحدائق، الجولة رائعة فعلا حتى أن «مارجريت» نسيت القصر نفسه ولم تهتم إلابالحدائق فقط.. وقالت لنا إنه لاشك أن هناك جهة ماتفهم بشدة - وبمزاج - فى شئون الحدائق، لكى تحتفظ بكل هذا الجمال على صورته هذه التى رأيناها عليه.. الحدائق وحدها تكفى.. ولست أدرى إن كان كل هذا الجمال مفتوحًا للشعب أم لا ، لكنه ينبغى أن يكون.. فقد لاحظنا أن هناك بوابة على مدخل الحدائق لا تجتازها إلا بتصريح يثبت أنك مقيم فى الفندق الوحيد، أو فى الشاليهات المجاورة له على جانبيه، والتى أيضًا لا أدرى هل هى تتبع الفندق أم تتبع محافظة الاسكندرية، وهل هى للناس العاديين، لكل الناس، أم لفئة ما من الناس المهمين فى الدولة، الذين أصبحوا الآن كثيرين ولاشك. وقد تبدو تساؤلاتى هذه كلها ساذجة. وأن الجميع يعرفون إجابتها ماعداى، فإن بعدى عن مصر فترة طالت إلى ١٥ سنة جعلتنى بعيدًا عن كثير من الأشياء التى كنت قطعًا

سأهتم بها وبمعرفتها إن لم يكن كمواطن فعلى الأقل كصحفى..

لكننا على أى حال نستمتع الآن - جدًّا - بالتجول فى حدائق قصر المنتزه الشاسعة.. وننتقل من جزء جميل إلى جزء أجمل ومن موقع رائع إلى موقع أروع، والظلام والأضواء الخافتة المتناثرة فى أماكن، القوية فى أماكن أخرى تضفى على الجو كله سحرًا فوق سحر.. حتى مررنا بسلسلة من المحلات وقفت «مارجريت» مخضوضة أمام واحد منها دون أن تتكلم للحظات، ثم سألت وهى مشدوهة: «الراجل ده بيلعب بإيه؟ إيه اللى هو بيطيره فى الهوا ده وبعدين يخبطه فى الترابيزة قدامه، ويرجع يطيره تانى»!؟ فقالت: «ثناء» وهى تمسك بطنها من الضحك على حكاية (بيلعب بإيه): «ده مش بيلعب.. ده بيعمل فطير».. «بيعمل إيه»!؟ «فطير».. «إيه فتير دى»!؟ «حاجة كده زى البيتزا بس ألذ كتير».. «هاها.. بيتزا مصرية.. أذوق».

أتصور أن الفطيرة لا يزيد سعرها عن جنيه واحد مثلاً، لكن المصيف وحدائق قصر المنتزه وشعر «مارجريت» الأحمر وشكلنا «السياحى» جعل سعر الفطيرة يصل إلى أربعة جنيهات ونصف!! لكن متعة مشاهدة عمل الفطيرة نفسها كانت تساوى أضعاف ذلك المبلغ.. فقد رأت «مارجريت» قطعة العجين المكببة فى حجم كرة التنس وهى تتحول فى يد الفطاطرى الشاب البارع إلى منديل رقيق جدًّا من العجين فى مساحة الطاولة الرخامية كلها أمامه، ثم وهو يرص فى هذا المنديل ويحشوه بعشرات من أصناف الجبن والزيتون، والبسطرمة وقطع اللانشون، وبيض مسلوق، وجبن رومى مبشورة، وفلفل أخضر وفلفل أحمر، وعدد آخر من

أصناف التوابل ضاعت أسماؤها من ذاكرتى، بل لم أكن أعرف أسماءها من الأصل، ثم وهو يطوى منديل العجين فوق كل هذا الحشو ليصبح شكله فى الآخر فطيرة من العجين الأبيض لا ترى ما بداخلها، ثم يطقش بيضة نيئة لكى يدهن سطح الفطيرة بصفارها وبياضها معا وهوب: إلى داخل الفرن المحمى الذى تتوهج النيران بداخله و: «١٠ دقايق بس ويكون الفطير جاهزًا».

وجلسنا على دكة من الرخام الأبيض فى حديقة قصر المنتزه نلتهم الفطير السخن الملهلب، و «مارجريت» بين قطمة وأخرى من الفطيرة تفتح فمها على اتساعه وتهوى داخله بيدها لكى تبرد سخونة الفطيرة من ناحية وشعوطة التوابل الحراقة فى حلقها من ناحية أخرى، وهى تقول بين حين وآخر: «ذلك هو أشهى عشاء تناولته فى حياتى حتى الآن».. (ملحوظة: قالت «مارجريت» ذلك عن كل عشاء تناولته فى مصر.. حتى الآن!! انتهت الملحوظة) !!..

حين نظرت مارجريت فى ساعة يدها قلت لها مندهشًا: «ما أنت لسه متعشية حالاً آهه.. لحقتى جعتى تانى» !؟ قالت: «ساعة اليد يامستر قدرى لها أحيانا فوائد أخرى غير تذكيرك بمواعيد الأكل.. إنها فى بعض البلاد الشرقية، مثل مصر، ممكن أن تذكرك بمواعيد الرقص الشرقى» !!.. كنت قد نسيت تمامًا.. قلت: «آه والله.. عندك حق.. ياللا بينا».

توقعت أن أجد زحامًا هائلاً على باب المسرح الذى تقدم فيه فرقة رضا عرضها الصيفى فى الإسكندرية، لكننى لم أجد أحدًا على باب المسرح، ولا حتى باعة اللب والسودانى.. ظننت أن العرض قد تأجل أو

أن الإعلان قديم ومتروك هكذا فى مكـانه منـذ الصيف الماضى.. لكن المسرح من الخارج مضاء وشباك التذاكر مفتوح وبداخله سيدة سمينة لا أدرى كيف استطاعت الدخول من هذه الفتحة الضيقة للشباك،على رأى النكتة القديمة.

فى داخل المسرح كانت الصدمة الأولى.. ففرقة رضا بصيتها وشهرتها لم تستطع أن تجتذب إلا هذا العدد الضئيل جدًّا من الجمهور الذى لم يكف لملء الـ٤ أو٥ صفوف الأولى، بينما بقية المسرح على اتساعه - وهو كبير جدا - فاضٍ تمامًا بشكل يثير الأسى.. آخر مرة شهدت فيها فرقة رضا كانت منذ نحو ١٠ سنوات، حين قدمت حفلة واحدة فى لندن بدعوة من المركز الثقافى المصرى هناك.. وكان عرضًا ناجحًا ورائعًا بكل المقاييس التهبت له أكف المشاهدين الإنجليز قبل المصريـين.. وكانت «فـريدة فهمى» وقتها لازالت نجمة الفرقة بينما كان «محمود رضا» قد اعتزل الرقص بعد أن أصبح وكيلًا لوزارة الثقافة.. ما يصحش إن السيد وكيل الوزارة يرقص..

ولمن تكن «مارجريت» قد شهدت رقصًا شعبيًّا مصريًّا من قبل، لكننى و«ثناء» حدثناها عنه وعن فرقة رضا بحماس شديد وكيف أنها ممثلة مصر الرسمية فى الرقص الشعبى وأن لها شهرة عالمية بعد أن قدمت عروضها فى العالم كله من روسيا إلى أستراليا ومن اليابان إلى أمريكا، وأن بطل الفرقة ومؤسسها وكيل وزارة قـد الدنيـا الآن، وبطلة الفـرقة تـدرس للدكتوراه فى أمريكا وتحاضر فى جامعاتها فى نفس الوقت.. ووو...

وبدأ العرض....

وظللنا طول العرض صامتين أنا و«ثناء» ومش عارفين نودى وشنا فين بعد قصائد المديح الهائلة التى أنشدناها لمارجريت عن الفرقة.. فقد كان العرض فقيرًا جدًّا وباهتًا جدًّا، وليس فيه رونق ولا بهاء ولا رشاقة ولا خفة ظل فرقة رضا التى نعرفها.. وبدت كما لو كانت فرقة كفر شلشلمون الاستعراضية ترقص فى مولد من موالد محافظة الشرقية..

وفى فترة الاستراحة أخذت «مارجريت» و«ثناء» ودخلنا إلى الكواليس لكى أحيى أصدقائى القدامى الباقين من أعضاء الفرقة: «الجداوى رمضان» مدير الفرقة الآن، وزوجته السورية «لطيفة لحام» و«فاروق مصطفى» مدربا الفرقة الآن بعد «محمود رضا».. وحين اطمأنت «مارجريت» إلى أن «الجداوى» يجيد اللغة الإنجليزية قالت له رأيها بصراحة فيما شاهدته حتى الآن ولاتظن أنه سوف يتغير فى الفصل الثانى: البنات الراقصات لسن رشيقات كما يجب أن تكون الراقصات، ولاجميلات ولا حتى وسيمات، وشكلهن بلدى جدًّا باستثناء واحدة أو اثنتين نص نص.. وهن يرقصن كما لو كن موظفات حكومة تناولن عشاء ثقيلاً قبل صعودهن إلى المسرح مباشرة، لذا فحركتهن ثقيلة، وابتسامتهن ثقيلة، وكأنهن يتعجلن موعد انتهاء العرض كى تعود كل منهن إلى أطفالها الستة فى البيت، ووو....

أتصور أن «الجداوى» قد أمر -خلسة- بدق جرس انتهاء الاستراحة بدرى عن موعده لكى يخلص من «مارجريت» ومنى...

فى الصباح طلبت «مارجريت» أن نقوم بجولة أخرى فى حدائق قصر المنتزه تراها فيها بالنهار بعد أن أعجبت بها جدا أمس مساءً.. فقمنا

بجولة طويلة لكى ترى بالنهار ما حجبه عنها الظلام والإضاءة الخافتة أمس ليلاً.. رأت القصر الذى كان يقيم فيه الملك فاروق وأسرته.. ورأت الفيلات الصغيرة الجميلة جداً التى كانت تقيم فيها وصيفات الملكة وحاشية الملك وسكرتيروه ومعاونوه.. ورأت قصر الضيافة الذى كان ينزل فيه ضيوف الملك المهمين.. وتجولنا فى الحدائق نحو ساعتين.. لكن كادت الجولة أن تنتهى بكارثة..

فى ١٧ فبراير عام ١٩٧٨ كانت الفنانة التشكيلية «مارجريت توملين» فى طريق عودتها من اليونان إلى أمريكا، وقررت أن تقضى يوماً واحداً فى جزيرة قبرص لكى تشاهدها فى جولة سريعة.. لكن هذا اليوم الواحد كان كافياً لكى تشهد فى الصباح التالى وعلى بعد خطوات منها إطلاق الرصاص على المرحوم «يوسف السباعى» ومصرعه فى بهو الفندق الذى نزلت فيه.. وكان مشهداً مفزعاً وتجربة لاتمر مرتين فى حياة الإنسان العادى.. وحين سألت «مارجريت» عن من هو وما أهميته لكى يلقى مصرعه على هذه الصورة، قيل لها إنه صحفى مصرى كبير.. وظلت هذه الصورة عالقة بذهنها فترة طويلة حتى التقينا وتعارفنا، وعرفت أننى صحفى مصرى، فحكت لى ماشاهدته وسألتنى: «هل تنتهى حياة كل الصحفيين المصريين هكذا؟!» فقلت لها: «ليس كلهم، العظماء منهم فقط» فسألتنى: «وهل أنت صحفى عظيم!؟».. واعتماداً على أنها لاتعرف اللغة العربية ولم تقرأ لى شيئاً فقد قلت لها على الفور: «طبعاً»... فظلت طوال سنوات معرفتنا تتوجس شراً من أى حد يقترب منى بشكل مفاجىء، وتتصور أنه يهاجمنى أو سوف يهاجمنى..

المهم: حين عدنا ظهرًا من جولتنا فى حدائق قصر المنتزة ودخلنا بهو الفندق، سمعت اسمى ينادى عليه فى الميكروفون الداخلى للفندق بأن أتوجه إلى مكتب الاستقبال للأهمية.. فذهبت لكى يبلغنى موظف الاستقبال الشاب بأن صديقى وأستاذى الأديب «أنور عبدالله» ينتظرنى فى صالون الفندق.. واستدرت لأتوجه إلى صالون الفندق ففوجئت بفتاة شابة ترتدى بنطلونًا أسود وبلوزة سوداء تهجم علىّ فجأة وتحتضننى بعنف وهى تهتف: «يا حبيبى يا بابا»!!.. ذهلت للمفاجأة، وتصورت أن الفتاة قد أخطأت وظنتنى أو خيل إليها أننى أبوها، فأبعدتها عن حضنى قليلاً وأنا شكلى مخضوض فعلاً ونظرت إلى وجهها متفحصًا فلم أتعرف عليها. لأنه كان واضحًا أنها لسه خارجة من البحر حالاً، لأن وجهها مبلول وشعرها مبلول ونازل على عينيها يغطى جزءًا كبيرًا من وجهها.. لكن صوتها كان يرن فى أذنى مألوفًا ومعروفًا.. وهى سعيدة تماما بحيرتى.. وحين أزاحت شعرها عن عينيها عرفتها فورًا فدخلنا فى حضن بعض من جديد فأنقذها ذلك من سن شمسية «مارجريت» التى كانت مندفعة كالصاروخ تحاول أن تطعن بها الفتاة التى ظنتها تحاول أن تعتدى علىّ!!

«نهلة»، أحب بنات الأسرة كلهن إلى قلبى وأقربهن إلى نفسى، ربيبتى، فقد تربت ونشأت فى بيتى منذ كان عمرها سنة واحدة، حتى دخلت الجامعة وسافرت أنا إلى أمريكا، وطول عمرها وهى تنادينى «بابا».. وكانت تقضى أجازة صيف بالإسكندرية، فلم تعرف بوجودى فى مصر إلا عندما سمعت اسمى ينادى عليه فى ميكروفون الفندق الذى يسمع فى كل مكان فى الفندق حتى على الشاطىء، فخرجت من البحر تجرى لكى

تلحق بى وتفاجئنى عند مكتب الاستقبال، لكنها كادت تموت شهيدة سن شمسية «مارجريت» التى لم يغب عن ذهنها حتى الآن مشاهدتها لمصرع يوسف السباعى!!

أستاذى وصديقى الأديب «أنور عبد الله» واخدنا اليوم (مقاولة) كما قال لى.. فهو (بالأصالة عن نفسه) يدعونا للغداء على أكلة سمك فى مطعم على البحر مباشرة ملاصق لفندق فلسطين، وبالنيابة عن زوجته صديقتى الفنانة «سعاد حسين» لأنها مرتبطة بشغل فى التليفزيون لم تستطع أن تتركه لتجىء لتحتفى بنا فى الإسكندرية، بلدها، فقد (كلفته) بأن يدعونا للعشاء باسمها فى نادى الصيد فى موقعه الجديد فى مواجهة قلعة قايتباى التى كنا فيها أول أمس.

قعدة الغداء على البحر مباشرة تملأ الصدر بهواء البحر المنعش ورائحة يود البحر تفتح النفس أكثر.. السمكة المشوية التى وضعها السفرجى أمام «مارجريت» قطعًا كانت صحتها كويسة جدًّا حين كانت لسه فى البحر.. سمكة هائلة الحجم تكفى أسرة مفجوعة مكونة من خمسة أفراد.. لكنها بعد خمس دقائق فقط كانت قد أصبحت أثرًا بعد عين، ولم يبق منها إلا شريط سلسلتها الفقرية بالشوك على الجانبين، وكأنها مغسولة ونظيفة وناصعة البياض!!.. ولو لم أكن أعرف أكلة «مارجريت» الصغيرة فى لندن لظننتها طول عمرها مفجوعة هكذا، لكن الجو فى مصر فتح نفسها على الآخر، وجو الإسكندرية فتح نفسها على مصراعيها، وربنا يستر فلم يبق معى – على رأى النكتة – غير عدة ملايين قليلة من الجنيهات!!

* * *

وحين أوصلنا مارجريت إلى مطار القاهرة مرة أخرى بعد انتهاء زيارتها لمصر، كانت قد قضت فيها ٢٥ يومًا أتصور أنها لن تنساها أبدًا.. فمنذ بداية معرفتنا منذ ٩ سنوات وهى تحلم بهذه الرحلة..

وبمجرد وصولها إلى بيتها فى ضاحية (ويمبلدون) فى لندن اتصلت بى فى القاهرة تليفونيا.. وظننتها تتصل لكى تشكرنى على حفاوتنا بها خلال زيارتها، لكننى فوجئت بها تسألنى فى لهفة سؤالاً غريبًا:

- حسين.. نسيت أن أسألك عن شىء ما وأنا فى مصر: هل الماء المثلج الذى عندك فى الثلاجة فى بيتك فى القاهرة من ماء النيل؟!...

قلت لها مندهشا:

- طبعًا من ماء النيل، فنحن لم نبدأ فى استيراد الماء من الخارج بعد.. لكن لماذا تسألين هذا السؤال؟!

قالت:

- هل تظن أننى شربت منه كفاية ليجعلنى أعود إلى مصر مرة أخرى، وأخرى، وأخرى، و.....

حسين قدرى

لندن - نوفمبر ١٩٩٠

فهرس

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبى العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور
الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان

شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابى	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض

رقم الإيداع	٢٦٠٥ / ١٩٩٢
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 3629 – 2

١ / ٩١ / ٢٦٣

طبع بطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

هذا الكتاب هو أحدث ما كتب الكاتب الصحفى حسين قدرى الذى يعيش فى إنجلترا منذ ١٥ سنة.. وحسين قدرى هو أكثر الكتاب المصريين إنتاجًا فى أدب الرحلات بعد أن تفرّغ تمامًا لهذا النوع من الأدب منذ أكثر من ٢٥ عامًا.. والكتاب.. يتميز بأسلوبه الرشيق المرح المشاكس الذى اعتاده القراء وأحبوه من خلال رحلاته العديدة المنشورة التى صدرت معظمها عن دار المعارف..

١٥٠ ص

